رسالة البصائر في المصائر

رسالة في الصبابة والوجد

من دفتر العشق والغربة

جمال الغيطاني

جمال الغيطانى

المجلد الخامس

- رسالة البصائر فى المصائر
- رسالة فى الصبابة والوجد
- من دفتر العشق والغربة

الهيئة المصرية العامة

١٩٨٥

الغلاف : جرجس ممتاز

الإخراج الفنى : أميمة على أحمد

رسالة البصائر فى المصائر

بسم الله الرحمن الرحيم

وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً

وماتدرى نفس بأى أرض تموت

صدق الله العظيم

ماشاء الله كان..

يومـا مـا، لحظة مـا، فى مـوضـع مـا، لاتـعـيـه الآن ذاكـرتى المجـهدة، المثقلة، وقـعت عينـاى على هذه العبـارة، لافتـة؟: ربما، فى كتـاب لا أدرى عنوانه الآن؟ : ربما، فى مدخل مسجد قديم، أو على جدار لبيت عتيق، أو حفر على مسند مقعد بال؟

ربمـا ..

لكننى أرددها دائمـا، وأخطهـا على وريقـاتى عند خلوتى، أزين كلماتها وأموج حروفـها، حقا.. ما شاء الله كان، وإلا هل يمكن لنا تبـديل مـا جرى، مـا كـان. وإن جـاز التـحـرز للآتى، وأخذ الحـوطة، مع تحسـب المفاجـأة، والمجـهول، ومـا لا ندريه، فسبـحان من تنزه عن تأثير الزمـان، وتعالى من هو كل يوم فى شأن.

فيا أهل الوقت الذى لا نـعرف من أمره شيئـا، يا أهل أزمنة لن نبلغهـا، ستقصـر عنهـا أعمـارنـا، يا من ستسـعون فى دهر

خلا منا، ومن آثارنا، وما يمكن أن يشير إلينا، يا من ستسعون فى دنيا لن نتنفس هواءها، لن نبصر مباهجها، ولن نعرف ملذاتها، يا من لم تعرفوا ما عرفناه، ولم تشهدوا ما عشناه، ولم تعاينوا ما عايناه، اعلموا أن ما مر بنا ثقيل، وأن ما عرفناه مضن، وما قاسيناه صعب، مر. هذه السبعينيات من زماننا الكدر عقد انقلاب أحوال، وأمور غريبة، وبلايا ثقيلة، وتحولات شملت جل القوم، كذا ما تلاها، وقد عاينت ذلك، قاسيته، تضاعف همى، ناء وقتى بما عرفته.

يا من ستقع أبصاركم على تدوينى، اعلموا أن انشغالى بالمصائر قديم، موغل فى مكنونى، عندما كنت صبيا، غضا بعد، لا أعى وقع مرور الأزمنة، ولا يطرقنى هاجس الموت، أو الفوت، كنت أتطلع إلى أقرانى، سائلا نفسى:

- أين سيكون كل منهم بعد عشر سنوات، أو بعد عشرين؟

وقتئذ كان العمر يبدو وكأنه ممتد أبداً، والآتى بلا حد. والنظر شاخص إلى الآتى، إلى المقبل، أما وقد مررنا بما مررنا به، وعرفنا ما عرفناه، وتبدلت أمور ظننا لن تبيد أبدا، وصار المتبقى - يقينا - أقل مما مضى، صرت أمعن النظر فيما جرى، أكثر من التطلع إلى ما سيجئ.

مرة حلقت راكباً طائرة صغيرة، مروحية، فوق جبال آسيا الصغرى، جبال لم تطأها قدم، وخيوط نحيلة من المياه ما هى إلا بدايات أنهار متدفقة، هادرة، أطلت النظر إلى مرتفعات

كردستان المكسوة بالثلوج اثنى عشر شهرا، خطر لى، عندما كنت صغيرا ألعب فى هذه الحارة القديمة من قاهرتنا القصية، العتيقة، هل تخيلت وقتئذ أننى بالغ هذه الفضاءات يوما؟، أو غيرها من بقاع قصية وصلت إليها، وجلت فيها؟. لو أطلعنى ثقة، على ما سيكون لما صدقت، كانت حدود العالم عندى وقتئذ لا تتجاوز مائة ذراع، والوصول إلى الميدان القريب يبدو مغامرة غير مأمونة، مجهولة العواقب ولكن.. ما شاء الله كان.

عندما أستعيد وجوها عرفتها فى الحارة، فى الحى القديم، فى مدرستى الابتدائية، الثانوية، تتبعى الشعاب التى سلكت، والطرق التى أدت، أتعجب، غير أننى أنثنى قائلاً، لكل وجهة هو موليها.

لكن مع حلول السبعينيات التى قدر لى أن أمر بها، أن أشهدها، لاحت المنعطفات المفاجئة، والمنحنيات الحادة، والانقلابات العاكسة، مما بدل وغير، حتى البديهيات انكفأت.

هنا.. خطر لى أن أقيد ما أعرفه، ما عاينته عن قرب، أو ما ألمت به عن بعد، أن أثبت شيئا من أخبار قوم دنوت منهم، وأحوال بعض من سمعت حديث ثقاة عنهم، أقدمت والله بدافع منى لم يطالبنى بذلك صحب أو إخوان، لم أسع بغية كسب أو شهرة، انما شرعت والقلب فيه ما فيه، وعندى أمل وتوق إلى تبدل الأحوال فى عودة الأمور إلى أصولها، واتصال المصاب بينابيعها، والأشياء إلى طبائعها، يقوينى يقينى بتبدل الأحوال،

فما من شئ باق أبدا، وكما تبدلت مصائر فى الخضم، وفنيت أعمار فى اللجة، وانقضت أوقات قبل الأوان، وهوت أغصان كان ممكنا أن تورق، وأتلفت أرحام كان ممكنا أن تفيض على البشرية بمدد، كما جرى ذلك، يمكن مع الصيرورة اعتدال الأحوال، حتى وإن لم أشهد ذلك فى وقتى ا آمل يا من لم تفدوا بعد إلى عالمنا هذا أن تبلغكم صحفى، واعلموا أننى قصصت طرفا من بعض، فلست الملم المحيط، لم أتبع منهجا مسبقا ولم ألتزم أسلوبا معينا، وربما رأى المتعجل، تباعد الحلقات، وتنائى الضفاف، أقول عندئذ: أمعن البصر، إنما أردت الإخبار عن بعض من عرفت، ليس بينهم ملك أو رئيس، أو صاحب سلطان. ممن تقلبت بهم الأحوال فجأة، ربما بدا كل منهم قصيا عن الآخر، ربما تقاطعت أحوال بعضهم، أو تماست منصائرهم فى لمح خاطف، مارق، لكن هذا ليس بالأساس، إنما رمت الإنباء عن جوهر وقت، لن يصلكم منه إلا عناوين مقتضبة، وآثار خفية لا تبين لكنها فاعلة.

اعلموا أنى آثرت الحيدة، ألا أتدخل فى العموم، لا أجاهر إلا إذا لزم التنويه، وغمض القصد، واستبهم الأمر، وإنى لطامع فى العفو عند كل تقصير يلوح، أو عند أى موضع يكمن فيه سوء فطنة، فلن يشفع لمن كان مثلى، إلا الاطلاع على أحوال نالت منى، وقصت قدرا من عمرى، ونبل نواياى، حتى وإن حادت عن قصدها الآمال، وعذرى أن الإنسان، جواب، وثاب!..

أبدأ بحكاية حارس الأثر

.. هو عاشور بن مهدى النعمانى، حارس قبة قلاوون وخفيرها، ينادونه منذ القدم «ياعم عاشور» ، حتى أولئك الذين يبدون أكبر منه سنا، هادئ، راسخ الحركات، مقتصد اللفظ، وافر الشيبة، يميل إلى بدانة، أسمر اللون، غامقه، بطىء الخطو، خفى النظر، يرتدى معطفا فوق جلباب صوفى فى الشتاء، ومعطفا من قماش خفيف فى الصيف، على رأسه طاقية، فى الشتاء وخلال الأيام الباردة التى تهب فيها رياح مثيرة للأتربة، والقشعريرة، يلف شالا حول رقبته، عندئذ تنأى نظراته، وتبدو قادمة من بعيد.

اعتاد القوم حضوره الدائم، نادرا ما يبتعد عن القبة، إذا مشى فإلى بائع الشاى الواقف بجوار سبيل محمد على باشا المواجه لجامع الناصر محمد بن قلاوون، الملاصق للقبة، يقعد فوق الدكة الخشبية، يرشف الشاى، عيناه متجهتان دائما إلى مدخل القبة، حتى إذا لمح زائرا أجنبيا أو مفتشا من رجال مصلحة الآثار، أو غريبا أيا كان، يدع ما بيده، يتجه مسرعا.

حاضر، موجود، لا يغيب عن المكان، يراه الساعون أول النهار، أو القافلون قبل المغيب، أطفال الحى اعتادوا رؤيته حتى شبوا وتفرقوا إلى الجامعات، أو المهن المختلفة، بعضهم تزوج وانتقل إلى أحياء بعيدة، إذ يرجع أحدهم لزيارة أسرته، أو يمر مرورا عابرا يقبل عليه متهللا، فلكم أثار حضوره ذكريات نائية، واستدعى من الماضى المندثر صورا شتى، وحنينا ضافيا عند من شبوا، وابتعدوا، أو أخذتهم السبل.

عرف بابتسامته، وهدوئه وصوته الذى لا تتغير درجته، وانتقال الألفة منه إلى محدثه، حتى لتطيب الوقفة معه، غير أن ما اشتهر به ملازمته للمكان، حتى ليرى عند الفجر قاعدا أمام البوابة المغلقة وحيدا تماما، فى هذه المنطقة من شارع المعز، والتى يسودها الظلام والوحشة بعد نزول الليل، فما من بيوت مسكونة قريبة، ما من محال تجارية، يتجاور البيمارستان بمسجد المنصور وقبته، ومسجد الناصر، وجامع برقوق، هذه المسافة من الشارع وحدة متضامة من زمن عتيق، مندثر، تجاهد البلى، وعاشور حارسها، يراه الساعون إلى صلاة

الفجر فى مسجد سيد الشهداء، مولانا الحسين، يحيونه ولكنهم لا يتوقفون معه، كأن خشية تدركهم، تبدو وحدته مخيفة، ولزومه المحل غريبا، حتى قيل إنه يؤاخى جنية خفية، إنه يتقن سبع لغات، وقيل أكثر، مع أنه يخط اسمه موقعا بصعوبة، وهذا ليس غريبا هنا فى منطقة يقصدها الأجانب من كل صوب، خالطهم زمنا، بعضهم عابر، يكتفى بطلة موجزة، وآخرون يجيئون للمكث أوقاتا طويلة، يبقى الواحد منهم ساعات أمام ركن قصى داخل القبة، منمنم، مزخرف، أو أمام مربع من الرخام الملون، أو لوحة خط ، أو حشوة خشبية، أو عمود سامق، يغيب أحدهم سنين ويرجع، أول مايقصد، السؤال عن عم عاشور، يسارع إلى لقائه، لكم تلقى من خطابات أرسلت إليه من بقاع شتى، كان ينتظر قدوم من يفهم اللغة حتى يقرأ له المكتوب،إنه يتكلم بالألسنة الأجنبية، لكنه لا يقرأ.

عم عاشور قديم الحضور والإقامة، له بالناس صحبة أكيدة، ومحبة، وعندهم له ود مقيم حتى وإن لم تتصل الجسور المتينة، فمع ما يصدر عنه من ود، لم يكن من السهل مخالطته، مع أنه لم يصد مخلوقا، ولم يبد الجفوة، ولم يصدر عنه اللفظ القبيح إلا مرة واحدة، وإنى لمورد تفاصيلها بعد حين.

وعندما دخلت سنة ألف وتسعمائة وست وسبعين، كان قد أمضى عمرا بأكمله وأتم الخدمة، أنهى المدة، وجب عليه أن يمضى مخليا مكانه لآخر يقوم بعمله، إلا أن رجال المصلحة

القدامى سعوا وتوسطوا، وكتبوا لمن بيده الأمر، حتى نجحوا في استصدار قرار بمد خدمته بعد سن الستين، فما من أحد يعرف القبة ومكنوناتها ويحافظ عليها مثله، ثم إنه شبه مقيم بها، وما من مكان آخر له، منذ الاربعينيات رتب له المرحوم العلامة حسن عبد الوهاب سكنا في بيت عتيق قريب، من البيوت التي ضمتها مصلحة الآثار منذ الثلاثينيات عندما كانت تعرف بلجنة حفظ الآثار العربية. بيت مواجه للقبة، على شمال السالك إلى ميدان بيت القاضي، يعرف بمنزل محب الدين، آخر من امتلكه قبل اعتباره أثرا عاما يجب المحافظة عليه، جميل الواجهة، رقيقها، متعدد الغرف والقاعات، لم يشغل منه إلا حجرة واحدة، إلا أنه لم يهمل الباقي، داوم على تنظيف الأركان القصية، والمداخل، وإزالة أعشاش العنكبوت، وما تخلفه الطيور فوق المشربيات، يكنسه مرة كل يوم ، يمسح بلاط المبنى كله صباح كل جمعة، تتصدر حجرته مصطبة حجرية فوقها مرتبة وأغطية، أما ملابسه فمصفوفة في قفة بالية عتيقة، حال لون خوصها، إنها القفة التي حملها أبوه عند نزوله مصر أول مرة، رفض أن يدق مسامير في الجدار يعلق عليها جلابيبه ومعطفيه الشتوى والصيفي، حتى لا يؤذي الأثر، لتلك القفة عنده معزة، إنها من رائحة الوالد، بل إنها كل ما خلفه له، لسبب ما لم يبح به قط ، ربما لجهله به، أو بقصد الكتمان، طفش الأب من بلدته النائية مصطحبا وحيده، نزلا مدنا لم يسمعا عنها، وخرجا من قرى في عز الليل، واقتربا من بلاد

صغيرة والغروب مكتمل، وهجا منها قبل انبلاج الفجر، حن عليهما أغراب، وتجاهلهما ذوو قربى، كان والده يخشى الآخرين، ينأى عن المجالسة، يردد دائما أن الاقتصار عبادة، لم يثق ولم يأمن إلا لشخص واحد، من عطف عليه، وأمن له لقمة العيش، من ألحقه بخدمة القبة والمسجد، وداراه فيهما، حسن أفندى عبد الوهاب، الطيب، المتواضع، المتبحر فى علمه، من يصغى إليه كبار العلماء، أجانب ومصريين فى رهبة واحترام، عليه رحمة الله، كان عند الوالد دراية بنحت الأحجار القديمة، قيل انه كان يعلم الصبية الصغار فى أقاصى الصعيد، تعب لطول هجاجه، وانتهى به تغربه إلى حسن عبد الوهاب، رجاه أن يلحقه بمكان قريب من مثوى الحسين الحبيب، وعندما استقر فى قبة قلاوون رضى وهدأ، بعد أن أمضى زمنا لا يحتويه موضع، قضاه نقالا، فى هجاج خفى الأسباب، ومما ردده عم عاشور دائما أن والده لم يفته أداء فرض واحد فى مسجد الحسين، ومهما بلغ انهماكه واستغراقه فعند اقتراب موعد الصلاة يدع ما فى يده، يتجه فورا إلى الضريح، فى الفجر يسلك الطرق الخاوية، ميدان بيت القاضى، شارع بيت المال، إذ يلوح المسجد عند المنعطف أمام مدرسة خان جعفر، يلبى، يمد الخطى منشرح الصدر، رضى البال، لم يفارق ابنه عاشور قط، يده فى يده دائما، حتى عند ذهابه لشراء طعام الإفطار، كان يخشى من شئ لم يفصح قط عنه، لكنه لم يهدأ إلا بقربه من ضريح الإمام الشهيد، هما فى أمن

مما يتهددهما ما بقيا بقربه، مرة واحدة كان يفارق فيها ابنه، مرة لاغير، إذ أنه وهب جهده صباح كل جمعة لتنظيف ميضأة مسجد الحسين، ونفض الغبار عن العتبات المؤدية إليه كان يصحب ولده، يتركه قاعدا، بجوار الضريح، يوصى عليه الشيخ الضرير، حارس المكتبة القرآنية ثم يمضى لتأدية الخدمة.

لم يتخلف قط، لم يرحل إلى أى جهة أخرى، حتى جرى ماجرى ذات نهار لم يكن على بال أو فى خاطر، لا ينساه عم عاشور أبدا، طلع الوالد إلى المئذنة العتيقة، كان عليه أن يثبت أحجارا جديدة بعد تسويتها وصقلها، وفى عتمة غير غميقة مد يدية، طالت يده حية كانت تلبد هناك، صرخ:

- «آه يابوى».

لم يحط منطقا بعدها، لم يلحقه أحد، لم يوقف سريان السم داخله أحد، لم يلحقه ترياق، ولا علاج، وعندما سكن جسده متيبسا، مزرقا، هامدا بعد طول تغرب، وخشية، بدأت وحدة عم عاشور، واكتمل يتمه، حار، ولم يدر إلى أين يولى؟ وأين يقصد، وأى باب يطرق؟ لكن حسن افندى عبد الوهاب أمن له بقاءه، وعلى يديه استقر أمره، وجرى رزقه، تعهده العالم الأثرى الطيب - عليه رحمة الله - ورعاه، أما عاشور فلزمه، وتعلم منه، وأخذ عنه ما يستعصى على الحصر، استمر بالقبة، أصبحت حدود دنياه، وخلاصة معرفته، يجول بها نهارا، ويفتش أركانها ليلا، ينقب عما يشوب نظافتها، لا يطيق عقب

سيجارة ملقى، حتى إذا توافد المغيب، وغمر الشارع ضباب شفقى، ولاح المارة كأنهم يسعون عبر أزمنة خفية ولا يقطعون مكانا، حركتهم على حدود المادة المحسوسة، تبدأ وحدته الليلية، يغلق البوابة الضخمة المطعمة بالنحاس، التى عبرت عصورا وحقبا، يبقى بمفرده داخل هذا التكوين الهائل من المعمار، يفترش الأرض وراء البوابة مباشرة، يأتنس بأصوات الطريق، وقع خطى، اقتراب مارة ثم ابتعادهم ، يميز بينها خطوات عسكرى الدورية، خطى بطيئة، أخرى حثيثة، خطى مقدمة تعرف إلى أين تسعى، أخرى وجلة، مترددة، بعضها اعتادها، أحيانا يتوقف البعض على مقربة، يتبادلون حوارا، إما محتدما اقتضى تمهلا، فوقفة، أو هامسا قبل مواصلة السير، لا يخطر ببال العابرين أن وراء هذا الباب خلف حجب العتمة تلك، من يصغى، ويحذر، ويتأهب، ويأتنس بمن لا يعرف، ولكم سمع، ولكم أصغى مستوفزا، متنبئا، لا يبدل رقدته إذا ما ابتعد الحديث عن القبة والمسجد، أتقن أصوات الطريق والمكان، اقتضى الأمر زمنا حتى يتعرف على همسات القبة، وهسهسات الأركان القصية، وطقطقات الأخشاب، لم يدرك إلا مصادر قلة منها، كذا منابعها، مساريها، مساراتها، وظل البعض مستعصيا عليه، غير مبرر، هذه الفتحات، تلك الثقوب، الكسور فى الزجاج المعشق، مرور الهواء هنا غيره هناك، وصدى الصوت القادم من بعيد لا يتشابه إذا ما تكرر، للصيف أصوات، وللشتاء أصداء، للحر ضجيج وللبرد كمون وخواء،

وغرابة أصوات وأصداء لياليه، أما إيقاع المطر فلا يتشابه، الرخة غير الهطلة، أما السيل فمغاير تماما، أضر القطر بالمبنى ما كان خافتا، رفيعا، أما الزواحف والفئران والعرس والقطط فلكل منها مجمل وتفصيل، ربما يرجع جمود ملامح عم عاشور إلى هذه الفترة المبكرة من عمره، والتى كان ينفرد خلالها بالتكوين كله، يتوحد به، ليس بالمكان المبهم فقط ، إنما بزمنه الخالى، يلملم نفسه فى العتمة ويحوم مهوماً عند حواف العصور النائية، كأن هجاجه الطويل انتقل إلى الأزمنة، على مقربة منه يرقد السلطان منصور منشئ القبة، وابنه الناصر، وشقيقه خليل، يعرف من حسن أفندى عبد الوهاب أن الناصر محمد كان به عرج، فيوشك أن يلمح ذلك، فى بقايا الرقدة الأبدية، أو فى الظلال التى تجوب الفراغ بعد اكتمال الليل، حتى بعد انتقاله إلى بيت محب الدين الذى خصصه له حسن عبد الوهاب رحمه الله لم ينأ عن القبة، كان يقوم فى عميق الليالى، يتطلع من نوافذ البيت الضيقة المغطاة بخشب الخرط الدقيق إلى القبة، إلى هيئتها الليلية المهيبة، الغامضة، إلى توحدها وانفصالها عن العتمة فى الوقت عينه، يطيل النظر ثم ينثنى إلى مرقده، أو ينزل ليتجه إلى قعدته أمام الباب، وكأن أمرا خفيا صدر إليه.

لم يكن يثق، ولم يتخل عن صمته، أو اقتصاده فى الكلام إلا عند مواجهة من عطف عليهما، من جرى على يديه رزق والده، ثم هو من بعده، العالم، العلامة، حسن أفندى، صاحب

المؤلفات الجامعة، والكتب النادرة، بعضها نفد حتى ليعد أندر من المخطوطات، يدعو له فى خلوته الليلية، وفى خضم مشغوليته.

عندما سأله عبده المزملاتى فى حمام السلطان المجاور، عما إذا كان يخشى العفاريت والجن، جاوبه قائلا إن العفاريت الحقيقيين هم بنى آدم. ثم قال إن الجن لا يؤذى مؤمنا، وإن مولانا الحسين يحمى المنطقة، وإنه وصل ما انقطع برحيل والده، فلم يتخلف عن المضى إلى الضريح صباح كل جمعة لكنس جنباته، وتنظيف الميضأة، وأضاف من عنده تقديم الماء إلى الظامئين من قصاد المولى، الحبيب.

غير أن تاجرا للفحم يقع دكانه على مقربة، وصاحب متجر يبيع أدوات المقاهى. أكدا أن عاشور يأتنس بالجن فى المبنى، وأنه يحب واحدة من الجن بعد أن تمثلت له بشرا سويا ، وأنها تتجلى له بعد صلاة العشاء، وتمضى الليل معه حتى ما قبل أذان الفجر ، عند ظهورها تتبدل القبة المعتمة حدائق غناء ، أما الأعمدة الرخامية الهائلة فتنقلب أشجارا تصدح بينها الأطيار والعصافير ، وما لا تقدر مخيلة على تصوره ، أما الزوايا المهجورة ، والمنحنيات ، والفراغات ، فتتحول إلى ممرات مفروشة بالسوسن ، وترتدى الجدران كسوة من يشب وعقيق، أما السقف فمن فيروز خالص ، هذه الجنية ترتد بكرا كل أسبوع ، وعليه أن يفتضها من جديد ، لذا يتهيأ بذهابه إلى الحمام عصر الخميس ، ليزيح عن جسده ما علق به ، حتى

يلقاها نقيا ، ليليق بعروس دائمة التجدد، أكد تاجر أصله أعجمى متخصص فى التنباك أنه يكتنز عطايا من الذهب ، خبأها فى مكان مستور .

يبدو أن ما أشيع عنه لقى من صدقه ، إذ جاءه موظف حكومى نحيل يسكن ناحية الخرنفش ، رجاه التوسط عند أهل بيته من الجن حتى تعد له عملا يقوى به أمره على أداء واجباته تجاه امرأته ، أدركه وهن ، وأم البنين لا تطلب ، تستحى ، لكنه لا يقدر على مواجهتها، كل ما لجأ اليه من وصفات ودهون ومعاجين لم يصلح عطبه. كذا جاءته شابة جميلة، ممتلئة قليلا، طلبت التدخل من امرأته الجنية ليتبدل حظها المائل ، تزوجت مرتين ولم تعمر ، أخشى ما تخشاه أن يتم طلاقها فى المرة الثالثة ، مع أنها كاملة ، لا ينقصها شىء كامرأة تعرف واجباتها تماما ، والنساء يغرن منها .

جاءه آخر من حى القلعة، رجاه أن يوسط جنيته لتوقف موت أولاده، أن يمده بحجاب منها، أنجب ستة رحلوا كلهم ، أطولهم عمرا لم يتم العامين ، رجاه بحرارة ، بل انه انحنى ليقبل يده .

أصغى الى ما طلب منه ، قابلهم بصمت حائر ، النفى لا يجدى ، يزيد اليقين ثباتا ، كذا الصمت، يتطلع اليهم ساكن التعابير ، حتى ظن بعض من لجأوا اليه أن به مسا ، أو أن أمرا من الجن صدر إليه يحرم عليه المجاوبة .

يقعد صامتا ، متوحدا ، فوق حجر قديم ، عاقدا يديه أمام صدره، إنها هيئته التى اعتادها المارة ، وأهالى الناحية ،

بعضهم يحييه بسرعة ، وآخرون يحيدون ليصافحوه ، جيرانه الأقربون نهاريون فقط ، أصحاب المتاجر القليلة الواقعة فى جزء من الجهة المقابلة ، أو على جانبى الطريق المؤدى الى ميدان بيت القاضى ، أقرب منزل مسكون قرب مدخل حارة الخرنفش .

أحيانا ينتقل إلى الرصيف المقابل ، يرفع بصره إلى الواجهات الشماء السامقة للقبة، والمساجد المتجاورة، يطيب له تأملها ومداومة النظر إليها ، أوقات يرصد الظلال، يركز الذهن والنظر لإدراك حركتها وتحولها، تلك لحظات قال عنها وتحدث للمرحوم حسن أفندى عبد الوهاب لا يدرك فيها الزمن، ولا ينتبه إلى أقرب الناس ، حتى لو وقف على رأسه زاعقا ، أما إذا تعكرت خلوته بتلك الواجهات فهذا أمر فيه الكدر كله .

كان عم عاشور قليل اللفظ ، مقتصد الكلمات ، يصغى طويلا ويتحدث قليلا ، إلا عند شرحه لتفاصيل القبة ، يتدفق ، يدركه انفعال فيشد به محدثه ، أو يأخذ بذراعه ليسدد البصر هنا أو هناك ، وهذا لم يكن ليبدأ إلا إذا لمح اهتماما حقيقيا ورغبة أكيدة فى الفهم ، حتى قيل إن رؤية القبة بصحبة عم عاشور شىء ، والفرجة بدونه شىء آخر ، عالم إنجليزى شهير ، تخصص فى العمارة الإسلامية ، هو العلامة كريزويل، قال عنه : عاشور لسان الحجر ، لكل نقش عنده معنى ، مغزى ظاهر ، وآخر باطن ، فالخطوط لم تتقاطع مصادفة والدوائر لم

تكتمل عبثا ، ينبه إلى الصمت القديم ، والضوء الملون ، إلى اتصال مركز القبة السامق بمنتصف مدفن السلطان وأولاده، اعتاد الوقوف بمفرده فترات طويلة شاخصا إلى الارتفاع الساحق ، إلى النوافذ المغطاة بالجص والزجاج الملون قرب المنتهى ، منها تنفذ حزم الضوء وتتقاطع عند توسط الشمس للسماء ، أما الفتحات الثمانى فيتسلل الضوء منها مائلا ، تتلاقى أطرافه عند خشب الضريح المرمرى ثم يتراجع منسحبا خفية ، لعم عاشور تفاسير شتى لحركة الضوء ، لامتزاج ألوان الطيف وتفرقها ، ينبه الزائرين إلى أن الأمر ليس مصادفة ، يؤكد أن القبة فى الصباح غيرها عند الظهر ، أما القبة ساعة الغروب فتكون مغايرة ، حتى إذا ما اكتمل الليل بدلت تبديلا .

احترمه علماء المصلحة القدامى ، ألم يصحب حسن عبد الوهاب ، وكريزويل الإنجليزى ، وفييت الفرنسى ، الا أن معظم هؤلاء مضوا ، إما بالتقاعد الحتمى، أو السفر إلى البلاد العربية، أو بالرحيل الأبدى ، رحمة الله عليهم أجمعين ، جاء شبان حديثو الخبرة ، شاحبو التجربة ، لو تزوج لأنجب من يتجاوزونهم عمراً ، يبدأون الشرح ، كأنهم يعيدون باللفظ ما قرأوه فى الكتب أو ملفات المصلحة ، يصغى معتصما بصمته، لا يتدخل إلا عند سماعه الخطأ الفادح ، يسر به ولا يبديه علانية حتى لا يحرج المتحدث إذا كان يصحب ضيفا غريبا ، بعضهم يصغى ، يحرص على الاستيعاب ، وأغلبهم يبدى

اللامبالاة ، بل الجفوة ، أمثال هؤلاء لا يخطو معهم خطوة ، إنما يرقبهم من بعيد ، وبعد انصرافهم يسترد قعدته، عند مدخل القبة شاخصا الى الواجهة الجصية ، أندلسية النمنمة ولتلك عنده منزلة خاصة وهوى .

فى رقادة الليلى يستعيدها جزءا ، جزءا ، أحيانا يمسك قلما ، يرسم النقوش من الذاكرة فلا يخطىء ، أحيانا يطيل الوقوف أمام الضريح المحاط بمقصورة من الخشب المخروط ، ينتهى الشاهد بعمامة رخامية مستطيلة ، تتوسطها ريشة مشرعة ، يصغى كأنه يحاول رصد دبيب العدم .

وقفاته وسكناته تلك ، رسخت عند البعض إلى حد اليقين صلاته بالجن ، لكن لم ير أحد منه شذوذا ، أو تصرفات غير محمودة ، ويخرج من القبة إلى بيت محب الدين عند الغروب ، وقد يوسع خطاه قاصدا مسجد الإمام الحسين ، لا يلحظه أحد عند رواحه ومجيئه كالظل الذى يغطى الطريق ثم ينحسر، غير مرئى فلا يدرك غيابه إلا بعد تمامه، يظهر أحيانا أمام القبة، كأنه يولد من الظل، لمظهره عتاقة الموقع، يبدو من زمن مغاير مع أن الأوان واحد، والوقت لازم، لا يذكر أحد أنه خاض مشاجرة أو اشتبك فى عراك، إلا أن عبده المزملاتى، وآخرين، لا ينسون أبدا ما جرى منه فى ذلك اليوم البعيد.

حدث أن جاء رجل يرتدى الملابس البلدية، مستطيل الوجه، كث الحاجبين، هذا ما تبقى منه عند عم عاشور خلال السنوات

التالية، سلم وقعد إلى جواره، غير مبال بالتراب، قال إنه سمع عن عاشور، لكنه لم يكتف، إنما تابعه عن بعد، وعن قرب، حتى أنه يعرف عنه أمورا شتى !

هنا ابتسم الرجل، إلا أن عم عاشور بدا غير منتبه، غير مهتم، قال الرجل إنه سيدخل إلى الموضوع مباشرة.

بدون لف أو دوران، يعرض عليه مائة جنيه، ورقة واحدة، سيدفعها إليه بمجرد سماعه لفظ القبول، إنه يثق به، ما يطلبه باختصار، حشوة من الرخام الملون، مساحتها خمسون سنتيمترا مربعا لا غير، إنها فى الركن الشمالى، موقعها معتم، وجودها مساو لغيابها، واكتشاف اختفائها صعب، ومع ذلك سيتم تركيب بديل لها، الزخارف هى هى، الرخام هو هو، مستحيل اكتشاف التغيير، كل المطلوب منه غض النظر عن دخول رجلين بعد الغروب، عملهما سيتم بسرعة، وصمت، فى وقت وجيز، إنهما خبراء فى فك الرخام ، لن يشعر أحد، لن يدرى إنسان، ها.. ما رأيك ؟ جرى ذلك فى أواخر الأربعينيات، ذات شتاء، بدا وجه عم عاشور فى الضوء الرمادى غامضا، غير موح بما يدور داخله أثناء الإصغاء، إلا أنه ردد بعد انتهاء الرجل :

- مائة جنيه.. مائة جنيه ؟

أكد الرجل :

ـ نعم، والمبلغ فى جيبى الآن.

على مهل استدار عم عاشور، بدت سمرته وكأنها قدت من ظلال القبة، رفع يديه، لم توح هيئته بما أقدم عليه بعد لحظات، إذ أطبق براحتيه على عنق الرجل، قام واقفا ليتمكن، تبدلت معالمه، تقلصت، بدا قاسيا، ذا حضور مفاجئ، مغاير لما كان يبدو عليه دائما، كأن آخر حل محله، زعق مرددا:

ـ ياكفرة.. ياكفرة.

جحظت عينا الرجل، تدلى لسانه، وتباعدت ثناياه، انفرط عقد ملامحه، ولولا مرور ثلاثة من تجار الخيش بالخرنفش، وبائع عصير السوبيا لاكتمل الموت، أحاطوا بعاشور، صاحوا به أن يخزى الشيطان، أن يذكر الله، بذلوا ما عندهم من جهد وقدرة، حتى عندما توسلوا إليه، لم يفلحوا، ولكن عندما قال أحدهم:

ـ وحياة أبوك ياشيخ.

عندئذ التفت اليهم متعبا، متخليا عن حنقه، مشمئزا، لم يدر أحد كيف اختفى الرجل الذى ولى هاربا وكأن أرضا انشقت وبلعته.

قال عم عاشور فيما بعد أن ما حيره، كيف عرفوا أن ما يؤثر فيه هو ذكر والده، التوسل بسيرته عنده، مع أنه لم يتحدث

إلى أحدهم، لم يسع إلى متاجرهم، تردد.. هل يبلغ الشرطة؟، لكنه لا يعرف الرجل، غير أنه أفضى بما جرى إلى حسن أفندى عبد الوهاب، أثنى عليه، أوصاه باليقظة، هذا يعنى أن القبة منظورة والعيون عليها، لكنه نصحه بالتروى فى المرات القادمة، لو قتل الرجل لراح على نفسه، إنه لا يريد ابدا أن يراه فى السجن.

أومأ برأسه مرات، ما يقوله حسن أفندى لا يناقش.

غير أنها ليست المرة الأولى التى بلغ فيها هياجه المدى، بعد سنوات عديدة من هذه الواقعة، فى نهاية الخمسينيات، فوجئ المارة وأهالى الحى الذى تزايد زحامه، وقامت فيه عمارة جديدة عند مدخل الخرنفش، الوقت قرب حلول العصر، ارتفع صوت هائل، غاضب من داخل الممر المؤدي إلى القبة والمسجد، يصاحبه صراخ امرأة، فوجئوا بعم عاشور يدفع رجلا أجنبيا أمامه، يمسك به بيده اليسرى وقد لوى ذراعه خلف ظهره ورفعها حتى توشك أن تدنو من رقبته، أما يده اليمنى فتنهال بالصفع على القفا الذى انحسر عنه القميص، أما ما أذهل القوم، فرؤية الأجنبى بدون بنطلون، نصفه الأسفل عار تماما، حتى لاحظ البعض أن عضوه بدون ختان، خلفهما تعدو امرأة تصرخ بلغة غير مفهومة، بينما يداها تحاولان إحكام قميصها المفكوك.

والحكاية أنهما جاءا كغيرهما من الأجانب الذين يقصدون القبة للزيارة، رافقهما داخلها، وعندما أنهيا جولتهما أبديا

الرغبة فى الصعود إلى المئذنة، وافق على مضض، صحبهما إلى الفناء الخلفى الذى يبدأ منه السلم المؤدى إلى سطح القبة، ومن هناك تبدأ قاعدة المئذنة حيث الدرجات الضيقة الملتوية التى تصل إلى الشرفة الاولى، كان عم عاشور قد تقدم فى السن، صارت حركته أبطأ، وبدأ الشيب فى فوديه ومقدمة شعره، طلوع هذه الدرجات كلها يكلفه من أمره تعبا وكدا، قال إنه سينتظرهما عند بداية الدرج، وشرح لهما الوصول إلى داخل المئذنة، ويبدو أن هذا عين ما أراده الأجنبى، إذ هز رأسه مرات شاكرا، وأسرع يتقدم صاحبته بعد أن أخرج ورقة فئة الخمسين قرشا دسها بسرعة فى يد عم عاشور، اختفيا، ولكن بقى عنده ما يريب، هذه اللهفة التى بدت عليه، وإظهاره النقود، عم عاشور هادئ دائما، وهدوؤه هذا يطال ردود فعله، لكنه عندما استعاد آخر نظرة رآها فى عينى المرأة توجهت بها إلى الرجل، غلى الدم فى عروقه، صعد السلم وثبا، وعندما وصل سطح القبة المشرف على أفق المدينة كان يلهث، إلا أنه لم يعبأ، قرب الشرفة الدائرية الأولى للمئذنة رآهما، كان الرجل يتأهب منحنيا، بينما قعدت المرأة بين ساقيه النحيلتين العاريتين وكأنها تتأهب لحلبه !

فى المئذنة يا أولاد الكلب.. فى المئذنة..!

هذا ما ظل يردده طوال دفعه الرجل عبر الطريق المؤدى إلى ميدان بيت القاضى، وما سمعه منه أصحاب وعمال دكاكين

الموازين، وعبده الحلاق، وجنود نقطة المطافئ، والعابرون الشتى، لم يتوقف ولم يكف الا داخل القسم.

فيما عدا هاتين الواقعتين، لم ير منفعلا، ولم ينطق بسباب، لم يخض مشاجرة، لم ير إلا ساعيا بين بيت مسحب الدين والقبة، أو متجها إلى ضريح الإمام الشهيد، ظهر الجمعة، بعد الصلاة يتناول غداءه من الطحال المقلى فى مطعم قديم يقع فى مواجهة فندق الكلوب العصرى، لم ينقطع عن عادته الأسبوعية تلك إلا مرة واحدة فى بداية الخمسينيات، عندما امتنع عن الزاد أسبوعا كاملا إثر رحيل العالم العلامة حسن أفندى عبد الوهاب، أسبوع قضاه متواريا، قاعدا وراء الباب الرئيسى للقبة، ذاهلا لا يجيب على أحد، لا يهتز منه طرف، حتى عندما جاء عالم الآثار الإنجليزى، وقف أمامه، لم يبد عليه أنه لاحظه، من عينيه تطل دمعات، ويبدو أن العالم الأجنبى أدرك مقدار حزنه، ربت على كتفه، وابتعد، خشى عبده المزملاتى عليه، فرجاه أن يبكى، أن يلطم، أن يصرخ، ولكن استمرار الصمت مخيف، فمن الحزن ما قتل، بعض أبناء المنطقة لم يدركوا أمره، فسروا صمته، وسعيه الهادئ، وبقاءه أمام القبة جامدا، صامتا، حزينا بأن مسا أصابه من امرأته الجنية التى يخاويها.

فى تلك الفترة بدأ اهتمام أم خيرية به، هى امرأة دمياطية، بيضاء، فارهة، ممتلئة، تقطن غرفة فى حارة الصالحية القريبة،

برقعها لا يخفى ملاحة وجهها، خاصة عينيها المكحولتين المدثرتين بالأنوثة، أودعتهما كل ما تضج به من فورة، وما تخفيه الثياب من فتنة، ورغبة، تقترب من الأربعين، وحيدة، فردانية مثله، ترملت فجأة، كان زوجها يبيع الكشرى أمام مدرسة خان جعفر للصبية، شوهدت تقف معه، تجيئه بأطباق، وأحيانا براد الشاى، تقعد إلى جواره أمام القبة، لم يستمر ترددها عليه، انقطعت فجأة، يؤكد عبده المزملاتى أن الرجل زاهد فى النساء، ربما بتأثير الجنية التى تزوجته، يقول إنه شاهد بنفسه ذكره، يفوق التصور فى طوله، ما يقارب نصف المتر، ومما يروى فى المنطقة ان امرأة أجنبية جميلة جدا، جاءت إلى القبة بمفردها للفرجة، صحبها، فمنذ حادثة الأجنبى ورفيقته لا يدع أى إنسان مهما كان يتجول بعيدا عنه، ويبدو أن حالة من الشبق المتفجر اجتاحت المرأة داخل فراغ القبة الذى يفيض بالموت والعدم، بدأت بإمساك يده، ثم دنت منه، ومالت برأسها على صدره ، قالت بالعربية الركيكة..

- حبيبى !

الا أنه دفعها، وابتعد خارجا.

المؤكد أنه لم تشاهد أى امرأة داخلة إلى بيت محب الدين، إذ يمضى فى مطالع النهارات إلى القبة حاملا المفاتيح الضخمة، كان بعض أصحاب الدكاكين يتابعونه صامتين، تساءل بعضهم عن حقيقة عمره، أكد بعضهم أنه محال إلى

التقاعد منذ زمن، ولأسباب عديدة اعتبروه خارج اللوائح، قدامى مفتشى المصلحة يتباركون به، بعضهم يستمد معلومات معينة خاصة بآثار المنطقة، عدد من الباحثين أصغوا إليه، واستوعبوا ونقلوا عنه.

سنوات عديدة مضت على مجىء هذا الرجل الذى عرض عليه مائة جنيه فى الزمن القديم، أمور تجل عن الحصر تغيرت، حتى القبة والمسجد، إذ جرت ترميمات عديدة، وأقيم حاجز حجرى يمنع تدفق مياه الأمطار والمجارى إلى الجدران، أغلق المدخل المؤدى إلى السطح والمئذنة، ونشرت الصحف التحقيقات عن ارتفاع منسوب المياه الجوفية مما يهدد المبانى القديمة فى المنطقة، أقلق هذا عم عاشور، وصار يسأل المفتشين فى كل مرة يجيئون فيها، وهل صحيح أن منسوب المياه إذا انخفض سيهدد أيضا سلامة البناء، صار لا يكف عن الطواف، ينحنى مدققا النظر، يضرب الحجر بقبضته كأنه يختبر أمرا ما، غير أن ما لحظه البعض خاصة من القدامى، الذين اعتادوا رؤيته منذ زمن بعيد، نحوله، بطء خطواته، وارتفاع صوت تنفسه، وتثاقل نطقه، وامتزاج سواد عينيه ببياضهما، أصبح أيضا يتغاضى عن صحبة الزائرين، بل أنه لم يعد يفارق مكانه عند المدخل إلا لحظة دخول رجل وامرأة إلى القبة وانفرادهما، أما معظم وقته فكان يقضيه شاخصا إلى الواجهة الأندلسية.

سنوات عديدة تقع ما بين مجىء الرجل الغريب الذى عرض

عليه مائة جنيه رشوة فى زمن كان فيه الجنيه جنيها بحق، يمجىء هذا الشاب فى صباح باكر، إنه ممتلئ قليلا، يرتدى نميصا وبنطلونا، يدخن سيجارة، قدم نفسه قائلا إنه محمد حلاوة، ابن حلاوة بائع الكهرمان.

«أعرف أبوك، رحمه الله، عدسه لا ينسى، لم آكل مثله».

بدا الشاب مسرورا مع أنهم حذروه منه، أشار إلى الرصيف المقابل حيث سبيل خسرو باشا، قال :

ـ «كنت أقف إلى جواره، أغسل الأطباق فى الجردل..»

تطلع عم عاشور إلى حيث أشار، لامس ذقنه بأطراف أصابعه، هازا رأسه، ارتد إلى صمته، كأنه نسى وجود الشاب، غير أن هذا تجاهل الشرود والانصراف عنه ، استمر يتحدث وكأن ما بينهما متصل ، لم ينقطع، قال إنه يجىء بلقمة حلوة، رزق من السماء ، مكسب كبير لن يكلفه جهدا.

توقف لحظات ليرى رد الفعل، ولما رأى صمت عم عاشور، استمر قال إن زوار القبة من الأجانب كثيرون، هؤلاء يحتاجون إلى تغيير ما معهم من دولارات، أو استرلينى، ما عليه إلا أن يأخذ ما معهم من عملة، ويقدم إليهم الجنيهات، يعنى بيع وشراء، وله نسبة يتسلمها منه مساء كل يوم، طبعا.. ليس هناك مكان هادئ وبعيد عن العيون مثل داخل القبة.

كف الشاب، تركزت نظراته على يدى عم عاشور، كأنه يعد العدة، ربما حذره أحد منهما، الا أن اليدين بقيتا هامدتين، استمر، قال إنه سيبدأ من الغد، سيجيئه بخمسمائة جنيه ليبدأ

العمل، أما الأسعار فسيبلغه بها صباح وظهر كل يوم، وإذا حدث طارئ مفاجئ ارتفاع أو انخفاض، سيسارع إليه، السوق متقلبة، قال إنه قريب هنا في خان الخليلي، عند مدخل السوق من ناحية الصاغة، وإذا فوجئ بمبلغ كبير يمكنه في دقيقة أن يأتي إليه، المهم أن يعرف من الآن كيف يميز بين الورقة الصحيحة والزائفة.. خاصة فئة المائة.

متمهلا يستدير، يتأهب الشاب، للرجل تصرفات غريبة، حذروه منها، بقاؤه وقتا طويلا بمفرده داخل القبة التي ما هي إلا مدفن هائل، معاشرته الجن، إلا أن ملامحه بقيت هادئة، ويداه مبسوطتان، نائيتان ، وبقدر ما شعر الشاب براحة، بقدر ما رغب في الضحك، عندما نطق عاشور متسائلا..

- «والبوليس؟؟».

حاشيـــــة ـ ١ ـ

لماذا؟

لماذا قبل عم عاشور أن يقترب على مهل من الأجانب الذين كثر ترددهم على القبة فى السنوات الأخيرة، ويقول همسا بالإنجليزية:

ـ «تغير دولار ؟»

حيرنى هذا، خاصة أن الرجل أوشك على أن يوفى المدة، بعد عمر طويل آثر فيه الصرامة مما كان مبعث حكايات تبدو أحيانا غير واقعية ؟

هل كان فى حاجة ؟

أبدا..

أقول هذا وأنا على ثقة، سكنه لا يدفع مقابله قرشا، ما يتقاضاه يكفى وزيادة، هل أدركه ما جرى فى الواقع الأعم من متغيرات، لكن.. كيف وقد كان يبدو فى معزل عما يحيطه، يصغى إلى أفدح الأنباء فلا يعلق، ويسمع ترديد جيرانه لأجل الحوادث فلا يأبه، لا يبدو عليه الاهتمام، لماذا صار يقترب من الأجانب وفى ملامحه ما ينم عن طلب الهبة، وهذا ما لم يقبله قط من قبل. يغض الطرف عن دخول الذكور والإناث، لا يتبعهم، ولا يستثيره غيابهم بالداخل، وإذا تبعهم فلمسافة قصيرة عبر المدخل، وليسألهم عما إذا كانوا راغبين فى تغيير العملة.

حيرنى هذا، ولولا أنى أشهدت الرجل عن قرب لما صدقت، فلم أذكر شيئا فقط على سبيل المبالغة، بل إن كل ما قلته عن مشاهدة، وما لم أحضره ولم أعاينه نقلته عن ثقات، وربما حذفت بعضه طلبا للإيجاز .

لكن..

مالى أبتعد، مالى أمعن فى حيرتى، ألم أرقب بعينى ما جرى لذلك الطبيب، ذلك أنى سكنت زمنا فى بيت قريب من وسط المدينة، أول شارع الجيش، حيث تنتهى القاهرة القديمة، وتبدأ مبانى القرن التاسع عشر المطلة على ميدان العتبة الخضراء، وإن كانت تلك ماضية إلى زوال، وكان أول ما

اختفى منها مبنى دار الأوبرا الجميل، الهامس القديم، المكنون، والذى احترق عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين، التهمه حريق مدبر وبكاه من لا حصر لهم، ومكانه الآن جراج متعدد الطوابق، وإنى لمخبر، محدث عن سائر هذه المبانى فى رسالة أفردها لموضوعى الزوال والبقاء، فالمجال يضيق الآن.

كان سكنى يتوارى فى طريق ضيق متفرع من شارع الجيش، كنت فى الطابق الثالث، أما هو فكان يشغل شقتين متواجهتين فى الطابق الاول، اتخذهما عيادة لاستقبال مرضاه، لم نلتق إلا مصادفة عند صعودى أو نزولى، هو طويل القامة، نحيل جدا، وسمعت أنه كان لاعبا ماهرا فى فريق كرة السلة الجامعى، ابن أسرة رقيقة الحال، شقى والده طويلا حتى أتم تعليمه وتخرج طبيبا، افتتح هذه العيادة بعد عامين من إنهاء دراسته، وجعل قيمة الكشف نصف جنيه فقط، وهذا أقل من أى طبيب فى المنطقة، قال أكثر من مرة أنه نشأ فقيرا ، ولولا كد والديه لما أمكنه إتمام تعليمه، يعمل أبوه كاتبا عند أحد تجار حقائب السفر فى الدرب الجديد المتفرع من سوق الموسكى، لم يمض وقت طويل حتى اشتهر أمره فى الموسكى، والعتبة، وباب الشعرية، وصار المرضى يجيئون إليه من مناطق نائية، لما عرف عنه من حسن مقابلة، ولسان حلو، وقدرة على وصف العلاج السديد، وتقدير لأحوال الخلق، حتى أنه كان يعيد قيمة الكشف إلى من يشعر بوهن قدرته، ورقة حالته، بل كان يقدم الدواء مجانا إلى أمثال هؤلاء، وكان يصر قائلا إنها

العينات المجانية التى ترسلها إليه شركات الأدوية، لم يعرف عنه أنه تأخر قط فى تلبية أى حالة عاجلة، طارئة ، ليلا أو نهارا، هكذا أدركته، وسمعت عنه، حتى قال لى من أثق به إن ثمة فرصة أتيحت له لافتتاح عيادة بالدقى، فى عمارة حديثة، شاهقة، يمكن للواقف بشرفاتها أن يرى النيل، لكنه أبى مفارقة المنطقة القديمة، والناس الذين اعتاد عليهم كما قال.

متى بدأ اهتمامه بالأراضى الفضاء، والعقارات ؟

الحق أننى لا أدرى على وجه التحديد، لكن كل ما لاحظته وقع بعد هدم هذا البيت، إذ كان يقوم عقار قديم من طابقين، تحته مصنع للحلوى الطحينية، جاء عمال صعايدة يوما ورفعوا معاول الهدم، حتى تمت تسويته بالأرض خلال أسبوعين لا غير، ثم أحيطت المساحة الفارغة بسور قصير من الطوب الاحمر، وعلقت لافتة تقول إن الأرض ملك لسيدة، ذكرت اسمها، وعنوانها بكوبرى القبة، لكن لم تتضمن اللافتة أى رغبة للبيع أو التصرف فيها، بقيت الأرض خالية ما يقرب من عام، أوى اليها بعض المشردين، وامرأة عجوز كومت فى أحد الأركان عددا كبيرا من صناديق الكرتون الفارغة، ولافتات من قماش كانت معلقة خلال الانتخابات النيابية، أما تجار الموز الذين يقفون بعرباتهم قرب سوق البضاعة المستوردة، فاتخذوا من الركن المقابل ما يشبه المخزن للموز الأخضر، وغطوه بمشمع قديم، كما اعتاد صاحب المصبغة البلدية المجاورة إلقاء

صناديق المصبغة الفارغة، وبدأ بعض أبناء الشارع يلقون القمامة فى الخرابة كما أطلق البعض على المساحة الخالية.

لكن قرب انتهاء العام الأول المنقضى على هدم البيت، ظهر سمسار نوبى يسكن فندق البرلمان القديم بميدان العتبة منذ عدة سنوات، ويجلس عند مدخله، حيث يستقبل عملاءه، أولئك الراغبين في البيع، أو الباحثين عن قطعة أرض، أو مسكن للايجار، ونظير أجر معين يدفعه لإدارة الفندق علق لافتة صغيرة:

« سمسار أراضى وعقارات، شقق للتمليك، للإيجار، دكاكين وخلافه ».

شوهد النوبى فى شارعنا الضيق، كان يصحبه أحد أبناء السيدة مالكة الأرض، وفى اليوم التالى قيل إن الطبيب، ابن الحى، اتصل بالمرأة، وعرض شراء الأرض، ثم شوهد فى الأيام التالية يقف إلى جوار النوبى، ويدوران فى المساحة الفسيحة.

بدلت اللافتة بأخرى تحمل اسمه، وتعلن عن إنشاء برج السعادة، مكاتب، شقق فاخرة، تشطيب فاخر، واجهات الومنيوم، حمامات سخن وبارد، أرضيات مفروشة بالموكيت، الاتصال بالطبيب مباشرة، كتب رقم التليفون، أما الوسطاء فيمتنعون.

أزيل الموز، والقمامة، والفوارغ، أما المرأة العجوز فرحلت منذ مدة إلى حيث لا يدرى أحد، ثم ظهرت آلات المقاولة، أدوات حفر، وماكينات صغيرة، وآلة لشفط المياه الجوفية التى ظهرت بمجرد بدء الحفر خضراء قاتمة، جاء رجل صعيدى، كوم عبوات الأسمنت الخام على هيئة جدران، وبسط ألواحا خشبية كسقف، وعلق ملاءة من قماش لتحجب عيون المارة عن الداخل عنه وعن امرأته الشابة التى تحمل طفلا رضيعا، لم تتأخر أعمال البناء طويلا، إنما بدأت فور شفط المياه الجوفية، وتكسية الأرض بمادة سوداء تمنع رشحها، قامت بذلك شركة مختصة.

فى هذه الفترة اعتدت رؤية الطبيب، يقعد نهارا فوق مقعد بدون مسند، يتابع ما يتم، أو يصدر تعليمات لهذا أو ذاك، وبين الحين يقوم ليمر هنا أو هناك، ويمسك الدعائم الخشبية بيده، كأنه يختبر متانتها، ثم سمع صوته مرتفعا، صاخبا لأول مرة، وكان يزعق مهددا أحد العمال بسبب إهمال ما، ثم أصبح عاديا رؤيته جالسا وإلى جواره النوبى، وثالثهما أحد الراغبين فى الاستئجار، أو مقاول البياض، أو الكهرباء، أو متعهد أعمال السباكة، ومما قيل إن الطبيب أسفر مبديا مهارة غير عادية، فهو يشرف على كل كبيرة وصغيرة، الخامات يذهب ليشتريها بنفسه، وحساب المقاولين يناقشه آخر النهار، مستعينا بآلة حاسبة صغيرة، وكان إذ يجادلهم يرفع صوته، ويلفظ جملا فى صيغ استفهامية، أو استنكارية، ويناديهم بما اعتاد العمال أن ينادوا بعضهم البعض، كان يقول :

ـ «افهمنى ياحلاوة».

أو :

ـ «اسمع ياعسل..»

وأحيانا كانت مناقشاته تحتد حتى ليسمع صوته فى الطوابق العليا، برغم ضجيج التليفزيونات، والمقهى، وأصوات السيارات والشارع القريب، أما فى الصباح فكان يقعد لاستقبال الراغبين، القادمين بصحبة النوبى، قعدته المفضلة صارت إلى هذا الرجل، النحيل، الأسمر، الذى لا يفارق معطفه صيفا أو شتاء، وثق به، وأعطاه سره، وعندما جاءه التمورجى الذى يعمل معه منذ سنوات، وأخبره برغبة أحد الأثرياء من بلدته فى استئجار شقة، طلب منه أن يتكلم فى ذلك مع النوبى، لم يشك التمورجى فقط منه، إنما كل من عمل فى هذه العمارة التى قامت خلال أقل من عام واحد منذ دق أساساتها، شكوا إصراره على مناقشة كل شئ بنفسه ومراجعته الفواتير بدلا من المرة عشر، واشتراطه استخدام آلات معينة، أصبح من المعتاد أن يقضى ساعات النهار كلها فى الشارع، وعندما بدأت أعمال البياض وتشطيب العمارة بدل ملابسه، ارتدى الجلباب وطاقية بيضاء صغيرة مخرمة، فى نهاية اليوم عند اتجاهه إلى العيادة يبدو مرهقا متعبا، لم يعد يقضى أوقاتا طويلة فى الفحص، ضاعف من قيمة الكشف، أصبح جنيها، اعتذر للخلق بسبب ارتفاع الأسعار، قال لبعض المقربين إن

بناء العمارة كلفه الكثير، وإنه من الأفضل للمرء شراء قطعة أرض وتركها مدة، ثم بيعها، الأسعار تتضاعف، أما البناء فيقتضى جهدا، ومتابعة، اعتاد الناس مجيء النوبى، ظهوره فى العيادة المزدحمة، اتجاهه إلى غرفة الطبيب، كان يدخل فى أى وقت، ويقضى ما شاء من وقت، ثم ينصرف متمهلا، غير مبال بضيق الذين طال انتظارهم، ومما تردد أن النوبى أتى بفرصة نادرة، قطعة أرض بناحية العباسية، وعلى الطريق الرئيسى، تباع لظروف استثنائية، وأن الطبيب اشتراها بالفعل، وانه يتفاوض حول مساحة أخرى بمدينة نصر، وأن كلاما يجرى حول مخزن أخشاب كبير بشبرا، بل أكد البعض أنه اشترى مصنعا للحلوى الطحينية أوشك صاحبه على الإفلاس بسبب دين ثقيل، كل يوم صار يخرج بصحبة النوبى، ويقال انه هو الذى أشار عليه بضرورة الحج إلى الأراضى المقدسة، حتى يناديه الخلق يا «حاج» وهذا ما صار بالفعل، انقطع عن فحص المرضى، لكنه لم يغلق العيادة، إذ بدأ شاب يتردد عليها، أحد الخريجين الجدد، ظهر أثناء سفره لتادية الفريضة، ظن الناس أنه يشغل الموقع الشاغر لفترة، لكنه استمر بعد عودته، لم يعد صاحبنا يظهر فى العيادة إلا نادرا، وإذا شوهد فآخر الليل، يمضى محييا هذا أو ذاك، ويناديه الجيران:

- «تفضل ياحاج..»

فيلتفت بقوامه الذى امتلأ محييا، ثم يمضى بخطاه التى صارت أبطأ، أما أنفاسه فأصبحت تسمع خلال لفظه الكلمات، يجلس تحت العمارة فوق دكة مستطيلة، أحيانا يعلو صوته محتدا، وقسمه بالأيمان المغلظة، ومرة كاد يشتبك بالأيدى مع ثلاثة قيل إنهم من كبار تجار الفاكهة بسوق روض الفرج، ومرة أخرى سحب الطبنجة وصوبها تجاه اثنين من تجار خان الخليلى، مما حدا بالنوبى أن يزعق:

- «اذكر الله ياحاج..»

عاد هادئا، واستؤنف الحديث فيما يشبه الهمس.

انقطع تماما عن العيادة، تعاقب عليها شبان من الخريجين الجدد غير أنه ردد دائما عزمه على ألا يتركها أبدا، إنها اساس كل ما جاءه من خير، وهذا ما كان عليه الحال عند انتقالى من مسكنى إلى منطقة أخرى ، وفيما بعد رأيت صورته فى الجريدة يقص شريطا إيذانا بافتتاح مصنع للبسكويت المحلى بالشيكولاته، وكان يرتدى جلبابا أبيض، وطاقية بيضاء، وتحيط وجهه لحية كثة، وإلى جواره بعض من أصحاب النفوذ والجاه، وكان الإعلان يحتل صفحة كاملة، هذا ما عرفته عنه، وآخر عهدى به، فلم تقع عليه عيناى إلا فى الإعلانات، ولكننى أحطت علما بما جرى لشاب آخر، وألمت بتفاصيله، وإنى لقاصه عليكم..

هذا ما جرى للشاب
الذى أصبح فندقيا

.. وهو الذى لو سئل أثناء دراسته فى الجامعة عما إذا كان يرغب العمل فى الفندقة لأبى واستنكر، كان مولده عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وعندما بدأ الهجوم الثلاثى على مدينة بورسعيد الخالدة، أو الصامدة، كما وصفت فى ذلك الزمان المندثر، كان المتبقى على مجيئه إلى الحياة الدنيا ثلاثة أسابيع، تستعيد أمه تلك الأيام، غياب أبيه فى مكتبه، وقضاءه الليل بطوله فيه، وتلبية للظرف الاستثنائى، تذكر ولدها جنينا يتقلب فى رحمها، سعادتها إذ تشعر بتمدده، بتقلبه داخلها، كأنه يتعجل خروجا قبل الأوان، كانت تسند ظهرها إلى الوسادة فى ليالى العتمة الإجبارية، تسأل، ولد هو أو بنت؟

كيف سيكون؟ ترسم الخطط، وتصوغ المشاريع، وعندما وفد، وأصغت إلى صرخته الأولى، كانت البلاد كلها في تأجج واستنفار، الأيام تنبض، وجميل الأغاني يتردد، وسائر ما يهز الأرواح، ويدمج الخصوصيات في العموميات.

كان طفلا ذكيا، مليحا، سليم الخلقة، في وجهه قبول، عيناه واسعتان، وشعره طويل، ناعم، غزير، حرصت أن تقصه بانتظام حتى لا يشبه البنات، ملامحه تصونها مجموعة صور صف بعضها على مقربة من فراش الوالدين، كان الأب ميسور الحال بمقاييس الزمن القديم، لم تتأخر ترقياته عن موعدها، كذا علاواته السنوية، الدرجات التي ارتقاها بانتظام أفضت به إلى منصب وكيل وزارة مساعد في نفس السنة التي حصل فيها ابنه على الثانوية العامة، كان الأب رجلا حشما، مستقيما، عرف عنه إخلاصه لوظيفته وصده الحازم لعروض بالرشوة، أما قطعة الأرض التي ورثها عن الراحلة أمه فقد أتاح له إيجارها السنوي يسرا ضئيلا مكنه من قضاء أسبوعين كل صيف بصحبة أسرته في رأس البر، إنه متواضع، مؤد للواجبات، يحضر الجنائز، ويجامل في أفراح صحبه، وعنده طول بال على تفهيم الطالب، لطيف المزاج، به وسامة، حلو الصورة، قليل الغذاء جدا، انتقل بعض مما عنده إلى ابنه بالأخص شعوره العميق بالمسئولية، وضرورة إنجازها على أحسن صورة، في الأسابيع التي تسبق الامتحانات يشتد نحول الولد، يطول سهره، وتطالبه الأم بضرورة الأكل حتى

يذهب بيسه، وعندما اجتاز المرحلة الثانوية متفوقا، هدأ فؤاد أمه، واطمأن أبوه إلى إمكانية تحقق رغبته التى لم يبح بها قط، إذ ود وتمنى أن يعيش حتى يرى ابنه من رجال الخارجية، يمثل بلاده فى الخارج، فى لحظات خلوه بنفسه، كثيرا ماردد تلك العبارة ولم يطلع عليها أحدا، «ابنى يمثل بلاده فى الخارج»، لهذا عندما فاز بالقبول فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ابتهج، وسقى العاملين فى الادارة شرابا حلوا، وبدا له ما ظنه يوما بعيدا وقد صار قريبا، أربع سنوات ويتخرج ابنه، يلتحق بالخارجية، يبدأ السلم من أوله، سكرتير ثالث، فثان، فأول، قنصل ثم وزير مفوض.. ثم سفير، هل من المعقول أن يعيش حتى يرى صوره فى الصحف الأجنبية بعد تقديم أوراق اعتماده لرئيس دولة ما فى هذا العالم، معقول، ليس ذلك على من بيده الأمور ببعيد، ولكن إن شعر بدنو الأجل، واقترابه من تخوم الأبد قبل تحقيق هذا، سيوصى ولده بتذكره فى ذلك اليوم، عند ارتدائه ملابس التشريفة ومضيه إلى مقر الحكم، قصر ملكى أو جمهورى، أن يقرأ له الفاتحة، وأن يتذكر والده الذى كان يتمنى رؤية هذه اللحظة ولو عبر صورة، فى اليوم الأول للدراسة الجامعية صحبه، دعا له بعد أن افترقا، وحن إلى امرأته وإلى بثها الكلم الطيب، فاشترى لها عطرا طيبا، هى من أنجبت له هذا الابن الصالح الذى سيمثل بلاده يوما.

جرى ذلك قبل عبور الجيش المصرى قناة السويس بسنة كاملة، وقبل مجىء العزيز هنرى كيسنجر أول مرة إلى القاهرة المعزية فى زيارة وصفت بأنها هامة وضرورية. وقبل فك الاشتباكين الأول والثانى، وقبل قدوم ريتشارد نيكسون فى زيارة قيل إنها تاريخية.

وعندما دنت السنوات الجامعية وأوشكت، كانت أمور عديدة قد تبدلت، وظروف ظنها الكثيرون أنها ثوابت، بدأت تتستدير وتدبر، درس الابن على أساتذة منهم أجلاء، أتقن علوم الاقتصاد، والسياسة، خط صفحات تجل عن الحصر، واستوعب ما قيل له، وكان فى بذل الجهد غير ضنين، استحق ثناء شيوخه فى العلم، أثنوا عليه ورضوا وأشار أحدهم إلى ما ينتظره، وأشاد آخر بسعة أفقه وتفتح مداركه، وقوة أمله.

إثر تخرجه شغل به والده، إلام سيصير أمره، خاصة أن الظرف معسر، والواقع فيه جدوبة بادية، وحدث فى ليلة خريفية أن التقى فى مقهى بناحية شارع عماد الدين بصاحب له، مدة خدمته تماثل مدته، ودرجته مساوية لدرجته، إلا أنه يتميز عنه بعمله طوال مدته فى المؤسسة الرئاسية، وقد بدأ قبل الثورة فى القصور الملكية، وتدرج حتى أصبح وكيلا مساعدا للوزارة، واختص عمله بأمور ربما تبدو غريبة، إذ كان مسئولا مسئولية مباشرة عن أوانى الطعام والشراب الخاصة بالقصر، يشرف على إخراجها عند مد الولائم، أو إقامة الموائد، فى المناسبات،

وللضيوف الأجانب، وتلك مسئولية لا تسند إلا لذى أمانة، فجل هذه الأوانى من الفضة، وبعضها من الذهب الخالص، ومنها ذو القيمة التاريخية التى لا تقدر بثمن، كان يشرف على تخزينها وترتيبها، وإخراج المطلوب منها، وإعادته، أما اختصاصه الثانى فيتعلق بالجنائز، فعند وفاة عظيم أو كبير، يتصل هو بالحانوتية، كانوا كلهم يعرفونه، ويخشونه، ويلبون طلباته، كذلك أصحاب محلات الفراشة، ومن هنا خرجت كل الجنائز فى مدة وظيفته مهيبة، لائقة، لا ينقص ترتيباتها شىء، ولا يمكن رصد أدنى عيب، وثق الجميع به، واشتهر عنه وذاع أن عضو مجلس قيادة الثورة زكريا محيى الدين، أثناء توليه لفترة أمورا تنظيمية، كان يردد دائما أنه إذا رأى توقيعه على مذكرة ما، فإنه يؤشر فقط واثقا من سلامة المتبع، وكان لهذا الرجل بنتان، كلتاهما فى الجامعة، أنجبهما متأخرا، ولأنه لم يتبق أمامه إلا عامان فى الخدمة، ولأن ظروف الحياة تضغطه، ولأن ما سيتقاضاه من راتب تقاعدى لن يتأثر، ولأن هذا الراتب لن يكفى نفقات البيت بعد خروجه من الخدمة، أحال نفسه إلى التقاعد، وكان يوم تسليمه مكتبه وعهدته مشهودا، إذ دمعت العيون تأسفا عليه، مضى ليلتحق بشركة سياحية صاحبها واحد من معارفه، وكان الراتب الجديد مغريا، فتيسر حاله قليلا.

إنه لا يلقى صاحبه هذا إلا عند مجيئه إلى ذلك المقهى الذى يرتاده، إذ يضيق بالبقاء فى البيت، أو الحملقة إلى جهاز

التليفزيون، وتكرار قراءة الصحف، لكم دهش وارتاع عندما علم أن صاحبه أحال نفسه إلى التقاعد، لم يفكر فى ذلك قط، خيل إليه دائما أنه لو ترك الوظيفة سيضل، إن تبديل الحال أمر صعب عنده، خاصة أنه موظف عمومى مثالى، لم يشوه ملف خدمته ورقة إنذار، أو تقرير ضده.

فى تلك الليلة الخريفية أفضى إلى صاحبه بما يشغله من أمر ولده، منذ أسابيع ظهرت النتيجة، الولد ناجح ومتفوق والحمد لله، لكم كان بوده أن يلتحق بالخارجية، بالسلك الدبلوماسى، أن يمثل بلاده فى الخارج، لكن يبدو أن الأمر ليس سهلا، والسكك المؤدية إليه وعرة، لا يعرف الدروب المفضية إليها، أو السبل المؤدية إلى بداياتها، ما يقضه ويقلقه، انقضاء مدة طويلة قبل حصول الولد على وظيفة، وقد سمع ما أزعجه عن وفرة فى خريجى هذه الكلية بالذات التى عدت عند التحاق ابنه بها مرموقة وذات مستقبل بهى، إن ما يضيق به الانتظار بلا عمل، ثم الالتحاق بوظيفة حكومية، فى الأغلب الأعم لاصلة لها ولا علاقة بما أتم دراسته وتحصيله، كان بشكايته همه يمهد كى يسأل صاحبه عن إمكانية توسط أحد المسئولين السابقين لقبول ابنه فى الخارجية، أى مسئول ممن خدم معهم، إن تقاعد أمثال هؤلاء لا ينهى ولا يقطع صلاتهم بمن هم فى مواقع المسئولية الآن، من خدمته الحكومية الطويلة عرف أن الكبير للكبير، حتى وإن تقاعد أحدهما، غير أن صاحبه لم يمهله، طقطق بأصابعه، مصمص شفتيه مبديا عدم

الموافقة، قال إن البلد يتغير، والزمن يتبدل، والعاقل يجب ألا يفكر فى الوظائف الرسمية قليلة الرواتب، شحيحة الموارد، وإذا كان ولابد، فليلتحق بوظيفة تمكنه من توفير ساعات عمل حر، وهنا أعرب الوالد عن قلة حيلته، وعسر دربته، وندرة معارفه من ذوى النفوذ، من أين له هذا العمل ؟ صمت صاحبه مقدار لحظة ثم تساءل، أهو الذى رأيته بصحبتك منذ سنة؟ أجاب الوالد باسطا كفيه، وهل عندى غيره؟ قال الرجل إن طول العشرة يقتضى منه الإقدام على الخدمة، وإنه من ناحيته سوف يسعى، أبدى الوالد امتنانا وإن حاش ضيقا وحزنا، ألم يتمن طوال عمره التحاق ابنه بالخارجية ؟ أن يراه ممثلا لبلاده فى الخارج؟ هكذا رغب، هكذا دبر، لكن غيره قدر، ذلك أن غيبة صاحبه عنه لم تطل، اتصل به، قال إن ثمة فرصة شحيحة لن تتكرر، وان نية ابنه فيما يبدو ويلوح نقية صافية، وللنية فى قضاء الحاجات سلطان عظيم، وإن عنده القبول، لهذا دنت تلك الفرصة وبدت، وبعد هذه الديباجة، أفضى بالمهم فقال، ان جمعا من معارفه يشرفون على إدارة فندق حديث، شيد على أطراف المدينة، تكلف ملايين الجنيهات، وأسندت إدارته إلى شركة عالمية، وان ثمة منصبا خاليا يمكن أن يشغله الابن، يعد بالنسبة لمن كان فى مثل عمره مغنما، إذ سيصبح مسئولا عن جلب الزبائن، وتنشيط الحركة، وهذا مما يعرف فى لغة الفندقة بالتسويق والمبيعات، أى أنه سيصبح مديرا، وتلك مهام وعرة، لا يتولاها إلا خريج جامعة أجنبية، ولا يصل إليه أحد إلا بعد

ارتقاء طويل، أما عن المرتب الشهري فكم يظن ؟ كم يعتقد.. هه.. فليخمن، ثلاثمائة جنيه، إلى جانب المكافآت والحوافز، قال الأب لابنه في نفس الليلة إن هذا يقارب مرتب وزير، أين ذلك من المرتب الحكومي وقدره خمسة وأربعون جنيها، أما عن الوظيفة نفسها، فلا يمكن الحصول عليها إلا لمن كان من الواصلين وذوي القربى، وإن هذا لمن طالعه الحسن، قال ما قاله مضمرا أسى، فلكم ود أن يعمل ابنه بالسلك السياسي، حتى يمثل بلاده يوما ما في الخارج، لم يبد كآبته عندما تحمس الابن وأظهر قوى الرغبة، الراتب كبير ولن يصل إلى مثله إذا التحق بالوظائف الرسمية إلا عند دنوه من التقاعد، ولماذا ينأى ؟ أليس والده ماثلا أمامه ؟ ألم يصغ مرارا إلى رغبات صحبه ؟ حلمهم العمل في أحد هذه المشروعات الجديدة سخية العطاء، البنوك الأجنبية، الفنادق الكبرى، شركات المقاولات، السياحة، أو السفر إلى بلد نفطي، فرصة كحلم تواتيه، لم يسع، لم يكلف نفسه عنتا، أما عن الرغبة في استكمال الدراسة العليا فيمكنه تحقيقها، خاصة أن هذا الراتب سيتيح له أمنا وهدوءا، وما سينقص فسحة من الوقت، يمكنه توفيرها، لم يهن حماسه حتى بعد أن تأكد له إثر بدء تردده على الفندق أن ما قاله صاحب والده فيه عظيم مبالغة، وتزيد، لم يشر أحد من قريب أو بعيد إلى توليه إدارة المبيعات أو التسويق أو ما شابه ذلك، ذلك، بل إنه لم يدرك تماما كنه ما سيقوم به، أو نوعية ماسوف يسند إليه، حتى بعد لقائه بالمدير

الأجنبي ممثل الشركة الأمريكية التى تدير الفندق، نحيل، قصير، صارم الحضور، مزموم الشفتين، لا تشى ملامحه بأية إمكانية على التبسط والابتسام، كل ما فاه به أنه طلب منه أن يردد دائما على مسمع النزلاء والمترددين نوعية المؤهل الذى يحمله وتخصصه فى العلوم السياسية. أما لقاؤه بالمدير المصرى فاستغرق زمنا أطول، أبدى ودا وترحيبا، وإن لم يرتح إلى ضحكته المفاجئة، المغتصبة قسرا، والتى تحوى سخرية لا تخفى، قال أن هيئته أعجبت المدير الخواجة، هذا مهم جدا، هنا اقترب منه، دقق ملامح وجهه ثم قال إن عينيه فريدتان بين من رأى من الرجال، لكن ما ينقصه عناية خاصة بهندامه، غير أن هذا ممكن، سيصرف له مبلغا يستقطع منه فيما بعد، ليشترى قمصانا وأربطة عنق وأحذية، سيحدد له ألوانها وأوصافها، وسيصرف له مبلغا آخر ليشترى به ملابس داخلية ملونة، وتلك سيختارها هو كما يرغب، ولما لمح دهشته وعجبه، قال: إن القمصان ستكون شفافة، وستبرز ما تحتها، ومما يستحب أن يكون ثمة تناسق بين ماهو يخفى وما يظهر، عندئذ ضحك هذه الضحكة التى يصاحبها خروج رذاذ من لعابه، طلب منه أن يتخذ أوضاعا مختلفة أثناء وقوفه، كأن يقدم ساقا ويؤخر الأخرى، أن يعقد يديه أمام صدره، أن ينحنى قليلا أو يتراجع، أبدى المدير رضا وراحة، بنفس الضحكة توجه إليه قائلا: أرجو ألا يخطفك مخرجو السينما، أنت تبدو كأنك قادم من هوليوود . بدا جادا فجأة وطلب منه أن يصغى تماما إلى كل

حرف، وأن ينتبه إلى كل معنى، يجب ألا يخضع أى أمر للصدفة، طريقة مشيه، انحناءاته، لفتاته، مخاطباته للقوم، إمساكه لسماعة الهاتف، عبور القاعات، وقوفه بالممرات، كذا ابتساماته وانحناءاته، استقباله القادمين عند المدخل، لكل مدخل مظهر وتصرف، كل شيء بقدر، بحساب، المجاملة يظهرها في الوقت المناسب، ولمن يستحق، يجب أن يعرف قدر من تجب مجاباته أولا، وأن يبدي الجهامة عند الضرورة ولكن في غير إفراط، وليعلم أن العميل على صح دائما وإن أخطأ، وليضع في ذهنه أن تعامله مع القادمين أو المقيمين عابر، واتصاله بهم مؤقت، ليعلم أنه يجب ألا يطأ الفندق الا مبتسما مهما مر به لا يظهر كدرا أو ضيقا، عليه أن يردد اذا طال الحوار بينه وبين أى نزيل أنه حاصل على شهادة عليا فى العلوم السياسية، بعد انصرافه ادهشه ترديد المدير المصرى لما ذكره المدير الأجنبي، وكدر ارتياحه ضيق بذلك الرجل، وكلما استعاد ضحكته أوشك على اضطراب، دارى ما عنده، ولم يبح بشيء من ذلك لوالده صباح يوم يوافق مرور عام كامل على ذهاب رئيس البلاد إلى ديار العدو سعيا للصلح، ارتدى هندامه الأتم، عقد ربطة عنقه حتى يكتمل المنظر ويستوفى القاعدة، بدا بهيا، يفيض شبابا وحيوية، طويلا، متسقا فى العموم، حتى أن أمه دعت أن يقيه خالقه شر العيون وأولاد الحرام، وأن ييسر أمره، وأن يوقف له أولاد الحلال، وأن يبعد عنه كل أذى، فهو لباب عمرها الأتم.

صحبه المدير المصرى إلى المكان المحدد له: الممر المؤدى إلى المطعم الرئيسى، سيتحرك متمهلا بين المرآة القديمة التى تم شراؤها من أحد القصور القديمة، وتمثال عارى، امرأة ترفع شعلة لا تضىء، سيقضى وقته هنا فى الفترات السابقة واللاحقة على مواعيد الغداء والعشاء إذ لا إفطار فى المطعم الرئيسى، عليه أن يروح ويجىء على مهل، حتى إذا بدا رواد يبادر مبتسما، يبسط يده مرحبا، يتقدم منحنيا، مبديا الاحترام اللائق، ثم يسأل عما إذا كان الحجز قد تم مسبقا؟ فإذا جاء الرد نعم، يتقدمهم حتى باب المطعم، هنا تنتهى مهمته، ويبدأ المشرف على المطعم عمله، فى يومه الأول هذا بدا خفيفا، مستبشرا، معظم من أنهوا دراستهم معه لم يبدأوا العمل بعد، بعضهم هنأه، ومنهم من حاول أن يخفى حسدا، غير أن واحدا، لا.. بل اثنين، أبديا دهشة، ما علاقة هذا بما درسه وتعلمه، خاصة أنه من المتعمقين، المستوعبين جيدا لما درسوه، لو أنه صبر قليلا يمكنه أن يصبح معيدا، من أعضاء هيئة التدريس، إن ترتيبه يسمح بذلك، أبدى عدم موافقة، بل جاهر باستهزاء ، الانتظار ربما يطول أو يقصر، كم سيتقاضى إذا أصبح معيدا؟ غير أنه عندما خلا بنفسه أدركته حيرة، كأنه مقدم على سفر لا يعرف غايته، لا يدرى نقطة الوصول، أو المسافة التى سيقطعها، كأنه كان يتأهب ليقطع طريقا بعينه، وفجأة تتبدل المرئيات والموجودات فإذا بالدرب مغاير، وما قصد إليه ينأى عنه، لو أن الامر بيده كله لانتظر، غير أنه عاد

ليقول لمحدثه، إنه سوف يجد الوقت الكافى كى يتم البحث العلمى، وإنه سيلتحق بالدراسات العليا خلال أول العام، مهنته الجديدة تبدو مريحة، عائدها مجز سيتيح له التفرغ بهدوء بال، وطمأنينة زائدة. فى يومه الأول هذا حرص على التزام المسافة المحددة له، لم يتجاوزها حتى بمقدمة حذائه، بالضبط ما بين المرآة والتمثال، الفراغ فيه رائحة المفروشات الجديدة، وكساء الجدران، وروائح أخرى منها ما يمت إلى عطور شتى «، أو أطعمة مطهوة، التزم الأوضاع التي نصحوه بها، كان منتبها إلى كل خطوة، أو إيماءة، حريصا على مقدار الانحناءة، تأمل التمثال الرخامى فى ثيابه وحركته، دقق فى تفاصيل جسد المرأة شبه العارى المتشح بغلالة رقيقة أبرز النحات البارع تفاصيل تموجاتها مع أن الحجر واحد، حتى استدارة حلمتى النهدين بدتا جليتين كالعلامة، إنها المرة الأولى التى يتأمل فيها تمثالا عن قرب، ولطول وحدته أوشك على مخاطبته همسا، عند الثانية بدا رجل بدين تصحبه امرأة نحيلة، سمراء، غزيرة الشعر، فسيحة النظرات، ترتدى ثوبا أخضر يشى بعظمتى ترقوتها، تقدم منهما، أبطأ الخطى فى منتصف المسافة عندما انتبه إلى إسراعه قليلا، مثبتا النظر تجاه الرجل لا المرأة، انحنى، بالضبط كما قيل له، وبدا له استفساره عما إذا كان البك قد حجز مقدما أمرا مضحكا، المناضد كلها خالية، لكن لابد من النطق بما أمر به حتى لو بدا الامر غير منطقى، تقدمهما حتى مدخل المطعم الفسيح المسدلة عليه ستائر خفيفة

لونها وردى، وراءها تماما حاجز من الخشب الخرط، عربى الطراز. عاد إلى الممر وبه أنس، مصدره ذلك الحوار السريع، القصير مع الرجل، لن ينسى ملامحه أبدا، كذلك المرأة، إنهما أول من تعامل معهما، غير أن ركودا يعاوده، إن وقتا طويلا ينقضى هنا، الحيز ضيق، خطواته أحصاها مرات، إحدى عشرة لو افسح، وستة عشر لو ضيق، عند بداية المساء جاء رجل يمسك بمفتاح غرفته، مقيم إذن، كان بمفرده، وعندما تبعه لاحظ قفاه، وصلعته، وخيل إليه أنه ينوء بهم ما، جاء أيضا ثلاثة يرتدون ملابس شركة طيران أجنبية، يتحدثون الألمانية، لكن عند مخاطبته تكلموا بالإنجليزية، بعد منتصف الليل ولج البيت. الوالدان فى الانتظار، لم يهجعا، فى ملامحهما بشر وقلق، استفسروا عن الأحوال، ولماذا التأخير؟ كان متعبا وعنده توق إلى النوم، قال إن الامور تمضى ولا بأس، أما التأخير فعادى، ما من ساعات عمل محددة حتى الآن، الفندق جديد، مازال بعد فى مراحله الأولى، وسوق المنافسة شديدة، لذا لابد من التفانى، وبذل أقصى المجهود، هكذا قال المدير، فى اليوم التالى قالت الأم إن الولد كان مرهقا، وشخيره يسمع خارج حجرته حتى أنها قلقت عليه فأطلت مرتين، هذا ليس من عاداته، قال الأب إن لكل عمل ظروفه، ثم حاد بالحديث فقال إنه يفرح عند خروجه، ويتابعه من النافذة حتى يختفى عند الناصية، وإنه يدعو له، هذه اللحظات عاش ينتظرها منذ عشرين سنة وأكثر، إذ جاء اليوم الذى يدخل إلى جيبه قرش

نتاج مجهوده إنه مازال يذكر اليوم الأول الذى صحبه فيه إلى المدرسة، يراه كأنه بالأمس، بعد أن فارقه فى فناء المدرسة، بعد ان أوصى عليه المدرسات، نظر إليه من بعيد، فرآه وحيدا، صغيرا، فحن ورق وأوشك على العودة إليه يومها،سأل نفسه، بعد كم من السنين يمكنهُ الاعتماد على نفسه، وهل سيعيش حتى اليوم ، الذى يراه يخرج فيه إلى عمله، إنه يحمد الله أنه رأى هذا اليوم، ويحمد الله أنه ألحقه بتلك المدرسة الأجنبية، فاتقانه اللغة سبب هام لحصوله على تلك الوظيفة التى يتمناها الكثيرون، صمت هنا، لم يقل لامرأته إنه تحمل مصاريف هذه المدرسة لكى يتقن ابنهما لغة أجنبية ويمكنه الالتحاق بالسلك السياسى.

حقاً.. ما كان أجدره بتمثيل بلاده فى الخارج، لكن من أين له بالطريق إلى الخارجية ؟ الأيام صعبة، والفرص محدودة، ثم انه سمع عن شباب بدأ دون ابنه بكثير فى بعض الفنادق ومع الزمن ارتقوا وصاروا مديرين كباراً تنشر الصحف صورهم.

بعد أيام قليلة أرسل المدير المصرى فى طلبه، أبدى ودا وأثنى عليه وضحك مرتين، هذه الضحكة التى ينفر من سماعها، قال إن الفندق ما زال فى البداية، وإن جهداً يبذل الآن فى اتجاهات عديدة، الشركات السياحية، وكالات السفر، ليس فى مصر وحدها، إنما فى الخارج أيضاً، أيضاً فى اتجاه أهل الفن، ونجوم الرياضة، ورجال الإعلام خاصة.

سـأله عـمـا إذا كـان يعـرف أحـد العـاملين بالإذاعـة أو التليفزيون أو الصحف، إذن.. لا تربطه علاقة، هذا مؤسف، إن تردد ممثل واحد هنا يمكن أن يفتح الباب أمام الآخرين، أما إذا اختار أحد المخرجين الفندق موقعا لأى فيلم سينمائى، أو حلقات تليفزيونية، فهذا نجاح جدير بأن يجعل ، عليه أن يبحث فى معارفه، فى زملائه بالكلية حتى لو دعا أحدهم الى العشاء هنا فسيتحمل الفندق المصاريف، سكت لحظات، ثم بدا كأنه يتخلى عن لهجته الرئاسية ليبث شكوى، أو ليفضى بهم يثقله، إن المدير الأجنبى يضغط عليه يطالبه بتنشيط المبيعات،مع أن هذه ليست مسـئوليتـه، لكنه مضطر إلى العمل فى كل الاتجاهات، المدير الأجنبى يلمح دائمـاً إلى كسل المصريين، وتقاعسهم، وفى كل حوار معه يذكر ملايين الدولارات التى أنفقت، وأن العائد يجب أن يكون سريعاً، هل تدرى كم مليونا تم استثمارها هنا؟، تطلع صامتاً مبديا جهله بالأمر، قال المدير بتأن، ستة عشر، نصفها بالعملة المحلية، طبعاً أصحاب المال لايريدون استرداد ما دفعوه فقط، إنما الربح أيضاً. طلب منه الا يهمل الأمر، أسفر فجأة عن ضحكته المصحوبة بالرذاذ، قال إن الزحام سيعود عليهم جميعاً بالخير، ثم قال إن الحركة فى المطعم قليلة، لهذا يطلب منه القيام بعمل قد يبدو غريباً .

قام من جلسته، دار حول مكتبه، على مهل مشى حوله، قال إن الظروف ربما اضطرته إلى القيام بأعمال ربما تبدو له غريبة، أهم شىء أن يلقى بنفسه فى خضم العمل، أن يفكر فى

الكسب، الفرص بلا حد، المهم الثانى أن ينسى ما تلقاه فى الجامعة، هذا كله كلام كتب، ما يجب أن يذكره عنوان مؤهله لا غير ، العمل الذى سيخبره به رحب به المدير، بل هنأه عليه، قال بصراحة إنه لم يتصور وجود من يفكر هكذا هنا، الأمر ببساطة أنه سيجلس وقت الغذاء والعشاء فى المطعم الرئيسى، بالضبط كأى مقيم، سيتناول الوجبات مجانا، كما ستقدم له كافة أصول الخدمة، الغرض أن يبدو المطعم مزدحماً، خاصة عندما يوجد عدد قليل جداً، أن المناضد الخالية توحى بعدم الثقة، طبعا لن يتم إشغال المناضد كلها، ستوضع لافتات هنا وهناك تشير إلى حجزها مقدماً.

خرج من مكتب المدير وعنده من الدهشة قدر غير يسير، تزايد يقينه أنه يؤدى دوراً ما، وأنه يجب أن يستنفر شخصاً آخر ليخرج من بين ثناياه ويقوم عنه، يشب ما بينه وبينه نفار، هذا ما بدأ يدركه مع تكرار حركته ما بين التمثال الرخامى والمرآة القديمة، مع كر أيامه مد خطاه، تجاوز المسافة المحددة له خلسة بخطوة أو خطوتين، لكنه سرعان ما يستدير مسرعاً خوفاً من المدير الاجنبى، ظهوره مفاجئ، من حيث لا يتوقع أحد، بوجهه عبوس مقيم، وفى طلته غضب مقيت، يخشونه كلهم ، ويتردد همساً أنه يبغض البلاد وأهلها، إنما جاء لارتفاع راتبه، لا يخرج إلا نادرا، ولم يحاول الاتصال أو المزاورة، لا صحب له، مرة واحدة غادر إلى المطار عنده سفره الى قبرص لحضور اجتماع ممثلى الشركة فى الشرق، فى الليل يتجرع خمراً ويأوى إلى سكنه، لا يجرؤ أحد على إزعاجه أو اللجوء إليه عند وقوع مشكل.

تلقى المهمة الجديدة كأنه يتلقى أمراً مفروغاً منه، ما يصدر هنا لا مجال لرده، هذا ما وعاه جيداً، ما عليه الا الامتثال والتنفيذ، بل إنه أبدى تحمساً وارتياحا، فهذا يعنى ابتعاده عن الممر، تلك المرآة والتمثال الذى ضاق به، ملامحه التى حفظها، وحدق فى جزئياتها وتفاصيلها، كان التغيير الوحيد ظهور القادمين إلى المطعم وهم قلة، يتقدم الرجال مرحباً، يتبع النساء، وعندما ابتسمت إحداهن انحنى، كانت تصحب رجلا يمتلك توكيلا للسيارات، ابتسامتها لم تكن عابرة قط، لم تستغرق إلا ثوان، بل ربما أجزاء من الثانية، غير أن ما تحفل به علق عنده، فاستعادها مرارا، وانتظرها ولكنها لم تأت، لم تلح مرة أخرى، فأورثته حنيناً، ما دهش له جرأة بعضهن، جسارة لفتاتهن وإيماءاتهن، يعرفن التوقيت الملائم لتسديد النظرة، لتشييع الرسالة، وهى جد موجزة، جد ضامرة، ما يجب الانتباه إليه بقاؤه متلقيا على الدوام، غض البصر عن أى معنى يصل إليه، له جذر أو متوهم، لو انتبه أحد هؤلاء ربما لحقه أذى عظيم، قد لا يتوقف عند فصله، وخسران راتبه الذى تسلمه أول مرة وعده على مرأى من والده الذى بدا غير مصدق وأمه الداعية له أبدا بنأى الحساد عنه، غير أن يقيناً استقر عنده أنه يؤدى دورا لم يعد له ولم يتأهب، بعد أن تحمس لعمله الجديد، ضجر منه، عليه البقاء حتى انصراف آخر الزبائن بصحبة اثنين من العاملين، لا معرفة سابقة تربطه بهما، وهذا مما عاناه، قعاده وقتا إلى من لا تربطه بهم حميمية

أو وثيق صلة، واضطراره الكلام فى مواضيع شتى لا رابطة بينها ولا دافع عنده لخوضها، مبرزا ابتسامته، ماحيا من ملامحه كافة ما ينم عن نفور أو ضيق، لم يكن قادراً على التمكن من الطعام وتذوقه حتى، فالتعليمات تقضى بتناوله على مهل حتى لا يشغل المدة كلها، ما بين اللقمة واللقمة مسافة زمنية، حتى إذا ما بدأ المضغ وجب عليه أن يبدو نهما شرها، تواقا الى المزيد، أن يشير بيده، أن ينطق ما يشى باعجابه، بأن الطهو متقن والأصناف رائعة، منذ قدومه إلى الفندق يشعر أنه غادر ذاته فى مكان ما وزمن ما، وأنه سيبدأ تأدية الدور، والحذار الحذار أن يهن، أو يتوقف، لو كف سيلحقه أذى، الليلة جرى ما أثار انتباهه، إذ التقى به المدير المصرى عند مكتب الاستقبال، صافحه مبديا رضاءه، أثنى عليه، قال إن الزبائن فى تزايد ، والأمور تمضى إلى الأفضل، قال إنه بمناسبة شم النسيم سيقيم حفل إفطار فى الصباح الباكر حول حمام السباحة ، طبعاً فيه البصل والليمون والملانة الخضراء، أما الفسيخ والسردين فسيقدم فى وجبة الغداء، وهنا أطلق ضحكتين متتابعتين، ومال إلى الأمام كأنه روى نكتة أو فاه بنادرة ، قال إنه تم دعوة عدد من نجوم المجتمع وأهل الفن، حفل سيكون له مردود كبير، قال إن رئيسا لتحرير صحيفة كبرى نزل اعتباراً من اليوم لمدة أسبوع، هذا حدث لا يستهان به الآن، قال إنه تم إدراج الفندق فى قوائم عدد من الشركات السياحية وأول فوج سيبدأ إقامته الأسبوع القادم، لكن ما يجب التركيز عليه هم السياح العرب و.. والأثرياء الجدد،

توقف المدير قليلا، قال مبتسما: والثريات ! ، غمز بعينه، بعد انصرافه استعاد إيقاع الكلمة، ملامح المدير عند نطقه وعدم إتباعها بضحكته المقيتة، الثريات ؟ هل شكاه أحد الرواد؟، صحيح أنه يحدق طويلا في الملامح في الوجوه، خاصة بعد بقائه فترات طويلة في المطعم، بدلا من رؤيته الناس بسرعة في الممر، عرف النظر المتأني، والطواف بعيدا، ثم الكر مرة أخرى بعينه على وجه أعجبه، أو ملامح جذبته، خلسة كان يرقب إيماءات النساء ونظرات الرجال، كيفية المضغ عند كل منهم، أفواه مضمومة أثناء الأكل، أخرى ثابتة، وشفاه متحركة مهتزة، ممدودة الى الأمام، وأفواه مزمومة، وأخرى يبدو مضغها كالتقبيل، وأوداج تنتفخ بالالسنة المدفوعة جانبا لاستخلاص بقايا من بين الأسنان وثنايا الفم، عيون تتأوه عند تحلقها حول الأطباق، وأخرى تبدو مشوقة حانية، في إحدى الليالي أوشك على الضحك، رجل ألماني كان يمضغ بسرعة ينقل الطعام من جانب الى جانب، وإذ يزدرد الطعام يمد رأسه كله إلى الأمام، يتقوس حاجباه، وبعد اكتمال البلع يومئ مرتين، لا يتشابه إنسان بآخر، خفية كان يتفرج، وبسرعة يدقق، حريصا دائما على جمود ملامحه، في أمسية أدركه خوف، إذ رصد انبعاث إشارات من منضدة قريبة، الرجل يدير ظهره، أما المرأة الحسناء فكانت تواجهه بملامحها، لم تكف عن اتخاذ أوضاع بشفتيها ذات معنى ودلالات عدة، أما عينيها فكانتا تتأودان، تنكمشان وتتمطيان اتجاهه، أشد ما يخشاه تلك الإيماءات الخفية، ماذا كان يقصد مدير الفندق ؟

هل يقصد.. بسرعة استبعد الخاطر، لكن لم يستطع رده، عاوده ليلا عند انصرافه متأخرا، تقله عربة العاملين، لا يتحدث إلى أحد، يولى وجهه شطر الطريق يتابع مروق المرئيات، فى هذه اللحظات يبدأ استرداد ما حجبه، ما واراه من ذاته، أحيانا إذ يتأكد أنه بمنأى عن العيون، يحرك عضلات وجهه، يفتحهما، كأنه ينفض قناعا خفيا علق به، فى عتمة الليل ترددت المعانى التى لم يلمحها وقت نطق المدير، وفى مواجهة ما أدركه بدا دهشا، حائرا، متعبا، وعنده رغبة فى الإفضاء إلى أبيه وبسط همه أمامه، لكنه كتم ، حتى بعد ثلاثة أيام، بعد تأكده مما خطر له، التقى المدير به، قال إنه يتنبأ له بمستقبل باهر، وكرر ما رواه من قبل عن بدئه الرحلة من أول السلم، من أدناه، ارتقاه درجة، درجة حتى وصل، أصبح مديرا، وهذا منصب رفيع، لا يمكن الوصول إليه فى عالم الفندقة بسهولة، فما البال إذا كانت الشركة أجنبية والتنافس بين جنسيات شتى.

توجه بالخطاب مباشرة إليه، دافعا مقدمة أصبعه صوب صدره « أما أنت. أنت عندك من المؤهلات ما يمكنك من التقدم بسرعة، لا أقصد طبعا ما حصلت عليه من الجامعة، انس هذا بالذات، المهم مؤهلاتك أنت، طولك، وسامتك».

غمز بعينه.

«وسيكون لك معجبات يجئن إلى الفندق خصيصا لرؤيتك، المهم.. أن تقف فى المكان المناسب حتى لا تحرمهن من رؤيتك !»

انصرف مسرعاً، لم يتم ما بدأه، لكنه لمح وصرح، لم يعد ثمة مجال للحيرة، واضح ما يهدف إليه، آوى إلى فراشه منهمكا، انتبه إلى انقطاعه عن قراءة صحف الصباح منذ فترة، كم يوما؟ لا يدرى بالضبط لكن أيام دراسته تبدو نائية كأن سنين انقضت وليست شهورا معدودات، فما أبعد الشقة، وأنأى المسافة، يتصل به بعض من زملاء دراسته، أحدهم هنأه، قال لابد أن وساطة قوية تمت، استفسر عن المرتب والحوافز، أخبره ثالث عن انتظاره التعيين فى الحكومة، البعض يبحث عن فرصة للسفر إلى الخليج، لكن يقال إن الفرص هناك ضئيلة الآن والآلاف يستعدون للعودة، أحدهم أقلع مهاجرا إلى فيينا، قال إنه سيبدأ من جديد، وكأن ما انقضى لم يكن، سيبيع صحفا أو يعمل خادما فى مطعم، ولعله يوما يصبح مثل أولئك الذين يقرأ عنهم، ويتابع تحركاتهم، ويضرب بهم المثل على النجاح، صاحب قديم ميسور أخبره أنه سيتم دراسته فى باريس، إنه سيعد رسالة علمية هناك، قد يعود وقد لا يعود، أمر فى علم الغيب، أصغى إليه وعنده غيرة وأسى، هذا ما وده وتمناه ، أن يصبح معيدا، أو دارسا فى الجامعة،أن يسافر إلى بلد ما، إن فى شرق أو فى غرب ليتم درسه وتحصيله، لكنه يرقب دبيب شرخ فى البنية، وخللا فى ترتيب النظام، تغير يجرى، يشمل كل ما حوله، إنه غير قادر على تحديد ملامحه بدقة، يشعر به ولا يعقله، يثقله دبيبه ولا يدركه، يثق من سريانه

حوله وفيه ولا يراه، كان يعد نفسه لأمر، وإذا به مشمول بآخر، لكم ود إتمام الدرس، تحقيق ما تمناه والده،أن يقدم أوراق اعتماده يوما إلى رئيس دولة أجنبية ممثلا بلاده، لو أنه سافر كصاحبه هذا، لو التحق بجامعة أوروبية ! ، لكن ظروف والده المحدقة لا تفى بالغرض، عندما وضع بين يديه راتبه كاملا دمع الرجل تأثرا، قال إنه تمنى التحاق ولده بالسلك السياسى، لكن ما يعزيه ضخامة المرتب، أعاده إلى ابنه داعيا له بالتوفيق، مرددا، لا يدرى أحد أين يكمن الخير؟ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، والخيرة فيما اختاره الله، وما شابه ذلك، وما أدرك معه الابن أن الراتب الكبير لم ينه ولم يجهز على أمنية والده القديمة، هو أيضا لم يكن مرتاحا وإن أبدى غير ذلك حتى لايسبب ضيقا لوالديه، حملق بعينيه المفتوحتين فى ظلام الغرفة، وإدراك حاد عنده أن الخطط حادت، وأن ما حصله فى سنوات طوال يتسرب على مهل، ليس المناهج، والنظريات، والعلوم، والقضايا، إنما أيضا الدأب والمثابرة والترتيب وما يمكن أن يحقق ذاته، يعى تبدد عناصر القضية الأصلية، وهذا موجع، مهما بدت المغريات الحسية، ثمة أمور مستحدثة تحل، بدءاً من طبيعة الوقفة، والانحناءة ،واصطناع البسمة فى غير موضعها، وتوجيه الشكر لمن لا يستحقه، وتجاهل الإهانة ولو كانت ضارية، وإغلاق بعض خزائن إنسانيته، وتبديل محتوى طال الحفاظ عليه، والتدرب على إقصاء نفوره من شخوص غرباء عنه، أما ما يجهله، ما يكمن فى انتظاره، فلا يعلم عنه شيئا، مضبب، مغيب عن ناظره، وهذا كئيب.

للمرة الثالثة يتغير موقع عمله، للمطعم الرئيسى رواده الآن، والحجز مقدما صار ضرورة لا وهما، سفارات بدأت تقيم حفلاتها، وأفواج سياحية تعبر لمدة ليلتين أو ثلاث، وشركات طيران تأوى أطقم طائراتها بانتظام، تجار كبار، لهم أسماء راسخة فى السوق يجيئون، أحدهم يتردد يوميا، لا يجىء بمفرده أبدا، دائما فى جمع وصحبة، أحيانا يصحب فنانة معروفة، أو لاعب كرة شهيرا، المدير أحاطه باهتمامه، وخصه برعايته، لم يكن فى حاجة إلى زمن ليدرك نشاطات جديدة يقترب منها المدير، يمارسها علنا، فبمجرد وصول مجموعة من السائحين، يجتمع بأحدهم، يعرض عليه تغيير ما معهم من عملة، يشرح مضار التغيير الرسمى والحر، إنه يقيم علاقات وثيقة مع عدد من تجار التحف فى خان الخليلى، أحيانا يصحب بعض الأجانب الذين يفيضون بثرائهم، و فى الأغلب الأعم يرسل مجموعات السائحين مع من يثق به، وله فى كل جهة مقدار معلوم، هذا بعض مما ألم به مصادفة، أما ماخفى فلا يدريه بعد، إنه فى المطعم الفسيح الآن، حيث تقدم الوجبات السريعة، مزدحم، مفتوح طوال الساعات الأربع والعشرين، فى المساء يجىء شبان وُفتيات لا يرى مثلهم فى الشوارع، يرتدون ثيابا تحاكى أحدث ما نشرته المجلات الأجنبية، بنطلونات واسعة من القطن، وقمصان بدون أكمام، وحلل كاكية ذات جيوب مختلفة الأحجام، يأكلون الشطائر، يجرعون علب البيرة المستوردة، ينفقون فى غير حرص، يتنادون..هاى، أعمارهم

تقارب عمره، برغم ذلك ينوء فى مواجهتهم بسنين لا تحصى لم يعشها فكأنه كهل بلغ من العمر عتيا، لماذا ؟ ، يسأل نفسه كثيرا وهو قائم على خدمتهم، يدون ما يطلبونه،ويبادل بعضهم الحوارات السريعة الخاطفة، ربما لأنه لم يمر بما يمرون به، من وفرة مال سهل، وخلوهم، ألم يكن النجاح آخر العام بمثابة الشاغل الأكبر وفى الأيام الصيفية يقرأ ليزيد معلوماته وحصيلته، أين راح هذا كله ؟ أحيانا يستعيد صوت أبيه عندما كان يلج غرفته فيراه مشغولا بكتاب أو مجلة فيدعو له ويثنى عليه، يبدو له هذا غريبا الآن، وكأنه جرى لشخص آخر، أو فى مكان وزمان لا يمتان إليه بأدنى صلة، تدهشه جرأة الفتيات، يبادلنه الضحكات، إحداهن صافحته وضغطت يده بشراهة بادية، غير أن الشبان المصاحبين لهن أشد انتباها وغيرة من الرجال الوقورين، الممتلئين، المصاحبين للنساء مرتديات ملابس السهرة مرتفعة الثمن، واللتى تشى رقتها بالملابس الداخلية الشفافة مما يوجع خيالاته التى لم ترو بعد ولم يشف غليلها، هنا الزحام مسل، والوقت ينقضى بسرعة، ما يرهقه، اضطراره محاورة هؤلاء الشبان، خاصة عندما يدخل بعضهم فى نقاشات عبثية، وتبادل قفشات، والتلفظ بجمل ذات إيماءات، وطبقا لما أوصى به المديرلابد من مجاوبتهم ومسايرتهم، الا يتغلب على أحدهم لفظا، الا يبدى تعاليا، الا يرتدى ساعة ثمينة، أو خاتما ذا قيمة، فهو مغلوب دائما، ولكن فى غير ذلة، أقل ذكاء حتى وإن فاق محاوره، يجب أن يبدو

طبيعيا طول الوقت، يفيض نشاطا، لا يبالغ، لا ينقص، إن ساعات الوقوف طويلة، لكن عليه إخفاء أرهاقه، ألا يختلس جلوسا ولو دقيقتين، المدير الأجنبى لا يتهاون أبدا، كذا المصرى، إلا أن تعبه توارى ، ومعكراته خفت بعد ظهورها، هكذا فجأة انبثقت فى المكان، بوغت بوميضها فأوشك أن يعشى، بحضورها الأنثوى الذى شع فطغى، وامتد فغطى، لم يكن بمفرده هو الذى تعلق بصره بها، إنما كل من وجد هذه الليلة، صالت بنظراتها هنا وهناك، ثم أخذت طريقها باتجاهه هو، بدأت تعبر الصالة متمهلة، تحيد متثنية متأودة عند اعتراض منضدة لسريانها، كأنها فى عرض مستمر لا ينتهى، عنقها المطواع وصدرها الأشم، وطلائع فخذين أتمين، الجانب الآخر منهما ردفان مكتملان، محفوفان بما لا يزيد أو ينقص، أما قوامها فمتأجج وثاب، كأنها تعرف دربها صوبه، ابتسم، ارتبك، انسحب من كافة الأصول والقواعد، وعندما استقرت أمامه، عندما انتهت إليه، انحنى هربا من عينيها مغالبا خفق قلبه وخدر حواسه، شمله حضورها، ودثره، فأرجفه وهدهده معا، فأرسل عنده مباسم وبشارات، واستنفر شوقا الى مجهول أتم لا يلوح منه قبس، تقدمها إلى منضدة خالية ينتظم حولها مقاعد ثلاثة، جلست فكأنها شبت، أسفرت فتحة الثوب الجانبية عن لحظة اتصال الساق بالفخذ، ريان، ممتلئ، باظ، لعاب رغبته يسيل داخله، يجاهد ليكتم، مرة أخرى ينحنى اتقاء لعينيها البديعتين النهاشتين، عليه أن ينسحب، أن يتراجع

صوب مكان وقوفه، إن سؤالها عما ترغب أكله أو شربه ليس مهمته، لكنه استفسر بصوت خافت، وتراجع ليبلغ زميله رغبتها فى زجاجة بيرة، كيف جرى له ما جرى ؟ مع أنه يرى كل ليلة ربما من تفوقها جمالا، تفوقها؟ كيف.. ربما فى الملامح، لكن تلك حضورها مشبوب، وإشعاعاتها أزلية، أبدية، أما جسدها فمنفلت فار من حدود الثياب المتوارية منه، موحية بعديم قدرتها على لمه، لم يكف عن الطواف حولها، والتسلل من بعيد بالنظر إلى منطقة وجودها، متسائلا عمن جئن ليجلسن معها، إحداهن سمراء، نحيلة، جعداء الشعر، تدخن سيجارة فى أثر الأخرى بدون توقف، الأخرى طويلة فى إفراط، أسيانة الملامح، ربما ألمانية، أو من إحدى الدول الإسكندنافية، أما هى فمن تكون؟ كيف يمكنه أن يعرف بدون أن يلفت النظر؟ اطمأن إلى نزولها الفندق، مفتاح الغرفة أمامها، وعندما دنا ميعاد ذهابه بدت باقية، حذرا اقترب، هل خصته بنظرة؟ هل أومأت؟ لا يقدر على نفى أو إثبات، فى هذه الليلة غادر الفندق على كره لأول مرة، ود المكث فترة أطول، فى تلك الليلة أرق، رأسه كوعاء ماء مغلى، حتى رائحتها تميزت فى الزحام، علقت به، وعندما أعياه التقلب، وخشى طلوع النهار عليه مستيقظا، أنهك باستدعاء خطوها وتجريدها، وتمرير يديه على النافرين الصلبين وتقبيل جهاتها، قبض ذكره بيده، أراح نفسه بنفسه كما اعتاد منذ سنين حتى يهدئ حالة ويروق باله، ويواتيه خدر النعاس، كثيرا ما أنهى توتره باستدعاء جسد لفت انتباهه، أو

وضعا اتخذته إحدى زميلاته عند جلوسها وانحسار الثوب عن بضاضة وفتوة، أو تأثير ملاصقة عابرة دبرتها المصادفة بأنثى قدر لها أن تقف أمامه أو أنس صمتا منها، أو إطالة التحديق إلى صورة ممثلة شبه عارية.

فى اليوم التالى غادر البيت قبل موعده، قبل أمه بحماس، وأوصاها أن تقبل أباه نيابة عنه، بدا شرحا، خفيفا، راغبا فى السعى، هذا الضيق الذى اعتاده عند التوجه إلى الفندق تبدد، يود الإسراع، خطاه أفسح، حريص على حركاته، فكأنها ترقبه خفية طوال سعيه، سيبدأ موعد الغداء عند وصوله، مع بدء نوبته، سيمكنه الاطمئنان عما إذا كانت مقيمة بعد؟ لا يدرى ما يريده بالضبط، لكن مجرد رؤيتها بعث عنده نهضة. على مهل، فى حذر، سيحاول أن يعرف عنها، إنه فى توق إلى رؤيتها، هذا المدد الحيوى الذى يبعث أزيزا خفيا فى أوصاله عند خطوها، عبورها، عند تثنيها، بعد استقرارها قاعدة يستمر الضجيج الخفى المنبعث عن طلعها النضيد، الأخاذ، يؤجج مشاعر طال كتمانها، وهنا لابد من إشارة عابرة إلى خجل لازمه طويلا، وخفقات قلب فتى لم يضمنها قولا أو بوحا.

عندما رآها تهلل وأخفى، تمايل داخله وقمع ظاهره حتى لا تشى ملامحه بخباياه، فيما بعد لاحظ أن اتجاهه ناحيتها كان أسرع، وخطوه أخف، وابتسامته أرحب، أما يده الممدودة فتفيض مودة، وعندما أزاح المقعد قليلا الى الوراء لتتمكن من

القعاد، استنشق عبيرها بقوة، وانشب نظرته عند قاعدة عنقها وبداية وادى ظهرها العارى المنبعث منه زغب ذهبى خفيف يتألق عبر الضوء، اليوم لم تطل وحدتها، جاء من يجهله، من لا يعرفه، من لم يره من قبل هنا، مصرى، ممتلئ ، حول معصمه سوار ذهبى، تقدمه الى حيث تجلس، ركز البصر على مصافحته لها، هل يتعرف بها لأول مرة، يبدو متحفظا كأنه لم يرها من قبل، لم يطل جلوسهما، اكتفيا بشرب العصير، ثم بسقت قامتها متأهبة للانصراف بصحبته، اقتفاهما حتى خرجا، فأوحش داخله وتعجل الغد.

تقريبا، فى الموعد نفسه جاءت، فى التوقيت عينه يتوقع انبثاقها، أحيانا بصحبة هذه السمراء الجعداء، لكن مكثها معها لا يطول، تخطر مرات الى الهاتف، تتحدث بهدوء، تضحك، مرة لاحظ أنها تشير بعصبية، غير أن ما سرى إليه، تلك النظرة التى خصته بها فى الليلة الرابعة لظهورها ، تأكد له ما فيها من خصوصية، ابتهج إلى حد التعب، وعند انصرافها بصحبة مدير احدى الشركات السياحية رمته بطلة جانبية، أوشك أن ينحنى متوددا، غير أنه لاحظ تجهم المدير فكف، إذ يخلو المكان منها يود الانفراد بنفسه بسرعة، وقبل نومه يلتهب باستعادتها، باستحلاب حضورها بمخيلته، أما تلك النظرة فأينعت عنده غرسا، وسقت أحلاما مبهمة، خلال الأسبوع الأول المنقضى على ظهورها لم يكن بقادر على تحديد مصدر كل تفصيلة مما عرفه أو نمى إلى علمه، أحاديثه مع بعض

زملائه التى حرص على أن تبدو عابرة غير ذات غرض، خاصة مع موظف الاستقبال الشاب الهادئ، الذى يجاوره أحيانا فى عربة الفندق، إضافة إلى قول من هنا وقول من هناك، الحوارات السريعة التى تجرى فى الممرات، عند الانتقال من موضع إلى آخر، عرف أنها مقيمة إلى مدى غير معلوم، أنها عاملة بإحدى شركات السياحة الأوروبية، وجودها مع زميلاتها ينشط الحركة، أنهن يقمن فى غرف معلومة، لكنهن ينتقلن من حجرة إلى أخرى، يبدأ التعارف فى الملهى الليلى، أو فى المطعم، أو فى أى مكان آخر، ثم يتولى المدير تدبير الأمور، قال صاحبه موظف الاستقبال إن هذا وضع متعارف عليه فى عدد من الفنادق، خاصة تلك التى تديرها شركات كبرى، تحجب أسماؤها المحظورات، ما سمعه حيره، أدهشه، لكنه عندما التقى بها أمام المصعد ابتسمت، بمفردها هى، جاوبها، كان عليه أن يمضى، طبقا للتعليمات ممنوع عليه إطالة الحوار مع النزلاء، خاصة النساء منهن، أو مصاحبتهن، أما الصعود إلى الطوابق العليا فأمر يؤدى إلى تحقيق قد يعقبه فصل، أو شديد عقوبة، هذا ما قيل له عند بداية خدمته، غير أن ما نمى إليه أحدث عنده زلزلة، ما يتكشف له لم يتوقعه، بل إنه غريب.

عند هذا الحد كانت الشقة قد أتسعت بينه وبين أيام دراسته، مع انصرافه الليلى، فى صمته، وتأمله الطرق شبه الخالية، والبيوت المدثرة، والعتمة، والنوافذ القليلة المنبعث منها الضوء، خيل إليه أن من تردد على الكلية شخص آخر، وأن

الأيام الطويلة التى قضاها يطلع على النظم والقوانين الممضة، ويخط بيده بنية السياسات، خيل إليه أنها نائية، غريبة عنه، أحقا أجهد النفس ليحقق أمنية والده، أحقا تمنى رؤيته دبلوماسيا يرتدى الحلة الكاملة ورباط العنق، ويمثل بلاده فى الخارج؟ لكم أفصح الأب فى جلسة ما بعد العشاء، بل تخيل مرارا ما يرجوه، والبلد التى سيخدم فيها، حتى السطور التى ستخط على بطاقة ولده، تلك الأمنيات، وأحاديث الليل، هل جرت فعلا؟ هل طاف بذهن والده، أو عنده هو يوما ما ذلك المكان الذى يعمل به الآن ؟ أى هوة، أى باب شاسع يفصل بين الحدين، يباعد ما بين الخطين ؟ كأن أمورا خفية تعمل عملها فتعدل وتبدل، وما ينتظره عند الخطوة التالية ربما يتفق أو يختلف مع النية والعزم، بل إنه الآن يوغل فى النأى عما ألفه وعهده، ما تعايش معه عمرا، وما جرى فيما تلا ذلك رسخ هذا وقواه وزاد من بعد المسافة بين ما كان وسيكون، ذلك أنه عند وصوله صبيحة ثلاثاء وعبوره المدخل المخصص للعاملين، فوجئ برجل الأمن يقول له إن المدير يطلبه، وأنه استفسر عن وصوله مرتين، خفق، لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال، لكن رجل الأمن بسط يديه، من أين له العلم ؟ .

ابتسم المدير، اقترب منه ممسكا بذراعه، ألم يقل له إن مستقبلا رائعا فى انتظاره ؟ إذن ..لا يراد به شر، فى كل مرة يستدعيه المدير يظن أنه أخطأ أو أتى مخالفة، وأن توبيخا ينتظره أو عقوبة، غير أن قلقه لم يول، ماذا يراد به ؟ قال

الرجل بلهجة ذات إيحاء ومعنى أن مائة سبعة وسبعين معجبة به. مائة سبعة وسبعين ؟ من هى ؟ ضحك المدير ضحكته المبتسرة ، حقا لا يعرفها؟.. إنها الحسناء التى يأكلها بعينيه كلما دخلت إلى المطعم.

قال المدير بجدية، إنها تنتظره فى الثالثة تماما، ويمكنه الصعود، ضحك قائلا ، تذكرنا وأنت معها.. لا تكسفنا.

دخل المطعم، كأنه يقف على حدود مجهول، غامض، لماذا لم تتجه إليه مباشرة ؟ صحيح أنها رمقته مرات، لكن لم يصل إليه ما عبر عنه المدير، ماذا تريد منه ؟ لهجة المدير لا تخفى مضمونها، بل إنه أوشك أن يغمز بعينيه، الثالثة إلا خمس دقائق جاء أحد زملائه، قال مبتسما إنه سيحل محله، إنه يمكنه الانصراف ، كأن الفندق كله يعرف، كأنهم يعرفون أين سيكون بعد دقائق، وعندما توقف أمام المصعد لم يضطر إلى التلفت، الإذن بالصعود من المدير شخصيا، قال لعامل المصعد بثبات، الطابق الاول ، يدارى العامل وجهه، هل يبتسم ؟ هل يعرف هو أيضا، لا يعنيه الأمر، المهم الآن الثبات، حتى يوفق فيما ينتظره، عندما قال له العامل، مع السلامة، ارتبك لحظات، كأنه يمر بلحظات مشابهة لما يمر به أى عريس يقف مع عروسه فى صالة الاحتفالات قبل صعودهما إلى الغرفة بعد انتهاء الفرح، كل من يتطلع إليهما يتخيل ما سيجرى، أما الأخيلة الشبقة فتجرد العروس ، لكن لماذا يتجه بمخيلته تلك الوجهة ؟ ربما

تريده لأمر آخر، غير أن مجرد جلوسه وحيدا اليها يفتح مغاليق جسده، قبل أن يمد يده ليطرق الباب فكر هل فى الأمر مكيدة ؟ تردد، لكنه خطا بقدميه، جاء جاء، عندما فتح الباب أشرف على تخوم عطر خفيف،الرائحة التى اعتادها عند مرورها، تقف وراء الباب، تطل برأسها باهرة العينين، تبتسم، تقول مرحبة بالإنجليزية، مزيج من ترحيب وتشجيع واستغراب عجيب !

تفضل..

يلج الغرفة فيدخل إلى زمن مغاير، هذا كله جديد عليه، هاهى مكتملة، بديعة الوقفة، هجومية النظرات شتان شتان ما بين رؤية عينيها من بعد، وسط الزحام، والوقوف فى محيط رؤيتها، فى مداهما، شتان أن تنظر بهما إلى جمع، وأن تحتوى بهما فردا، هو بالأخص، من أى نسيج أسود شفاف صيغ هذا الثوب الذى يشى بمفرق الردفين وعتمة مابين الفخذين الواعدة، ينسدل على نهوض بنيانها، واكتماله، وفورانه المتدفق، الضاج، كتفاها العاريتان المستديرتان، انحناءتهما تغرى بالميل، بلثمهما، أما نهديها فلا مشد يسندهما، حلمتان مشرعتان، بدأ داخله مس وأزيز، أما ركبتاه فسرى عبرهما خدر وتسيب، كاد ينتفض عندما فوجئ بها تمد يديها لتخلع جاكتته وتفك رباط عنقه، نظراتها تلج عبر مسامه، ود القعاد إذ أوشك إعياء لطيف أن يحطه، وعندما شبت على أطراف قدميها لتتناول المشجب

اكتمل بزوغ جسدها، اتضحت التقاسيم، وانجلى السفور، تعلق بالخط اللامرئى الذى يحدد منتصف الظهر ثم يتقوس، ينحنى ليتحول إلى استدارات عجيبة، فكأن ردفيها يشدان فخذيها، مكتملين، صلبين، ملحقين بها، متصلان، منفصلان، ولأنها شبت، فقد انخسف الرداء الحريرى الشفاف المطرز بخطوط طويلة مذهبة، توارى بعضه فى المفرق الذى يباعدهما ويقربهما ويبرزهما، فى الوقت عينه الذى يفصلهما، فما أكمل التكوين وأبدعه، فجأة استدارت، أوقعته فى كمين عينيها، مما أربكه لحظات، غير أن الازيز تحول إلى صراخ أو عويل متصل دفع إليه بجرأة لم يعهدها عنده، كانت هى اللحظة بأتمها، تختزل كل ما انقضى وتحجب عنه كافة ما يتوقع مجيئه أو حدوثه، أشارت إلى المقعد فأبى، خطت نحوه فاشتد أمره، حتى انتبه إلى ماتسفر عنه ثيابه، لكنه لم يبذل الجهد ليدارى، حركتها المحدودة كأنها ركض داخله، تأودها ينشب عنده، تمد يدها بكأس شفاف، تشير إلى زجاجة ويسكى، ليس مما يقدمه الفندق..

– كأس ؟

يضطر إلى ازدراد ريقه قبل أن يلفظ «لا» بصوت متخثر.

– لا تشرب ؟

– لا..

– مسلم ؟

قال إنه لم يعتد الشرب فى الظهيرة، الحقيقة أنه لم يذق الويسكى قط، تقف معرفته عند البيرة التى جرع منها كوبا أو اثنين، وأخفى ذلك عن والده الذى حذره دائما من الخمرة، من الحشيش، من الأقراص المخدرة التى ظهرت وشاعت أخيرا وتنشر الصحف عنها، من النساء والزنا، كان يقول إن مشكلة ستقابله عند تمثيله بلاده فى الخارج، لا تخلو الحفلات الدبلوماسية من الخمر، ألا يظهر السفراء والقناصل وبأيديهم الكئوس؟ لكنه يقول مستدركا، إنه يمكنه المجاملة بشرب كأس من الليمون أو عصير البرتقال، هكذا يمثل تقاليد بلاده حقا، تقول إنها تشرب فى أى وقت، تضع قطعا صغيرة من الثلج، لا يرى إلا تحرك جسدها، وعندما وضعت ساقا فوق الأخرى نفر وركها المرتوى، فأوشك على الهذيان، ومع هذا كله حاش نفسه عن الاندفاع، بقيت عنده خشية يقظة، ربما عد ذلك تهورا يقتضى العقوبة، وفى لحظة وعى أن ما يأتى منه رد على فعلها هى، وليس استجابة لاضطرامه وفوران حاله هو، أزعجه ذلك.

تقول إنها عرفت اسمه الأول، وعرفت دراسته للعلوم السياسية، لكنها تجهل إلى أى البلاد سافر؟ يقول إنه لم يسافر قط ، تبدى دهشة، هى رحلت إلى بلدان عديدة، تسافر منذ سن مبكرة، بلادها فى شمال الدنيا، باردة، لا تسطع الشمس إلا أياما قليلة فى الصيف، كافة رسائلها إلى أصدقائها تدور حول شمس مصر، والمناخ الذى لا مثيل له، لكن الزحام شديد، تسأله عن خططه للمستقبل، يقول إنه لا

يدرى، تسأله عما إذا كان راضيا فى عمله هذا ؟ يقول إنه غير مستقر حتى الآن، لكنه يتمنى أن يلتحق بالسلك الديبلوماسى، تقول لكن المرتبات قليلة، يضحك قائلا إنها تعرف أمورا كثيرة، تقول إنها لم تعرف شيئا بعد، تصمت قليلا، تشرد نظراتها، يحار، إلام سيؤدى هذا الحديث ؟ يقفز إلى وعيه تساؤل، ماذا تريد منه ؟ هل يتخذ خطوة تجاهما ؟ لو أنهما بعيدان عن الفندق، لو أنه لم يأت بتعليمات المدير، لبادر وأقبل، ربما ما يمر الآن به معتاد عندها، لكن.. هل تقعد هكذا سافرة بجسدها كله ؟ بعد إقدامها على خلع جاكتته وفك رباط عنقه؟ إن حضورها الانثوى يسبب له دوارا، بل أن خاطراً يباغته، هل يمكنه إرضاء هذا الموكب كله ؟ تقف حدود تجربته عند التقبيل المختلس وتمرير الكف فى أماكن هادئة على ضفتى النيل، قبلة خاطفة، ينتهى الأمر بتشابك الأصابع، وضغط الأيدى، وتأوه مكتوم، يذكر صوت صاحبته الحذر، آه... إنك تؤلمنى !، تسأل: هل تعرف كل من يتردد على الفندق ؟ يقول إنه يعرف بعضهم، إنه مستجد فى العمل هنا. تقول كأنها تحدث شخصا ثالثا غائبا، إنها تكره حياة الفنادق، تلتفت إليه فجأة..

- «تعال»..

ينتفض عابرا المسافة القصيرة التى تفصلهما، يرتمى بكليته صوب جاذبية فلكها، إذ حط عند مشارفها تمدد إعياؤه، وثقل تنفسه حتى خرج منه مايشبه الشخير، ولما كف، شرع

فى شـهيق شـره، بدا كـأنه لن يكف، يجـرع عـبـقـهـا، عطرها الداخلى، تركض دقـات قلبـه، يود لـو ذوى فى إسـارها، مـررت اصابعها خلال شعره..

- برىء.. برىء..

تفك أزراره، تجرده، إذ يهم، تشير إليه أن يكف، إنها تفضل القيام بذلك، للـحظة يخجل من عريه، ما يلقاه غزير، متعدد، لا يدرى بأى الأمور يبدأ، يود لو ياتيها من كافة جهاتها، يدنو من افقـها، يقـارب تضـاريسـها، ضـحكاتها قصيرة، سريعة، حـانية، يحـوم حـول مـركزها، كـأنه يخـشى أن يبـدأ فـينتـهى، وعندمـا اجتاز تـخومـهـا انخلع غير مصدق وجرى بعضه فى بـعضـه، يدفس أنفه فى إبطها، تحنو، تمرر أناملها فوق ظهره، يبدأ أمره فى السريان من جديد، كأنها وعت ما هو عليه فامتصت زخمه الأول، أما الآن وقد اكتمل استواؤها، فتبدو كمـارج من نار، ينبوع لهب، تتصلب، ترتخى، تتقلب فى هـجوعـهـا، وتمشى فى ثباتها، يسلم قياده، تطرحه، تدغدغه، لم يقدر على منع أصوات قصيرة من الصدور، تبدو كأنهـا تستحثه على إتيان المزيد، يدرك أن هذا مما يستثير كوامنها الخبيئة ويقربها من ذراها فيلبى..

كم السـاعـة الآن ؟ لا يدرى، لكنه يوقن أن مـا انقـضـى لمـا يؤرخ به، تقبله، تمسه مسـا هينا، تسوى شعره، تعدل ياقته، لم

يعتد ذلك من أنثى، إنه قادر على النظر إلى عينيها غير وجل، إنها راضية، لكن المهم، متى وأين اللقاء التالى ؟ تقول برقة وغموض..

- بعد.. بعد..

ينصرف من الحجرة، انشطرت حياته إلى قسمين، تشعبت رحلته إلى مرحلتين، إنه مضمخ برائحتها، غاص بوجودها داخله، يود الانصراف، الخلو إلى نفسه، استعادة ما جرى، تمثل ما وقع، قولها أنها تحب صدقه، وبكارته، انه وسيم، يتخدر اذ يستعيد إشعاعاتها عند القرب، يمضى على مهل، ينزل الدرج بطيئا، مجبر على العودة إلى المطعم، يعبر الصالة، يوشك أن يتعثر، إذ يفاجأ بالمدير فى مواجهته تماما عند المنحنى المؤدى الى المطعم..

«ها.. رفعت رأسنا ؟»..

كأنه عالم بكل التفاصيل، يصافحه، يضغط يده، يقول إنه كتب مذكرة لصرف مكافأة خاصة له، يضيق، غير أنه لا يفصح، يحار الا انه لا يبدى، لماذا يكافئونه ؟ يخدش ذلك خصوصية ما جرى، لماذا يتعاملون معه وكأنه أدى وظيفة، لكن يبدو انه لم يمض إليها إلا بإذن وتصريح، إن خاطره يغيم، غير أن ما مر به طغى فلم يقدر إلا على استعادته، فى هذا المساء ازدحم المطعم، وعلا صخب، ولم يتوقف طويلا عند اهتمام أبدته ابنة تاجر أدوات صحية شهير بدأت التردد منذ أيام مع

عدد من صاحباتها، تنفق بسخاء، جاوبها بما تمليه قواعد الخدمة لا غير، عنده قلق، لكنه يفيض حيوية، وكلما استعاد لحظة يسرى تنميلٌ خفيف لطيف عبر ظهره، عندما لاحت عند المدخل كانت بصحبة سويدية شقراء، فارعة، عريضة الكتفين، ذكورية الهيكل والأرداف، لم تصل إلا أول أمس، تجول بعينيها فى القاعة، كأنها لم تلمحه، لم تره، أهذه عادتها فى الليالى المنقضية، هل تتجاهله حتى لا توحى بما كان ؟ لكن المدير يبدو ملما، جامعا، من واجباته التقدم، والابتسام، الانحناء، الإشارة بيده، إلى المنضدة الخالية أو المحجوزة، بعد أن تم جلوسها أومأت، هل تأخر فى الأبتعاد عنها؟ هل تردد قليلا ؟ لا يدرى، لكنه ود لو تلقى إشارة تخصه، عندما أرتد الى موقعه عند المدخل اجتهد فى استعادة ملامحها، هل أبدت ابتسامة خفية ؟ ربما، لا.. إنه مخطئ، كان خطوها أمامه مختلفا، يستعيد ما كان بينهما منذ ساعة زمن واحدة، من يتصور كيف مضى الأمر بين هذه الجالسة المتألقة، وبينه هو الذى يستقبل القادمين بلطف، لم تلتفت قط إلى جهته، ود لو يبقى، لو يمكث، لو يجلس إلى منضدة مجاورة، أو يقف فى مواجهتها، فى اليوم الثالث قرر أن ينهى هذا الصمت المحير، أن يقدم على ما يعد مخالفة، ابتسم لها، استفسر عن صحتها غامسا عينيه في عينيها، التفتت إليه كأنها بوغتت بهذا التبسط ، إلا أنها فى اليوم السابع المنقضى على اندماجهما قابلته بعينين تفيضان ترحابا ومودة، قالت بالعربية «انت كويس»، خف، وشف، وتبدد

كمده المتراكم، إلا أنه عندما لمح اقتراب الرجل الممتلئ، ذى السوار الذهبى حول معصمه، لفه غم، وعند اضطجاعه أرق، تقلب موغلا فى خططه الليلية، قرر الصعود إليها، طرق الباب، دخوله، استفساره عن أسباب تجاهلها له، تقبيله يدها، لكنه عند بدء نوبته فى المطعم، لم يجرؤ على تجاوز المدخل، فى هذا اليوم غابت، لم تظهر فى اليوم التالى، وفى الرابع ضج، لم يستطع المقاومة، تقدم من زميله موظف الاستقبال، قال إن صاحبا له يسأل عن مهندس دانمركى، متخصص فى الطباعة، ينزل فى الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين، بعد تقليب بطاقات الإقامة، قال زميله : الحجرة لا ينزل بها شخص بهذا الاسم، عندئذ بذل جهدا ليحافظ على حيادية ملامحه، من يشغلها إذن ؟.

عند عودته إلى المطعم تزاوجت عنده الراحة بالضيق، راحة لانها اوحشت روحه، قل زاده، وتغير لونه حتى لاحظ أبوه فاستفسر عما به، غير أن حاله أوغل فى انعكاس، وأمره أصبح فى خلف، تباعد عن الاقربين، شح لفظه، وطال شروده، أوشك وكسه على التمام عندما علم أنها تجىء فى الليل المتأخر بعد انصرافه، وأنها تغيب أياما وتظهر بصحبة جديدة، وأن معارفها يعدون الآن بالمئات، وأن رجالا كبارا تنشر أخبارهم فى الصحف يجيئون إليها ويسعون، وينتظرون ظهورها، وبعضهم يصحبها إلى خارج.

الحركة فى المطعم صارت مقيتة، ملامحه يظللها غمام،

وبالتاكيد فإنه لم يلحظ فى البداية اهتمام هذه السيدة الأمريكية به، لم تكن بصحبة أحد، وحيدة، متأنقة، تجلس إلى منضدة صغيرة، وبين الحين والآخر تدون بعض الملاحظات فى دفتر صغير، أو تنظر إلى مرآة صغيرة، بيضاوية، مزخرفة الحواف، تعدل أطراف شعرها، أو تهز رأسها راضية، تمضغ على مهل، بتأن، وعند بدئها الأكل تسبح عيناها فى شرود عظيم، المطعم مزدحم باستمرار، نسبة الإشغال فى الفندق لا بأس بها، فى تزايد، أما السياح العرب فوصلوا، يجيء بعضهم بصحبة نساء محجبات وأخريات منهن سافرات، وأطفال، يبدى المدير عناية بهم، يقف مع بعضهم، يتبادل الود، أو يحادثهم مقطب الجبين، وعندما أرسل فى طلبه ذات ليلة اشتد فيها الزحام، توالت عليه خواطر شتى وبوارق، قابله جادا، طلب منه مباشرة الصعود الى أربعمائة وأربعة عشر، ثم قال إنه فى المرة السابقة لم يسأله عما جرى، وكان المفروض أن يجيء من نفسه ليقص عليه أدق التفاصيل، لكنه فى هذه المرة لابد أن يطلعه على كل شيء، أصغى إلى اللهجة الحازمة، المدير فى عجلة، لا يقترح إنما يأمر، اتجه إلى المصعد، هل بدلت غرفتها ؟ ربما، إقامتها طالت، إن حيوية تسرى وإن لم يفارقه شؤم، لن يقربها حتى يستفسر عن نفورها، عن تجاهله، سيطلب رؤيتها خارج الفندق، يود الا يكون لقاؤهما من خلال المدير اللزج، الفضولى، عكارة مترسبة صعب تلاشيها، غير أن دمه نشط فى عروقه عندما طرق الباب، وبدت له رؤى بهيجة، فليعش ما سيمر به،

الا أنه أوشك على التراجع خطوتين عند فتح الباب، من هذه؟ للحظات لم يستطع التعرف عليها، الملامح لتلك السيدة، لكن شعرها مسدل، تبتسم الأمريكية العجوز، تدعوه إلى الدخول، رائحة عطر نفاذ، مختلف لكنه سيظل مرتبطا بهذه اللحظات الأولى، غرفة أوسع، تطل على الليل والخلاء واللانهائي، ثلاث حقائب ضخمة متراصة، متجاورة، إحداها معدنية الشكل، وكأنها صنعت من الألومنيوم، سلة فاكهة فوق المنضدة، أصابع الموز مغلفة بورق شفاف، كذا عنقود العنب قاتم اللون، تبسط يدها مرحبة، يقعد في نفس الموضع الذي لزمه عند دخوله الغرفة رقم مائة سبعة وسبعين. لكن ما أبعد الشقة، صوتها خشن، فيه بحة، نفس السؤال، والإجابة بالنفي، لا يشرب، تقف أمام المرآة، تنثني متجهة إلى منضدة مزدحمة بالاطباق، كيف لم يلحظها؟ سمك مدخن، شرائح جبن، لحم بارد، سلاطات، تقول إنها ستعد له عشاء خفيفا، ستأكل معه، يومئ موافقا، تناوله الطعام سيؤخر اللحظة التي يتوقعها، تفتح زجاجة مياه معدنية، تصب ملء كوبين، تسأله: هل يفضل الضوء هكذا؟ يهز رأسه، تتطلع حولها، تبدو متدفقة النشاط، في صوتها، في حضورها حيوية كامنة، يستدعي إلى ذهنه الكليل التثني، التمهل، التأود، انسدال الثوب الدال المدل، نمش يغطي وجه محدثته، كيف لم يره ؟ لولا هذا الصدر المتهدل والركبتان البارزتان لما بانت علامات تقدم العمر، ليست طويلة، لكنها عندما استقرت في مواجهته أبقت رأسها مرفوعا مما أبرز

نحول رقبتها وانسيابيتها وشبها إلى أعلى باستمرار، كأنها واقفة أبدا، تقول إنها جاءت إلى مصر مرتين، وتنوى العودة فى العام المقبل، لكنها المرة الأولى التى تجىء وحيدة، بمفردها، مات زوجها العام الماضى، ابنها يعيش فى سيدنى، وابنتها فى أسلو، أما هى فتسكن فى كاليفورنيا، لكنها اعتادت قضاء الشتاء فى جنوب أسبانيا، تمتلك بيتا هناك، قريبا من الطراز العربى، تقوم إلى حقيبة يد سوداء صغيرة، مقبضها ذهبى، تتناول بطاقة خضراء اللون، قرأ عنوانها فى كاليفورنيا ورقم الهاتف، على الوجه الآخر عنوانها فى أسبانيا، قالت إنها زارت بلدانا عديدة فى العالم، كان زوجها يصحبها دائما، عمله اقتضى تنقله بين بلدان شتى، لم يتركها بمفردها قط، خاصة بعد استقلال ابنهما بأمره، ورحيل ابنتها للإقامة مع زوجها النرويجى، إنها لا تفضل البقاء مددا طويلة فى أمريكا، زارت الاتحاد السوفييتى قبل شهور ثلاثة، أول بلد تراه بمفردها، زوجها لم يذهب إليه، قالت إنها تمنت لو صحبها فى لينتجراد، مدينة جميلة، مليئة بالجسور، والنواصى البديعة، أما أعمدة الاضاءة هناك فمتحف متفرق قائم بذاته، كذا القصور العتيقة المطلة على نهر النيفا من خلال خضرة كثيفة، تغمض عينيها، معبرة عن إعجابها، تبدو ملامحها ناطقة، جذابة، لا تفنى الأنوثة مع تقدم العمر، هكذا فكر وقدر، يبدل جلسته، إنه مصغ، أقل توترا وإن كان حائرا، متى البداية وكيف ؟ هى أو هو؟ حتى الآن لم يلتقط إشارة أو إيماءة، يخشى الإقدام، ربما

أتى ما يغضبها، أو ما لم تتأهب لقبوله، حتى لو قويت عنده الرغبة فلن يخرجها إلى حيز التصرف والتعبير، عند الأخرى انتفض الدم في عروقه بمجرد دخوله، أما هذه العجوز التي تفيض حيوية وأسى على زوجها الغارب، فإنها لم تبد علامة حتى الآن، ولم تقدم إلا على حديث طويل، عندما رآها هنا كاد يولي، تقزز من مجرد تخيله إلى جوارها، غير أنه الآن.. ولم يمض من الوقت إلا مقدار يسير يتطلع إليها راغبا، بعثت عنده نشاطا وأنهت خمودا، هل يبدأ تحسس طريقه حذرا، لاشك أنها أعمق خبرة وتجربة، بحيث تؤجل الأمر حتى لا تبدو رغبتها مباشرة، فجة، غير أن مايعكمه ضيقا، إدراكه التام أنه مقيد، وأنه... أنه يقوم بمهمة، وأنه قد يلقى الجزاء أو اللوم الذي ربما وصل إلى حد العقاب، تنهي صمته بسؤاله عن جهة مولده، يقول إنه ولد في القاهرة، وعاش بها، تقول لابد أنه يعرف المدينة جيدا، تطلب منه أن يحدثها عن أقسامها، عن أحيائها القديمة خاصة، يتهيأ، لكنها تشير بيدها، ترجو منه الانتظار قليلا، تعود ممسكة بدفتر جيب صغير، يتذكر جلستها أقصى المطعم، تدوينها بعض السطور في هذا الدفتر، تتطلع إليه بملامح فيها الانتظار لما سيقول، تدون، بين الحين والحين تستفسر عن كلمة، عن اسم شارع، تطلب منه أن يمليه عليها حرفا، حرفا، تهز رأسها هزات سريعة، لم تكن خبرته بالمدينة عميقة، حدثها عن منطقة سكنه، ميدان السكاكيني، القصر القديم، الظاهر، مسجد الظاهر بيبرس المهجور، عن الأشجار

القديمة، والاجانب الذين كانوا يفضلون سكنى المنطقة ثم هجروها، استعاد بعضا من ذكريات والده عن الترام الذى كان يصل إلى الأهرامات، استوقفته بإشارة من يدها، سألته عن دراسته، تمهل عند قوله إنه درس العلوم السياسية، ابدت دهشة، إذن عمله فى الفندق إضافى إلى جانب عمله الأساسى، نفى، قال إنه متفرغ تماما، دونت بعض الملاحظات، استغرقت وقتا أطول، قالت، لابد أنه نسى ما تعلمه، فى بساطة أوما مجيبا، لأول مرة يعترف نطقا وقولا، ولمن؟ لهذه المرأة التى لا يعرفها، المكلف بالجلوس إليها ، التى يلتقى بها أول مرة، وربما آخر مرة، خفف عن نفسه ثقلا، ستمضى ولن تلح عليه بالاستفسار، كيف نسى مادرسه، كيف ينظر إلى سنوات دراسته الطويلة؟ يطرق ساهما، نطق بما آل إليه حاله، يبدو أنها لاحظت وجومه، تساءلت، هل اثقلت عليه ؟ ابتسم مجاملا، أبدا، أبدا، تقوم إلى سلة الفاكهة، تتناول أصبعا من الموز، تقشره، تقدمه إليه، يتساءل، أيكون ذلك مقدمة لاقترابها منه؟ صحيح أنها عجوز، لكنها تفيض نشاطا وحيوية، حتى أنه شعر بتعب غريب فى مواجهتها، أدركه مس من كهولة لا تزال نائية عنه، تعود إلى مقعدها، دفترها لا يفارقها، ترفع حاجبيها، تبدو مستغرقة فيما يجهله، يلوح تعجب ودهشة بين ثنايا ملامحها، من أى الامور؟ لا يدرى، تتشاغل بالنظر حولها، هل حانت المغادرة ؟ فليجرب، يقف، تومئ شاكرة، ابتسامة محايدة، تطلب منه الانتظار، تمد إليه مظروفا عليه شعار

الفندق، يحـار، تهـز رأسـهـا بما يعنى أنه من الضـرورى أن يأخذه، عند البـاب أمسكت ذراعه، شبت قليلا، قبلت وجنتيه، قالت إنه لطيف، مع السلامة.

فى الممر فتح المظروف، ورقة مالية واحدة فئة الخمسين دولارا، ابتسم مدير الفندق، قال إنه يحب الأمانة، هذا ما تم الاتفاق عليه فعلا، لكنه لم يخبره مقدما حتى يستوثق ذمته، قال إن أهم مميزات الفندقى الناجح الأمانة .. الأمانة بالتحديد.. ساعدته على ارتقاء السلم من أوله، حتى وصوله إلى المرتبة التى يحتلها الآن، هل يعلم أنه بدأ عاملا فى نظافة الغرف ؟ كم من أشياء ثمينة عثر عليها فى الحجرات وقام بتسليمها، بعضها مما خف حمله وارتفع ثمنه، كان يمكنه إخفاؤها، لكنها الأمانة ثم الأمانة، إن نصيبه خمسة وعشرون دولارا سوف تسلم إليه فى نهاية الشهر إضافة إلى ما سيستجد، إنه وسيم، مكتمل الشكل وفرصه بلا حدود، ضحك، الضحكة ذاتها، قال إنه ليس بغافل عن نظرات الحسان إليه، كل نظرة إعجاب به تبلغه، يحاط بها علما، مرة أخرى هذه الضحكة، لكم يمقتها..

عندئذ نطق، تساءل، لكن... لماذا هذه الدولارات ؟ قال المدير اخشى أن ترتد غبيا، لأنك أصغيت، لأنك استمعت إلى وحدتها، وإذا طلبتك مرة أخرى ستدفع من جديد، لو تطور الأمر مع شطارتك، سيكون الحساب مختلفا، مفهوم ؟ إن وجهه جامد

الآن، يقول، هل تعرف الممر الذى بدأت فيه عملك؟ ستقف مرة أخرى عند باب المطعم، بجوار التمثال الرخامى، قابل الداخلين بابتسامة وانحناءة، احذر مصافحتهم، لا تتحرك معهم، لاتتبعهم، مفهوم ؟ أومأ مجيبا، يقول المدير إنه عمل مؤقت تمليه ضرورة معينة، لن يفصح عنها الآن.

فى هذه الليلة رأى عددا أكبر يتجهون إلى المطعم، يختلفون عن رواد المطعم السريع، الرجال يرتدون الملابس الكاملة، وأربطة العنق، أما النساء فيضوين فى بريق متلالئ ، الفخامة بادية، والثراء فائض إلا أنه حن إلى المطعم الآخر، حيث الحيوية متدفقة، والفرصة متاحة لتبادل جملة أو جمل، إنه ينحنى، يبتسم، ولكن معظمهم لا يبدو عليهم أنهم يلحظون وجوده حتى كأنه قطعة صماء متممة لهذه القطع الصماء المتناثرة فى الممر، تمثال رخامى، مرآة ثمينة، رأس تمثال محنط بعد تمام صيده وحزه منذ زمن، غير أنه عندما انحنى مبتسما لذلك الشيخ العربى النحيل الملتحف بعباءة سوداء مطرزة حوافها بالقصب، ويغطى رأسه بقماش من مربعات حمراء وبيضاء جاوبه، قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يتبعه ثلاثة على مسافة لا تزيد أو تنقص، عباءاتهم بنية اللون، رمقوه بنظرات صماء، بعد انتهاء العشاء فوجئ بتوقفه أمامه، يمد يده، لم يتح له فرصة للانحناء طبقا للتعليمات، أحاط يده بكف نحيلة، معروقة، باردة، لاحظ لحيته المثلثة، وعينيه شبه المكحولتين، المرافقون الثلاثة يحتفظون بنفس المسافة،

يبتسمون، يشجعونه بالنظر، اتسعت عينا اوسطهما كأنه ينبهه إلى الحظوة التى نالها، تساءل الشيخ: تعمل هنا؟ أومأ، نعم، ردد الرجل، ماشاء الله، ماشاء الله..

ضرب المدير المكتب بقبضة يده غاضبا، إلى متى سيعلمه أصول الشغل ؟ رجل كهذا كان يجب التودد إليه، مخاطبته بياطويل العمر، طال عمرك، معاليك، هل يعرف ماذا تعنى رتبة شيخ ؟

عندما رآه فى اليوم التالى قادما نزل به ضيق، ضغط يده، سأله عما إذا كان يقف هنا كل ليلة ؟

ـ «نعم ياطويل العمر»..

«الله، الله، ومهذب أيضا..»

ثم اتبع قوله بلهجة مصرية دارجة..

ـ «إيه الحلاوة دى ؟»..

ازداد اقترابا منه، مال نحوه حتى أوشك أنفه أن يلامس جبهته، بدأ يسمعه شعرا :

تفاح خدى شقير فيه ... مسكى لون زها وازهر

قد بان منه النوى فاضحى ... زهرى لون بخد مسعر

ماتزال راحته محيطة بيده، قبل أن ينصرف هز رأسه..

ـ «الله جميل يحب الجمال»..

لم يدر كيف يكون الرد، عند استماعه إلى الشعر دار بنظراته، لم يدر أين يوجهها، أو كيف، أن ضيقا ثقيلا تملكه وجثم عليه، خاصة عندما بدأ يتلو هذا الشعر، ضيق ممتزج بكراهية وخوف وقشعريرة تبعث عنده تساؤلا، ماذا يراد به، ماذا ينتظره ؟ كل شيء جلي أمامه، غير أنه لم يدر كيف يدفع عنه هذا الخطر اللزج السقيم، لام نفسه لأن رد فعله لم يبد منذ اللحظة الأولى، لكن مقتضيات العمل، ظروفه..

فى المكتب بدا المدير قاسيا، غتيتا، ينوى الأذى، تساءل مستنكرا، كيف يمكن رد هدية معاليه ؟

توقف لحظة، قال..

- مغفل.. هل تعرف ثمن هذه الساعة ؟

أطال النظر إليه..

- أربعة آلاف جنيه، يعنى ستضع حول معصمك سيارة صغيرة..

جاوب المدير بنظر كظيم، تساءل، ولماذا يهديه الساعة ؟ إنه لا يعرف اسمه حتى، يضحك المدير، ضحكة يصغى إليها لأول مرة، مصحوبة بما يشبه الشخير، عيناه صوب السقف إذ يقول، وهل من الضرورى أن يعرف اسمك ؟، ترتد ملامحه خشنة، يتجه نحوه متمهلا، كلمة واحدة تتردد داخله تلخص ملامح المدير الذى دنا منه، «فاجر» يخرج صوته بطيئا، خافتا،

فيه قسوة، اسمع ياولد، هل تذكر مجيئك عندى أول مرة ؟، ألم أقل لك إن شرطنا هو الطاعة التامة، هو قبول أى عمل يوكل إليك؟، يوشك أن يبدى اعتراضه، غير أن المدير لوح بيده وكأنه ينهى الحوار، خلاص... هذا شغل، شغل سيظل أمره بينى وبينك.. هنا وصل إلى نقطة لا يمكنه مقابلتها بالصمت، أو تجاهل المعنى الكامن السافر، يقول، هل من العمل أن يتقبل مثل هذه الهدية التى لا يمكنه ردها؟ هل من الشغل أن يقرص الشيخ خده ويبدى الرضا؟ هل من العمل أن يغمز له بعينه، هل يقبل على نفسه مثل هذا؟

يقهقه المدير، يتراجع متمايلا حتى يستند إلى المكتب، إنه يحملق فى المدير، إن ما يواجهه يتجاوز وجود هذا الرجل الغتيت، إن خيوطا خفية تحدق به، تدنو من مسامه، تهدده بالنفاذ إلى أبعد أغواره، توشك أن تبدل سنينه كلها وما سيجىء من زمنه !، يخيل إليه أن المدير الاجنبى يقف وراء هذا الباب، يصغى، ينتظر النتيجة، وآخرين يجهلهم، لم يلتق بهم قط ولن يراهم أبدا، بعضهم هنا وآخرون منهم هناك ، إن ضيقه يتحول إلى غضب، ومرثية لنفسه، أهذا ما ينتظره ؟ ينهى المدير ـ فاجر ـ قهقهة، ليبدأ هجوما ساخرا، متصلا، مشيرا إليه بأصبعه أحيانا، الولد شريف، الولد عفيف، اسم الله عليه، هل تريد أن توقف حال الفندق؟ من أين يجىء مرتبك الذى لا يتقاضاه وزير؟.. وتكاليف الوجبات التى تطفحها بدون مقابل، أنت لا تدرى مصلحتك، لا تدرى مصلحة الفندق، ستة عشر

مليونا أنفقها أصحاب هذا المبنى، ويوميا يتصلون به، يضغطون عليه، بل كل ساعة، يجب عليه أن يضحى، إذا لم يكن من أجل الفندق فمن أجل البلد، إن إغضاب معاليه ربما يسىء إلى العلاقات، ثم.. لماذا يخاف؟ هل سيأخذ منه مالا يريد أن يعطيه غصبا؟ أبدا، ثم لماذا يفترض ما يفترض، ربما يكتفى معاليه بالمحاورة والملاطفة، ها.. ومن يدرى، ربما يفاجأ عند طلوعه إليه بالرجل مرتديا قميصا نسائيا، برغم غضبه وضيقه منه سيقص عليه حكاية طريفة، حدث أن وصل إلى ليمان طرة شاب صغير يفوقك جمالا، أشقر، أنت شعرك أسود، خشى عليه الضابط من عتاة المساجين فوفر له إقامة منفردة وأوصى الحرس بحمايته، ومع مرور الأيام أهمل أمره وصار يروح ويجىء فى السجن، وأمر أحد الضباط بضمه إلى حجرة بالطابق الثانى كان يقيم فيها فتوة العنبر كله، رجل فى حجم معالى الشيخ ثلاث مرات، قاتل، هل تعرف ماذا جرى؟ فوجئ الضباط والجنود أن هذا الشاب الصغير الرقيق هو الرجل، والفتوة الذى يهابه الكل فى موقع الأنثى منه.. فلماذا يخشى؟ لماذا يخاف؟ ثم إن هذا غباء ما بعده غباء، سيقطع على نفسه طريق الترقى والثراء، ليسأله هو الذى بدأ السلم من أوله.

لا يتوقف، يبدو كأنه أعد الحديث من قبل، متصل، متدفق، يتزايد يقينه أنه سقط فى فخ، وأن عليه أن ينجو، الهرب حتمى، الفرار واجب، وإلا ضاع إلى الابد، ولسبب ما يتذكر وجه أبيه

الطيب يود لو يراه الآن، لو يلوذ به، أن يأوى إلى ركنه السديد، هناك فى جلستهما المسائية التى تبدو نائية، بعيدة، حيث لا يمكن لمثل هذا الفاجر أن يصل، أن يطل، أن يلفظ ما يقوله الآن، لكم تبدو أمنية أبيه قصية، كأنها قيلت فى زمن يخص غيره، لا يمت إليه، أن يمثل بلاده فى الخارج، يقول الفاجر أن تصرفه سوف يسيىء إلى العلاقات، إن مرثية تسرى عبره، مرثية لا تؤدى به إلى انكسار. إنما تفجر حنقا وغضبا..

ـ اعتبرنى مستقيلا..

يضحك، إنها الضحكة المختصرة، الرذاذ المتناثر، للحظة تبدو ملامحه طبيعية..

ـ اسمع.. ألم آمرك بالصعود إلى غرفة هذه البنت.. وظلعت؟ يرقبه صامتا..

ـ ألم أبعث بك إلى هذه العجوز؟

ماذا يعنى؟ انه يبسط يديه كأن الامر مفرغ منه..

ـ طلوعك عندهما يماثل تماما ذهابك إلى معاليه.. كله شغل..

يود إنهاء هذا بسرعة، الخروج إلى الطريق.. التوارى، تجنب المرور أمام الفندق، بالقرب من المبنى نفسه..

هل تظن أنك ستجو منا؟ أنت تفسد ما نبنيه، ستدفع الثمن من عمرك..

الهواء البارد يلفه، يمشي على قدميه، المنطقة نائية، الضاحية بعيدة يمد الخطى، كأنه يخشى اللحاق به، كأن بعضهم يترصده، ليس مهما ما ينتظره، همه الوصول إلى البيت، رؤية والديه، اللوذ بصمت الغرف، أصغى أبوه ولم يدقق كثيرا لمعرفة التفاصيل، ربما أضمر النية فيما بعد، أما الآن فبدا راغبا فى تهدئة ابنه، حتى أنه ربت كتفه محاولا تخفيف ما بدا عليه من كرب ومشقة، أما الأم فأبدت ارتياحها، وقالت إنها لم ترض عن هذه الوظيفة حتى لو ساوت ثقلها ذهبا، هل تكون نتيجة التعب وسهر الليالي وقوفه فى مطعم ؟، فلتغر هذه الوظيفة إذا كانت قد سببت له ما تراه بعينها وما تشعره بقلبها، طلب منه الأب أن يقوم ليرتاح، إنه عارف بأحوال ابنه، قربه منذ أن كان صبيا، صحبه إلى سائر الجهات، طيل عمره لم يرفع يده ليعاقبه أو ليزجره، يعرف ابنه حمولا، صبورا، على البلايا، ولابد أن مكروها صعبا نزل به، لابد أنه ينوء بما لا يقدر على حمله، على عدم البوح به ،لن يلح الآن، يثق أنه ربما سيخرج من غرفته عصرا أو عشية، ليفضى إليه، لينبئه بما جرى، وما جرى جسيم، هكذا تنبئ ملامحه، قسماته المعتمة، فأى أمر وقع ؟.

استقبل الرجل القبلة، صلى ركعتين، رفع يديه بالدعاء، قبل أن يخلو إلى أم ولده قال، عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، ربما أراد الله أن يمثل بلاده فى الخارج، قال ذلك ثم مضى إلى باب الغرفة، مال مصغيا، الولد نائم فيما يبدو، والأم

لم تخف قلقها، بعد الغروب مضت على مهل، نادته نداء خفيا، لم يجب، لم تنصرف إلا بعد اطمئنانها على تردد أنفاسه، فى الليل خيل إليها، بل أوشكت على اليقين من أنه مستيقظ أرق، لكنه لم يجب عندما نادته، أغفت بعد الواحدة صباحا، غير أن الطرق المفاجئ عند الفجر باغتهم أجمعين، هذا لم يقع من قبل، أى زائر هذا؟ يقف الولد عند باب غرفته مجهدا منكوش الشعر، تتطلع أمه إليه، حسها الخفى ينبئها أنه المقصود، ترجوه بعينيها أن يخبرها، أن يبوح، يفضى إليها، وعندما اقتحم الضابط ذو السترة السوداء والنجوم الذهبية الصالة، أومأ إلى الجنود الثلاثة أن ينتشروا فى البيت، أن ينقبوا، أن يفتشوا، أن يقلبوا ما لم يطلع عليه غريب من قبل، تتطلع الأم إلى ابنها الواجم، المستغرب، لم تلفظ إلا كلمة واحدة بدت كالاستغاثة، كالمرثية..

– «ياخرابى..»

الأب يبدو ما يجرى أمامه غريبا، كأنه يسمع بوقوعه ولا يراه، كل ما فاه به أنه نطق باسمه كاملا مقرونا بوظيفته، غير أن الضابط جاوبه مشيرا إلى ولده..

– «انصحه بالاعتراف.. ربما خفف ذلك من العقوبة..»

ثم انثنى ملتفتا إليه، غير عابئ بجزع الأب، وتهدم الأم، وروع الابن..

– «بصماتك تملأ الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين.. هناك شهود أيضا..».

وقت ضائع

.. ما خبرته، ما جربته، أن التغير لايدرك لحظة وقوعه، إنما يبدو وتتضح معالمه بعد تمامه، الجوهر الذى عشته يوما وظننته باقيا أبدا، مفروغا منه، لا يمكن مجادلته أو نقصه، أشهدته منقلبا، تبدل واتخذ وجهة لم تخط على بال، ولم يتنبأ بها أحد، ما جرى فى زمنى المحدود كان شاملا، مباغتا، أورث من هم مثلى كهولة قبل الأوان وهم مازالوا بعد فى اربعينيات العمر، ولأضرب مثلا وإن بدا فى صيغة تساؤل:

– ما الذى درج عليه أقرانى منذ نشأتهم ؟

أليس تحصيل العلم ؟، النجاح فيه، والتفوق فى مضماره، فى زمنى كانت قيمة الإنسان بما يحصله من علم ومعرفة، كان

هذا كافيا لضمان حياة إنسانية، بلا ضيم، أو عوز، ما كان عليه الحيال فى وقتى الاول، لكن ما وقع من تبدل أتى معه بما لم يدر بخلد، إذ صارت القيمة الإنسانية تقاس بما لدى المرء من مال جمعه واكتنزه، ليس مهما كيف أتى به، ولا بأى وسيلة، هذا جوهر الوقت الذى أدركنى، وحفزنى إلى كتابة هذه الرسالة، حتى إذا ما تبدل الأمر يوما، وصار ما اكتوينا به نسيا منسيا، لقى من يأتى بعدنا لمحا مما كان وباد، فالتغير يلحق كل شيء، ما من معنى أو حدث مطلق، فكل أمر نسبى، محكوم بالوقت وقصد المنفعة..

من تصور يوما أن التغير سيلحق جوهر ما بذلت أرواح من أجله ؟ من ؟..

من شطح به الخيال وقت اضطرام الحرب ؟ ليرى من هتك الأرض ودهس بجنازير دباباته الأطفال الصغار، ساعيا آمنا، يجوس الديار، أما الذين بذلوا أعمارهم أثناء حربه، فقد أتى حين من الدهر، منع فيه ذكرهم، حرصا على الوئام الذى بدأ، والصكوك التى وقعت..

من ؟

إنى منبئ عن حرب لم أقرأ عنها، لم أسمع بأحداثها، لم يروها لى مخلوق، إنما شهدت لهيبها وخضت غمارها، وكدت أقضى فيها، لو أنى بدلت يوما مكان وقوفى، لو أن عربة ركبتها أبطأت قليلا، لو ارتفعت رأسى مقدار شبر، لو أننى

حدت يمينا بدلا من اتجاهى يسارا،لو لزمت هنا ولم ألزم هناك، لما صرت إلى تلك اللحظات التى أخط فيها رسالتى تلك..

حدث ذات يوم ديسمبرى عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين أن اتجهت إلى موقع خارج السويس، خطر لى أن أعرج على مقهى وسط المدينة، مقهى أبو رواش، الواقع أمام محطة السكك الحديدية التى توقفت القطارات عن الوصول إليها أو الرحيل منها، فوق الرصيف قعدنا، أنا وزميلى ضابط الشئون المعنوية، شاب من دمنهور، برتبة نقيب، خفيض الصوت، أحببت المقهى، إنه الوحيد الذى بقى مفتوحا زمن الحرب، يقوم على خدمة الناس فيه عم خليل، من يصدق أنه تجاوز الثمانين، دائم الطواف، والحركة، لم يكن له أقارب فى أى جهة، اتخذ من المقهى مستقرا ومقاما، بعد الشاى، يشعل الجمرات، يقدم المشروبات، والنرجيلات، يحرص على بقاء المقهى نظيفا، لذا لا يقعد، لا يكف عن كنس الأرض ورشها وتنظيف الموائد، وتحذير الرواد من البصق.

فى هذه الأيام لم يكن الناس فى حاجة إلى انقضاء أوقات طويلة ليتعرفوا إلى بعضهم البعض، ما تبقى من الأعمار قاب قوسين أو أدنى، الموت فى كل خطوة، عند أى حركة، مقترن بالأنفاس ذاتها، جاء جندى من قوة المطافئ المرابطة، قعد على مقربة، دعوناه إلى كوب من الشاى، دنا فجلس، صرنا ثلاثة، متجاورين، لا يواجه أى منا الآخر، وإذا تحدث أحدنا مال إلى الامام قليلا، حكى عن إقامته هنا، وإقامة امرأته وأولاده هناك، عن رحلته الشهرية إليهم، عن العبء الملقى على امرأته..

كان الله فى عونها!

صمت لحظات، لم أنتبه إلى ميل رأسه، فيما بعد قال زميلى أنه ظنه بدء إغفاءة، غير أن ميله البطئ استمر، حتى تكوم أمامنا، كان مظهره ثقيلا، هامدا، هذا الغموض البغيض الذى لن تعقبه قومة، كان لابد من مضى بعض دقائق حتى يكتشف عم خليل تلك النقطة النحيلة، الضامرة كرأس الدبوس، تبعتها نقاط على فترات متقاربة، ثم سال خيط، فى المستشفى قال الطبيب إنها شظية ضئيلة جدا مندفعة من مكان ما، ماذا لو أنى جلست مكانه ؟

الغريب أن هذا التساؤل أقض عم خليل الذى لم يكن يجاورنا وقت نفاذ الشظية، لكنه اعتاد الحديث إلى جندى المطافئ هذا، كانا يتحدثان دائما وقت العصارى، يصغى عم خليل إليه، يهز رأسه أو يمصمص بشفتيه أسفا أو تعجبا، ولا يدرى أحد ممن يراهما مضمون الحديث . فيما تلا ذلك من أيام قال الناس إن عم خليل العجوز أوشك على الجنون، كان يبدأ الحديث إلى أى إنسان قائلا:

– تصور لو أنى قعدت مكانه ؟

فى البداية كانوا يصغون إليه، يستفسرون، لكن مع كر الأيام صاروا يستمعون إليه ضاحكين، وقد يسخر أحدهم منه فيبادره:

– ماذا يحدث لو أنك جلست مكانه؟

تلك شظية أدق من رأس الدبوس نفذت إلى موضع مؤثر، سلكت سبيلا لم نطلع عليه، ولم ندر به، فأخرست عمرا ناطقا، وأنهت حياة شاء الترتيب الخفى أن نرى حدها على مرأى، من أين أتت ؟ أى قوة دافعة ؟ لم نسمع انفجارا قريبا، لم ندر المصدر، فكيف ؟ هذا من المكنونات التى لن نطلع عليها، لكن ما تردد عندى عين ما أقض عم خليل، ماذا لو قعدت مكانه وقد كنت قريبا دانيا، متأهبا، ماذا لو أنه لم يأت ؟ أى مسار كانت تسلكه الشظية ؟، أحيانا وبرغم انقضاء الأعوام الطوال، أردد: ماذا جرى لامرأته، لعياله ؟ أى مستقر ؟

شغلنى هذا، كما شغلنى ما جرى ظهر ذلك اليوم، عندما كنت أقصد مدينة القنطرة، على الطريق الممتد بين الإسماعيلية والقنطرة، السيارة تمضى فى خط متعرج، الضفة الأخرى، مواقع العدو مرتفعة، مطلة، نيران الأسلحة الخفيفة تطال وتغطى الطريق، صوت المحرك يغطى أى ضجيج خارجى محتمل، تمر الغرود الرملية، المنحنيات، فجأة.. لمحت جنديا يهرع، كينونته الأولى تحاول التوارى عن خطر محدق، محاولة غريزية يرتد عبرها إلى زمنه البدائى، إذ يحاول الوجود الإنسانى الوصول إلى مخبأ ليحتمى، ليبقى، فى اللحظة نفسها لم أر ولم أدرك هذه المعانى كلها، كان ثلاثاء، الواحدة والربع عندما أمرت السائق أن يقف، وعندما حادت العربة واستقرت خارج الطريق المرصوف، صحت به أن يجرى، أن

ينبطح، كنت أفعل ما أصيح به، من الأعالى يتدفق هدير الطائرات، يصهر الصمت، معدنى، يثير الغثيان، يجرح، يشقق السماء الصافية جدا، عرفت الطائرات من الصوت، سكاى هوك، كانت حديثة جدا وقتئذ، رأيت ملامح السائق، كأنى أعرفه أول مرة، ترقب، خوف، رحيل محتمل، استفسارات وتصاعد وتيرة، أصابعه مغروسة فى الرمل، فوق الأرض بدت العربة بأبوابها التى بقيت مفتوحة لها مظهر ذعر بشرى، تتعامد الشمس فوق معدن الطائرتين، تبرقان كنصل الموس، واحدة إثر الأخرى، هجوم وتغطية، انفجارات القذائف المضادة لا تطالهما، كانتا بعيدتين عن مرمى مدفعيتنا، عندما طغى الانفجار تناثرت الرمال حولنا، فى لحظة بدت الملامح التى تواجهنى وكأنها فقدت الصلة ببعضها، عيناه فى ناحية، ذقنه تدلت، أما شفتاه فانفرجتا متباعدتين، ابتعد الهدير ثم اقترب، استدارتا تجاه الشرق، كان الانفجار على بعد ثلاثين مترا تقريبا، أسرعت، خفيفا، مبتهجا، منفيا من الوقت. عندى بهجة غامضة، وفورة حيوية، إذن. نجوت !

تأملت آثار القنبلة الثقيلة، زنة خمسمائة رطل، كأن سكينا هائلة قشطت ضفة الترعة المنحدرة حتى سطح الماء، يلمع الطين الأسود المشطوف، على مسافات تناثرت كتل متفاوتة الحجم، على بعد عشرين مترا ترقد جثث ثلاث، بينهم خبير روسى، شملتهم الدائرة المؤثرة، غطاهم مدى القتل...

حتى مساء هذا اليوم لم أكف عن الحديث، الإنباء بما يجرى لكل من ألتقى به، قبل هجوعى دهمنى تساؤل:

فيما تلا ذلك كنت غير هياب، ما أعيشه منذ وقوع هذا الانفجار أو ما شابه ذلك من مواقف، وقت مضاف، زائد، إذ كان المفروض أن أولى وجهة العدم منذ زمن بعيد.

ما جرى كثير، لو فصلت لأطلت، لكننى أقصر، فما قصدت الا التمهيد لثلاثة أترجم لهم، عرفتهم زمن الحرب، وتابعتهم بعد تغير الأحوال.

ماجرى للمحارب
الذى تقاعد

.. ما بين نهار وآخر خرج من الخدمة !

تغير وضعه بالكلية بعد ظهور اسمه فى كشوف الضباط ، فى النشرة الدورية التى تصدر آخر أيام السنة، على الرغم من توقعه ذلك فإنه بوغت، فالأمر يتم فجأة، ربما لأن صاحبا له لم ينبئه، لم يلمح له، تقاعده يعنى انتقاله من وضع اعتاده، إلى مجهول لا يعرف أبعاده، من سير معلوم إلى سعى مجهول، من أرض يعرف مواقع الخطى فيها، إلى تضاريس تفاجئه كل لحظة، مفارقة عشرين عاما من الانضباط العسكرى ليس أمرا هينا، لهذا بدا أول يوم خارج الخدمة غريبا.لا يمكنه ارتداء زيه

أو المضى إلى الجهات، يطرق الشوارع فى أوقات لم يعتد المشى فيها، إنه يدنو من السادسة والأربعين، يرتد إلى نقطة يجب أن يبدأ عندها من جديد، لكن الشباب يأفل، وفى رقبته عائلة، أما معاشه المقرر فلن يفى ولن يكفى، الأدهى من ذلك الفراغ، تذهب البنتان إلى المدرسة، تمضى امرأته إلى عملها، ويبقى فى البيت ! هذا مالا يطيقه وما لا يقره أمام ذاته.

وتعمل امرأته فى إحدى الشركات، ابنته الأولى تقترب من نهاية المدرسة الإعدادية، الصغرى فى الثالثة الابتدائية، شوطهما مازال بعيدا، يقولون إن ذروة العطاء تبدأ من الأربعين إلى الخمسين، عنده دراية وإتقان لعلم الهندسة، له خبرة بما يسمى بفن الاتصالات، كان من المعدودين فى مجاله هذا، شهد حرب السويس وكان حديث التخرج، يافعا بعد، أخضر العمر، أن عاش ماعاش لا ينسى انسحابه من بورسعيد وعبوره بحيرة المنزلة بصحبة الجند فى قوارب الصيادين، فيما تلا ذلك من سنين رأى فظائع شتى، إلا أنه لن ينسى أبدا احتراق الصباح الباكر فى المدينة، اللهب المندلع من البيوت، محيط بها، ممسك سائر الجهات، لهب برتقالى أحيانا، داكن الحمرة حينا آخر، أسود قاتم إذ يغزر الدخان، عاش فيما بعد حروبا ثلاثة، الحرب فى اليمن، كاد يقتل فى صرواح، والحرب التى جرت على ضفتى القناة بعد أن وقعت الواقعة عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، وأخيرا... حرب أكتوبر، وطوال خدمته كان مشكور السيرة، مقداما، قلبه جامد على المخاطر، سمعته بين

جنوده طيبة، كذا عند الضباط الأقل منه رتبة، ومما تردد عنه بين قادته، موقف عاشه فى خضم آخر ما جرى من حروب، عندما انقطع الاتصال بين قيادة لواء مدرع وسائر الوحدات، وقام بجهد فائق، استثنائى، فى تأمين قنوات وسبل اتصال بديلة، ومما اشتهر به أيضا واستحق عليه نوط الشجاعة قدرته على إفساد التشويش المعادى على وسائل الاتصالات البديلة، فكان ذلك مما سجل له، وكوفئ عليه، وتقله آخرون عنه، فنال الثناء والوسام بحق، أصبح هذا كله بعيدا، ماضيا مندثرا، بعد انقضاء المدة ومروق الفترة حكى ما جرى لامرأته، عن أصعب لحظات عمره قاطبة، عندها انقطع الاتصال، وبرغم قربها منه، وإدراكها لما يسره وما يكدره، فإن قسماتها لم تعكس اهتماما، كأن ما يقصه عليها أمر عادى، عندئذ كف ولم يكرر الرواية، سكت أيضا عن كثير، فليس كل ما يمر به الإنسان يمكن توضيله وشرحه للآخرين، حتى الأقربين، خاصة إذا كان الظرف مخالفا للمألوف.

انقضى هذا كله، كأنه يخص غيره، وأحيانا يكتشف أن غميمة نسيان حجبت عن وعيه ما ظن إنه لن يمحى أبدا.

كان بين زملائه وبينه صحبة أكيدة ومحبة، كان من قلة معدودة خلت سيرهم من المكدرات، أو المخالفات، باختصار دال نقول إنه كان فى التمام !، لذا كثر عليه الأسف من زملاء خدمته ورفاق سلاحه زمن الحرب، وأوشك بعضهم أن يذرفوا

تأثرا بحضرته، قال أحدهم وكان ريفيا متينا، يا أصيل يابن الأصلاء، إلا أنه أظهر الود الجميل عند التوديع ومفارقة المقر بعد أن أتم تسليم عهدته، وعندما خطا بعيدا قال بصوت مختنق تأثرا: آن للمحارب القديم أن يستريح، يكفيه أنه خلف وراءه رجالا هم بحق أعز من عرف، فيهم من يفوقه علما، كما أن ملامح منه وعناصر أودعها فيهم، بقى متماسكا، غير مفصح عن كثير، إلا أنه عند مواجهته أول أيام تقاعده تهدهد داخله، هانت عليه قعدته فى أوان خروجه اليومى إلى عمله، عزت عليه أيامه القديمة، غص حلقه، وطرى دمعه، والغصة لا تواتى من هو على كبر إلا إذا اشتد الأمر، وعظم الخطب، وقل المساعد، هو الآن برتبة عميد، غير أنه لم يمارس مهامها، ولم يتحمل لحظة واحدة تبعاتها، وإذا ذكر الرتبة فلابد من إضافة لفظ «متقاعد» خلال الأيام التالية ترسخ شعوره أنه كمن سحب بساط من تحت قدميه، أو تلاشى جدار كان يتكئ عليه، بعض من يعرفهم بدوا مسرورين، فرحين، إذ تعنى الإحالة إلى التقاعد تمكنهم البدء فى الأعمال الحرة، حيث آفاق الكسب بلا حد، وإمكانية المغامرة متاحة، أصغى إليهم بدهشة، كأنه بعيد. بل سأل نفسه، ماذا يجرى للخلق ؟ إنهاء عمر بأكمله، وتعوده العطاء بشكل خاص، توظيف ما يعرفه، وتحصيل مالا يعرفه، أمر يستحق عليه التهنئة ؟، لم يكلف بمهمة إلا وأنجزها، هذا حق، بقدر ما ينتظره أيام أجازته ليقضى الوقت الأطول بصحبة طفليه، بقدر اشتياقه إلى عمله أثناء العطل، كان محبا لما يقوم

به، مكثرا من مخاطبة الهيئات العلمية، والمؤسسات المنتجة للأجهزة الجديدة، ما يتم التوصل إليه، لم يخطر بباله مفارقة تخصصه هذا، برغم توقعه الإحالة على التقاعد عند الارتقاء من رتبة إلى أخرى كما جرت العادة منذ سنوات ، لم يتخيل مفارقته للسترة الكاكية، والعمل فى مشروع خاص، لم يتصور نفسه واقفا فى السوق يدير توكيلا لسلعة أجنبية، أو مندوبا لدى إحدى الشركات، ردد أقارب امرأته على مسمعه أن من كان فى مثل خبرته يمكنه أن يكسب ذهبا بسهولة، وإذ تلمح امرأته من بعيد يسألها:

- هل ينقص شىء ؟

تجيب على استحياء..

- لا.

يقول مدركا أنها لم تنطق كل ما عندها..

- أليست مستورة ؟

تومئ، الحمد لله، عندئذ يقول:

- والبنات.. أليس تعليمهما فى مدارس اللغات مرضيا؟

تتساءل..

- لكن المستقبل ؟

يلوح بيده:

- ياستى، المستقبل بيد مالك الملك..

غير أن قلقا سرى إليه خلال العامين الأخيرين، أسعار الحاجات فى ارتفاع، كثيرا ما يصغى دهشا، مفاجأ بأسعار طفرت وكانت حتى الأمس القريب فى المتناول، اضطر إلى التغاضى عن بعض مما تلمح إليه امرأته على فترات متباعدة، من ضرورة تبييض البيت، إذ بهت الطلاء وتقشر فى مواضع عدة، لو استعاضوا عنه بورق الحائط لكان ذلك أفضل، يستفسر، كم التكاليف ؟، لا تخبره مباشرة، إنما تقول :

اسأل فى السوق، إذ يمضى يومان أو أكثر تستفسر وتتقصى عما تم، يضطر إلى النزول والسعى، يفاجأ بالتكاليف، يطلب ارجاء الأمر، تسكت على غير رضاء.

فى الأيام التالية لبدء تقاعده، وإن صح المعنى ودق، فى الأيام التى خلت مما ارتبط به عمرا، لاحظ راحة فى عينيها وبهجة، صحيح المعاش أقل من الراتب، لكنه يأتيه بداية كل شهر بلا جهد، بلا مقابل، إنه يملك وقته كله، يمكنه الالتحاق بعمل مشابه لما حصل عليه بعض صحبه أو زملائه، أحوالهم فى رواج الآن، منهم من لديه بدلا من العربة الفاخرة اثنتان، ومن يرحل هنا أو هناك ولا يستقر إلا أياما معدودات فى مصر، قالت امرأته انها تخشى زيارة أحداهن حتى لا تبادلها الزيارة، لا تقدر على إبداء مقابل لكل ما عاينته أو رأته، ثم تتطلع إليه متسائلة فى صمتها عما سيفعله فى الأيام القادمة ؟ إنه يدركها، يفض رسائلها لكنه غير مجاوب، يضمر حزنا

وانكسارا، انتهاء هذا العمر كله لا يبعث أبدا فرحا أو راحة، أليس المولى الغارب شباب بأتمه، سنين كده، وأيام اندماجه، ولحظات خطر كان ممكنا أن يفنى ويتبدد عبرها، أطياف مجد عاشها تبدو كالوهم الآن، كذا فرص لتحصيل علم جديد ولت، تبددت، فى الأيام الأولى لتقاعده، اعتاد الصحو فى الموعد ذاته، ثم الخروج، إلى أين ؟ لا يهم، استعاد متأسيا أياما بعيدة كان الاستيقاظ المبكر فى المعسكرات النائية يجعلهم حالمين بأيام عطلة شحيحة مقبلة يمكنهم النوم صباحا كما يرغبون، لا ينتظمون فى طابور الصباح والبرد صرصر، حتى إذا دنت هذه الايام ونزلت وحلت بدت أيام الكد الأولى زاهية، عزيزة المنال، فما أغرب، وما أعجب ذلك !

ما يثقله لا يقدر على الإفضاء به إلى الاقربين منه، صباح كل يوم يخرج فى ميعاده، لكنه لا يرتدى السترة وغطاء الرأس، حيث السيارة فى انتظاره لتنقله إلى الوحدة، إنه يخرج متباطئا، يتابع المسرعين فيود لو أن حاله كحالهم، بدأ يوجد اهتمامات عديدة ليشغل نفسه، ليكون لمشيه هدف، كان يمضى إلى وسط المدينة للفرجة على ثياب جديدة لابنيته، أو لشراء بعض لوازم الدراسة لهما من أقلام رصاص جيدة، وكراسات، وما شابه ذلك، أمور كان يقضيها عرضا أثناء خدمته، أو يوصى بعض صحبه بها، صارت الآن أهدافا يخطط لها، يقطع بها وقته، أما اللجوء إلى المقهى وقضاء الاوقات به فأمر لم يعتده بعد، يضيق به، لم يرتبط بمقهى من قبل، إذ كان فى

محسوباً بدقة، اثم لامتلاك وقته، حتى أن امرأته نبهته مرات إلى حاجة ابنتيه للقعاد معه، والانفراد به، فيرجع ذلك إلى أيام الاحتلال، إذ إنه يقطع الشوارع الآن من بداياتها إلى نهاياتها ثم ينثني، يمر بما سبق أن مر به، ويرى ما رآه من قبل، يدخل مكتبة، يقلب كتبا، يعاين صحفا ومجلات أجنبية، ينصرف وعنده خجل لأنه لم يشتر، يعود إلى البيت فى مواقيته القديمة، أحيانا يرجع مبكرا فيلقى نفسه وحيدا، يأوى إلى صمت البيت، يتدثر به، يستعيد انصراف الضباط والجنود من الوحدة إلى الصحراء بعد السور، ما يثيره عند مرأى كشك خشبى بعيد، مهجور، وحيد تماما، كان جزءا من منشآت أقامها الإنجليز، يضيق اذا تأخرت امرأته عن موعدها، يقف فى الشرفة منتظرا نزول البنتين من عربة المدرسة.

صار أمره فى بداية وحاله إلى انسحاب، آوى إلى صمت طويل، يشرد كثيرا، لكن ذلك لم يطل، لم يقدر على تصور نفسه عاطلا هكذا، لكنه غير مقتنع بعد، أن نظامه زال، وأن أياما جديدة أتت وأن تكيفا يجب أن يتم، لم ينف فكرة العمل عن مشروعه، البحث، لكن أى عمل؟ تلك هى القضية، إنه مهندس وعنده الخبرة الفريدة، لكن كيف النفاذ إلى السبل وإمساك المسالك والدروب؟ عندما بدأ الأمر يصبح من شواغله، وذات ليلة أثناء جلوسه فى الشرفة منفردا، مصغيا إلى حركة الطريق التفت امرأته وقفت عند مدخل الشرفة بعد اطمئنانها إلى نوم الطفلتين، آخر جهود تتمه بعد نهار شاق

موزع بين عملها، وعودتها، وقضاء الحاجيات من ترتيب طعام، ومراجعة دروس، دائما تقول إنها لو ركنت فقط إلى المدرسة لما تقدمت إحداهما خطوة، مجهودها فى البيت هو الأساس، آن أن يؤدى نصيبه الآن، أن يخفف عنها بعضا مما تقوم به، أضمر النية ولم يقدم على الفعل، فما الأيام الماضية إلا تمهيد لما سيكون فيما بعد، يشبهها باللحظات التى تسبق ملامسة عجلات الطائرات للممر الأرضى، يردد بينه وبين نفسه، أنه لم يتم نزوله بعد.

تقول زوجته برقة :

– أقعد ؟

يقول: ياسلام، ومنذ متى تحتاجين إذنا ؟

تدنو، أيقن أنها تخفى أمرا، إنه عليم بملامحها، بتصرفاتها، هذه السنين قربتهما، دنت بكل منهما إلى الآخر، استقرت فوق المقعد المستدير بدون مسند، تميل إلى الأمام، تدس يديها مبسوطتين، متلاصقتين بين ركبتيها:

ـ شوف ياسيدى

يتأهب للإصغاء، تقول إن خالها اتصل وطلب منها أن تخبره بحاجتهم إليه كمدير لشركة مقاولات، إنه يتمنى قبوله، فالمنصب كريم، والراتب مغر، وبرغم إلحاحه عليها، فإنها طلبت منه الفرصة، إنها أدرى الناس به، تعرف أنه لن يقبل على أول

فرصة إلا إذا وافقته وطابت له، الحق أنه فوجئ، لم يقدر أن الامر سيتم بهذه السرعة، وبالطبع لم يكن فى حاجة إلى ثاقب فهم، ونصاعة إدراك.. ليفهم أن المبادرة أتت من جانبها، وهى الساعية إلى خالها، هذا الرجل الذى سطع نجمه وعلا قدره خلال السنوات الاخيرة، إنه متعدد العلاقات، كثير الأسفار، يظهر اسمه من حين إلى حين فى الصحف، إن علاقتهم به ليست حميمة، تقتصر على زيارته فى أيام الأعياد والمواسم، لكنها تتصل بأسرته وتداوم، لولا خالها هذا لما قبلت ابنته الصغرى فى المدرسة، كانت أصغر من الحد المقرر بأسبوع واحد، يعنى هذا ضرورة انتظارها عاما آخر، نزل به ضيق وأسى، البنية ذكية، تفيض حيوية ونشاطا، ترى أختها الكبرى تجلس إلى كراساتها فتأتى بواحدة بيضاء الصفحات، تمسك قلما وتخط أشكالا ودوائر، تقول إنها تذاكر دروسها، وفى الصباح تغادر الفراش مبكرة، تساعد شقيقتها فى ترتيب حقيبتها، وعند انصرافها تربت كتفها ويدها، تودعها حتى بداية درجات السلم، تتابعها وعلى وجهها ما يوحى بتمنيها، لو كانت معها، لو تصحبها، لو تمضى معها إلى المدرسة، ترجع كابية الملامح، ينقبض متألما، سبعة أيام سيضيع مقابلها عام كامل، إلا أنه قال لامرأته، هذا ما يقضى به النظام، غير إنها أبدت جزعا، قالت إن هناك استثناءات، من حق الناظرة استثناء نسبة من شرط العمر، قالت: أنت ضابط وحاربت أربع حروب، من حقك، اذهب إليها، ألحت عليه وأطالت وأثقلت حتى امتثل،

خشى أن يرث ذنبا، أن يجيء يوم يقول فيه، كان ممكنا أن أفعل وتقاعست، ارتدى الزى الرسمى كاملا، ومضى إلى طلب مقابلة الناظرة، كان فى مكتب السكرتيرة آخرون، كان أحدهم يبدو واثقا، يرتدى قميصا أسود، وبنطلونا أسود، يتلفت حوله، يتعجل المقابلة، يحيط معصمه بسوار من ذهب، ويلوح بسلسلة مفاتيح تحمل علامة عربات المرسيدس . ابتسمت السكرتيرة بعد خروج سيدة شقراء تبدو عليها الراحة، وندرة الهم العام، قالت مرحبة إن الهانم فى انتظاره، ردد الرجل أنه فى عجلة وإنه مسافر بعد ساعتين فقط، وعندما اقتربت منه السكرتيرة وقالت بحيادية: تفضل، لم يكن ذو السوار الذهبى قد خرج بعد، هذا يعنى إنه سيقابلها فى حضوره، ضايقه ذلك، دخل حاملا غطاء الرأس، ذا النسر الأشم والسنبلتين بين يديه، رآه مستفرقا فى المقعد الوثير، متمكنا، لامباليا، يتطلع إليه، لا يحيد ببصره عنه، بل.. يتفحصه بوقاحة، تضع الناظرة أمامها زجاجة عطر باريسية، إنها هادئة جدا، ناعمة الصوت، لا يلوح من تعابيرها انفعال محدد، لا تذكر اسما إلا مقرونا بلقب بك، قالت باختصار حاد، تحت أمرك ياسيادة العقيد، تزداد حدة نظرات الرجل ذى السوار الذهبى، فى نظراته تحد غامض مشوب بازدراء مفتعل، أيقن أنه سيكون موضع تعليق بينهما بعد خروجه، قال باختصار إنه جاء ليستفسر عن فرصة الاستثناءات المتاحة أمام أبناء القوات المسلحة الذين خاضوا

العمليات، وأصيبوا، ويحملون الأنواط والأوسمة، كأنه يوحى أنه يستفسر عن وضع عام، وليس عن حالة تخصه هو، غير أنها قالت، آه.. عشان الكتكوتة ؟

لم تتح له الاستمرار، قالت إن هذا الغى منذ عامين، وإنها تود خاصة أن الكتكوتة ينقص عمرها أسبوعا لاغير، لكنها تخضع لرقابة صارمة من الوزير شخصيا.

والله كان بودى !

لم يدر ماذا يمكن قوله؟ خاصة أنها حادت عنه لتسأل ذا السوار عما إذا كان سيغيب، قال بسرعة، لا أبدا، شوية فى روما، وشوية فى باريس.. تراجع إلى الباب، حيا السكرتيرة ومضى خجلا يلوم نفسه، نادم على مجيئه، مشفق على طفلته، ضغط أسنانه عندما استعاد ابنته وحيويتها، لا تكف عن الحركة، والحديث عن المدرسة وحملها حقيبة شقيقتها، قالت امرأته باختصار إنها ستطلب من خالها التدخل، لم يبد موافقة، لم يبد اعتراضا، غير أن ما جرى فى الأسبوع التالى فاجأه، رن جرس الهاتف، الناظرة نفسها، استفسرت عن صحته، عن أحوال المدام، عن.. الكتكوتة الصغيرة، ثم قالت إنه يمكنه الحضور بها غدا العاشرة صباحا، يمكنه دفع المصاريف وتسلم الكتب فى نفس اليوم، أصغى دهشا، أجاب باختصار، طلب من امرأته أن تمضى هى إلى المدرسة، لا يطيق

رؤية هذه المرأة، قالت إنها تشاركه مشاعره ورأيه، ولكن لسنوات مقبلة سيضطران إلى التعامل معها، البنتان عندها ومن الافضل مسايستها، ثم.. ما الذى يربطنا بها؟.

غير أنه أصر، ورجاها أن تحصل على أجازة من عملها، أن تنوب عنه، قال إنه سيصحب البنية صباح بعد غد، وإنه سيتعرف بالمدرسين، لكنه لا يرغب فى رؤية هذه المرأة..

إذن.. للخال نفوذ، ويد تطول وتنفذ، فى صباح أحد أيام الأسبوع الأول من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، اجتاز الباب الزجاجى الذى يفتح تلقائيا بمجرد الاقتراب منه، أحد هذه المبانى التى ظهرت فى المدينة أخيرا، صماء، معدنية، زجاجية، تحوى أسرارا عديدة، إلى يمين الداخل مكتب استعلامات للمبنى كله، أما حراس الأمن الخصوصيون فيقفون قرب المصاعد، يحيطون خصورهم بأحزمة جلدية تتدلى منها المسدسات، والطلقات النحاسية، قرأ الاسم على اللافتة المستطيلة التى تحمل أسماء الشركات والبنوك والهيئات الاستشارية والمكاتب المتخصصة التى تتخذ من المبنى مقرا لها.

«مقبلكو..» مجموعة شركات للإنشاءات والمقاولات.

الصمت، الحركة المحسوبة، مساحات الألوان المسطحة الملونة وأضواء مجهولة المصدر، مكتب السكرتيرة فسيح، مقاعد وثيرة، فى أركانه الأربعة أصص لنبات الظل، عندما

وقف أمامها خيل إليه أنه محاصر بشكل ما، وأنه مراقب، وأن الرجل ذا القميص الأسود والسوار الذهبى الذى قابله فى مكتب الناظرة قابع فى مكان ما هنا، السكرتيرة نحيلة، طويلة، برغم حرصها على أن تبدو حركاتها وتصرفاتها دقيقة، محسوبة، فإن حضورها كان فجا بدرجة ما، لم يستطع تحديدها بالضبط، عندها مبالغة فى اقتصاد حركاتها، وايماءاتها، وترتيب التفاتاتها، ونظراتها المفاجئة التى توجهها هنا أو هناك، وميل رأسها عند الإصغاء.

إنه غريب هنا، للمكان طابع غامض، كأن الفراغ من معدن خفى، الباب المؤدى إلى المكتب جزء من الجدار يصعب تبينه، عندما اجتاز الباب فوجىء به يقف على مسافة خطوة، فى انتظاره، أبدى الود والترحيب للتو، إنه ربعة، يتدلى رباط عنقه الأزرق على قميص ناصع البياض، أما الجاكتة فمعلقة إلى مشجب يلى طاولة اجتماعات فى أقصى الغرفة الفسيحة التى يمكنه أن يعدو فيها، أجعد الشعر، يحتفظ بابتسامة هادئة لا تفارقه، يبسط يده داعيا إلى الجلوس، يمد صندوقا مفتوحا يبرز لفائف السيجار الكوبى، غير أنه يعتذر، يعدل وضعه، يواجهه بملامح وقسمات تجاوز عمرها الخامسة والأربعين، تقلبت عبرها ظروف شتى من رحيل إلى صحارى البلاد، وحروب متتالية، وأمسيات هى الآن متداخلة، تبقى من بعضها مجرد لمحات بوارق، ومضات، واختفت أخرى، إذن.. هذا «مقتبل»، اسمه فى اللافتات المعلقة إلى جدران المبانى التى لم

تكتمل بعد، «مقبلكو»، فى هذه اللحظة أدرك انه لم ير صورته قط، تنشر الصحف الإعلانات عن شركاته، لكن ملامحه لم تظهر، لم يرها، إنه أصغر مما توقع، ربما فى الخامسة والثلاثين، لم يتردد اسم مؤسسته إلا منذ وقت قصير، ربما لا يتجاوز العامين، قيل إنه جمع ثروة بعد عمله سنوات فى بلد نفطى، يتردد أنه وثيق الصلة بأكبر مقاولى البلد، تردد هذا كله عندما وقعت عيناه عليه أول مرة، بل سأل نفسه، أين كان منذ عشر سنوات ؟ ولم يدر لماذا حدد المدة بسنوات عشر؟، قال إنه مسرور جدا لأن رجلا مثله سيتعاون معه، لهجته محايدة، هادئة، لفظ ثلاث أو أربع كلمات بالإنجليزية بعد تردد وحيرة فى البحث عن الألفاظ العربية، يوحى بإتقانه الإنجليزية أكثر، جاءت السكرتيرة بصينية عليها كأسان من عصير التفاح المستورد، لم يفته رواحها ومجيئها منطلقة، أثناء جلوسهما دخلت مرتين، اتجهت مباشرة إلى المنضدة المجاورة للمكتب، تناولت أوراقا، فى المرة الثانية بدت وكأنها تتأكد من شىء ما، قال مقتبل «باشا» - هكذا يذكرون اسمه - إنه بإمكانه تسلم العمل من اليوم، الإجراءات بسيطة جدا، قال إنه أصدر تعليماته، لو صادفته أى صعوبات يرجوه الاتصال به، إذا لم يجده ستقوم ميس بكل شىء.

اسمها ميس إذن، عندما حياها أثناء انصرافه لوحت له كأنه على وشك أن يستقل طائرة يقلع بها، وفى الطريق إلى الادارة لمح فى صورة يحيطها إطار فضى لمقتبل «باشا» وهو

يتسلم شهادة ما فى مناسبة ما من شخصية كبيرة، وعندما تسلم قرار التعيين، فوجئ بالمرتب، إنه أكثر مما أخبر به خال امرأته، القرار صادر بخمسمائة جنيه بينما ألمح الخال إلى ثلاثمائة، ليس خمسمائة فقط، إنما إلى جانب ذلك المكافآت والحوافز.

انصرف إلى الشارع دهشا، فرحا، مترددا.

أما الدهشة فلأنه لم يتوقع المرتب، لو أنه استمر بالخدمة، لو وصل إلى رتبة اللواء، فلم يكن ليحصل على ما يوازى ذلك، أما الفرحة فلأن الراتب الجديد سيمكنه من تكوين مدخر ملائم لطفلتيه يقيهما شر العوز حتى حين إذا ما جرى له مكروه، وإذا ما غيبه القدر عنهما، قبل أن يتما شوطهما، هذا أشد ما يرهبه، لديه الآن مكافأة نهاية الخدمة التى صرفها منذ زمن قريب، وما سيمكنه ادخاره فى الشهور الآتية، سيقدر أيضا على مواجهة أمور طال إهمالها، وغض البصر عنها، منها تغيير العربة التى أصبحت عتيقة وتكلفه مالا متزايدا، أما إذا استقر الحال واستمرت الامور مواتية فربما أصبح ممكنا سفره مع امرأته وطفلتيه فى أجازة لمدة أسبوع أو أسبوعين، يريهن ولو قبسا هينا من الدنيا الفسيحة. أما تردده فمرده ومرجعه هواجس شتى وظنون.

أولها، طبيعة العمل الذى سيقوم به، أى جهد سيقدمه مقابل هذا المبلغ الضخم ؟ أى قوم سيتعامل معهم ؟، انه منذ الآن

مدير لإحدى شركات «مقبلكو»، فى الأيام الأولى خفت هواجسه وتوارت قليلا، إن مكتبه مؤثث بعناية، ومقعده دائرى، ولديه خط تليفون مباشر متصل بمكتب مقتبل، ليس بمكتبه هو شخصيا، ولكن بمكتب لميس السكرتيرة، لاحظ.. أنها متنفذة فى كل شىء، كلمتها مسموعة، وعندها أمر ونهى، كما أنها صاحبة عقد وحل، لها أتباع، وعندما يتصل بها لا تجيبه مباشرة، إنما فتاة أخرى، ناعمة الصوت، تبادر فتقول بالإنجليزية «هنا مكتب الآنسة لميس.. نعم»، حار، أمثل هذه توصف بالسكرتيرة ؟ فى نهاية الأسبوع الأول أيقن أن جهازا بأكمله يصرف شئونها، وأن لها اليد الطولى، يعاملها الجميع باحترام وخشية، ما الحكاية إذن؟. ربما بدافع من الرغبة فى الاقتراب منها ربما لأنه كان يود الاتصال فعلا، طلب منها أن يتحدث إلى المهندس مقتبل.

قالت بتهكم بين، تقصد مقتبل باشا؟ بتحد قال لم يعد هناك باشوات منذ زمن طويل ، لم تحتد، غير أنها أتت صوتا مغناجا، ساخرا، قالت: «دا انت سيد الباشوات». بعد أن وضع سماعة الهاتف أصغى إلى نفسه، يدرك أهمية هذا الحوار الأول، فطبقا للبداية ستحدد المسارات، يعرف أيضا أن الهاتف مرشح جيد للصوت الإنسانى، يكثف كل ملامحه، ويكشف أدق سماته، ومايشعر به، ما رصده من فجاجة حضورها عند رؤيتها أول مرة.. وثق منه بعد حديثه إليها، غير أن ما شغل به، وبدأ يحوم حوله، الرغبة فى معرفة حقيقة موقعها، أهى إحدى

قريباته ؟ أم أنها على علاقة به تتجاوز العمل ولوازمه ؟ لم يستطع التوصل إلى حدود مميزة، أو علامات فارقة، أضمر النية على التقصي والوقوف على كنه الأمر، غير أن ما حيره أكثر وقوى عنده البلبلة.. تلك الشركة التى تولى أمورها، فى البداية أقبل على عمله الجديد مبديا الهمة، متأهبا لإظهار المقدرة، مستعدا لتقديم ما يوازى الراتب الضخم، حتى لا ينفق على بيته وعياله إلا مالا حلالا، هكذا يكون راضيا، لم ينس أيضاً ما لمح إليه مقتبل فى لقائهما الوحيد حتى الآن، أن كل جهد بارز أو استثنائى سيقابله حافز مرض تماما، غير أنه فى نهاية الأسبوع الأول تزايدت حيرته، بل اضطرب أمره، خاصة بعد أن فرغ من قراءة عقد تأسيس الشركة، والملفات الخاصة بمجالات نشاطها وأوجه عملها، وجد تساؤلا يلح عليه، محوره، أى نشاط تقوم به هذه الشركة؟ هذه المنشأة التى بدأ يتولى مسئولية إدارتها وتصريف شئونها وتنمية أعمالها ومواردها، ودفعها فى اتجاه الربح، والنأى عن أسباب الخسارة، وعوامل التلف، طبقا لما دون فى العقود التأسيسية فإنه مسئول عن شركة للمقاولات والتجارة، لكن.. أى مقاولات؟ لم يجد أعمال تشييد أو بناء أو هدم، فقط مجرد عمليات استيراد لمواد لا رابط بينها أو علاقة، فمن أحجار رخامية إلى ألواح معدنية، إلى أسياخ حديدية، إلى أجهزة الكترونية، ومواد غذائية، تلك صفقة ضخمة للشحومات الغذائية، لاحظ مكوثها فى المخازن التابعة ستة شهور متصلة، ثم تصريفها وبيعها فجأة فى يوم واحد، ماذا يعنى هذا؟ لم ينته من قراءة الملفات والوثائق

المتاحة إلا وقد عظمت حيرته، إذ لم يلق ما يبصره، وما يدله على سبل شتى تخيل وجودها ، وألقى على عاتقة مسئولية طرقها، والخوض فيها بهمة وتفان، وقبل نظره الملفات والدفاتر الحسابية، أرسل فى طلب من ينوب عنه إذا غاب، ومن يدير أمور العمل إذا أخذه شغل، جاء الرجل متهللا، باسما، مكثرا من تقليد إيماءات ونظرات اشتهر بها ممثل كوميدى ممن علا نجمهم ولمع خلال المرحلة، قال إن الجميع يستبشرون بقدومه خيرا وبركة، كان يضحك فجأة ضحكة قصيرة، مضغوطة، ينهيها بغتة، لم يرتح إليه، بل نفر منه، غير أنه كتم ما به من تساؤلات، وحاش أمورا شتى لم ينطقها، بدأ بالاستفسار عن أحجار الرخام، فقال الرجل إن الشركة لاقت منافسة لا يمكن مجاراتها، تساءل، ممن ؟ عندئذ أطرق بنظراته إلى الأرض، ثم تطلع إليه شأن من يعرف أمورا جمة لكنه لا يود الإفضاء بها، غير أنه قال بعد هزة من رأسه تنتمى إلى هذا الممثل الكوميدى ثمة أشياء وخطوات واتفاقيات ربما تبدو عادية لكنها تعد من أدق الاسرار غير المستحب الخوض فيها حتى بين كبار العاملين، هذا ما عودهم عليه مقتبل باشا، لكنه الآن من أهل البيت، ولا يجوز إخفاء شىء عنه.

بدا أثناء نطقه الكلمات الأخيرة وكأنه يجامل، أكثر مما يقدر حقيقة مفروغا منها، ثم واصل حديثه..

قال إن المنافسة أتت من سيد المقاولين فى مصر، لم يكن الرخام مجال عمله، لكنه سارع إلى تأسيس شركة كبرى وعقد اتفاقيات، ولكن مقتبل باشا ابن سوق، يفهم ويتصرف، توصل

إلى اتفاق ورضى بالعمل من الباطن فى مجال الرخام، طبعا هو سيد العارفين بالمصلحة، أوامره لا تناقش وخططه لا يعرفها أحد، هو الكل فى الكل، والمال ماله، والدار داره، وإذا شاء استغنى عن الجميع فى غمضة عين.. إنه واصل !

لم يغب عنه أنه المقصود، المعنى، بكل كلمة فاه بها الرجل، بعد انصرافه لام نفسه، كان بإمكانه الرد القاسى فى مواضع عدة، لكنه آثر أن يكون مصغيا، وأن يؤجل ردود الأفعال، ما استوقفه شخصية الرجل نفسه حضوره الثقيل، ألفاظ تطرق سمعه أول مرة، وتعبيرات لم يألفها، وإيماءات غالبة على المعنى الظاهر، وإيحاءات متضمنة، استعاد سنوات طويلة كان يشرح الأمور الكبيرة بالكلمات القليلة، بأسى تذكر حميمية الصلات بينه وبين ضباطه وجنوده، بينه وبين قادته، خاصة زمن الحرب، وضوح القصد ونصاعة الهدف ونبل الجهد، هذه الليلة عندما كان قابعا فى خندق اتصالات قريب من قناة السويس، كان مسئولا عن تلقى الإشارات والرسائل من دورية قتالية عبرت إلى ما وراء الخطوط، أشد ما خشيه حدوث عطل تنقطع به الاتصالات أو تشويش معاد لا يمكنه إبطاله، برغم بعد المسافة الفاصلة، برغم عدم معرفته لأفراد الدورية، فإنه أيقن أن عمره يتصل بأعمارهم، وأن شهيق أو زفير كل منهم له صدى فى صدره، استعاد قلقه الليلى عليهم، واقترابه منهم على بعد، وراحته عند تلقيه نبأ عودتهم، وإبلاغه التمام، وانصرافه متأثرا بما كان منه مع أنه لم يرهم، ولم يلتق بهم

لا عند عبـورهم ولا عند رجـوعـهم، من يمكنـه أن يدرك مـوروثه هذا ؟.

مقتبل باشا؟ ليس التى يتعقد لغزها، أو هذا الرجل الذى لا يدرى عن مـاضيه الحـقيقى شيئـا، أين مـا كان مما هـو كائن بالفعل؟ النقلة حادة، والتـغـير وعر، فكأنه نزل ديارا يـجـهل مـا احتوته، إنه يؤدى دورا ولا يمارس عمـلا، مضطر هنا أن يكون غير ما هو عليه، يضـفى ظلالا على ملامـحه، ويلفظ الغريب عن قاموسـه، يظهر مـالا يضـمـر، ويبطن خـلاف مـا يلوح منه، عبر خـدمتـه الطويلة لم يـخض قتـالا مبـاشرا، لم يواجه العدو عن قـرب، لم يشـتـبك بالسـلاح الأبيض، لم يلتـحم، لم يكمن ثم يباغت، ومع ذلك فإن تعامله عمرا مع أجـهزة الاتصـال العـادية والدقـيقـة، وتوقـعه للإشـارات المتداخلة، والنبـضـات الغـامضـة، وظهـور صـوت مـعـاد فـجـأة، وتتبـعـه المضنى لمواضـع الخلل، والانقطاع، أكسبه هذا قدرة على التوقع، والتقصى والنفاذ إلى غياهب لا تدرك بالنظر الحسى، يوقن أن هذه اللافـتات تـخفى أمـورا غير مدونة بالورق، إنه يقف على حافة عالم غريب عنه، خلاف مـا خبر، وغير مـا عهد، لا تستقيم فيه الأمـور كما كانت عنده، فى مـيـراث خـدمتـه العـسكرية الطويلة، كـانت الحـدود ناصـعـة، صـارمـة، فـاصلة، هذا الصـواب وهـناك الخطأ ومـا بينهما منطقة حرام، أمـا النتائج فلا تحتمل التأويل، الأمر فى النهاية متعلق بأرواح يمكن أن تزهـق، وخسـائر جسيمة يمكن أن تقع، لكل خطوة حسـاب مـعلوم، وتقدير، ونتيـجة، لكم كان

ساذجا عند مروره بتلك المنشآت من بعيد، يظن أن لكل شيء ترتيبا، العمل لابد له من نتيجة، وللمضاربة عواقب، إما ربح وإما خسارة، يلتئم هذا كله فيما تعرف عليه القوم أنه بنية النظام.

لكن في طوره الجديد هذا يقف والخطى ماتزال بعد في بدايتها على ماخضه خضا، وما يتناقض مع محصلة زمانه كله المولى، الممتد في أيامه الخاصة المعاشة، لمدة أسبوعين لم يوقع قرارا، لم يصدر أمرا، تعلل بالرغبة في التعمق والدراسة، واستكشاف حقيقة الوضعية، إن ما تجمع عنده خلال هذين الأسبوعين لكثير، كتم ما تردد عنده، وأصغى، واستقصى حتى أدرك بعضا وليس الكل، في لحظات أوشك أن يظهر النفار، عندما أصغى إلى ضحكة الرجل المقتضبة القصيرة، وهو يحدثه شارحا ظروف صفقة السمن، أكد أن التجربة نجحت، وأن الصفقة الثانية آتية لاريب فيها، قال إن تغيير تواريخ الصلاحية لم يلفت النظر، ضحك ضحكته التائهة، قال هذه مواد انتهت في بلادها، غير مسموح بتداولها هناك، ومقتبل باشا يحصل بشطارة على كميات كان يمكن أن تلقى في البحر، لكن القوم عندنا يهضمون الحديد، ما من شكوى وردت، وما من حالة تسمم جرت، المخزن بالمطرية، رسميا معروف أنه مخزن للخشب، مستودع هائل، ضخم عند أطراف المدينة، هناك يتم طبع تواريخ الصلاحية الجديدة، تلصق البطاقات على العلب المعدنية، السوق تبلع كل شيء.

ابتسم الرجل، قال إنه من الطبيعي أن يقوم بزيارة المخزن،

انه تابع له، كما إنه سيرى هناك كيف يتحول التراب إلى ذهب ! لم يعد الرجل متحفظا معه، بل إنه صار يحكى له بسهولة، يقص تفاصيل ما يجرى، ويبدى إعجابه بمقتبل باشا الذى لا يتحرك الآن إلا وحوله ستة من الحرس الخاص، كأنه من الزعماء المرموقين، لم يكن الرجل هو المصدر الوحيد لوقوفه على ما يجرى، تفاصيل عديدة تشكل فى مجموعها كنه الوضع، من الصعب أن يرجع كل منها إلى مصدر محدد، مما أدهشه أن أدق التفاصيل يجرى تداولها كأمور مفروغ منها، فى الشركة، وفى الشركات الأخرى لا يذكر اسم مقتبل مجردا، بل لا يذكر إطلاقا فى العموم، إنما يشار إليه بالباشا، اما ميس فيجهل الكثيرون اسمها، يعرفونها بالهانم، لاحظ أن كثيرا من العقود المبرمة فى بلدان نائية وقعتها ميس، عقد فى مانيلا، آخر فى لاهاى، ورابع فى أثينا، أفلام تصوير، أنواع من الجبن، والصلصة، قطع غيار سيارات، مصابيح كهربائية، اصباغ كيماوية، مبيدات حشرية، وآلات للجراحة الطبية، وعندما اتضح له أن ميزانية الشركة التى تولى إدارتها تحقق خسارة سنوية متتابعة، كان عند حد لا يتلقى فيه المفاجأة الأولى، عزم وأضمر النية على وضع تقرير مفصل، مركز عن الشركة، عن تنوع نشاطها وعدم تخصصه، ولكن الأهم من ذلك كله، تركيزه على الخسارة الجسيمة التى تحققها الشركة بانتظام منذ تأسيسها، أوشك على الانتهاء من هذا كله، لكنه متردد الآن بعد أن ألم جوانب الأمر، وأحيط من مصادر شتى بجوهر الأصل والفرع، ما الجدوى مما قام به، وهل سيصغى

مقتبل إليه ؟ إنه الآن حذر، لو بدأ الصدام فربما دبروا له أمرا، خاصة بعد تأكده من وجود ثلاثة بين العاملين معه فى الشركة قضوا مددا متفاوتة فى الليمان نتيجة ارتكابهم جرائم شتى لم يقف عليها بالضبط، وصل إلى حد آثر عنده أن يكتم، ألا يلح وألا يفصح، ما أدركه فظيع، وما استوثق منه مروع، ولكن إلى صمت، وطول تأمل، وميل إلى انفراد، وعلى الرغم من أنه اعتاد ألا يخفى أمرا عن امرأته، فإنه لم يبح لها بحرف مما وقف عليه، وتكشف له، بل حاول تجنبها، وعدم الخوض فى حوارات مطولة، يخشى أن تدرك من أمره شيئا، ضاق بذلك لانه اعتاد الا يخفى عنها أمرا، لذا كان يعود متأخرا، مجهدا، متعبا، علل ذلك بضرورة بذل الجهد المضاعف، خاصة أن الأمر مازال فى بدايته، تتقبل راضية، توصيه أن يحاول العودة فى اليوم التالى مبكرا ليرى البنتين قبل نومهما، يسألانها عنه، ولماذا يتأخر، فتعدهما بوقت أطول يخصصه لهما عندما يفرغ، فتقول الكبرى، إن ايام الجيش أحسن !.

لم يفته همة امرأته فى ترتيب أمور البيت، تعد العدة لطلاء الجدران، وتلمح إلى ضرورة تغيير بعض الأثاث، يود لو أنه أفضى إليها بما ينوء به، لكنه رأى فيه إزعاجا لها وتشتيتا، فكر فى مصارحة خالها، لكنه استبعد ذلك، العلاقة بين الخال ومقتبل وثيقة، ألم يلمح مقتبل نفسه فى لقائهما الوحيد إلى صلته به، بل قال إن للخال فضلا عليه وأيادى لن ينساها، فأى خير يكون مع مثل هذا؟ إنه يقضى أوقاتا بمفرده بعد انصرافه

من الشركة، خيل إليه أن ثمة من يراقبه، كف عن المضى إلى المقهى الذى عرفه أيام تقاعده، آوى إلى ركن قصى فى نادى المحاربين القدماء، بعد صلاته المغرب توجه إلى هاتف من الطراز القديم فوق منضدة مرتفعة القوائم، دس عشرة قروش معدنية فى العلبة الصغيرة المجاورة، أدار رقما، مما عرف عنه أنه يحفظ الأرقام التى يتعامل معها، لا يحتاج إلى تدوينها، حتى أن بعض صحبه من الضباط تندروا بذلك، إذا أدار رقم الهاتف مرة واحدة فانه ليس بحاجة إلى تسجيل الرقم، ومع ذلك اضطر إلى التمهل لحظات لا نتزاع الأرقام من تلافيف ذاكرته، لم يكن قد اتصل بصاحبه هذا إلا مرتين ومنذ عدة سنوات، وكان ذلك فى الأعياد للتهنئة، ثم انقطعت الصلة خاصة عندما أحيل الرجل إلى التقاعد قبله بعام أو أكثر، فى هذا الغروب، مع بدء نزول الليل أيقن أنه بحاجة إلى رؤية هذا الرجل، هو بالذات، عرفه أثناء خدمته فى القطاع الجنوبى من جبهة القناة، كان وقتئذ برتبة عقيد، مسئولا عن مخابرات القتال، إنه من الصعيد، بلدته قريبة من مسقط رأسه، سمعته حسنة، صاحب جلد، ويقال إن اسمه معروف جيدا على الناحية الأخرى من صفوف العدو، وإنه نظم عمليات قتالية أثار بها الرعب بين أفراده، هذا مقطوع به، مؤكد، يذكر لمعة عينيه، وحدة ذكائهما، يستعيد بعضا مما روى عن جرأته الغريبة، حدث أن توجه ليلا إلى موقع قاعدة صاروخية فور علمه بقصفها، مضى والنيران فى أوجها، وطائرات العدو ترمى

مشاعل تقلب ظلمة الليل، تصهرها، وعند اقترابه من حد معين صاح به بعض الجند محذرين ألا يتجاوز حدا معينا، ثمة قنابل لم تنفجر بعد، أشار أحدهم إلى قنبلة ضخمة سوداء، قاتمة، فى حجم الزير، ذات ألف رطل، قال قائل منهم إنها لم تنفجر بعد، حثهم على التقدم لإزالة ما تهدم، ما انهار، رأى وجلهم وترددهم، تساءل مشيرا إلى قنبلة الألف رطل، ألم تنفجر بعد؟ قيل، لا، تقدم بهدوء، قعد فوقها، أشعل سيجارة، وبدأ ينفث دخانها، وعندما لاحظ دهشتهم برقت عيناه: ماذا تنتظرون؟ هل ننتظر حتى يموت من هم بحاجة إلينا تحت الأنقاض؟ عندئذ اقبلوا يتنافسون، أبرز ما فى وجهه عينان نفاذتان، لنظراتهما.

إنه يقعد فى مواجهته، هنا فى هذا الركن القصى من النادى، قال إنه لا يجىء هنا إلا نادرا، اعتاد التردد على مقهى افرنجى هادئ قريب من البيت، أما معظم وقته فيقضيه فى البيت، يقرأ، منذ عام بعد تقاعده مباشرة، قرر أن يخوض التجارة، كان لديه مبلغ من المال وضعه فى مشروع لتجارة السيارات، شارك بعض أقاربه، غير أنه فشل، أيقن انه ليس من أهل ذلك، السوق صعب، وخباياه وعرة، خاصة سوق هذه الأيام العجيبة، صمت لحظات ثم تساءل: وأنت .. ماذا فعلت الدنيا بك؟ بوغت، إذ كان يفكر فى مدخل يفضى من خلاله بما ينوء به، لابد أن الرجل أدرك بخبرته وفراسته أنه ما سعى إليه إلا ليخبره أو يطلعه على أمر ذى شأن، قال إنه والله فى ورطة، أخبر عن ظروفه، عن عمله الجديد هذا، غير أن المشكلة تكمن

فى هذا العمل ذاته، صاحبه الشاب الذى تشهر الإعلانات اسمه، وتبرزه اللافتات، والصحف والمجلات، الذى لا ينقضى أسبوع إلا ويلتقى بكبير مسئول، صاحب التبرعات الشتى، من لا يظهر أمام عدسات التليفزيون إلا والمسبحة فى يده والورع على ملامحه، هذا الشاب ماهو إلا تاجر كبير ومهرب خطير لأشد أنواع المخدرات، وبعضها دخل البلاد أول مرة على يديه..

هنا لمع فى عينى ضابط المخابرات القديم انتباه حاد، ويقظة زائدة، بينما انتهى شرود لازمه منذ بدء الجلسة، تساءل، وكيف عرفت هذا كله؟..

قال إنه بدأ بملاحظة، وتقصى أخبار مديرة مكتبه، أو بمعنى أدق مديرة أعماله، أو بوضوح أكثر صاحبة النفوذ كله عليه، منذ رؤيتها أول مرة لم يفته حضورها القوى وأثرها عليه، ونفوذها، ومكانتها، حتى أن الاتصال بها أو مقابلتها يحتاجان إلى ترتيب حتى من كبار العاملين فى شتى الفروع، شغله أمرها، خاصة بعد اكتشافه وهمية الشركة التى أسندوا إليه إدارتها، بحرص بدأ يستقصى ويستفسر، وبعد انقضاء وقت قصير، أدرك أن الأصول معروفة، والتفاصيل شائعة، المهم أنها لا تعلن، كل يدرى، حتى كبار المهندسين المشرفين أو المنفذين لمشروعات البناء، والتى ما أريد بها إلا تغطية جوهر النشاط وحقيقته، أذهله ما أدرك، فمقتبل هذا لم يكن له شأن

يذكر إلى ما بعد الحرب بسنة، وفى أيام القتال نفسها والزمن السابق عليها لم يسمع به أحد، لم تكن هناك لافتة ترفع اسمه، أو نشاط معروف له، ما من نفوذ أو ثروة، فانظر إلى أى حد تغيرت الأمور.

ضحك ضابط مخابرات القتال القديم، قال: وانظر إلى أمورنا نحن!..

قال إن ما عرفه شائع، شائع، وهذا ما أدهشه. إذ ظن أن الترتيب محكم، والنظام قابض، قال ان سر نفوذ لميس هذه يكمن فى أنها أول سعده، من بدأ ثراؤه على يديها، الممسكة حتى الآن بسره، إنها ليست جميلة جدا، غير أنها ذات طلعة، وعندها جرأة، متسقة، فارهة، لها حضور، عندما تعرف إليها مقتبل كانت تخدم عند احدى الأسر العتيقة، تدبر أمور البيت القائم قرب الاهرام، تحيطه حديقة فسيحة، لا يعيش فيه إلا رب البيت وامرأته، محامى عجوز، ابنتهما مهاجرة فى أمريكا، ابنهما يدرس فى فرنسا، ورثت لميس - وهذا اسم مكتسب حديث - الخدمة عن والدها الذى عمل طوال عمره خادما لهذه العائلة، إلى أن وافاه أجله، وحتى لا تضل البنت أو تضيع بددا، آواها الرجل عنده، تدبر أمورهما، تشرف على امرأة فلاحة تجىء لتنظيف البيت، ورجل نوبى يجىء لطهى الطعام، تعرفت إلى مقتبل وقت عمله بائعا فى متجر للتحف بخان الخليلى، يقال إنه أحبها وأحبته، ويقال، انه لقى فى ملامحها

ما كان يبحث عنه وقتئذ، إذ توحى بأصالة نسب، وانتماء إلى جذور ثرية، فكأنها ابنة باشا قديم صادرت الثورة أملاكه، ردد هذا على مسمعها وصرح به فانتشت لذلك وسرت. كانت تتقن أيضا اللغة الفرنسية، اذ درست فى مدرسة تتبع إرسالية تبشيرية كاثوليكية كانت تقدم العون لبعض الأسر الفقيرة، وقد يكون المحامى العجوز لعب دورا فى إلحاقها بالمدرسة، ما من أمر مؤكد بخصوص ذلك، المهم أن مقتبل عرف طريقه إليها، وحشا رأسها بيقين أنها جديرة بثراء لاحد له، وجاه، ونفوذ، وأن مظهرها فيه جمال وهبة، توثق أمرهما حتى تمت أول عملية على يديها وكانت البداية..

تساءل ضابط مخابرات القتال القديم :

ـ كيف تم ذلك ؟

عندئذ اقترب بمقعده، واجتهد ألا ينسى تفصيلة، أو تفلت منه شاردة، قال إنها تركت الخدمة فى بيت العجوز، بدا لها السفر مغريا، أن ترحل هنا وهناك، وترى الدنيا، كان هذا أحد أحلامها القديمة، بل أنها لم تنظر إلى وضعها كخادمة أو مديرة بيت كما أحبت دائما أن تصف نفسها إلا كوضع مؤقت، وأن حياتها ستتخذ سبلا مختلفة طال الوقت أو قصر، وجدت فيما اقترحه عليها مقتبل الفرصة أما الضمانات التى تحدث عنها فهدأت بالها وطمأنت خواطرها، سافرت إلى باريس، وعندما ودعها فى المطار بدت زاهية، وكأنها اعتادت السفر منذ

القدم، متسقة الحركات، دقيقة الإيماءات، شحيحة فى ألفاظها، فى باريس قضت أياما، ومنها طارت إلى آسيا، إلى منطقة يقال إنها تقع بين الهند وباكستان، أو بين أفغانستان وباكستان، لا يدرى على وجه الدقة، هناك تسلمت ما مقداره كيلو جرام واحد، أقل حجما من كيلو سكر، هل تدرى كم قيمة هذا ؟ ألف دولار، أما بيعه فيحقق ربحا قدره ستمائة ألف فى الحد الأدنى، المهم... أنها اتقنت إخفاءه فى حقيبتها، وعادت مرة أخرى إلى باريس، ومنها طارت إلى القاهرة، حقائبها مكدسة بأزياء الشتاء الجديدة، هذا ما صرحت به عندما استفسر مفتش الجمرك مبتسما مهذبا عما إذا كانت تحمل شيئا يستحق أن تدفع عنه ، حياها مادا يده إلى طريق الخروج، خطت راسخة، تدفع عربة الحقائب، وتحمل حقيبة يدها وعروس جميلة، كتب فوق صندوقها الشفاف أنها تغنى وترقص وتمشى وتبول !

تلك كانت البداية، والمؤكد أنها لصاحب متجر العاديات، إلا أن العملية التالية كانت خالصة لهما، عرف مقتبل طريقه إلى الرأس الكبير، تعامل معه مباشرة، وحتى الآن يخضع له، يستظل به، ولا يعصى له أمرا، سافرت مرات متباعدة حتى لا تثير شكا أو ريبة، غير أنه من الثابت أنها بعد السنة الأولى لم تكن بمفردها، ويبدو أنها هى التى اجتهدت حتى اقنعت بعضهن، حرصت على اختيارهن ممن لهن ملامح الوقار والجمال، لم يعرف عنهن الامور المريبة، أو السوابق الغريبة،

بعضهن جامعيات، ويبدو أنها تملك قدرا هائلا من السيطرة عليهن، تجهل كل منهن الأخرى، اتسع مجال نشاطها، وعظم شأنها، وقوى أمرها، حتى لتكاد تكون صاحبة الشأن، أما عن كنه علاقتها بمقتبل فأمر فى بعض جوانبه مبهم، من المؤكد أن ما بينهما وثيق، وطيد، لكن الثابت أنها سهلت له ودبرت تعرفه بهذه الممثلة الجميلة المشهورة، إذ يقال إنه مما يقوى رجال الأعمال فى السوق ويثبت أمره أن تكون له علاقة بمشهورة أو ثرية بحيث يذيع أمرهما، وتتناقل الألسنة تفاصيل ما بينهما، وأوصاف الهدايا المغدقة عليها، ورحلاتهما السرية، كذا خلواتهما، وما شابه ذلك، أما عن الشركات التى أشهرها وتتبعه فمنها ما يعمل فعلا، ومنها الغطاء المموه، إحداها متخصصة فى استيراد الأدوات الصحية، ولكن نشاطها الحقيقى تهريب أنواع أقل قيمة من المخدرات، بل ثمة إشارات إلى تهريب أمور أخرى، الذهب والماس، وحتى قطع الحلوى، ما يحيره أن جميع هذه الشركات تحقق خسائر على الورق، خلال الأيام الماضية أنهى مراجعة الأوراق والملفات، ودرس الأوضاع فلم يجد إلا الخسارة، لكنه يثق أن ثمة أوراقا أخرى غير متاحة له، سجلات ما، ربما أظهروها له بعد أن يستوثقوا من أمره، إنه فى وضع غريب، عجيب، إنه مسئول عن شركة لا يدرى كنه نشاطها، يجهل ميزانيتها الحقيقية، أما العاملون فكل منهم له وجه معلن وآخر خفى، يثق أن ما يدور حوله فى الظاهر يخالف ما يجرى فى الباطن فماذا يفعل؟

يقول المحارب القديم باختصار دال موجز :

– «انج بنفسك قبل التورط استقل..»

أطرق مهموما، كدرا، قال:

ـ «استقلت !»..

لماذا نظر المحارب الذى تقاعد
إلى الصغيرات أثناء لعبهن

.. تنقضى الأوقات أسرع مما جرى به تقديرها، عند خلوته يستعيد ما كان فتغمره دهشة لوجيز المدة التى بدت أحيانا دهرا ممتدا، عندئذ يسرى فيه حنين وتعبره هدهدة أسيانة، معان غالية ولت، وأحداث دنت خلالها الذات من جوهرها اندثرت، إذ ينتقل إلى التفكير فيما تبقى تغيم رؤاه إلى حين، ماتبقى أقل مما انقضى، هذا حتمى، مقطوع به، مع إيمانه الأتم أن لكل أجل كتابا، لن يمتد به العمر خمسين أخرى مثل التى انقضت، يثق من ذلك مع عدم وصوله إلى حد الكفر بما قضى به، يؤمن أن الموت فى الخطى الساعية، فى الأنفاس المتعاقبة.

لو انقضى وقته دون مفاجآت ليست فى الحسبان، كأن تصدمه عربة، أو تصعقه كهرباء، أو يسقط فوقه ثقل ما أثناء خطوه فى الطريق، فإنه بالقطع سوف الأجل فى العشرين القادمة، هذا إذا تجاوز الستين، صحيح أن والده تجاوزها بثلاث، وجده دنا من السبعين، لكنهما من سلالة زمن قديم، أما هو، فما أشق تراثه، وأثقل ميراثه، يبدو الآن قريبا، بعيدا، بعد أن فرغ منه، بعد أن أرغم على تركه فتحددت نهاية لما بذل من أجله العمر المنقضى، لكم سعى أحيانا ليقدم عمره طواعية، فى ذرا معايشته للخطر لم يطرقه هاجس الموت كتلك الأيام التى يمتلك فيها وقته.

فكر أحيانا فى تدوين اللحظات التى دنا فيها من انحناءة المصير، عندما شارك فى الثورة، كان ضابطا برتبة ملازم، لم يمض على تخرجه إلا سنة وبضعة شهور، هذه الليلة، هذا المنزل فى كوبرى القبة، قربه الحميمى من صحبه، الشعور بالمشاركة، التوحد، المصحف المفتوح على سورة يس، الأيدى المبسوطة، ترديد القسم.

ليلة الثورة عندما اقتربت اللحظة، استنفاره الجند، وقوفه فى عمق الليل، صوته المرتفع إذ يقول إن الجيش ماض لتطهير البلد من الفساد، من الإقطاع، من الظلم، إنه ماض، فمن شاء الخروج معه ليتقدم خطوة إلى الأمام..

ثوان مرت، ثم بدأ الخطوة، لم يتخلف أحد، فيما عدا جنديا تقدم خطوتين، صار فى مواجهته تماما، عنده ما يرغب الهمس به، انتحى به، قال الجندى انه سيخرج ولكن هناك احتمال الموت، أليس كذلك؟

أجابه مومئا.

قال إنه يرغب فى لقاء ربه طاهرا، اصله احتلم أثناء النوم، يرجو السماح له بالاستحمام، لن يستغرق إلا دقيقتين...

أذن له، أما جاويش السرية، من بيده مفتاح السلاحليك، فقال له انه صاحب عيال، وإنه يرجو إعفائه، المفتاح هاهو، فإذا حالفهم الحظ رجاهم النظر إليه بعين الرحمة، وإذا خابت الأمور، فسيقول إنه كان يغط فى نوم عميق، وإن المفتاح سرق منه، قال:

- ربنا معكم..

أين هذا الجاويش الآن؟ حى أم ميت؟ أين الجندى الذى احتلم؟ لم يرهما فيما تلا ذلك من أيام وليال، أين اللحظات الفاصلة المحملة بملامح يدنو بعضها وعبثا يحاول تقريب العديد منها، أين؟ لم يعن بتدوين ما مر، لم يكن لديه الوقت، مرة فكر فى تسجيل اللحظات التى اقترب فيها من الموت، حرب عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وحرب اليمن، وحرب الاستنزاف، ثم حرب ثلاثة وسبعين، لكل لحظة تفردها وغرابتها، يوما سيدون ما مر به، ينوى، لكنه لا يقدر، يحكى

أحيانا عن ضابط صاعقة، واحد من المعدودين، عرفه محاربا، شجاعا، لايهاب، يضج حضوره إذا ظهر فى موضع ما بالمجادلة، والتهيؤ للمنازلة، حارب فى جبال اليمن، عبر سيناء مشيا، ظامئا، نازل العدو وراء الخطوط أكثر من أربعين مرة، كاد أن يقع فى الأسر غير مرة، لكم مرق بين الشظايا بين اللحظة واللحظة، ثم يقصد القاهرة فى أجازة، وأثناء مشيه فوق الرصيف حادت عربة عن طريقها، خلل ما، دفعها ناحيته، فلم يحط منطقا، أى عقل يستوعب هذا؟ أى مصادفة تستعصى على التفسير؟ أحيانا، منذ تقاعده يرى أن وقته الحالى زائد عن الحد، يردد، أنه أنجز المهمة على خير وجه، خسائره طفيفة، غير أنه لم يقصد.. لم يتهاون، ولم يتنازل، الأمر عنده مرضى، لكن الوضع نسبى، فإذا قيس بالظروف، وتمكن الأحداث من الوقت، فالخطب فادح، والامر طام، وهذا مما يخرج عن حده، مالا قبل له به، لاقدرة له على تغييره.

إنه الآن بمفرده.

طوال عمره لم يؤد ما كلف به ألا وهو فى جمع ورفقة، فسبحان من يغير الأحوال، ويبدل الظروف تبديلا !..

إنه فى الخمسين الآن، تجاوزها بشهور، البنات الثلاث تزوجن، الأولى أنجبت فصار جدا، و الثانية فى طريقها إلى أن تصبح أما، أما الثالثة فأمرها مقلق، مقض، أما الابن فمغترب الآن، بعيد، بعيد، حتى رسائله شحيحة، لكنه يلتمس له العذر،

ابنه مازال فى البداية، يحاول أن يبنى حياته فى بلد بعيد، غريب فيه عن الأهل، عن اللسان،عن الصحب الذين عرفهم هنا، بمجرد تخرجه عزم وصمم على السفر، فوجئ، بوغت، أعد العدة لكى يبقى قربه، إنه الوحيد الذى جاء بعد شقيقاته الثلاث، له معزة، وعليه حرص، ومنذ السنين الأولى رباه على الصحبة، والبعد عن الجفوة، يهفو دائما إلى فترته ما بين التاسعة والثانية عشرة من العمر، إذ يصحبه إلى زيارة الأقارب، إلى النادى، كان يقعد صامتا بين الرجال، لا يستوعب ما يقولون، غير أنه لا يتململ، لا يبدى ضجرا، حتى إذا ما غلبه النعاس، قال:

- ياالله يابدرى!

يتساءل القوم بدهشة:

- يناديك باسمك؟

فيقول وبه مس من خيلاء:

- إنه صاحب وابن.

لكنه بعيد جدا الآن، يستعيد ما كان فينفطر بؤبؤ القلب منه، ويشرف الدمع على تخوم عينيه، هو من شهد أهوال الحروب، وعلى مقربة منه استشهد أعزة، سجى بعضهم بيديه وفات آخرين، لم تطفر منه دمعة، إلا أن هذه الأيام البعيدة، الغائمة، تهدهد ما كان منه وترقرق ما تبقى، ألم تغيم المرئيات عندما ودعه؟ ألم تتميع الموجودات؟ وعند عودته من المطار بدا الكون

موحشا، والبلد قفرا، الفراغ قد من وحدته أما وقته فبارد، لم يرجع إلى البيت فى موعده، قبع وحيدا فى مكتبه، رابط منفردا بعد أن أذن للضباط والجند بالانصراف، علق بصره بقمم شجيرات عتيقة ولم يعد، حاول تصور مراحل رحلة ابنه، حركة الطائرة فى نقطة ما من الفراغ، نقطة متغيرة، متبدلة حتى أوان الوصول، من ينظر إليه، من يتطلع، من يبادله الحديث عرضا، من يدرى أن لهذا الفتى أبا كان محاربا، صلدا، لم تدمه الجروح، وأوقات الحصار، والانسحاب مضطرا، ما آلمه ذلك الرحيل، هذا الغياب، صرف كل من يعمل معه، اعتاد مواجهة الآخرين بملامح لا تفصح عما بداخله، يقصى أى أثر قد يتسلل إلى وجهه، أتاح الخلوة حتى لا يراه أحد، طرق باب البيت بعد العاشرة ليلا، الليلة الأولى لاغتراب الابن، لقى امرأته منتظرة، ساهدة، مكلومة، باد جواها، أسئلتها قصيرة:

كيف بدا فى لحظات ما قبل دخول الطائرة؟

ألم ينس شيئا؟

هل صعد معه؟

ماذا قال؟

أجابها سورداً أدق التفاصيل، مرددا من حين إلى حين:

أتقلقين على الرجل؟ ابنك الآن رجل.

تقول حاسرة عن آلامها:

أنه ضنى.

تصمت مرغمة، مصغية، تردد..

هذه حال الدنيا!.

فى تلك الليلة، فى الأيام التالية حاد كل منهما عن إيلام الآخر، إلا أنه كان بعد نومها يقوم إلى البقايا، يقلب الكراسات العتيقة، تأمل خط ابنه عندما كان يجاهد ليحكم القبضة على القلم، عضلات يده أضعف من ذلك، الخط أمامه، باق، دال على وقت، غير أن الوقت ذاته ولى، صار عدما، فأين؟ نظر طويلا إلى أول شهادة نجاح حرص على الاحتفاظ بها، الانتقال من الصف الأول إلى الثانى، عندما تسلمها فرح فرحا جما وصانها فى إطار جميل، فيما بعد لم يبدد كراساته، أو كراسات شقيقاته، وشهادات الانتقال من مرحلة إلى أخرى، الارتقاء من زمن إلى زمن، بعد تسلمه الشهادة الأولى سافر إلى اليمن، ارتقى جبالا وعرة، وارتدى الزى الوطنى، أكل الأرز بقبضة يده، اتقن لهجات بعض القبائل، اقتضى عمله كضابط للمخابرات رحيلا دائما عبر الشعب والقرى واجتياز الوديان، عند كل فرصة يكتب إلى أسرته، يخط رسالة إلى ولده، يطلب من أمه أن تقرأها له، يذكر أيام اليمن فيلوح جانب من الرحلة الشاقة، إنه أحد الذين أمضوا خدمتهم كلها فى التشكيلات المقاتلة، الميدانية، نائيا عن المدن، فى الأطراف القصية، بقى عنده حنين دائم إلى البيت، وها هو يشهد الأيام التى يحن فيها

إلى زمن الترقب، والرصد الليلى، ومواجهة الخلاء، أياما يضيق فيها ببقائه الطويل فى البيت، لم تكن أجازاته إلا أياما شحيحة تنقضى بسرعة، دائما حرص على مغادرة البيت والأبناء نيام، كان حمل امرأته ثقيلا، غير أنها لم تقصر، لم تكل، كان عليه أن يقمع حنينه، وميله، حتى لقى نفسه فجأة - وإن توقع الامر - محالا إلى التقاعد.

أول أيامه فى البيت، أول يوم يفتقد فيه الوجهة، ويغيب عنه القصد، انتبه إلى وجوده مع امرأته لاغير، كأنها أيام اقترانهما الأولى قبل قدوم البنين، غير أن الوضع تبدل، تغير، فما كان مأمولا، بعيدا، انقلب موليا، لذا بدا البيت الذى تاق عمرا إلى قضاء الأوقات فيه خاويا، اغترب الولد، ومضت كل بنت إلى حياتها، فثقلت حيويته، وخبت نضارته، أما انتهاء الخدمة فميع أرضا طال وقوفه فوقها، أو خطوه، أو اتكاؤه، أرضا طالما رواها بأيامه، سحبت من تحته بغتة. فنزل عليه خواء.

أتم المهمة، والدنيا لا تدوم، ولا تبقى على حال، ألا يحق له أن يرضى ويهدأ ؟، خمسون ولت، لم يلحقه سوء يكدر صفو الخدمة، مع أنه لم يكن هيابا، أو مترددا عند الحسم، أو مؤثرا للسلامة إذا لاح خطر، لم يخنع فى مواجهة من هم أعتى، وله فى ذلك مواقف شائعة.

كان سدادا، منقادا دائما إلى ما يراه صوابا، ذا رأى وتدبير فى كل ما أوكل إليه، كان فى الحضور مهيبا، صاحب

جسارة وتنفد، حى الظرات ، واضح معالم الوجه، آمر الصوت بطبعه، إذا رآه من يجهل مهمته لا يخطر له إلا أن يكون مقاتلا، أو رأسا فى مجاله، ومع صرامته البادية، فإنه سليم الباطن، قليل الشر، كثير المروءة، مناصر للضعيف، لذا أحبه جنده، وهابه قادته.

أتم الخدمة، أنهى المهمة، غير أنه لم يستوعب بعد معنى التمام، لم يدرك حقيقة الفوت، وكنه انقضاء العادات إلا مع تباعد مألوفاته، ونأى مكوناته، إنه دهش.

احقا ولى هذا كله بدون رجعة ؟

أحقا حدث ؟

كان الأمر يخص غريبا عنه، أيام التقاعد الأولى ضنكة، فى سنين بعيدة، كان ينام متأخرا وعند الفجر يصحو، اعتاد رؤية بدايات النهارات دائما فى الخلاء. فى الصحارى، حيث ترابط الوحدات، فى لحظات استيقاظه الأولى يطوف به مرأى فراش دافئ، وتوشك أن تغلبه رغبة فى النوم دقائق أخرى، أو الإغفاء آمنا، بعيدا عن القصف المدفعى، عن الهلاك المحوم فى الفضاء، ها هى أيام الفراغ، حيث لا مواعيد تضطره إلى تحديد ساعات النوم، ولا ضرورة للاستيقاظ المبكر، ولا صحو مفاجئ نتيجة هجوم غير متوقع، مع ذلك فإن ساعات رقاده الآن أقل، يتساءل قبل نومه عما سيفعله غدا، يقلق فجرا، أحيانا تتميع الموجودات، تتداخل، يظن أنه تأخر، أنه أوغل فى

النوم وأن دقائق متبقية فقط ليرتدى الزى العسكرى، طوال خدمته حرص ألا يوقظه أحد، دائما آخر من ينام وأول من يستيقظ يعى فجأة أنه متقاعد، إن يومه فارغ من أى التزام، إن باستطاعته النوم، أن يغفو بدون إزعاج، يغمض عينيه، فلينم، ألم تبدو لحظات كهذه بعيدة المنال ؟ ليسترح، الوقت طوعه، غير أنه لا يزداد إلا يقظة، يتأجج صحوه مع بذل المحاولة للنوم، يصعب مضجعه فيقوم، يروح فكره إلى ولده، أهو مستيقظ الآن، أم يغط فى نوم عميق؟.

بهدوء يخرج قاصدا الغرفة التى شغلها ولده، المطلة على الطريق ، يلصق جبهته بالزجاج، يرقب الحركة فى الشارع، بعد تكرار وقوفه أصبح يعرف الآن، من سيخرج من البيت المقابل فى السادسة إلا ربعا، من سيظهر فى السادسة؟ العربة التى تجىء فى السادسة والنصف، تنتظر حتى الثامنة أحيانا، سائقها الأسمر يغفو أحيانا أثناء انتظاره، متى يستيقظ اذن ليجيىء هنا مبكرا؟ لابد أنه ينزل عند الفجر، يذهب إلى جراج المؤسسة ثم يجىء لينتظر البك الذى لا يظهر إلا عند الثامنة، لماذا يقف هذه المدة ؟، فى الأمر قسوة، ربما رغبة فى التظاهر حتى يرى الجيران العربة وسائقها.

يشفق على تلاميذ صغار يمشون فى السادسة والنصف، يقفون عند الناصية، فى انتظار عربة المدرسة، تنحنى

أجسادهم النحيلة اتقاء لهبات الهواء البارد، يقضم بعضهم شطائر، بينما يحتفظون بحقائبهم بين سيقانهم ملامسة الأرض.

ما أسرع مرور الأيام، ولت كطيف، بعد أن ضج البيت زمنا بأصوات الأبناء فى مثل هذه الساعة، خلا وخوا حتى من الصدى، كان يتابع خروجهم إلى المدرسة راضيا، إذ يمضون تقول امرأته: ياه.. مازال المشوار طويلا، متى أستريح ويستريحون ؟، الآن أتمت مهمتها مثله، غير أنها لم تسترح، يأخذها الحنين.

يتابع النظر، فى السابعة ينزل مدير محطة الكهرباء من المبنى المواجه، تجىء عربة نقل صغيرة، يركب إلى جوار السائق، إنه منحن يتلفت حوله كثيرا، سافر عامين إلى السعودية، ما بين السابعة والثامنة تتدفق الحركة، موظفة ترتدى فستانا طويلا، وحجابا، تنزل على عجل تحمل طفلة صغيرة، يبدو أنها تمضى بها إلى دار الحضانة، يشفق على الصغيرة، الدنيا برد، امرأة نحيلة تظهر فجأة، سريعة الخطى، تتوقف عند الناصية كأنها تكتشف نسيان شىء هام لا يمكنها المضى بدونه، كأنها على وشك التعثر فجأة، فى نفس الوضع تقريبا تفتح حقيبة يدها، تقلب محتوياتها دون أن تبرزها، تغلقها، تستأنف السير، يبتسم، يتذكر زميلا من ضباط الاحتياط يفتح مظاريف الخطابات بعد أن يلصقها، يعود مرات

ليتأكد من إغلاق مكتبه، عند الثامنة إلا عشر دقائق تبدو فتاة تحتضن كتبا، أحيانا تحمل معطفا أبيض على يدها، كلية الطب، أو الهندسة، بعدها تجيء امرأة ترتدى جلبابا أسود، تغطى رأسها بطرحة، متقدمة فى العمر إلا أنها نشيطة تتدفق حيوية، يحيد بعينيه بعيدا، فى مثل هذا الوقت كان عمله يبلغ ذروته.

زمن الحرب، يتصل اليوم باليوم حتى توشك الفوارق أن تنمحى، لكم أمضى ساعات يرصد، يرقب تحركات العدو فى الناحية الأخرى، لزيادة طلعات الطيران مغزى، ظهور نوع معين من العربات له مغزى، لكثرة ما جمع من تفاصيل عن القطاع المواجه كان يعيش أوقاتهم وهو بعيد عنهم، مواعيد تغيير النوبات، الزمن الذى يستغرقه الجندى للصعود إلى كشك الملاحظة، مواقيت تناول الوجبات، تشكيل دوريات الاستطلاع، مرات تردد قائد القطاع على المواقع الأمامية، أما مواقع أكداس الذخيرة، ومخازن المؤونة، ومداخل ومخارج النقاط القوية فكان يعرفها ويرقب أى تغيير أو تبديل يلحقها، أحيانا يحلم بها لانشغاله وطول تركيزه، وعندما وصلت إلى يديه صورة قائد القطاع المواجه علقها فى مكتبه، صار يزيح عنها الستار كلما انفرد، يتأمل ملامحه ـ يستعيد الأساليب التى تصرف بها خلال الاشتباكات الماضية، عصبى ؟ هادىء ؟ سهل الاستفزاز ؟ حريص ؟ متهور ؟ لكل صفة، لكل تفصيلة أهمية قصوى، مهما بدت ضآلتها.

لطول معايشته كان يدرك بالحس ما لم يقف عليه بالمعلومات، يستشعر دنو الخطر، والأوقات التى يلوح فيها الكمون، يرصد البدايات الغامضة، اللامرئية، حدث أثناء انتقاله مشيا على قدميه من موقع إلى آخر قرب مدينة القنطرة المهجورة وقتئذ أن ارتمى فجأة منبطحا، جزء من لحظة ودوى إنفجار على بعد أمتار، ما الذى دفعه إلى الارتماء فجأة، إلى جذب مرافقه؟ فيما بعد حيره هذا، لكنه لم يقدر على رصد نذر أو مقدمات، إنه يفارق النافذة، ما يقرب من ساعتين يرقب خلالهما حركة الطريق.

ظلال البيت وموجوداته غامقة مع انتقاله من التحديق فى الضوء إلى الداخل، لمقاعد المائدة حضور صامت، غريب، كان يتعجل أيام أجازاته للجلوس هنا، يتصدرها، حوله البنات وشقيقهن، أما امرأته فلا تقعد إلا لتقوم، تحضر ما يحتاجه كل منهم، من رغيف أو ملح أو ملعقة، مع تنافس البنات على الخدمة وقضاء حاجات البيت، لكم أحب تلك اللمة، هذه الجلسة المكنونة..

المقاعد خالية الآن، المرأة حركتها بطيئة، هدوء ثقيل يؤطر ملامحها، لولا مجىء هذه الشغالة فى الشهور الأخيرة لما استطاعت أن تدير أمور البيت، قال ضاحكا لأحد أعزائه المقربين: نساؤنا نال منهم العمر، ونحن نتقاعد فى ذروة عافيتنا، قال صاحبه: تزوج شابة صغيرة. قال: هل سنأخذ من

الدنيا أكثر من حقنا؟، ثم قال، إنه كمن يبدأ من جديد، لكنها بداية ما بعد الخمسين، بعد أن شب الأبناء ومضى كل منهم إلى حياته، يحوش نفسه عن زيارة بناته، يود الإصغاء إليهن أثناء طوافه بالشوارع للمشى كما يقول، ولكى يقطع الوقت أيضا، يدنو من بيت أكبرهن، قريب، يشرع، يود رؤية حفيده، غير أنه ينثنى قبل الناصية، لا يود مفاجأتها هكذا، ربما يضيق زوجها، يوم الجمعة يلتئم الشمل عنده، يجئن مع أزواجهن، هذا ما طلبه منهن، الا يتخلفن عن غذاء يوم الجمعة إلا لضرورة، إنه فرصة اللقاء المتبقية، عندما كن فى البيت نأى عنهن بالضرورة، فى المعسكرات، فى مواقع القتال المتقدمة، هكذا قضت الواجبات، لكم مضت عليه أيام شداد، مجرد تصوره لقاء الأبناء كأن ذلك سيتم فى خلق جديد، أيام توالى غارات الطيران، وضعف القدرة على المواجهة، وعندما صار فى الوقت فسحة، كن شببن ومضين، أما الولد فاغترب !

لقاء وحيد، مرة فى الأسبوع، لاحظ آخر مرة أن الابنة الصغرى ضلت طريقها إلى صوان الكتب، نسيت مواقع الأشياء فى البيت، مع أنها لم تفارقه إلا منذ عام وعدة أسابيع، بعد خروجه تتصل الأم بهن، تطمئن خاصة على الحفيد، أهو مستيقظ، أم مازال نائما؟ هل أكل جيدا؟ هل خف الرشح ؟

حقا أنهى الخدمة، أتم المهمة، لكن أيمتلك وقته فعلا، أم يمضى به إلى حيث لا يدرى ؟، لماذا يشعر انه ضل؟ إن

الجهات اختلطت عليه؟ أما هدفه فمرق منه، رسا عند زمن غريب، مرة فى اليمن صحا بعد نوم عميق، للحظات تعلق بصره بسقف المكان، لم يدر شرقه من غربه، بعد وقت أمضاه متمددا بدأ يعى أن هذا ملجأ فى الجبل، وان المدخل ضيق، المرقد صعب، وأنه فى حرب، فى اليمن، وأن دياره نائية، أيامه الآن تشبه لحظة الفقد هذه.

فى اليمن شغل بأمره، إنه جنوبى المولد، أول هواء استنشقه فى إحدى النجوع «نجع الهلة» بسوهاج، كان والده شيخا: مهيبا، مسموع الكلمة، وافر الحرمة، له القول الفصل عند المنازعات، عرف بعشقه للتواريخ، وما جرى بين العائلات والقبائل فى الزمن القديم، كذا تتبع الأنساب، والفروع، والأصول، أخذ ذلك عنه، وأغرم به، غير أنه لم يسلك طريقة أبيه لاختلاف الظروف، واتباعه طريقا مغايرا، ذلك أن والده كان عالما بأحوال العائلات ملما بناس الناحية، إذا ذكر اسم أمامه يقص ما جرى لصاحبه، ويحكى عن الأقارب، من أقام، ومن رحل، من ذهب ولم يرجع، من اغترب، من رجع بعد غيبة موسرا، من قفل عائدا فلم يعرفه أهله الأقربون، من عاش ومن باد، كان أول سؤال لمحدثه، من أى بلد أنت ؟، حتى إذا ما أصغى إلى الإجابة يذكر بعض الأسماء مستفسرا مما يدهش محدثه، ويثير عجبه، أخذ عن والده السؤال، أول ما يبادر به الجنود الجدد، لكن أنى له معرفة والده، وغزير إحاطته، مما حكاه والده فى الزمن القديم أن أصول القبيلة التى انحدروا

منها في اليمن، وعند إقامته زمنا، متنقلا في ربوع البلد، مستطلعا، مدققا، أثناء تجواله استقصى حتى أمكنه بعد جهد جهيد أن يستوثق مكانها، عمل مجهودا كبيرا حتى دنا من مضاربها، بات ما يفصله عن جذر أصله، عن أساس قبيلته ممر جبلي خطر، كان أفرادها على غير وفاق، يجاهرون بالعداء، أوقعوا الرجال في مكائد شتى، أبدى استعدادا للمضي إليهم، للمفاوضة، تلقى الموافقة فأعد للأمر ودبر ما يلزمه، حتى وصل إلى حد معين، كان عليه أن يركب بغلة، أن يمضي عبر شعاب الجبل صعدا، غير مؤمن إلا بوعد شفهي وصله عبر رسول لا يستوثق أمره تماما، إلا أن فضوله كان عظيما، فمن تلك الوديان والشعاب والمدقات انطلق قومه في الزمن السحيق، كيف، لماذا تحركت عندهم دوافع الرحيل؟ كيف تأهبوا له، كيف فارقوا مرابعهم تلك؟ على أي صورة مضت الليلة الأولى على درب الاغتراب؟ لماذا رحل من رحل؟ لماذا بقي من بقي؟ في أي عمر كان جده البعيد عندما ودع ما ودع؟ ربما تبقى هنا من يمت إليه بصلة قربى، عند وصوله سيطيل النظر إلى الملامح، إلى الشبه الخفي، لعل وعسى!

لم يتبق بينه وبين مضاربهم إلا مرحلتان من الطريق، خلف وراءه أربع مراحل، كان في بداية النهار، والوصول مقدر له عند العصر، بعد عبور المضيق يبلغ أرضهم، إلا أن أمرا بالعودة صدر، أمر لا يقبل المجادلة، صارم، غامض، كإشارات اللاسلكي التي احتوته، لم يكن بوسعه إلا أن يلبي، انثنى،

وبدلا من استقبالهم بوجهه أدبر، وبدلا من وصوله أقلع، عند كل منحنى التفت، كأنه واحد من قومه النائين عند رحيلهم فى الزمن القديم، ومثلهم علل النفس بعودة قريبة، أو فرصة تالية، غير أن هذه الفرصة لم تأت قط، ذلك أنه فارق اليمن كلها بعد أسبوع واحد من محاولة اقترابه، نزل القاهرة لمدة ثمان وأربعين ساعة ومنها رحل إلى نخل بوسط سيناء، لم يزر بيته حتى، جرى ذلك قبل بدء حرب يونيو بأيام ستة لا غير، كثيرا ما استعاد تقدم خطاه عبر الجبل، خاصة فى ليالى رقاده قرب قناة السويس، حيث يمكنه الإصغاء إلى تلاطم الموجات المتتابعة.

حكى بعضا مما جرى لامرأته، كانت تصغى فى البداية متقدة الانتباه، مسرورة، لم تعتد منه طوال خدمته أن يحكى عن عمله، عن ظروفه، وها هو بعد تقاعده يفيض، غير أنه بدأ يلحظ شرودها وإن تظاهرت بالإصغاء، لكن تيه نظراتها لم يكن بمنأى عنه، كف، عاد إلى صمته.

فى يوم جمعة، وبعد الغداء قعد صامتا، فى البيت البنات وأزواجهن، ترى، أين ولده الآن ؟، هذا ما ردده دائما، ابنه الذى كان يخشى خروجه بفرده إلى الطريق، يسعى الآن فى ديار غربة، التفت، خارج النافذة يبدو نهار رمادى، يترقرق، لا يقدر على احتمال اللحظة، بعد لحظات اعتذر، تعلل بارتباط ضرورى، ربما المرة الأولى منذ سنوات بعيدة، منذ ما قبل

دخوله الكلية الحربية، يمضى بلا قصد، بدون وجهة، يمشى للمشى، يحيره هذا، ما لم يتكيف معه بعد.

عند خروجه من البيت يبدو سريع الخطى، متعجلا، يضفى علي ملامحه جدية وأحيانا عبوسا، فكأنه ينوى قضاء حاجة لا تحتمل التأخير، حتى إذا بعد عن الشارع مقدارا، يخف اندفاعه، ويبطئ خطوة، يتوقف أمام واجهات المحلات، يدقق النظر فى لافتات الأطباء ،الإعلانات، المبانى التى ظهرت فجأة، متى قامت؟

كأنه يدرك المدينة لأول مرة، لم يعبر طرقاتها إلا فى العربة العسكرية، مناطق بأكملها لم يطرقها، وأحياء جديدة لم يقصدها، وشوارع لا يدرى إلى أين تؤدى، اكتشاف الطرق مشيا جد مختلف عن المرور راكبا، غير أن المشى بدون قصد باعث للكمد، محير، لماذا لا يزور المتاحف؟ لم يدخل المتحف المصرى إلا مرة واحدة منذ ستة وثلاثين عاما فى رحلة مدرسية، كيف لم يصحب الأبناء إليه، إلى المتحف الإسلامى، إلى الزراعى، إلى القبطى؟.

يمكنه الآن زيارة أى متحف، قضاء أى وقت، لكنه بمفرده، الابن بعيد، والبنات منغمسات، أما امرأته فتشكو ألم ساقيها، تعتذر بثقل حركتها، بان عليها تقدم العمر، تبدو راغبة فى الخلوة، فى الانفراد، لا تتكلم إلا إذا حاورها، لا تنطق إلا إذا ناداها.

عـجـيب! أهذه طبـيـعتـهـا وغـابت عنه لقـضـائه الأوقـات فى الخدمـة؟ معظم عشرتهـا اتصلت اسبابهـا فى أيام الأجازات، لم ير من معالمها إلا ما تسمح به الأيام القليلة.

حـرصت ألا تكدره، ألا يعـود إلـى عـمله مـهـمـومـا، مـثـقـلا بمشاكل البيت، شالت عنه مشاكل الكبير والصغير..

يتوقف أثناء مشيه، يحن إلى رؤيتها، للعودة إلى البيت فى هذه اللـحظة، كـأنه يكتـشف ذلك لأول مـرة، أعطى زمنه بأكـمله للجيش منذ أول يوم عبر فيه باب التخرج فى الكلية الحربية، طرح الحـيـاة المدنية وراءه، تبـاهـى دائما بسنوات خـدمـتـه التى قضـاها كلـها فـى التشكيلات الميدانية، زهـا بالترقية الاستثنائية التى حصل عليها نتيجة البلاء الحسن، والقدوة الجيدة.

هو.. كـان قدوة، ولكنهم بغـتـة أخـرجوه عنوة من وقتـه، من انتظامه، أقصـوه قسرا فى ذروة انغمـاسـه، حـادوا به غـصـبـا، أرغموه أن يصبح مكيثا فى عنفوانه ولم يهن بعد.

لم يكن حبيسا للمكاتب قط، كان دائما طوافا، حواما، وعند زواجه لم يتبدل أمره، لم تشعره امرأته بالهموم، رعت أغصانه، سقت طرحه، حتى إذا فاض عن الحاجة، وفرغ إلى وقته كاملا، سعى إلى الثمر، فإذا به نضج، مفارقا الأصول، متفرعا إلى دروب شتى.

أحـيـانا يتـوقف أثناء طوافـه بالمدينة، تطرقـه هـواجم تبـدو ضئيلة لكنها تستنفر داخله الشجن، يتعجب، كيف لم ينتبه إلى

مغزى الأمر عند حدوثه، كيف لم يلتفت فى اللحظة الآنية، حتى ليتوقف فجأة أثناء مشيه، أو يهم إذا كان قاعدا، ويطوف بحدقتيه أسى مكتمل، لا يلوح إلا فى حدقتين خبرتا الاهوال العظام.

كم مرة دنا من الموت؟، ألم يظل مسدسه فى متناول يده زمنا، عند انتقاله، عند هجوعه، إذا نام وضعه تحت وسادته، الم يخطط يوما لأسر ضابط مخابرات العدو فى القطاع الجنوبى، وضع كل احتمال بما فى ذلك أسره، لو دنا المحظور كان متأهبا لإخراس نفسه إلى الأبد، يضمر ما عنده من أسرار تتعلق بها حيوات القوم.

ليست المواقف التى تهدد فيها عمره تلك التى تلح عليه، انما لحظات صغيرة بما احتوته، كانت ضائعة من مناطق الذاكرة المضيئة.

قبل عبور القوات، فى قرية الشط، كان فى موقع مراقبة متقدم، على مقربة قطعة أرض ينحنى فلاح من الناحية على زروعاتها، كان رجلا تجاوز الخمسين، ومن حركته خمن أنه ينزع بعض الحشائش الضارة، عندما دوى أول انفجار انتفض واقفا، تلفت حوله بحدة، بعد الانفجار الثانى، راح، جاء، راح جاء، كأنه مشدود إلى خيط خفى يجذبه يمينا ويسارا، ثم جرى إلى الحفرة الدائرية فى نهاية الغيط، يلح عليه الموقف، رواح الرجل ومجيئه اللاإرادى، ثم اندفاعه..

غير أن لحظة أخرى مثقلة بالدم سرعان ما تدركه، يأخذه روع عند استعادتها لم يعرفه فى انيتها.

كان يقود سيارته فى خط متعرج، كانت مدينة الإسماعيلية تتعرض لقصف مدفعى كثيف، اضطر إلى التوقف أمام بيت واجهته خشبية، عند الناصية لمحه، كان يرتدى جلبابا، يركب دراجة، يقودها بأقصى ما لديه من طاقة، هكذا تنبئ حركة ساقية، انحناءته.

فجأة.

شظية لم يرها، لم يدر حجمها، أو مصدرها، سبقها انفجار قريب، انبثق الدم غزيرا عند قاعدة الراس، بدا مظهر الجسد غريبا وقد طارت منه الهامة، لكن ما جعله يحملق، استمرار الساقين فى حركتهما، امساك اليدين بالدراجة، دوام الانحناءة، الاندفاع إلى الأمام، انخفاض ساق وارتفاع أخرى، كم دام؟ ثوانى، جزء من ثانية؟ الغريب أنه لم يرو الواقعة لزملائه، لم يفض بها قط إلا بعد تقاعده، ولزميل خدم معه فى اليمن وأحيل منذ وقت طويل إلى التقاعد، لكنه إذ يستعيدها تدرك أطرافه برودة، مع وعيه الأتم بالأسباب المنطقيات لكنه الفرق بين أن يرى، وأن يسمع..

تنتفض الرؤى القديمة، واللحظات المارقة، حتى الإحساس بالذنب.. مرة أبلغ عن هروب جندى من أحد مواقع مدفعية

الهاون الثقيل، خرج فى أجازة ولم يعد إلى وحدته عند انتهائها، تم إخطار قسم البحث عن الهاربين، والشرطة العسكرية، والشرطة المدنية، والجهات المعتاد إبلاغها عند وقوع مثل هذه الحالات.

مضى أكثر من عام..

طبعا نسى الأمر، فهناك آخرون يختصون بأمور لا يحاط بها علما، لكنه علم من قائد التشكيل ما عجب له، مع أن حيز الدهشة فى الحروب ضيق، ضئيل، لقد عثروا على الجندى، كيف؟، تقع وحدة الهاون على مسافة من الطريق المرصوف، عندما بدأ أجازته كان لابد أن يمشى مسافة عبر مدق ترابى، كان الوقت ليلا عندما حامت طائرات العدو، سقطت قنبلة زنة ألف رطل، كان فى المدى المؤثر للانفجار، قلبت القنبلة الهائلة الرمال، انهالت فوقه، طمرته، اختفى تماما، لم يعثر له على أثر، ولم تكن هناك علامة دالة، بعد أكثر من عام جاءت الجرارات لإقامة مصطبة رملية، أثناء الحفر عثروا على المقاتل، استدلوا على الهوية من السلسلة المعدنية التى تحيط بالرقبة وتحمل رقما، نقلوا الرفات، وأصبح الهارب شهيدا..

لكم أشفق على أسرته، على الجندى نفسه، يدركه ذنب بعد انقضاء الأوقات، لكن كيف كان سيعرف؟ كيف؟.

يلح قديمه عليه، غير أنه يحوشه عن الآخرين، ما جرى تراث يخصنه، وإن ما شهده لن يدركه إلا هو، لا يريد الوصول إلى

لحظات يصغى فيها أزواج بناته إليه تهذبا، مع أن زوج الصغرى ضابط تخرج منذ أربعة أعوام، لكنه لا يقدر على وقف هذا التدفق، كأنه يكتشف بعضا مما مر به أول مرة، لذلك تطول فترات صمته، أحيانا كان يلتقى ببعض ممن يعرف، يسألونه عما يفعل؟

يقول إن عنده مشاريع للتجارة..

اذا ألح محدثه يجيبه..

ـ تصدير واستيراد..

مجال فسيح، مطاط، كما أن معظم الضباط المتقاعدين اتجهوا إلى هذا النشاط، لماذا التصدير؟ لماذا الاستيراد؟

لا يدرى..

غير أن ثمة عرضا حقيقيا تم، إذ جاء رجل يمت إليه بقرابة، لقيه فى مقهى فسيح، عتيق، بشارع الألفى، ثم دعاه إلى الغداء بنادى الضباط، يشفق على امرأته من دعوة صاحب أو قريب حتى لا يكلفها جهدا لم تعد تحتمل القيام به، كان الرجل تاجرا كبيرا فى المحافظة النائية، عنده واسع دراية ويد طولى فى السوق، عرض عليه أن يضع يده فى يده، أن يتكاتفا ويتوكلا على الكريم، أن يدخل معه فى مشروع لتجارة العربات، عنده مخزن مغلق الآن، موقعه قرب ميدان المحطة، إذا اتفقا سيرتبه، ويعلق فيه صورا لطرز العربات الحديثة ، فقط.. هذا ما يلزم

البداية، طبعا سيجيئهم من يعرض بغرض البيع، ولهما العمولة، كما أنه يعرف بعض كبار التجار فى أسيوط، هم قائمون على توكيلات شركات كبرى، سيأخذ منهم عربات للعرض كأمانة.. الأمل كبير، وفى الباب متسع.

أصغى إلى الرجل، النادى حولهما شبه خال، فراغ المكان يوحى بتداعيات الوحدة، ثمة بوق نحاسى ملقى قرب المسرح، بوق صدئ ربما، لمن؟ لا يدرى، منضدتان فقط مشغولتان، متباعدتان، إلى الأقرب قعدت امرأة تخطت الأربعين، هذا مؤكد، ثلاث فتيات، إحداهن ناهضة، والأخريان صغيرتان، ضامرتان، وصبى فى الحادية أو الثانية عشرة، يتناولون طعامهم فى صمت، أين أبوهم؟ غائب؟ حاضر؟ أم راحل إلى الأبد؟ إذا كان شهيدا فمن هو. هل سمع عنه؟ ربما يعرفه، ربما خدم معه.

المنضدة الأخرى يجلس إليها عجوز جدا، يمضغ متمهلا، واضح من بروز شفتيه وارتخائها أن فمه خلو من الأسنان، ربما كان ضابطا فى العصر الملكى، بعد عشر سنوات أو خمس عشرة إذا امتد به الأجل سيطعن هكذا، من يدرى؟.

- «آه ما رأيك؟».

يبدو أنه شرد طويلا.

لم يشرع فى التجارة، ولم تخطر بباله يوما، كثيرا ما سمع فى السنوات الأخيرة عن زملائه الذين تعجلوا إنهاء خدمتهم، وتقاعدوا راغبين، ثم شرعوا، منهم من نجح وجمع ثروة، ومنهم

من خاب، التقى بهؤلاء وهؤلاء، أصغى إلى أحوالهم، إلى تقلب الظروف بهم، لكنه لم يتصور نفسه شريكا فى تجارة.. لكن، ماله يجد نفسه مترددا، حائرا، زمن القتال كان يتخذ أصعب القرارات فى الفترة الوجيزة، زمن احتدام الاشتباك، حيث تتعلق المصائر بقرار، أحيانا لم يكن الوقت يسمح بترف التردد، لم يقدر الا على المفاضلة واتخاذ الأنسب مع مراعاة القدرات المتاحة، ما يحيط الظرف، لماذا يحار الآن؟ يطيل النظر إلى الرجل المتقدم فى العمر، صارم القسمات، موجز العبارة.

لماذا لا يجرب؟

لكن من أين له الإمكانية؟

ما من عقار، أو رصيد مناسب فى البنك عنده، ورث بيتا فى القرية لكنه لم يقم به إلا أيام نزوله القليلة، قدمه إلى شقيقته قبل وفاتها، كانت أحوالها صعبة، والآن تقيم به ابنتها، كان والده مهيبا، مشكور السيرة من القريب والبعيد، مسموع الكلمة، يعمل برأيه عند المنازعات وإن لم يكن أغنى القوم، لم يحز ثروة أو أطيانا، لم يلتق يوما بأحد أبناء البلدة أو الذين عرفوه إلا ورفع يديه إلى السماء ترحما على الرجل الذى لن يجىء مثله، القادر على فض المنازعات، وإلزام كل إنسان حده، غريب أمره الآن، بعد كل ما خبره وعرفه فى الحياة الدنيا، يود لو أن والده كان برفقته الآن ليسدى إليه نصحا، يستعيده الآن، بنظراته الهادئة، المسددة، قامته النحيلة، ما قوله، كيف سينظر، كيف سيجيب لو أصغى إلى هذا الرجل مال إلى الأمام قليلا..

كيف سيشارك، ما المطلوب منه بالضبط؟

يحرك الرجل عصاه التى يحيط قمتها براحتيه، يضحك، إنها بداية الثقة، والبوح بما يضمره، فى مقدمة فمه موضع سنتين فارغتين هل لحظهما؟ لم يجزم، يضيق، كيف فاته ذلك، يقول الرجل ملامسا صدره براحة يده:

- «أنا بمالى، وأنت بعرقك..»

تبدو هيئته كتاجر جلية، تاجر يساوم، يحاور، يبيع ويشترى، يتخفي ثم يسُفر فى اللحظة المواتية.

- «عرقى، وماذا يساوى؟».

يتراجع، يرفع حاجبيه، كأنه يقول، يعنى ألا تفهمنى؟، يميل إلى الأمام مقتربا..

- «عرقك غالى ياسيادة اللواء، يساوى الكثير، الكثير قوى..»

- «بصرنى ياحاج..»

- «أنت لواء، ولواء من الأبطال، وعندك معارف وأحباب فى أيديهم كل شىء، قبل الافتتاح سنعلن وننشر فيعرف القريب والبعيد».

- «لكن ياحاج أنا طول عمرى فى الجبل، فى الصحراء..»

يبتسم الحاج، وان بدا حذر مشوب بقلق عنده..

- «طول عمرك ضابط مخابرات، أتظن أننى لا أعرف..»

- «مخابرات على إسرائيل ياحاج..»

يضحك..

- «وماله، ما هم فى البلد زى النمل..»

يتراجع بهامته قليلا، كأنه يسمع لأول مرة، قال ما قاله وكأنه أمر مفروغ منه، غير قابل للمجادلة، مستقر منذ أمد، يطيل النظر إلى الرجل، إنه وقور، لشيبته حضور، كانوا يسمون حرب المخابرات صراع العقول، بعد نجاح مهمة خطط لها ينتظر، كيف سيكون الرد؟ كيف سيتصرف من يقبع فى الجانب الآخر؟، بون شاسع يفصله عن الحاج الآتى من أعماق الصعيد بحثا عن غطاء لا عن شريك، سعيا وراء واجهة، لا يدرى أن الجالس أمامه أصبح صدئا، من مخلفات زمن غبر وحروب تبدو الآن نائية جدا بكل ما حفلت، فكأنها جرت فى بلد آخر، وفى عصر بعيد يجهد المؤرخون أنفسهم ليعرفوا بعضا من ملامحه. كيف يتصرف؟ يسخر أم يقسو؟ لا ينطق، بل يطرق، يسرى حزن خفى نواته، إلى صلبه، أليس الرجل منطقيا مع نفسه، مع الواقع؟، يريده مستخدما عنده، يبغى شراء هذا التراث كله، إنه تاجر قديم، ابن سوق، ولابد أن ما يجرى حوله من تقلبات جعلته يتلمس ما تصور إنه غطاء يمكن الاحتماء به عبر السبل المعوجة، لا يشبه التجار الجدد، ما سمعه من

العقيد المتقاعد بدا له غريبا، بل مقلقا، جاءه محتميا به ولكن من جهة مغايرة، حكى له عن هذا الشاب الذى تنشر الصحف يوميا عن نشاط شركاته، لكنه لم يتصور قط عندما التحق عاملا عنده أن نشاطه الحقيقى محوره أشد أنواع المخدرات فتكا بالبنية البشرية، وأن الامر كله بيد عاهرة لها الشأن كله، بدا كأنه يلوذ به، هو متقاعد مثله، غير أن ظنا واهيا عنده، ربما أبقى عمله كضابط مخابرات قديم، على صلات يمكن من خلالها تقويم المعوج، تنبيه أصحاب الشأن إلى نشاطات المؤسسة، إلى خطورتها، لم يدر سليم النية، طيب السريرة، أن هذا النفوذ اندثر، فالوضع كله أعوج، وما كان ثانويا صار رئيسيا، وما كان محرما صار القياس، لم يخف أمره، وحتى يجتث أى أمل واه عنده قال:

«استقل..»

بوغت عندما أتاه الجواب، قال العقيد مهندس متقاعد:

- «استقلت فعلا..»

قام واقفا، كأنه على وشك تأدية تحية ما، أثنى وأشاد، هذا دليل على أن اللصوص الجدد لن يمكنهم قهر الشرفاء، المهم هو الثبات، عدم الخضوع لأى ابتزاز، لأى محاولات ترغيب أو ترهيب.

فى لقاء تال، قال العقيد مهندس المتقاعد إنه فى دهشة.

لماذا؟

لانه ظنهم أقوياء، عندهم قدرة وشدة تنفذ، لكن ما يجرى منهم بعد استقالته يحيره، إنهم يبذلون المحاولة تلو المحاولة، اتصلوا به مباشرة، غير انه حاد وراوغ، عندئذ سعوا إلى الأقارب، خاصة خال امرأته، جاء بنفسه إلى البيت مع أنه نادرا ما يزورهم لشدة انشغاله وتعاظم مسئولياته، حدث الخال عن ثقة مقتبل «باشا» به والآفاق التى سيطرقها، طلب منه أن يوسع من أفقه، أن ينسى ما ترسب عنده من هنا أو هناك، الزمن انقلب، كل يسعى إلى مصلحته، إلى تحسين أحواله، فى زيارته الثانية قال الخال إنه لن يمكث طويلا، إنما يطلب منه التفكير فى البنتين، الرحلة الطويلة التى تنتظرهما، متطلباتهما أثناء الدراسة وعند الزواج، ألن يجيء يوم يشرع فى تجهيز كل منهما، ليس هذا ببعيد، حتى بعد زواجهما سيكون عليه مساعدتهما، هل يرغب السفر إلى بلد نفطى، حيث يصبح هو فى ناحية وهم فى ناحية، يرجع فى الأجازات كالغريب، وياعالم ماذا سيجرى لهم فى غيبته، دخله من هذه الشركة يعادل ما يمكن أن يحصل عليه من عمله متغربا، لماذا لا يفكر بمنطق الواقع؟

قال إن خال امرأته أوجز ونصح، غير أنه عند الانصراف لمح بوعد خفى، لم يغب عنه، أدركه، بدا وكأنه يحذره من مقتبل ورجاله وما يمكنهم إلحاقه به، لم يخف أنه ينذر ولا يشفق.

قال العقيد مهندس المتقاعد، معلقا بعد أن فرغ من نبأ ما جرى له، برغم هذا كله شعر أنه قوى، أما إلحاهم عليه فعن

ضعف، قال له إنه محق، فعلا.. انهم يخشونه، نعم.. لهم نفوذ، إلا أنهم يرتعدون خوفا إذا ما حاد أحدهم أو شذ.

قاطعه، لكنه لم يكن منهم.

رفع يده، قال بهدوء: أيا كان الأمر، فقد دخلت الدائرة ولو بقدر، وعند خروجك أصبحت خطرا عليهم، يجهلون نواياك، لا يعرفون على أى أمور وقفت، لذا يسعون اليك.

رجاه أن يتصل به، أن يجيء إليه، أن يطرق بابه فى أى وقت، شد الرجل على يديه. لسبب خفى قلق عليه، ربما لاضطرابه البادى، لتهدل كتفيه، ربما لأنه يود، يتمنى منه الثبات.

بعد أربعة أيام اتصل به، قال إنه لا يدرى كيف عرفوا الطريق إلى أمه، فوجئ بها تطالبه باتباع العقل، بالتفكير فى ابنتيه، فى المستقبل الصعب، فى الظروف، ما كان يكفى الأمس لا يصلح لليوم، ولن يوازى قشرة بصلة غدا، هل يظن نفسه وصيا، أو مصلحا للكون؟.

قال إنه يظن تدخل امرأته، لم تكلمه مباشرة، إنما دفعت أمه.. أصغى إلى صوته عبر الهاتف، ترسخ قلقه، أدرك الاهتزازة الخفية فى صوته، فى نبراته مراجعة دائمة، لم يتخذ بعد قراره النهائى مع أنه فى خضم اللجة، كان العميد الشهيد الرفاعى يقول لرجاله، عند الخطر يجب اتخاذ قرار، من المهم أن يكون صوابا، سليما، ولكن الأهم ضرورة الحسم، قرار يتبعه الكل، أما التردد فهلاك مبين.

الرجل لم يقر أمره بعد، صحيح أنه جاهر، وأعلن واستقال، لكن الضغوط التى لا تبين، أشد وطأة من الجلية، الواضحة، لا يدرى ما يمكن أن يفعله من أجله، فقط.. المؤازرة، ولكن.. هل تجدى فى هذا العصر؟ إنه منقطع عنه منذ فترة.. ويخشى السؤال عنه فيأتيه مالا يحب سماعه، بعد انصراف الحاج بقى فى الحديقة، مشمولا بالوحدة، حاول رده برقة، إلا أن الرجل لم يخف ضيقه..

«على أى حال فكر ورد على، لكن.. ليس بعد أسبوع..»

هنا أوضح حاسما:

- «يا حاج،. لا أسبوع ولا أسبوعين.. أنت لن تنفعنى، وأنا لن أنفعك..»

لا يدرى كم بقى ساكنا بطالا، يخطو زمنه بطيئا، أرسى هذا عنده ثقلا وكدرا، يمضى إلى الطرقات، ما أبغض المشى بلا هدف، ما أصعب تمام القدرة، امتلاك جل الوقت، مع افتقاد ما يجب عمله، قال لنفسه إنه بعد هذا العمر كله اكتشف جهله بالمدينة، علل مشيه برغبة التعرف إليها، حاول الابتعاد عن منطقة الوسط المطروقة، شارع طلعت حرب، ٢٦ يوليو، قصر النيل، تبدو المنطقة بؤرة تدفق لانهائى، يمضى شرقا حيث بقايا حديقة الأزبكية، والأشجار العتيقة المتبقية، جزر الخضرة النحيلة، عند ميدان العتبة ينتابه يقين أنه ينتقل إلى زمن متبق من قديم غرب وافل، يتمهل مرغما، زحام، تيه يغمر الملامح،

باعة قادمون من الجنوب يواجهون المدينة بافتعال الشطارة، تتوالى الطرقات الخلفية، الضيقة، ما من ملامح معمارية، العتاقة فقط سمة مشتركة، محسوسة، غير منظورة، سوق بأكمله تخصص فى بيع ماكينات الخياطة القديمة، أجزائها، ولوازمها، بالقرب سوق للاغلاق: أقفال المكاتب، البيوت، الأبواب الفخمة، البوابات الصغيرة، تأمل طويلا متجرا يعرض خزائن حديدية ضخمة، قديمة الطراز، حاول أن يتخيل ما احتوته، ما ستضمه، حيره مقهى يعلق إعلانات مضى عليها عشرات السنين، أنواع مختلفة من السجائر، وزجاجات الوسكى، يبدو شارع كلوت بك رماديا، هرما، مختلط الملامح والواجهات، يعبره القادمون إلى المدينة حديثا، الفنادق البالية، والأرصفة المتآكلة والورش الصغيرة، منطقة وهم وانتظار، وربما ضياع وفقد، يدفع بنفسه عبر الطرقات المتعرجة، يحاول أن يرى ، راغبا فى التواصل، متأهبا لرصد التفصيل.

عندما خرج من شارع باب البحر، رسا فى ميدان باب الشعرية، آوى إلى مقهى فسيح، أنس به، رشف شايا ثقيلا، إلا أنه لم يواصل تدخين النرجيلة، لم يعتدها، جاءه الرجل المتقدم فى العمر، سأله عما إذا كان فى حاجة إلى تمباك أهدأ، كله موجود، هز رأسه شاكرا، أبدى الرجل عناية وأظهر له ودا، ربما لأنه غريب عن المقهى، وعندما أخرج حافظته الجلدية قال الرجل، خلى يابك.

قام ساعيا إلى ميدان الظاهر، إلى المسجد القديم المهمل، إلى ميدان السكاكينى، تفحص زخارف القصر العتيق، الرمادى، المثقل بالغبار، واصل إلى ميدان الجيش، فى اليوم التالى انثنى إلى شارع الحسينية، مال إلى ضجيجه الحميمى، لم يستطع رؤيته إلا عابرا، فما من معارف له هنا، إذا آوى إلى مقهى من هذه المقاهى الصغيرة فستقلقه النظرات، انطواؤها على الريبة، على الشكوك، هذا واقع قائم حوله، فى متناوله، لكنه بعيد عنه بالحضور والتكوين، فى أيام متتابعة قصد امتداد الطريق، عبر سور القاهرة القديم، ارتقى درجاته الحجرية، قرأ ما كتبه جند الفرنساوية، ورأى ما تبقى من كتابة هيروغليفية على الأحجار المنتزعة من مقارها الأولى، المعابد، اهرامات، قصور مندثرة، لاشىء يبقى، وما من أمر ثبت على حال، حتى الجماد الذى استعان به القدماء لقهر العدم.

فى تجواله رأى قصورا عتيقة وقد أصبحت مدارس، أو إدارات حكومية، هل ظن أصحابها يوما أنها ستؤول إلى ما آلت إليه، ما من بناء بقى على حاله، حتى الأهرام، لها قدر معلوم، ويوم آت ، فلماذا تتقطع روحه حسرات على زمن عاشه وانقضى؟ ربما لأن المتاح أمام القدر البشرى زمن واحد، والوقت عزيز، تسديده صعب.

عندما جاز مدخل جامع الأقمر أخذ بتواريه، وانكماشه، مدى ما ينطق به رخامه من حزن، وعندما توسط قبة قلاوون

تضاءل أمام رهبة المكان وسموقه، وما يحتويه من جهد إنسانى لمغالبة الأبدية، كيف تأخر عن رؤيته هذه الأعوام كلها، لام نفسه، لماذا لم يصحب ابنه وبناته لزيارة هذا النصب، والله هذا تقصير.

تمتزج مشاعر شتى داخله كما تتداخل الأضواء الملونة التى تنفذ بقدر عبر الزجاج الملون المعشق بالجص، ولده هناك، سافر، اغترب، لم ير هذا كله، أى تقصير؟ لو أنه بصحبته، لأفضى إليه بخواطره، بما يجول عنده، على مهل خطا تجاه المحراب.

فوجئ..

ثمة آخرون فى العتمة، أجنبى وأجنبية، كانا متضامين، متعانقين، تلفهما رغبة مغلية، كأن ماء باردا غمره، أو قبضة صدمته، لم يدر كيف يتصرف، إلا أنه أسرع، لفظ نعوتا قاسية، هنا، أليس للمكان حرمته؟، كان الحارس عجوزا، لوجهه تيه، وغياب.. صاح فيه..

ـ «ما يجرى بالداخل عيب..».

رفع الرجل عينين قديمتين، كأنه لا يراه، صاح مرة أخرى..

ـ هل رأيت ما يجرى فى داخل القبة؟

قام الرجل متمهلا حتى واجهه تماما فوجئ به يقول..

- «وهل رأيت ما يجرى خارج القبة؟».

عاد إلى صمته، قال أحد المارة وكان يتابع مع آخرين توقفوا:

- «سبحان الله، منذ أن جرى له ما جرى ولا يعنيه شىء...».

قال آخر:

- «تصور.. عمره كله لا يطيق ملامسة أحد لجدران القبة».

قال ثالث:

- «ماذا جرى لك ياعم عاشور.. سبحان مغير الأحوال..».

أوغل فى الطريق مبتعدا، غاضبا، بعد الخطو استعاد هدوء المكان الرخيم والعناق فانبعثت داخله استثارة حتى أنه خجل لما مر به، ماذا أيتمنى مثل ذلك؟ عيب!!

دفع بنفسه عبر حوارى الجمالية، أصر ألا يستفسر عن مخارج الأزقة، والحوارى المؤدية، وصل إلى الدراسة، عبر إلى طريق صلاح سالم السريع، معسكرات الأمن المركزى، ثكنات الجيش، جاءها يوما ، يذكر فراغات ما بين المبانى، ساحات الوقوف، المكاتب فى الغرف الخشبية، الحرص على المظهر النظيف، يهدأ عنفوان المدينة ويخف اضطرامها هنا، يهن صخبها حتى يتلاشى عند المقابر.

أليست مقابر الشهداء قريبة؟

إلى الأمام مباشرة، ثم الانثناء، يمينا، عندما جاءها من قبل كان راكبا، لم يدقق ملامح الطريق، كان راحلا بفكره إلى أحد ضباطه، شيعه حتى الرقاد الأخير، صحب الجثمان من لسان بورتوفيق إلى المستشفى، إلى المثوى النهائى، نزل إحدى هذه الحفر.. وسده بيديه، خلع حذاءه، سجاه، رغم تعايشه مع الموت فإن تأثرا طاله، وغما، قرأ فاتحة الكتاب، وسورة يس، مكث غير بعيد عن الشواهد الرخامية، يحمل كل منها اسما ورتبة وتاريخين، الأول للبداية، والثانى للنهاية.

أوصى الخفير بشراء قلل فخارية، سبع، لصفها فى الطريق، وإضافة عطر الزهر إلى الماء، رجاه مداومة العناية، والاتصال به كلما تطلب الأمر نفقة، أى قرش سينفقه، سيلقى مقابله قرشين.

عندما خطا خارجا لقى رائحة بعثت عنده حضور الصحراء الممتدة، الموحشة ، كأن ما يحيطه رمال بلا حد، مع أن الأرض من حجارة والعتبات رخامية، بدا المكان خاليا، يفيض بالصمت الأبدى، تذكر قولا بعيدا لم يدر من قائله، لا يذكر متى سمعه، أو قرأه: «جيران لكن لا يتزاورون».

سعى إلى القلعة، الجدران شيدت لتحجب، لتمنع، مصمتة، مشرفة، مهيمنة، كأنه خرج من زمنه المعهود، من وقته، أدرك أنه

مفتقد لمعارفه، ناء عمن أحب، عندما صحب ابنه فى صغره عامله كصاحب، يردد قول والده إذا كبر ابنك خاويه، وها هو فى الكبر ذاته، غير أن ولده بعيد، بعيد. عندما اجتاز بوابة المتحف الحربى لم ينتبه إليه جنديا الحراسة، انتبه إلى أنه رفع يده بحكم العادة القديمة التى لم تعد من حقه، عندما كان يرد التحية العسكرية.

أبرز بطاقة المحارب المتقاعد فقام الباشجاويش محييا، ليست تحية مشدودة، محددة، إنما تأدباً منه ومراعاة، ابتسم له، قال إن العميد زهدى انتقل منْ المتحف ولا يعرف إلى أين؟

أدركته خمدة، لأنه لن يلتقى بصاحب خدم معه، ولأن معلوماته بدأت تبلى، أصبح خارج البنية، بعيدا عن النظام!

اعتاد إذا لقى نفسه قريبا أن يعرج على المقابر، يستوثق سلامة الأوانى الفخارية، وامتلاءها بالماء المعطر، يتودد إلى الحارس مقدد الوجه، تسأله امرأته بعد عودته..

- أين كنت؟

كيف أمضيت الوقت؟

يقول إنه كان بصحبة بعض رجال الأعمال، إنه يدرس مشروعا تجاريا، ربما شارك فيه!

تصمت، دائما يحدثها عن مشاريع يدرسها، لا يفصح عن كنهها، يبتسم داخله، ربما تظن أن مسا أدركه، أنه مال فى

هذه السن إلى امرأة أخرى، ألا يحدث ذلك ممن تقدم بهم العمر، أو تضحضحت بهم الصحة، فما البال وعنفوانه مازال مكتملا.

عندما سأله زوج ابنته عما يشغله، قال، إنه يدرس مشروعا كبيرا عرضه عليه صاحب له، استفسر زوج الابنة، قال إنه يمت إلى السياحة، ثم عرج بالحديث مستفسرا عن بعض الضباط الكبار الذين يعمل معهم زوج ابنته.

كم دام تجواله فى المدينة لا يمكنه التحديد، غير أن الشوارع بعد حين باتت مستعصية عليه، فما طرقه مرة ومرتين لا يجد دافعا أو حماسا للسعى إليه مرة أخرى، باستثناء أماكن محدودة يهفو إليها، ويشرع فى المضى، فتعوقه صعوبة الانتقال من زحام وزهق.

إن خللا يسعى إلى كونه؟

يأرق ليلا، يقضى أوقاتا فى الفراش متقد الذهن، راحلا ما بين أيام الحرب وحيث يعيش ابنه، يصحو مبكرا مهما طال سهره، إلا أن تغيرا سرى، لم يعد ينصرف، فى موعده القديم، لم يكن بعد تقاعده يطيق البقاء فى البيت، عند اقتراب الساعة التى كان يخرج فيها، يمضى إلى الجراج، يبدو قلقا، متعجلا إخراج السيارة، ينطلق بنفس السرعة، لكن. إلى لاشىء، عند خروجه من منطقة البيت يدركه فراغ، إلى أى جهة، ماذا يفعل؟ جاب الطرقات الرئيسية، أوغل فى الجانبية، شهد المتاحف التى كان ينبغى له زيارتها منذ زمن، آوى إلى مقاه لايعرف فيها أحدا، ولا ينتظر مجىء أحد.

وماذا بعد؟

إن ثقلا بدأ يحط داخله، رصد اقترابه عندما بدأ يتأخر قليلا عن الخروج فى موعده الصباحى، مع توالى الأيام تمدد الوقت، حتى جاء نهار شرع فى الذهاب إلى الحسين، أحب متابعة حركة الميدان، عاودته الرغبة فى الذهاب، إلا أنه تكاسل، تقاعس، أمضى اليوم فى البيت، حاول الابتعاد عن حركة امرأته، التوارى بعيدا حتى لا يعطلها أو يضايقها، ذات صبح عرض عليها المساعدة، غير أنها ضحكت.. لم تعتد هذا منه، إذ يمضى لإعداد كوب شاى تلحق به، تطلب منه أن يستريح، لم يكن له موضع فى حركة البيت اليومية، انسحب إلى الشرفة الداخلية، فسيحة، فراغاتها محاطة بزجاج ملون، يمكنه رؤية ما بخارجها ويستعصى على الناظر إليه مشاهدته، يشب متابعا حركة الطريق، ما يستجد فى الشرفات، من ظهور امرأة تنشر الغسيل، أو شاب يرتدى قميصا، يتلفت متطلعا إلى لاشىء، أو رجل يظهر فجأة، ينظر بجدية ثم ينثنى داخلا، يصغى إلى المذياع الصغير القوى، هدية ابنته إليه، يدير المؤشر، لا يستقر عند محطة بعينها، إلا إذا أصغى إلى نشرة أخبار باللغة العربية، أو الانجليزية ، يتوالى الصفير الغامض، الإشارات المتقطعة، والموسيقى الشاحبة لبعد المسافات، تعاوده اللحظات المنقضية، طوابير التدريب، الليالى الباردة، الترقب، الفرح بالأجازات، قلق البعاد، يسنعيد مقدمات هجوم تم أو اقتحاما شارك فيه، أو تربصا جويا، يسأل نفسه، هنا يعلو صوته، ينتقل من داخله إلى خارجه.

- «أحقا جرى ذلك؟؟».

يعجب مع أنه يلوم نفسه، لماذا؟ لماذا الدهشة؟ لماذا الروع؟ الم ير تبدل النصب، البناء المشيد على بقايا البناء القديم، تبدل الامر دوما، ما يظنه اللب الإنسانى خالدا مخلدا سيبهت يوما ثم يتلاشى، مانظنه مقيما سيرحل يوما، وما نعتقد فى بقائه سيفنى، حتى البطولات، والأمجاد والرسائل المنزلية، لو قرأ ذلك منذ أعوام لما اقتنع ولما صدق، لو أنه أصغى إليها من حميم لولى مبتعدا وشكك.

ما أوعر أن يعيش ذلك!

لكم تبدلت المعانى، واختلف مضمون القضايا، وتبادلت الجهات مواقعها، غير أنه لم يهن بعد، صحيح أن وحدة قاسية تطويه، قذف به فى زمن مفترض، مباغت، يمت إلى آخرين ولا يدركه، فما أوعر الغربة! تبدو الصحف وكأنها تصدر فى بلد هاجر إليه، بعض ما يقرأه كان يثير عجبه واستنكاره بداية، لكن تكرارها أورثه تعبا وضنى، أحيانا تستفزه سطور ما فيشرع فى صياغة رد، أو توضيح ، أو تعليق، غير أنه لايقدم، لا يكمل، ماذا بقى؟ حتى ما بدا يوما فى منزلة الرفعة والتقديس لم يعد بمنأى عن المس، العقيد المتقاعد لم يتصل به ولا يسعى إليه، فى آخر اتصال بدا مرتبكا، محرجا، قال إنه يتعرض لضغوط شتى، ثم غاب عنه، لم يود إحراجه.

أصعب الأوقات فى البيت، صمت ما بعد الغداء، اقتراب العصر ثم حلوله المتئد الأصفر، فيه توغل امرأته إلى أبعد نقطة

داخل ذاتها، تبدو مستسلمة لثقل غامض غير مرئى، إرهاق الزمن المنقضى.. ربما، ينوء بساعات العصر، حتى إذا دنا الأصيل تشتد وطأة الظلال داخل البيت، اقتراب المغيب يستنفره، يستنفر المحارب الذى كان، فى أيام القتال يسمون هذه اللحظات، آخر ضوء ، يكتمل التأهب فى كافة المواقع، يتم دفع الكمائن إلى المواضع المحددة، المحتمل تقرب العدو منها، يشتد الرصد، يقوى التأهب..

يرتدى ملابسه، فى بدء الفترة اقترح على امرأته المضى إلى النادى، آثرت البقاء، قالت إنها سترى تمثيلية السابعة فى التليفزيون، قالت:

- اخرج لتفرج عن نفسك.

يعرف أنها ستتصل بالبنات، ستطمئن على حفيدها، هل تناول الرضعة؟ هل كانت شهيته جيدة اليوم؟ يخرج إلى الطريق وعليه كمدة، لو أدركه المرض يوما سيرغم على الرقاد والاستسلام للحظات آخر ضوء، يتمنى ألا يقابلها، ألا تلحق به مضطجعا أبدا، ألا تجيء النهاية متمهلة، معذبة، يتمنى أن يقضى فجأة، بغتة، از يخطف خطفا، ألا يقعده العجز أبدا.

إذ يرى حمرة الشفق يهفو إلى ولده، فى أى أرض يسعى الآن؟ على أى المرئيات تقر عيناه؟

فى تلك الأيام عرف الطريق إلى المقهى، بعد أفول آخر ضوء يستقر مشرفا على الميدان، مقهى أفرنجى يخلو من

النرجيلات، يحيطه سور منخفض، صفت عليه أصص ورود، فى الصالة الداخلية المغطاة مطعم، زبائنه من أبناء المنطقة، يوما بعد يوم لاحظ أن الوجوه لا تتغير، بل إن البعض يجىء فى توقيت يوم [illegible] أحدهم عجوز يجا [illegible] ن الليالى [illegible] زارات، يعيش بمعر [illegible] قدر الله، سيجىء مثله، مضموما، ضامر الحضور، يتناول العشاء هنا مثله، لا يقرب الأطباق بعد أن توضع أمامه، يبدو وكأنه غير منتبه، ثم يمد يده بينما يولى النظر بعيدا، يزحزح الطبق الرئيسى قليلا، يرفع الملعقة متمهلا، فى اتجاه مصدر الضوء، يمسحها بمنديل ورقى، على مهل يبدأ المضغ، إن شفتيه تمتدان إلى الامام، متلاصقتان، تتحركان بسرعة، وعند البلع يتراجع بعنقه إلى الخلف، كأنه شيئا يؤلم حلقه، يتوقف، يعود مرة أخرى، بين لحظة وأخرى يرفع الفوطة البيضاء ماسحا شفتيه، من حركتهما أدرك أنه ذو طاقم أسنان صناعى، يجىء مرتين، الأولى للغداء والثانية للعشاء، لم يفكر من قبل فى ملاحظة الآكلين الشاربين على مقربة منه.

فى الجبهة بذل جهدا قصيا حتى يلم بمواعيد تناول الوجبات فى مواقع العدو، أولى ذلك اهتماما، بل رصد وراقب الوقت الذى يستغرقه التناول، لكم استطلع، وجمع الدقائق العسرة، لكم رصد وحلل، واستنتج، ومزق ما جمع، لكم

أصـغى إلى حـوارات مـتـبـادلة بين ضـبـاط المواقـع، لكم أجـهـد نفـسـه، لكنه لم يرقب عـامـدا من هم على مـقـربة، لم يخـدش حـيـاتهم بفـضـوله، منذ سنوات قـبض على عـمـيل خطيـر كـان يسكن مباشرة فوق شقة واحد من زملائه، ضابط ممن خدموا طويلا فى المخابرات..

قال له أحدهم مداعبا:

- كيف لم ينتبه كيف لم يلحظ ؟

أجـابه قـائلا إنه لم ينس مـا تعلمـه فى بداية الخـدمـة، ألا يرصد جارا أو صاحبا، ينثنى ليلوم نفسه.

لماذا يتابع رجلا عجوزا يأكل طعامه وحيدا، أليس فى الأمر قسـوة؟ لكنه لا يريد به شـرا، إن أمـرا خفـيا لا يمكنه تعيينه أو تحـديده يواصل الدنو منه، يوشك أن يطبق عليـه، ومـا تعلقـه بالآخـرين إلا مـحـاولة للنفـاذ، لتوسيع الرقعة المتاحة، حتى وأن اقـتصـرت الصلة على النظر من ناحـيـة مع انتـفـاء المجـاوبة أو توقعها.

مع بداية إحـدى الأمـسـيـات جـاء شـاب، طويل، عـريض الكتـفين، ينحنى إلى الأمام، عندما جىء إليه بطبق الخضـار، وطبق الأرز، اتسـعت حـدقـتـاه، يصب المرق فـوق الأرز، يرفـع المعلقة إلى فمه، يمضغ بسرعة بينما تتحرك رأسـه، بين الحين والحين يدفع بلسانه إلى ركن فمه فيبدو بروز مقبب، يتحفز..

حاد ببصره عنه، يبدو منفرا، يعاود النظر خلسة، يرفع شفتيه العليا، تلامس انفه، يضيق، يود لو قام، لو ضربه، لو وجه لكمة إليه، وعندما رآه يرفع الطبق ليصب آخر قطرة مرق فوق حبات الأرز، أشفق فجأة عليه، يبدو جائعا، إنه عابر، تُرى.. إلى أين يقصد؟ ما وجهته؟ لام نفسه بسبب تلك الكراهية غير المبررة، لماذا وهو لايعرف حتى اسمه؟

لسبب ما استعاد ملامح ابنه صغيرا، كان لا يأكل إلا واقفا بينما تضج أمه، تشكو شحوب شهيته، تخشى الضمور، ألا يشب، ألا ينمو، تطالب الطبيب بدواء، الآن.. كبر الولد وراح يسعى في العالم بعيدا، غريبا، يراه طفلا يحبو، أو صبيا يلهو، صور بعيدة ظن اندثارها، تلوح وتبرز من بين ثنايا الذاكرة المثقلة، يعجب.. يستعيد لحظة نائية جدا، صحب ابنه إلى الإسكندرية، كان الولد في الخامسة أو السادسة.. ربما، لا يذكر على وجه الدقة، بل إن سبب ذهابهما إلى الإسكندرية غاب عنه تماما، اندثر، غير أنه يرى مشيهما فوق الرصيف المؤدى إلى أحد الشوارع الجانبية، كان يمسك بيد ابنه، يسبقه قليلا، لم ينتبه إلى العمود المعدنى الذى ينتهى بمصباح الإضاءة، يبدو أن الولد كان ينظر خلفه، كانت الصدمة شديدة حتى أنه صرخ جزعا، انحنى عليه، بدا الألم عميقا، غائرا، خلال اللحظات الأولى، أوشك البكاء أن ينفجر، لكنه فوجئ بولده يكظم الم، لم يشأ إزعاجه، لم يرغب فى تكديره، لم يرم تعكير صفوه، أو التنكيد عليه فى الرحلة التى بدا خلالها

سعيدا جدا لقربه هذه المدة من والده، لانفراده به، كان ذلك قبل أن تأخـذه الدنيا، الـغـريب أنه على امـتـداد سنوات تاليـة، فى مصر، فى اليمن، فى بعض المهام التى خرج لتنفيذها، استعاد اللحظة، وفى كل مرة كان يبذل الجهد لينجو منها، ليواريها أعماق ذاكرته، كان تردد الألم داخله، استرجاعه، أقسى من وقوعه لحظتها على ابنه، ماظن اندثاره يلوح ناصعا، كلما بعد العهد نصعت التفاصيل.

أنس بخلوته، بوحدته فى هذا المقهى، ولأنه يتردد فى أوقات معلومة لذا صارت ملامحه معروفة لرواده، يحيونه، يومئون، يرد التحية بأحسن منها، إلا أنه يتحاشى دنو أحدهم من حواف عالمه، كأنه يكتشف الاستغراق والخلوة إلى الذات، لم يهدأ، لم يستكن طوال عمره، ولت مراحل محورها القتال، دراسته، الإعداد له، نقل الخبرات القديمة، التأهب له، خوضه، دفع الكيان الإنسانى إلى حافة الوجود وبدايات العدم، الجرأة، الرجولة، التقارب الإنسانى الحميم، تشظى الصمت، وتبدى الكينونات، فى أيام المقهى الأولى ضايقه تمهل الوقت، لم يشغله إلا متابعة حركة الطريق، ومتابعة رواد المقهى خفية، غير أن ضيقه خف بعد اعتياده تدخين النرجيلة، حضورها الصامت يؤنسه، ينفث الدخان متمهلا، أحيانا يتأمل المياه داخل الوعاء الزجاجى وفقفقاته عند سحبه الأنفاس، وتوهج الجمرات فوق التمباك، ربما ثمة حضور لا يدرك بالحس الإنسانى لهذه الأشياء، من يدرى... ربما تحتوى وعيا غامضا

يمكنها التخاطب فيما بينها، أن تسمع وترى، بدأت أوقاته تطول في المقهى، اذ يلتقي في الطريق بأحد معارفه، يسأله عن أحواله، يقول إنه مشغول بدراسة مشروع استثماري، وعندما تستفسر امرأته عما يشغله، يقول إنه يدرس مشروعا جديدا، تصدير واستيراد !

أحيانا يشرع عند الصباح الباكر في كتابة خطاب طويل إلى ولده المغترب يخبره عن أشياء شتى، يذكره بأمور ولت، وفي النهاية يؤكد لولده أنه يعفيه من الرد، يعرف أنه مشغول، لا يريد تعطيله، إنما هو شعور قوي لمخاطبته، ومع ذلك فإذا سمح وقته فليرسل إليه بطاقة مصورة، مجرد أثر منه وطيف من رائحته.

أحيانا كان يلتقي مثل هذه البطاقة، بدون مظروف، سطورها مباحة، لا خصوصية لها، إنه دائم التنقل والترحال، وإذا أرسل خطابا يبدأه بقوله، آسف لأنني أكتب بسرعة فبعد قليل سأسافر إلى.. أثناء توحده بوقته يردد، ما أسرع انقضاء المدة!.

يأسى، يترقرق حتى ليدنو من ضفاف البكاء، في البداية كان يخشى أن يلحظه أحد، بعد فترة لم يعد يعبأ، إذ يستعيد حوارا ضامرا موجزا، جرى بينه وبين أحد المقاتلين في لحظة حرجة، ربما يتوقف عند عبارة قيلت عرضا، ولم تلفت انتباهه وقت نطقها، يرددها بصوت مسموع، يقشعر إذ يستعيد لحظة نائية، كان يكتب، اقتربت منه ابنته، إنها أم الآن، وقتئذ كانت

فى السـابعـة، اقـتـربت منه أثناء كـتابته خطاب، لا يذكـر لمن؟، عندمـا التفت أوشك سن القلم أن يلامس عينـهـا اليسـرى، بعد هذه السنوات الطوال يـجـزع، يغـمـض عـينيـه هربا من المخـيلة والاحـتـمالات القـديمة، مـاذا لو.. تمـاما كـمـا يجرى داخله عند اسـتـعـادته لحظة اصطدام الولد بالعـمـود، لم يبل ألمه، لم يخف روعـه، مع أن عمرا بأكمله ذهب، لكنه دائما يحاول الهروب من وعورة المخيلة، لكم رق لهذا الضـابط الذى لقيه مـصـادفـة أثناء مـشـيـه بعـد الغـروب مـتـجـهـا إلى المقـهى، صـافـحـه، وعندمـا استفسـر عن أخبـاره بكى، فقد ابنه الوحيد، لـم ينجب غيره، انزلقت قدمـه، اصطدمت بحافة الحمام، لم ينطق، أخبره الرجل عن ذكـاء ولده، وتفـوقــه فى المدرسـة، وهـذا النور السـاطع المفـاجىء الذى بدد عـتمـة القـبـر عند نزولهم لتمـديد جـثـمـان الصـغـير، القبر كله أشرقت فيه شمس خفية، صـاح الحانوتى، الله أكبـرا، لا يحدث هذا إلا مـع من اختـارهم الخالق عز وجل أحباء له، فليهدأ، فليطمئن باله، لكن الفراق مر، كيف ينسى.. كيف؟

لم يدر أى كلمـات ينطق ليـهـون، ليـهـدىء !، يردد بينه وبين نفسه، لو جرى لى ما جرى له لجننت.

زاره الأب المكلوم مـرتين، إذ يخـبـر عن ولده ومـا كـان منه يتـدفق مـحـدثا، ثم يصـمت فـجـأة، عندئذ يؤثر الا يزعـجـه، الا يخض سكينته، انقطع أكثر من شـهرين، ثم جاءه ذات عشـية،

بدا مقلا فى حديثه، نحيلا، حزنه مقيم، ظن أن الزمن عمل عمله، إلا يلد كل شىء صغيرا ثم يكبر؟ عدا الحزن، فإنه يولد كبيرا ثم يتضاءل، إلا أن حال صاحبه مغاير، ألمه مستقر ما بين الجلد والعصب، ما بين العظم والحسىء دامى العينين، قام بعد صمت، راح، طالت غيبته، انقطع عنه، أدار قرص الهاتف مرات، ولم يأته إلا الرنين الأصم..

أن حزنا ثقيلا يهمى عليه، الأسباب مغايرة لكنها جمة، إن وهنا يتسلل إلى خباياه، إنه يعى ما يجرى، يحاول صده، دفعه، يعرف أن أشد المخاطر وأوعرها ما يبدأ من الداخل، يحذر أن يجرى له مالقيه هذا الضابط الذى مشى فى جنازته منذ يومين، رحمه الله، كان من أكفأ ضباط المدفعية، فوجئ، بوغت بخروجه من الخدمة، خلا الرجل نفسه، كتم، لم يحتمل، فكان مابين تقاعده ورحيله الأبدى عشرة أيام لا غير، فكأن مهمته لم تنته فى الجيش فقط، ولكن فى الحياة الدنيا، يخشى الانقطاع، مع بدء تقاعده قال إن حياة جديدة تبدأ، استنفر ما عنده، حاول الاندفاع بنفس الطاقة، إلا أنه كان كقطار شح مؤنه، ويحاول قائده دفعه إلى مرحلة غير مقدرة، غير أن السرعة تقل شيئا فشيئا لنفاد الزاد، وفساد التكوين.

قابل عديدين ممن زاملوه، وخدموا معه هنا أو هناك، من سبقوه إلى التقاعد، أو ممن لحقوا به، منهم من بدأ عملا مغايرا ونجح بمقاييس الفترة، ومنهم من يحاول التعلق بعمل

ما، فالأحوال ردية، ومنهم من ترك تراثه وهاجر إلى بلد آخر، وحضور مغاير، أما هو.. فمن قلة لم تتكيف، ليس عن عجز، فالقدرة عنده، وتوقد الذهن موفور، وحدة البصيرة مكتملة، غير انه يصعب عليه الشطط عما هو عليه، أن يبدد تراثه، أيمضى ليعمل عند مقتبل هذا أو غيره؟، إنه ابن اللجة التى خبرها، وعرف أنواءها، ومقصد رياحها، وجاهد فيها طويلا، حتى لو أخرج منها، وأقصى عنها، لكم رثى لصاحبه الذى جاءه موزعا ممزقا، بين ما يجب أن يكونه، وبين ماهو عليه فعلا، أحيانا يشعر براحة، يعتبر أن زواجه فضلا ومنة، أنجب مبكرا، كبر الأبناء، مضى كل إلى حياته، تحدثه امرأته عن مشاكل تعترض إحدى بناتها، لا يصغى، لا يستقصى، يطلب منها أن تدعها تدبر أمرها، فبعد انقضاء الفترة لن يوجد هو أو هى، غير أن اغتراب ولده نال منه وتمكن، أحيانا يقتحمه خاطر معذب، لن يره مرة أخرى، حتى لو لقيه لو جمعهما الوقت مرة أخرى، فالابن الذى سيراه غير الذى رباه، وعرفة، أى أمور فقد؟ وأى خصال اكتسب؟ ربما بدلته الغربة تبديلا إن ساعات طوالا تمضى عليه فى المقهى، اكتسب عادة، هو الذى عاش دائما فى الأوضاع الاستثنائية بعيدا عن العادات اليومية، كان واقعه يتغير فى ديمومة لا تكف أبدا، إنه يعرف أمورا عديدة عن روادها الدائمين، بعضهم يسعى إليه، لم يعد يتجنبهم، غير أنه يصغى فى معظم الأحيان، كثيرا ما يشرد، فما يستعيده الآن أكثر مما يعيشه.

إنه يقرأ صفحات الوفيات بتدقيق، اعتاد إرسال برقيات العزاء أو يمضى لتشييع هذا الراحل أو ذاك، فى السرادقات يلتقى ببعض ممن زاملوه، أو يرى وزراء قدامى، أوْ عضوا من مجلس قيادة الثورة القديم، أما ذروة انفراده فعند ذهاب امرأته لزيارة إحدى البنات نهارا، كان يجول فى البيت، يعيد ترتيب بعض الأشياء، يتطلع من الشرفة، يرقب حركة الظل فوق واجهات البيوت.

يقترب من باب الشقة، يتطلع عبر العين السحرية الضيقة إلى السلم، يمضى وقت قبل أن يرى شخصا فى طريقة إلى الصعود، أو النزول، أو خارجا من المصعد، كان خلو الممر والباب المواجه الموصد يثير عنده صورا شتى لأراض نائية مبسوطة، بلا حد، لكنها مدثرة بالظلال.

فى تلك الظهيرة رأى من خلال العين الزجاجية طفلة صغيرة، واقفة على الدرج، تشب على أطراف أصابعها، تضغط الجرس، تمضى لحظات، يفتح الباب، يرى ثلاث بنات، يعرف أكبرهن، ربما فى الثالثة عشرة، يصل إليه صوت الطفلة الصغيرة..

ـ ممكن ألعب معكم؟

يخرجن إليها، الكبيرة تطلب منهن الوقوف فى الممر، شقيقاتها فى جهة، والصغيرة فى مواجهتهن، تقول إنها ستبدأ الدوران، عليهن البدء معها، من تسقط ستخرج من اللعبة،

الطفلة الصغيرة تقفز فرحا، يبدأن، يدرن فى اتجاه واحد، الكبيرة تفرد ذراعيها، أصغرهن تلامس خصرها بأطراف أصابعها، يفاجأ بالطفولة الكامنة فى أكبرهن، يلتقى بها فى المصعد، صامتة خجلى، لكنه يراها الآن أغزر طفولة ممن يصغرنها، يستمر دوارهن، لا يتوقفن، الكبرى تترنح، ولكنها تواصل، الوسطى تسقط.

– اخرجى..

تكرر الكبيرة:

– احذرن الوقوف، من ستقف، ستقع..

تردد الشقيقة الوسطى:

ـ لو وقفت سأقع..

ابنة الجيران أصغرهن عمرا مستمرة، دورانها هادئ تتساءل:

ـ فستانى بيطير؟

لا إجابة، الكبيرة تشير إلى شقيقتها

ـ أنت اتكأت على الحائط.. اخرجى..

تنتقل الى الأمام، إلى الوراء، ترفع يديها، تغطى عينيها، إذ تقترب من السلم يود فتح الباب، أن ينبهها إلى ما ينتظرها من خطورة لو سقطت فوق الدرج، يستعيد الحزن المقيم فى عينى ضابط سلاح الجو، أين راح؟ إلى أين سعى؟ لا يدرى..

أكبرهن تميل مستندة إلى الجدار، تنزل ببطء لتقعد بجوار شقيقتها الوسطى، تغيب عن مدى رؤيته عن الفتحة المستديرة الضيقة فى حجم القرش، لم تبق إلا ابنة الجيران، أصغرهن، لم تتوقف، لم يبد التعب عليها، بل إنها تزيد سرعة دورانها أحيانا ثم تتمهل حتى يخيل إليه أنها ستكف، يود لو صفق لها، غير أنه لا يأتى أى حركة حتى لا يشعرن..

وهذا نبأ
الطــوبــجــى

.. منذ تخرجه فى الكلية الحربية، عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين، لم يفارق سلاح المدفعية، إنه ابن ناس طيبين، لم يكن ابوه ميسورا إلى حد الثراء، ولا معسرا إلى حد الإملاق، كان مستورا، مقتصدا.

ورث عن والده العديد من الصفات، أهمها الرضا بالمقدور، والحرص على البعد عن أولاد الحرام، والاحتفاظ بمسافة بينه وبين الآخرين، لا تدنيه منهم إلى درجة التبسط المخل، ولا تقصيه عن الخلق حتى الوحشة والانقطاع.

إذا ذكره من عرفه، أو استعاد ملامحه من خدم معه، أو جاوره، فلا يعى منه إلا وجها بشوشا، لا تغيب عنه ظلال

ابتسامة أبدا حتى عند الظروف الصعبة، أمضى سنوات عمره في مراكز التدريب، يضع الخطط، ويشرف على تنفيذها، يشهد المناورات العسكرية الموسمية، ينضم أحيانا إلى لجنة المحكمين.

كان مسموع الكلمة، لرأيه احترام وموقع حسن، مضت سنواته على سداد وأمر جميل، وعندما أتم السادسة والعشرين، تكلم والداه معه فى أمر زواجه، حان الوقت ليتم نصف دينه، لاقى مقترحه قبولا عنده، لم تمض أسابيع إلا كان يمضى بصحبة والديه لخطبة ابنة موظف قديم عمل زمنا مفتشا للرى، صاحب الوالد، ذو استقامة وسيرة حسنة.

فى الأسبوع الأول سألته عما إذا كان يجب عليها البقاء فى البيت أو الاستمرار فى الوظيفة، قال لها إن الأمر متروك لها، علقت منه فى الأسبوع الأول، بعد تمام مدة حملها أنجبت طفلة جميلة فرح بها أبوها فرحا جما، وفى الأعوام التالية أنجبت ابنتين أخريين، قالت إنها ودت دائما أن تأتى له بولد، ابتسم ملوحا بيده: يا شيخة.. البنات أحن على الأب.

بعد إنجاب الابنة الثالثة، نصح الطبيب المداوى بالكف ، صحة الأم لن تحتمل، فتدبرا أمرهما، واحتاطا.

حياتهم لم يشبها كدر، لم يعكر صفوها طارئ سوء. انما مضت فى هدوء، يمضى اجازته وأوقات فراغه بصحبة البنات، يقلب كراساتهن، ويسترجع دروسهن، إذا رجع مبكرا يمضى

منتظرا أصغرهن بعد انتهاء يومها الدراسى، لم يقبل بديلا أيام العطلات يبعده عن امرأته وأطفاله، عقب كل صلاة كان يرفع يديه بالدعاء، متمتما بشفتيه، ثم حدث بعد هزيمة يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، أن أقتضى عمله التردد مرات على جبهة ال[illegible] كان له الرأى المسموع فيما يختص بتوزيع بطاريات المدفعية، فى هذه الأيام لاحظ إرهاق امرأته البادى، كان عملها فى المنطقة التعليمية يقتضى منها الاستيقاظ مبكرا حتى تعد البنات لمدارسهن، وتتأكد من تناول الإفطار، ثم تهرول لتلحق بكشف التوقيع قبل رفعه، فى هذه السنة اقترح عليها أن تتقدم بأجازة طويلة بدون مرتب، أن تريح نفسها من هذا الجهد المضاعف، قالت بعد تردد إن صحتها لا تسندها الآن، لكن الأحوال تزداد صعوبة، ،البنات فى حاجة إلى مصاريف، الشوط ما زال أمامهن بعيدا، والعين يجب ألا تتوه عن المستقبل.

قال لها يا ستى مستورة والحمد لله، المهم أنت!

بالفعل سوت أحوالها، تقاعدت، كانت أحيانا تشكو بعض الاوجاع، لكنها تكتم خشية إزعاجه،خاصة أن ما يبذله تضاعف، وبان عليه التعب، كان لا يخبرها بسفره إلى الجبهة إلا لحظة خروجه وأحيانا لا يفصح.

يقول إنه ماض إلى مهمة، سيغيب أياما، لم يكن يرتدى فى تلك الأيام إلا السترة الكاكى، لا يفرغ من مأمورية إلا ليبدأ

أخرى، يمضى إلى أقصى النقاط المتقدمة، يدنو من مياه القناة، يقف فى مراصد الاستطلاع، هادئا، ثابتا، مستغرقا، لطيف الملامح، يحذره بعض الجند، قد تطاله نيران القناصة، إلا أنه يهز رأسه، لا يفارق وجهه التعبير الهادئ، حتى عند بدء القصف، أو الغارات الجوية، لا تتبدل أساريره أبدا.

يردد دائما لصحبة، لزملائه، لامرأته أحيانا، أنه لا يتمنى إلا حضور الحرب الفاصلة، أخشى ما يخشاه أن تقع هذه الحرب بعد خروجه من الخدمة، لسنوات ست لم يكف عن الحركة، عن بذل المجهود.

أمضى أياما صعبة فى الشتاء، وشديدة القيظ صيفا فى مناطق نائية من الصحراء الغربية، والجبال الشرقية، بقاع لم تدون على الخرائط، لم تطأها أقدام بشر من قبل، حتى عتاة الأدلة.

شهد المناورات الكبرى، والمحدودة، والتدريبات، اختبر زوايا الإطلاق، وعاين موضوع انفجارات الدانات، سود أوراقا لا حصر لها، قاس المسافات، أسهم فى تصميم خطط، بعضها رئيسى، والآخر ثانوى، رأسهم فى تهيئة مسرح العمليات لتشكيلات شتى، شارك فى بحوث ومناقشات لاختيار أنواع القصف المناسب لتدمير المواقع المواجهة، لطالما غالب إعياءه، وجاهد حتى لا يلوح تعبه، أو تبدو عليه علامات ضيق بمحدثه، كان خفيض الصوت دائما، ميالا إلى الصمت، شحيح الكلمات،

لكنه إذا تبنى وجهة نظر، أو دافع عن رأيه، فإنه يتدفق، إلا أنه يلزم ذات الوتيرة، كثيرا ما توقف بعد انتهاء اجتماع أو مناقشة، أو مناظرة، وبدا شارد النظرة بعيدها، كان يفكر فى هذه المعركة التى طال الإعداد لها، لا يكف، لكنه يخشى أن تبدأ بعد خروجه.

إلا أن مخاوفه لم تتحقق، فى ظهر السبت، سادس أكتوبر، ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، طابت نفسه، وانتابته مشاعر شتى، كان موقعه قريبا من غرفة العمليات الرئيسية، الا أنه سعى إلى الخروج فى مهمة عبر خلالها قناة السويس، أمضى ليلة فى مقر القيادة الميدانى للفرقة الثانية، وعندما قفل راجعا أخفى عمن يصحبه مدى تأثره، كان يردد دائما أن أقصى ما يتمناه المحارب خوض المعركة قبل غروب العمر، وقد شهد ما سعى من أجله دائما، ما أعد له دوما، ما بذل له الشباب والخدمة.

فى الأيام التالية لوقف إطلاق النار، كان مسئولا بشكل ما عن بعض الجوانب المتعلقة بالقوات المحاصرة فى الشرق، برغم دقة الموقف، وحرج الحالة، لم يفارقه ثباته، حتى وإن أبدى ملاحظة أثناء اجتماع أو مناقشة من الممكن تلمس قلق منها، فإنه يتبعها بابتسامة اعتادها من عمل معهم، الا أن خدمته لم تدم طويلا بعد انتهاء الحرب، وتوقيع الاتفاقيات، كان داخله يقين خفى، غير مستند إلى معلومات دقيقة، أو

استقراءات، أو تحليلات، أن ما كان لن يكون، وأن ما سيكون ليس ما كان، إن رياحا جديدة تهب، وإن تغييرا سيقع، التيار شديد، يحيد بعيدا، بعد سنة من انتهاء الحرب، وعندما حان موعد ترقيته، رقى فعلا الى رتبة لواء، لكن صحب ذلك احالته الى التقاعد، مثل هذا يجيء مفاجئا، مباغتا، وإن كان متوقعا فى نفس الوقت.

بدا هادئا لحظة تلقيه النبأ العظيم، ولكن داخله تصدع، وبقى فؤاده غير مطاوع، رجع إلى البيت، البنات ينتظرنه، لا يتناولن طعامهن إلا إذا جاء، أما إذا طرأ أمر مفاجئ يضطره إلى الغيبة، فإنه يتصل بهن، يخبرهن، بعد الغداء انتقل إلى غرفة الجلوس، هذا ما جرت به العادة، كبرى البنات أصرت على إعداد الشاى، أصغى إليهن، إلى امرأته، مبتسما، ملامحه هادئة، لكن فيما بعد قالت امرأته إنه كان يتطلع إليهن ،كأنه فى الجانب الآخر، تطلع طويلا إلى البنات، ثلاثتهن يقعدن فوق الأريكة، فى مواجهته، متضامات، متقاربات، هل كان يحاول النفاذ عبر الحجب؟ ربما، قرأت امرأته فى أوراقه تساؤلا قلقا، أين ستكون كل منهن بعد عشر، بعد عشرين سنة؟ الأعوام القادمة تبدو كطريق لا تلوح معالمه للسارى، أهذا ما جال بخاطره فى تلك اللحظات؟. ما من إجابة، فلن يحيط أحد بذلك علما.

تابع حوارهن، بهجتهن، حتى هذه اللحظات لم يخبرهن، لم يشأ التكدير عليهن، ربما ظنن سوءا.

قال إنه سينام قليلا، تتقدمه امرأته إلى غرفة النوم، تبدو راضية، خاصة بعد الاوقات التى يلتئم فيها الشمل، إنه يرتب ثيابه، يزيح الملابس المدنية داخل الصوان، يفصل بيده ما بين الملابس العسكرية والمدنية، تطول وقفته، لا يحيد بنظره عن العلامات، يبدأ تساؤل امرأته خافتا كرجع الصدى الذى يزداد وضوحا ..

ـ مالك.. جرت حاجة؟

حاشية ٢

كلما لقيت صاحبى الذى تجاوز الخمسين، قال لى:

ـ لا ألتقى بزملائى القدامى الآن إلا فى الجنازات..

عرفته زمن الحرب، ضابطا بقوات الصاعقة، قادرا، عنده كفاية، وفيض وطنى، علم الكثيرين، خاصة فنون القتال خلف الخطوط، ولسنوات طويلة لم يكف، ولم يهدأ، واشتهرت عنه أمور، فمن ذلك عبوره إلى الشاطئ الشرقى لخليج السويس أول أيام الحرب، وبقاؤه بعد انتهاء مهمته الأصلية، قال لى، إنه اخترع لنفسه مهمة، وقطع طريق الإمدادات القادم من الجنوب باتجاه مواقع الجيش الثالث، حارب سبعة أيام، بالحد الأدنى

من الزاد قبل أن يجرح، ويسحب إلى الغرب.

قابلته في منتصف السبعينيات بعد إحالته إلى التقاعد بشهر واحد، رأيته متحمسا، متفجرا بالتدفق الحي، أخبرني عن مشروعات عديدة ينوي ان يجربها، قال إنه ينوي خوض لجة السوق، لكنني عندما لقيته بعد عام تقريبا، ودعوته إلى مقهاي ناحية باب اللوق، أخبرني أن السوق غير سليم، وأن معظم الشركات الجديدة تعمل في التهريب، تهريب كل شيء، لم يبق أمامه إلا مشروع إنشاء ورشة لإصلاح طلمبات الديزل، وراح يفصل لي ما نوى عمله، ثم غاب عني، ولما مر عامان أو أكثر ولم أسمع عنه خبرا، ولم تبلغني منه إشارة، سعيت أستقصي أثره، فعلمت ممن له به صلة أنه جمع سائر أحواله، وفض ما تبقى، وسافر، وأن آخر خطاب وصل منه إلى أهله، ينبئ فيه أنه أصبح مدربا للغطس في أحد النوادي بجنوب فرنسا، فاتني القول، أنه تدرب فترة في سلاح البحرية على أعمال الضفادع البشرية، فخطر لي عندما سمعت النبأ، أنه ربما كان يدرب الآن بعضا ممن حاربهم يوما، أو من على صلة بهم، فسبحان مغير الأحوال ومدبر الأمور.

فيما تلي ذلك، مررت بظروف ليس هذا مجال تفصيلها، فالأمر ذاتي، دفين، فآثرت الانقطاع والتوحد، خاصة عمن عرفتهم زمن خوض الحرب، غير أن أحدهم شغلني أياما ليست بالقليلة.

ذلك أنني فوجئت في نهاية الثلث الأول من الليل بصوت يأتيني عبر الهاتف، بعيد، قصي، قادم من أغوار الأزمة، أستعيده حتى الآن فأرى فيه من يستنجد بغير صراخ، من يسعى إلى المساعدة بدون عويل، قال إنه يطلبني، لا يريد أكثر من خمس دقائق،إنه يعتذر لتعطيلي، يعرف أن وقتي ثمين.

قلت له إن وقتي متاح، وإنني أقدر على المجيء إليه للتو، لكننا اتفقنا على اللقاء في اليوم التالي، انتحينا ركنا في المقهى غير بعيد، صعب على أمره، فلم تقع عيني عليه من قبل إلا وهو في هيئة الإمارة، والقدرة، وما رأيته منه الوهن، والحيرة... عرفته عند عملي في الجبهة، وكان برتبة مقدم، له كلمة، ومنه اقدام، وأمره ثابت.

قال لي إن أحدهم غرر به، أضاعه..

- كيف؟.

قال إنه دعي إلى حفل استقبال بمناسبة تقاعد ضابط كبير ممن تتلمذ على أيديهم، ليته ما لبى، ليته ما ذهب.

- المهم، ماذا حدث؟.

قال إنه التقى في هذا الحفل بأكبر مقاولي البناء، طبعا هو في غنى عن التعريف، معروف بثرائه، ونفوذه المالي، والسياسي، تعرف به، وقال إنه سمع عنه، وقرأ في الصحف ما قام به من أعمال، خاصة خلف خطوط العدو، إنه يدعوه

للعمل معه فى إحدى شركاته، إن وظيفة كبيرة تنتظره، وراتبا مغريا، آن الأوان كى يجمع له قرشين، قدم إليه بطاقته، ورقم تليفونه الخاص جدا الذى لا يوجد إلا لدى كبار المسئولين، رجاه ألا يطلع عليه مخلوق، ليته لم يقف معه، ليته لم يقترب منه، بل ليته لم يذهب إلى هذا الحفل المشئوم.

المهم، ماذا جرى؟.

طبعا عاد إلى البيت، يستعيد هيئة الرجل، جديته، بنظرة يفحص ما وصل إليه، حتى هذه الفترة لم يكون حاجة تقى ولديه الشرور غير المتوقعة، ما لديه المرتب لا غير، لا أملاك، لا أراض، لا عائدات من أى مصدر آخر، من حقه أن يسلك وجهة مغايرة، يضمن دخلا معقولا يمكنه من الادخار، لم يشرح له الرجل طبيعة عمله الجديد، لكنه كان واضحا عندما قال له إن الأوان حل لكى يجمع له قرشين، ليته لم يصغ، ليته لم يتبعها.

قال إنه سعى، وسعى، حتى أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه، ودع عمرا من الخدمة المتصلة، وإنه عندما مشى فى الطريق بعد أن خلع سترته وفترته كان حائرا، وكأنه افتقد وجهة اعتاد أن يقصدها مع مطلع كل شمس، فلما حيل بينه وبينها، أوشك أن يضل عن آماله الجسام، لولا.. لولا الطاقة الجديدة التى فتحها له الرجل، ولكن المصيبة سرعان ما لاحت.

قال إنه قصد باب الرجل فلقيه موصدا، فى البداية لم يصدق، ولكن عندما قابل سكرتير رئيس مجلس إدارة أكبر الشركات التى تحمل اسمه، عندما أصغى إلى ما قاله، اتسعت هوة تحته، قال له الرجل إن المقابلة ضرب من المستحيل، صحيح أن هذه الشركة - وغيرها - تحمل اسمه، لكنه لا يتردد على أى منها، ثمة من ينوب عنه فى إدارتها، إنه على مقربة باستمرار من القيادة السياسية، واللحظة من وقته لها ثمن، عندئذ أبرز رقم الهاتف الخاص، تأملها السكرتير، قال:

- «نمرة صحيحة، لكنها تغيرت، أرقام هواتفه تتغير كل ستة شهور..»

طلع من مقر الشركة لا يكاد يبصر ما أمامه، لا يدرى كيف عرف أن للرجل بيتا فى الجيزة، وبيتا فى الإسماعيلية، وبيتا فى الإسكندرية، واستراحة فى أسوان، وأخرى فى الواحات، عبثا حاول أن يقنع موظفى المكتب الرئيسى للبرق، لكنهم أبوا، فالرجل من الشخصيات التى لابد من تصريح خاص لإرسال برقية إليه، وعندما قبل موظف عجوز فى مكتب الموسكى الفرعى، تمنى لو عانقه، لكن البرقيات شيعت ولم يبد أى صدى، سعى إلى الصحف لينشر إعلانا يطلب فيه مقابلة الرجل، ولكن الصحف جميعها أبت، عند حد معين أدرك استحالة اللقاء، خاصة عندما أكد له السكرتير أنه تم إبلاغ

سيادته باسمه، برغبته في مقابلته، وكانت إجابته، أنه لا يعرفه!.

ماذا يفعل، ماذا يفعل وفى رقبته أسرة، وراتبه التقاعدى محدود؟.

أصغيت حائرا، كنت ألومه بينى وبين نفسى، غير أنى أبقيت ما عندى حبيس صدرى، فلم أظهره على أساريرى ولو من بعيد، فوجئت به يطلب مساعدتى، إننى صحفى، وعندى اتصالات، وما يطلبه مجرد عمل، أو السفر إلى أى بلد عربى.

لم أقل له إننى أمر فى ظروف لن تمكننى من مساعدته. ولم أشأ أن أبقى ذرة أمل عنده عالقة بجبهتى، انصرف منحنيا، ولم أسمع صوته، ولم أقابله، غير أن عبارته الاخيرة بقيت زمنا ترن فى سمعى.

- « خرب بيتى.. الله يخرب بيته».

فيما بعد استقصيت أحواله، فعرفت أنه عمل مدة شهور بإحدى شركات الأمن الخاصة التى بدأ ظهورها حديثا، وأنه استقال وسافر، كثيرون ممن عرفتهم سافروا إلى بلاد شتى، وبعض من عرفت لم يدر بمخيلته يوما أنه سيركب الطائرة ليرحل إلى بلد غريب، أو يخرج حتى من القاهرة، لكنها الظروف، والأوقات التى أتت بكل غريب، عجيب، ولكن الأغرب أن تأخذنى الدهشة، أنسى دائما ما خبرته، أنه لا شىء يبقى على حاله..

وفيما يلى نبأ الخطاط

الذى راج أمره فى الغربة

فى مفتتح العقد السابع كان له من العمر اثنا عشر عاما. إذ نمى إلى علمى - وهذا مؤكد - أنه ولد عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين ميلادية، فى أسرة أحوالها معسرة، تسكن حجرة واحدة من الخشب المطلى بالجص فى بيت عتيق يقع عند ناصية زقاق يمكن للواقف فيه أن يرى مسجد ابن طولون. كان ذكيا لماحا، سريع الإجابة فيما يوجه إليه من أسئلة طوال سنوات دراسته، متقد الفؤاد بأحلام شتى، بعض معلميه تنبأوا له بمستقبل حسن فيما لو ثابر، وأتم الشوط، وتزود بالعدة.

لكن كما قيل، تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، وكما قيل أيضا، العين بصيرة واليد قصيرة، ذلك أن الأب كان نجارا، فقيرا، أرزقيا، لاعمل دائم له، ولا مورد ثابت يتقوتون منه، يوم هنا، وآخر هناك، وثلاثة أو أربعة يقضيها بطالا، مع أنه مهر فى حرفته، وبرع فى حفر الاشكال المورقة على الخشب، إلا أن الحظ خالف، والبخت مال، والزمن لم يساعد، أمر واحد شغل به، وتعلق، وسعى جاهداً إلى تحقيقة، بل لنقل إنه عقد العزم عليه، ألا وهو تعليم ولده هذا حتى التتمة، كذا إخوته الأربعة، الحق أن ابنه هذا كان تواقا إلى العلم، أثار إعجاب أساتذته، كثر ثناؤهم عليه، كما ذكر اسمه فى لوحة التفوق مرات، ومما أثار اهتمامهم، تميزه عن أقرانه بجمال خطه، وبراعته فى تنسيق الحروف وحفظ النسب، بعضهم أوكل إليه رسم لوحات عليها عبارات مثل، «وبشر الصابرين» و «ادخلوها بسلام آمنين» و «الصبر مفتاح الفرج»، إلى غير ذلك مما يعلق فى الغرف، وفى الحفلات الموسمية، كانت كراساته منمقة، مرتبة، نظيفة، خلوا من الأخطاء، وعندما كان يصحب والده إلى المسجد المهيب الفسيح القريب، اعتاد تأمل الحروف المورقة وتشابك الحروف، تلاقيها وتفرقها، تماسها وابتعادها، يود لو نقش مثلها، على ورق، على جص، وكثيرا ما استعاد فى خلوته بنفسه هذه الأشكال، وعند تخيلها كان يميل ببعض الحروف، فيغير من أوضاعها، وزواياها، وعند تجاوزه الثالثة عشرة أعجب به مدرس عجوز من معلمى الزمن القديم، اسمه سعد

الله، كان يدنو من سن التقاعد، نحيل جدا، عويناته سميكة، وكانت يده اليمنى لا تفارق منشة مقبضها عاجى، حتى عند إمساكه الطباشير وخطه الدروس، كان طويل الصمت، بطئ الخطوة، ثقيل النظرة، طيب القلب، أهداه كتابا ضخما لم ير مثله عن الخط العربى، قلب صفحاته، تأنى فى تأمل لوحاته، نقل منها، وعرف الرقعة والنسخ، والكوفى، والبسط، والثلث، والحجازى، إلى غير ذلك، بعد أدائه امتحان شهادة الإعدادية، لم يكن فى حاجة إلى انتظار النتيجة كى يقرر أمرا، ذات ليلة أفضى إلى والده بما نواه، بما عزم أمره عليه، فالظروف صعبة، والرزق شحيح، والزاد قليل، والشجار بين أمه وأبيه متكرر، وكثير، أفواه الأشقاء فى حاجة إلى قوت، حز فى نفسه رؤيتهم حفاة فى الحارة، أو متعلقة أبصارهم بنهاية الطريق فى انتظار عودة الأب بقليل من الطعام، تتخاطفه الأيدى الممتدة عادة إلى طبق واحد، مما يضطر والده إلى نهرهم، آمرا كلا منهم مراعاة البقية، عزم على البحث عن عمل يأتيه بما تيسر ليساعد الأب الذى يتقدم فى العمر، وبان على ملامحه العجز ومرارة الأحوال، أطرق الرجل مغموما، كمدا، حجب عن نطقه رغبته فى إتمام ابنه للشوط، حصوله على شهادة تمكنه من وظيفة تؤمنه، وتحوشه عن سؤال اللئيم، يجنبه المشاق التى عرفها، تنأى به عن ذل الحاجة، كأن الابن أدرك أفكار أبيه إذ شفت ملامحه المجهدة عما عنده، فأفضى إليه بعزمه ونيته على استكمال علمه، سيلتحق بمدرسة ليلية، سأل.. ودلوه على

مدرسة خاصة ناحية الفجالة، الأمر ميسور والعزم صادق، فى هذه المدرسة موظفون صغار يطمحون إلى الحصول على الثانوية بمجموع مناسب، واجتياز عتبات الجامعة أملا فى تبديل الأحوال، ليس فى الامر عيب، فالظروف حاكمة، اقترب الاب من ولده، بدا كالجمل الحمول إذ يحط بما ينوء به من ثقل بعد طول رحيل، بان فى عينيه ضعف وإعياء قديم، طلب منه أن يقسم، فتح المصحف على سورة يس، قربه، عندئذ هدأ بال الأب، واستفسر عن العمل الذى سيلتحق به الأبن، قال إنه سيبحث عما يناسب ما يتقنه، الخط طبعا، قال الأب: هذا عمل كريم، مضى إلى سعد الله أفندى، معلمه القديم، أبدى الرجل ترحيبا ومجاوبة، قال: أنت يا ولدى هدية لمن ستعمل معه، طلب مهلة يومين، بعد أنقضائهما اصطحبه إلى أحد معارفه، مدير لإحدى شركات المطاحن، زوده ببطاقة إلى تاجر بالموسكى، أبدى وداً، وتحدث عبر الهاتف إلى شخص ما، طلب منه الذهاب إلى هذا العنوان صباح اليوم التالى، لم يكن المقر نائيا، دكان عتيق، زاخر بعبير الزمن المولى، عند نهاية شارع محمد على قرب ميدان العتبة، تعلو مدخله لوحة باهتة: «فنان الخط العربى» قال صاحب الدكان إن زمن الخط الجميل ينقضى، الحروف الجاهزة تكتسح السوق شيئا فشيئا، وكثيرون يطبعون بطاقاتهم الآن بالمطابع التى تصف الحروف صفا، قال له: أنت صغير، والعمر أمامك مديد، ومهنتنا إلى زوال، لماذا تتعلق بها؟

قال إنه يريد أن يأكل عيشا حتى ينهى دراسته الثانوية ويلتحق بإحدى الكليات، ولأنه يعشق الخط ويتقنه فهذا أنسب الأحوال الموائمة، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، أبدى الرجل رضاءه، لانه يريد تخفيف الحمل الثقيل عن أبيه، كما أعجب بمهارته خاصة فى كتابة الثلث والحجازى والمنسوب، والحسن والفائق، وقدرته على فهم أسرار الحروف ودلالاتها، قال الرجل أنه لا يعمل إلا فى الحلال، كتابة اللافتات، عناوين الكتب، والأختام الشرعية، لو أنه عمل فى الحرام لجنى ثروة وصار فى بحبوحة، فلما استفسر منه عما يعنيه بالحرام، قال أن صناعة الأختام جزء من مهنتنا، بل إنها الأكثر رواجا، يحدث أن يجيء أحدهم، يطلب إعداد خاتم حكومى، والمقابل طبعا مقدار غير قليل من المال، غير أنه يأبى، لا يرفض فقط إنما ينهر ويطرد، حدث منذ عشرين عاما أن جاءه رجل تبدو عليه علامات اليسر والنعمة، طلب إعداد ختم عليه علامة النسر، اعتذر، فأخرج الرجل من جيبه عشر ورقات، كل واحدة بمائة جنيه، الألف فى ذلك الوقت تساوى مائة ألف الآن، أخرج المبلغ بسهولة، كأنه يتناول عشرة قروش، هززت رأسى، عندئذ تغير واكفهر، هدد وتوعد، لكننى قلت له، أوسع ما فى خيلك اركبه، لا يمكن أن تعمل لى حاجة لأن شكلك واقع فى الخطأ من شعر رأسك إلى أصابع قدميك، أنذرنى بإغلاق الدكان، لكنه مضى ولم يعد إلى ناحيتى، الغريب أنه مقدم على الخطأ ويهددنى بالنفوذ والسلطان، فيما بعد علمت أنه مضى إلى زميل لبى له طلبه، سامحه الله، مات منذ سنتين.. ماذا أخذ معه؟.

اعتاد الحديث المتدفق المتصل، يبدو أنه لن يكف أبدا، يذكر أدق التفاصيل فجأة، بدون مقدمات يصمت، يكف، يبدأ سرحة طويلة، ينقطع عما يحيطه، يصير إلى عزلة محكمة، ربما ينهيها بقوله:

ـ «ياما شفت.. أنتم لم تعرفوا شيئا، أما نحن فعشنا..»

يحكى له عن شارع محمد على هذا، عن توالى الأقواس الحجرية وتعاقبها بانتظام، عن نظافته، عربة الرش تجئ يوميا مرتين بعد كنسه، مرة أول النهار ومرة آخره، لم يكن مزدحما كما يراه الآن، كان الضوء شفافا لاتكسوه غبرة، يقف فى أيام الشتاء بعد نزول المطر، فيرى الطريق ممتدا من ميدان العتبة وحتى القلعة، مستقيما، واضح القصد، وإلام يؤدى؟، الهواء شفاف حتى ليمكن رؤية الأصوات السارية، عربات قليلة، ومارة لاتعلو وجوههم الهموم، وعيون للنساء المكحولة الواسعة، تلخص وجودهن المختبئ كله تحت الملاءة اللف، والبرقع واليشمك اللذين يغطيان الوجه عدا العينين، يتوقف لحظة لينفث آهة حسرى على ما ولى وانقضى، نزول الليل، آه من قدوم الليل، اشتعال المصابيح والكلوبات، وخروج صبية العوالم، وقوفهم عند مداخل الحارات يضعون أمامهم صناديق الآلات الموسيقية الضخمة، متعددة الأشكال، ينتظرون نزول المطربات والراقصات والعازفين، تجئ السيارات، يعلو ضجيج الأصوات، كم من جميلات تطلعن إلى الطريق وهن يرتدين

الفساتين المحلاة بالترتر والقصب، ملابس السهرة، يقضين الساعات اللائى يقمن خلالها بإحياء الأفراح والحفلات، هنا فى المدينة أو الأطراف، أو السفر إلى بلدان وقرى بعيدة، للشارع نجومه، منهم من يعظم الطلب عليهم، ومنهم من يقل، بعض الراقصات اللواتى عشن فيه عشقهن عليه القوم، باشوات وسعوا من أجل طلة أو نظرة، لذهابهم ومجيئهم بصحبة عازفى الآلات الموسيقية شذى وأصداء، هنا كان الفن، وكانت الصحافة.

هل سمعت عن جريدة المؤيد؟.

يمصمص شفتيه أسفا قبل أن تأتيه الإجابة، مساكين شباب هذه الأيام، ماذا تعلموا إذن فى المدارس؟، يصمت ثم يستفسر، ألم تسمع عن الشيخ على يوسف؟ يتقدم مباشرة تجاهه، يمسك بذراعه، يخرج به إلى نهر الشارع، يشير إلى مبنى عتيق مقابل: هنا كان مكتبه، هنا مقر جريدة المؤيد، كانت أكبر وأوسع شهرة من الأهرام ولكن الزمان قلب!.

يقول إن والده رحمه الله كان يرسم عناوينها، ويصيغ أختامها، آبى الشيخ على يوسف عليه الرحمة كلها - أن يتعامل مع الأرمن، الأجانب، وخص والده، أول مصرى عمل فى الصنعة بكل ما يلزم الجريدة.

يشير إلى ناحية باب الخلق.

هناك كانت مجلة اللطائف، مقابلها مجلة اليوم، على مقربة جريدة السياسة، الناحية الأخرى مجلة المطرقة.

يتطلع ناحية دار الكتب.

يا سلام.. ياما قعدت فى المقهى هناك، واستمعت إلى حافظ إبراهيم، والشيخ عبد العزيز البشرى، وتوفيق دياب، ممن لا مثيل لهم ولا شبه فى هذا الزمن القفر.

يتوقف لحظة، ثم يتساءل:

هل شاهدت مصارعة الديوك؟ طبعا لا.. ولن تعرفها، هناك، بجوار دار الكتب كان أغنياء الأتراك يداعبون أطراف شواربهم الكثة وهم يتفرجون على مصارعة الديوك، بينما تشتعل حمية الرهان، راح هذا كله، ذهب ولن يعود.. انظر إلى الزحام، انظر إلى فقر الترام، وبؤس المعمار...

كان يفيض متحدثا عن تغير الضوء فى ساعات النهار المختلفة، وعن امتداده عبر الأيام الشتوية صوب القلعة، حيث تختتمه مآذن مسجد محمد على، عن روائح غامضة، محببة إلى نفسه، لا يمكنه تفسيرها أو نسبتها إلى مصدر بعينه، ربما رائحة ظلال البيوت المتداخلة، المتعانقة، أو البوابات العتيقة التى لم يلامسها ضوء الشمس، ربما رائحة انتظار الأحبة والعشاق عند النواصى، وتطلع نظراتهم إلى النوافذ الموصدة ليلا، المسدل عليها الستر، أو أبخرة أطعمة رصفت أطباقها وتنتظر الطاعمين، أو أصداء عبير أنثوى، ربما هذا كله، لا يقدر على التحديد، على التعيين، لكن الرائحة تلك بقيت عنده [illegible] الآن وحدث، وقت، [illegible] أنه قادر على [illegible] لم تمح تماما،

غير أنها لم تعد تلك التى عرفها وهفا إليها، إنه يزداد انحناء، إنه يأسو، يبدو أشد بعدا، كأنه أقلع من الحيز المولى..

إنه يجلس أمام الدكان، يتابع المارة، مضيقا عينيه من حين إلى آخر، يشرب الشاى الغامق، لم يعد يقف أمام لوحة منذ فترة، أو ينحنى ليخط حرفا، أسند العمل كله إليه، يقوم أحيانا ليلقى نظرة فيبدى ثناء أو ملاحظة، ثم يعود إلى المقعد المستدير راحلا بنظره الكليل عبر الطريق، عمره موزع عند المداخل العتيقة، وتحت البواكى العتيقة، وعند نواصى الأزقة التى يرتفع بعضها عن مستوى الطريق، يلتفت فجأة ليتحدث عن والده، يقول إن الخواجات الأرمن هم الذين أدخلوا هذه الصناعة، ظلت كارهم الخالص، لا يقترب منه أولاد البلد، يتوقف ليخبط صدره مرات ثلاث، والدى أول من فتح الباب، أول مصرى يعمل فى الزنكوغراف، لم السوق من الخواجات، وتبعه كثيرون، ولولاه لظلت الصنعة فى أيدى الخواجات.

وإذ يستعيد والده يلوح فى عينيه حنين، أحيانا يحط على مقعده ممسكا كوب الشاى، لا يحيد بنظره، قد تمضى ساعات، لا يتحرك، وربما سأله فجأة، هل سمعت عن المؤيد؟، أحيانا يطلب منه أن يناوله ما فى يده، مايشغله، يشد مقعدا صغيرا بدون مسند، يقول مبتسما متمتما:

.. دايرين ندور على نفسنا، لا تتعب خاطرك..

ثم يفيض فى الحديث، يضحك، وفجأة يأوى إلى صمت شديد، يبدو أنه نسى وجوده إلى جواره، أشد ما يزعجه زحام الطريق، خاصة إذا توقف المرور وارتفعت أبواق السيارات ورنت أجراس الترام وعلا صهيل من هنا أو نهيق من هناك، يلوذ برمادية الفراغ، بعتاقة المكان، يتمتم مكلوما:

ـ لم يكن الأمر هكذا، أبدا، أبدا..

فى عصر شتوى، غامق، يوحى بالكنة والتوق إلى ماض مبهم، بدا منحنيا، ملموما، كأنه تضاءل فجأة وانطوى، ثمة رياح باردة تثير أتربة، سعل مرة، مرتين، ثم مرات مقطعة، متباعدة، سعال غريب، أصداؤه متسلخة، اشتد ثم خفت، كصدى يذوب مبتعدا فى واد سحيق، ترك اللافتة التى يخط فوقها اسم المرشح، هذه بداية الموسم، يروج الحال عند بدء المنافسة واحتدامها، لافتات عديدة مطلوبة، يضيق بالسرعة فى عمله هذا، لكن للضرورة أحكام، هذا موسم لا يتكرر إلا كل أربع سنوات مرة، إلا إذا أكرمهم الله بحل المجلس، وإجراء انتخابات جديدة، أحيانا يبتسم ساخرا إذ يخط لافتتين، الأولى لمرشح والثانية لمنافسه، غير أن الابتسامة راحت عندما بدأ يصل إلى سمعه هذا السعال الغريب، وأشد مايخيف، ماكان غير مألوف.

ـ مالك .. مابك..

لا يصمد للمسة يده، إنه ثقيل، هذا الثقل التام، ارتبك، اضطرب، إنها المرة الأولى التى يواجه فيها النهاية الحتمية، مرة واحدة أثناء ركوبه الترام، صرخت امرأة، أقبل اضطراب، وعندما تمكن من النفاذ عبر الأجساد الفضولية المتكاكئة، رأى جثمانا متمددا، بنطلونا بنيا وحذاء، قميصا مقطوعة أحد أزراره، قالوا إنه سقط فجأة، السكتة، غير أنه لم ير وجهه المجهول، هاهو الآن يقف مواجها الرجل الطيب، الرجل القديم، الذى كان !.إنه مستسلم لنوم غامض، خلو من الأحلام، ملامحه تبدلت بعض الشئ، أطبق بعضها على بعض، وفى ثناياها ضمر الحنين إلى ما كان وما انزوى، قفل منثنيا إلى ما ولى، تم..

هرع إلى الجيران، إلى المقهى، إلى دكان الآلات الموسيقية، بكاه كأنه يشيع أباه، مايقرب من عامين لم يسمع منه كلمة فظة، لم يزجره، لم يقل له أف، لم يثقل عليه، بكى إذ استعاد عبارته عندما منحه العيدية:

ـ «والله يابنى انت زى ابنى.. كأنى خلفت على كبر..»

تحلق القوم حوله، قالوا له مايقال فى مثل هذا الموقف، من تأكيد لقضاء الله، وتذكيره بحتمية الموت، وأن كل من عليها فان، راحل، مودع، والرجل مضى فى هدوء، لم يرقد، لم يمرض، لم يصبح عبئا على غيره، إنه من المكرمين، رحل فى لمحة..

لم يفارقه حتى مواراته الثرى، عاد إلى المحل لايدرى ما يفعل، كان الرجل وحيدا، عاش بمفرده، لم يسمعه يتحدث عن قريب أو صاحب حميم، إنه يقف على حدود مرحلة مجهولة من الطريق، لايدرى ماذا سيأتي به الغد؟ كيف ستمضى الامور؟، وحتى يدبر حاله استقصى من الجيران عن ديون الراحل، وما من دين إلا حساب مقهى التجارة المجاور، أربعة جنيهات وسبعون قرشا، قلب الأوراق التى عثر عليها فى الدرج المقفل، عله يجد كمبيالة ما، أو إيصالا يستحق السداد، لم يعثر إلا على ثلاثة أختام بالية، أحدها باسم حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى، فى الأيام التالية أتم كافة ما اتفق على إتمامه من لافتات انتخابية، نصحه والده باستشارة أهل العلم بما سيكون عليه الدكان، غير أن الأمر لم يطل كثيرا، صباح الخميس المتمم مرور خمسة عشر يوما على تمام أجله، ظهر رجل تجاوز الخمسين، بدا قاسيا، ينوى الأذى، قال إنه من أقارب المرحوم، أبدى الإثباتات الشرعية وأظهر الحجج القانونية، تساءل: بأى حق يقف ويدير المحل؟، من الممكن اللجوء إلى الشرطة لوضع الأمور فى نصابها، لكنه يبدى النصيحة لوجه الله خالصة، أن يمضى إلى حاله، أن يشوف رزقه بعيدا، وإكراما للمرحوم لن يطالبه بما ربحه فى الأيام المنقضية، فارق الدكان بقلب موجع، وخاطر كسير، مرددا:

ـ يا عامل الخير.. ياعامل الشر!!.

لم يبد له الشارع أطول مما بدا له ذلك اليوم، وعندما دنا من ميدان العتبة، ولاحت سماء نائية، وغمامات متناثرة، عمه خواء، فارق سنده الذى أحبه، الرجل الطيب خلت منه الدنيا، حتى عدته لم يأخذها، فرشه وأقلامه، مضى متمهلا فى الطريق الخلفى لمبنى المطافئ، آوى إلى مقهى مزدحم، رواده سمر الوجوه، نوبيون، زحام، ضجيج، غير أن وحدته لم تتبدد، تضاعفت، منذ هذه اللحظات بدأ انحطاط أمره، وعكس حاله، ودنوه من بيد تؤدى إلى مجهول لا يعرفه، فى الأيام التالية طرق أبوابا شتى، أحد معارف والده عرض عليه الوقوف بمطعم ناحية السيدة زينب، عمل بسيط لا يقتضى مهارة، مجرد حشو الأرغفة بالفول أو الطعمية، لكنه أبى، خشى أن يأخذه بعيدا عما أتقنه، قال له الراحل الكريم إن الخطاط لابد أن يمرن أصابعه باستمرار، وإلا أصبح الأمر صعبا، كان قد ادخر بضعة جنيهات، اشترى ورقا سميكا، وورقا مذهبا، وآخر ملونا، فوق سطح البيت بدأ يقعد فى الشمس، على مقربة منه دواجن تلتقط من الحب ماتيسر، أصوات الطريق تبدو بعيدة كأنها تأتيه من واقع آخر، بداية يحدد الحروف الغليظة بالقلم الرصاص، ثم يقص الورق المذهب، يلصقه، حتى إذا فرغ ينظر مرتاحا، راضيا، آية قرآنية كريمة، إذ يتم اثنتين أو ثلاثا، يطوف على المتاجر بما أتمه، على المقاهى، غير أن البيع صعب، لم يدرك أحد ممن يعرض عليهم الفروق بين خطوطه واللوحات الأخرى الجاهزة، بل أبدى بعضهم استخفافا، بعد أخذ ورد

يسمع تكرار العبارة ذاتها «الله يسهل لك»، كأنه يبغى صدقة، كأنه يطلب منه، حتى إذا ما تم بيع لوحة يجد ربحه ضئيلا، أثناء تجواله لقى رزقا، إذ مر بورشة قرب القلعة تصنع عربات اليد، اتفق مع صاحبها على تزيين عربتين، الأولى لبيع الفاكهة والأخرى عالية كالهودج، خط أدعية، وآيات قرآنية، ورسم زهورا، ودوائر متداخلة، أبدى المعلم إعجابه، وتمنى لو أن الحال كالزمن القديم، كان العمل لايتوقف، فى كل أسبوع عربة أو عربتين على الأقل، أما الآن فالأحوال عسرة، قل الطلب على العربات الجديدة، ولولا إصلاحهم قديمها لأغلقت الورشة منذ زمن، لم يتوقف عن قطع شوارع القاهرة وحواريها حاملا لوحاته، مر بشارع محمد على، من الرصيف المقابل وقف غير مصدق، سرعان ما بدا ينز حسرة، تبددت ملامح الدكان تماما، فكأنه لم يفتح يوما لخط الكلمات أو رسم اللوحات، تعلوه لوحة: «مينى ماركت». أما فى ذات الموضع الذى كان يخلو فيه الرجل الطيب فرأى ثلاجة بيضاء، على جوانبها ملصقات شتى، حيث وقف وانحنى واندمج تقف امرأة شابة، من هى، من تكون؟ خطر له عبور الطريق، أن يعرض عليها لوحة، لكنه أقصى الخاطر ولم يبادر، من هؤلاء الذين قدموا من المجهول ليرثوا، ليبدلوا ما انقضى، أى درجة قرابة تربطهم بالراحل؟ لم يسمع منه عنهم، يتحرك خطوات مبتعدا، يلتفت مرة أخرى، كأنه لم يمض أياما كوامل هنا، كأنه لم يقض سنة وعدة شهور يصحبه الطيب، الأمير، ابن الزمن العتيق، لكم حنا

عليه وأثنى به، كأنه لم يكن، وكأنه هو لم يعمل هنا ولم يصغ ولم يتعرف على جهاد الأب لانتزاع الصنعة من أيدى الأرمن، مايراه عند الجانب الآخر لا صلة تربطه به، لا أثر للعلاقة، اتئد فى مشيه، إنه يتعرف على ذلك المعنى المبهم الغامض، يدركه لأول مرة، أنه انقضاء ما انقضى، تمام مرحلة لن تتكرر أبدا، لن يستعيدها أبدا، أطبق عليه أسى، ونأء وجد.. تعب من اللف فى الطرقات فآوى إلى مقهى بباب اللوق، جاءه صاحب المقهى، كان قد اشترى منه لوحة علقها فى مواجهة النصبة، قال له أن ما يقوم به تضييع للجهد، للطاقة، سيدله على تاجر يبيع هذه اللوحات وغيرها، إنه من رواد المقهى، يجئ فى السابعة صباحا، يدخن النرجيلة، ويشرب النعناع المغلى، أنه رجل صالح، يؤدى الفروض فى أوقاتها، يحج كل سنة مرة، قال له: تعال يابنى غدا فى الحادية عشرة ليلا، إنه آخر زبون يقوم من هنا، تعال قابله واتفق معه وارح نفسك من الهم!.

فى النهار التالى لم يفارق البيت، رسم لوحتين أضافهما إلى ماعنده، قبل الموعد بوقت كاف سعى، هاهو الحاج يدخن النرجيلة، أنفاسه سريعة، قصيرة، لا يتيح للدخان فرصة المكوث فى صدره، يمسك سلسلة ذهبية، تأمل اللوحات بلا مبالاة، كان يشير بيده إشارات حادة، مقتضبة، فيحار، أيطلب منه أن يمضى بعيدا وكأنه يهشه هشا، أو يريد رؤية اللوحة التالية، ملامح وجهه تؤكد أنه مستمر فى رؤية اللوحات، عند رؤيته المستطيلة ذات الخلفية الزرقاء، أشار إليه أن يتراجع، تأملها قليلا ثم أشار بيده..

ـ كفى!.

باختصار ممض، مباشر، موجع:.

ـ شوف يابنى، كل هذا لاينفعنى..

المعلم صاحب المقهى الواقف خلف الحاج يغمز بعينه، يعض شفتيه، مايعنى، اصبر، لا تتعجل، .خفف ذلك من ضنكه، بعد لحظات قال الحاج، انت ستجئ عندى إلى الدكان، سأعطيك الخام كله وأخبرك بما أريد، تروح بيتك، تنفذه، ثم ترجع إلى، تأخذ عرقك وأكثر، المهم.. لا تغشنى.

صاحب المقهى يسارع متدخلا:

ـ «ضمانته على..»

يقطع الطريق إلى البيت مرتاحا، لن يضطر إلى التجوال المضنى، والوقوف هنا وهناك، ومعاناة إذ يعرض عنه الآخرون، ولا يعيرون مايحمله طلة حتى، لن يقاسى الخوف من شرطة المرافق التى تطارد الباعة الجائلين.

بدأ عمله بهمة ونشاط عظيمين، أملاه الحاج العبارات المطلوب خطها وتجميلها، والأسماء التى يبغى أصحابها كتابتها على ألواح نحاسية، أو خشبية، أمده بما يلزمه، يقع الدكان خلف المقر الرئيسى للبنك المركزى، على مقربة من المقهى محل صغير، ضيق، مزدحم بالإطارات القديمة والحديثة، إنه مجرد مقر للحاج الذى يعمل فى مجالات عديدة، تركيب زجاج العمارات وبيع السيارات القديمة، والعملة، وأوجه

أخرى شتى، جاء إلى المقهى فى الميعاد المحدد، لم يصل الحاج بعد، أبدى المعلم إعجابه، ردد: اللهم صل على النبى. وصل الحاج، وتأمل صامتا، لم يفصح وجهه عن علامة، أبدى بعض الملاحظات، وصف المحل القريب، طلب منه أن يمضى إلى هناك، سيجد صبيا اسمه عاشور، سيسلمه اللوحات ويرجع، ومنذ الآن سيكون التسليم هناك، عندما عاد إلى المقهى لم يجد الحاج، أثقل صدره بغم، رتب أموره، نوى شراء فطائر وحلوى من ميدان السيدة زينب لأشقائه، قال صاحب المقهى إنه اضطر إلى الانصراف بعد مكالمة هامة، ثم قال: لا تقلق، أجرتك ستقبضها مساء كل خميس مع الدولاب، أبدى دهشة ،أى دولاب ؟ ضحك قال إن كل من يعمل مع الحاج اسمه الدولاب، يعنى دولاب العمل، تساءل قلقا، آملا: ألم يترك لى شيئا، قال المعلم، طبعا.. طبعا، مضى إلى المنضدة المرتفعة، تناول ورقة بيضاء، عليها بخط ركيك: مطلوب عشر لوحات «الصبر مفتاح الفرج»، المقاس العادى. عليه أن يمر صباح الغد بالمحل ليأخذ المونة، يقول المعلم بعد لحظات:

«أنت فى ضيقة ؟».

ينفي، أبدا، أبدا.

يدس فى يده خمسة جنيهات

- «فك عن نفسك يا رجل، ويوم الخميس الفرج إن شاء الكريم..»

يقول المعلم مبتسما، مودعا، مطمئنا، فما أرق ملامحه وقتئذ:

- «لا تنس المرور على الدكان صباحا.»

مساء الخميس جاء، أشار المعلم إلى سبعة أشخاص، هل يفضل الجلوس مع الدولاب أو بمفرده ؟، إنه لا يعرف أيا منهم، ينزوى فى ركن قصى متابعا الداخلين والخارجين، الصامتين، المتحاورين، ممتلئا بالصمت، ظاهر الجد، رمى سلاما عاما لم يخص به شخصا بعينه، قعد بمفرده، بعد أن طلب كوبا من القرفة إضافة إلى النرجيلة المعتادة التى تستقر أمامه بمجرد وصوله، بدأ يستدعى الدولاب، يحاور، يجادل، يضرب حافة المنضدة بأصبعه، وربما يرتفع صوته، لم يحن دوره إلا فى النهاية، لم يحص النقود، مدها الحاج إليه مضمومة، ملمومة، كأمر مفروغ منه، لا يقبل نقاشا ولا يحتمل جدلا، عاد إلى مقعده، لم ينصرف مباشرة كأفراد الدولاب الآخرين، رغب فى كوب من الشاى، وعندما أعاد الجنيهات الخمسة الى المعلم دعا له بطول العمر، فأبدى الرجل تأثراً ورقة، ربت كتفه..

- ربنا يفتحها فى وشك.

فارق المقهى وعنده رضى وفضول، لم يكن يعرف مقدار مكافأته، توقف تحت مصباح ناء، المبلغ أقل مما قدر وتوقع، يكفى حاجاته بالكاد، لا يقابل أبداً مقدار ما يبذله من جهد وعناء، هل يجادل الحاج فى الأمر؟ ، هل يفاتح معلم المقهى؟،

يبدو له هذا كله عبثا، لا جدوى منه، لو أن الظروف ساعدته، لو تمكن من افتتاح محل صغير، ليس فى وسط المدينة، فى أى منطقة بالمدينة، لكن. دكان كهذا يقتضى مبلغا هائلا لابد أن يدفعه فى البداية.. من أين له به؟ لو أمكنه أن يعمل ويوزع بنفسه، لكن من له بالدروب؟ من يدله على بدايات السكك؟، كان يلف المدينة شارعا شارعا ودربا دربا ويعود فى الأغلب الأعم بما خرج يحمله من بيته، إنه فى ضيق، أما ما حزن من أجله.، وما رثى لذاته بسببه، فتوارى مشروعه لإتمام تعليمه، كان والده يرقبه منكبا على اللوحات، يدعو له، وينبهه إلى ضرورة نزوله الطريق ليمشى، ليفرد جسمه قليلا، ليخرج إلى الضوء، ليريح عينيه، ليسرى عن نفسه، مرة أو مرتين فاتحه فى موضوع دراسته، ماذا عن تلك المدرسة الخاصة؟، قال إن الأمر سيتم، لكن بعد استقرار الأحوال قليلا، يريد أن يتبين رأسه من رجليه، غير أن داخله كان مشغولا بالرغبة فى امتلاك محل، افتتاح دكان، وليس طموح إنهاء مراحل دراسته، أن يكون مقره بيده هو، يخط ما يحب، ويرسم ما يرغب، ما يفضله هو، لا ما يريده غيره، يبدع ما يهوى، لا مايطلبه السوق، إن اقتراب يوم الخميس يثير عنده مشاعر متنافرة، يقدر ما ينتظر استلام ما يستحقه، يقدر ما هذا الانتظار الطويل المتعمد، إن أكتاف الرجال لتنوء، وإن رقابهم لتميل عبر انتظار كسير كهذا، مرة اتصل المعلم قبل الموعد المحدد لإغلاق المقهى

بدقائق، أخبر باضطراره إلى تأجيل الموعد حتى غد، انصرف الدولاب، استفسر منه معلم المقهى عما إذا كان يحتاج مقدارا من المال؟، شكره وأعرض عن طلب مليم واحد مع أنه كان فى حاجة، انصرف مثقلا وعنده غبن وهم، فى هذه الليلة تردد داخله ما لم يدر حتى راوده أول مرة و اتضح عنده ما لم يتصور أنه شارع فيه يوما، وفى الايام التالية بدأ يعد العدة، لم يخبر أباه، لم يخبر أمه، أو أحد أصحابه، حتى لو أراد أن يفضى إلى قريب أو حميم، فإلى من يسر؟ وإلى من يحكى؟، زملاء المدرسة مضوا فى مراحل تعليمهم، ما كان يجمعه بهم ولى، فى المنطقة التى يقطنها لم يقم علاقة حميمة، إن عمله يلتهم الجانب الأكبر من وقته ، وعندما يثقله الضيق، وتحدق به الوحدة ، يمضى إلى مقهى قريب فيه جهاز التليفزيون، يمكث مقدارا من الوقت، وفى الأعم يكون شاردا عما يتتابع امامه من مشاهد، أرضه قلقة، وجسوره منقطعة، والآتى عنده غامض، ضبابى، أمره مشوش حتى ليغض البصر عند لقائه بخديجة ابنة جارته إذ تلتقى به أثناء خروجه من البيت أو عند عودته، خديجة سوداء العينين، طويلة الشعر، حصلت على دبلوم تجارة، تعمل مؤقتا بائعة فى متجر للملابس الداخلية بالموسكى، تنتظر الالتحاق بوظيفة فى بنك أو دائرة حكومية، أو أحدى هذه الشركات الحديثة التى تمنح أجورا سخية،إنه يولى الوجه، يشيع ويتجاهل، ماذا بوسعه أن يقدمه؟ على أى شىء

يقيم الوعود؟ حتى ملابسه لا تستر إذا رغب فى الخروج بصحبتها، المشى بحذاء النيل، أو الإيواء إلى ركن فى حديقة شاحبة ليبثها ويفضى. إذ تلح عليه فورات الجسد ونشيش الرغبة، يعالج الأمر، يستدعى إلى ذهنه صورة امرأة رآها فى الطريق، أو ذكرات خديجة الخمرية وما تثيره، أو يمعن البص إلى صورة ممثلة شبه عارية، يكفى ذاته، حتى يهدأ ويهجع.

أحيانا يطبق عليه الحال، تنتابه رغبة فى الهجاج، خاصة عند نزول الليل، يخرج قبل اكتمال الغروب، يستسلم لحركة الطريق فيمضى إلى حيث لم يقصد، عيناه مجهدتان، والآلام تخز عنقه، يرجعها إلى طول انحنائته، فى ميدان السيدة زينب زحام، الناس كثر لكنه بمفرده، كأنه لا يرى أحدا، فى المقهى سمع عن بعض ممن سافروا، منادى السيارات الذى سافر إلى دولة نفطية وعمل نقاشا، ثم تقلب فى مهن شتى حتى عاد ميسور الحال، يجىء راكبا عربة، يوقفها، ينزل منها، يمسك حلقة المفاتيح المعدنية، يدخن النرجيلة بهدوء، يقال إنه أصبح من تجار العملة، سمع عن أحدهم كان عاملا فى مطعم قريب، بقلى الباذنجان والطعمية، ادخر ما ادخر وسافر، هناك أصبح مالكا لمطعم صغير، يجىء كل مدة محملا بالهدايا، صاحب المقهى، اقترب منه أكثر من مرة.

ـ طالما لا تجرب حظك..

يتطلع إليه حائرا:

ـ «أنا خطاط ياحاج..»

مرة لوح الرجل بيده:

ـ «اعمل أى حاجة، أنا كان عندى صبى هنا وراح، كان إذا أحدهم سأله عن عمله، يقول له، أنت ماذا تريد؟، فإذا كان المطلوب مبيضا أجاب، وإذا كانت الحاجة إلى مبلط لبى.»

ثم يشير إليه الحاج:

ـ «أما أنت.. فتعرف ما لا يقدر عليه غيرك..»

ليلة من ليالى فبراير الباردة، اقتنع بما فكر فيه، بما لم يتخيل أنه واقع يوما، ما يحصل عليه يكفيه بالكاد، لو أنه ادخر ما يتسلمه من المعلم لمدة عشرين سنة بدون أن ينفق مليما واحدا، فلن يتوافر له ما يمكنه أن يدفع مقدما لحجرة أو خلوا لركن يمكنه أن يبدأ فيه حياته مع خديجة أو غيرها، إذن.. فلتكن غربة قسرية، يدخر ما يمكنه ويرجع، استبدت به الفكرة، أحكمت الحوطة عليه، بدأ ينظر إلى عمله مع الحاج على أنه مؤقت، لم يطلع حتى الأقربين على نواياه، ادخر ما ادخر، واقترض ما اقترض، وبذل الجهد المضاعف، وعندما اكتملت قيمة التذكرة، وخرج من مكتب شركة الطيران إلى الطريق تطلع إلى البنايات فغامت عيناه، ومر بالنواصى فكأنه لن يراها مرة أخرى أبدا، وعندما عبر ميدان السيدة متجها إلى مسجد ابن

طولون كاد ينوح، كأن ما تبقى له من أيام هنا كل ما سيقضيه في هذه الحياة الدنيا، كأنه يقف على شفا جرف سحيق وثمة من سيدفعه فجأة، فى عصر هذا اليوم صارح أمه وأباه وإخوته، أصغوا واجمين، لكن لم يبد أحدهم اعتراضا، حتى والده لزم الصمت، برر ذلك لنفسه بأنه زين لهم الظروف، فلم يقل لهم إنه ماض إلى مجهول، وإنه قاصد باب الكريم، بل أكد أن عملا ينتظره، وسكنا مع صحب سبقوه، وأنه سيرسل من هناك ما يحتاجون إليه إن صيفا أو شتاء، كما أنه سيجئ على الاقل مرة فى كل سنة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، ما ضاعف شجنه تطلع أمه الصامت إليه، كأنها تتزود منه، وتتملى من قسماته، ولكم كان راغبا فى الاطلاع على ما يدور داخلها، أى لحظات تسترجعها، ما اثقله اهتمامها به، بطعامه، حتى أنها نزلت السوق القريب واشترت سمكا، هى تعرف أنه الطعام المحبب له، أبدت همة عالية فى طهيه، وعندما جلست على مقربة منه طلب أن تشاركه، كذا إخوته.

ـ «يعنى آكل لوحدى ؟»

قالت إن نفسها مسدودة، أما الإخوة فيفضلون الطبيخ، عندئذ تراجع.

ـ «طيب.. لن آكل..»

أقدمت، واقدم الأشقاء، غير أنه لاحظ تمهلهم، حرصهم على أن يدعوا له النصيب الأوفى، ضايقه ذلك، لكن لم يكن بوسعه

تبديل الأمر، وفى إحدى الليالى خيل إليه أن أمه تبكى، أصغى إلى نهنهة مكتومة، وعندما تقلب فى فراشه كفت، حتى خروجه من البيت قاصدا المطار حرصت ألا تبدى أمامه ضيقا، أو غما، كان يدرك أن ابتسامتها تلك وليدة جهد جهيد، أما والده فلاذ بسكون، واستجاب لإلحاح ابنه ألا يصحبه إلى المطار، كان يعول هم الأب، كيف سيرجع من المكان البعيد، حتى وصوله إلى ناصية الحارة التفت مرات سبعا، ولوح بيده، وهم بالرجوع، لكنه لم يعد، وكانت امرأة عجوز كليلة البصر تقف أمام الفرن القديم تبيع أحيانا الليمون، سمعها تقول..

- «تروح وتجىء بالسلامة يابنى..»

اعلموا يا أفاضل، ياكرام، أن وداع هذه المرأة التى لاتمت اليه بصلة، ونطقها الواهن لتلك العبارة، نكأت عنده جرحا، وهدمت ساترا أخفى خلفه ما انتابه، وما اجتاحه، وجهد حتى لا يبدو منه شىء على مرأى من والديه، هذا ما عرفته من حال هؤلاء القوم، أمه تدارى حتى لا تؤله، وهو يخفى حتى لايزيد حملها، حتى إذا خلا كل بنفسه ونأى عن بصر الآخرين باح بما عنده، وأظهر ما خفى من أمره، ولكن لذاته هو، شفقة ومحنة على محبيه، ظل صوت هذه المرأة العجوز يتردد عنده، حتى اجتيازه بوابات الرحيل، وطلب منه الشرطى إبراز جواز سفره وبطاقته، بعد أن تفحصهما وقارن الصورة المثبتة بملامح الوجه الصامت المتطلع إليه بنظر ثابت، كأنه يقول، لا تدرى ما مررت به حتى وصولى هنا، حتى وقوفى بهذه اللحظة،

حتى إقدامه على المغادرة، حتى انخلاعه من البيت، والحارة، والحى، والبلد، ووالد وما ولد، متى سيطأ هذه الأرض مرة أخرى؟

عندما اقترب من باب الطائرة لم يواته الفرح الذى طالما تخيله طفلا، ثم صبيا، يتطلع حالما إلى الطائرات التى تعبر سماء المدينة، أبدا، بل التفت متشبثا بكل ماتقع عليه عيناه، مبنى المطار، العربات المتباعدة، السماء الغمامية، الجنود الواقفين، العاملين بالمطار، كل منهم سيصبح الليلة فى سريره، فى بيته، بين من يحب ومن يعرف، وعندما تطلع من النافذة الدائرية إلى الأرض والمعالم التى راحت تتضاءل بسرعة، بدا كأنه أودع ما مضى وماكان جوف هذا الثرى.

جال فيما حوله، اعتصم بالحديث إلى من يجاوره، صعيدى من سوهاج، فى البداية كان حذرا، يومئ، وعندما نطق اقتضب الجواب، غير أنه سرعان ما وثق وأنس، فحكى عن عياله، وقيراط الأرض الذى باعه ليوفر ثمن التذكرة، مبلغ من المال قسمه، نصفه لامرأته، تدبر به أحوالها حتى يتيسر أمره فى الغربة، ومقدار آخر قليل أخذه معه يتدبر به، قال إنه سينزل على قريب له، أخرج من طيات ملابسه ورقة مضمومة، ملمومة، فردها، طلب منه أن يقرأ العنوان مرة أو مرتين، ردده بصوت مسموع، كأنه يستوثق من حفظه، من يدرى.. ربما فقد الوريقة لسبب ما، طواها وخبأها فى مكمنها الأمين، ثم استفسر فجأة

عن مقصده، وعن بلدته، ومهنته، فقال إنه يقصد البلد ذاتها، وأنه قاهرى المولد والنشأة، يعيش على مقربة من السيدة زينب، وأنه خطاط، وأنه على باب الله..

قال الرجل الصعيدى:

ـ شاه الله يا سيدة زينب..

ثم صمت، بدا حائرا، لا يدرى ماذا يقول، كأنه يتمنى تقديم مساعدة ما، لكن ليس فى اليد حيلة، قال أخيرا:

ـ الله سيكرمك..

جاوبه مستسلما، قلقا، آملا :

ـ «كله على الله..»

مع بدء هبوط الطائرة، وثقل السمع، قدم إليه الصعيدى استمارة الجوازات رجاه أن يكتبها له، تبعه ثان وثالث يجلسان فى المقعد المجاور، خيل إليه أن كلا منهم يعرف وجهته عداه، لا يدرى كيف جرى التقارب وتم بين ثلاثة لم ينتبه إلى وجودهم فى الطائرة، هم مثله، ينزلون البلد أول مرة، وما من ارتباط مسبق بعمل، الوضعية متشابهة، لذا وقع تآلف، وتقارب، فكأن كلا منهم يلوذ بالآخر، بعد انتهاء الإجراءات، وتفتيش الحقائب، وتقليب محتوياتها والطرق على جوانبها، وتمرير جهاز صغير يحدث أصواتا متقطعة، بعد فرد ملابسه، حتى الداخلية منها، واستبعاد رغيفين، ودجاجة أصرت الأم على إعدادها له زادا

للطريق، بعد التحديق فى الملامح، التنقيب فى شرود العينين، وسبر غور النظرات، ومحاولة استكشاف مدى الحزن البادى وسره، بعد التطلع بريبة، ثم بقسوة، ثم بعدوانية سافرة، السؤال عما إذا كان معه رسائل، أو شرائط تسجيل، أو كتب، أو مجلات، بعد تقليبه يمينا وشمالا، قال الموظف بلهجة طرد، أو سب، «رح..».

رتب محتويات حقيبته القليلة، مضى فى الاتجاه الذى يشير إليه سهم الخروج، قرب البوابة ذات الجهاز، فوجئ بجندى يرتدى غطاء رأس أحمر، يصيح به، يأمره أن يتوقف، تحسس ثيابه، مرر جهازا صغيرا مستطيلا على ظهره وبطنه، أمره بإخراج ما فى جيوبه، أن يخلع نعليه، وجوربه، ضغط موضع امعائه، وداس عليه من دبر، ولما سأله واستفسر جاوبه بنظر خشن، وتهديد خفى، فيما بعد عرف أنهم يحجزون البعض، يدخلونهم فرادى إلى غرف مغلقة، يجردونهم من ثيابهم، يصبح الواحد عاريا كما ولدته أمه، يأمرونه بالانحناء، يتفحصون الاست، والحجة أن البعض يدس أنابيب من بلاستيك فيها ممنوعات!، لم يجر هذا له، بعد لحظات قال الجندى..

ـ «رح..»

لحظة تأهبه للمغادرة، لمح فى الصالة الداخلية التى يفصله عنها زجاج بعض من صحبوه، من جاءوا معه على الطائرة، يقعدون القرفصاء فى الصالة الداخلية، ينتظرون أمرا ما، رأى

جاره السوهاجى، مضى منقبضا، كدرا، خرج إلى الساحة الفسيحة، طالعه فى الواجهة أطار هائل يتطلع منه وجه زعيم البلاد، ملامح قاسية، صارمة، كأنها تتفحص القادمين، أما الخط الذى كتب به الشعار تحت الصورة فردئ، خلو من أى تنسيق، لا يتبع قاعدة ، وقف بمفرده، غريبا، لا ينتظره أحد، أرض يطؤها لأول مرة، رائحة لم يعتدها، مزيج من عناصر شتى، برغم تعدد المصابيح، وتناثرها على مسافات متقاربة، فإن العتمة مخيمة، طاغية.

متى سيجئ إلى القسم الآخر من المطار ليعبر بوابات العودة! لايدرى..

يبدو الأمد ممتدا، والوحشة غالبة، يجهل ما ينتظره وكأنه يدرك لأول مرة أنه غريب، بعيد، ناء عن كل إلف ، وأنه كان مشمولا برعاية غير منظورة، أما الآن فإنه مجرد من كل ما أحاطه منذ مجيئه إلى العالم، بعيد عن كل ما اعتاد عليه، فى لحظاته الأولى تلك حن إلى صاحب المحل، الخطاط، الطيب، قديم الهجرة، استعاد استغراقه فى اللوحات والحيوية المتدفقة عبر كيانه الضئيل ، إذ يستعيد ذكرياته القديمة، وسعى نظرات عينيه عبر الأيام المولية، عطفه وحنوه عليه، تذكر صمته النهائى فوق المقعد، احتضاره الهادئ الذى شهده بعينيه.. حن إلى أبيه، وصمته المضطر إليه، وقلة حيلته البادية فى الأيام التى يقضيها بطالا بدون عمل.

لم يكن يدرى كيف الوصول إلى المدينة، لم يقترب منه أحد السائقين ليسأله عما إذا كان بحاجة إلى عربة، كأنهم بما لديهم من خبرة يدركون إلى من يتجهون، فى مثل هذه الظروف تعمل الغربة عملها، أنس إذ لمح هؤلاء الثلاثة الذين صحبوه فى الطائرة، ينزلون البلد مثله أول مرة.

الأول قال إنه سائق وميكانيكى، جاء قاصدا أحد أقاربه، لكنه لا يقيم فى ال عاصمة، إنما فى مدينة نائية من مدن الجنوب، لابد من قضاء الليلة هنا، ثم متابعة السفر فى الصباح.

الثانى مهندس زراعى، بدا حريصا عند التعريف بنفسه أن يقرن لقب المهندس باسمه، قرأ وسمع عن المشاريع العديدة هنا، معه رسالة توصية إلى شخصية ذات نفوذ، لا يمكن الإفصاح عنها، تقيم فى الشمال، لابد أن يقضى الليلة هنا ثم يسافر غدا..

الثالث، قال إنه إسكندرانى، جاء ليجرب حظه، ليجمع قرشين، ثم يسافر إلى أى بلد أوروبى، وما هذه البلدة إلا أول محط فى طريقه، معه عنوان مقهى يقصده بعض أبناء بلدته، ضحك، قال إنه قادم وعينه أيضا على النساء هنا، ضحك الإسكندرانى، هذا فى الظاهر، ولكن خفية يحدث ما لايمكن تصوره، والمصريون هنا مرغوبون..

سألوه قال إنه خطاط.

أبدوا شفقة.

وماذا سيعمل الخطاط هنا؟، أى رزق سيجيئه من مهنة كهذه؟ ثم كيف يجيء ولا معارف له؟.

قال إنه سيحاول، فإذا فشل فى العمل كخطاط، يمكنه العمل فى أى مهنة، عندما كان تلميذا عمل شهور الأجازة الصيفية فى ورشة لإصلاح الإطارات..

قال المهندس الزراعيان هذه خطط طويلة النفس، المهم الآن.. وصوله إلى المدينة، مشى فى أثرهم، اقترابه منهم طمأنه، خاصة فى اللحظات الأولى التى يصعب فيها كل أمر، لم تكن هناك عربات عامة تربط المطار بالمدينة، عاد الإسكندرانى ليقول إنه اتفق مع سائق عربة أجرة، وإن هذا هو الحل الوحيد للوصول إلى المدينة، البقاء هنا فيه مخاطر، بلغ نصيبه من أجرة العربة ثلث ما معه، ما جاء به، أى انتقاص من نقوده يدنيه من لحظة حرجة يرهبها ويخشاها لمجرد التفكير فيها، لكن.. ما باليد حيلة، لامفر.

الليل غميق، لا يتيح له رؤية المعالم، تبدو المدينة متوارية، البيوت واطئة، طابق أو طابقان، يلمح حدودها الخارجية، ما من مبان مرتفعة، أعمدة المصابيح متباعدة، تتلألأ القاهرة الآن، تشع بضوء راسخ، السائق يغطى رأسه بطرحه بيضاء، لم

يلفظ حرفا، كما أن أحدهم لم يتكلم، ربما لشعورهم بوجود غريب، مع أن كلا منهم لا يعرف صاحبه إلا منذ دقائق، الطرقات مقفرة على المدى، ميدان السيدة فى أوجه الآن، محلات الفطير ، والكباب، والدخان المتصاعد، وباعة الفاكهة عند النواصى، ورائحة أنس لها لطول ما اعتادها، عبق قادم من عصور متوالية، لا يدرك بالوعى، إنما يحس، لايفسر، ينفذ إلى الوجود اللامرئى، فما أنأى المسافة، ما أصعب الشقة، ما أوعر الوقت!، لسبب ما ألح عليه وجه خديجة جارته، تطلعها المخملى إليه، خفرها، وسنها، وحياؤها الشرعى، أين هى الآن؟، يستعيد ما يحول بينهما، ويعى بقسوة أنه قصى، أنه بعيد!

توقفت العربة أمام الفندق، مرة أخرى شم تلك الرائحةالثقيلة، إنه زخم شهوانى غامض، فيه دهون، وبقايا شواء، دم وقسوة، مدخل الفندق مطل على بداية زقاق ضيق صاعد، أما الشارع الرئيسى فخال، الدكاكين مغلقة، النوافذ لا تشى ، لا تفصح عن أى ضوء، ما من شرفات، الليل لم يوغل بعد، ما من وقوف عند الناصية، ما من مقاه عامرة، غير أن ما لفت نظره، ماأثار انتباهه، ما أخذه عن القفر والوحشة، رؤيته هذا العدد من اللافتات، لافتات قماشية معلقة تصل جانبى الطريق، تتوالى على مسافات متساوية، متقاربة، لافتات ممتدة بعرض الواجهات..

فأل حسن هذا !

ثمة فرصة، بل وكبيرة، العبارات متشابهة، تعلن الترحيب بضيوف المؤتمر الثالث للشرطة العربية.. مؤتمر كهذا تعلق من أجله هذه اللافتات كلها، وأين؟ فى منطقة شعبية لن يعقد فيها اجتماع واحد، ولن يزورها أعضاء المؤتمر بالقطع، ماذا عن منطقة انعقاد المؤتمر ، بل ماذا عن الأعياد والمناسبات، غير أن ما طمأنه ليست هذه اللافتات، بل أخرى تعلن عبارات التأييد والترحيب والتهنئة بعودة زعيم البلاد المفدى من زيارة المنطقة الجنوبية، مجرد عودته إلى العاصمة اقتضى هذا، فكيف الحال عند عودته من الخارج، أو عند احتفاله بمناسبة ما؟، موجات متتابعة من اللافتات، إنها تحمل له البشارة، هذا باب للرزق ومجال فسيح، ما عليه إلا الاستدلال على الطريق المؤدية، أن يقف ببابه، يطرقه طرقا هينا، لطيفا، ثم.. يقرعه بكل ما أوتيه من قدرة ومهارة.

فيما بعد استعاد الليلة الأولى، تمدده فوق حشية مهترئة، إلى جواره رفاق سفره الثلاثة، الحجرة بدون نوافذ، فقط.. فتحة مربعة فى الجدار المطل على الممر، فى الخارج، أمام الغرفة فرشت سجادة بالية، تمدد فوقها رجل سودانى نحيل جدا، طويل، كان يئن طوال الليل، ينبعث منه ضنى مكتوم، وعلامات تعب، وألم حاد.

برغم إرهاقه، تعب السفر وتوتره فى المطار، وحنينه الممض الذى يبلغ مداه فى اللحظات الأولى لبدء الاغتراب، فيتشابه مع

الشـوق الذى ينضـج ويكتمل بعـد طول المدة وتوالـى الفتـرة أثر الفترة، بغم الكمد لم ينم، أيضا بسبب شخير الصحب، وقرص حشـرات غـامـضـة، وحـضـور المكان الغـامض الذى لـم يألفـه، وارتفـاع حـوار حـاد فى الطابق الأول قـرب الفـجـر، إصـغـائه متفحصا لهذه اللهجة غريبة الإيقاع، الخشنة، بسبب كتمة النفس، لم ينم.

لن ينسى الليلة الأولى أبدا!

عند طلوع الصبح أغفى قليلا، غسل وجهه بالماء البارد، لم يكن لديه صابون ولا فى الفندق، عند خروجه إلى الزقاق، ثم إلى الطريق، فوجئ بكثافة الحركة، بالزحام، كأن الشارع نهارا غيره ليلا، أما ضوء النهار فساطع، سماء حادة، قوية السطوع، شديدة القرب، بدأ سعيه مؤجلا إفطاره حتى الحادية عشرة على أن يتناول غداءه فى الخامسة بعد الظهر، هكذا يمكنه توفير وجبة، أفضل الطعام فى ظروف كهذه ما يثقل المعدة ويلكمها، ما تبقى لديه ضئيل، وهو غريب، وحيد، بعد تفرق من تعرف بهم، راح كل منهم إلى حاله، دله المهندس الزراعى، قبل سفره إلى الشمال - على مقهى قريب يلتقى فيه المصريون، مقصد من يبحث عن عمل، أو وظيفة، أو عون.. برغم قلقه وتخوفه من اقتراب المساء، من قدوم الغد، أو بعد الغد وهو على حاله، إلا أنه لم يكف عن قراءة اللافتات، ورصد كثافتها، وضح وثبت أن كل متجر صغر أو كبر، كل مصلحة أو منشأة تعلق عددا من اللافتات ، واحدة للترحيب عند المدخل، وأخرى بعرض الطريق لتأييد زعيم البلاد أو إبراز جملة من مأثور قوله..

لن ينسى يومه الأول أبدا، وحشته وغربته، فالبدايات لاتغيب عن الذهن، وما يليها تندغم تفاصيله، وربما يقضى الإنسان حولا كاملا فى مدينة، وإذ ينقضى الزمن، لا يعلق بوعيه الا يوم الوصول، ويوم المغادرة، وبدايات أهم ما مر به والنهايات، هكذا عرف المقهى، حيث يفد أبناء موطنه، عرف الانتظار، والقعدات الطويلة، وشرود الفكر وتيه النظر، والمشاركة فى حوارات لا تعنيه، الاقتراب ممن لا يعرفهم، الإصغاء إلى وعود مبهمة ، التطلع إلى ما سينطقه مجهولا عنه، البعض أبدى شهامة، وتعاطف وصادق رغبة فى المعونة، فمنهم من أقرضه، ومنهم من أسدى إليه نصحا لأنه سبقه المجئ إلى تلك الديار وخبر أحوالها، ومنهم من اقتسم معه لقمة وغموسا هينا، أحدهم دله، بل توسط له عند صاحب مقهى آخر قديم، هكذا شاء حظه أن تكون البداية من مقهى.

إنه مقهى عتيق، يقع بأرض خلاء، مبناه على الطراز القديم، تحيطه حديقة أشجارها قصيرة، تتوزع فيها دكك خشبية بيضاء، يقعد فوقها بعض الرواد صامتين، يحملقون إلى الفراغ، وفى الأغلب الأعم لا يتحدثون، يشربون الشاى، يدخنون النرجيلة، وشبان يلعبون الورق قرب الطريق، وقلة من أجانب يعملون فى البلاد، يجيئون للفرجة على أدوات الشاى التى تنقرض من سائر المقاهى الأخرى، وفناجين القهوة العربية، والنرجيلات، وأثاث خشبى من بقايا بيوت اندثرت،

صاحب المقهى بدين، يقعد فوق دكة مرتفعة، يدخن نرجيلة نحيلة، لا يقربها إلا هو، وعاؤها زجاجى من كريستال ملون، منمنم، أنثوية المظهر، تمباكها غزير، جمرها شديد، أما «اللى» فطويل ينتهى بمبسم عاجى لا يفارق فمه، يظل على مقربة من شفتيه إذا نادى أو تحدث، بين الحين والحين يزعق:

ـ «ولد..»

لا يسبق نداءه بحرفى «يا»، حتى إذا ما لبى أحدهم أشار صامتا إلى الجمر الموشك على همود، يتابع ما حوله صامتا فإذا غربت الشمس فارق مقعده، انتقل متمهلا إلى الجهة المطلة على الحديقة المتسعة، واستقر فى مقعد من خيزران علي مقربة من الأشجارالعتيقة.

كان يرقب نزول صاحب المقهى من فوق دكته، يبدو خفيفا فى سعيه، رغم ضخامته، وجهه خلو من أى علامات ضيق نتيجة قعاده الطويل وانثناء ساقيه تحته، لم يتصور أنه قادر على اتخاذ هذا الوضع لعشر دقائق فقط، يعجب من سهولة انتقاله من وضع الثبات إلى الحركة، بعد لحظات من استقراره فى مكانه الغروبى، يرتفع صوته على مهل، غناء غميق، بالغ الحزن، حزن مخدوش، أساه بعيد الأغوار، سحيق، يتحلق حوله بعض من رواد المقهى، يصغون صامتين، يبدون تأثرهم، غير أنه يبدو قصيا، هو فى ناحية، ومستمعوه فى ناحية أخرى، لو انصرفوا أجمعين لا يكف ولا يتوقف، وربما تزايد جمعهم،

وتعاظم شجوهم، وفى غمرة الترقرق والانفعال يكف فجأة، يميل رأسه حتى تلامس ذقنه صدره، عندئذ لا يمكن لإلحاح أو رجاء أو قوة أيا كانت أن تدفعه إلى استئناف الغناء، عرف عنه هيامه بأم كلثوم، وحفظه لأدوارها وأغنياتها القديمة، وجمعه لأسطوانات نادرة صار العثور عليها صعبا، حتى أن إذاعة البلاد استعارتها منه لتسجيل ما تتضمنه، لم يأمن.. فحمل أسطواناته مضمومة إلى صدره كالوليد، وانتظر قلقا حتى انتهاء النقل والتسجيل، أما إذا تحدث عنها فيلزم الإصغاء إليه، وهو يصف صوتها، وطبقاته، ودرجاته، وكمون نبوغه، ويقال إن له ألحانا لم يطلع عليها أحد قط.

فى الثامنة ينصرف القوم، غير مسموح بالسهر بعد الثامنة واثنتى عشرة دقيقة، قبل الموعد تطفأ نار الركوة، تجمع النراجيل، تصف فوق الطاولة الرخامية، يتابع صاحب المقهى الحركة بعينين قلقتين، مع اقتراب الموعد يمد الخطى، بينما تتباعد ذراعاه السمينتان، يتطلع إلى الساعة المعلقة إلى الجدار، إلى ساعة معصمة، لابد من إقفال الابواب تمام الثامنة واثنتى عشرة دقيقة.

فى المقهى خمسة عمال، أربعة مصريون، وخامس يمنى، يستوثق من وجودهم، يدخلهم المبنى، يدفع مصراعى الباب الرئيسى، يؤكد أنه كان باب القصر الكبير فى الزمن العثمانى، وأنه اشتراه بدراهم معدودات عند بيع أنقاض قصر أقامت فيه

زمنا إحدى العائلات المتنفذة التى صالت وجالت زمنا، ثم تفرق شمل أفرادها، ولم يعد يقيم منهم شخص واحد فى البلاد بعد هجرتهم واحدا اثر الآخر، يخرج من ثنايا صديريته مفتاحا كبيرا يديره ثلاث مرات، له طرقعة وضجيج، يدفع الباب بكتفه حتى إذا اطمأن انصرف مبتعدا، هذا شرطه حتى يناموا فى المقهى، النوم هنا يوفر لهم أجرة المبيت فى الفندق، كان باستطاعته الاستحمام فى دورة المياه، أن يطبخ مع صحبه أيضا، أحدهم شاب قصير القامة، كبير الرأس، تجاوز العشرين بعامين، صعيدى، ولد وعاش فى قرية قريبة من بنى سويف، أبوه فلاح أجير، يعمل بالكراء فى أراضى الآخرين، رزقه يوم بيوم، غير أنه جاهد وثابر، وادخر من قليله حتى تخرج ابنه فى مدرسة الصنائع، آثر الابن أن يعوض حرمان والديه وتعبهما وضناهما الطويل من أجله خيرا، فسعى، ادخر، واقترض، حتى اغترب ليجمع قرشين ويرجع فيريح أباه من شقائه الصعب، كان ينوى بمجرد نزوله مصر شراء سرير لوالديه، ناما عمرهما كله فوق الارض، إنه صموت، حيى، هادئ، لا ينطق إلا إذا سئل، وفى غير أوقات العمل يتمدد محملقا إلى السقف، يؤدى أى عمل يطلب منه، عنده صبر، وجلد، برغم سكونه، فإنه إذا بدأ الحديث عن قريته، عن والديه، فان صوته يترقرق، وملامحه تحن، يكتب خطابات عديدة يشيعها إلى والده، وإذ يتلقى خطابا من مصر ينفرد بنفسه، يقرأه مرات، ثم ينتابه نشاط، يروح ويجىء، يقبل على خدمة الكل، وقد يلوح بيده إلى السماء مخاطبا من يقابله عرضا.

ـ «الحمد لله.. الوالدان بخير!»

إنه أقربهم اليه، كلما أصغى إليه يتحدث أو يخبر عن والديه فكأنه يردد ماعنده، كأنه عنه يكنى، وإياه يعنى، يناديه باسما، «يابنى سويف..»

إنه الأمهر فى الطبخ، يشترون الخضار خلسة، كذا اللحم، يخفونه داخل المقهى بعناية، حتى إذا انصرف المعلم نشطوا، بدأوا فى إعداد طعامهم، يدبرون نارا، يوقدونها بطرق شتى، يخفون وقيدها ولهيبها، لو لمح أحد جنود الدورية ضوءا داخل المقهى لوقعت أمور لا يدرى عاقبتها أو مداها، عند الطرف الاخر من الحديقة، فى مواجهة المقهى يقع مقر عظيم من عظماء البلاد، مقرب لزعيمها المفدى، ويقال إنه يجىء ليقضى بعضا من وقته فى هذا القصر، يتخفف فيه من مسئولياته الجسام، ويتبسط، ويلعب رياضته المفضلة، التنس، أوقات تردده غير معروفة، مجهولة، عربات الدورية المسلحة لا تكف عن الرواح والمجىء ليلا ونهارا، أحيانا يتطلعون إلى أسواره البادية، ماذا يجرى هناك؟ ربما يكون موجودا الآن، لكن لا يعلق أحدهم، ولا يلفظ تعليقا أو دعابة، فقط عندما يغلق عليهم باب المقهى، ينعزلون تماما عن الخارج، حتى إذا جاء أحدهم بسيرته خفض من صوته، وتحوطا لا يذكرونه باسمه، بل أطلقوا عليه اسم فريد شوقى الممثل الشهير، إن حذرهم لشديد، فالأحوال هنا غير ما عهدوا، وما عرفوا من قبل، إن

تآلفا ومودة يسودانهم عند إعداد الطعام، عند القعاد لتناوله، إذ يوغل الليل يتمدد كل منهم على دكة خشبية مغطاة بالحصر، الحصر مستطيلة، تترك الحز أثر الحز فى الضلوع، غير أن العادة تهون، تخفف من كل شىء، يطوى الواحد منهم ملابسه تحت رأسه كوسادة، المشكلة فى الأيام الباردة، فثمة نافذة علوية مكسورة، وما من غطاء، إنهم يقربون الدكك من بعضها، ويوقدون الجمر لفترة، أما ليالى الحر فمقدور عليها، أمرها هين.

لا يبدأ العمل قبل العاشرة صباحا، دائما يستدعى زحام المقاهى القاهرية فى شتى ساعات النهار، تفتح أبوابها مع بدايات النهار، تفيض أنسا وحيوية، وكثيرون ممن عرفهم لا يمضون إلى أشغالهم قبل أن يمروا بـ «الاصطباحة» يشربون الشاى، وقد يتناولون الإفطار، بعضهم يدخن متمهلا ثم يمضون إلى سعيهم، لا.. المقهى القاهرى ونسة وألفة، هنا رواد المقاهى قلة نهارا، فى العصر يبلغ الزحام ذروته، لكل منهم مهمة محدودة فى المقهى، ما وقع على عاتقه منذ اليوم الأول، حمل أبريق نحاسى مملوء بالماء المثلج، وثلاثة أكواب معدنية، يطوف الصالة الداخلية والساحة الخارجية، ينادى:

ـ « مَىْ.. مَىْ..»

إذ يصيح أحدهم

ـ «ولد..»

يلبى، يبدو النداء خشنا، جافا، فيه صيغة الأمر واضحة، فجة، تعلم ألا يبدى ماعنده، أن يكتم حتى خلوته الليلية، الوحيد الذى خيل إليه أن ثمة تقاربا نشأ عنده تجاهه، صاحب المقهى، ربما لصمته، لهدوئه الكثيف، والأهم.. ميله وحبه الغناء، وصوته الغريب الذى يختزل أحزانا بعيدة، موغلة، غير أن وصل حبل الود بينهما كان أمرا صعبا، حوارهما يكاد يكون منعدما والرجاء مقلع دائما من المكان، استمر الأمر هكذا حتى عصر ذلك اليوم الذى لم ينسه قط.. رآه يفك القفل الصغير الذى يمسك به قرص الهاتف منعا لاستخدامه أثناء غيابه، إنه نادرا ما يتحدث عبر الهاتف، وإذا تحدث فإن صوته المرتفع يسمع من أركان المقهى، لم يكن يجيب هذا العصر إلا بغمغمات وإيماءات، وعندما انتهى بدا مغتما ثقيل الحركة، لم يأو إلى مكانه الذى اعتاد ملازمته عند المدخل، إنما طاف الساحة، واستند مرة أو مرتين إلى الباب الرئيسى، تحدث بسرعة إلى بعض الجالسين، واضح أنه يستفسر عن أمر ما، وما من أحد يجيبه، إذ كان يرتد أكثر هما، لم يكن قادرا على متابعته، إذ عليه أن يتحرك هنا وهناك ليلبى طلبات الظامئين، القيظ وعر، حر الديار شديد، أثناء مروره بالناحية المواجهة للنهر فوجىء بزميله البنى سويفى، الصعيدى، الصامت، يناديه، ماذا جرى؟، خشى أن يكون اضطراب المعلم له صلة بأحدهم، وأنه سينعكس عليهم، لا شىء يثبت هنا، وكل أذى متوقع، دائما ينتظر الضرر، غير أن البنى سويفى مبتسم، إن

وجهه يبدو طفوليا عند انفراج ملامحه، قال:

- «ابسط يا عم، الفرصة جاءتك لغاية عندك.»

دنا منه مبتهجا، قال هامسا إن أحدهم فيما يبدو كتب تقريرا فى صاحب المقهى، نبه فيه إلى خلو المقهى من لافتات التأييد، لا توجد إلا لافتة بالية قديمة، تهنئ زعيم البلاد المفدى بالعام الجديد، أى عام؟ هذا مثير طبعا للسخرية، اللافتة مضى عليها ثلاثة أو أربعة أعوام، أى عام جديد هذا ؟ مقهى كهذا يقع فى مواجهة مكان يتردد عليه «المفدى » يجب أن يعوم فى لافتات لا حصر لها ربما تطلع الزعيم من الجانب الآخر للحديقة، ماذا سيجرى إذ يلحظ خلو المقهى، المبنى الوحيد فى الناحية خال من أية لافتة ؟، أما الصورة الكبيرة المعلقة عند المدخل والتى رسمها فنان معروف مقابل مبلغ كبير من المال فلم تشفع ولم تخفف، باختصار.. صاحب المقهى فى موقف حرج، اللافتات يجب أن تعلق فى أسرع وقت، الخطاط المعروف هنا داخل المدينة، مشغول للغاية، ولن يفرغ من المطلوب قبل شهر، إن المعلم فى موقف فظيع ، يخشى وصول خطاب اعتقال مفاجئ إليه.

إن اعتقال الخلق هنا لا يتم فجأة، لا يداهم رجال الشرطة منزل المقصود فجرا، لا يذهب إليه أحد، إنما يرسل خطاب فيه قرار القبض، ويتم تحديد موعد بعد أسبوع، بعد شهر، بعد سنة، وفى الموعد المعين لابد من الذهاب إلى الجهة المحددة

وتسليم النفس وإلا لحق الأذى بكل من يمت إليه بصلة، حدث أن تلقى صاحب متجر فى السوق القديم خطابا، تحدد فيه اعتقاله بعد شهر، انتاب الرجل رعب جسيم، ماذا فعل، ماذا جنى؟ انفض عنه كل قريب، وصار إذا ألقى السلام لا يجاوبه أحد، إذا سعى فى الطرقات يبتعد عنه الناس، يتحاشونه، سعى الى جهات شتى، لم يجاوبه أحد، مضى إلى المركز المحدد لتسليم نفسه قبل الموعد المقرر، لكنهم رفضوا اعتقاله، أخبروه بضرورة الحضور فى الموعد المحدد بالخطاب، ألا يتخلف عنه، تملكه كرب كمن يعرف تاريخ موته مقدما، عاف الطعام، وهجره المنام، بدأ يذوى، وقبل الموعد بيومين مال رأسه على صدره ولم يعتدل قط، لم يعرف القوم بموته إلا عند مجىء الليل، لحظة إغلاق المتاجر كلها، حتى بعد اكتشاف أمره هاب القوم الاقتراب، فأبلغوا ومضوا، إن المعلم يرتعد خوفا..

قال البنى سويفى:

- «فرصتك هذه.. أمض إليه الآن..»

ضحك صاحب المقهى، قال:

- «يا رجل.. ولماذا لم تقل منذ البداية؟»

قال إنه خاف ألا يلحقه بالعمل لو أفصح عن مهنته.أوشك المعلم أن يقول شيئا، غير أنه عبس مرة أخرى..

- «ما الأمر؟»

الأسواق..

الأسـواق أغلقت الآن، من أين لـهم بالقـمــاش والأحـبــار والأقلام ، تساءل:

ـ ألا يوجد فى البيت قماش؟ ملاءات سرير بيضـاء حتى، ستائر، القماش أهم مافى الموضوع..

قال المعلم:

ـ هذا ممكن.. لكن الحبر..

ـ الحبر الموجود فى البيت أسود، يكتب به الأولاد، هذا لون ممنوع الكتابة به.

ـ لكن الصيدليات لاتغلق مبكرا..

تطلع، آهة ارتياح طويلة..

ـ «آه منكم يامصريين.. عفاريت، والله عفاريت».

أمـا الاقـلام فـأمـرها سـهل، مـا أكـثـر الـخـشب هنـا، يمكن تسـويتـه بالمقـادير المطلوبة، هرع المعلـم إلى بيتـه، لـم يمض إلى قعدته الغروبية هذا المساء، أما هو فمضى ليخبر زملاءه، بدوا مبتهجين، ما سيتم سيرفع أقدارهم فى نظر صاحب المقهى، مضى إلى الخشب يبحث عن قطعة مناسبة، الثانى مضى إلى حيث خبأ السكين، يقطعون به اللحم ليلا، ويقشرون البطاطس، والبـاذنجـان، الثـالث قـرب منضـدتين مـتسـاويتى الارتفـاع،

ضمهما، وضعهما عند الناحية المواجهة للمقر، هنا يقل عدد المترددين، لا يفضلون الجلوس على مرأى من مقر هذا العظيم، يجلسون بعيدا، مديرين ظهورهم له، ربما لكراهية يضمرونها، ربما لخوف، لخشية، الدوريات لا تكف عن المرور، لو حملق أحدهم تجاه القصر، لو شردت النظرات، لو علقت، ربما أسيء تفسير الأمر، قال أحدهم:

ـ «أين ذلك من القعاد أمام النيل؟».

المصابيح القوية تضاء قبل اكتمال الغروب، راح يبرى قطعة خشب، يسويها، يرفعها فى اتجاه الضوء، عند حد معين بدا راضيا، جاء المعلم لاهثا، عرقه غزير، يمسح عنقه وجبهته بمنديل كبير، تطلع متفحصا، كل شئ فى موضعه، القلم، أدوية معالجة الجروح، حمراء، صفراء، بسط القماش الأبيض الذى كان فى الأصل ثلاث ملاءات تفرش الأسرة.

هل يصلح القماش؟.

طبعا.. القماش ملائم..

عند الثامنة وعشر دقائق، قبل موعد الإغلاق الرسمى، تم تعليق لافتة بعرض المدخل، الخط الأبيض، الخط الأنيق، ضخم يقرأ من مسافة بعيدة:

«مقهى الزمن القديم يحيى ويؤيد الزعيم المفدى».

علق بصر صاحب المقهى باللافتة، دار حولها، وتأمل من

جهات مختلفة، عاد إلى صمته، إلا أنه بدا راضيا، مرتاح البال، وإن لاح إنهاك خفى بين ملامحه، وفى خطوه، بعد أن أغلق الباب عليهم تابعوه من خلف زجاج النافذة الجانبية المستطيلة، كأنه تقدم فى العمر فجأة، شأن من تعرض لمأزق عظيم وجاءه الفرج فى اللحظة الأخيرة .. استمر واقفا عند المدخل الخارجى، رافعا وجهه صوب اللافتة، ثم استدار متمهلا، يداه وراء ظهره متماستان، مضى تلفه الظلال والعتمة.

فى اليوم التالى لم يوزع الماء المثلج، إنما قعد فى الساحة الخلفية يرتب ما اشتراه صباح اليوم من الأسواق، قماش اللافتات، الأحبار، الأقلام، الفرش، الألوان، عدد من الرواد أبدوا إعجابهم بما فوجئوا به معلقا فوق رءوسهم، فى كل يوم يجيئون ليجدوا أن لافتة قد أضيفت، تحمل عبارة من أقوال المفدى، أو جملة ترحيب به، أو تأييدا، أو دعاء بالنصر، ماجذب الأنظار وشد الانتباه، تنوع اللافتات، فواحدة من قماش أبيض، وأخرى من قماش أخضر، أما ما أوقف العابر، وأثار الإعجاب، ما كان سببا فى قيام المسئول الثورى للناحية بزيارة المقهى فيما بعد، ومجىء عدد من الصحفيين والمصورين، فتلك التى امتدت بطول الباب القديم، جملة من أقوال الزعيم، لكنها صيغت فى خطوط متداخلة، متصلة، منفرجة، بحيث يتشكل منها وجه لا يمكن للناظر إليه أن يخطئ ملامحه. لأيام متتالية لم يكف صاحب المقهى عن الشرح، والإشارة إلى الحروف، وتفسير ماغمض منها، يزهو، يُتباهى، يمكن القول إنه راض

الآن، آمن.. وعندما جاء مسئول الناحية، طاف به، أشار إلى اللافتات، أفاض فى الشرح، هز المسئول رأسه مرات وهو يتأمل اللوحة والحروف العربية التى تحدد ملامح الزعيم فى تشكيل جمالى بديع، قال إنه سيرفع تقريرا إلى هيئة الإعلام لعمل الدعاية اللازمة، لكن.. على وجه السرعة مطلوب عشرون لوحة أخرى مماثلة.

يمكن القول إن هذا كان بداية حظه، وطلوع سعده، وإشراق نجمه، وثباته فى الغربة.

جاء وفد إذاعى، أجرى حوارا مع صاحب المقهى، تبعه آخر تليفزيونى، ضرب المذيع باللوحة المثل على طاقات الحب الكامنة فى قلوب الشعب الطيب الأصيل تجاه قائده المظفر.

لم يتحدث إليه أحد، ولم يدعه صاحب المقهى لمقابلة الزوار المعجبين، ولو أن مبدع اللوحة واحد من أهل هذه الديار، لتغير الأمر، ومضت الأحوال إلى مسار مغاير، إلا أن صيته ذاع، وأمره انتشر، توافد عليه بعض من رواد المقهى، وأصحاب المتاجر، وعربات النقل، طلبوا لافتات مماثلة، إلا أنه أبدع فنوع فبهر الآخرين، تزايد حجم عمله، وأصبحت المساحة الخلفية القريبة من الحديقة تخصه تقريبا، بدأ صاحب المقهى راضيا، متقبلا، إلا أن الأمور لا تظل كما هى، والأحوال لا تثبت، والظروف مهما طالت موقوتة، لها انتهاء ، ولو لم تكن نهاية لما كانت بداية أصلا، فبعد اتساع عمله وجريان الرزق بين يديه،

وقضائه خمس عشرة ساعة يوميا منكبا، تزايدت حاجته إلى مكان يخصه، يريح فيه جسده، أما هذا الحصير فيحدث علامات فى جلده، وآلاما فى عظامه، والأدهى ذلك المكان المغلق. لم يعد يطيقه، لم يعد قادر أن يغفو فى موضع لا يقدر على فتح بابه، لم يطل الوقت، حانت اللحظة التى يفارق فيها المقهى، حاول المعلم أن يستبقيه، ولما أدرك أنه الفراق، رجاه أن يزوره من حين إلى حين، بدأ المعلم رقيقا، طيبا، مترقرق الصوت، قال إنه اعتبره كابنه، وإنه لن ينسى أبدا جميله تجاهه، يعلم الله كم هو مدين له، وعندما تلاقت نظراتهما فى لحظة وداعية، أيقن أن هذا الرجل يخفى أكثر مما يظهر، يبطن ولا يبوح، عانق صحبه، زملاء المقهى، أوصاهم بالتردد عليه، وعدم الانقطاع، خاصة البنى سويفى!.

اتخذ مسكنا قرب الشارع الرئيسى، فيه حمام، حمام يخصه هو، مسكن محكم، خلو من تيارات الهواء الباردة التى كانت تشق فراغ المقهى مصدرها مجهول، بيت يمكنه الدخول إليه والخروج منه عندما يشاء، إذا أراد المشى عاريا مشى، وإذارغب التمدد حينما شاء تمدد، به شرفة يمكنه الوقوف بها والنظر إلى الطريق إذا ماكلت عيناه، راج أمره فى المدنية كلها، بل جاءه نفر من مدن قريبة، بعضهم من ذوى المكانة، رجوه، ألحوا عليه لسرعة إتمام لافتاتهم، عرف الطريق إلى المصرف، أصبح من المخاطرة الاحتفاظ بما يدخره فى البيت.

إنه يعمل بدون انقطاع طوال أيام الأسبوع، لكنه بعد توالى عدة أسابيع مرهقة خصص بعد ظهر الخميس لراحته، يرتدى ملابسه، يمضى إلى قلب المدينة، إلى السوق التجارى المغطى، حيث يمكن للنساء أن يمشين على مهل، تثيره نظراتهن الخلسى، الشبقة، أحيانا يقتفى خطى إحداهن، يتلقى بحواسه الأزيز الخفى، يدخر اهتزاز القوام، ونحولة الخصر وترجرج الأرداف لخلوته الليلية، فيستعيد متمهلا متلذذا، مبطئا مايراه أو متوقفا عند صدى نظرة متخمرة، داعية له، متخذة طريقها إليه فى الزحام، أما إذا بلغ الزحام النادر حدا مكنه من مس جسد إحداهن، أو الاقتراب من مشارف الرائحة الخاصة.. فإن ذلك يشعل لياليه، يؤرقه، ولا يفلح جهده فى إرواء ذاته بذاته!

يوم الخميس أيضا اعتاد المضى إلى أحد المطاعم، يأكل لحما أو دجاجا، ثم يرجع فى ساعة متأخرة، يصغى إلى المذياع، يدير مؤشر الجهاز الصغير، القوى:

ـ «هنا القاهرة...»

لتكرار الإصغاء يعرف الآن أصوات المذيعات والمذيعين، ومواعيد عملهم، أحيانا يسمع على البعد حفيف الأوراق التى يقرأ منها المذيع الأخبار، تتدفق عندئذ الصور، مبنى الإذاعة المطل على النيل، القوارب، والجسور، ويمضى شارع فى أثر شارع، وناصية بعد الأخرى، وبيوت لم ينس واجهاتها، حارات لم تبهت روائحها عنده، ودكاكين لها مغزى ومعنى عنده، حتى يتوقف عند مسجد أحمد بن طولون، يمضى متمهلا إلى

الحارة، إلى البيت، وإذ تطالعه قعدة أمه عند المدخل، تتطلع إلى منحنى الحارة، مترقبة، منتظرة، إذ يراها ولا تراه، يرقب هيئتها ولا تلمحه، إذ يرصد الحزن القديم، يقوم قاعدا فى فراشه، يدرك بحدة أنه بعيد، قصى، يحصى ما تبقى من شهور على التاريخ الذى حدده لعودته فى أجازة، لن يطول به المقام فهو غريب، لكنها الضرورة والرغبة فى تدبير الأمر.. فى مثل هذه الليالى يغفو وعنده رغبة فى هجاج، أما كبده فينز حنينا، إنه يصحو وعنده غم، وميل قوى لاستئناف النوم، إلا أنه يتذكر ما التزم به فيفارق السرير كدرا، عبوسا، حتى إذا قعد إلى أقلامه وألوانه استغرق شيئا فشيئا، مفكرا فى محاسن حاله، إنه لا يعمل عند أحد، لا يضطر إلى الذهاب هنا أو هناك، أما ما يتقنه فندر من يعرف مثله، وهذا يضفى عليه قوة.

العمل كثير، والمناسبات متوالية هنا، محورها زعيم البلاد المفدى، مناسبات عارضة، وأخرى ثابتة، أما العارض فافتتاح سيادته لمشروع جديد، أو منطقة سكنية، أو محطة كهرباء، أو مقر جديد لوزارة، أو زيارة إلى إحدى نواحى البلاد، أو زيارة إلى دولة أخرى، وهذه الزيارات الخارجية تقتضى عملا نشطا، فلافتات تودعه عند رحيله الميمون، وأخرى تستقبله عند عودته المظفرة، أما المناسبات الثابتة فمعروف تواريخها، يجرى إعداد العدة لها مقدما، فمنها حلول شهر رمضان المبارك، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى، وليلة النصف من شعبان، وعيد رأس

السنة الهجرية، أما هلول عيد ميلاده فأوسع الاحتفالات وأشدها، إنه موسم العمل بلا كلل، ويباع قماش اللافتات الأبيض بأربعة أضعاف سعره فى السوق السوداء، يحتاط له القوم ويحتاطون منه، يحتاطون له بإعداد كل منهم لافتة جميلة، ويحتاطون منه بتدبير قماش ملابسهم الصيفية أو الشتوية قبلة بوقت كاف، لا ينسى أحد عندما شح قماش الدمور والبفتة والدبلان وسائر المنسوجات القطنية السادة والملونة، حتى لم يبق فى المخازن متر واحد يكفى لتفصيل قميص لطفل، كما أنهم يدخرون أيضا البيض والدقيق واللبن، خاصة البيض، فعند ذروة الاحتفال بالعيد تعد الكعكات وتوقد الشموع، كعكة العاصمة، وكعكة فى كل مقاطعة، وأخرى فى كل مدينة، ومحلة، والحق أن اطلاق كلمة كعكة إنما من قبيل المجاز، فكعكة العاصمة مثلا يبلغ قطرها عشرين مترا، وارتفاعها ثمانية، وقيل عشرة، ويجرى إعدادها فى وسط الملعب الرياضى الكبير، وعند إطفاء الشموع هائلة الحجم المستوردة والمصنوعة خصيصا طبقا لمواصفات معينة تجيء عربات المطافئ من فرقة العاصمة وضواحيها، مزينة بصور سيادته، مكللة بالزهور، وتنصب السلالم فى أوضاع محسوبة، وفى اللحظة المحددة يتم تسليط أجهزة خاصة، تطفئ النيران المتصاعدة، ويكون هذا إيذانا بإطفاء الشموع فى المدن الأخرى، وأمام بيوت العائلات التى يخرج أفرادها كلهم حتى البنات من خدورهن، والأطفال على آباط أمهاتهن، لا يتخلف عجوز أو صغير، ويتحلقون أمام مداخل البيوت حول الكعكات، وبعد إطفاء

الشموع تجرى الرقصات ويبدأ الغناء فى الشوارع وتنطلق الأهازيج ولا يتوقف الأمر إلا بعد طواف المراقبين التابعين للهيئة السياسية واللجان الثورية، حتى يرصدوا من تغيب، أو من يشارك بغير حماس، قيل بين القوم إن كعكة العاصمة وحدها تستهلك عدة آلاف من البيض، وأن القشر المتخلف بعد تطقيشه يملأ عشرات السيارات، وينشئ جبلا صغيرا فى كيمان القمامة خارج المدينة، وهذا من أعجب ما سمعه وعاينه.

عيد ميلاد المفدى ذروة المناسبات، ولكن ثمة أخرى تتوالى، عيد تسلمه السلطة، وانتصاره على خصومه، وعيد قيامه بالحركة التصحيحية الأولى، ثم الانتفاضة المباركة، وعيد إعلانه الثورة التعليمية، والثورة الصناعية، والثورة الزراعية، والثورة الثقافية الثانية، والثالثة، وعيد ظهور أول مؤلفاته، وعيد شفائه من المرض، وعيد سباحته فى البركة الصناعية، وجريه فى السهل ، وعيد تهديده القوى العظمى!.

أما الأيام الثوابت فمرتبطة كلها بحياته، فمن ذلك الثالث من سبتمبر الذى شهد قيادته للمظاهرة الطلابية الكبرى عندما كان تلميذا فى المرحلة الأولى، والرابع من أبريل، والسادس من مايو، والتاسع من نوفمبر، والرابع عشر من يناير - وكان الثالث عشر فى الأصل إلا أنه قدم يوما لتشاؤمه من الرقم - أما الرابع عشر من يونية فهو عيد إعلان المرسوم الشعبى بألا يطلق اسمه المفدى على أى مولود، فالبلاد كلها لم تنجب إلا

شخصا واحدا يحمل الاسم الذى لا يذكر مجردا، ومثله لا يمكن أن يتكرر !.

لقد دون هذه التواريخ فى مفكرته، وأحصاها، حتى يرتب ظروفه، كما أنه استقصى حذرا إمكانية سراء كميات هائلة من القماش وتخزينه عنده على الرغم أن هذا لا يعد مخالفا أو معوقا للهدف، فمن الشائع، الثابت، أن أى شخص يقوم على تخزين البيض أو السكر أو الدقيق أو القماش يعاقب باعتباره عدوا للشعب ولسيادته، لكنه هو يحتفظ بالقماش اللازم حتى يلبى طلبات الناس فى الوقت المناسب، خاصة أن المفاجآت عديدة، فجأة تنطلق مظاهرات تأييد أو شجب، تأييد الزعيم، أو شجب الخونة والعملاء والمأجورين، أو شجب سياسة قطر مجاور، أو بلد آخر، هذه المظاهرات يلزمها عدد لا حصر له من اللافتات ، لابد من تجهيزها على وجه السرعة، ربما ألقى سيادته خطابا مفاجئا، أو أدلى بحديث مطول إلى صحفى أجنبى، عندئذ تغمر الشوارع لافتات تؤيد كل عبارة وردت، أو تبرز بعض الأقوال المعينة.

كان أثناء انهماكه يحاول تخيل أولئك المجهولين الذين يؤيدهم، أو يشجبهم، أو تلك الزمرة العميلة التى يبارك استئصالها، يتساءل.. من أفرادها؟ أى شجاعة دفعتهم إلى التحدى؟، ولأن زعيم البلاد المفدى هو المحور والركيزة، أصبح يشعر أنه قريب منه، وأن علاقة لها خصوصية تربطه به، ليس

الولاء، ليس الحب أو الكراهية، صلة عجيبة بمقدار مافيها من رهبة، بقدر احتوائها على تهكم دفين، وإدراك لخبايا الملعوب.

ستة شهور انقضت، تعاظم خلالها حجم العمل، حتى لم يعد قادرا على ملاحقة وتلبية الطلبات، الثابت منها أو المتغير، المعروف أو المجهول، فى بداية الشهر السابع أتاه زميله القديم فى المقهى، البنى سويفى بشابين، أحدهما خريج زراعة، والثانى خريج مدرسة الفنون والصنائع، داخ كل منهما فى البحث عن عمل وحفيت قدماه، عندهما هواية للخط، لكن تنقصهما الدراية، صبر عليهما أياما حتى أصبح ممكنا له الاعتماد عليهما، فك ضائقتهما وأقرضهما مالا يخصم فيما بعد من أجرهما، وأبدى معهما أنواعا من الشهامة والجدعنة، ومن ناحيتهما بذل كل منهما أقصى الجهد ليعطى أفضل ماعنده، بعد أسابيع انضم إليه ثلاثة آخرون، صار من يعمل معه خمسة، هكذا تيسر أمره للغاية، وراج حاله جدا، بدت أيام المقهى نائية، بعيدة على قربها، يعجب.. كيف احتمل النوم على خشب الدكك والمبيت فى مكان مغلق كالسجن؟، إنه يكتب الآن خطابات أقل، ويتلقى أكثر، تتباعد نوبات حنينه وإن لم تخف حدتها، كما أنه لم يتخلف قط عن تحويل المبلغ الذى خصصه لأسرته، ومع أى مسافر يثق به يرسل قماشا وحلوى، وبعضا مما تيسر، كذا بعض الهدايا الصغيرة للجيران، بل أرسل عباءة صوف إلى صاحب المقهى الذى حن عليه يوما، غير أنه لم يذكر خديجة فى رسائله، وتذكر أنها بنت حلال وأصيلة، لم

يخف عليه التلميح وإن تجاهل الرد أو الإشارة، تيسرت أحواله ولانت ظروفه أيضا، ولرقة طبعه ودماثة خلقه ومهارته فى صنعته، تعرف إلى عدد من ذوى الحيثية والمكانة بعد ترددهم عليه، وطلبهم لافتات جديدة، أو التوصيات على لوحات ذات مواصفات خاصة تعلق فى السرادقات أو فى الطريق الذى يسلكه الزعيم ، مكنته علاقاته تلك من التوسط لدى بعضهم لإيجاد عمل لبعض من تعرف بهم أثناء تردده على المقهى القديم، أحيانا يمد هذا أو ذاك بمبالغ صغيرة لتجهيز أنفسهم بمتطلبات الاعمال التى سيلتحقون بها، كما كان يساهم بالنصيب الاكبر فى تكاليف شحن جثمان من يلقى حتفه هنا، يقول لمن معه، المصرى لا يدفن إلا فى أرضه، ومما أثر فيه هذا التسابق الذى يلقاه من عمال فقراء، لا يدرون ماذا سيكسبون غدا، لكنهم هم البادئون دائما بجمع ماتيسر لإغاثة من لحقته ضيقة، أو نزلت به محنة، أو عسرت أحواله ، أو وافاه أجل لا مفر منه، كان لايتردد أبدا، وبالجملة فإنه صار مشكور السيرة محمود الخصال، رائج السمعة الحسنة، بين أهل بلده، وأبناء تلك الديار، وبمضى المدة صار هناك سبب آخر لهدوء أحواله، واستقرار نفسه، وترطيب أيامه، وتلطيف وجوده هنا وتثبيته، ذلك أنه تعرف ببنية جميلة، رائقة المظهر، نارية الجوهر، وتفصيل ذلك شائق.

ذلك أن البيت الذى يقطنه، ويتخذ من أحد طوابقه مقرا، يتكون من أربعة طوابق، وبذلك يكون من المبانى المرتفعة

بالقياس إلى بقية المعمار فى المدينة، فى الدور الأول تعيش أسرة هندية، عائلها يعمل فى المستشفى الأميرى، وفى الثانى عجوزان بلغا من الكبر عتيا، يقضيان جل وقتيهما فى الشرفة، تمضى أيامهما هادئة عدا يوم الجمعة الذى يعلو فيه ضجيج الأحفاد، وأحاديث الأبناء، الثالث مقرة هو وسكنه، فى الأخير أسرة صاحب البيت، الرجل تاجر مصنوعات جلدية، امرأته هادئة، فى حالها، لم يرها إلا مرتدية العباءة السوداء، كانت تمضى إلى المستشفى الجديد بانتظام، كثيرات يذهبن إلى العيادة الخارجية ليس طلبا للعلاج، ولكن من باب الترويح عن النفس والفرجة على الطريق، والثرثرة أثناء الانتظار، أبناؤهما ثلاثة، ولد وبنتان، كان إذ يلتقى البنتين يغض الطرف، وإن أدركته نشوة غامضة، يتخلله الفيض الأنوثى للكبرى، ويطاله، رائحتها، نظراتها الخلسى المتقدة، فى الليل يستدعيها، يتخيلها فى أوضاع شتى، حتى يغفو منهكا، لم يرهما إلا معا، حتى جاء ذلك الخميس، عند خروجه إلى جولته، أمام شقة الطابق الثانى، كانت تصعد متمهلة، وهو ينزل متئدا، مدغدغا برؤياها، ترتدى العباءة السوداء فوق الزى المدرسى الازرق القصير الذى بدا من انفراجة أتاحتها، أما أنفاسها فيكاد يراها لسخونتها، أما النظرات فمتدفقة فائرة، مبهرة بعينيها الواسعتين، تحاول إسدال خفر وحياء لكن عبثا، توقفت حتى يمر، تمهل.

ـ مساء الخير..

أومأت، مضى وجسده يولول بالرغبة، لوقفتها الصامتة، المترقبة فحيح، غليان، وعيد، سمع كثيرا من صحبه فى المقهى عن جرأة النساء فى هذه الديار إذا ما أتيحت لهن الخلوة، وأن الواحدة منهن إذا استوثقت وجودها بمفردها مع من ترغب شرعت فورا، برغم الحكايات العديدة فإنه التزم الحذر، إنه غريب، يخشى إثارة مشاكل لايدرى مداها، مع أن مجرد تخيلها عند انفراده يفرج ويخفف عن زمته جسده، ويسرى عن رغبته، كان لديه حس خفى أنه مقدم على أمر، وأن بعضا مما سمعه عن الآخرين سيمر به ، مجرد استعادته ملامحها يخفق قلبه، يتعجل المصادفة، تلقائية أو مدبرة !

حتى حانت تلك الظهيرة..

كان منهمكا فى كتابة لوحات ورق مستورد خصيصا، مطلوبة لإحدى الجهات الرسمية، ولأهميتها لابد من إعدادها بنفسه، عندما فتح الباب بوغت، تقف أمامه متأججة، نافرة، وعندما دارت لتنظر السلم، لتتأكد أن أحدا لم يرها، لم يلمحها، أعلنت فى الوقت نفسه سرية قدومها، وأنبأت ببدء مغامرتها، ولجت داخلة، أغلقت الباب، اقتحمته عيناها، كان شعرها الاسود طويلا، مسترخيا، شارد الخصلات، كانت بضاضتها تتخطى الفراغ الذى يشغله جسدها إلى فراغ البيت كله، وعلى مهل، بعمق، استنشق رائحة الانثى، فأشاعت عنده دفئا،

وأنسا، أما رغبته فتأججت قاسية، تطلعت، تردد بصرها بينه وبين الأرض مرات، ثم استقرت سافرة الملامح، عالية النداء، ملقية عنها كل خفر، أصابع يديها متداخلة، فى وجهها ظمأ قاس، وتوق، ودعوة عاجلة، واستعداد أتم لفك الحصار، إنها الجرأة الهادرة التى تندلع جارفة كل شىء اذ تحين الفرصة، طقت خميرة الرغبة عنده، قالت بصوت متعثر، غير مسترسل إنها تريد لوحة للمدرسة، مجرد نطقها أوصل أمره إلى مداه، أما نظراتها فأججت أمورا كامنة طال كتمانها بتأثير جهد يمتص منه الطاقة، ويستنفد منه جل القدرة، تقدم مادا يديه، وعندما لامس أناملها حطت كلها عنده، بركت وأقعى، لم يتصور أن الامر سيتم بهذه السرعة، لقيها دافقة، تقصى حرمانا وتهتك أسوارا طالما خنقتها، تسعى إليه بقدر ما يسعى إليها، رددت فى غمار نعاسها اليقظ..

ـ «شبعنى.. شبعنى..»

رأى عجبا، طرق دروبا لم يعرفها من قبل، فى لحظات تتباعد مكوناتها، تتراخى، تتفكك أوصالها حتى ليخشى عليها، وما أن ينحنى ليلمسها بشفته أو ليناديها فكأنه ينفخ فيها السر، تتورد، تزهر، ولحظة بلوغها الأوج تبدو منفلتة، خارج كل قانون، شهيدة فى تعبيراتها، حتى أن تمام متعته لم يكن يتم إلا برؤية ملامحها، وتقصى انتفاضاتها، وطفراتها، وقطعها المراحل حتى بلوغ همودها، كان يغالب جموحه

النهائى، فالبنت عذراء، إلا أنها لم تكن تعبأ، ما سمعه عن شبق نساء هذه الديار لشدة التضييق عليهن والحجر يتضاءل وتفضيل الرجال هوى الغلمان، ماتردد أمامه يتضاءل بالنسبة لما عاينه، لما رآه منها، مع أنها لم توغل فى سنى الحياة بعد، اعتادها، أصبحت جزءا من وقته، حتى أن اللحظات التى تسبق مجيئها كانت مصدرا لمتعة بذاتها، كتب إلى والديه وإخوته ينبئهما بتأجيل موعد عودته، بدا له ما انقضى من عمره مهدرا، أما إنسانيته فظلت ناقصة حتى مجيئها، وظهورها وحتى يفرغ لها، وتفرغ له، استأجر بيتا قريبا لمن يعملون معه، ليكون مقرا للعمل، ويقيمون فيه أيضا، فرحوا، رحبوا، واستراح هو، إذ أقلقه وجودهم فى البيت الذى تسكنه هى، خشى ميلها إلى أحدهم، يعى أنها لن تتردد، لن تتراجع، بل ستقدم إذا قررت، وعندئذ لا يقدر على التنبؤ بما سيكون منه، قال لهم إنه يود الانفراد بنفسه، السكن سكن والعمل عمل، طلب منهم الا يجئ أحدهم إليه مهما كانت الظروف، إذ يتخيل انصهارها فى إحدى اللحظات بين ذراعى غيره يطق غيرة وغضبا، امتزجا، خبر تضاريسها، رائحتها، شذا اقترابها، ولسع ملحها!

لم يعد يفارق البيت كثيرا، يمضى فى الصباح عند ذهابها إلى المدرسة، يتابع تنفيذ اللوحات، يبدى الملاحظات، ويخط بيده مايرى أهميته، أو يرسم الخطوط الخارجية للكلمات، يدع

ملء الفراغات لهم، بعض الطلبات صار يوكل تنفيذها إليهم، كان يردد لنفسه دائما، أنه أصبح صاحب عمل، كما أنه يثق بهم، خاصة ذلك الشاب النحيل، الهادئ الذى جاء يبحث عن وظيفة مناسبة لمؤهله فى علم المساحة، اكتشف عنده قدرة على تجويد الخط وإتقان فنونه، غير أن أمره لم يطل معه، إذ فوجئ يوما بتغيبه، وعندما استقصى واستفسر علم أنه استقل، وافتتح محلا فى ضاحية قريبة، ضاق فى البداية، وطافت الافكار القاتمة برأسه، لو أخطره، لو أفضى اليه، ربما خفف ذلك من وقع الأمر، ضاق بالغدر، يمكنه إلحاق الأذى به عن طريق أحد المعارف المهمين الذين يطرقون بابه، لكنه استبعد ذلك، بل لام نفسه فيما بعد، كيف يفكر فى الحاق الأذى بمن جاء فى ظروف كظروفه؟، استوحش ذلك منه، السوق تحتمل عشرين آخرين، فلماذا يغضب أو يضيق ؟، بل إنه مضى لزيارة المحل الجديد، لو أن الخطاط العجوز الذى آنس منه مودة ومحبة مكانه لأقدم على ذلك، أحيانا يستعيد أيامه معه، الصباحات الباكرة فى شارع محمد على، والمبانى العتيقة، وتداعيات الذكرى المتتابعة، والأدراج المكدسة بالأختام والكلشيهات، كأن أيامه مع الرجل الطيب انقضى عليها سنوات طوال، بل يخيل إليه أحيانا أن شخصا غيره عاشها، مر بها، أثناء عمله وإصغائه إلى مرويات الرجل وحكاياته لو أخبره أحدهم أنه سيكون بعد أقل من عامين فى هذه الديار لما

صدق، ولما تخيل أبدا إمكانية حدوث هذا، أو لقائه بهذه البنية، هل تصور يوما وهو يسعى فى حوارى السيدة، أو قلعة الكبش، أن بيتا كهذا سيضمه مع غريبة عنه، وأن جسده سيلج جسدا فائرا، هنا، فى هذا المكان، فما أعجب التدبير !

عاتب الشاب خريج مدرسة المساحة، قال لو أنه أخبره برغبته فى الاستقلال بعمله لساعده ومد له يد العون، احتفظ الشاب بصمته، واكتفى بالإيماءات الحذرة، وعندما قام صافحه، وأوصاه ألا يتردد فى اللجوء إليه لو اعترضه سبب، أو نزل به ضيق، وألمح إلى إمكانية تعاونهما، فهما فى النهاية أبناء بلد واحد فى ديار غربة، غير أن الشاب لم يبد حماسا مقابلا، وانصرف عنه مرددا، هل أخطأ فى سعيه إليه؟ لأسابيع متتالية لم يهن اقباله على صاحبته، طالت أوقات بقائه فى البيت، إنها تجىء عند أى سانحة، عند خروجها لشراء شىء ما، أو إلى موعد الدرس الخصوصى، أو فى الأوقات التى ترتبها بإحكام مع إحدى صاحباتها، ثلاث مرات لم تتم نزول السلم فى الصباح الباكر، تغيبت فيها عن المدرسة لتقضى نهاراتها معه، أما ما أثار خشيته فمجيئها الليلى، انتظارها نوم الأهل، دخولها عليه حافية، مرتدية قميص النوم القصير، فى الليل تكون أشد اتقادا، قليلة الكلام، إذ ما رغب تبادل الحديث لقى الفاظا قليلة وتطلعا إلى البدء من جديد، حتى أن الوهن يبدأ وإذا خاطبته قالت:

- حبيبى.. حياتى.

وكان يلمح إيقاع المثلات المصريات فى لهجتها، واقترابها منه، اعتاد زياراتها الليلية، وصار يتأهب لها، غير أن الامور لا تثبت على حال، وإذا استقر جانب تبدل آخر، وإذا ما استقامت ناحية، تضعضعت جهات.

هل كان انشغاله بصاحبته تلك البداية، وانقطاعه عن متابعة عمله، أم تفتح رغبته عند حد معين للتعرف إلى أخريات؟ أم تنفيذه ما طلبته هذه المرأة العجوز التى جاءته باكية متوسلة، إذ اعتقل ابنها منذ عام كامل، وبعد أن لفت ودارت ، استعطفت واسترحمت، طلب منها مسئول ذو نفوذ يمت إلى قبيلتها وله برجال الزعيم صلة أن تنفذ ما طلب منها، أن تعد الف لافتة من قماش جيد، تعلق فى منطقة سكنها تحمل الدعوات وعبارات التأييد، سعت إلى عدة خطاطين، إلا أنهم ماطلوها، وتهربوا منها، مع أنها عرضت مبلغا كبيرا من المال، ذهبا من مصاغها، لكن كلا منهم زاغ بوسيلة أو طريقة مغايرة، مع أن هذا مشروع، وعرف جرى العمل به، عند طلب العفو وقبوله يتقرر كتابة عدد من اللافتات يجرى تقديره من قبل المسئولين، طبقا لدرجة الجرم، أو العقوبة المحددة سرا، أحيانا يطلبون خمسمائة، ومرة أخرى ألفين، وفى إحدى المرات قام تاجر فى الصاغة القديمة بإعداد خمسة آلاف لافتة، وهذا أكبر عدد عرف، رق للمرأة التى كانت تمشى بصعوبة، وتتحدث بضعف، وحتى يؤمن عمله، استفسر من أحد العاملين بأمانة الناحية، فأخبره أن هذا عادى، معترف به، وإلا لما صدر الطلب أصلا..

عندئذ شرع، وأوصى العاملين معه..

أى سبب كامن، ومن أى نقطة بدأ الأمر، ربما ماجرى للفتى البنى سويفى كان نذير الشؤم، لكم أحب هذا الشاب القصير، الصامت، الذى لايتحدث بانفعال إلا إذا ذكر والديه البعيدين، والذين اغترب لتعويض بعض من كدهما، وحرمانهما من أجله، عندما جاءه أحد العاملين بالمقهى وأخبره باحتراق المقهى ليلا، صرخ جزعا..

ـ «مات أحد؟».

واحد فقط، البنى سويفى، اختنق بالدخان قبل أن يتمكنوا من كسر الزجاج العلوى والخروج، ضناه حزن، وقال لصحبه..

ـ «لن يدفن إلا فى مصر..»

وتبرع بمال كثير، وتبرع آخرون لتجهيز البنى سويفى، وشحن الجثمان فى صندوق مغلق، لن يفتح، هو الذى قام بهمة عالية لنقل الجثمان، هل أثار ذلك غضب المسئولين هنا؟ هل حنقوا عليه لسبب ما؟

لايدرى، مامن سبب واضح مثل فى وعيه عصر ذلك اليوم.

كان يجلس فى صالة البيت، محاطا باللافتات، والصور المعدة لإحاطتها بالإطارات، كان يتوقع مجىء البنية أيضا، لكثرة ترددها صارت رائحتها فى فراغ المكان، كان يستعيد دخلاتها عليه، غير أن رغبة قصية داخله بالا تجىء،

كان يتطلع إلى فك مغاليق أخرى، ثقته أكثر بنفسه الآن، منذ أيام لم تغب عنه هذه الصبية التى تسكن البيت المجاور، طويلة الضفائر، متينة الأساس، مقببة الأرداف، تبادلا نظرات خلسى، حذرة، هل أولته اهتماما باديا، أم لحظها عابر،على أية حال. فليحاول ، فليدبر أمر اقترابه منها، يستعيد حضور جرأتها الفتية، وكأنه يود تبديد شعور بالذنب ، يلوح بيده ناطقا خواطره بصوت مرتفع : إنها لا ترتوى، وأنا بحاجة إلى من أتكلم معه! هم بتخيل الصبية الأخرى، مدهشة العينين. تردد طرق غير مألوف، قبضات ثقيلة، آمرة، هذه وجوه مقتحمة، لا يعرف أصحابها، الشوارب ثقيلة، يدفعه أحدهم جانبا، يلج المكان متلفتا حوله..

ـ «أنت»

يتفحص المكان متمهلا، ينتشر خمسة من الأشداء المسلحين، يقلبون اللافتات، اللوحات الصغيرة، يتأملون بعض اللوحات التى خطها للعجوز كى يتم نسخ مثيلها، يعرضون القماش للضوء، بدا مرجوفا، خائفا، ما سمع عن وقوعه لآخرين يجرى له، يمر به، بوهن، بحنين، بألم، ألحت عليه ملامح أبيه، وأهله البعاد، وقعدة الرجل الطيب فى دكان شارع محمد على، كأنه يلتمس منهم مددا، أو عونا خفيا.

أكد أنه لم يأت مخالفة، لم يقدم على إتيان جرم ما، أوراقه كلها مضبوطة تماما، مد جواز سفره، وبطاقة إقامته، هوى قلبه عندما أمسكهما كبيرهم، بدون النظر إليهما، رماهما إلى أحد مساعديه الخمسة، فوضعهما هذا فى جيبه لا مباليا..

حاشية ـ ٢ ـ

.. وإنى لمطلعكم على قعدة أمومية، أشهدتها مطلع نهار صيفى، لن يتاح لكم الوقوف عليها، حتى من يمرون بها لا يدرى معظمهم ما وراءها، ولا خبرها، ما عرفته من الهيئة عند بدء لواحها لى.

حدث أن دعانى صاحب لمرافقته إلى البر الجنوبى، كان مكلفا باستقصاء أحوال بعض ممن طلبوا المساعدة، فاتنى ذكر أنه يعمل فى هيئة اجتماعية، تقدم بعضا من عون لمن أعوزهم الوقت، ونزلت بهم نوائب البغتة، أو مال بهم الظرف.

كان النهار فى أوله عندما وصلنا إلى مدخل الطريق الترابى المؤدى إلى القرية الصغيرة، لم نلق عسرا فى الاستدلال والاستفسار، الناس فى هذه النواحى يعرفون بعضهم، قيل لنا إن الرجل الذى نقصده يعيش فى بيت صغير

قبل الوصول إلى القرية، بجوار شجرة السنط، أجابنا واحد مرتابا، متشككا:

ـ لماذا تسألون عنه؟

قال صاحبى:

ـ نقصد خيرا..

لاح عنده اطمئنان، أشار إلى الجهة المؤدية.. قال:

ـ توصوا به، الله يكرمكما..

ثم قال:

ـ لم يعد لهما أحد.

بقدر ما لمحت حذره، بقدر ما رصدت هذا التضامن الخفى، والرثاء للآخرين، والحس بالمشاركة، هذا ميراث طويل ياصاحبى، موغل فى قدم لا ندرى أوله، أما الحذر فلأن القوم هنا لا يتوقعون خيرا مع الغرباء القادمين، الآتين عبر الطرق المؤدية..

المهم، مضينا يا أخى حذرين، السكة ضيقة، والأرض مترية، وعرة، وعندما لاحت بيوت القرية المتضامة، بدأ الفراغ المؤدى فسيحا، عند حدود الحقل لمحت القعدة، والشجرة، وقناة المياه الضحلة، وجذع النخيل، غير أن كل ما أدركه بصرى من عناصر بدا مؤديا لهذه القعدة، للانحناءة، للإطراقة، للنظر المستديم إلى لا مكان.

كانت تنكت التراب بعود قش، هذا كل ما يصدر عنها من حركة بادية، عبر صاحبى القناة، اهتز جذع النخيل، لم أتقدم لتوى، بقيت واقفا أراقبها، فكأنى حصلت فى لمحة الإدراك الشمولى ما صار إليه الأمر، كل ما وقفت عليه بعد ذلك.

هذه قعدة أمومية ياصحب، قعدة ثكلى، حضورها الحسى فى مكان وزمان بعينه، أما حضورها الأشمل، الأتم، فيمتد عبر شعاب خفية، ويتعلق بلحظات مولية، قعدة لن يصلكم عنها تفصيل، قعدة آل إليها العمر الطويل، وحط فيها الضنى، يوميا، تبدأ مع طلوع الشمس، مع رحيل الليل، لا تفارق مكانها هذا إلا بعد اكتمال الغروب، وتردد أصداء العتمة وتوالى نباح الكلاب، ونقيق الضفادع، وهيام صرخات مجهولة عند المدى، ربما تؤدى بشكل ما إلى أثر من الحبيب الغارب!

قعدة منحنية، مطوية، مضمومه، محورها هم، ومقصدها، وهدفها، مبتغاها أثر ولو يسير، فى إطراقتها محاولة منها وسعى لتمثل الضمة القديمة، عندما كانت تحنو عليه، وتهدهده حتى ينام، أو تملس على ظهره حتى تدركه راحة، تحاول جاهدة ضم ما تبدد، بعد أن طاح به الوقت فأقصاه بعد قرب، ونفاه إلى أبد لن يدركه أحد، تذرى!.

افترشت الارض فى مواجهتها، تطلعت إلى، وعندها رجاء فى أمل خارق، يتجاوز المستحيل، يتخطى المعقول، ربما نبأ بعودة ضناها الوحيد، عيناها حال لونهما، تداخل سوادهما

ببياضهما، فلا يمكن لى أو لكم تمييز الدائرتين اللتين كانتا يوما تنبضان، تتابعان القاصى والدانى، وتتعاقب عليهما الرؤى، أما ما يحيط بالعينين، فتحاريق، تشقق، وجهها يا أخى كأنه قد من الأرض التى تقعد فوقها، المتربة.

لم يكن محورها إلا هم، روحها كانت فيه، وحيدها، فلما جرى ما جرى، عافت الزاد، انطوى بسطها، ولم يعد لها إلا إحصاء ما تبقى، كل من يسعى إليها بود، بعزاء، بشفقة، تقول له:

ـ «خلاص.. اللقا هناك..»

لولا يقينها أن من ينهى حياته بيده يموت كافرا، وأن مصيره إلى النار، للحقت به منذ تيقنها النبأ، لكنها تريد المضى إليه، يقينا هو فى الجنة، من يشبهه، من يماثله؟ من؟ كان غضا، نقيا كالأطفال، لم يأت شيئا فريا، لم يفعل ما يغضب ربه.

لو أنه لم يتغرب، لم يبعد، صحيح.. قدر ومكتوب، لكنه لم يرحل إلا لأنه شاء رؤيتهما فى أحسن حال، هو من خرجت به من الدنيا، ثم فارق الكينونة قبل أن تكمل فرحتها به، أنفاسه ما تزال فى البيت، رائحته، موضعه لم يقربه أحد، ما خصه باق، ما أرسله من خطابات فى حفظها، لا تسمح أن يقربه أحد، ألم يمسك بهذا الورق؟ ألم يخط هذه الكلمات التى لا تعرف كيف تفك رموزها؟ نصيب، حظ عاثر، من كان يتصور ما تخبئه الأيام؟

منذ يومها الأول فى هذه الدنيا كانت وحيدة، لم ينجب أبوها السقاء غيرها، لم يكن لها أخ أو أخت، لكم ودت أن يكون لها شقيقة، لكنها طلعت إلى الدنيا بمفردها، كثيرا ما قالت: الواحد فى الدنيا عندما يتعب يقول... أخ.

كان رجلها فقيرا، على باب الله، لا وراءه ولا أمامه، شقى من يومه، تقلب في مهن شتى، لا.. ليست مهنا على وجه الدقة يا أخى، لكنه كان يقوم بالعمل المتاح، يلف على الأسواق، يقضى حاجة هنا أو هناك، ينشط فى المآتم والأفراح، لكنه لم يتسول، لم يمد يده قط، حياته الوعرة لم تكسر نفسه، لم تهن أو تحط من وضعه أمام ذاته، كان عنده عزة وأنفة، استقر به الأمر عاملا بذراعه، بالفأس، يضرب الأرض مع مطلع الشمس، كان قصيرا، مدكوك البدن، تقدد جلده، واشتدت ملامحه، ولزمت عيناه نظرة حيرى، بعد أن جرى ما جرى لوالده، لوحيده، لمن خرج به من الدنيا.

شقى طوال عمره، هكذا ردد دائما، لم يمض إلى طبيب قط، لم يزر مستشفى أو وحدة صحية، كان إذا شعر برجفة، أو ألم، يأكل الثوم الأخضر الطازج على الريق، أو يداوى نفسه بأعشاب شتى عرف أمورها من هنا وهناك.

عندما سمح له صاحب الأرض القبلية ببناء كوخ طينى عند حد الزراعة الموازى للطريق، ليتخذ منه سكنا ومقرا يطل منه على الرائح والغادى، أو من يبغى إلحاق ضرر ما بالزرع،

ليحوش أى غريب قد يأوى خفية بين عيدان الذرة، بمجرد أن اتم السقف بيديه، سعى إلى إتمام نصف دينه.

عندما قصد أباها، كان على باب الله، أرزقيا، بسط حاله وفسر أمره، قال لوالدها السقاء:

ـ بنتك فى رقبتى.

هذا ما تمناه السقاء، فالعمر يتقدم به، وظهره يميل وينحنى، لم تعد الصحة مواتية، والدنيا وحشة، خاصة أن البنت وحيدة، لا قريب أو بعيد.

بعد رحيل أبيها فجاة، لم يعد لها إلا رجلها هذا، غير أنها لم تنجب ثلاثة أعوام، عللت الانقطاع عن الخلفة بما جرى لأمها، إذ قضت أربع سنوات حتى حملت، ولأن قلقها كان بالغا، مضت إلى أحد المشايخ المشهود لهم، كتب لها حجابا تعلقه على صدرها، أوصاها بأمور معينة نفذتها بدقة، كما استجابت لوصفة امرأة عجوز، فتحينت الفرصة حتى خطت فوق رجل ميت لم يدفن بعد، كان غريبا يعمل فى وابور الطحين، كان ينام فى عشة من البوص ناحية الجسر، يبدو أنه نسى اللمبة الصغيرة مشتعلة وسقطت فوق القش الذى يغطى به الأرض، هكذا قيل، عندما مددوا الجثة المحترقة خطت فوقه مرتين.

مع بدايات العام الجديد انتابها دوار، وعافت نفسها أطعمة، وتاقت إلى أخرى، الحق أن الرجل لم يقصر، راح

وجاء، طرق باب هذا وذاك، منعها من الخروج لحمل الأوعية، أو ملء الماء، كان حنونا، كريما مع وعورة أحواله، يضيق على نفسه باللقمة، لا يأكل إلا ما يتبقى فى البيت، هذا حاله منذ أظلهما سقف البيت، أما فرحته بمجىء المولود فما تزال تذكرها فى قعدتها هذه، كأنها ترى اللحظات المولية، النائية، أمامها.

لن تنسى أبدا جريه حتى بيوت القرية يوم أن جاءها المخاض، إجهاده المشبع بالفرح، وتطلعه الصامت إلى ابنه.

ـ «والله لأربيه أحسن تربية..».

كان يقول دائما إنه يطلب من العلى القدير أن يطيل عمره، أن يمد فى أجله حتى يراه واقفا على قدميه، أن يجنبه ما رآه، ما كابده هو، مع توالى السنين بدا واضحا أنه هو فرحتهما الوحيدة، لم ينجبا غيره، وضع أمام عينيه مقصدا، أن يتلقى الولد تعليما، ألا يعرضه للمهانة، وبقدر فرحه بصحبته له، بقدر ما حرص على إبقائه بعيدا عند زيارته لصاحب الأرض، أو بعض الأعيان فى الناحية ممن يعطفون عليه، أو يهبون له المساعدة، من زكاة المال، أو فى الأعياد والمناسبات، وعندما كان أحدهم يهبه بعض الملابس المستعملة التى لم يعد لأولاده حاجة بها، كان يأخذها تأدبا، لكنه لم يقدمها إلى ولده قط، لم يرتد ابنه إلا لباسا جديدا... كان يعمل فى الأرض طوال اليوم، وإذا سمع عن أحد فى حاجة إلى عمل مؤقت بالقرية يمضى

فورا، كأن يشارك فى بناء ما، أو تفريغ حمولة، أو الخدمة فى عرس، أو مأتم، وفى أيام بطلان العمل فى الأرض يسعى إلى البندر القريب، يغيب اليوم كله، لكنه لا يقضى الليل بعيدا عن ولده وامرأته، يعود ومعه طعام، لم يكف، لم يهدأ، كان كالنحلة، ويوم حصول ابنهما، الحبيب، الطيب، الهادئ على أول مرتب، جاء الأب وقعد بجوار الأم، ربما فى نفس المكان الذى تلزمه الآن، طال صمتهما، هكذا اعتادا، فى لحظات الفرح القصوى، فى لحظات الحزن الأشد لا يتبادلان اللفظ المسموع، أو العبارة المصاغة، ما عنده يصلها وما لديها يبلغه بدون محاورة.

ـ «أشعر أن الله عوض علينا..»

الولد نبتة طيبة، طالع لأبيه، وفى أيام الأجازات كان يبدى الرغبة فى الحصول على عمل مؤقت يساعد به، لكن الوالد يجيبه..

ـ «انتبه يا ولدى لدروسك وربنا يقدرنى...»

وعندما نزل إلى الغيط، وحاول أن يخفف عن والده، أبى الرجل وأقسم، هل كان يبذل الجهد إلا ليجنبه ما شقى به هو؟، لم يكن الولد مدللا، مع أن أمه تخشى عليه من سريان الهواء، من أولاد الحرام، من كل ما يمكن أن يلحق به السوء.

كان الولد يعى ضنكهما، يؤرقه أنه غير قادر على المشاركة، خاصة أن الحياة تتزايد صعوبتها، والأحوال لم تعد تمضى كالزمن القديم، ضنا على نفسيهما حتى بالفراش،

اشترى أبواه لوحا خشبيا، ومرتبة، وملاءة، وغطاء، أصرا على أن يكون هذا مرقده، أما هما فاعتادا افتراش حصيرة قديمة، يقول الوالد ضاحكا إنه لا يريح جنبه إلا الأرض...

في ليالي سهره لا تغفو أمه، تقعد صامتة، لا تأتي حركة حتى لا تزعجه، تنشط إذا طلب منها شيئا، كوب شاي، لقمة، لم تنم في حضوره، تغمض عينيها بعده، تفتحهما قبله، لو قلق في عمق الليل تصحو، كأن ركنا خفيا من جهازها العصبي متصل به، لم ينفصل عنه، طوال ليالي سهره، تمسك لمبة نمرة عشرة تحملها على مقربة منه لتضيىء له السطور والصفحات، برغم إرهاقها اليومي كانت دائما راغبة في بذل المجهود، وعندما امتدت أسلاك الكهرباء في النواحي، وتخللت الأبراج المعدنية الحقول، لم يكن عسيرا مد سلك ينتهي بمصباح كهربائي، كان مريحا لعينيه، ساطعا في العتمة، أثناء قعدتها يقول لها فجأة:

ـ «بعد شغلي، أجيب لك تليفزيون تشوفي فيه الدنيا..»

عندئذ تقول:

ـ «تجيبه لبيتك يا ولدي..»

كانت، وكان أبوه، يتمنيان، يطلبان من العلي القدير أن يصلا به إلى الشهادة العالية، لكن الزمن أصبح غير مساعد، ظهر الأب بدأ يميل، والطورية لم تعد تطاوع يده، أصبحت ثقيلة على ذراعه، والحاجات في غلاء دائم، القرش الذي كان يكفي بالأمس صار قاصرا اليوم.

هنا أقول إننى لم أر هذا الفتى، لم ألتق به قط، لن أصغى إلى صوته أبدا، كل ما شفته ثلاث صور تمسك بثلاث لحظات من زمن دراسته، أطلعنى الأب عليها قائلا..

ـ «كان زينة الشباب..»

والله كأنى عرفته، كأنى عايشت بعض أيامه فى هذا البيت الطينى، المتواضع، بل أزعم أننى اطلعت على بعض خلجاته، ولحظات من توحده، توارد الخواطر عليه..

اعلموا يا صحب أن قلبى كان على أبى، كما كان قلبه على أبيه، كذا الرغبة فى تخفيف الحمل، لذا لم يكن عسيرا على إدراك ما كان، الجوهر واحد وإن اختلف الظرف.

كرر دائما رغبته فى شيل الحمل عن أبيه، حدثها عن سرير سوف يشتريه ودولاب، عن ترتيب البيت، بياض جدرانه، عن فتح نافذة على الجدار البحرى، الطريق إلى الجامعة طويل، أما المدرسة الزراعية فثلاث سنوات لا غير، ستمضى بسرعة، يلتحق بعدها بالعمل ملاحظا زراعيا فى المنطقة، لن يضطر إلى التغرب، سواء فى دراسته أو بعد عمله، المدرسة قريبة.

قال الأب إن الخيرة فيما اختاره الله، كان بوده أن يمضى معه حتى نهاية الشوط، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، وقتئذ لم يكن يرجف الأم إلا احتمال بعده عنها، لكنها لم تفصح، لم تهن أمامه أو تضعف، حتى لا يطرق دربا على غير هواه.

يعلم الله كيف انقضت هذه السنوات الثلاث، أعوام ثقيلة، طويلة، غير أنها مرت، انطوت بما حوته من مشقة، وضنى، غير أن الأيام إذا كانت تذهب بالصعب، فإنها أحيانا تأتى بالأصعب، أو كما قيل.

ومن عادة الأيام ان صروفها إذا سر منها جانب ساء جانب، الوظيفة لم تنتظره بعد حصوله على الشهادة، بدأت تسمع عن كثيرين سبقوه وما زالوا فى بطالة، وأن خريجى مثل هذه المدارس يفيضون عن الحاجة، وأن الحكومة تتراجع فى تعيينهم.

مضى أبوه إلى صاحب الأرض وهو رائح الحال، له بالجهات صلة، وعده خيرا، ذهب ليطرق باب عضو الهيئة البرلمانية عن الناحية كلها، ولكن ما من فرج لاح، وما من حل بدا.

كانت أمه تلحظ ضيقه، تدرك أمره، تود لو أعانت، لكن.. كيف؟، ما آلمها، ملاحظتها حرصه، إنه يعمل حسابا للقمة التى يأكلها، بل إنه يتحرك كضيف، كأنه غريب، زائد عن الحاجة، مكسور الخاطر، يتجنب الحديث إلى والده مع أنه لم يقصر، سعى إلى هنا، إلى هناك، لكن الدائرة واسعة، وبصره لا يدرك الحواف، قال يوما إن الشغل ليس عيبا، وأنه سيقصد البندر، سيعمل أى شىء ما دام بعيدا عن المهاوى، ليته لم يذهب، ليته بقى فى البيت،، بل.. ليته لم ينه دراسته، فى إحدى الليالى عاد

مبتهجا، تذكر أمه ملامحه المرهقة، قال إنه حصل على عمل بالمدينة القريبة، أفضل من انتظار الوظيفة بطالا، قال إنه يقطع التذاكر فى السينما الصيفى، الدار الوحيدة فى المدينة، المشكلة أن عمله يقتضى السهر، الطريق ينقطع فى الليل، لا يمكنه العودة إلا إذا استأجر عربة، هذا لا يقدر عليه، لحسن الحظ أن صاحب السينما وافق على قضاء الليل فى دار العرض، فى الصباح يعود إلى والديه، يمضى معهما ساعات النهار، كان يصل دائما مجهدا، وبمجرد تناوله اللقمة يحط رأسه، ينام، لا يوقظه قرع الطبل، تطل عليه، بحرص تبسط يدها، تحيطه بالرقى والتعاويذ والأدعية.

لن تنسى أبدا يوم مجيئه بأول خيره، بدا متهللا، جاء بحلوى ومنديل جديد تعصب به رأسها، بسط يده إلى أبيه بورقة مالية، عشرة جنيهات، فيما بعد أمسكتها، وحدقت فى رسومها، قبلتها ودعت له بالستر وحمايته من أولاد الحرام، لن تنسى ملامح أبيه، لحظة استناده إلى الجدار، لزومه السكينة، نزول الصمت عليه، تحديقه إلى الورقة المالية أم عشرة، كأنه لا يدرى ما يقول، هذا أول خير من وحيده، الولد لم يحتفظ لنفسه الا بجنيهات أربعة، مصاريف الطريق.. لكن يا ليت دام ذلك!

لسبب ما أغلقت دار العرض، وقيل إنها ستتحول إلى ورشة نجارة، لم تدم فرحة الابن، لكنه لم يشأ العودة إلى قعدة البيت، طال غيابه فى المدينة، لم يفض لوالديه، غير أنهما ألما

بما كان فيما بعد من أقرانه، وممن عرفوه، وممن جاءوا إليهما لبث كلمات الصبر، وإبداء الشفقة، ليته لم يفارق.

تقلب فى أعمال شتى، خدم فى مقهى، وحمل أجولة القمح فى مخبز بلدى، ونادى على سيارات أجرة فى موقف المحطة، باع علب الكبريت وأربطة الأحذية والأقلام فى القطار البطىء، وعمل عدة أسابيع فى معرض مؤقت للكتب أقامته جمعية الشبان المسلمين، حاول الحصول على القرش الحلال لكن لم يستمر شىء من هذا، بعد أن انقضى وقته، علمت مصادفة أن بعضهم ضربه، هددوه إن عاد للعمل مناديا على عربات الأجرة أمام المحطة، عندما أيقنت صرخت، «ياولدى»، رفرف قلبها فى صدرها، كيف تلقى الألم، أكان يعانى ما لا طاقة له به؟، كيف تحمل؟ هو ضئيل الجسد، نحيف البنية، هو الذى لم يضرب مخلوقا قط، أشفقت، رثت حتى بكت مع أنه كان نائيا، النأى كله، بعيدا، قصيا، لا يمكنه أن يسمع، لا يقدر أن يرى بعد انتقاله إلى العدم.

ليته لم يرحل، مر يتلوه مر، وشقاء يتبعه شقاء، لكنها لم تعتد التدخل أبدا فى أموره، ولا إبداء الرأى فى صحبه، فلم يلح منه إلا ما يطمئنها، لم يرفع صوته فى مجادلة أو مناقشة، لكنه عندما قعد أمامها، وقال إنه لا مفر من السفر، لم تدعه يكمل..

ـ لا يا ولدى..

لا، البعد جفا والغربة صعبة، لا، إنها لم تطق مجرد تصور أنه فى ناحية وهى فى ناحية أثناء دراسته، فكيف يغيب عنها فى بلد آخر، بلد لا تعرف عنه شيئا، هذا ما لم تتصوره يوما، ولا ترجوه أبدا، هل ضاقت السبل؟ هل شح الطعام؟، هل انعدم موضع الرقاد؟ أبدا أبدا.

قال إن الحكومة توقفت عن تعيين أمثاله، ولابد من واسطة قوية لا هو ولا أبيه يعرفان الطريق إليها، عدد من أصحابه سبقوه، بعد شهور من سفرهم فاض خيرهم على أقاربهم، بل إن بعضهم بدأ يبنى أو يعيد بناء بيته القديم، إن وضعه جيد، إنه وحيد، معفى من أداء الخدمة الإلزامية، لم يغب فى الجيش السنوات التى كان لابد من غيابها، فلتعتبر مدة سفره غيبة مماثلة.

لم تلن، لم تهن، جادلته، هذه بلاد بعيدة، ظروفها غير الظروف، وناسها غير الناس، هناك سيكون بمفرده، وحيدا، ضعيفا، حتى لو كان فى صحبة، تغور الغربة وسنينها، ما لديهم يكفى ولو كان قليلا، هل حدث أن ناموا ليلة بدون طعام؟

قال إنه ما زال يفكر، لماذا تحزن، هل رأته يحزم حقائبه؟، بعد أسبوع، لا.. بل عشرة أيام جاءها متهللا، التحق بعمل فى البندر، كاتبا فى شركة نقل، هدأت، دعت بتيسر الأحوال، لمدة سنة لم يطرق موضوع السفر، أحيانا يخبر عن صاحب له غادر متجها إلى هذا البلد أو ذاك، فتصمت مخافة أن يتطرق

إلى مناقشة، لكنها فيما بعد أدركت أنه كان يدخر بهدوء فى مكتب البريد، وأنه يقتر على نفسه حتى يجمع ما يجب أن يدفعه لمكتب السفريات فى عاصمة المحافظة، لم يكن ثمة مفر من دنو تلك اللحظة التى تستعيدها مرارا فى تلك القعدة، تذكرها بأسى، بخوف، كأنها ستحل: مع أنها كانت وانقضت.

لما أيقنت من وقوع المقدر، حاشت نفسها عن إبداء الدمع، قالت لنفسها، إذا كان ولابد، فليسافر ومعه صورتها باسمة، مشجعة له، يا عالم، متى يلتقى الحى بالحى؟.

رتب حقيبته، وأوصته، وتمنت له، وفى الليل ولت وجهها شطر الجدار، عضت شفتها، ونزلت دموع عينيها، حتى الفجر لم تكف، لكنها عندما وقفت فى بداية النهار تحمى الفرن، وترمى الحطب داخله، حرصت أن تمنع دموعها، وأن تظهر البشر، أعدت الفطير، واللبن، وجبنا حلوبا، تظاهرت أنها تأكل وأنها تبلع، وعندما ضمها إليه بقوة، مالت لتقبل... يده، أليس وحيدها؟ أليس هو حصاد العمر؟ فوجئ، إنها المرة الأولى، سحب يده، قبل رأسها، قال إنه يسافر من أجلها، تمنت لو قالت له، إذا كان الغرض هى فإنها كارهة لسفره هذا، ليبقى، ودت لو تقول له، صعب عليها غياب طلاته، رحيل حضوره من البيت، لكن... لم يكن بيدها من الأمر شىء، كان أبوه صامتا، كأن أيادى خفية تحركه، لو حل بينهما الآن، فلن يعرف والده، تضحضح الرجل، مال، وزاغت عيناه، لم يعد قادرا على حمل

الطورية أو السعى إلى بيت صاحب الأرض للخدمة، صار يجول فى شوارع القرية، ينتظر عند باب الجامع، يردد على مسمع من الخلق برنة باكية، أن ضناه عمره «ماعيى»، عمره ما اشتكى، وأنه لو عاش لكان عنده الآن كذا، كان نفسه أن يرى أحفاده قبل رحيله، ولكن صاحب الأمانة استرد أمانته، فهل يعترض؟ هل يكفر على آخر العمر؟، صار أبوه يخاطب من يعرف ومن لا يعرف، يسأل الناس ويمد يده، وهذا ما لم يفعله قط طوال حياة الغالى، فأخشى ما خشيه، أن يسمعه أحدهم كلمة عندما يكبر، ولكنه الآن هائم على وجهه، بل أحيانا يغيب ولا يرجع إلا بعد منتصف الليل تاركا امرأته وحدها، لكنه لم يقض الليل بطوله بعيدا أبدا، بعد وصول جثمان المرحوم فى صندوق، راح الأب يكتب إلى جهات شتى، إلى وزارة العمل، إلى الشئون الاجتماعية، إلى الصحف، كان يقعد إلى أحد أصدقاء ابنه ويملى شارحا حاله، ثم يقص عن ابنه، ثم يطلب المساعدة، فالقوى وهنت، ولم يعد بمقدوره، وإلى الجريدة التى يعمل بها صاحبى وصل أحد خطاباته، وعندما أقبل علينا، بقيت الأم فى قعدتها، وبادرنا قائلا: إن ولده كان جميل الصورة، حلو اللسان، لم ينطق العيب قط، لم يخلف وراءه ضغينة، وإنه لم يذهب إلى طبيب فى حياته، لكنها إرادة الله، ارادة من بيده الأمر، قال الأب إننا أول من نستجيب لضراعاته، لشكاواه، ثم انقلب إلى داخل البيت فجأة، عاد ملوحا بخطاب، قال إن إقامة ولده لم تدم، وإنه مع لم يرسل ألا

خطابا واحدا، ليس له ثان، قال فيه إنه بخير، وإنه مع صحبة طيبين، وإنهم يعملون فى مقهى، صاحبه يحب المصريين، عاشقين لصوت أم كلثوم، ولمحمد عبد الوهاب، وإنه يسمح لهم بالنوم فى حجرة ملحقة بالمقهى، وإنه تعرف على مصريين كثيرين هنا، وكلهم يد واحدة ، إن نومته مريحة، وأكله جيد، وعما قريب سيرسل إليهما كسوة الشتاء..

وهذه حكاية نزيف

.. اعلموا يا صحب، يا من ستقيمون الصلة بى عبر حروفى تلك، أن عددا قليلا جدا من الناس يذكرون الآن هذا المهندس الذى تخصص فى علم طباعة الكلمات والتصاوير. قليلون أولئك الذين يذكرون شيئا ولو يسيرا عنه، أو يرد على أفئدتهم طيف عابر منه، أو يستعيدون جملة عابرة نطقها يوما، أو معنى أفضى به، يمكننى القول عن ثقة.. أن بعضا ممن انتسبوا إليه نسوه، لم يعد يعنيهم إلا صرف معاشه، أو مكافأة من هذه الجهة أو تلك، إذ تقلب فى أعمال شتى.. داخل مصر وخارجها، لا أبالغ، وإنى لقاص عليكم من أخباره شيئا، إذ عرفته على فترات متباعدة، وأحيانا عن قرب. سمعت منه، وعنه، لذا أحطت بأموره علما. وما لم أعاينه خمنته، واستنتجته.

أعلموا أنه يكبرني باثنتي عشرة سنة، ولد في بيت من طابقين بحارة صغيرة، سد، لا تؤدي إلى أي شارع أو درب، تقع قرب قلعة الجبل، يمكن للواقف عند مدخلها أن يرى مآذن مسجد محمد علي. من يومه بدا هادئا، لا يبدي أمور الشقاوة التي يعرفها الصغار، ومما ردده أبوه عنه.. أن الولد فالح من يومه، لم يلعب في الشارع. لم يشط، لم يتسبب في مشكلة مع الجيران، كتب اسمه على لوحة الشرف في المرحلة الإعدادية، كان بارعا في الرياضيات، واللغة الانجليزية، تنبأ له أساتذته بمستقبل نضر، إما في الطب إما في الهندسة.

فعلا التحق بالهندسة، وبعد تخرجه عمل في المطبعة الأميرية، كان ممكنا أن يمضي بها حياته، يترقى من درجة إلى درجة، لكن حدث أن مدير أحد الأقسام استقال يوما، وقيل إنه عمل بمطبعة صحفية كبرى، وإنه يتقاضى ضعف مرتبه، بعد شهور من استقالته التقى به في ميدان سليمان باشا.

كانت نزهته الأسبوعية المضي إلى وسط المدينة، يمشي من القلعة إلى شارع محمد علي، فميدان العتبة، يعبر ميدان الأوبرا، إلى الشوارع المضيئة، يتفرج على الواجهات، يتابع الفتيات، يقتفي خلواتهن واهتزاز أردافهن بنظراته لا غير، حتى اذا أعجبه قوام، أو حضور أنثوي طاغ، ثبت ملامحه في الذاكرة، عند عودته. قبل نومه يتمدد على ظهره، يسترجع

القسمات والخطوط المحددة والتأود اللين، يضاجع الصورة المستدعاة.

أمام دار سينما التقى بزميله، سأله عن الأحوال، فقال إنها طيبة، قال بعد ثوان من الصمت:

ـ والله أنت ابن حلال، هل تصدقنى إذا قلت إننى كنت أنوى الاتصال بك؟

ـ خيرا!

طبعا كل خير، اقترح عليه أن يأتى معه، العمل فى حاجة إلى من هم مثله، الظروف أفضل، المرتب أحسن، فرص الترقى مفتوحة، إمكانية السفر إلى الخارج متاحة.

أصغى، لم يقل نعم، لم يقل لا، اقترح صاحبه أن يفكر، تلك مواعيده التى يمكن أن يزوره خلالها.

هذه الليلة رجع مشيا، ذهنه خلو من أى وجه مليح، أو قوام تثنى فى مجال ناظره، مشغول، مهموم بما سمعه، من طبعه ألا يتحمس فورا، ألا ينفعل للتو، انما يأخذ ما يقال له بحذر، وعندما يحسم الأمر تتدفق حماسته.

أطلع أباه، أطرق الرجل، طلب منه انتظار الجواب إلى ما بعد صلاة الجمعة، بعد قراءة سورة الرحمن ونيل بركتها، فكر واستخار، ثم قال لابنه:

ـ اعزم وتوكل!

نصحه أن يحزم أمره، المستقبل كما هو واضح.. أكثر اتساعا..

فى هذه الليلة نام يتعجل مجىء النهار ليمضى إلى زميله القديم... سعى إليه، لم يجده، فى اليوم التالى كان غائبا أيضا، قال لنفسه إذن يبدو النصيب وعرا، إذن لينصرف بعد ان يخط له خطابا، إذا كان فى حاجة إليه فعلا، فليرسل إليه.

عند باب المؤسسة فوجىء به أمامه، اعتذر، اضطر للذهاب فجأة إلى المطبعة القديمة، صحبه إلى داخل المبنى، جال به، ابدى راحة لما رأى، وما سمع، لم يمض شهر واحد إلا وتسلم عمله.

بدأ سعيدا، متفانيا، باذلا الهمة، توثقت صلته بزميله هذا الذى تمت النقلة على يديه. خرجا معا فى نهاية الأسبوع. وعندما دعاه إلى بيته لبى، ولما استقر فى غرفة الاستقبال، نفذت إليه رائحة الاستقرار. وجود أسرة، الستائر المسدلة، الهدوء، الأثاث النظيف، الكلمات الهادئة المتبادلة بين الزوج والزوجة، لكن كما قيل الحلو لا يكتمل. عرف أنهما لم ينجبا، وأن أعواما عديدة مضت، وفيما بعد لا يدرى كيف علم أن العيب من الزوج.

حتى ذلك الوقت كانت الشواهد كلها تؤكد أنه لم يعرف امرأة، لم يدخل فى علاقة، كان إذا لفتت نظره أنثى يخفى اعجابه. بل يخشى أن تفلت منه إيماءة أو نظرة، أو تتلون كلمة من لفظة تشى ببعض مما يكتمه، هذا ما عرف عنه، وكان لزوجة زميله هذا ـ أو بمعنى أدق رئيسه فى العمل ـ شقيقة تصغرها بعامين. تخرجت فى كلية التجارة، ولم تعمل بعد.

الحق أننى لا يمكننى القطع إن كانت المصادفة مدبرة، أم أن الامر تلقائى، المؤكد انه لقى نفسه بمفرده مرتين فى مواجهتها أثناء تردده للزيارة، لمدة قصيرة جدا، لكنه ارتبك، لم يدر ماذا يقول. خاصة عندما سألته عن عدد قطع السكر التى يفضلها فى الشاى، وقربت منه طبق الفطائر، بعدها لزمت الصمت، أطرقت حيية، غير أن نظرة مارقة، عابرة، كانت كافية أن يحتويها، ويحيط بحضورها.. يتمكن منها، هكذا قال لنفسه: انها جميلة وأهلها ناس طيبون.

بعد الزيارة الرابعة عزم أمره، وتوكل. قال والده إن الخيرة فيما اختاره الله، المهم.. الأخلاق.

طوال فترة الخطبة التى استمرت عاما وثلاثة أشهر، اعتاد الذهاب كل يوم جمعة لتناول الغداء بصحبة أسرتها، كانت تقعد إلى جواره أثناء تناول الطعام، تبدى اهتماما به. تداعبه أمها، توصيه بابنتها خيرا. ثم تفيض فى الحديث عن خصالها، عن سماتها وخجلها القديم، تطرق الابنة، ترجو أمها أن تكف.

لم تتح له فرصة الخلوة بها فى البيت، لكنه عندما خرج بصحبتها أول مرة داعيا إياها إلى أحد المقاهى الأفرنجية على النيل، أسلمت له يدها، فسرى عبر شرايينه دفق جديد عليه، وإن حار فيما يجب قوله، حتى أن اللحظات الأولى انقضت بدون أن ينطق حرفا، ربما اجتهد فى استدعاء حوارات دارت أمامه فى الأفلام، أو ما قاله زملاء الدراسة عن مواقف كهذه، ضرورة تشابك الأيدى، والمرور بمهل على راحة اليد، هذا مما يحنن الصاحبة، أما الكلمات فلابد ان تعنى بمظهرها، بطريقة تصفيف الشعر، لكنه لم يطرق شيئا من هذا، إنها خطيبته، ستصير أما لأولاده، ليست مغامرة عابرة.

حدثها عن الطريق الذى اعتاد أن يسلكه، عن الشقة، عن أثاث البيت، وما يجب إعداده وتجهيزه، وما يمكن تأجيله إلى مرحلة تالية... مع اقتراب عقد القران والدخلة تحدثا طويلا عن المدعوين، من يجب دعوته من أقاربهما .. من ناحيته هو قال: لن يأتى إلا والده وشقيقته الصغرى، معظم أقاربه فى الصعيد، لو فتح الباب لجاء العشرات.. لضاق المكان بهم.

يبدو أنه قال ما قاله ليقابل بفعل مماثل، تكاليف الفرح سيتحملها هو، إنها ليست هينة، كان ممكنا أن تقل لو أقيم فى دار النقابة، غير أنهم أبدوا عدم رضاء، أختها الكبرى تزوجت فى النادى، إن لم يكن المكان أفضل فليس أقل، الحقيقة أنها لم تجهر بالرفض، لم تقل نعم، لم تقل لا، لكن عدم الرضا بان

عليها خاصة عندما حادت بنظرتها، عندئذ يطوى كل ما قرر التصريح به، اشتداد النفقات.

الحق أنهم أثقلوا عليه، وحملوه ما لا يطيق بمقاييس هذا الزمن، لكنه لم يتسبب فى أى مشكلة، لم يعترض مدفوعا برغبته فى رفع رأس البنت أمام أسرتها.. فى الظهور بما لا يقلل من شأنه. كما أنه أخفى عن والديه التفاصيل، ردد دائما أن كل شىء يمضى على ما يرام، وانهم قوم كرام، مع أنه ضاق أحيانا، حتى فكر فى فسخ الخطبة.. فى التراجع، وهو ما زال بعد فى البداية.

حدث ذلك مرات، ولأسباب مختلفة، منها على سبيل المثال ما جرى عند التفاهم على الشبكة، إصرارها على أن تكون مما يليق، الا تقل عن تلك التى قدمت إلى شقيقتها، أسورة من الذهب محلاة بجنيهات جورج الخامس، ألا يقل عدد الجنيهات عن سبعة، وخاتم من الذهب الأبيض عليه فص ماسى، لا يقل عن اثنى عشر قيراطا... هذا ما جاء لشقيقتها. طبعا إذا أضاف من عنده فهى عروسه. وكله يعبر عن تقديره لها..

لسنوات تالية لم ينس عصر ذلك اليوم الذى أعلنت فيه الأم مطالبها، بعد شرب الشاى تراجعت قليلا إلى الوراء، لم تتخل عن ابتسامتها المجاملة، غير أن كلماتها بدت محددة، حاسمة، إيقاعها أصولى لا يمكن مناقشته، هز رأسه مرات. لم ينطق، لاحظ انسحاب خطيبته عند بدء الكلام، أما الاب فأطرق

صامتا، راح يدحرج حبات مسبحته، وعندما أمعنت الأم فى التفاصيل، قال الأب:

ـ يا ستى.. دعيه هو يختار..

لوحت بيدها:

ـ والنبى لتسكت.. أنا لم يعد عندى غيرها..

هو نفسه تحدث فى جلسة أخرى، بينما لزمت الام الصمت، بدأ يذكر مثلا شائعاً، ثم أتبعه بمثل آخر «الله، الله على الجد، والجد الله الله عليه، الطريق اللى أوله شرط آخره نور، إنه يرى فيه ابنه، هو الذى تمنى ولدا ذكرا، لكنها إرادة الله سبحانه وتعالى، الذى يعطى ويمنع، إنها الوحيدة الباقية، ربنا أكرم شقيقتها بالزوج الصالح، وبيتها عامر الآن، طبعا أنت زرتهم وشفت..»

لم تخف عليه الإشارة، وعندما بدأ التصريح كتم ضيقه، ما آله، ما نال منه، هذه اللهجة الباردة المحددة، التى تحمل من النذر بقدر ما فيها من تفصيل. تحدث الرجل عن الشقة، عن ضرورة أن تكون من أربع غرف، لابد من عمل حساب المستقبل، هناك أولاد سيجيئون بإذن واحد أحد، ثم أشار إلى الأصول.. أكد أنه لن يبخل بجهد على ابنته، ليس عنده الآن غيرها، المطبخ كله من واجبات العريس، أيضا سخان الحمام، والنجف والسجاد، السجاد بالذات يفضل أن يكون ست عشرة عقدة، كذلك الستائر عليه..

هنا قالت الأم:

ـ «ودولاب الفضيات..»

أشار الأب بيده:

ـ «بعد، بعد، هذا من الكماليات، طبعا هو حر، إنه بيته..»

أكد مرة أخرى على السجاد، السجاد بالذات، اليدوى أفضل، قيمته فيه، كلما مر عليه الزمن ازداد سعره، تماما كالذهب..

قال انه لابد من تكسية الجدران بورق حائط قابل للغسيل، أما النجف فلابد أن يكون من الكريستال الحقيقى، الصافى، هناك انواع من البلاستيك يظنها من لا خبرة له أنها كريستال، لكنها ليست كذلك، لذا يجب الانتباه.الوسائد.. مرتبة السرير.. تنجيد مقاعد حجرة الاستقبال.. أوانى الزهور.. من مسئولياته. أيضا فإنه لا ينصح بموقد محلى الصنع، من الأفضل أن يكون مستوردا، يمكن شراؤه من السوق الحرة بالدولار، لا يسألون عن مصدر العملة الصعبة الآن، أما الدولار فمتوافر فى السوق السوداء، مهم الموقد جدا.

ـ «ياسلام لو أمريكى الصنع..»

صحيح أن السعر مرتفع، لكن الغالى ثمنه فيه.

ـ «عند شقيقتها موقد ممتاز يعمل بالبوتاجاز والكهرباء..»

كان إصغاؤه إلى هذه التفاصيل ثقيلا عليه، يومئ متمنيا انقضاءها بسرعة، بل إنه ينكمش في جلسته، يلملم ذاته، يتساءل، لماذا يعاملونه هكذا؟ لم يشأ إغضابهم، لم يرد طلبا مادام في قدرته، لكن لماذا يضغطون؟! لماذا تبدو كلماتهم حادة، صارمة؟! تفاصيل تؤدي إلى تفاصيل، والتلميح لايدوم، إنما يسفر عن تصريح حاد، محرج، ملزم.

كان ينصرف عند الزيارة وعنده كمد، وثقل داخلي، ود لو أفضى إليها بعتاب يسير، ألا تدرك ظروفه؟ ألم يتعاهدا على استكمال بيتهما خطوة، خطوة، لايبخل، لايشح، لماذا يحمل بما لايطيق، لماذا تتوارى مبتعدة عند بدء الحديث في الأثاث.. والستائر، وأدوات المطبخ، ومكان إقامة الفرح، إنه يضطر إلى تبديل الخطة، يضطر إلى الإقدام على ما كرهه منذ تخرجه، أن يلتحق بعمل إضافي في مطبعة يمتلكها رجل ثري عنده مصنع للصابون، وشركة لعربات النقل، كان بحاجة إلى من يثق به ليدبر له أمور المطبعة التي ورثها عن أبيه، اضطر إلى التضحية بساعات فراغه وراحته.

لسنوات طويلة، كره النظر إلى الأسورة الذهبية المحلاة بسبعة جنيهات ذهبية من عصر جورج الخامس، كان ثمنها مرتفعا أخل بما ادخره.

أثناء خطبتهما، كان أقارب لها في زيارة، بعد تناولهم الغداء، قعد صامتا، كان لا يرتاح في جمع غريب عنه، يشعر

أنه يقوم بدور فرض عليه، أنه خلع عنه هويته، أودعها فى مكان غريب، قامت حماته، عادت بعلبة القطيفة الحمراء مفتوحة، ترقد الأسورة فى كفنها المخملى، طافت على الحاضرين باسمة، راضية، متباهية، سرى عبره خجل، ود لو توارى، لماذا عرض الشبكة؟ مالزوم ذلك؟ تذكر يوما بعيدا عندما صحبه أبوه إلى فرح أحد الأقارب، بعد قراءة الفاتحة، طاف شقيق العروس يعرض الشبكة على المدعوين.. أسورة وقلادة وخاتم وحلق، كان بعضهم يمعن النظر، يطيل التأمل، يتفحص، يقلب، ثم يهز رأسه، فينتقل الشقيق إلى آخر.

لكم ود انقضاء هذه الفترة، معللا النفس أنهما بعد انتقالهما إلى بيتهما، بعد بدء حياتهما، ستبدأ أوضاع جديدة، وتتغير أمور، تمنى تغييرها.

هنا لابد من الإشارة إلى أن أحواله فى الشهور التالية لزواجه مباشرة لايعرف عنها الكثير، كان يبدو صامتا فى معظم الأحيان، على ملامحه تلك الابتسامة الهادئة، البسيطة، المستفسرة، والتى كانت تبدو إذ يواجه موقفا صعبا، وبالتحديد عند الشروع فى عدوان من الآخرين، باللفظ كان أو الرغبة فى المضايقة، كأنه يتساءل بدون حرف، «لماذا.. إذا كنت لم أقدم على شر؟».

لكن من الثابت.. المؤكد، أنه عرف الطريق إلى المقهى، كان المقهى مرتبطا عنده - من قبل - بتبديد الوقت، برفقة السوء،

وكثيرا ما استعاد قول والده، إنه لم يقعد بالمقهى إلا لضرورة.

كان فى مطبعة الجريدة زميل له، مرح دائما، خفيف الظل، عنده قبول، صحبه يوما بعد انصرافهما ودعاه إلى تناول الشاى فى مقهى يقع بالقرب من محطة الأوتوبيس، بعدها اعتاد أن يمضى إلى هذا المقهى، كان مطلا على شارع هادئ يؤدى إلى باب اللوق المزدحم.

فى البداية طابت له الخلوة، تعرف إلى عدد، اقترب منهم واقتربوا منه، برغم التزامه الصمت، فإنه كثيرا ما أفضى ببعض من دقائقه إلى صاحب كان يمتلك متجرا للعطور، وكان من محاسنه إجادة الإصغاء إلى محدثه، هادئا، غير ذى ضرر.. وقد كمد عليه عندما عاد من الخارج فى إحدى أجازاته بعد سنوات، وفوجئ برحيله فجأة، هكذا بدون مقدمات.

كان يقعد فى الموضع ذاته عندما سحب نفس الدخان، ولم يخرجه، مال رأسه على صدره، سبحان من استرد أمانته، لا معقب لحكمه.

كان يدخل المقهى فلا يلقى أحدا من معارفه، عندئذ تدركه وحشة، يبدو قلقا، يسأل عن فلان، ألم يظهر؟ وفلان. ألن يأتى؟ يبدو مهموما لغيابه، مع أن أحدهم لو ظهر وجلس إليه ربما امتد الصمت بينهما ولا يجدان ما يقولانه.

دام أمره على هذا حتى سفره من مصر كلية، لم ينقطع عن

المقـهى سنوات متـصلة، وبعـد عودته كـان يسـرع فـى أول ليلة، أحيـانا ينادى المعلم عليه ليرد على الهاتف، على الفور يعرف، إذ يقترب يقول المعلم :

ـ «البيت..»

كـانت تسـأله عن أمـور بسـيطة، كـأن تطلب منه ألا ينسى شـراء بعض الخـبـز، أو الشـاى عند عـودته، يدرك أنهـا تطمـئن على وجـوده، أو تنبـهـه إلى أنهـا فى أثره، لا تسـتـغـرق المكالمة أحيانا إلا دقيقة أو نحو ذلك.

بعـد زواجـه وإذ يطول صـمـتـهـمـا، تتسـاءل فـجـأة: فى أى الأمور تفكر؟.

كان يجيب: لا شىء. تبدو غير راضية، تتساءل:

ـ هل هذا معقول، أنت لا تريد أن تخبرنى!

ثم تقول ضـجرة:

ـ «كلمنى».

فيلتفت حائرا.. تقول:

ـ «هل تقعد ساكتا فى المقهى؟»

تلوح ابتسامته تلك، تشير بيدها.

ـ لا أدرى سببا لضـحكك.. هل تسـخر منى؟»

ينفى ذلك.. يقول إن الكلام يأتى تلقائيا، بدون قصد، لكن يبدو أن رده لا يعجبها، تعرض عنه، لا تلوح إلا مقطبة، لم يكن هذا إلا عين المضايقة منها، لكم ود مضى ايامهما بدون منغصات، يحرص الا يغضبها، خاصة أن الأسباب المؤدية إلى الكدورات لم تكن إلا هينة، شاءت أن تضخمها، أو إبداء ردود فعل لا تتناسب، لم تكن تبادر بالغضب الفوار الجامح، لكنها كانت تنسحب إلى داخلها فى هدوء ممض، أو تجيبه بحيادية، وكلما أمعن فى الاستفسار، تنفى بما يؤكد الحال.

فى الشهور التالية لزواجه كان انتقاله من حياة إلى حياة، من بيت إلى بيت.. أمر له جانبه الثقيل عليه، بقدر ما انتظر من مباهج حياته الجديدة ، قدر ما أدركه أسى، فما كان بينه وبين والديه وشقيقته لن يعود، خصص يوما كل أسبوع يخرج فيه من عمله ليتناول الغداء عند والديه وأخته.. فى المساء تلقاه امرأته صامتة، تجيبه بقدر، لا تسأله عما إذا كان يريد شيئا، لكنها تقول له وهى تولى مسرعة إلى الداخل: «سأنام.. عندك الأكل جاهز فى المطبخ..»

اصعب أوقاته وقتئذ ـ أفضى إلى صاحب له ـ بقاؤه وحيدا، تغمره وحشة، يبقى بمفرده طوال الليل، كيف يواتيه النوم؟.. هى بجواره وبعيدة.

فيما تلا ذلك باعد مابين زياراته لأسرته، أحيانا كان يخرج من عمله قبل موعده بساعتين أو ثلاث، عندئذ يهرع إلى والديه،

عند دخوله يبدى العذر بعد العذر، يتعلل بانشغاله، وعمله ساعات إضافية، إذ تقوم أمه لتعد له الطعام يسارع إليها، يرجوها أن تستريح، ألا ترهق نفسها، إنما جاء ليطمئن، فى البداية كانت تستجيب، تقول:

ـ «البيت بيتك يا ولدى..»

لكنه أدرك أنه يحول بينها وبين ما تحب، أن تعد له الطعام، احد واجباتها القديمة، تعرف ما يفضله، فيما بعد كان يقول بمجرد دخوله، «أنا جائع..»

وكانت ترجوه أن يخبرها بمجيئه مقدما، فيضحك قائلا: إنه لا يود ان يعامل كضيف فى بيته، لكنه يعى أنها تفهم، ما عنده يصلها، بدون حوار منطوق، وعندما يصمت، وتطرق هى، عندئذ يتم الإفضاء والبوح، ولحظة انصرافه يصر على تقبيل يدها، يودع فيها ما لم يقله.

عند عودته إلى البيت يبدى النهم فى تناول الطعام، حتى لا تظن امرأته أنه مضى لزيارة البيت القديم كما كانت تسميه، لكم ود ألا يغضبها، ولكم تمنى أيضا ألا يسبب ألما لمن أحبوه بدون غرض!

لم يسفر، لم يظهر، ولكن من تصريحه ذى الدلالة، ما قاله يوما لصاحب فى لمقهى، إن النساء متشابهات، اللواتى تلقين التعليم منهن، الجامعى أو غيره، كذا من لا يعرفن القراءة

والكتابة، غير أن صاحبه لم يوافقه، وضرب مثلا بالمرأة ابنة البلد، التي تلقت أسرار الحياة من أمها، انظر كيف تتهيأ للقاء رجلها، كيف تنتظره عند رجوعه، تتطيب، وتتزين، وتبدى الهمة.

مال عليه صاحبه، فى الأحياء الشعبية يعرفن أسرار النكاح عند البلوغ.. هذا مهم جدا بالنسبة للرجل، المهم أن تعرف المرأة ما يرضى رجلها.

قال صاحبه إنه يعرف أحدهم، متزوج منذ عشر سنوات، لكنه تخجل من مصارحة امرأتة بما يرضيه، وما لا يرضيه، بعضهن يؤدين هذا كواجب، ثم قال صاحبه إنه يعرف امرأة متزوجة لا تتجرد من ثيابها تماما أمام زوجها، لا تسمح له إلا بأوضاع معينة، لا ترويه أبدا، قال إنه عرفها وكان بينه وبينها ما كان.. رأى منها عجبا، تتابعت رغباتها حتى إنه لم يستطع المواصلة لنهمها وغرابتها، كانت تقول انها لا تحب رائحة زوجها، عرقه فظيع!

كان يصغى إلى ما يدور حول الجنس بين صحبه، لا يشارك إلا بقدر، لا يلمح ولو من بعيد إلى حياته الخاصة، قال صاحب له فى المقهى، متخصص فى صنع إطارات الصور..

- «تصوروا أنه لم يعرف غير زوجته!»

غضب، انقطع عن المقهى أسبوعين، لم يرجع إلا بعد أن اتصل به ثلاثة من المقربين، وعدوه بالكف عن مثل هذه

المداعبات، إلا أنه فى ليلة تالية شارك فى الحديث فجأة، قال إنه يعرف شخصا كان زميله فى المدرسة، التقى به بعد سنوات من تخرجهما.. راح يشكو خيبة أمله، أعد فى مخيلته برنامجا حافلا بالمتع، لكنه لاقى من امرأته صدودا وعدم مجاوبة، إنه يضطر إلى الاستمناء أحيانا، لم يتصور أن ذلك سيحدث وامرأة فى متناول يده.. ينام ملامسا جسدها بجسده وهى عنه مستعصية.

توقف، كف فجأة عندما انتبه إلى النظرات ذات المعنى المحدقة به، انهى روايته قائلا:

ـ «عالم غريب..»

اعلموا يا صحب أنه ردد دائما ان امرأته طيبة.. مهمومة دائما بالبيت، وحاجاته، لم تقصر قط، خاصة بعد مجيء أولى البنات، بكريته، كانت امه تسأله عن احواله، عن امرأته، لم تصحبه لزيارتهم الا مرة أو مرتين فى السنة الواحدة، وعندما تجيء تتكلم قليلا، تأكل ببطء، حذرة، متمهلة، حتى انه أحرج غير مرة، ولم يخف عليه عتاب أمه البادى في عينيها، فيما بعد قالت له:

ـ «ربما لم يعجبها الاكل..»

ثم قالت:

ـ «كل انسان بما تعود عليه..»

بعد ذلك آثر ألا يصحبها، احيانا يقول إنها تعتذر عن المجيء، فالدنيا مشاغلها كثيرة، وهى عندها الشغل والبيت، وأحيانا تنام لشدة إرهاقها: تقول أمه:

ـ «الله المعين!»

بعد عام من زواجه، بعد احتفاله بالعيد الأول، لم يتبق إلا ثلاثة أشهر ويصير أبا، تأخر حملها مع أنهما لم يستخدما أية موانع، لا أقراص ولا لولب ولا عازل.. كانت تردد دائما رغبتها فى الانجاب، ويدركها رعب أن تصبح مثل أختها. كانت شقيقتها تتردد على مستشفى خاص لطبيب مشهور، بعد اصابتها بعقم لا ذنب لها فيه، وتفصيل الأمر انها بعد حملها أول مرة أخبرها الطبيب المعالج أن فى الحمل خطرا، لا بد من الإجهاض.

لم يكن ثمة مفر.. لكن حدث أن الطبيب أوكل العملية إلى مساعده الشاب الذى كان غير ذى خبرة كافية، ويده لم تثبت بعد، تسبب فى ثقب الرحم.. إثر ذلك لم يتم لها حمل قط، رقدت على ظهرها ثلاثة أشهر كاملة كما نصحوها، غير ان الأمر بات مؤكدا، والنتيجة معروفة فى كل مرة، الحق أن رجلها ابدى فيضا من رقة وحنو، خاصة بعد تأكده انعدام الخلفة، لكن أملها هى لم ينقطع، طافت بأطباء عديدين، حتى استقرت مع هذا الطبيب الكبير، أجرت تحليلات وكشوفا سببت لها آلاما، ومعاناة، تعلقت بأمل اكتشاف علمى يوما ما يحل المشكلة لعل وعسى.

وأعود إلى امرأة صاحبنا، طلبت أن تكون الولادة على يدى هذا الطبيب المعالج لشقيقتها، إنه مشهور، يستضيفه التليفزيون، تشير اليه الصحف، وآخر ما ذكر.. أن امرأة سفير الدنمارك أرسلت إليه خطاب شكر تشيد ببراعته، وعنايته بها اثناء اجراء عملية جراحية.. مما دعا الصحف إلى التعليق معتبرة هذا فخرا يجب الإشادة به.

أصغى إليها، لم يقل نعم، لم يقل لا، لكنه أخفى ضيقا، تكاليف المستشفى مرتفعة، لم تكن دور العلاج الإستثمارية قد ظهرت بعد، كان عقد السبعينيات ما زال فى بدايته، لم تلح بعد علاماته، برغم هذا كان ذلك المستشفى معروفا بارتفاع نفقاته، حتى تردد أنهم يحسبون سعر كوب الماء المقدم، على أساس أنها مياه معدنية مستوردة من نبع معين فى جبال الألب السويسرية!.

لم يطلب منها الذهاب إلى مستشفى آخر أقل كلفة، الأمر يتعلق بمولود قادم، كانت تلمح إلى تردد شقيقتها عليه للعلاج، للعلاج من أجل ماذا؟، من أجل أن تحمل، وهما اللذان أنعم الله عليهما بالخلفة، هل سيبخل؟ هل سيضمن؟ صحيح أن عديله أقدم، إنه ليس مجرد رئيسه فقط، إنما عنده أعمال أخرى تدر عليه دخلا، إذ تستعين به شركات طباعة لحل بعض ما يواجهها من مشكلات، خاصة فى الماكينات الألمانية الصنع، سنوات خبرته أطول، انه أيسر حالا، لكنه لم يشأ إبداء المعارضة، المولود القادم أول فرحتها، بل فرحتهما معا.

هل يثير المشاكل؟

لا.. لا داعى.

جهد يسير منه ويتوافر المطلوب، عاد ليعمل فترة بعد الظهر، لكن فى مطبعة أخرى، ساعده عديله هذه المرة، كان يتقاضى من العمل الإضافى مبلغا يتجاوز ما يقبضه من الأصلى، فــيــمــا يلى ذلك.. ولمدة سنوات لم ينس قط استعداداتهما لاستقبال المولود الأول، شراء الملابس، والمفارش، أحذية القماش الصوفية، أوعية الرضاعة وسائر ما يلزم.

كانت فى لحظات الصفو، تبدو وديعة، مستكينة، تسند ظهرها إلى بعض الوسائد، تطلب منه أنه يضع أذنه على بطنها، كان يصغى إلى حركة الجنين. تنتابه مشاعر شتى لا يدرى كيف يعبر عنها. تقول هى:

- يبدو أنه شقى!

ثم تتوه بنظراتها فى الفراغ، تتحدث عما ستجىء به السنوات المقبلة، لابد أن يبدأ البحث منذ الآن عن مدرسة لغات، المدارس قليلة، الزحام شديد، والوساطة مطلوبة من الآن.

تلك أفضل حالاتها، ترق، تشف، حتى أنها تطلب منه زيارة والديه، ألا يهمل السؤال عن أمه بالذات، يا سلام.. يا سلام على رضا الأم، لماذا يمضى وقتا طويلا بعيدا عنهما، لماذا لا

يمر بهما؟، لابد أن يقبل أمه، يخبرها برغبتها أن تكون بجوارها يوم الولادة، أمه طيبة، بركة، لكن.. لماذا لا يمضى إليها الآن؟.

تبدو عيناها دامعتين تأثرا، يؤكد لها أنه سيزورها غدا، يود لو أخبرها بزيارته الخاطفة السريعة، لكنه لا يفصح، فى اليوم التالى يمضى وقتا أطول عند والديه، حتى أنه يبدل ثيابه ويرتدى جلبابا تحفظه أمه له وتغسله بانتظام، تكويه وتعلقه، يتمدد، يغفو، تماما كالزمن القديم، بعد عودته، تسأله امرأته:

ـ «أين كنت؟»

الله!، ألا تعرف أنه مضى إلى والديه؟ ألم تطلب ذلك منه أمس؟ عندئذ تهز رأسها..

ـ «آه.. لكنك تأخرت..»

ثم تطوى ملامحها، فلابسمة، ولا ايماءة، وعلى هذه الحال تتم يومها، يدارى ما به، إنها حامل، والانفعال خطر على الجنين..

هنا لابد من تأكيد، أنه لم يبد لها ما عنده، لا قبل الحمل ولا بعده، كان يكتم، ويزفر أنفاسا حرى، يمضى إلى ركن قصى ناعيا ميل حظه وسوء بخته.

مع اقتراب موعد الوضع صارت أكثر عصبية، أصبح هو أكثر رقة، كل مساء يصحبها للمشى فى الشارع، نصحها الطبيب بذلك، كانا يقطعان الطريق صامتين، ينبهها عند نهاية

الأرصفة، أو النتوءات، أو يمسك بذراعها تلقائيا عند اقتراب غريب.

ليلة الوضع لم تكن هناك علامات غير عادية، لكن عندما بدأ الألم المتقطع يتردد عند منتصف الليل، نزل، اتصل من هاتف الصيدلية المجاورة بشقيقتها، مرت على والديها، جاءوا عند الفجر، وبعد أن دخلت الحمام، تبعتها أمها، خرجت معلنة أن علامة الولادة نزلت.

السابعة إلا ثلث صباحا خرجت الممرضة من غرفة العمليات، كانت تحمل لفافة بيضاء، بدت مبتهجة، توقفت، طلبت إغلاق النافذة العريضة فى نهاية الممر، عندما اقترب منها، أزاحت القماش.

ياه.. لم ينس هذه اللحظة قط، المواجهة، بين الأصل والفرع، وجه صغير دقيق الملامح، مغمض العينين، مصفر الوجه، شبه شديد لم يره فيما بعد بهذا الوضوح كما رآه من بكورة هذا الصباح، فيما تلا ذلك من شهور وأعوام تغيرت الملامح، كانت تقترب أحيانا، وتنأى، لكنه لن ينسى أبدا لحظة المواجهة الأولى تلك.

«عروسة زى القمر..»

غمرته حالة من التأثر الغامض، همس عديله فى أذنه أن يعطيها حلاوة البشارة، دس فى يد الممرضة خمسة جنيهات، عندئذ امسكت بأنف المولودة، وارتفعت الصرخة

الحادة الثاقبة..

أمران انطبعا فى ذهنه، استعادهما مرارا فى غربته، ملامح المولود، وتلك الصرخة. للأسف، لم يقدر له فيما تلا ذلك أن يحضر اللحظات الأولى لمجيء ابنته الثانية إلى العالم، كذا ابنه.. تلقى خبر وفودهما في غربته، ولدت الثانية وهو في ذلك البلد العربي، وجاء ابنه وهو فى البلد الاوروبى، أما لماذا سافر إلى هذا، وإلى ذاك.. فلهذا أيضا تفصيل لا بأس من الوقوف عليه..

حقيقة، لم يفكر قط فى العمل خارج مصر، لم يخطط ولم يشرع فى ذلك، ولو انبأه أحدهم أنه سيفارق القاهرة إلى أرض غريبة أثناء شتى مراحل دراسته، أو فى سنين عمله الأولى، سواء بالمطابع الأميرية، أو فى تلك الجريدة لما صدق، لأكد استحالة ذلك، لتساءل مستنكرا:

وكيف يتأتى ذلك؟..

لكن، دعونى أتساءل، هل تتسق البدايات مع النهايات؟، هل تمضى المصائر كما تمنى أصحابها؟ وهل يتحقق ما يرجوه المرء أبدا؟ المهم.. أن ما لم يتخيله حدث، وما كان وهما صار واقعا..

عبارات عديدة قيلت فى حواراتهما الليلية، كانت فى البداية تلميحا أو إيماء، محورها ضرورة إيجاد حل، تكاليف الحياة فى تزايد مستمر، ما كان يكفى امس لا يفى اليوم، العمل

الاضافى فيه إرهاق، فيه استنزاف لجهده، يرجع لينام وأحيانا لا يلحق تناول لقمة. والعائد لا يوازى، حرام.. هذا فوق طاقته.

كثيرون بدأوا السفر، فى السنوات الماضية لم تسمع إلا عن سفر المدرسين لكن كثيرين الآن يمضون للعمل سنة أو سنتين، يعودون فتتحسن الظروف، زوج إحدى زميلاتها عاد بالسيارة بعد سنة واحدة لا غير، ليست سيارة فقط، إنما تليفزيون ملون، وجهاز فيديو، وثلاجة ببابين، وهما الآن يبحثان عن شقة أوسع.

هذا البيت الذى يعيشون فيه، ما أضيقه، هل يصلح لهم فى المستقبل؟ كيف سيتحركون فيه؟. هل سيظل الأثاث على حاله؟ أليس من الأفضل أن يحسن الإنسان ظروفه، أختها تغير ورق الحائط كل سنة مرة، التغيير ضرورى، والبنت.. ماذا عن البنت؟ ومن سيجىء بعد البنت؟ أليس من الواجب تكوين رصيد، أو وديعة فى البنك، ألم يفكر فى ذلك؟

مع توالى الأيام صار خطابها مباشرا، فى كل يوم تردد المعنى وإن اختلفت العبارة، من الضرورى أن يسافر، فى السفر حل للمشاكل الآنية، وتأمين لما قد يستجد، عليه أن يلحق، الفرص لا تدوم، وما يتاح اليوم ربما لن يجده غدا.

الحق أنه بدا كارها للسفر، لم يتقبل فكرة اغترابه، بل لم يتخيل سفره إلى بلاد لا يعرفها، ولا يعرف ناسها، وأهلها،

فكر فى إمكانية عمله فى أحد المشروعات الاستثمارية الجديدة، ولكن من أين له تلمس الطريق، وكيف الوسيلة؟..

أصحاب المؤسسات الجديدة والمشروعات الانفتاحية لا يقدمون الا على تشغيل الأقارب، أو من ينتمون إلى أصحاب النفوذ بصلة، اقاربه هو فى حاجة إلى مساعدة منه، ولا يعرف شخصا من ذوى النفوذ، صحيح أن سمعته حسنة فى مجال عمله، عرف عنه الدقة، وبذل المجهود الأتم، والقيام بالمهم الأكمل، لكن هذا كله لم يعد مبررا، لا يشفع إلى وسيلة أو غاية، ثمة تغيير يسرى، يدركه فى مجمله، مما يصل إليه، فيما يقرأه، أن ما يجرى غريب عنه، أو هو فى غربة عما يحدث، لكن السفر للعمل شىء آخر، تغيير عمله هنا يتم داخل الدائرة، فى اطار مألوفه، لكن سفره.. هذا كون مغاير لما عهده، حتى لو كان الخلق لهم نفس اللسان، لا يتصور انقطاعه عن المقهى، وصحبه، معقول هذا؟.

هل تتوالى الأيام بدون السعى فى شارع محمد على إلى بيت والديه؟..

هل سينقطع عن تجواله، عن التطلع إلى صمت النهر، إلى السماء الشتوية والغميمات الشفقية، وهبوب النسيمات فى الليالى الصيفية، لا يتصور هذا أبدا.

هل يتحول وجوده المعاش إلى مادة للحنين القاسى؟ صعب.. والله صعبا.

قال لامرأته وهو يحاول.. إن الحصول على عقد ليس بالأمر السهل، قالت فليبذل جهدا من ناحيته، وهى لن تقصر. تساءل متعجبا، وأى جهة ستطرقها هى؟، قالت إنها تحدثت بالفعل إلى زوج شقيقتها، وأن الرجل وعدها خيرا، أشارت بأصبعها - الغريب أنه لم ينس هذه الإشارة لسنوات - قالت:

- سنة واحدة تتغير بعدها أوضاعنا..

فى هذه الفترة لاحظ أصحاب المقهى صدوده، وابتعاده، يقعد بينهم لكنه بعيد، يذكر أحدهم قوله له بدون مقدمات، بدون أن يؤدى مجرى الحديث إلى مضمون نطقه..

- «يظهر أننى سأغيب عنكم!»

لم ينبئ بخبر، لم يفسر، لم يشرح.

فى تلك الأيام مضى عبر الطرق التى اعتاد المشى فيها، والنواصى التى ارتبطت عنده بأيام ولت.. يرى العالم بعينى المودع.. أطال المكث فى بيت والديه، وقعد فترات إلى شقيقته، ربما أدرك وقتئذ أن حياته تفترق عنهم، كخطوط السكك الحديدية التى تتجاور، وعندما تتقاطع وتتفرع تتباعد فجأة، بنفس سرعة القاطرة التى تدرج فوقها، فلا يحيط بها النظر إلا للمحة، سرعان ماتندثر.

حقا، ما أسرع مضى أيامه، إنه ممعن فى البعد، مولى صوب جهة مغايرة لتلك التى ضمته وإياهم، ما بقى بينه وبينهم جوهر الصلة، ولب المودة الذى لا يرصد، لا يرى، لكن لم يعد

هناك لحمة الحياة وسداها، دقائقها وتفاصيلها، مصادفة يعرف أن أمه زارت الطبيب، قديما كان مجرد تفكيرها فى التردد على إحدى العيادات يثير لديه اضطرابا، وخوفا من المجهول، مرة أخرى لمح أباه مصادفة ينتظر عبور الطريق عند ميدان باب الخلق، كان يركب سيارة عامة، ولم يهم بالنزول. إنما أدرك من لمحة خاطفة ما لم يدركه بالقربى.. الهرم الذى لحق بوالده، كأنه وعى فجأة، لكم تقدم فى العمر، كيف غاب عنه الأمر؟.

فى تلك الأيام جال فى الطرقات طويلا، أوى إلى المقهى كثيرا، أصغى ولم يتكلم إلا نادرا، حتى إذا حانت اللحظة التى خشيها وحاول تجنبها، انطوى بعيدا عن الخلق فى صالة المطار.

اعلموا يا صحب، أنه خرج وحيدا، أصر ألا يصحبه أحد للوداع، لا الزوجة ولا والداه، شقيقته فاجأته بقدومها، قالت إن أمها أصرت، وإنها تبلغه برضائها عنه، وصفاء قلب أبيه له، ودعواتهما من أجله، أعطته مصحفا صغيرا، قالت إن أمهما تتمنى لو احتفظ به دائما على مقربة، حاش دمعة قسرا، وعندما ارتفعت مقدمة الطائرة، فارقت عجلاتها الأرض، عندما مال الخط الأبيض الذى يحدد الممر، ثم تلاشى، رجف قلبه وهوى، تابع البيوت التى تحولت إلى خطوط، والشوارع التى تلاشت ملامحها، وسرعان ما غطاها ضباب خفيف.

لطالما قرأ عن السحب التى تبدو تحت الطائرات، كان يمكنه اطالة النظر، التأمل، لكنه نظر ولم ينظر. رأى ولم ير، ود لو أن سفره الأول هذا كان موقوتا.. أسبوعا، أسبوعين فى مهمة ويعود محملا بالهدايا، يفيض فى رواية ما شاهده لأصدقاء المقهى.

هل من المعقول أن يقضى سنة كاملة قبل أول أجازة؟ هذا ما نص عليه العقد.

فى الليلة الأولى لوصوله كتب خطابين.. الأول شرع يسطره قبل أن يقلع هدومه، فور دخوله الحجرة فِى فندق حجزوا فيه أربعة أيام له حتى يدبر أموره، خطاب والديه، أوصى أمه بتناول دواء الضغط فى مواعيده، الانتباه إلى طعامها، رجا أباه الانتباه عند عبور الطرق، فالشبان الصغار يقودون السيارات الحديثة بسرعة، لا يعبأون بزحام المدينة، الح على شقيقته الا تتأخر عند عودتها من الجامعة، بعد أن كتب العنوان على المظروف، قام ليتأمل الحجرة، نظيفة، فسيحة، فيها تليفزيون، وراديو إلى جوار السرير وثلاجة صغيرة فى الجدار، داخلها قطع حلوى، وعلب مياه غازية، مستديرة، أنيقة، بدأ دخول أنواع منها إلى مصر.

الحق.. ان الجماعة لم يقصروا، استقبلوه فى المطار، اوصلوه بالعربية، الفندق فاخر، قريب من البحر، لم يخرج محتويات حقيبته كلها، بعد أيام قليلة سيفارق، قبل نزوله إلى المطعم، كتب الخطاب الثانى إلى امرأته، قال ان ارادة الله

والظروف شاءت ان يكون بعيدا عنها وعن ابنته، لكنه سيعمل ما بوسعه كي يسعدهما، قال إنه بخير وإقامته مريحة، ولا ينقصه إلا رؤياهم، ثم أوصى بالانتباه إلى جدول تطعيم البنت، وعدم تعريضها للهواء، وإذا اضطرت للنزول إلى الطبيب فلابد أن تصحب شقيقتها أو زوجها. كتب فى الرسالتين أنه سيرسل عنوان سكنه الدائم بمجرد استقراره.

فيما بعد استعاد مرارا، وفى ظروف مختلفة تناوله العشاء بمفرده أول ليلة، كان القوم جمعا جمعا، تلتقى نظراته بعيونهم فى لحظات عابرة، وسرعان ما يولون بعيدا، لا يعرفه أحد، لا يدرى شيئا عنهم، حرص على أن يتناول طبقا واحدا، حتى لا يبدو مسرفا عندما يتأمل مضيفه قائمة حسابه، بل إنه قرر أن يتناول طعامه فى الخارج إذا سنحت الفرصة.

فى اليوم التالى مضى إلى المطبعة، المطبعة فى الضاحية الجنوبية، أما الجريدة فتحتل طابقين فى وسط المدينة التجارى، استأجر شقة صغيرة من حجرتين وصالة، فى بيت يقع على ناصية طريق متدرج فى الارتفاع، كان يمكنه منه رؤية الجبل والبحر، بدا له الجبل فريدا، لم ير من قبل ارتفاعا صخريا كهذا، تكسوه الخضرة، لم ير من قبل جبل المقطم، أما المدينة الحديثة المشيدة فوقه فلم يطلع ليجول فى شوارعها، لم ير منها إلا أنوارها المضيئة عندما كان يسلك طريق صلاح سالم ليلا، لم تكن إدارة الجريدة ومطابعها فى مبنى واحد مثل الصحيفة التى عمل بها فى القاهرة.

كان يتعرف على ما يبعد عنه، بحذر، حتى المدينة أوروبية الطابع، لم يتغلغل داخلها إلا متمهلا، وعلى خشية، فى القاهرة كانت الشرايين والأوردة تؤدى إلى القلب، ولكن هنا بدا له التكوين كجسد أنيق من بعيد، لكن لا رأس له ولا رجلين، لا ملامح.

جل وقته كان يقضيه فى المطبعة، حتى بعد انتهاء الزمن المحدد له، لم يعتد مكانا محددا يمضى إليه، لم يرتبط بمقهى، أو مكان معين، كأنه يخشى إقامة صلة، وجوده هنا مؤقت مهما طال، إنه عابر وليس مقيما، مع أن مكثه فى هذه المدينة دام عامين ونصفا، تبدلت فيهما الأحوال المحيطة به.

فى البداية كانت المدينة مبهرة، عندما عرف شوارعها كان يمضى إلى الرئيسى منها، يتطلع إلى الاضواء، المتاجر، المقاهى الحديثة، مقاعدها الملونة، الحلوى، الجيلاتى المكسو بالفستق، الوجوه الجميلة، جنسيات شتى،إلى مكاتب السياحة، إعلانات السفر إلى أوروبا، إلى أفريقيا، إلى أقصى أسيا، يلمح شذرات من العالم البعيد، كان يمر بواجهات الفنادق الضخمة، لا يتمهل، إنما يمضى بسرعة، لم يدخل إحداها، يتابع حركة الشوارع المتدفقة فى أيام الأجازات، المحلات الصغيرة، النوادى الليلية، لكنه لم يوغل.

كان ينظر بخوف إلى المسلحين، إلى ثيابهم العسكرية المموهة، شبان صغار تبدو عليهم الشراسة، والتأهب لخوض

القتال فورا، كان يخشى دخول مناطق معينة، ويحيد بعيدا عن شوارع حذره معارفه منها، فى المنطقة الفقيرة عرف مقهى متخصصا فى النرجيلة وداخله ركن لتناول اقراص الفلافل، والفول المدمس، صاحبه من الاسكندرية، لذا يقصده مصريون، بعضهم يقيم هنا وآخرون جاءوا إلى المدينة كمحط عبور إلى أوروبا، عدد منهم يعملون فى التهريب، لا يخفون ذلك، تذكر ما سمعه فى مصر عن تجار الشنطة، لكن ما خفى كان أعظم.

قال له أحدهم ذات مساء إنه يعمل فى تهريب الماس، وإن أحد معارفه على صلة بكبار تجار المخدرات الذين يقيمون فى قصور هنا، ولا يتحركون إلا محاطين بحرس خاص، الأفيون والحشيش يزرع علنا فى هذا البلد، ويعد من الصادرات التى تدر دخلا.

لم يدر، لماذا أفضى إليه محدثه بهذه المعلومات، أهو استهتار أو غرض آخر؟.

شاب جامعى، قال إنه ينوى السفر إلى تركيا، سيتاجر هناك فى السيارات، أصبح يصغى إلى محدثيه فى المقهى أكثر مما يتحدث، معظم من لقيهم يقفون على حدود المغامرة، وخوض أدوار لم يعدوا لها، ومن أجلهم أدركه رثاء وحزن.

كان بعضهم قد انضم إلى الفرق التى تعج بها المدينة، إلى هذه الطائفة، أو ذاك الحزب، أيقن أن هذا البريق لن يدوم أبدا. آثر البقاء معظم لياليه فى مسكنه، يجلس متابعا التيلفزيون،

كان بإمكانه فى الليالى الصافية أن يرى التيلفزيون المصرى، كان يتابع الأفلام الملتقطة فى الطرق، يحدق فى أطياف الوجوه، هل ثمة من يعرفهم.

اعلموا ياصحب أنه قضى عامين يحاول جاهدا تجنب المشاكل، كان صاحب الجريدة يرتاح إليه، يدعوه أحيانا لتناول العشاء فى مطاعم لم يفكر قط فى الدخول إليها، كان رجلا ضخم الجسم، محبا للحياة: نهما أكولا، عاشقا للنساء، يشرب فى اليوم الواحد زجاجة ويسكى كاملة، فى الصباح بعدالافطار يحتسي الفودكا التى يظهر أثر رائحتها، خاصة عند حديثه إلى المترددين عليه، هو أيضا لاعب ماهر، مدمن للقمار، ويقال إنه خسر فى ليلة واحدة عشرين ألف جنيه استرلينى.

كانت الجريدة والمطبعة، ودار النشر، والفندق، مجرد واجهات لأمور أخرى، الجريدة تمول من إحدى الدول العربية المجاورة، إذا تأخر المخصص الشهرى تعطل صرف الرواتب.

يقال إنه على علاقة بجهاز مخابرات أوروبى، لم يحدده أحد بالضبط، أما جل ثروته فيؤكد المقربون أنها من المضاربة على الذهب، والأسهم، ويؤكدون أنه من خبراء سوق المال، حتى أن أكبر بنوك أمريكا منحه بطاقة خاصة لا يحملها إلا عشرة من عتاة المضاربين فى العالم.

عامان بأكملهما قضاهما فى هذه المؤسسة، يصغى إلى كل ما يقال، لا يعلق، يقول إنه ليس طرفا على أية حال، وإن كان

مـا سـمـعـه حـوى أخطارا تزايدت بعـد ظـهـور رجـال أشـداء مسلحين، عرف أنهم حرس خاص، استعان به الرجل لحماية المطبعة.

كان وضع المؤسسة غريبا، الادارة ومكاتب التحرير فى منطقة تسكنها أغلبية من طائفة ينتمى إليها الرجل، أما المطبعة فمقرها هنا ضدهم، وان اضطرت بسبب هذا الاعتبار بالذات إلى تخفيف اللهجة خاصة بعد بدء الاضطرابات التى تمت فيما بعد، وان لم ينفع ذلك..

خلال هذين العامين زار القاهرة مرة واحدة، بعد غيبة سنة كاملة، أمضى شهرا قضى منه أسبوعين بصحبة امرأته وابنته فى فندق فلسطين بالإسكندرية، لكن من رآه فى هذه الزيارة يذكر حزنه البادى، وصمته، والبياض الذى طق فى شعره.

اعلموا أن لذلك أسبابا..

أولها ما رآه من ابنته الصغيرة، لحظة دخوله البيت ولت هارية، لاذت بأمها، عندما ظهر عديله، جرت إليه، مرحبة، معانقة..

«بابا..»

نزل به كمد عند سماعه ندائها، فى نفس الليلة أصغى إلى امرأته، تحذر ابنتها:

ـ «.. لا.. أبوكى هذا..»

لكن، هل يقدر على لوم طفلة؟

السبب الثانى سلسلة أمه فى المرض، قعدت، لم تعد تدخل أو تخرج، حتى الطبيب المعالج لا تقدر على الذهاب إليه، تلقته متهللة، مقبلة، قالت إنها ظنت الفراق، وإن ليالى عديدة مضت تود تنسم رائحته لا غير، لم تقل له لا تسافر.. اعتادت منذ الصغر ألا تلح عليه، ألا تكرهه على فعل شىء، لكنها قالت له:

ـ «ماتقعد يابنى جنب ابنتك وامرأتك..»

حدثها عن عقد موقع، وعن التزامات لم ينهها، وعن العام الأول الذى لم يتمكن الإنسان فيه من ادخار ما ذهب من أجله.

انصرف من البيت مغموما، كابيا عنده هم. ولوم لنفسه، لأنه اشترى قماشا من السوق المحلية قبل زيارته لوالديه، وقدمه على أنه أتى به من هناك، لماذا ذلك؟ حتى لا تطلع امرأته على ما يأتى به إليهم، أليس فى ذلك ضعف منه؟ إنه يعى ذلك.

لماذا ضمته أمه بهذه القوة؟ لماذا أطالت النظر إليه وكأنها لن تراه ثانية؟، لماذا أبقت رأسه على صدرها لحظات؟ هذا لم يحدث من قبل، أما والده فخطاه أقرب إلى الزحف، شقيقته كانت غائبة فى زيارته الأولى، لم يتبادل معها إلا كلمات معدودات، فى الزيارة الثانية بدت مهمومة بدراستها الجامعية، عندما خرج إلى الطريق، التفت إلى النافذة المستطيلة العتيقة، كانت أمه تنظر منها، تتطلع إليه، تتبعه بنظراتها، وكان واثقا أنها تبكى!

قبل أن يتم عامه الثانى فى هذا البلد بشهرين، تلقى خطابا بقدوم ابنته الثانية، فى الخطاب أيضا أنبأته امرأته أنهم أسموها «عفاف»، ود لو حملت اسم أمه، لكنهم لم ينتظروا رأيه، كأنه غير موجود، صعبت عليه نفسه، لكن لم الحزن؟ لم الغضب؟ إنه ليس موجودا بالفعل، ألم يبد فى بعض الاحيان خلال اجازته كالضيف؟ حتى مظاهر العناية به عمقت إحساسه بذلك.

لام امرأته، لام شقيقتها، وأقاربهما، لكنه عاد يلتمس لهم العذر، الخطاب يستغرق عشرة أيام، هل كانت البنت ستبقى عشرين يوما بدون اسم، وماذا عن شهادة الميلاد، والتطعيم، ترى.. هل دعوا أمه بعد مجيء المولودة؟ لم يطلعه أحد على ذلك، شقيقته لم تلمح للأمر فى آخر خطاباتها، كانت تطلب منه أدوية معينة لوالدتهما وتنقل إليه وصاياها، بدءا من ضرورة حرصه على صحته، وحتى الاهتمام بطعامه، ودعواتها أن يقصى الله عنه أولاد الحرام.

كان يقرأ خطابات شقيقته ولا يعنيه منها الا الاطمئنان على أمه، وأن مكروها لم يصبها، لكنه فيما بعد طلب من شقيقته أن تحدد بدقة التاريخ الذى بدأت فيه الكذب عليه، أكثر من سبعة شهور تمعن فى التفاصيل حتى توحى إليه بغير ما جرى وما كان.

في آخر خطاب منها قبل الحادث الذي تسبب في عودته، طلبت منه قماشا من القطيفة، حددت اللون، البني، ابتهج لذلك، حتى أنه اشترى القماش في يوم تسلمه الرسالة، وقد رأى أمه في المنام ليلة سفره النهائي إلى القاهرة، كانت ترتدي ثوبا قاتما من نسيج غريب، ليس مما عهده في العالم المحسوس، تحيط رأسها بعصابة سوداء، حولها نساء عجائز يتحلقن في شبه دائرة، يحملقن اليها صامتات، رانيات، كلهن في صالة فسيحة مجهول مصدر ضوئها، كات تنظر إليه عاتبة، وعندها آهات حرى، فلما سألها عن أحوالها قالت:

ـ سافرت بحسرتك!

صحا منقبضا، ولما تمت عودته، وعرف ما عرف، وأيقن أنه لن يراها، كمد وأخفى، حتى أن شقيقته رجته أن يبكي، أن يذرف دمعة.

لم يتسلم عمله مباشرة، أياما طويلة قضاها بمفرده، يلوذ بالتيه في الطرقات عند اكتمال الغروب، وبدء نزول الليل، لم يفارقه إدراكه أنه غريب، أنه انخلع من العائلة، لم يعد دعامتها الرئيسية، بل إن أياما عديدة انقضت قبل أن تناديه ابنتاه «بابا».

بعد تسلمه عمله، قالت امرأته، إن الأسعار ارتفعت، وإنها تطلب منه أن يتولى هو الإنفاق، لا يمكنها تدبير الأمور بالمبلغ الذي كان يدفعه قبل سفره، بدت له الفكرة صائبة، يسترد

بعضا مما راح منه، لكن المطالب توالت، لم يكن مصرا، أو راغبا فى التدقيق، لكنه فوجئ بفجوة بين مرتبه وما يجب أن ينفقه، اضطر إلى السحب من المدخر، ولم يكن فى حاجة لحسبة يكتشف بعدها أن ما ادخره خلال العامين سينفد بسرعة، كأنه لم يتغرب، ولم يتعرض لخطر، ولم يعان الوحدة.

هنا أرجع بكم قليلا لذكر السبب الذى عاد بعده إلى دياره، ذلك أنه لم يتم المدة، ولم يرتكب خطأ ما، بل إن صاحب الدار أشاد به دائما، ولكم ذكره بالخير فى حضوره، وغيابه، ولكن ما حدث لم يكن له فيه يد، ذلك أن الأحوال بدأت تتغير، اقتتل القوم فيما بينهم، بدأ تقسيم المناطق، وهجرة الخلق من منطقة إلى أخرى، تحددت المعالم بقسوة، ثم أصبح السعى فى الطرقات محفوفا بالمكاره، خاصة للغريب، لمن لا ينتمى إلى فريق.

حتى كان هذا اليوم، عندما اتجه من بيته إلى المطبعة، لكنه فوجئ بالسكك المؤدية مغلقة، وأناس يروحون ويجيئون.. ولما لاح له المبنى فوجئ.. دخان أبيض سائل يتخلله لهب، منذ أن وقع الهجوم والمبنى يذوى جزءا بعد آخر، تتصاعد منه هبات وانفجارات، طالت النيران مخزن الحبر، والمواد الطباعية الكيمائية، وجم ودنا من حافة البكاء غيظا، وقهرا، هذا مكان أودعه ما يقرب من عامين. لم يعد له مقام هنا، وبقى عليه انتظار اللحظة المناسبة ليصل إلى المطار الذى صار مغلقا معظم الوقت.

فيما بعد، اعتاد أن يقرأ أخبار المعارك فى المدينة، كان يتخيل الشوارع والمتاجر، والنواصى التى تتفجر عندها العربات الملغومة، يفكر.. لو وقع الهجوم على المطبعة نهارا لما أفلت، لاختنق، أو احترق، إنه يعرف جيدا ماذا يعنى حريق مطبعة.

حقا، قدر ولطف..

لكن بقدر ما بدت له الغربة منذرة بالمخاطر، فإنه أيقن باضطراره إلى الخروج مرة أخرى، لكن .. إلى أين؟

حاد به شىء لا يعيه تماما عن السياق القديم.

اعلموا أنه لم يتم سنة واحدة بعد عودته من تلك المدينة، إلا كان يستعيد الروائح الخاصة بصالة المطار، الهواء المكيف، وعطور غامضة، ومشروبات، وبقايا عابرين، قعد منتظرا الإقلاع شطر بلد آخر، لكنه فى هذه المرة لم يكن ذاهبا للعمل فى مؤسسة خاصة، عديله ساعده بما لديه من صلات فى الحصول على هذا العقد، بلد أكثر استقرارا، أموره ممسوكة بحزم، إنه يمضى كخبير، هذا ما نص عليه العقد، سيعمل مشرفا على مطبعة وزارة الإعلام. فى المطار انتظره موظف رسمى، أبدى ودا وترحيبا، كان هناك أيضا سيارة وسائق مرح، قال إنه لا يعترف فى دنيا الغناء إلا بصوتين، أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، اتجها به إلى بيت من طابق واحد، تحيطه حديقة، مؤثث، مطبخ فسيح توازى مساحته صالة بيته فى

مصر، لو أن الأسرة معه، كانوا سيمرحون فى هذه الحديقة الصغيرة الأنيقة، رحابة البيت، بساطة أثاثه، سطوع الضوء، بعث عنده راحة وحسن قبول، كان هناك هاتف أيضا.

عند عودته فى أجازة، سيبدأ إجراءات تركيب جهاز فى البيت، يمكنه الاتصال بابنيته، سماع صوتيهما، لكن أهم ما شغله ترتيب وسيلة تحويل مبلغ فى بداية كل شهر.

فى غربته الأولى، كان يحول مبلغا إلى زوجته عن طريق البنك كل شهرين أو ثلاثة، لولا ادخاره قدرا من المال لعاد خاويا تماما، علمته التجربة أن كل ما يصل إلى يديها تنفقه، لم يسألها، لم يسترجع الأمر، لكنه عندما لح فى إحدى ليالى الصفاء سرعان ما تكدرت، قالت إنها لا تنفق على نفسها، لم تشتر من الصاغة ذهبا ولا فضة، مع أن زميلاتها يكسين معاصمهن بالأساور، ويحطن أعناقهن بالقلادات، لكن كل قرش أنفقته فى البيت، البيت لم يستكمل بعد، هل يرضيه منظر الحمام؟ لابد من توسيعه، وكسوة جدرانه بالخزف، ومع ذلك لم تفعل، لأنها تراعى الأولويات، ماذا يقول الناس عندما يرون الصالون الصغير البدائى الذى اشتراه. لم توافقه عليه، لكنها لم تصرح وقتها حتى لا ترهقه، الصالون لابد أن يتغير، لابد!

اعلموا يا صحب أن مسافة بقيت غير منقوصة بينه وبين البلد الذى نزله، تماما كما جرى له فى البلد الأول، وإن اختلفت الأسباب، ليست اللهجة، أو الأزياء، أو ملامح العتاقة، لكنه

النظام عينه، هناك كانت المدينة تبدو مفتوحة، تعرض مكنونها جهارا، بما فيه من قوى حرب، ودمار، لكن المدينة هنا تبدو مضمومة، ملمومة، بعيدة، قصية عنه وهو يسعى فى قلبها، غير مبسوطة للغريب، المتاجر تغلق بعد الغروب مباشرة، تخلو الطرقات تماما إلا من عربات مارقة، يبعث كل شىء خوفا غامضا لم يكن يدركه هناك، حيث الرصاص يمكن أن ينطلق فى أى لحظة، هنا تنتشر طوال الليل عربات مسلحة، بينما يقف على النواصى شبان يرتدون الملابس المدنية، لكنهم يشهرون المدافع الرشاشة والبنادق سريعة الطلقات، يدققون فى الهويات، يطيلون النظر إلى الملامح، الأخطار هنا خفية، لكنها مبثوثة، لا تبين.

كان يواجه وحدة من نوع غريب، إنهم يبدون له احتراما جما، لا ينادونه إلا «سيادة الخبير»، لحظة دخوله المبنى الحديث الضخم يقوم موظف الاستعلامات محييا، لكن، لم يقترب من أحدهم، ولم يسمع شخص منهم إليه، لم يتلق دعوة لزيارة بيت، لم يرافقه صاحب إلى مقهى فى المدينة، ولم يسأله زميل عن حاجة له، ولو قابل واحدا منهم فى الطريق بعد انتهاء العمل، فكأنه لا يعرفه حتى ان تلاقت نظراتهما، مسافة تفصله عنهم، لم يدن منهم، أى محاولة كانت ستقابل بصد، اما معلن واما خفى، هذا ما أيقن منه، لذا لم يسرع!.

فى القاهرة اذا ضاق به الحال، يلقى متسعا هنا أو هناك، اقامة الجسور بين الخلق ميسورة، سهلة، لكن هنا تبدو الوجوه

جـهمـة، لكل شـىء ظاهر وباطن، هدوء المدينة مريب يخفى عنفا، صـمت الملامح يطوى غضـبـا، أو حنقا، لا يدرى، لكن مـا يراه عبر الملامح مخالف لما يدور فى الاعماق القصية.

كـان يخشى عطلة نهاية الأسبوع، يعول همـها قبل حلولها، مـا بين انتهاء الدوام ظهر الخميس، وحتى بدئه صباح السبت أثقل الأوقـات وأوحـشـهـا، بيتـه بعـيـد، مـحـاط بالفـراغ من كل جـانب، المنطقة كلها مـا تزال تحت الإنشـاء، الحشـائش تغطى مـسـاحـات واسـعـة، وثمة شـىء مـا يتربص، متـحـفـز على وشك الانقضـاض.

بعـد انتـهـاء برامج التليـفـزيون يطن الفـراغ فى رأسـه، يدير مؤشـر المذياع، يصـغى إلى القـاهرة، إلى عـواصم بعيـدة، إلى لغات لن يفك رمـوزها، عصى فهمها، وعندما تحين لحظة إيوائه إلى الفـراش، يتكوم، يفرد الغطاء حتى يخـفى رأسـه، كـأن هذه البطانيـة فى الشـتـاء أو تلك الملاءة فى الصـيف ستمـوه وجوده فى مواجهة خطر يحدق به.

نهـار الجـمـعـة تبدو السـاعـات ثقيلة، ملولة، يعيـد ترتيب الاشياء، أو يعد طعامه فيتأنى ويتمهل، أحيانا يكتب الخطابات، إلى امرأته، إلى والده.

الغريب أنه لم يكن يـخشى وفاة والده كثيرا، كأن رحيل أمه وهو فى غربة أوجـد عنده ألفة مع العدم، اعتيـاد لبدء الفراق، كـان يفكر فى شـقيقـتـه، وظروفـهـا بعد رحيل والده، أكـثـر ممـا

يفكر فى الرحيل ذاته، اعتاد الخطابات المطولة اليها، ينبئها بأحواله، لكنه يتحاشى أى إشارة إلى البلد، كل المظاريف تفتح، وصف أيامه، وتوالى الليالى، وشوقه إلى ابنتيه، واسترجع أياما نائيات، فمن ذلك جلوسهما فى الزمن القديم إلى مائدة الغداء، وعدم تناول أى منهم لقمة واحدة مهما بلغ الجوع مداه قبل رجوع الأب، إنه يذكر ترتيب القعدة، ومذاق طعام أمه، والفطائر التى كانت تقليها يوم الجمعة، وخروجه عند العصر.

الغريب.. أنه كان نادر الإشارة إلى امرأته وبنتيه، وابنه الذكر الذى رزق به بعد شهور تسعة من أول أجازة يزور فيها مصر بعد عمله هنا، أمضى شهرا كاملا، وقبل سفره أوصى لو جاءت بنتا فليكن اسمها صفية، لو ولدا فليكن اسمه محمد، وهذا ما كان.

فى خطاباته إلى والده لم يذكرهم إلا فى السطور الأخيرة، لكنه فى خطاباته إلى امرأته كان يكرر وصاياه، ألا تدع البنتين تنزلان إلى الشارع بمفردهما، أن تقف فى الشرفة عند ركوبهما حافلة المدرسة، أن تشدد عليهما فى عدم شراء الحلوى من المدرسة، أن يحذرا عند تلقيهما قطعة شيكولاتة أو حلوى، من إحدى العاملات، أو حتى من زميلاتهن، يؤكد أن أحدهم أخبره بمعلومات غير مشكوك فيها، وثيقة المصدر، بوجود عصابات تدس المخدر فى الحلوى، يقوم عملاؤها بتوزيعها مجانا على الصغار حتى إذا ما اعتادوا وأدمنوا

فرضوا عليهم الأسعار التى يريدونها، حذرها حتى من المدرسات، أرسل إليها قصاصة من مجلة وقعت فى يده مصادفة وجدها مع أحد المصريين العاملين هنا بالمقهى القديم، فى القصاصة خبر عن إحدى المدرسات، عملت فى الخليج لمدة عشر سنوات، جمعت مالا وادخرت ثروة، إلا أن أحدهم أقنعها بحمل كيلو واحد لا غير من الهيروين لتسلمه إلى شخص ما، فى مقابل هذا تحصل على أضعاف ما ادخرت طوال عشر سنوات من الكد المتصل.

كان يؤكد دائما أن الزمن لم يعد كما عهدوه، وأن المخاطر جمة، وما يسمع به غريب..

فى خطاباتها إليه عبارات متشابهة، تطمئنه، وتؤكد له أن كل شىء على ما يرام، وأنه لا ينقصهم غير وجوده بينهم..

وجوده بينهم؟!

أعلموا أنه توقف طويلا عند هذه العبارة، وأمثالها، إذن.. لماذا يشغله هذا الخاطر، البطىء المزعج ، لماذا تفاجئه تلك اللحظات الحادة عند استيقاظه صباحا، أنه غريب، وأنهم غرباء، يحاول الدنو منهم، وبقدر ما يبذل من جهد خلال إقاماته القصار فإنهم يوغلون بعيدا، بل فى لحظات أمكنه تحديدها، خيل إليه أنه زائد عن الحاجة، أنه لا يعرف شيئا عمن هو من صلبه.

في البيت، يرن الهاتف:

ـ أنا منال ..

ـ منال من؟

ـ زميلة عفاف.

في المساء يسأل ابنته الكبرى عن المدرسة، عن زميلاتها، تجيبه باقتضاب، أحيانا بتفصيل، هل تبدو معجبة لأنه يستفسر؟ ربما، مرة أخرى فوجئ بوجود قائمة أدوية، يقرأ التاريخ..

ـ «لماذا لم تخبريني بمرض الوالد؟».

ـ «لم أشأ أن أزعجك..»

ـ «لكن.. ألم أوصيك بكتابة كل شيء إلى..»

تصمت.. مرة قالت إن ما يجب الكتابة عنه كثير، هل ترهقه وهو في غربته، يكفيه ما هو فيه..

لم يفته تعبها، وإرهاقها البادي ، مضيها إلى النوم مبكرا، كان في بيته وبين أولاده يلقى نفسه فجأة غريبا، ينوء بثقل غير مرئي، لم يكن معهم عند ذهابهم وعودتهم إلى مدارسهم، إلى الطبيب، إلى مركز التطعيم، في أمسيات الخميس، في مرات خروجهم لقضاء حاجاتهم، للترويح أو للتسوق، أو لزيارة الخالة.

ما حاول إقصاءه عن وعيه، عن الصور المستعادة التى يطيل التأمل فيها بعد عودته ، تلك اللحظات التى يرى فيها الأطفال زوج خالتهم، تبسط ملامحهم، يندفعون إليه، يحيطون به، حتى الولد! أما البنت الكبيرة فموقعها خاص، لم يعلم إلا فى الأجازة الثالثة أنها تقضى معظم أيامها فى بيت خالتها، أن لها حجرة تخصها هناك، ولاحظ فجأة أن ما ترتديه مختلف عن ملابس شقيقتها الصغرى، وأن زوج خالتها توسط لإلحاقها بمدرسة أجنبية بعد أن أمضت مرحلة الحضانة فى مدرسة سعى هو أثناء أجازته الماضية لتنتظم فيها البنت، ولما أبدى ملاحظة عن الأوضاع، وقال إن السنين الأولى تؤثر فى شخصية البنت، أبدت امرأته ودا، ولينا. قالت ان شقيقتها حرمها الله من الخلفة و«عفاف» تؤنس وحدتهما، هما يعتبرانها كابنتهما، لم يرتح، لكنه لم يعلق، إذ كان عليه أن يرجع إلى هذا البلد بعد يومين.

فى أيام وحدته القصية كان يتساءل عما يفعلون الآن؟ فى هذه اللحظة بالذات؟، يستعيد وجوههم، يتأمل ملامحهم فى الصور، يلمح أطياف شبه من أمه وأبيه وقسماته هو، البنت الكبرى فى طفولتها أقرب شبها إلى أمه، ليتها حملت اسمها، يطيل النظر، ثم ينطق بصوت مسموع:

«اولادى!»

يشير بأصبعه..

«اسمعى يا عفاف..»

يتوقف لحظات، يصغى إلى رجع الصدى فى البيت الفسيح النائى، لأسباب شتى يوقن أن ابنته تدرك فى نفس اللحظة ما يقول برغم بعد المسافة.

فى صغره كان اذ يتحشرج صوته فجأة، أو يبدأ اضطراب مافى حلقه، تقول أمه إن بعضهم يخوضون فى سيرته، ثم تتلو اسم الله مرات، وآيات من القرآن الكريم، إنه ينظر إلى الصور، يوجه بعض الملاحظات، يسدى نصائح وربما أبدى غضبا، غير انه بعد وقت يسير ينثنى مبديا اللطف، «خلاص.. سامحتك..»

وقبل مضيه إلى النوم، يومئ للصور المطلة عليه:

«تصبحون على خير يا أولاد..»

فى ليالى عزلته القصية، خاصة أيام الأجازات، والعطلات الرسمية، أصعب الاوقات وأوحشها عليه، فى الليالى تلك وفدت إليه أعراض لم يعهدها من قبل، كان يستيقظ فجأة، مكروش النفس، تعدو دقات قلبه بعضها فى أثر بعض، ماذا لو وافته المنية فجأة؟ كم من الوقت سيمضى قبل اكتشافهم غيابه، أم أن ما سينبعث من جثمانه سيدل عليه؟ لكن البيت بعيد عن الطريق.

يمعن متخيلا ردود الافعال، لحظة تلقى امرأته للنبأ، والده الذى لم يعد يبصر، شقيقته الوحيدة، أيهم سيبلغ حزنه المدى؟،

ايهم سيذكره لمدى أطول؟، الولد مرتبط به، سيحزن، ولكنه سيلهو بعد حين، لكنه سيصبح يتيما، كذا شقيقتاه، لن يكفى إلا لفترة محدودة، لهذا اضطر إلى تجديد العقد أربع سنوات أخرى، لم يكن له خيار، من يدرى ماذا سيجىء به الغد؟، فى تلك الليالى تأخذه الخواطر السود، حتى صاغ أحيانا نعيه ورتب الاسماء التى ستنشر، وشرع فى كتابة خطاب إلى ابنه يحكى فيه ما جرى له فى إقامته، وفى غربته، ،كان دافعه أن يعرفه ابنه ميتا، ما دام لم يعرفه حيا، بدأ فعلا، لكنه لم يتم الخطاب، تشاءم، إن ذلك يعجل بالمقدر.

فى النهار يلوح لمن يعرفه هادئا، صامتا، لا يعرف أحد شيئا عن دخائله ولا يعرف شيئا عمن يحيطون به.

فى بداية كل شهر يمضى إلى المصرف لتحويل المبلغ الذى يحق له تحويله إلى مصر، نسبة معينة ينص عليها العقد الرسمى، يوقع العديد من الاستمارات، يتنقل من نافذة ضيقة إلى أخرى، ملامحه محايدة مهما تلقى من مضايقات الحراس، والموظفين الذين كان معظمهم غليظ العبارة.

فيما بعد قال لشقيقته، هذا ما انحصرت فيه العلاقة، ازعجها ذلك، جاء رد فعلها مشابها لما كان ممكنا لوالدته أن تقوله..

«حرام عليك.. من لهم غيرك؟»

حقـا، ليس لهم غيـره، لكن.. هل يدرك وعيـهم ذلك؟، لماذا لا يبدون نحوه قدرا من الحنية؟، لكن البنت الصغيرة تسـرع عند ظهوره، سمعها مرة تتكلم مع زميلتها، تخبرها أن والدها وصل بالسلامـة، فى اليوم نفسه طلبت منه أن يزورها فـى المدرسة، لم يتأخر، صباح اليوم التالى، بدت مزهوة به وعندما لمحت إحدى الطالبات صاحت بها:

ـ «بابا أهه يا ستى.. بابا أهه»..

لسنوات تالية لم ينس فرحة ابنته بزيارته لمدرستها، وتعلقها بيده، وتوقفها المفاجئ، وإشارتها إلى إحدى زميلاتها:

ـ «ثريا.. دى اللى بتضربنى..»

وإلى أخرى :

ـ «صفاء.. بتقولى فين أبوكى»..

لكم رق، وشف حزنه فى غربته عندما استعاد زيارته تلك، علل البعاد بأنه من أجلهم، يتمنى لو أتم ادخار حاجة لكل من الثلاثة حتى إذا حان تخرجهم فى الجامعة.. لقوا ما يمكنهم الاستناد إليه فى بدء حياتهم ، هذا أقوى ما دفعه إلى تجديد العقد..

لكن..

حدث ما لم يخطر له على بال، ما لم يعد له العدة، ولذلك تفصيل:

فمنذ نزوله هذه الديار ، لزم جانب الحرص، لم يتحدث أمام زملائه عن شأن يخص بلادهم، لم يخض فى أمور عامة، لم

يذكر لا بالشر ولا بالخير حاكم البلاد الذى تطالع صورته البصر أينما اتجه، لم تخل منها حتى العربات العامة والخاصة، وفى نهاية الأسبوع عندما ينتظر القوم السهرة إذ يتوقعون فيلما مصريا، أو مسرحية، أو عروضا غنائية، يطل عليهم مفترشا الأرض، ممسكا بعصا الماريشالية، مرتديا عباءة عربية، يبدأ حديثه البسيط، أو العائلى كما أطلق عليه أعلام البلاد، حتى فى هذه الليالى لم يعتد إغلاق الجهاز، إنما يتركه مفتوحا، مسموع الصوت.. فالبعض يؤكد أن الشباب الموالى يمر بالبيوت متصنتا، راصدا من أغلقوا، أو بدلوا قنوات التليفزيون بقناة بلد مجاور يصل إرسالها واضحا، تخلو عادة من الأغانى الحماسية، والشعارات المتتالية، والإعلان المستمر عن نبأ هام سيذاع بعد قليل.

فى الأيام الأولى هنا كان ينتظر بقلب واجف، حابسا أنفاسه، متوقعا الأذى، هل وقع انقلاب؟، هل قامت الحرب؟ هل هى كارثة طبيعية ؟ لكنه اعتاد ما يلى ذلك، إن سيادته ـ مثلا ـ تلقى رسالة خطية هامة من أحد إخوانه أصحاب الجلالة، أو الفخامة، أو افتتاح وحدة كهربائية جديدة، أو حضور مناورة بالذخيرة الحية قرب الحدود الشمالية حيث مصدر التوترات الدائمة ، أو إعادة العلاقات أو قطعها مع بلد ما، أو قيام سيادته بممارسة رياضة المشى لمدة ثلاث ساعات فى منطقة القبائل الجبلية، لم يعد يتوتر، وإن بقى ترقبه إلى حد ما، فربما وقع حادث جلل فجأة.

كان إذا وجد فى جمع، وفوجئ بسيادته فى التليفزيون، يشخص وينصت ، لا يسمح لأى خاطرة داخلية تمر به أن تبدو ظلالها على ملامحه، كان يبقى جامدا، فان صفق القوم شاركهم، وإذا ابتسموا تبعهم، ليس له من الأمر شئ، غريب مهما طالت مدته، ليس بذى علاقة مهما أبدوا له ودا أو ترحيبا.

لم يتردد إلا على هذا المقهى القديم المطل على الحديقة، لم يتبادل الحوار إلا مع العمال المصريين الشبان الذين يفدون إليه من أجل الكسب المحدود، والمأوى الذى يقدمه إليهم صاحب المقهى البدين، حواره معهم عام، عابر، شاركهم مرتين، الأولى بعد الحريق الذى شب، رجاه أحدهم أن يتبرع باليسير، لأنهم سينقلون الجثمان إلى مصر، توقف الشاب عن الحديث، كان ميكانيكيا من الجمالية، قال إنهم أقسموا فيما بينهم إذا لحق بأحدهم مكروه أن يعيدوه، فى أى وقت إذا حلت المنية، فلن يدفن هنا أبدا. قال له إن الولد وحيد والديه، وإن أباه فقير جدا، والأمر كارثة، كارثة، لم يتردد.. لم يبخل قط.

فى المرة الثانية جاءه أحدهم، استفسر منه، أيعرف مسئولا كبيرا فى هذا البلد؟ نظر متسائلا، حذرا..

قال الشاب إن صاحب هذا الخط، وأشار إلى اللافتات المعلقة، صاحب الخط الجميل هذا معتقل منذ ستة شهور، قيل إنهم أطلقوا عليه الرصاص، وسمعوا أنهم دسوا له السم فى اللبن كما جرت العادة عند قتل الخصوم هنا، أبوه حفى فى

القاهرة، دار على وزارة الخارجية وسفارة هذه البلاد قبل قطع العلاقات، ونشر التماسا فى صحيفة مصرية رفعه إلى الزعيم، لكن.. ما من مجيب!

أصغى حذرا، من لا يعرفه جيدا لن يثق به، يعلم أن عددا من الذين جاءوا للعمل هنا انضموا إلى الفيالق الثورية، البعض طواعية، والآخرون تحت ضغوط شتى.

قال إنه مجرد موظف فنى، خبير طباعة ولا يعرف أحدهم، أو بمن يمكنه مجرد الإفادة، اعتذر، ولكنه لم ينقطع عن المقهى، كان يمضى إليه بعض الوقت فى العصر، يقعد فوق إحدى الدكك متأملا الأشجار القديمة، المتقاربة، وعندما سأله بعض من أهل البلاد عن زيارة السادات إلى القدس، قال إن ما جرى خطأ، ولم يزد حرفا.

الحقيقة أن ما شعر به فى تلك الايام أكثر من محدودية تلك العبارة، عندما رأى رئيس البلاد يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد، ويتلفت حوله، لم يصدق عينيه، كان بمفرده فى البيت القصى، اهتز باكيا، وترددت فى وعيه فكرة موجزة: انتهى دهر، انتهى عصر، راح عهد وجاء عهد، ما زال محتفظا بكراساته التى رسم على صفحاتها أبطال الجيش المصرى أثناء حربهم فى فلسطين، ومما لا ينساه، أيام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، تطوعه فى المقاومة، أيام الخريف هذه الرمادية، الانفجارات، الغارات الليلية، الأغانى وما أثارته من

مشاعر بقيت حية، ومن قبل ومن بعد ابن شقيقته، مازال مفقودا حتى الآن، لا يدرى أحد أحى هو أم ميت، كان يعمل فى منجم الفحم بسيناء، قال زملاؤه إنه هج على وجهه فى الصحراء عندما وصل الغزاة، آخر مرة شاهده عامل صعيدى يمشى متجها إلى الشرق، وضاع، وقال آخرون إنه كان بين مجموعة من الشاردين، صفهم الجنود ورموهم فى هجير الصحراء، لا أحد يعلم..

أهكذا.. أهكذا ببساطة؟

فيما بعد، لم ينس خرجة السادات من بطن الطائرة، تلفته مضطربا حوله، تمنى فى هذه اللحظة أن يجرى شىء ما، أمر خارق، فيختفى أو يتلاشى، لكن كل التفاصيل علقت بذاكرته، حتى هذا الضابط الإسرائيلى، كان يشمر كمى سترته، ويمشى مزهوا مختالا وراء الرئيس!!

ما مر به كتمه، فى اليوم التالى مضى لمقابلة المسئول السياسى عن الوزارة، وكان الرجل قد سلمه جائزتين فى حفل أقيم بالديوان العام بعد الظهر تعبيرا عن تقديرهم لتفانيه فى العمل، قال إنه يمكنه العودة إلى مصر إذا كان وجوده يثير حساسية ما، غير أن الرجل قام واقفا، قال:

- «بل إننا نرجوك الاستمرار.. مالك أنت وما جرى؟»

ثم قال: إن التوجيهات العليا للقائد المنتصر صدرت بمعاملة المصريين أفضل معاملة، وإذا كانت العلاقات قد قطعت فإن

العلاقات الحقيقية ستظل قائمة، وإن هذا البد سيتسلم زمام القيادة لتعويض النقص الاستراتيجي بخروج مصر..

هذا ما قاله القائد، وهذا ما سيكون..

إلا أن ما قيل علنا، وما رددته الصحف، وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، غير ما جرى فى المعاملات اليومية، فلم يخل الأمر فى أحسن الأحوال من تعريض خفى، وفى أسوئه من تهكم علنى، بقى يتغاضى، ولكن ما جرى فى المقهى لم يستطع عليه صبرا.

ذلك أنه آوى عصر يوم خريفى رمادى إلى المقهى، شرب شايا، ودخن أنفاسا من النرجيلة، وراح فى سرحة طويلة، لم ينتبه إلا عندما فوجئ برجل أصلع، غليظ الرقبة، بأنفه أثر من ندبة قديمة..

ـ «أنت مصرى؟»

ـ «نعم..»

ـ «زين والله زين.. عندى منكم اثنين.. خدم.. والله أنتم ما تنفعوا غير خدم..»

وسقطت النرجيلة فوق الأرض، تناثرت الجمرات، والتمباك، كأن قيدا شده دهرا انفلت، انقطع فجأة، أطبق على عنق الرجل، اقترب الرواد، تحفز العمال المصريون، وعندما تمكنوا من إبعاده إلى الخلف، كانت يداه ترتعشان، وشفتاه ترتجفان، وعروق رقبته نافرة، وألفاظه متقطعة.

أحد الشبان العاملين، بدا منفعلا، صاح: إن هذا الرجل أهان المصريين، سمعه بأذنيه، هذا يتناقض مع توجيهات القائد، مع ما يتردد صباح مساء، كان صاحب المقهى البدين قد وصل، قال:

ـ «لا تضخم الموضوع.. هذا عجوز خرف..»

ثم التفت إلى العمال الذين تحلقوا..

ـ «اسألهم عن حبنا لمصر.. مصر أم العرب..»

فوجئ الكل بالرجل ينظر هلعا، يردد:

ـ «ما تخربوا بيتى..»

ثم اتجه إليه..

ـ «يا أخى ما تخرب بيتى.. كنت أداعبك، والله أداعبك..»

ثم صاح هاتفا بصوت متحشرج:

ـ «عاش الرئيس.. عاش الزعيم..»

أصر صاحب المقهى على دعوته إلى مجلسه، إلى شاى، إلى نرجيلة، قال كلاما كثيرا عن الخواطر الغاضبة، عن الذين لا يحسنون التعبير، عن الحمقى أيضا، عندما تأهب للانصراف قبل اكتمال الغروب، كان عنده شجى، لماذا فقد أعصابه هكذا، ما الذى جرى؟، فى لحظة ـ وقد عاودته فيما بعد ـ رق للرجل إذ استعاد خوفه، وهتافه المذعور.

فى البيت، عندما خلا إلى نفسه، وأحاطته الوحدة، أيقن أن

مـا كـان لن يكون، وأن المقـام لن يطيب بعـد الآن، وبدأ عنده اليقين أن ثمة أمرا سيقع، توقع غيلة، أذى.. لكن ما طبيعته، ما حجمه؟ لم يدر.

عندمـا طلعت الشـمس لم يشـعر هل أغفى أم لا؟، شـرب فنجانين من القهوة المركزة، اقترب من المرآة، لكم هو فى حاجة إلى النوم.

على حاله هذا مضى إلى المسئول السياسى الذى استدعاه على عجل، استقبله غير مبتسم كعادته، بل إنه لم يدعه إلى الجلوس، بدت الجفوة واضحة، والرغبة فى الإيلام.

قال باختصار: إنه سبب له إحراجا شخصيا، فهو المسئول عنه هنا، وما جرى منه فى المقهى عصر أمس لم يكن له داع، هل يزج باسم القائد فى شجار عابر. هذا خطير، خطير جدا، انه يتعجب.. بل إنه لم يصدق عندما أطلعوه على ما جرى.. إذن.. هل يخفى هدوءه هذا وعزلته ما هو أخطر؟

بعد خروجه من مكتب المسئول السياسى كان فى حال، وعنده حاجة إلى الانفراد، لم يجد إلا دورة المياه، دخلها لا ليقضى حاجته، وإنما ليغمض عينيه ليحاول تبين عند أى نقطة يقف؟، ما علق بذاكرته ما قاله لبعض من معارفه فيما بعد، شعوره بأنه بعيد، وحيد، وما من ناصر، أو معين، إن مكروها يمكن أن يصيبه فجأة، سمع عن كثيرين راحوا ضحية حوادث مفاجئة أثناء عبور الطريق، أو يفقدون بعض أطرافهم فى حوادث تبدو عابرة، لكنها مدبرة، أما دس السم فى اللبن فشائع، لم يدر، لماذا اللبن بالذات؟

كف عن شرائه، عن شربه، قرر ألا يتردد على المطاعم العامة، أن يتوقف عن نزهة نهاية الأسبوع، أن يشترى طعامه من أماكن مختلفة، أن يغير ما يقدمه له البائع فى اللحظة الأخيرة، حتى النرجيلة كف عن تدخينها، بل انقطع عن المقهى تماما.

ما أثقله، لحظة بدء انفراده، عندما يصل إلى البيت، ويغلق الرتاج. ويصبح منقطعا، معدوما من كل عون ، يائسا من المساعد، أحكم إغلاق النوافذ والأبواب، غير موضع نومه، يضىء الصالة طوال الليل، مع انه لم يعتد النوم، الا فى عتمة، كان يستحم بسرعة، ولحظة اغلاقه عينيه بسبب تدفق المياه، يفتحهما بسرعة، متوقعا ظهور أحدهم فجأة أثناء عريه.

كان فى البيت نائيا، ضعيفا، وفى الحمام، أو أثناء نومه أشد ضعفا، لم يوقن، هل تبدو نظرات المحيطين به طبيعية، أم أنها تبدلت؟، لكن الذى لم يشك فيه أن النساء يطلن التحديق إليه، حتى إذا انتبه ولوا بنظراتهن، أما موظفو الاستعلامات فبان فى تحيتهم فتور..

كم مضى على حادث المقهى؟

كم انقضى على استدعاء الوكيل له؟، وحتى وصول هذا الاستدعاء؟.

فيما بعد لم يستطع تحديد الأيام بدقة، ربما سبعة، ربما عشرة، لكن ما مر به، ما أثقله خلال هذه الأويقات جعل مرورها بطيئا، ثقيلا، حتى خشى استعادة بعض من تفاصيلها، مما جرى فيها لمدة.

عند ذلك الغروب كان يتأهب لقلى بيضتين، وإعداد كوب من الشاى، وبالمناسبة، فإن ما يثير حزنه، جلوسه وحيدا عند تناول طعامه، فالأكل يحب اللمة، وكثيرا ما استعاد أياما من سيرته الأولى.. انتظارهم وصول الأب ، لا يمد أحدهم يده إلى لقمة مهما بلغ الجوع، كان الشبع لا يكتمل إلا بالونسة.

من ينتظره الآن؟.

فجأة، رن الجرس، مرة نادرة، لا يتوقع أى زائر، من؟، عندما فتح الباب رأى أحدهم، يمسك أوراقا، يردد اسمه، متطلعا إليه، تحدد يوم الأربعاء صباحا، الساعة الحادية عشرة وثلاث عشرة دقيقة لمقابلة رئيس مكتب الأمن الخاص، استفسر عن السبب، لكن معالم الرجل بدت صماء، حدد عنوانا، واسما تسبقه رتبة عسكرية، شدد على الحضور.

لماذا؟ لماذا الاستدعاء؟، فى حياته لم يدخل قسم شرطة أو محكمة، ولا كشاهد حتى، لماذا يوم الأربعاء وليس غدا؟.

يعلم الله وحده كيف مرت عليه الأيام الثلاثة، شحب نومه، وقض مضجعه، هوى قلبه مرات، كدره تساؤل ممض، هل سيرى الأولاد مرة أخرى؟

إلى من يتـجـه؟، ممن يطلب العـون؟ إلى من يبـوح؟، خطاه مرصودة ، حركاته محسوبة.

كـانت الأيام الثـلاثة قـاسـيـة.. لكن السـاعـات الأربع التى انتظرها فى الصـالة الرمـادية أقسى، بدت لهـجـتهم غريبة، كأنه لم يصغ إليها لسنوات..

نودى عليه فقام، إلى الجدار علقت ساعة قديمة، ذات بندول يهتز برتابة، الواحدة والنصف.. طلب منه الرجل أن يتبعه، إلى البـاب الضيق فى نهاية القـاعة، لابد من إحناء الرأس للمرور منه، للوصـول إلى الفناد الفـسـيح، عدد من شبـاب الثـورة، مـسلحين بمدافع رشـاشـة قـصـيـرة، يرتدون الأزيـاء المدنيـة، مـلامحهم متقاربة، عليهم تأهب وعندهم قسوة، تطلع بعضـهم إليه.

أثناء صـعـوده السلم الضـيق، الرطب إلى الطابق الأول، ثم الثـانى، ثم الثـالث، كـان أكـثـر هدوءا، وقـراره أهدأ من الأيام المنقضية، وقوع البـلاء ولا انتظاره كما يقولون!، مع أنه لم يوقن من خـروجه من المبنى الذى بدا كل مـا فـيه مـحـاطا بغمـوض، أبوابه مغلقه، لا تسفر، لا تشى، أما الطرقات فمتداخلة..

عند أحد المنحنيات فوجئ برجل مـعـصـوب العينين، يقوده اثنان منهم، تسـاءل.. لماذا يبدو رأسـه مرفـوعا إلى أعلى؟، تـذكـر أن العـمـيـان يمشـون هكذا، الفـرق أن كتفى الرجل مرفـوعـتـان وكأنه يتوقع ضربة مفاجئة فآثر أن يتحفز. هل سيخرج هكذا؟ إلى أين سيمضـون به؟

داخل الحجرة الرمادية طلب مرافقه المكث لحظات، انصرف، بقى وحيدا، معزولا تماما، بعيدا إلى أقصى حد، أيقن أنه مرئى، مراقب، وأن ما يعبر ملامحه مرصود، رب حركة بلا معنى يحاسب عليها، فليشغل نفسه بتأمل ما حوله، بالنظر إلى الموجودات، مكتب قديم، فوقه أوراق متناثرة وزجاجة حبر، قلم، دفتر صغير، عليه دبابيس دائرية، فتاحة خطابات حادة، ثلاثة أجهزة للاتصال، هاتف أحمر، تتدلى الأسلاك المتصلة بها، تتشابك، تمضى إلى حيث لا يستطيع متابعتها، خزانة حديدية، مقبضها دائرى، ماذا تحوى؟ صندوق مغلق، ماذا به؟. البساط قديم، نقوشه هندسية، مثلثات، داخلها مربعات، تتوسطها صلبان صغيرة، رائحة قدم تثقل الفراغ..

ـ «أهلا..»

من أين دخل الرجل؟، هل استغرقه الأمر حتى أنه لم يلحظ؟، الغريب أن أولاده توافدوا عليه فى هذه اللحظات، حن حتى كاد يبكى، إنه أب، متغرب عنهم، ليؤمن لهم أوضاعا أحسن، ألا يستحق هذا رفقا بحاله؟، لم يأت شيئا، لم يخالف، لماذا دخوله المبنى مجبرا؟

الرجل قدم نفسه.. الرائد علاء، علاء وفقط، اسمه حقا؟، بدا مصرا على إبداء هذا التهذيب المبالغ فيه، لا يخفى ما يستتر وراءه من عنف ربما تفجر فى أى لحظة.

في مواجهته تداخل في بعضه، لو رأى نفسه لأدهشه تضاؤل حجمه ، إنها المرة الأولى في حياته التي يواجه فيها شخصا في مثل هذا الموقع، بدأ يتحدث مباشرة، فقال كلاما كثيرا عن عظمة مصر، عن دور المصريين في هذا البلد، عن مساهماتهم في خطط التنمية العظمى، عن التوجيهات الحاسمة في توفير ظروف العمل لمن يجيء منهم، طبعا هذه تعليمات سيادة القائد..

ـ «طبعا.. طبعا..»

هذا لا يمنع وقوع بعض التجاوزات الصغيرة، خاصة من الجيل القديم الذي لم يترب على الأفكار القومية، الثورية، الوحدوية، وأبرز مثال.. ما حدث في المقهى..

ـ «ياه.. سيادتك تعرف..»

استدار الرائد مبتسما، الحق أنه تساءل منبهرا، ليمد غروره بزاد من عنده..

ـ «نحن هنا نعرف كل شيء..»

دنا منه فجأة، مال عليه..

ـ «إننا عيون الزعيم وآذانه.. ما علينا..»

عاد مرة أخرى فأفاض، ذكر الكفاح المشترك، ونبل الشعب وقدرته على التضحيات، وإذا كانت الظروف التاريخية أدت إلى انسحاب مصر من المواجهة فان الثقل القيادي انتقل هنا بفضل حنكة الزعيم والقائد..

ضرب المكتب بقبضته..

ـ «إنه قيادة تاريخية، استثنائية..»

لم يعلق، لم يبد حركة، لم يجاوب، لا بالنظر.. ولا بالإيماء، إنما سرى عنده حزن وأسى، واستمر الرائد متحدثا عن الأمة الواحدة، عن ضرورة بث أفكار القائد، فى كافة أنحاء العالم العربى، خاصة مصر.. مصر الأم، مصر مركز الثقل..

هنا لابد من وقفة، إذ بدأت تلوح علامات فى الحديث المستمر، المتدفق، تلميحات لم تخف عليه، إنه مقبل على لحظة حادة، مدببة، لا يمكن له التزام الصمت عندها وإلا عنى ذلك الموافقة.

اعلموا أنه منذ وصوله إلى هذا البلد، ومنذ نزول السادات فى مطار العدو، منذ الإعلان عن قطع العلاقات، وهو يخشى أن يلقى نفسه عند نقطة لا يمكنه بعدها العودة إلى القاهرة، أن ينقطع تماما عن عياله، عن شقيقته، لم يفصح لأحد عن دمعه إذ رأى الرجل يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد، لم يبح، لم ينطق، لو أنه فى القاهرة، لمضى إلى المقهى، لفض مغاليق قلبه لصحبه، لأبدى وجاهر، لكنه هنا لم يشأ أن يسفر حتى لا يجد روحه عند هذه النقطة التى يخشاها، أن يكون هو فى بلد، وأسرته فى بلد آخر، صحيح أنه لن يراهم قبل تسعة شهور، لكن كل يوم ينقضى يقربه منهم، وعند لحظة بعينها سيجد نفسه فى الطريق إلى المطار، متجها إليهم، لا يوقفه حاجز، ولا

تخترقه عينان متفحصتان كعينى هذا الرائد.. بل إن وجوده فى هذا المكان يؤذيه داخليا، إنه مضطر لإخفاء مجيئه إلى هنا، هذا إذا أتيح له الخروج.

المهم..

كم طال به المقام ؟

أربع ساعات كاملة، رق فيها الضابط وتصلب، أبدى وأخفى، صرح ولمح، تقدم وانثنى، بعدها لم يطل مقامه، بمجرد خروجه عبر الطريق بسرعة، أوغل مبتعدا فى الطرقات الخالية، مجتازا البيوت التى لا تلوح منها حركة، كان يود التوحد بذاته، النأى، استعادة دقائق اللقاء، فى البيت قعد مكمودا، لا يدرى المراد به، هل سيطلع عليه صباح اليوم التالى هنا أو فى مكان آخر؟. كان راضيا لوضوحه مع الرجل، غير أنه كان يعى تماما .. لم يعد له مقام هنا!.

لم يعرف إنسان ما جرى له خلال هذه الأسابيع الثلاثة، الممتدة بين المقابلة ولحظة إقلاع الطائرة به.

فيما بعد قال لشقيقته:

ـ لو تعرفين أى أيام سود؟

كانت شقيقته تحملق إليه صامتة ، لا تدرى، لا تستفسر، لا تعرف التفاصيل، غير أنها كانت تحسه، تماما كالمرحومة أمه، لكنه فيما بعد أفصح، ليس فى جلسة، إنما عبر قعدات شتى، فى معظمها كان يبدأ وكأنه يناجى نفسه.

فى البيت لم يغف إلا مضطرا، ولم يعرف من النوم إلا ما يشبه الإغماء، أما الزاد فعافه حتى أوشك على هلاك، تردد بين الوزارة، والبنك، ولما قالوا له إن تحويل مدخراته يقتضى موافقة أربع جهات، اثنتان أمنيتان، واثنتان سياسيتان، لم يعبأ، ما شغله سرعة مفارقة البلد، تحمل نظرات المحيطين به، وتحرشات العاملين، وازدراء الموظفات البادى، وسخف اللجنة التى جاءت تتسلم البيت قبل موعد سفره ـ الذي تحدد ـ بستة أيام، كان عليه قضاء هذه المدة فى الفندق، ولأنه يعلم بوجود مفاتيح أخرى للغرف، كان يزيح المقعد والمنضدة إلى ما وراء الباب، ثم يستلقى باكيا حظه، متشوقا إلى أولاده..

لكن هذا كله فى ناحية، وما جرى له بالمطار فى ناحية أخرى، عندما تخطى الحاجز المؤدى إلى مكتب الجوازات، مازحه الرجل فى البداية، سأله عن سعاد حسنى، هل هى متزوجة الآن أم لا؟، ثم أطال النظر إلى جواز السفر، تطلع إليه، بدا عليه تجهم مفاجئ، قام مفارقا المكتب الضيق، أشار إليه..

ـ «اتبعنى..»

إلى حجرة مجردة من كل أثاث، مغطاة بلون رمادى ذى مستوى واحد، لا ظل ولا نتوء، رائحة مطهر قوى، كفراغ المستشفيات.

هل أخبر بما جرى له؟

نعم.. لشقيقته، وقبل سفره الأخير بأسبوع واحد، قال لها باختصار إنهم لعبوا فيه، قال ما قال وأدركه خزى، أطرق، لكنه منذ حدوث ذلك وهو يود أن يفضى ببعض من حمله الثقيل إلى آخر يحسه، لم يكن له إلا أخته، التى تقعد أمامه متوحدة، بها ظل من ملامح أمه القصية، بها ود، وعندها تحسر، وتمن، لم تمض أمورها كما تمضى أمور سائر البنات، إنه سوء الحظ، والبخت المائل.

حدثها عن تجريدهم ثيابه، عن إبدائهم الغلظة، دفعه إلى الصدر، وخزه فى الجنب، حتى بقائه بالقطعة الأخيرة، إصرارهم تجرده منها، وعدم مجاوبتهم لما طلبوه، دخول ثلاثة، حفاة، غلاظ الأكباد، فشخه قسرا، تمرير آلات كهربائية، التنقيب داخله عن نقود يمكن أن يكون قد أخفاها فى أنابيب من البلاستيك..

عندما فرغوا اقعى عاريا تماما، ومرارة داخله، وتقبل لفكرة الموت لو استمر تطاولهم، لو الحوا، أن يطبق على عنق أحدهم، لكنهم لم يواصلوا، وعندما دخل واحد منهم، لم يره من قبل صاح ونهر، أسف واعتذر، كان فى مواجهته ضعيفا، مجردا من كل عون، غير أنه لم يجب، لم ينطل هذا عليه، كل شىء مدبر، كل خطوة مدبرة، حتى ابداء الشفقة.

عندما تسلم جوازه مختوما، مدونا به كافة التأشيرات، عبر الحاجز الحديدى إلى داخل الصالة حيث انتظار الإقلاع، هنا الخطر، فمن الناحية القانونية غادر البلد، لكنه فى الواقع ما زال فى قلب النظام! فى المتناول، لو اختفى هنا، فما من دليل، هذا إذا وجد من باستطاعته الوصول إلى من يمكن الاستفسار عندهم هنا.

كان يخشى استعادة لحظات عريه المهينة، لكنه فى مواجهتها يأتى بلحظات مقابلته للرائد، إصراره على عدم إبداء التراجع ولو خطوة، أى تهاون يتبعه آخر، لم يلن، لم يخش نفيه عن العالم، هذه المقابلة لم يفض بها لأحد، حتى أخته، إن مجرد تصريحه بذهابه إلى هذا المكان لما يخجله أكثر من عريه فى المطار، وهذا عجيب!.

قبل سفره إلى أوروبا ـ وسيرد تفصيله ـ اعتاد التردد على شقيقته، وبقاءه عندها ساعات، يحكى وتحكى، يستعيدان أيام طفولتهما، وأمانهما المولى، تذكره بمن بهتت ملامحهم فى ذاكرتهم، المرأة المهيضة التى كانت تسكن فى مواجهتهم، والموظف المتعالى الذى كان لا يلقى التحية على من يلتقى به، وإذا ذكر اسمه يتبعه فورا بقوله: ليسانس حقوق بدرجة جيد جدا. يضحكان، تذكره بزواجه المفاجىء من صاحبة الفرن الأفرنجى عند الناصية، أما الشيخ الملتحى تاجر العطور فلم يكن يظهر إلا ليلا، ثم تبتسم وتذكره بابنته، ألم يكن يهتم بها؟.

ويفاجأ.. بعد مضى هذا العمر كله ، يكتشف أن أمه وأخته كانتا منتبهتين إلى ما ظنه خفيا، مستورا، يعرف هذا.. لكن ليس فى حينه، إنما بعد غياب أمه، واكتمال وحدة شقيقته، واقترابه منها، والإفضاء بما يثقله إليها، وهذا جديد عليه، مستحدث..

قبل زواجه كانوا معا، ينمو كل منهم قرب الآخر، يظلهم سقف، لكن الدخائل بقيت أسيرة الصدور، كان ما بينهم كليات، وليس جزئيات، أحب أمه وأباه، غير أنه لم يفض إليهما بعذابات مراهقته، أو دقائقها.

أمه لم تصارحه بإدراكها، لبعض مما عنده، بقيت خارج دائرة المكاشفة، أما شقيقته فظلت حتى زواجه.. تلك الطفلة التى كانت تدرج على مقربة حتى بعد تخطيها العشرين.

فيما بعد بدأ يلحظ اهتمام أمه الخاص بابنتها، كانت تخرج خفية إلى سوق الموسكى القريب وتعود بقماش أو زجاجة عطر أو علبة بودرة، لم تكن شقيقته دميمة، ملامحها هادئة، مريحة كظلال الطرق التى يسعى عبرها إلى بيت والديه؛ ليست قصيرة، ولا طويلة، لم تكن نحيلة ولا بدينة.

فى الأعوام الأخيرة طالت فترات صمتها، أحيانا يلقاها محمرة العينين من بكاء، تصر أنه ما من سبب، لم تكن تزور صاحباتها، ولا تزار منهن، وإن تحدثت مرة عن صديقة لها فى ضاحية حلوان، كانت تعود من الجامعة فتمكث حتى اليوم

التالى، حتى بعد عملها فى هذا البنك، وإذا استرجعا ذكرياتهما عن الأم فلا تحوش نفسها عن البكاء.

«لم يكن لى غيرها.. ولم يكن لها غيرى..»

ما يحزنه، حتى فى غربته، أن الوالدة رحلت مبكرة وحسرتها باقية، ودت أن تفرح بها، أن تراها مستورة، لكن الحظ مال عنها، فى آخر حوار جرى مع أمه، قالت:

- «البركة فيك، لم يعد لها غيرك..»

لم يغب عنه ذلك، كان يقتصد مبلغا، لا يخبر به امرأته، لا يذكر عنه شيئا، يعطيه لشقيقته عند زيارته السنوية.. يطلب منها الاحتفاظ به فى دفتر التوفير الذى فتحه لها فى مكتب البريد القريب عند ناصية الشارع الثانى إلى اليمين.

عندما رجع فى أجازة منذ عامين، هاله وحدتها، البيت الذى ضمهما معا صار قبرا للذكريات ومثوى، كل جزء منه يوحى بلحظة مندثرة، عندما ولجه انقبض مع أنه عابر، فما البال وهى المقيمة. لاحظ القفلين الجديدين فى الباب، وإغلاق حجرة والديه.

عندما فارقها عائدا إلى بيته كان مثقلا، كيف يتركها هكذا، بمفردها؟ عند انصرافه بدا حرجا، حاول مداراة ذلك بالتأكيد على ضرورة إغلاقها الباب، التأكد من شخصية محصل الكهرباء، ابقاء ضوء الصالة ليلا، قال لامرأته إن شقيقته

وحيدة تماما، من الطبيعى مجيئها للإقامة، وحدتها مبعث قلق له، لم ترفض، لم توافق أيضا بوضوح، إنما قالت: «البيت بيتها». ثم تساءلت عن مدى الخطر المصاحب لترك الشقة هناك بدون ساكن، ألا يغرى هذا أولاد الحرام بسرقتها؟.

لم تقبل أخته فورا، أبدت ممانعة، ألح وأقسم، أبدت امرأته ترحيبا، قالت لها، إنها فى بيتها، إنها ليست ضيفة، حرص خلال المدة المتبقية من أجازته ان يقرب بين أبنائه وشقيقته، غير أن ما آلمه أن العلاقة لم تتوطد، وعندما شرع فى السفر لم يكن مرتاحا، فثمة مسافة بين الأولاد وعمتهم، لا يجلسون اليها، ولا يتحدثون إلا نادرا، أما ما أزعجه فزوجته، اذ تطلب منها أداء بعض الأعمال، الحقيقة أن البنية لم تقصر، بل سعت من تلقاء نفسها، لكن يبقى فرق ضئيل بين تأدية ما يجب كأنها من أهل البيت، وبين طلب زوجته منها بلهجة شبه آمرة، وكأنها.. هل بالغ؟ ربما، لكنه عندما سافر لم يكن راضيا، كتب فى أول خطاب يوصى امرأته وعياله، ويذكر ما يرقق قلوبهم، فأخته لم يعد لها أحد ما من قريب أو بعيد، لكنه بعد شهرين تلقى خطابا فيه الحزن الخفى، قالت إنها لم تشأ أن تكون مزعجة لأهل بيته، وأنها تفضل الإقامة فى المكان الذى سعى فيه والداهما حتى آخر أيامهما، كل ما رغبته، ألا يغضب منها، وهى تثق أنه يقدر ويفهم!.

فى أجازته التالية لم يطرق الموضوع، لا مع امرأته، ولا مع شقيقته، لا من قريب ولا من بعيد، ما بقى مصدر ألم له،

معيشتها بمفردها، غروب أيامها يوما أثر يوم، وشهرا بعد شهر، سنة بعد سنة، الطفلة التى عرفها، التى ما تزال صورتها بالضفائر مهيمنة عليه، هذه الصغيرة التى سكنت نفس الرحم الذى تكون فيه وآواه، تدرج نحو العنوسة، تتغير ملامحها، وتنزل ببطء عتمة فى عينيها، وتلوح بوادر استكانة فى مصيرها.

ماذا بوسعه أن يفعل؟

بعد عودته النهائية أثر ما جرى له، أكثر من تردده عليها، لا ليطمئن فحسب، إنما ليتحدث، ليفضى إليها بدقائق الشئون، وعندما كانا يستسلمان لنزول الغروب، وتبقى النافذة مفتوحة قليلا لخروج الذباب، بينما الليل يكتمل فى الخارج، وضجيج الطريق الذى اعتاده فى الزمن الآفل، يتغير إيقاعه، كان يصمت أحيانا.... يلقى نفسه وحيدا، تماما كوحدتها هى، وأن حظه عاثر مثلها، وأن الزمان مال عليه كميله عليها، كان يطيل القعاد بدون لفظ، تنتابه رغبة فى البكاء، لكنه يكتم، عندما يتهيأ للذهاب، يفتح الثلاجة، يطمئن إلى وجود طعام كاف، عند الباب ينطق الوصايا ذاتها، إحكام الإغلاق، عدم فتح الباب لغريب، ترك ضوء الصالة، تودعه مبتسمة...

ـ طيب.. طيب...

ينزل الدرج حزينا، يمضى إلى المقهى، يؤجل عودته إلى البيت، لماذا؟ هذا ما يلزم توضيحه!.

اعلموا أنه منذ عودته، وبعد انقضاء الأيام الأولى، أدرك أنه غريب، أنه زائد على الحاجة،أن ما كان يعنيهم التحويل الشهرى، أما شئونهم فليست شئونه، وأمورهم لم تعد تمضى مقترنة بأموره.

البنت الكبيرة مقيمة عند خالتها، أحيانا تجىء، لكن مكانها هناك، ملابسها ، كتبها،حجرتها، بل إن ثمة فارقا بينها وبين شقيقتها، ابنته ؟نعم، لكنها تنتسب إليه بالاسم، جوهرها لم يتابع نموه، إنها أنأى ذريته عنه، لم يلحظ نموها يوما بعد يوم، تطور اهتماماتها، لا يعرف من أمر علاقاتها شيئا، زميلاتها، صديقاتها، يفاجأ أحيانا عند النظر إليها، أهذه ابنته؟.

ما أزعجه، ما بلبل خواطره، ما أخجله حتى خشى استعادته، أنها كانت تتحرك فى البيت، فى أحد العصارى، كانت ترتدى قميصا ضيقا يبرز صدرها المتمكن وبنطلونا يلتصق بجسدها، عندما انحنت فوجئ بنفسه محدقا بردفيها، المكتملين، المستديرين، المتصلين، المفترقين فى تضام، سرى عنده ما يسرى عند الذكر تجاه الأنثى!!

عذبه هذا، خجل من استعادته، وإن توافدت عليه اللحظة من حين إلى آخر، حاول نفيها وإقصاءها، لم يذكر هذا لأحد، غير أنه دونها على قصاصة ورق أثناء المرحلة الأخيرة من تغربه فى أوروبا، كان يدرك أن أوان احتجاجه على بقائها عند خالتها قد

مضى، إن سنوات غيبته سلبته أمورا، حتى ابنته الوسطى، وابنه كانا نائيين ، بعد عودته كان يطيل البقاء فى البيت، لكنه يفاجأ بحياته تمضى عبر شعب عدة، دورسهما لا يعرف عنها شيئا، أصحابهما، كان يجد نفسه وحيدا، امرأته إما مشغولة بأمور البيت، وإما تجلس إلى أحدهما لمراجعة الدروس، دائما مرهقة، مهمومة، العبء ثقيل، المدارس، الأسعار التى تتزايد باستمرار، إذ يبدى تعجبه ودهشته، تطلب منه الذهاب بنفسه إلى السوق، بعد هجوع البنت والولد، يطل نعاس من عينيها، يسألها أن تقوم لتنام، تستفسر عما إذا كان يريد شيئا، يهز رأسه نفيا، تشير بأصبعها، «العشاء جاهز». تبتسم فى إعياء..

ـ «تصبح على خير..»

بدأ يعتاد الخروج بعد الظهر، زمان.. كانت تسأل وتدقق مبدية الغيرة، أو ملمحة بها، الآن، لا تنتظر عودته..

فى الصباح يبدو الولد والبنت متعجلين حتى أنهما لا يتناولان إفطارهما، إنه يمضى إلى المقهى، لكنه لا يلقى أحدا من معارف الزمن القديم، الوجوه تغيرت، اصحاب السنين البعيدة رحل بعضهم، انقطع عدد منهم، أصبح المقهى مقرا لعدد من المقاولين الذين بدأوا نشاطهم فى السنوات الأخيرة، أحدهم كان حارسا للسيارات فى الشارع الضيق القريب، كان يحمل فوق صدره لوحة معدنية، الآن يجىء فى سيارة حديثة، ينزل أمام المقهى تماما، تاركا بابها مفتوحا، ومحركها دائرا

فى عرض الطريق، وسرعان ما يقودها المنادى الذى خلفه فى المنطقة ليركنها بجوار الرصيف، أما صاحب المقهى فدائم الشكوى، بعد أن توفى أخوه صار الحمل كله عليه، كما أن التكاليف فى تصاعد، الشاى، القهوة، السكر.. صار يجد صعوبة فى توفير السكر، الزمن لم يعد هو الزمن.

ثمة عروض عديدة عليه لشراء المقهى، من بنك، من تاجر سيارات، من صيدلى كبير، من سيدة ثرية تريد افتتاح معرض للأزياء.. إنه يفكر ولم يقرر بعد.

لم يعد يطول به المقام، تضنيه الوحدة، يفتقد الدروب الموصلة إلى من يحيطون به، يقوم منصرفا إلى متاهة الطرق.

أما امرأته فعادت إلى التلميح، ما سيحتاج إليه الأولاد، صحيح ان أحوالهما افضل من غيرهما، عندهما رصيد فى البنك، لكنه يجب الا ينسى أبدا أنه أب لابنتين، كلتاهما ستتزوج بعد قليل، ويجب أن يعد العدة من الآن.

من ناحيتها هى اقتصدت، ، وادخرت، واشترت طوال السنوات الماضية بعضا مما يلزم، أطقم صينى، سجاد، أسعار الأمس غير اليوم، ولايدرى أحد شيئا عن الغد، ثم تصمت، لكنها مرة قالت بوضوح إنه لو أتم المدة لأصبح عندهم الآن مبلغ أكبر.

قال لها إن من حقه مبلغا كبيرا هناك، لم يحولوا مكافأته عن المدة، كتب عدة شكاوى، أرسل إلى الصحف، فيما تلا ذلك استفسرت منه، حتى تستوثق أطلعها على الأوراق، وإيصالات البرقيات التى رفعها سواء هنا أو هناك، كان يائسا من حصوله على حقوقه، لكنه لم يستكن، ماذا كان باستطاعته أن يفعل إلا إرسال التظلمات وتشييع الشكاوى؟

خلال هذه الأيام التى تكاثفت فيها غربته بين من يحب، وقع أمر، وتفصيل ذلك.. أن عديله كان مسافرا إلى أوروبا منذ عامين، وذلك لعمله فى إحدى المطابع العربية التى أنشئت هناك خلال السبعينات، كان يخبر فى رسائله عن أحواله الميسورة، يرسل الهدايا، كثيرا ما حسده، فالحياة هناك تعج بمباهج شتى، وحتى هذا العمر لم ير شبرا من الشاطئ الآخر للبحر.

فى شهور الأجازات الصيفية كان بعض العاملين يقترحون عليه السفر اسبوعا أو أسبوعين إلى فارنا، أو إلى قبرص، لتغيير الجو كما يقولون، لكنه يومئ برأسه بما لا يعنى الموافقة أو الرفض.

إذا ذهب بصحبة الأولاد فسينفق مبلغا كبيرا.. إذا ذهب بمفرده فلن يطاوعه قلبه، يتفسح هو وهم لا؟، أصعب عليه تقبل هذا، كثيرا ما كان يفكر فى عديله الذى سافر ليعمل لأول مرة فى الخارج هناك، كان يتساءل خفية، ألم يحاول إيجاد فرصة له؟.

رغم خواطره تلك، لم يكتب إليه، لكنه فوجئ بامرأته متهللة يوما:

ـ يا لله ياسيدى ستسافر إلى أوروبا..

ـ كيف؟.

أرسل زوج أختها عقدا، سيعمل فى نفس المطبعة، والسفر.. بعد أسبوعين لا غير، لم يدر.. هل أرسلت امرأته إليه، أم أن الأمر تم تلقائيا، لم يدر ولم يعنه هذا، إنما أقدم على إنجاز إجراءاته بسرعة، وتجهيز حاجاته، شراء ملابس داخلية من الصوف، وجوارب طويلة، الشتاء هناك قاس، وبرغم تطلعه للفرجة على عالم مغاير، لم يره إلا فى السينما. فإن أسى تحرك عليه، لم يتم سنة واحدة منذ عودته، أوشك على الاندماج فى البيت، لكنه عليه الآن أن يغادر، إلى تحويل المبلغ الشهرى، إلى الاطلاع على أحوالهم عبر الرسائل.

هذه المرة بكت أخته، وعندما صافحها عانقته، فخفق قلبه، عاتبها..

«تبكين عند سفرى، أريد أن أتذكرك باسمة..»

ولما غالبت دموعها، قال:

«يا بنت أمى وأبى، سأرسل إليك بعد استقرار أمورى، وتجيئين إلى أوروبا..»

عند مدخل المطار فوجئ بها، لماذا ألحت فى وداعه؟ لماذا ضمته الى صدرها؟ لماذا أتت إلى المطار الذى اعتاد الرحيل منه بدون مودعين؟ لكم يكره اللحظات الأخيرة.. غير أنه فى هذه المرة ارتاح لظهورها، ظل يلوح لها حتى تواريه، وإيغاله فى الممر المؤدى إلى مكتب الجوازات.

فيما بعد قالت إنها كانت تشعر، وأن رفة مشئومة مرت بعينيها، وأن حلما كئيبا ألح عليها، لم تشهده إلا قبل رحيل أمها، إذ رأت نفسها فى أرض خلاء تماما، ترتعد بردا، ومن فمها تسقط سن، لم تخبره بذلك، إنما كتمت..

المهم..

أنه سافر

فى أيامه الأولى.. بدا مرحا، مبسوطاً، لا يعود من عمله إلا وينزل ليمشى فى الشارع، يلف هنا وهناك.. يتجه إلى مناطق السهر، إلا أن عديله حذره، فالمدينة مليئة بالعاطلين، والأغراب، وهؤلاء يستخدمون العنف للحصول على أى نقود ، كف عن السهر، ليس بسبب الخوف، إنما الإرهاق أيضا، إذ يبدأ العمل فى ساعة مبكرة، وينتهى فى الخامسة، أقام مع عديله فى نفس الشقة، اتخذ مرقدا له فى حجرة صغيرة، تواجه بيتا قديما، نوافذه مستطيلة، المبانى كلها خالية من الشرفات هنا، ضباب، برد، مطر يستمر أياما متصلة، الستائر مسدلة تماما، لكنه يلمح ظلالا باهتة، تتحرك، تروح، تجىء، احتكاك الملاعق

بالاطباق، لحظات تناول العشاء، يقلع حنينه إلى البيت، إلى اللمة القديمة، وتقوى حاجته إلى القرب.

مع تتابع الأيام بدت وحدته قاسية مع أنه يعيش مع عديله فى بيت واحد، بعد وصوله قال عديله ضاحكا، إنه ذو خبرة فى الغربة، لذلك عليه تدبير أمورهما معا، قال إنه لم يتقن فى حياته حتى سلق البيض.. أشاد بالطعام الذى أعده لهما، قال إن الأكل فى ألبيت أوفر من المطاعم بكثير..

أصبح هو الذى يشترى اللحم والخضار والبيض واللبن وسائر ما يلزم. ليس هذا فقط، بل إنه يرتب البيت كله، حتى فراش عديله الذى يتركه على حاله ويمضى، كان ما بينهما شاحب، فلم تكن ثمة علاقة قوية، على الرغم أن الرجل كان سببا فى زواجه. وبالرغم من نمو ابنته الكبرى وتربيتها فى كنفه.

عندما دخل غرفة عديله فوجئ بصورتها بجوار السرير وصورة خالتها ، كان يعدها كابنته ، كأن هذه الحقيقة تواجهه لأول مرة.

كثيرا ما كظم ضيقه، خاصة فى البداية، بل فكر أحيانا فى زوج خالتها باعتباره غريبا عنها، صحيح أنها ذهبت إليهما طفلة، ولكن ماذا بعد أن تصير أنثى مكتملة، ولكنه كان يقصى هذه الخواطر بعيدا، لا يصح..

منذ سفره الأول صار نائيا عن الكل، وإن ظلت المسافة بينه وبين ابنته الكبرى أبعد، عديله إمكانياته أكثر، ألحقها بمدرسة أجنبية، وكفل نفقاتها، أما الحلى التى تزين معصمها وجيدها فأكثر مما لدى أمها، كذلك الثياب التى تبدو متميزة، والعطور التى تفوح منها، آخر ما عرفه قبل مجيئه هنا، أنها أصبحت عضوا فى نادى الجزيرة، وأنهاذ تذهت إليه، تلعب التنس وتركب الخيل. سمعها تتحدث عن الحصان الذى تلقمه السكر، عندما يراها مقبلة يهمهم ويتحرك فرحا، قال لامرأته، إن هذه النوادى لا يعرف أحد ما يجرى فيها، أجابته باقتضاب «إنها ابنتى.. وأنا أعرفها.. هى تحكى لى كل شىء..»

لكم لزم الصمت، ربما لأنه لم يكن إلا عابرا، مجرد زائر فى أجازة، يجىء طوال هذه السنوات لفترة مهما طالت فلم تزد على شهر، ثم يرحل، على أية حال تقاطعت خطوطه بخطوط عديله، كانت تمضى أيام عديدة فلا يلتقيان. لا يجلسان للحديث فى البيت، يمضى إلى عمله مبكرا، ويستيقظ عديله بعده، إذ أن عمله يختلف، كان يعود متأخرا، علم مصادفة أنه يشارك فى نشاط إحدى الجمعيات، لم يخبره، ومن ناحيته هو لم يسأل، كان دائما متجها إلى دعوة للعشاء أو ما شابه، أو إلى قاعة سماع موسيقى، أو للفرجة على مسرحية، كما اعتاد الذهاب إلى أصحاب له فى ضاحية نائية، لم يدعه قط لمصاحبته، لمح مرة إلى تقاليد البلاد وظروفها المختلفة.

كان يعد الطعام قبل نومه، يغطى الأطباق، ويتركها فوق المائدة المستديرة فى الصالة، مع ورقة تحتوى سطورا منه، يتمنى له شهية طيبة. فى الصباح يجد الأطباق، وفيها بقايا طعام، لم يكن يغسل حتى كوب الشاى، ينتابه غضب، كأنه لم يأت إلا ليعد له الطعام ويرتب الفراش، ويدير أمور البيت، لكم بدا مختلفا عندما عاش بقريه تحت سقف واحد، يقرر أن يصارحه الليلة، لكنه مع نهاية النهار يكتم، أنه أكبر سنا، لم يبد منه ما يسىء إليه، كان عديله يدرك ما يمكن أن يجول بذهنه، أحيانا، أثناء لقائهما العابر يسأله عن أحواله، ثم يذكر بمناسبة وبدون مناسبة، الجهود التى بذلها حتى أمكنه الحصول على عقد عمل له، مثل هذا صعب جدا هنا، ألا يقرأ عن نسبة البطالة المرتفعة؟، ولولا أن أصحاب المطبعة من العرب لما جاءا إلى هنا.

كان يصغى ولا يعلق.

غير أنه تساءل مرارا فى خطاباته التى شيعها إلى أخته، لماذا تسعى الظروف إلى مخالفته فى الحدود الدنيا؟. لماذا لم تمض به فى مساراتها العادية، لماذا يجد المخالفة عند كل سعى مشروع؟.

بدا يشكو الأيام الرمادية المتتالية، المطر المستمر،الوحدة فى قلب الزحام.

هل تصدق؟ أنه يمضى أحيانا إلى بعض المقاهى الخاصة

بهم، مقاه بلا أرصفة، أبوابها لا توحى بما تؤدى إليه، ضيقة، معتمة الواجهات، إذ يجتاز المدخل، يسلم المظلة والمعطف، يجد الفراغ ممتلئا بالدخان ، ينتظم القوم حول المناضد، معظمهم يشربون البيرة. تصورى.. يشربون وأنظارهم محملقة إلى الأمام. لا ينظر الواحد منهم إلى الآخر، يطلب طعاما خاليا من الخنزير، عندما يحمل طبقه ويمضى إلى مكان خال، يومئ محييا الجالسين، غير أنهم لا يقابلونه إلا بوجوه جامدة، وعيون زجاجية، مهما قضى معهم من وقت لا يتبادل مع أحدهم كلمة، أحيانا يجاور عاشقين، يصغى إلى حوارهما الهامس.. إلى تبادل القبلات، كأنه غير موجود، كل فى محيطه، ملاصق مركز دائرته. أين ذلك من المقهى القديم؟، وهذا المقهى العتيق، الفسيح، فى ذلك البلد العربى.. من يصدق أن يوما آت، يحن فيه إليه، وأين.. وهو هنا فى أوروبا، كان يتحدث إلى من يجاوره، تمتد الوشائج الإنسانية، أما وحدته هنا فصعبة، كأن ستارا خفيا ضرب حوله، إنه بعيد جدا حتى عن نفسه، القوم فيهم أنفة، وصلافة زائدة، وبغض للغريب. لن ينسى أول مرة جرى فيها ما جرى.. إذ قعد فى المترو بجوار امرأة عجوز، تطلعت إليه بنظرات جانبية حادة، حتى ظن أنه أتى شيئا فريا، ثم قامت غاضبة، آثرت الوقوف بعيدا..

فى المساء قال عديله إن البعض هنا يكرهون الملونين، ويحرضون ضدهم، هو بالنسبة إليهم ملون، بعضهم يسمونه التركى، البقال لا يسميه إلا التركى، لكم مرت به لحظات باردة،

عند عودته متأخرا، تحدق به الشوارع الفسيحة، شبه الخالية، بينما تبدو المبانى الرمادية مصمتة، لا تسفر، لا تنبئ بأى حركة، حتى الأضواء تبدو مختلفة، كأنها ظلال لأضواء أخرى، يمد الخطى وثمة خوف غامض يدركه، إذ يغلق الباب خلفه يلقى أنفاسه لاهثة.

لكم كتب إلى شقيقته، تمنى المشى، مجرد الخطو فى الطريق العامرة المؤدية إلى البيت، لا تنقطع الحركة منه ليلا أو نهارا، فى أى ساعة يمكنه النزول وشراء ما يحتاج إليه.

لكم يود إلقاء التحية على من يعرفهم ويعرفونه، الى سماع الردود الحميمة، يود النظر إلى الدكاكين المتجاورة، المرور بالبقال الذى لا يفتح أبوابه إلا بعد التاسعة مساء ويستمر حتى الصباح.

لكم تمنى الدخول إلى دكانه العبق برائحة الجبن الرومى، والزيتون الأسود والصابون. تساءل مرارا.. لماذا تبدو الأيام بعيدة؟ لماذا يبدو قبس منها مستحيلا؟ نعم.. البلاد هنا جميلة، لكنها جميلة لأهلها، لمن يجيئها عابرا فى أجازة، أما الإقامة لمن هو مثله فصعبة ومرة !.

لم يتلق من شقيقته أجوبة، انما تلقى أدعية، وتساؤلات، ماذا به؟ إن لهجته غير مطمئنة، إن كلماته تعكس ضيقا وألما، لماذا لا يرجع؟ لماذا لا ينهى غربته؟ تغور الفلوس وما يجىء بعدها.

لكم قرأ كلماتها، وأدركه خجل، ألا يحملها ما لا تطيق؟ ألا تكفيها وحدتها، هى من تجتاز خريفها بدون أنيس، بدون رفقة بعد ميل بختها، إنها مقطوعة عن كل قريب، لماذا يثقل عليها؟، هو.. عنده امرأته وعياله لكنه لا يقدر على مكاشفة امرأته بما يصارحها به، أو بمعنى آخر.. لا يرغب.

لكم يروعه إدراكه لنأيه عن أولاده، أحيانا يقول لنفسه:

ما أبعد الفرع عن الأصل، ما يصلهم به ذلك التحويل الذى لم ينقطع عنه بداية كل شهر، لم تكن غربته الأولى فى ذلك البلد الذى كاد يلقى حتفه فيه إلا لتكوين رصيد يمكنهما من مسايرة ظروف الحياة، لم يكن بمفرده، إنما تغرب كثيرون ممن لا يعرفهم، وممن يعرفهم. أما غربته الثانية التى لقى فيها ما لقى، وهذه الثالثة فلضمان استمرار حياتهم كما هى، صحيح أنهم يكتبون إليه الكلمات الرقيقة، ولكنها كلمات متشابهة، جملها متكررة.

سنوات انقضت، هو فى ناحية وهم فى ناحية، عندما نطق كل منهم حروفه الأولى، عندما حبا أولى خطواته، لم يكن قريبا يسمع ويرى، ليبتهج، ليتلقى أول السعى بين ذراعيه ، فلماذا يلوم؟ غير أن وحدته وعرة هنا، تحدق به أوقات خلو من كل عزيز، سعى أحيانا إلى افتعال مشاجرة مع عديله، لكم رتب ظروف تحرشه به، ضرورة تنبيهه إلى المشاركة فى أمور البيت. لم يأت به من مصر ليعد له الطعام، آه.. ليفهم ذلك، ثم..

لاداعي للتلويح دائما بجهوده التى بذلها من أجل إتمام هذا التعاقد، إنه يقدم جهدا ويتقاضى مقابله أقل مما ينبغى، ثم ليفهم جيدا.. أنه ليس سعيدا بالمرة البلاد، باردة، موحشة.

عندما كان فى هذا البلد العربى، كان يمكنه الحديث إلى هذا، أو زيارة ذلك، لكن الكل هنا أسير جلده، لم يسأله يوما إذا كان مريضا أو مرتاحا، بل تمضى أيام لا يرى كل منهما الآخر. لكم جهز وأعد ما سيقوله، وعندما يتواجهان يحل الصمت، فيؤجل، بل أحيانا ينقلب ليلوم ذاته، لماذا يريد فصم ما بينهما وهما فى غربة؟، يلتمس العذر تلو العذر، غضبه وضيقه بسبب وحدته، وربما حاجته إلى سماع كلمة حلوة من الآخرين، إنه البعد الطويل عن أولاده، وإذ يفكر فيهم تتطلع عيناه الى بعيد، أولاده؟، يوشك على لومهم، مع ذلك لكم مر بلحظات خف وشف بعد تلقيه خطابا من ابنتيه، تطلب كل منهما أشياء محددة، قمصانا بألوان معينة، وطرزا محددة. يهرع إلى المتاجر، يتأمل، يتوقف، يرى المعروضات بعيونهم، يطيل الاستفسار.. ألا يوجد شىء أفضل؟ مرة أخرى أبرز صورة ابنته الوسطى وأطلع عليها البائعة، أبدت إعجابها، قالت: ما أجمل عينيها!.

كأنه ينتبه إلى عينى ابنته أول مرة، هنا تذكر ابنته الكبرى، لحظة انحنائها، وخجله، لكم رتب، وأعاد ترتيب الحاجات التى سيرسلها إلى أولاده، لكم أطال النظر، وتخيل لحظات الاستلام، واستعراضهم لما أرسل!.

فى هذه الليلة بالذات، فرغ من ثلاثة أشياء قبل أن يأوى..

الأول.. كتابة رسالة إلى شقيقته، يطلب منها الا تصغى إلى الأحلام، ألا تصدقها، كان هذا ردا على قلقها لرؤيتها حلما بغيضا لم تفسره له.

الثانى.. قراءة نص رسالة من ابنه يطلب فيها نوعا معينا من مضارب التنس، فوجئ.. هذه أول مرة يعلم أن ابنه يمارس هذه الرياضة، هو لم يمارس الرياضة فى حياته، لم يعرف إلا المشى. ابنه كبر، أصبح لاعبا للتنس، قرر قبل إغماض عينيه الذهاب غدا إلى أكبر متاجر الأدوات الرياضية.

أما الثالث.. فهو تجهيز العشاء لعديله ولفه بورق معدنى حتى لا يفقد حرارته.

لم يع لحظة انتقاله من اليقظة إلى النوم..

لم يدر الساعة التى استيقظ عندها، به جفاف فى الريق. وثقل رأس وهبوط مستمر إلى لا قرار.

بصعوبة انتبه إلى شىء لزج يغرق فيه، وسائل ينزف من فمه، لم يعهده، لم يمر به ذلك من قبل، ولم يكن بوسعه إيقاف الدم الذى انسال مبقبقا من فوق ومن تحت..

طبق الأصل

ما شاء الله كان..

له الأمر، من قبل، ومن بعد، منه العون، وإليه المصير.

والله يا إخوان كلما استعدت هذا الرجل الذى اكتملت معرفتى به بعد غيابه. ترقرق أساى، واستنفرت خواطرى، أستعيد إطراقته، إقباله مبتسما، مسالما، وإدبار كينونته، اندماجه الهادئ فى زحام الخلق، ودهشة ملامحه إذ يحيق به أذى أو ضيق.

أرى أطيافا منه فأقف على خلاصة سيرة، ومصير اكتمل، وكان ممكنا ألا يدرى به أحد، أو لا يقف على أخباره إنسان.. لعن الله ظروفا أدت بمن كان مثله إلى فراق الأهل والأوطان، مثل هذا كان مستقبحا مستنكرا عند قومى، حتى إذا تبدل الظرف وتغير الحال، هج من هج، وطفش من طفش.

أستعيده، لكنه في كل مرة يزداد بعدا، فكأني واقف على شاطيء لجة واسعة، تضطرم حينا وتنبسط حينا، وما بين ذلك وذاك تلوح وجوه فتدنو مني حتى أوشك أن أمسكها بنظرى ويدى، لكنها تفلت، نائية، ومبتعدة، لا يمكن لى إدراكها أبدا!

راح من راح، وإنى لاحق بهم، فماشاء الله كان.

وحتى زمن لا أدرى مقداره سيحيرنى ماجرى لهذا الغارب، الذى قضى بعيدا، حار الأطباء فيما لقوه عنده، عندما أحدقوا به ظنوا النزف لأمر داخله، فشقوا، وأعملوا المباضع، وأحاطوا الأوردة بالأربطة، لكن ماكان يفلت منه لم يكن بوسع مخلوق إيقافه.

قال كبيرهم بعد حيرة: الأمر معنوى. وكان الأمر قد تم ! فى المحصلة راح. بقى منه راتب تقاعدى، ومقدار من المال

بقى معلقا حبيسا فى البلد العربى الذى فارقه عنوة، سعت امرأته، وسطت قوما ذوى علاقة، لكن لم ينفع شىء..

والمقام هنا يستدعى إلى ما لم أذكره من قبل، فبعد أن احترق هذا الشاب وحيد والديه فى الغربة، وعاد إليهما فى صندوق معدنى مغلق، لزمت أمه قعدتها أمام الدار، محملقة إلى ما كان، لعل وعسى.. أما الأب العجوز الذى كلت قواه، وما عاد قادرا على الخروج إلى الغيط، ورفع الفأس وعزق التربة، فبدأ يفعل مالم يقم به فى حياته قط. مالم يفعله حتى لا يعاير إنسان ولده، بدأ يمد يده، ويسأل الخلق أن يعطوه مازاد عن حاجتهم، بقى عنده الخسران الفادح.

كان ولده رهان عمره، من أجله شقى، واحتمل ما احتمل، وحرم نفسه من اللقمة، دائما كان يمنى النفس بالوصول إلى يوم يقف فيه الولد على رجليه، يسنده، ولما حان هذا اليوم غرب الابن فجأة، لم ير خيره، أملى على أحد أبناء القرية رسالة إلى وزارة الشئون الاجتماعية، وإلى إدارة المعونة، وإلى البنك المختص بتفريق أموال الزكاة. وإلى المشروع الخيرى الذى بدأته تلك الصحيفة التى يعمل بها صاحبى، شرح حاله، وما جرى لابنه، وطلب المساعدة، والحق أن أحدهم أقنعه بذلك، غير أن الرسائل راحت، وكأنه ألقاها فى جب، عدا واحدة، تلك التى وصلت إلى الصحيفة، وكانت بنهاية الرحلة إليه، وهكذا وقفت على ماجرى له.

عند مثولنا أمامه كان وقت طويل قد انقضى، وكان هو قد كف عن إرسال المكاتيب، وبدأ إلى القعدة التى لزمتها امرأته، عند حافة الطريق، يتطلعان إلى القادمين والذاهبين، وقد ذكرت من أحوالهما ما يشفى وما يكفى، أما الآن فهذا نص خطاب أرسله كاتبه إلى جهات شتى، وأتيح لى أن أطلع على صورة منه عند واحد من ذوى العلاقة، وإنى مورده كما كتبه صاحبه، لم أغير، لم أبدل، فلعل فيه فائدة قبل أن أذكر شيئا عن المدرسة التى عملت فى الغربة لسنوات، وأتمت المدة.. يقول صاحب الرسالة بعد الديباجة:

«.. أنا المقيم بميلانو، شارع تورشيالي رقم عشرة، كنت أعمل في وظيفة عامل زراعي بإحدى القرى الإيطالية التابعة لمحافظة بارما، بدأت في العاشر من نوفمبر، عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين، بعقد عمل، معتمد رسميا، بمرتب قدره مليون ومائتا ألف ليرة ايطالية، وظللت أتقاضى راتبي هذا لمدة عامين، ولم أتسلم أي أجر اضافي عن أيام العطلات الرسمية، أو ساعات العمل الإضافية، أو شهور المنح المعترف بها قانونا في إيطاليا، حتى الأجازة الصيفية حرمت منها، وكنت قانعا على أساس أنه عمل دائم، ولي سكن يأويني، كنت أعمل طوال السنة، لم أقم بيوم واحد أجازة، لأنني مسئول عن رعاية المواشي بدءا من الأكل والشرب، حتى نظافة الحظائر، كانت زوجتي تساعدني، بدون أي مقابل.

كنت أقود الجرارات أيضا، والآلات الزراعية، وقص وتجفيف وتخزين الحشائش الزراعية - البرسيم، كان المسئول عن المزرعة رجلا إيطاليا يأتي بعد الثانية ظهرا، لأنه مدرس في احدى المدارس الصناعية. أما صاحب المزرعة نفسه فلم يكن يأتي إلا مرة، نهاية الأسبوع. كان يسكن في مدينة ميلانو القريبة.

في أحد الأيام سألت صاحب المزرعة عن كشف حسابي الشهري مثل كل الناس، فأخبرني أن المزارعين ليس لهم كشوف حسابات، تسمى هنا في إيطاليا «البوستة باجا»، طبعا هذا كلام لا أساس له من الصحة، ولكن ماذا أفعل؟

فى يوم من الأيام أرسل لى أهلى يطلبـون من زوجـتى العودة لتسلم عملها فى وزارة التربية والتعليم.

أخبرت صاحب المزرعة فقال: ليس مهما سفرك، كما أن زوجتك تساعدك وأنتما باقيان هنا.. ثم إن عمل المزرعة يحتاج إلى رجل متزوج، لأنه مرهق وساعاته طويلة..

اقترحت عليه أن نسافر، أنا وزوجتى حتى تحصل على أجازة - ولو مرضية - وإلا فقدت وظيفتها، وافق، واشترط العودة السريعة.

فعلا.. سافرت، وزوجتى وابنى، وعدنا بعد أن قدمت أجازة مرضية، وأغلب ظنى أنها فصلت من عملها حيث إن الأجازات المرضية لم يوافق عليها الأطباء

قلت لزوجتى إن هذا ليس مهما، يكفى عملنا هنا، لقد انقضى وقت طويل علينا هنا، إنه عمل دائم، وثابت..

فى شهر مارس عام ألف وتسعمائة واحد وثمانين، فوجئت برسالة مسجلة من صاحب المزرعة، يخطرنى بانتهاء عملى، وبضرورة تسليم المنزل أيضا. ولما ذهبت إليه، متسائلا: لماذا؟ زوجتى فصلت من عملها، الأهم.. إلى أين نذهب الآن؟

قال: هذا كله لايهم، عليك بالرحيل من هنا فورا، سألته عن مرتبى، قال إنه سيعطينى شهرى مارس وأبريل، عندما نترك البيت، وعندما فارقنا تسلمت مرتب مارس، أما أبريل فلم يدفعه حتى الآن.

ذهبت إلى ميلانو بصحبة امرأتى وابنى، وصلنا فى منتصف الليل، بدأت البحث عن مأوى، وعن عمل، لجأت إلى محام، أبرق إليه مطالبا بعودتى إلى العمل، ليس قانونيا فصلى على هذا النحو، ثم أين ما يحق له؟

قال فى رده على المحامى: إن الأجانب ليس لهم حقوق عندى، أرسل إليه المحامى قائمة بساعات عملى الإضافية، بحقوقى المشروعة أصلا، وقدرها أربعة وعشرون مليونا من الليرات الإيطالية. ويوازى هذا أربعين ألف جنيه مصرى.

اتفق صاحب المزرعة مع المحامى على مهلة يفكر خلالها قبل الذهاب إلى المحكمة، بعد أسبوع اتصل بى المحامى، وعرفنى أن الرجل يطالبنى بتسعة ملايين ليرة كتعويض عن الخسائر التى لحقت بالمنزل الذى كنت أقيم فيه لأن ماسورة المياه انفجرت وأتلفت البيت.

قلت للمحامى إنها حيلة قذرة..

عرفت أنهم دخلوا من الباب الخلفى، وكسروا ماسورة المياه الموجودة بدورة المياه، ثم اتصلوا بالبوليس الموجود فى القرية، بحجة أنهم لا يعرفون مكان إقامتى فى ميلانو، وللعلم فإنهم على اتصال دائم بالمحامى، وهو يعرف عنوانى، ورقم تليفونى.

عرفت الطريق إلى المحكمة، حضر شهود لا أعرفهم، كما حضر مدير مكتب العمل بالقرية، ولكن كشاهد ضدى!

تأجلت القضية، مرة لغياب بعض الشهود، ومرة لمعاينة البيت، ومرة لسبب لم أعرفه، جرى هذا على امتداد عام كامل، ولم أصل إلى أى نتيجة.

يوم المعاينة ذهبت بصحبة محامية (تحت التمرين)، فالمحامى الكبير لا يحضر بنفسه القضايا خارج مدينة ميلانو، هكذا أخبرونى.

جاء القاضى حوالى الثانية عشرة ظهرا، معه محامى صاحب المزرعة، والسيد المسئول عنها ـ الذى يعمل مدرسا ـ وبدأت المعاينة.

قال القاضي: من أين دخلوا الشقة؟

قلت: من هنا ياسيدى.

لكن ما لاحظته أن الباب به ترميم جديد واضح للعيان، سأل القاضى عن هذا الأسمنت الجديد، فقال المدرس إنه منذ ثلاث سنوات، قلت: لا ياسيادة القاضى، لم يحدث شىء من هذا أثناء إقامتى.

قال صاحب المزرعة:

ـ لا ترفع صوتك هنا.

قال القاضى:

ـ إذا رفعت صوتك مرة أخرى. فسوف أدخلك السجن.

قال محامی صاحب المزرعة:

ـ «ونحن شهود».

أما المحامية التی بصحبتی فلم تنطق كلمة، وسجل السيد القاضی أن الترميم حدث منذ ثلاث سنوات، مع العلم أن هذا ليس من اختصاصه إنما من مهمات لجنة فنية فی هذا المجال.

المهم... عرض صاحب المزرعة مبلغ ثلاثة ملايين ليرة، لتسوية الأمر. قلت للقاضی: إننی أصبت فی قدمی أثناء تقديمی البرسيم للمواشی، شوكة كبيرة جرحتنی، احتجزت فی المستشفی، وأصبحت ساقی مهددة بالبتر، كانت الشوكة ملوثة، أشرف علی علاجی طبيب عربی الأصل من سوريا، وبقيت اثنين وأربعين يوما مصابا، كانت زوجتی تقوم بالعمل، لأنه لا يوجد غيری.. ولم نسمع حتی كلمة شكر..

سألت القاضی عن رأيه فی هذا، وعندی تقارير المستشفی، قال سيادته:

ـ إن هذا موضوع آخر.

قرر تأجيل الجلسة حتی العاشر من ديسمبر، حتی أقبل المعروض من صاحب العمل، أی علی قبول هذا المبلغ بالإكراه، أو لن أتقاضی ليرة واحدة ، وانتهت الجلسة بعد أن عملوا من شقة صاحب المزرعة محكمة.. فی النهاية قدم لهم النبيذ الابيض الطبيعی، والفستق، واللوز.

جرى هذا وأنا بينهم، أجلس إلى المائدة المستطيلة، لكننى كنت أشرب كئوسا أخرى، كئوسا لا يراها أحد، لها مذاق المر والعلقم. مذاق الذل والهوان.

ظللت منكس الرأس، وهم منصرفون إلى أحاديث بعيدة تماما عن القضية، لكم ضقت بنفسى، لكم احتقرت ذاتى وأنا كالذبيحة المسلوخة بينهم، ليس لى سند أو نصير.

وعندما وقف صاحب المزرعة وتحدث، اسودت الدنيا فى عينى، قال ما نصه:

«إن زوجتى كريمة، وأنا مثلها، ونحن نعطف على الفقراء القادمين من الشعوب المحتاجة مثل السنيور - وأشار إلى - إننا نعطيهم التبرعات، وأنا أعرض عليه لآخر مرة المبلغ، لننهى الموضوع كله.. إنها الفرصة الأخيرة له، وإن لم يقبل فلن يجد شيئا، إننى أفعل هذا لأننى أعطف عليه..»

شعرت أنه مسح بى وبكل ما أنتمى إليه الأرض، وبرغم إعتام الدنيا فى وجهى، وإحاطتهم بى، فقد أقسمت بينى وبين نفسى، ألا أخضع، وأن أسعى وراء حقى، حقى أنا، وإن لم ينصفنى قانونهم فلى شأن..

هكذا تنتهى الرسالة التى وجهها كاتبها الى جهات شتى يطلب المؤازرة والمعونة، ولم أعرف أخباره، ولم يقف صاحبى، الذى كانت الرسالة بحوزته على أى معلومات.

فيما تلا ذلك من مدة، لم نسمع عن صاحبها ولم نقرأ، كما قرأنا عن السيدة التى عملت مدرسة، وكان من أمرها ما كان..

هذا ما جرى للمدرسة التى أتمت المدة..

سبع سنوات، وستة شهور، وأحد عشر يوما..

تمام المدة ومجمل الفترة، قضتها هنا فى تلك الدويلة الصغيرة، النائية، منقطعة متوحدة، لم تزر مصر إلا مرات ثلاث، مرة بعد ثلاث سنوات، والثانية فى بدء العام الرابع لتغربها، والأخيرة قبل عام من تاريخ عودتها النهائية.

بعد الأجازة الأولى انزعجت مما تكلفته، مما أنفقته، كل من يمت إليها بصلة، أو علاقة، ينتظر هدية، بعضهم لايمكنها الدخول عليهم ويداها خاليتان، خاصة ذوى القربى، هناك من يتطلعون إليها، يتفحصون ثيابها وحليها، ينتظرون أيضا، تقول عيونهم بما لم تصرح به ألسنتهم، أما الذين حملت إليهم قطعة قماش، أو زجاجة عطر، أو لعبة لطفل، فلا تدرى ماذا يقولون عنها بعد انصرافهم؟

ليت الأمر اقتصر على الهدايا، إنما تنفتح المطالب.. فبياض البيت مشروع مؤجل حتى عودتها، وأن تستبدل بالموقد الغازى القديم فرن بوتاجاز.. فأمران لا مفر منهما.

صحيح أن أمها لم تطلب، لكنها لمحت، أشارت إلى عمرها المنقضى بصحبة هذا الموقد العتيق، لا يمر أسبوع إلا تضطر إلى إصلاحه.

فى الزيارة الثانية أشارت إلى التليفزيون الملون، بيت فلان اشترى، وبيت فلان غير التليفزيون القديم بواحد حديث، لا يخلو منه بيت فى البلدة.

جاء طفل صغير، حافى القدمين، ذابل العينين، فتح الباب أثناء خلوتها، راح يبتسم، كان ينتظر، إلا أنها واجهته بملامح جامدة، جاءت أمها، قالت إنه ابن سعدية.. ألا تذكرها؟

أبوه سافر منذ سنتين وغابت أخباره، لم يترك ولم يرسل أبيض أو أسود، بل إنهم لايعرفون شيئا عنه، قالت أمها: اعطيه حاجة. قالت إن كل من يجىء هنا يحن على الولد.

ابدت تأففا، قالت إن الناس يظنون العائد من هناك بنكا متحركا.

تطلعت إليها الأم صامتة، ثم قالت:

«ربنا مايحكم عليكى يابنتى..»

أخرجت من كيس نقودها خمسة جنيهات، لكنها نصحت أمها ألا تعودهم على ذلك، إنها لاتعرف شقاءها، إنها لاتجد النقود ملقاة في الطريق، لكنه الشقاء، والغربة.

في الزيارة الثالثة لم تطل إقامتها. جاءت مضطرة، إذ كان لابد من دفع مقدم الشقة التي اشترتها في المدينة القريبة، لم تشأ توكيل شقيقتها، بل قررت، إتمام كل الإجراءات بنفسها.

هكذا.. أمضت معظم المدة وحيدة في هذا البلد البعيد، حتى أيام أجازتها لم تكف خلالها عن التدريس لعدد من الفتيات اللواتي يعانين تخلفا دراسيا، كان هذا يسرها ويريحها، فإلى جانب الدخل الإضافي تتلقى هدايا لا بأس بها، وعندما ترجع إلى غرفتها في بيت المعلمات تمسك قلما، تحسب قيمتها، تعتبر هذا مضافا إلى رصيدها في البنك.

خلال انقطاعها اكتفت بتحويل مبلغ إلى أمها، بداية كل شهر تمضي إلى البنك لإرسال الحوالة، كانت تنقص المبلغ شهرا، وتزيده شهرا آخر، نقص ملحوظ، وزيادة طفيفة، حتى لا تتوقع أمها مبلغا متساويا يكون تجاهه إلزام، حتى لا يتخذ شكل المرتب.

قبل إرسالها الحوالة بيومين أو ثلاثة تنتابها لحظات إشفاق تجاه أمها، قبل النوم تلوم نفسها ، بل توبخها، إن ما ترسله قليل لا يفي، كيف تبخل على أمها؟ كيف لم تراع تكاليف مرض السكر الذي لحقها، مرض يحتاج إلى نظام غذائي، وهذا مكلف، إضافة إلى الدواء الذي يجب ألا تنقطع عنه.

فى خطاباتها تشدد وتنبه إلى ضرورة اتباع تعليمات الطبيب، إلا أنها تعلم صعوبة التزام أمها بالخضار وقطعة اللحم اليومية المسلوقة، أو كوب الزبادى.. تعرف أنها لاتشبع إلا من الخبز.. لا .. يجب أن تضاعف المبلغ.

تغفو، تنام راضية، مرضية، حتى إذا طلعت الشمس وبقيت دقائق فى الفراش، ترثى لنفسها، أصعب حالات وحدتها تلك، فما من شخص قريب، ما من تحية تصغى إليها، وما من أحد يحنو أو يسمعها كلمة حلوة.

مع خروجها إلى الطريق تبدأ مراجعة ما قررته ليلة أمس، ألم تبالغ فى تقدير النقود؟ عندما ترجع إلى مصر ستخصص قدرا من المال تشترى به ما يحتاج إليه البيت، بل لحظة وصولها ستضع فى يد أمها مبلغا كبيرا، أما الآن.. فإنها فى حاجة إلى زيادة الرصيد، كلما ارتفع تضاعفت الفائدة.

عند وصولها إلى البنك واجتيازها الباب تكون خفضت ما قررته قبل النوم، حتى إذا ما أمسكت القلم لتكتب الحوالة، لا تتخطى المبلغ الذى أرسلته الشهر الماضى إلا بمقدار يسير، وربما تقلله.

هدفها الذى لم يغب عنها طوال السنوات الماضية، الوصول بالرصيد إلى حد معين. لم تنفق إلا الحد الأدنى، بل قترت على نفسها، لم يخرج من يدها إلا الضرورى.

الغريب أنها قبل قدومها إلى هذه البلاد، عندما كان مرتبها فى بداية عملها بضعة جنيهات، لم تدبر، ولم تعرف ما تعرفه الآن من حذر، على أية حال، الحمد الله، فإن مارمت إليه تحقق، وما أرادته تم. وصلت إلى الحد الذى قررته، صحيح انها ودت تضاعف الرصيد، لكن .. هذا أقصى ما أمكنها تدبيره، من مرتبها، من مكافأتها، من الدروس الخاصة، عبر سبع سنوات، وستة شهور، وأحد عشر يوما..

الآن، تضمن الشقة، ورصيدا يمكنها أن تحجز منه عربة. أن تدفع قيمتها بالدولار، أن تشترى ما تريد، من ملابس، ومطبخ يريحها، يضم ثلاجة ضخمة ذات بابين. وفرنا كهربائيا، وغسالة حديثة، وخلاطا كبيرا، بمجرد نزولها مصر ستشترى هذا كله بالدولار من السوق الحرة، أما الأثاث فمن مسئولية العريس الذى ستختاره من بين المتقدمين إليها، ستختار وهى مستندة إلى رصيد مالى يقوى مركزها، إنها ليست دميمة، أبدا.. ملامحها مريحة، مقبولة، وتعرف تماما أن لعينيها وضعا خاصا، إنهما جميلتان، عميقتان، وعندها لحظ !

لو قبلت الزواج ممن تقدموا خلال السنوات السبع الماضية، لأصبحت أما الآن لطفلين، لكنها شاءت أن تبنى مستقبلها بيدها، أن تقرر هى.. إن لها شروطا أيضا، لن ترضى بأحد خريجى الكليات النظرية، لا آداب، ولا حقوق، ولا كلية العلوم حتى.. لن تقبل أقل من مهندس أو طبيب، إنها تنوى

حجز سيارة نصر بمجرد عودتها، ستدفع بالدولار حتى تتسلمها بسرعة، إذن.. لابد أن يكون لديه عربة أيضا، يستحسن من طراز مختلف، عليها باليقظة، الانتباه إلى أولئك الذين يمكن أن يطمعوا فيها، أو يحوموا حول رصيدها، لتحذر، إنها تكاد تشم رائحة الرجل الذى يضمر غير ما يظهر.

لكنها غير مشغولة بالزواج، حتى تمام عودتها واستقرارها، وبدء تدبير أمرها، إنها تراجع بدقة أوراقها، مايستحق لها من مكافأة نهاية الخدمة.

فى كل ليلة تحصى ماليديها، تقارن بأسعار الدولار فى مصر، خاصة فى السوق السوداء، تطرب لكل قرش زيادة، هذا يعنى زيادة الرصيد عند التبديل إلى الجنيه المصرى.

قبل نومها تحكم إغلاق غرفتها، تخرج ملفا يضم كشوف حساباتها التى يرسلها البنك بدقة، فى موعد لا يتغير، ترتدى ملابسها الداخلية الشفافة، تقعد فى مواجهة المرآة، أحيانا تتخذ وضعا جانبيا، ترمق صورتها بنظرة جانبية.. تلفظ بصوت عال:

«حلوة يابنت والله..»

أحيانا تقترب حتى تلامس بجبهتها سطح المرآة، تتثنى، أو تفرد طولها، أو ترفع نهديها بيديها، لو أن لها القدرة على معرفة من يسعى إليها فى هذا العالم الآن؟ من سيلمس، ويمرر أنامله، ويقبل، ويضم.

لم تكن تفكر فى شخص معين، فى ملامح بذاتها، بقدر ما تردد الرقم، ثلاثون ألفا وستمائة دولار، تفرد أصابعها، تثنيها، تنغم صوتها، تتمدد فوق الفراش وإلى جوارها كشف الحساب، السحب، الإيداع، المدين، الدائن، فكأنها خصصت الليلة لمضاجعة رصيدها!

ياسلام، لو أنه ضعف هذا المقدار؟ ولكنه نتاج أقصى الطاقة، عليها إنهاء ما تبقى من أمورها، إعداد أوراق، شهادة خبرة، تحويل ماالديها هنا إلى حساباتها فى مصر الذى افتتحته منذ سنوات فى أحد البنوك الأجنبية، شراء بعض ماتتصور إنها لن تجده فى السوق هناك، ياعالم.. متى ستسافر مرة أخرى. يجب أيضا تدبير بعض الهدايا، لا بأس من ارضاء الاقارب، اعدت كشفا بالأسماء حتى لا تنسى، فى كل يوم تعد له، إما بشطب بعض الأسماء.. وإما بإنقاص ما تنوى إهداءه لهم، أو شراءه من مصر بدلا من زيادة وزن الحقائب مما يؤدى إلى دفع مبلغ وقدره، المهم.. الدخول عليهم ببعض الحاجات البسيطة، فلا يمكن لأحدهم القول إنها لم تفكر فيهم، وفى نفس الوقت لا تكبد نفسها غرما.

أهى حزينة؟ أهى مسرورة؟

لم يبد عليها ما يوحى بهذا أو ذاك، بدت مشغولة دائما، تروح وتجىء ، تشترى بعضا مما ستحتاج إليه هى، ماتعرف أنه رخيص هنا، مرتفع السعر هناك، زيارة هذه أو تلك ممن عرفتهن، كن يقلن لها إن فى الوقت بقية، لكنها تجيبهن برفع يدها، وبسط أصابعها:

«لا.. هذا يكفى .. هو العمر فيه كام سنة؟»

ثم تفيض في الحديث عن أمها العجوز، المريضة، التى يجب أن تلازمها، وأن ترعاها، الحق أنها كانت تبالغ أو تحاول أن تبدو كابنة بارة، من يسألنها البقاء يعرفن أنها استنفدت المدة، وهى تدرك إنهن يعلمن، لكنهن يتظاهرن بالاقتراح عليها، وتبدى هى الممانعة، والحجة بواجبها تجاه أمها.

مرة كانت تتحدث إلى إحداهن، فوجئت بنفسها تقسم برحمة أمها، صمتت، هذا شؤم، ولكنها فيما بعد قالت إنها كثيرا ما كانت تتخيل لحظة تلقيها نبأ رحيل أمها فى الغربة، فى البداية ينتابها جزع، وأسى، تسارع إلى إرسال خطاب، تشدد على ضرورة الرد فورا، ثم تفيض وتفصل فى نصائحها، كان هذا فى البداية، لكنها فى السنة الثانية كانت أقل اهتماما، كثيرا ما وعت ذلك فتعلله بالبعاد. تقول إن الغربة تلهى الإنسان عن نفسه، لكنها لم تستطع تبرير تفكيرها المفاجىء ذات يوم قائظ، عندما فوجئت بتخيلها لأدق التفاصيل المتعلقة برحيل أمها، بل وحالتها عند تلقى النبأ إذا كانت فى البلدة، أو إذا كانت هنا، فى غربتها، بل.. صاغت فى مخيلتها صيغة النعى الذى سوف تنشره فى الصحف، نعى من عدة سطور، بل ربما تكتب سطرين أو ثلاثة تناجى روحها كما يفعل البعض.

يؤكد بعض من عرفها عن قرب أنها كانت دائمة الحديث عن تخوفها ذلك، وتتبع ما تقول بذكر ما تحوله إليها، لهذا

يقولون إنها كانت تنتظر الموت حتى تتوقف، وتضيف ما ترسله إلى رصيدها، كما أن علاقتها بالأقارب ستنقطع، لها عديدون تجوز عليهم الحسنة، أو زكاة المال، لكن هذا باب لو فتح فلن تقدر على إغلاقه أبدا، مالها ومالهم، هل كانت غريتها، وتحملها العديد من المواقف التي لم يكن ممكنا أن تقبل أقل منها في مصر.. صلف الناظرة، مضايقات الزملاء، خاصة من الجنسيات الأخرى، هل كان تحملُها هذا كي تغدق على هذا أو ذاك؟.

هذا ما أشاعه البعض عنها، ولكن لا يمكننا الأخذ به لأنه غير مؤكد، وإن كانت بعض الشواهد تشير إلى ذلك.

في هذا اليوم بقيت في البيت.

كانت تحصي ما أنفقته خلال الأسابيع الأخيرة، أزعجها معدل ما اشترته، بعد أن فرغت من حساباتها على الآلة الصغيرة، لماذا لا تمضي ثلاثة أو أربعة أيام بمفردها في أحد الفنادق الكبيرة، في القاهرة أو الإسكندرية، لماذا لا تمتع نفسها؟ هذه الفنادق التي لم ترها إلا في الحلقات التليفزيونية، وأفلام السينما.

لكن سيكلفها هذا كثيرا، ثم إن القوم سينظرون إليها بريبة، آنسة بمفردها..

ياه ! أشياء عديدة تود القيام بها، لكن الناس، وكلام الناس، أقاويلهم، على أية حال، عندما تتزوج سيكون من

شروطها قضاء أجازة من حين إلى آخر فى أحد هذه الفنادق، أما لو أسعدها الحظ، وكان العريس هو من تتمنى، فسوف يسافران إلى أوروبا..

هنا رن الجرس!

فوجئت، لم تعتد استقبال أحد من معارفها، انقطعت عن زميلاتها حتى لا يبادلنها الزيارة، اعتبرت ترتيب أثاث حجرتها ومفروشاتها سرا يخصها. فوجئت حقا برؤية زميلتها، مدرسة التربية الرياضية، تركية الأصل، زوجة لطبيب يعمل هنا منذ عشرين عاما، أى بعد الاستقلال.. مدة مكنتها من جمع ثروة، ياسلام.. ما كان أحوجها إلى مدة كهذة!

بقدر دهشتها، بقدر ما أبدت من ترحيب، كانت التركية طويلة، راسخة الخطى، حركاتها محسوبة، شعرها طويل، أما وجهها فجميل الملامح، وعيناها واسعتان، فمها مضموم كالحق.

لم تتقابلا إلا فى المدرسة، تعرفها باضطرارها للحديث بالتركية عند الانفعال، أحيانا تقول «تشكرات» بدلا من «شكرا»، ثم تتظاهر بأنها نطقت الكلمة عفوا..

طبعا، بدا واضحا أنها جاءت لغرض محدد، صحيح أنها أبدت أسفها لأن أحسن الزميلات يرحلن، إنها نادمة بسبب قلة لقاءاتهما، لها نظرة فى الناس لا تخيب، ولأنها تدرك جوهرها جيدا، وتثق بها رغم قلة المدة لهذا جاءت تعرض أمرا محددا!

لم تتوقف التركية، لم تغير لهجتها، لم تبدل ايقاع كلماتها، لم تزخرف، ولم توار أيضا، إنما استمرت، وكأنها لا يعنيها أن تقاطع، أو أن تتلقى ردا.

قالت باختصار حازم، باتر: إنها تعرض عليها المشاركة في عمل ستربح من ورائه خمسين ألف دولار غير منقوصة، خمسين ألفا أى ضعف ما ادخرته طوال سبع سنوات، وستة شهور.. ثم قالت متمهلة: وأحد عشر يوما..

توقفت لحظات، ثم استمرت..

طبعا السؤال المنطقى هنا، أى عملية لن تكلف جهدا، وستعود بهذا الربح كله.. ما طبيعة العمل الذى ستصبح بعده من الأثرياء؟ حقا، إنها فرصة، والفرصة لا تجىء إلا مرة واحدة فى العمر كله.. ها.. ما رأيك؟

أصغت مأخوذة، عندها فضول، وخوف غامض.. قالت:

«أنت سألت، ولم تجيبى...»

تراجعت قليلا، الحق أنها لم تموه ولم تزوق قط، بدت صريحة، واضحة، وفى بعض اللحظات كأنها تملى ولا تقترح..

قالت إن كل المطلوب منها، أن تحمل كيلو بودرة..

ـ بودرة؟

ـ نعم.. بودرة بيضاء.. هيروين يعنى..

مخدرات؟!. ماذا قالوا لك عنى؟

قامت واقفة، غير مبالية برد الفعل.

- سمها كما شئت، ولكن اعلمى أنك لست الأولى ولن تكونى الأخيرة..

لأول مرة تلحظ أصبعها الحاد القاسى، الذى لم ينثن طوال الحديث.

قالت بلهجة عامية مصرية:

- فكرى كويس، وأحب أطمئنك، وصولك البيت مضمون، أنا منتظرة الرد الساعة خمسة وربع - بكره.. باى!

.. لم تقم من مطرحها، بقيت شاخصة، حولها رائحة العطر العالق بالفراغ بعد ذهابها، الصمت البارد، بدت الزيارة الغريبة كأنها لم تحدث وأن المرأة لم تأت، كذا الثقة الزائدة، والصراحة الحادة كالنصل.. لكنها استعادت ما قيل، وخطوط حضورها المادى، امتلاءها غير المفرط، الراحة فى ثنايا جسدها، ملامح وجهها المشبع الثراء.

عشرون سنة مضت على زوجها فى البلد، تنشر الصحف صورته، إنه لا يعمل فقط كطبيب، لكنه صاحب مستشفى خاص مشهور، الليلة فيه تكلف نصف راتبها الشهرى، يقال إنها شريكة فى دار للأزياء الجاهزة ، لا تبيع إلا المستورد من باريس، ولندن، وعواصم أخرى لا نعرف عنها شيئا، وفى

بدايات الفصول الأربعة تقيم عروضها، تشهدها سيدات المجتمع، وزوجات السفراء، يبثها التليفزيون، أما المجلات التى تصدر فى طباعة ملونة، نسائية وغير نسائية، فإنها تنشر صور العارضات، تفيض فى الشروح الخاصة بالخطوط الجديدة للفساتين، أدوات الزينة، العطور، إنها ثرية جدا ويقال ان عملها كمدرسة للتربية الرياضية ما هو إلا لشغل أوقات الفراغ التى تطول فى تلك البلاد..

لكن.. تبدو التركية وكأنها تعرف أمورا شتى عنها، لكن.. ماذا ستعرف؟ ليس فى حياتها ما يشينها، ما يعيبها، سبع سنوات وستة شهور وأحد عشر يوما، كانت تخطو فوق صراط مستقيم، لا تحيد ولا تميل، فكيف تجىء هذه المرأة فى اللحظات الأخيرة لتقدم هذا العرض الغريب.. المريب؟

إن خوفا يدركها وخشية،هل بدا على ملامحها ما يوحى بقبولها، هل تضمنت نبراتها ما يومئ إلى الموافقة، تستعيد انفعالاتها، تحاول استعادة ألفاظها، قعدتها..

أبدا، لم يبد منها شىء قط.

لكن مالم تستطع قبوله، أو إقناع نفسها به، صمتها، لماذا لزمت السكينة؟ لماذا أصغت إلى النهاية؟

وماذا كانت ستبدى إزاء المرأة التى تنشر الصحف صورتها أحيانا؟

ماذا كانت ستفعل؟

كان المفروض بمجرد سماعها العرض الصريح، الوقح، أن تقف، أن تشير إلى الباب، أن تصيح:

أخرجي بره..

لكنها لم تفعل، ثم.. أى رد فعل كانت ستبديه المرأة؟ ربما تدبر لها أمرا يؤدى بها إلى مخاطر لا تعلمها.. إلى عدم خروجها من البلاد نهائيا، إلى فضيحة، فضيحة؟ أى فضيحة، إنها لم ترتكب ذنبا، لم تأت فعلا فريا، لكن.. من أين لها بالضمانات فى واقع تسود فيه مثل هذه المرأة، إن مجيئها إليها أمر ليس سهلا، أى بلاء يبرز؟ يطل برأسه فى اللحظات الأخيرة، أين كان مختبأ لها هذا كله؟

أحكمت إغلاق الباب، بينما خوف يدركها متمهلا، ثمة أشخاص يتربصون بها فى مكان ما، هذا مؤكد، أشخاص لم تعرفهم قط لم يخطر ببالها يوما أن أى صلة ستقوم بينها وبينهم، أحد هؤلاء ـ ربما لا تعرف ملامحه ـ ربما ألحق بها الضرر الأقصى، بل.. ربما أجهز عليها.

هل من المعقول أن تتركها المرأة هكذا؟.. معقول أنه عرض يقتضى القبول أو الرفض، أم يستتبعه ما تجهل؟

إنها مرهقة، عندها خشية، وترقب، وتفكير فى مفارقة البلاد كلها، أى ثقة كانت تتكلم بها؟ أى راحة؟ ترى.. كم

ثروتها؟ كم؟ قالت إن حمل كليو واحد من البودرة سيؤدى إلى ربحها خمسين ألف دولار، مجرد حمله، فكم ستكسب هى؟ أليس فى هذا ما يدعو إلى الجنون؟ إن شقائها، وحدتها، وقمعها لرغباتها، شحها، تقتيرها على نفسها، وعلى أقرب الأقربين، محصلة هذا كله ما يقارب نصف المبلغ المعروض.

خمسون ألف دولار، لو أودعت فى بنك ، لو أن متوسط الفائدة عشرة فى المائة، خمسة آلاف دولار فى السنة، بسعر السوق. مهما أنفقت فى مصر، هل ستنفق مثل هذا الدخل؟

أضف إلى ذلك ما أدخرته هى، إن رصيدا كهذا سيمكنها من البناء، تصبح صاحبة ملك، تحسن فرص الزواج، من الممكن التفكير فى أستاذ جامعى، طبيب كبير عنده عيادة.

خبطة واحدة، نقلة واحدة، مجرد كليو بودرة..

لكن المخاطر؟

طبعا عديدة، لكن مثل هذه المرأة، اللامعة، الوجيهة، القوية، هل تعمل بمفردها؟ لابد أن هناك آخرين مثلها، هل من المعقول أن تدبر أمرا لم تتوافر له ضمانات كافية؟

لكن.. ماذا يعنى وصولها إلى هذه النقطة من التفكير؟ هل تميل بها الظروف إلى هذه الدرجة؟ هل تسعى بإرادتها إلى الحافة؟!

الحق أنها لم تغف طوال تلك الليلة التى لن تنساها أبدا، تارة تجيء هنا، وتارة هناك، لحظة تأخذها، ولحظة تأتى بها، حتى إذا طلعت شمس النهار الجديد، لقيت نفسها قصية عن كل ما انقضى، أيامها كلها التى انقضت هنا فى جانب، وهذا اليوم فِى جانب آخر، كانت فى رهبة وخشية، وفضول، غير أنها رددت.. وضعها الآن تحسد عليه، لابد أن هذه المرأة تتابعها، ترصد حركاتها، تدبر لها، فهى بين خطرين، كلاهما مر، الأول أن تعرض عنها تماما، تمضى فى إجراءات رحيلها، تنفذ بجلدها لكن.. من يضمن؟ من يدرى أنها لم تدبر لها أمرا فى المطار هنا أو هناك ،لها ناس، هل ستتركها هكذا بعد أن صرحت أمامها، بعد أن كشفت نفسها، معقول؟ يمكن أن ترتب لها ما لاتقدر عليه، عندئذ تضيع مقابل لا شىء، وإما أن تقبل، عندئذ تتحمل المخاطر، وإذا تمت الأمور كما ينبغى، فستأتى فى انتظارها خمسين ألف دولار..

عند الساعة الثالثة كانت تدنو مما توشك الاستقرار عليه، أن تلتقى بها ، أن تصغى إليها، هكذا.. لن تسفر عن عداء بين، فإذا بدا الأمر نائيا عن المخاطر الجمة كان بها، وإذا رأت العكس اعتذرت وأبدت لها رقة خلاف ما جرى عند مجيئها إليها، ستحاول أيضا الوقوف ولو من بعد عما تنويه لها، أما انقطاعها تماما فخطأ مبين.

الثالثة أو الثالثة والربع.. لا تذكر.. أدارت قرص الهاتف، رن الجرس لفترة، انقضى وقت بدا طويلا، عاودت التطلع إلى الرقم لتستوثق، فوجئت بصوت التركية يجيء من الطرف الآخر.

«أهلا يا حبيبتى...»

كأنها تنتظرها، كأنها تعرف أنها على الطرف الآخر من الخط، أو تراها. عجيب.. قالت إنها تريد أن تراها، إنها تنتظرها.

قالت المرأة بثقة:

«لا ياروحى.. هذه المرة ستجيئين أنت، أنا فى انتظارك، بعد عشر دقائق سيكون السائق عندك..»

لم تدع لها فرصة، لا أخذ ولا رد، نطقها أمر، وإرسال السيارة قرار غير قابل للنقاش.

فى البيت الفسيح القائم على أعمدة، نصفها فى البر، ونصفها فى البحر مغروسة فى أمواج الشاطئ، فى صالة ازدحمت، مزدانة بالنباتات الاستوائية جرت المقابلة.

فى اللحظات الأولى أثقلها تعب وضجت بأعوام الوحدة الطويلة، بينما تردد عندها تساؤل، إذا كانت التركية تعيش فى هذا البذخ، فلماذا تجهد نفسها للعمل كمدرسة للتربية الرياضية، ترى.. أى نوع من الهموم عند هذه المرأة؟

للحظات تمادى داخلها وهن، لو تبعد، لو تجد نفسها فى مكان قصى، بقدميها جاءت، فهل تنكص فى اللحظات الأولى ؟ لتنتظر وسترى.

كانت المرأة تتطلع إليها، تتقدمها ابتسامة غامضة، فى عينيها معنى يقول صراحة «كنت أعرف أنك ستجيئين»، بعد دخول خادمة أسيوية الملامح، تحمل صينية من الفضة عليها براد الشاى وأكواب الزجاج التى يستقر كل منها فى وعاء من الفضة المنقوشة.

طبق خزفى به بسكويت مختلف الأحجام، مستدير، مستطيل، لكل مذاق ورائحة مختلفة، صبت الشاى، تساءلت عن عدد قطع السكر.. قالت دون أن تعنى شيئا محددا:

«واحدة».

تساءلت التركية عما إذا كانت تلتزم نظاما خاصا لتنقص وزنها ، هزت رأسها نفيا، عندئذ قالت التركية مومئة إليها، إن قوامها ملفوف جميل، وأن طولها مناسب . لم ترتح للهجتها البطيئة، المتخثرة، ونظرات عينيها، غير أن نبراتها تغيرت بعد الرشفة الأولى من فنجان الشاى.

قالت إنها عندما رأتها المرة الأولى لفتت نظرها بطيبة ملامحها، وهدوئها، وحبها الكتمان، وبعدها عن ثرثرة الزميلات.

قالت إنها تعرف كل شيء عنها الآن، ليس عن حياتها وأقاربها فحسب، إنما مقدار ما ادخرته طوال سنوات شقائها، ما اشترته من هدايا لأسرتها، يمكنها أن تصف لها محتويات حقيبتها الكبيرة، بل وزنها أيضا، ألم تعاينها عدة مرات حتى تتأكد أنها لن تتجاوز الوزن المسموح به فى الطائرة، هل تطلعها أكثر؟ يكفى أن تنبهها إلى خطئها عندما وضعت العروسة التى تتكلم وتبكى وتبول فى الحقيبة، صحيح أنها فى علبتها، لكن هذا الوضع يعرضها للتحطيم. مثل هذه العروسة يجب حملها فى اليد، صحيح أن وزنها خفيف، لكنها تشغل حيزا لا داعى له، هذه العروسة ستوفر العديد من المشاق، ولهذا شرح، وتفصيل، لكن فى وقته، كل شىء فى وقته..

ما أن توقفت التركية فجأة، إحدى مباغتاتها التى تتبعها بتحديق مركز مباشر، نفاذ، حتى شعرت أنها عارية تماما أمامها.. إذن، فحدسها صحيح.. لو أنها لم تأت لدبرت لها أمرا..

استأنفت حديثها، بدت غير عابئة بتلقى ردود، كأنها تتكلم أمام جهاز أصم، ولا تخاطب آدمية من لحم ودم.

قالت إن ملامحها الهادئة، وحبها الانزواء، وإخلاصها فى عملها، وبعدها عما يشين أو يعيب، هذا كله جعلها تقدم على اختيارها، لكن.. قبل الشرح والتفصيل، لابد من العلم أنها ليست الأولى التى ستقوم بذلك، وأن أخريات ـ لو علمت

بمراكزهن الاجتماعية ـ سيغمى عليها، فى مصر سوق كبيرة الآن لما ستحمله، ستحمل كنزا حقيقيا، ليس ممثلا فى قيمته وحسب، لكن فيما يعنيه بالنسبة لمن اعتاد عليه، تعرف تماما أنها لا علاقة لها من قريب أو بعيد بهذه الامور ، أنها لا تدخن حتى، وهذا أفضل، بل إنه من أحد الاسباب القوية لاختيارها، فكل من تقرأ أخبارا عن وقوعهم فى المحظور، إنما يكون أمرهم قد انكشف لأمر أو لآخر، وفى الأغلب لتكرار نشاطهم، أو لخطأ يرتكبونه، أو لوشاية مقصودة، هذا كله لا محل له، فهى ستقوم بالعملية مرة واحدة، لم ولن يتكرر الأمر، كل الظروف فى جانبها، فهى عائدة بعد غيبة، بعد غربة سنوات من العمل المضنى، هذا واضح، بين، ما من أثر لها، أو حاضر، لا مكتوب، أو شفاهى صفحتها بيضاء تماما، لا أحد يعرفها، إنها خارج الدائرة تماما، المهم.. أن كل خطوة ستكون محسوبة، معدة، تحوطها الترتيبات، سيكون هناك من يعنى بها، ليساعدها عند أى مأزق ربما تتعرض له، أما لو أخطأت.. أى خطأ ولو تافها، عندئذ تتحمل هى العاقبة كلها.

صمتت فجأة.

لم تكف عن النظر إليها، تتحدث كأنها تلقى تعليمات ولا تفصل عرضا، شربها الشاى أنيق، ترشفه بدقة، أما ما يحيطها من عز وأبهة، فلم تر مثله ولا فى الأفلام..

.. خططها تتغير، مسارها يتبدل، لن تسافر إلى القاهرة مباشرة ، تركب الطائرة، تسافر إلى كراتشى، بطاقة الطائرة منفصلة، لديها عدة بطاقات، أخرى من كراتشى إلى أثينا، ثم.. إلى القاهرة، لماذا هى قادمة من أوروبا؟ لأنها كانت تشترى ملابس وحاجات لها، نادرا ما تراجع الأختام التى تحملها الجوازات، إلا عند الشك، مع ذلك لكل موقف طارئ تدبير، المهم.. ألا تنسى، ألا تهفو، أن أعصابها قوية، متينة، وفى الأغلب الاعم، لا يفضح المرء إلا نفسه..

فى كراتشى ينتظرها أحدهم فى المطار بصحبة زوجته، تركب سيارتهما، تنزل ضيفة عليهما، لها أن تأمن، ألا تخشى، كل خطوة معدة، درست بعناية.

لماذا كراتشى؟

إذا كان ولابد أن تجيب على مثل هذا السؤال، فالمبرر واضح، احدى تلميذاتها واسمها «طفلة» دعتها إلى رحلة مكافأة على ما بذلته من جهد لإنجاحها فى المدرسة، أيضا بمناسبة انتهاء عملها، «طفلة» والدها تاجر سجاد، له مصالح، وتجارة، وبيت هناك، ثلاثة أيام مدة إقامتها، فى كل يوم تصحبها زوجة الرجل إلى مكان مغاير للنزهة ، للفرجة، لشراء الحرير الطبيعى إذا شاءت، عند دنو الإقامة من نهايتها تسلمها الزوجة العروس، نفس العروس التى تلهو بها.

لكن يجب الوعى أن عروسها تلك لم تعد قيمتها خمسة وعشرين دولارا، إنما.. ثلاثة أرباع المليون. نعم.. اعتادت عند سفرها الا تفارقها، تحملها معها، تصعد بها إلى الطائرة، إذا تصادف خلو المقعد المجاور تقعدها، إذا جاورها أحد تضمها، تسندها إلى حجرها، عادى هذا.. مألوف، ربما أثار هذا فضول البعض، لكنها لن تأبه، العروس بالنسبة لها نبوءة بطفلة جميلة، تصحبها فى سفرها، فى حلها وترحالها بعد زواجها.

من كراتشى إلى أثينا، الطيران مباشر..

الانتظار فى أثينا لمدة أربع ساعات، حتى موعد إقلاع الطائرة المصرية، كل التفاصيل معدة، من كان مثلها يفضل طبعا السفر على الطيران المصرى، مع أن مصريين كثيرين يفضلون الشركات الأجنبية، لكن هى... تكره الطيران الأجنبى، حيث تتعامل مع مضيفات لا تعرف لغتهن، إنها لا تتقن الإنجليزية أو غيرها.

فى مطار أثينا ينتظرها أحدهم، يعمل فى المطار، يدلها على المخارج، والقاعات.. وصالة السوق الحرة إن شاءت، لن تخرج من مبنى المطار، من قاعة العابرين، تبقى محتضنة العروسة، ممسكة أيضا حقيبة يدها، لا تبدى قلقا، أو توترا. حقيبة أخرى ستنضم إلى حقائبها، تحمل اسمها، تحوى ما ستقول عند الضرورة إنها اشترته من ثياب، وتحف صغيرة، وعطور، وأشياء أنثوية.

تجيل البصر حولها، تنظر أمامها، يجب أن تكون طبيعية، لتعلم أن ثمة من يراقبها عن كثب، يتبعها، إما لتقديم العون عند الضرورة، وإما حرصا وتحوطا، حتى لا تفلت، ثلاثة أرباع المليون دولار، من يصدق؟ هكذا أكدت التركية، بل إنها فاجأتها أثناء جلوسهما بإسماعها صوتها وهى تجيب عن استفساراتها، فكأنها لم تسألها عن أحوالها، وأقاربها وخططها بعد العودة إلا بقصد تسجيل نبراتها، حتى تعلمها أن دليل الاتهام بين يديها إن هى راوغت أو حاولت.

أبواب كثيرة وعديدة أمامها يجب اجتيازها، أبواب تفتح تلقائيا ، أخرى تفتح بعد تلقى علامة، وأبواب ينبعث منها صوت إذا كانت تحمل سلاحا، أو جسما معدنيا .

ضباط وجنود يجب أن تمر أمامهم، بعضهم يرتدى ملابس رسمية، آخرون لا تلحظهم إلا العيون المدربة.

أحقا.. يراقبها أحدهم، أحقا يصحبها طوال الرحيل من لا تعرفه ، لو صح هذا، فمن هو؟ فى أى مقعد يجلس؟ عربى هو أو أجنبى؟

هل تعنى التركية ما قالت؟ أم أنه إيحاء حتى لا تجرؤ على التفكير والتصرف بمفردها، أو الاختفاء بهذا الكيلو من البودرة؟، بالمبلغ المهول؟ ليس لديها القدرة على تخيله، ستة أرقام، خمسة أصفار، كم يبلغ عائده السنوى؟، أرقام لا تصدق، لا تقدر على استيعابها، أو تخيل مجرد التصرف فيها..

لكن..

لكنها ليست مشبوهة، إنها مدرسة عائدة بعد غياب سنوات فى الغربة، ليس فى ماضيها ما يريب، والأهم.. يجب الا يكون فى مشيتها، فى خطوها ما يبعث ذرة شك فى العيون الخفية المترصدة.

أما إذا اكتشف الأمر ونبشوا داخل الدمية ..

«إحدى صديقاتى أعطتها لى، طلبت توصيلها إلى شخص سيجيئنى ويتسلمها..»

ستذكر اسم التركية.. اسم هذه الشركة المشهورة فى القاهرة والتى لمحت التركية إليها، بل صرحت باسمها مرة واحدة لا غير، لكنها أدركت.

يتطلع إليها ضابط شاب، يفصلها عنه حاجز زجاجى تتخلله فتحة مستديرة، يختم استمارة الوصول، يقدم إليها الجواز مبتسما:

«حمدا لله على السلامة، غيبة طويلة..»

تومئ مبتسمة..

«والله ما فى أحسن من بلادنا»

تردد عبارة سمعتها منذ ثلاثة أعوام، قالتها امرأة بدينة، قصيرة كانت تحمل طفلة ويتبعها صبى، لفظتها بنفس الإيقاع.

تعبر الحاجز الحديدى إلى صالة وصول الحقائب، تنتبه إلى ضغطها العروسة أكثر مما يجب، خطأ، خطأ، لتكن خطواتها متمهلة، عندما دفعت العربة الصغيرة وأوشكت على التعثر، تقدم أحدهم، ساعدها، نصح بوضع العروسة فوق الامتعة حتى تدفعها بكلتا يديها.

شكرا..

تبدو العروسة كطفلة صغيرة ترفع يدا، وتخفض الأخرى..

ـ هل معك فيديو؟

ـ لا..

ـ أى أجهزة كهربائية؟

ـ تفضل شوف..

بيد مدربة، خبيرة، يجس الحقيبة الكبرى، الحمد لله.. لم يلمس العروسة، يتطلع إلى جواز السفر..

ـ حمدا لله على السلامة..

ـ الله يسلمك.

يرفع الجندى يده محييا، كأنها لم تنتبه.

اجتازات آخر الأبواب، تقف فى الساحة الفسيحة، تفكر بسرعة، لا .. لن تتجه إلى هذا الفندق الذى أشارت التركية عليها بالنزول فيه ، كيف أطاعتها؟ كيف وافقتها عندما اقترحت

عليها ذلك؟، هل المعتاد هنا نزول فتاة بمفردها في مثل هذا الفندق؟ ستتجه إلى البلدة مباشرة، مفاجأة لأمها التي لا تتوقع وصولها، لكل الأقارب، هناك ستخفى العروسة بما تحوى.

زاد عمرها مقدارا ليس بالهين خلال هذه الرحلة الطويلة، لو أنها ضبطت في كراتشي، أو في أثينا هذه، كم من السنوات كانت ستمضيها في سجن غريب، بأرض غريبة، كم.. مجرد تخيلها ذلك يلحق بها الرعب، هذه المخاطر كلها.. ألا تجعلها تعيد النظر؟.

طرح التساؤلات

فاتنى القول يا كرام، أننى حرصت على جمع كل ما قدرت من صحف الفترة، كما دونت ما عن لى، وما لفت نظرى عند المطالعة، خاصة تلك السطور البعيدة عن العناوين الرئيسية والصفحة الأولى وما فيها، رب خبر من سطرين يثير مخيلتى، وتساؤلاتى، ويأتى إلى بتداعيات شتى، أو يدفعنى إلى تقصى أسباب أو جلاء أمر.

ربما سمعت من متحدث، صاحب لى، أو غريب عنى،إشارة عابرة، أو رواية مفصلة، تقض مضجعى، فلا أهدأ إلا إذا عرفت أبعادها ولا أنثنى إلا إذا وقفت على تفاصيلها، والعنصر الذى لا أوفق فى الوصول اليه، أخمنه وأحدثه، وأستند فى ذلك إلى ما كان قبله وما جرى بعده، ربما أوفق، وربما لا، غير أن هذا طبع جبلت عليه.

حدث أن قرأت يوما، ثلاثة سطور لا غير، خمس عشرة كلمة، تخبر أن مصريا لقى حتفه، فى حريق شب والتهم سجن مدينة ميسينا الإيطالية، لم يذكر اسما .. ولم يرد أكثر من ذلك، ومثل هذا باعث للحيرة، يجتاحنى التساؤل تلو الآخر..

من هو؟ أى ظروف أودت به إلى البلدة النائية التى لم أسمع عنها من قبل، متى ترك الديار؟ متى ودع وسلم؟ وماذا تبقى له من صلات ومودة؟، كيف وصل إلى ميسينا هذه؟ وأين كان يعمل؟ ولم سجنوه؟

حدث أن نزلت يوما بلدا قريبا من المحيط، جلت بها، وزرت مدنا مختلفة حتى وصلت إلى مدينة نائية، لم يكن فيها إلا فندق قديم مرتفعة جدرانه، تحيطه شرفات فسيحة تظلها سقوف من خشب متكئة على أعمدة مستديرة، وإلى جانبه يمتد مدرج مطار صغير تستخدمه إحدى شركات النفط تقريبا .. الفندق والمطار مبنى واحد ، برج المراقبة الصغير يقوم عند الركن الايمن للبناء، بارز منه. نزلت إحدى غرفه الفسيحة، السرير من طراز قديم، يمت إلى القرن التاسع عشر، عريض، فسيح، فراش تمددت فوقه - قبلى - أجساد شتى، أرق من أجهلهن، وقلق من لم ألتق بهم، وملذات تلاشت.

ترى من هم؟.. من عبر هذا الفراش المشاع؟، إلى أى جهات ولوا؟ من بقى ومن رحل، ومن يذكره ما زال؟ ومن رحل إلى الأبد؟ للغرفة رائحة القدم والاندثار.

فى الليل نزلت صالة الطعام، قعدت بمفردى ، أتامل المحيطين بى، كلهم لا أعرفهم، كلهم ذكور، لم أر امرأة واحدة، وعندما وضع أمامى طبق الطعام تطلعت إليه مؤتنسا، لايمكن أن أخطئ ملامح أبناء ديارى.. سألت مباشرة..

ـ أنت من أين؟

قال على الفور:

ـ من العباسية..

بعد تكرار سفرى، كنت أردد دائما، أننى لو لمحت مصريا يمشى. فى زحام لعرفته، حتى لو فى بلد عربى، حيث تتشابه السمات..

هو فى العشرينيات، وسيم، غزير الشعر، يثير عندى مشاعر البنوة، فى عينيه حزن غريب، لم يكن يخاطبنى إلا أثناء وقوفه، لا يمكنه الجلوس معى، هذا عمله، وعليه تلبية طلب هذا وذاك، ثم يرجع إلى، يتظاهر أنه يبدل طبقا، أو يأتى بملعقة وشوكة، أو ينظف المفرش.

قال إنه خرج قاصدا أوروبا، لكنه جاء إلى هذا البلد لادخار بعض المال يمكنه من مواجهة أيامه الأولى عندما يتجه غربا.

لم يكن السفر قد بدأ على نطاق واسع خلال تلك الأيام، كانت السبعينيات ماتزال فى بدايتها، والحرب لم يمض على انتهائها إلا شهور قليلة، وفيما بعد جئت هذه المدينة مرة ثانية،

ولقيت فيها عددا كبيرا من المصريين ولكن لهذا حديث آخر، يكفى القول إن هذا الفندق الذى قابلت فيه هذا الشاب بمفرده، وجدت فيه عددا من المصريين، تقريبا يديرون مجمل العمل فيه، كما قابلت عددا من العمال فى الساحة الرئيسية، حيث اعتاد المقاولون، طلاب العمالة المجىء بحثا عمن يحتاجون إليه، فى أعمال البناء، أو النقل، أوما شابه ذلك.

فى زيارتى الثانية كانت المدينة قد اتسعت، قامت فيها مبان عديدة، ومهدت إليها طرق فسيحة، ونزلها غرباء كثيرون، مع أن الفاصل الزمنى لايتجاوز الأعوام الستة.

لن أطيل.

أعود إلى هذا الشاب فأقول إنه مال على..

ـ إننى خائف !

ـ لماذا؟

قال إن معظم الجالسين هنا فى المطعم إنما قدموا من أجله هو.

تعجبت.. انتبهت. بدأت أرصد نظراتهم.

انهم يغازلونه !

قال إن الحظ العاثر أوقعه فى مدينة لوطية ! لم يدرك ذلك إلا بعد انقضاء الأسابيع الأولى، ومما حكاه له طباخ هندى

عجوز يعمل باستراحة شركة النفط المحلية التى تبعد كيلو مترا واحدا، ثم بدء النظرات، والغمزات، وترديد العبارات على مسمع منه، بعد أن يقدم طبق الطعام، وإذ يولى ظهره يسمع قائلا منهم..

قوام جميل والله..

قال إن بعضهم جاء خصيصا ليراه، يقدم إليه بقشيشا سخيا، وعندما يستدير ليمضى هنا أو هناك، يسمع همسهم، وغزلهم الفاضح الصريح، إنه يخشى الخروج من الفندق، بل يخاف عند نومه فى القسم المخصص للعاملين أن يقتحم بعضهم حجرته، سمع عن حكايات جرت لغرباء نزلوا المدينة، وجرى لهم ماجرى، بعضهم ردد على مسمعه تفاصيل.

المدينة أمرها معروف، شائع، حتى لترى نساءها مكتئبات، يطل من عيونهن التى لا يبرز ماعداها من وجوههن، جوع فادح، هذا أمر شائع، معروف، وللأسف لم يكتشف هذا إلا بعد إقامته ، إنه حائر لا يدرى مايفعل؟.

قلت محتدا:

ـ اخرج منها، ارحل، كيف تقول أنك لا تدرى ماذا تفعل؟

قال إن ذلك مستحيل قبل ثلاثة شهور، هكذا يقضى العقد.

ـ أى عقد؟ هل تفسخ العقد أم تخسر نفسك؟

قال إن فسخ العقد، أو الإخلال به، خاصة من جانبه هو يؤدى إلى السجن، والسجن هنا هلاك مبين، من سيحميه هناك؟ هنا ربما استطاع المراوغة، أو الإفلات، لكن بين أربعة جدران وخلف باب مغلق، أين المفر؟

كنت فى حيرة، غير قادر على تقديم عون، أستعيد وقت كتابتى هذا تحديق القوم فى الشاب، وتغامزهم، ونظراتهم، لم أقض إلا ليلتين، بعدهما أقلعت عائدا من حيث أتيت، وعندما حلقت الطائرة، وتداغمت البيوت، وتقاربت المعالم، ودنت الفواصل، كنت أفكر فى الشاب، وأنه موجود عند نقطة مما أرى، لم أعرف ماجرى له، ولم يصلنى منه شىء، مع أننى قدمت إليه عنوانى»

برغم تعاقب المديد وطول المدى، فإن حيرته تعاودنى، وما آل إليه أمره يقلقنى.. هل اغتالت المدينة فتوته؟ هل أفلت، عندما زرتها مرة ثانية لم أجد له أثرا، ولم يذكره مخلوق، ولا أدرى لماذا انبعثت ملامحه من عدم ذاكرتى ومجهولها عندما طالعنى نبأ احتراق هذا الشاب فى سجن ميسينا الإيطالى البعيد؟»

أم أنه صاحب الرسالة التى أتيح لى الاطلاع عليها؟ كان يعيش فى ميلانو، هل انتقل إلى ميسينا؟ هل المدينة قريبة أو بعيدة من عنوانه الذى حدده تفصيلا؟

والله لا أدرى، لا أجزم، مثلى كهؤلاء الذين لا يعرفون ما جرى للمدرسة التى أتمت المدة، عندما طالعوا خبرا صغيرا

يقول إنه قبض على مدرسة عائدة من الخليج بناحية القناطر الخيرية، أثناء محاولتها بيع كيلو من الهيروين الخام.

أى تفاصيل كان ممكنا لى الوقوف عليها، لو أحطت بظروف هذا الشاب المصرى الذى لم تذكر الأنباء حتى اسمه، فالاحتراق هو الأهم، أما صاحب الكينونة ذاتها، فلا محل له، ولا مقام!

عندى اختلف الأمر، إذ أقضنى أمره مع أنى لا أعرف شيئا، وحتى لا أطيل أو أفصل، فإننى مطلعكم على ماجرى لواحد ممن عرفتهم، ومن الذين رحلوا سعيا وراء بسطة من العيش، وقد هالنى ما انتهى إليه أمره، لكننى لن أتعجل الرواية، ولن أقحم ذاتى عند مواضع كان لابد أن أدلى فيها بأمور، إذ ينبغى القول بإكرام، أن هذا الإنسان كان قريبا منى، عرفته منذ زمن بعيد، كنا نقترب أحيانا، وتباعد مابيننا الأحوال والظروف فترات، ولكن إن فى قرب أو فى بعد لم تغب أخباره عنى حتى كان منها ماكان.

وإنى مخبركم بما جرى من كفيله..

وأبدأ عند يوم أعتبره فاصلا بين حدين..

هو قبله، غير ما هو عليه الآن، إنها لحظة مغايرة لكل ما مر به، ما أدبر من زمنه ذوى واندثر، إنه موغل بعده فى الاغتراب، وما سيقبل بعد هذا النهار، تلك الساعة، هذه اللحظة التى أصغى فيها إلى ما أصغى، إنه غموض، محير، مضبب، مبهم.

لو أنه بمفرده لهان الأمر، لكن ثلاثة كيانات متعلقة به، ثلاثة مصائر: امرأته، ابنته، ولده، أولئك هم الأقربون، المحيطون به، أما الأقاصى عنه.. المنتظرون زيارته السنوية إلى القاهرة فما أكثرهم.

أولهم والده الذى ولد ونشأ فى هذه الديار ثم هج منها منذ ستين عاما أو أكثر، تلطم فى البلاد، نزل الشام، قضى زمنا

فى فلسطين، ثم عبر سيناء ممتطيا ظهر هجين، استقر مقامه فى بر مصر، أصبح واحدا من أبنائها، له مالهم وعليه ماعليهم، ولهذا شرح قد يحيد بالخطة.

هناك أيضا خالته التى تعهدته طفلا، رضيعا بعد وفاة أمه إثر ولادته، حمى نفاس لم تمهلها، لا يعى من أمرها شيئا، لم تخلف صورة واحدة تمكنه من التعرف إلى ملامحها، خالته عجوز، وحيدة، قال والده إن شبها قويا يجمعها بالمرحومة، مع أن عشر سنوات تفصل بينهما على الأقل، أما شقيقاته فكل منهن تنتظر هداياه، خاصة أصغرهن، زوجها المبيض يعمل يوما ويتوقف عشرة، يدمن تدخين الحشيش، ويتباهى بقدرته على شرب عشر زجاجات بيرة دفعة واحدة، عندما تتوافر لديه النقود تنفلت يده، إذا جلس بمقهى ينفق على من يعرفه، ومن يجهله، إذا دخل سينما دعا من يجاوره إلى مشروب، كذا من يجلس أمامه وخلفه، يغضب إذا رد أحدهم دعوته، خاصة اذا كان يجاوره فى الصف، ثم يخرج إلى الطريق خاويا، ما من قرش معه وأمره بين الخلق مستقر عادى، لمح له بقدر ماتسمح مداركه، بدءا من ليدفع تذكرة الترام.

هؤلاء أهله، أما أسرة امرأته فينتظرونه فى المطار.. حماته وشقيقات امرأته السبع، أحيانا بعض الجيران، وشاب أو شابان غريبان، يعرف فيما بعد أنهما ينويان الخطبة، وقد يتم الأمر أو لا يتم.

مابينه وبينهم الآن يباب.

لا أحد منهم يدرى ماحل به، ولو نمى إلى علمهم فأى عون يمكن تقديمه، أى مساعدة أى؟

لم يلق نفسه بعيدا، سحيق النأى كما هو الآن، منقطعاً عن زمنه، عن موطنه، عن مألوفاته، عن ديار يمكنه أن يجوس خلالها بدون صد أو رد، أينما ولى وجهه فيها يمكنه طلب العون، أو تلمس المدد.

هناك بعض معه يستند إليهم، ونفر عليه يمكنه القصاص منهم، لكنه هنا منقطع عن أى مساعد، فمن يؤازره من؟

المؤكد، المقطوع به، أنه لم تكن ثمة بوادر، أو نذر . مضى عليه سنوات ست منذ استقرار أمره فى هذه الشركة، ثابر، تفانى، بذل المجهود الأتم، نال رضاء مديرها، حتى أنه كفله بنفسه عند السلطات، وكان القوم يداعبونه قائلين:

«يابخت من كان المدير كفيله وضامنه..»

وثق الرجل به، كان يستدعيه، يملى مضمون مايريد إبلاغه إلى الشركات البعيدة، لم يقتصر الأمر على ما أسند إليه من صياغة خطابات الدعاية، والكتيبات الصغيرة، بل ومتابعة تنفيذها وإرسالها.

بعد عام واحد أرسل إلى امرأته، إلى ابنته وولده، عندما جاءوا أول مرة كانت الكبرى فى السادسة، والصغير فى الثالثة، الآن، اجتاز الولد التاسعة، وقتها سمع من البعض،

لماذا لاتبقيهم في مصر؟ مجيئهم مكلف، لو بقيت بمفردك يمكنك أن تدخر أكثر، غير أنه أبى، قال إنه عاهد نفسه، إذا ما اعتدلت الاحوال لايبقى هو في ناحية وهم في ناحية، أسكنهم بيتا فسيحا زوده، وأثثه بما يحتاجون إليه، كأنهم باقون في تلك الديار أبدا.

صباح كل يوم يصحب البنت إلى المدرسة والولد، مدرسة ابنه مجاورة للبيت إلا أنه يخشى عليه، يحتاط لأمره حوطة عظيمة، الولد مليح، أبيض البشرة ناعم الشعر، أخذ من أمه رقة التقاسيم، واتساع العينين، أشد ما يشغله الحفاظ على ولده هذا، اللواط هنا شائع، شرح له أن الخلق من ذكر وأنثى، وأن الانثى تكمل الذكر، والذكر متمم لها وإن اختلفا، حتى التأكيد عليه الا يركع عند اللعب، وألا يسمح لصحبه أو زملائه بالركوب فوق ظهره، أو القفز أثناء اللعب، والا يخلع ملابسه أمام مخلوق البتة، بل كان يعلن غضبه عندما يلمح باب دورة المياه غيره محكم الإغلاق بعد دخوله، طلب من أمه أن يعتاد الاستحمام بمفرده، وشدد عليه ألا يقبل هدايا أيا كانت من شخص يكبره سنا، أو يصدق أي إنسان غريب إذا ما اقترب منه يوما وطلب صحبته ليوصله إلى أبيه.

قالت امرأته إنه ينبه الولد إلى مالا يجب التنبيه إليه.

قال: اسكتي، أنت لاتعرفين هذه البلاد وأهلها.

قالت: لا.. أعرفها مثلك وخوفك على البنت يجب ألا يقل عن

الولد.

قال: عليك بالبنت وعلى أنا الولد.

عند خروجه من مقر الشركة ظهر هذا اليوم، رأى القوم يسعون، لايدرون مالحقه، مانزل به، عند ناصية الطريق هفا قلبه، لم يتبق على خروج الولد إلا ساعة، عليه أن يقضيها فى السيارة، طوال الشهور المنقضية كان يضبط موعد انصرافه من الشركة بحيث لا يفصله عن المدرسة إلا قطعه مسافة الطريق، عليه أن يقطع الشوارع مرات، إنه مازال مبهوتا، مكتظا بمال قيه، عليه خمدة فى السيارة ، يتحرك بحذر، يتمهل عند النواصى، الحرص الشديد عند الإشارات الضوئية، إفساح الطريق للعربات الفارهة الفاخرة بغض النظر عمن فيها، إذا نهره سائق من أهل البلاد لايرد ولا يجادل، مصيبا كان أو مخطئا، يجب عليه تفادى المجادلة، مازال يذكر هذا النحيل، مفرط الطول، نزل من السيارة غاضبا، راح يضرب العربة الأخرى بقبضته، مرددا: أرنى أوراقك.. أرنى أوراقك! سائقها يبدو غريبا، تداخل فى بعضه مرددا، مبهوتا، وانتابته رجفة، عندما نزل مصر أول مرة بعد بدء اغترابه.. ود لو قال لسائق عربة الأجرة إنه يحسده على تلويحات يده، وذلك الحوار المبتور، الذى يتبادله مع السائقين الآخرين، وحتى مايتفوه به من شتائم. ومايظهره من لا مبالاة، هل يقدر هنا على إيماءة غاضبة حتى؟ لايمكنه ذلك أبدا. إنه يقترب بحرص

من الرصيف، ماينوء بحمله اليوم يجب ألا يلهيه عن الطريق ومخاطره، غير أنه عندما لمح ولده واقفا وراء الباب حاملا حقيبته، كان ينوح، وهوى داخله ثقل بغيض خلف عنده فراغا أجوف يشع وهنا وبرودة، نزل ليصحبه، ضغط يده الصغيرة، وعندما جاوره ضمه اليه ومال ملامسا رأس صغيرة حتى دهش الولد، وتساءل: فيه حاجة يا بابا؟ هز رأسه، حاش ماعنده قسرا، فى وهج الظهيرة عظمت وحدته، وثقلت غربته، واشتدت وجيعته، وعندما خطا داخل البيت، تساءلت امرأته: « فيه حاجة ؟ ».

مرتجف صوتها، يحاول تخمين ماجعله يبدو غامقا، قاتما، كأن مايجرى فى عروقه قار وليس دما، قعد عند حافة السرير منحنيا، كررت.. «فيه حاجة.. خير..»

عندها فضول، وتساؤل، أن يخيب ظنها، أن تحيد أفكارها، قال بصوت محايد، غريب، تصغى إليه أول مرة:

« اقفلى الباب».

وعندما عادت يلفها شؤم، وينهكها ضنى، بدا كلاهما منفردين، والعالم كله ناء، تطلع إليها، كأنها تراه أول مرة، وعلى غير ماتعهده، على غير ماتعرفه، فوجئت به ينشج، يبكى، يجاهد كى يكظم جعيرا يحوى هزيمة رجولية مروعة..

ـ « فيه حاجة فى مصر؟ ».

يهز رأسه نافيا.

- إذن.. ماذا جرى؟.

أشار بأصبعه إلى بعيد، إلى حيث لاجهة بادية، وعندما أوشك استفسارها أن ينقلب نواحا، قال متحشرجا:

«يجب أن نخرج من البلد خلال ثمان وأربعين ساعة !».

لماذا؟ ماذا جرى؟ غير أن كل الأصوات تنأى، تطوف بكيان رجلها المتداعى، لم تعهده هكذا قط، هو الصامت دائما فى مواجهة أعتى الظروف وقد عرف منها الكثير، حتى وصفته يوما، بينها وبين نفسها بالبرود،

ماذا وقع؟

حدة بكائه لم تقدر على اللفظ، أو بذل المحاولة لتهدئته، يجب مفارقة البلد، لكن.. لماذا؟ أى جرم، أى خطأ، إنهم فى حالهم.. بعيدون تماما عن الكدورات، معتصم كل منهم بالآخر، فماذا حدث ؟ تمد يديها، تلامس كتفيه كأنها على وشك احتضانه، كأنها تحتمى به من انهيار، فى وقت يتداعى هو فيه، برغم الباب المغلق، فان مايجرى نفذ إلى البنت ، إلى الولد، يجىء صوتها حذرا، قلقا، على مشارف البكاء :

- «بابا جرى له حاجة ياماما؟».

تجيب بصوت مرتفع..

ـ «روحى وسأجىء .. روحى الآن».

يصلهما صوت الولد:

«أنا خائف يا ماما..»

ترجوه أن يهدأ، أن يكف من أجل الأولاد، في هذه اللحظة يتوقف، تحاول مسح دموعه، غير أنه حاش يدها، يستمر محملقا إلى البعيد، إلى نقطة غير مرئية، تتجاوزها بكثير، تبدو رقبته المائلة رخوة، الآن يتجسد المعنى الذى لم تكن قادرة على تحديده، إن زوجها، والد طفليها، رجلها ، انكسر، إن قاصمة حلت به!.

لحظتان لم يفارقاها فيما تلا ذلك من مدة، عندما حط وبدأ جعيره المكتوم، ولحظة أن كف وبدء نظره إلى بعيد، إلى اللاشىء ، تهمس محاذرة، ترجوه أن ينبئها، أن يفضى إليها، أن يفكر فى الولدين المروعين ، ماذا جرى؟، فى اللحظات التالية طرقت الابنة الكبرى مرتين، غير أنها ردتها، المرة الأولى برقة، والمرة الثانية بخشونة، زعقت مستنكرة.. «يعنى لا أعرف أقعد مع أبوكم؟!»

فى صوت محايد، غريب، لا أثر فيه لانفعال، كأنه بمفرده، عليهم المغادرة خلال ثمان وأربعين ساعة، بعدها يصبح موقفهم حرجا، يقبض عليهم رجال الشرطة، يتولون ترحيلهم عنوة، لماذا؟ لأن صاحب الشركة سحب كفالته له، بين لحظة وأخرى سيجىء من ينذرهم بضرورة المغادرة، تم الأمر بغتة، بلا

مـقـدمـات، بلا نذر حتى يبلغ الأذى مـداه ، ويكون الوقـع أثقل وأفظع..

لكن.. لماذا؟ ماجرى، ماذا بدل الأحوال وغيرها؟

يقول لامرأته المصغية، إن للشركة مديرين، أو شريكين في إدارتها، الأول عجوز من أهالي المدينة القدامى، من معارف الوالد قبل نزوحه إلى مصر، وهذا رجل طيب، أتاح له الفرصة وثبت أقدامه، وثق به، وأوصى معارفه، عندما لاقاه أول مرة قال له: أنت ابن الحاج حمودي؟، أجابة مومئا: نعم. قال: الخالق الناطق أبيك، سبحان الله، كأنه أمامي، انقطع عهدي به وهو في سنك.. أهلا، أهلا بابن الحبيب الغائب، سأل عن أحواله، دقق في معرفة أموره، كيف يعيش، كم أنجب غيره؟، لماذا لا يبدأ السعي محاولا العودة؟.

حكى له ما كان من أمر والده، ماورواه له، عن هجاجه في البلدان، إلى الشام، إلى فلسطين، نزوله مصر وتقلبه في أعمال شتى، زواجه المرة الأولى إنه ثمرة هذه الزيجة، وثلاث شقيقات أخريات. وعن زواجه الثاني بعد رحيل أمه، امرأته الأولى، حدثه عن استقراره هناك، وحنينه إلى أيام صباه، ولكنه لم يخبره بكراهيته لمن تولوا تدبير الأمور هنا، وتفضيله البعاد، حتى بعد ظهور الخير في البلاد التي كانت مسقط رأسه، بعد أن أصبح مقصدا لكل راغب في الثراء.

لم يفكر في العودة، أو بدء المسعى، لم يقل للرجل أن أباه

لا يطيق سيرة من تولوا الزمام، وأنه لم يسترح قط لسفر ابنه، لم يهدأ، ولم يبد الرضا إلا بعد سماعه التأكيد تلو الآخر، بأن الغيبة لن تطول، وأن الرحيل لغرض، وإنما هى سنوات معدودات يتيسر فيها الأمر مع الراتب الكبير ثم يعود.

مما أدهشه بغض أبيه لقومه، وتحذيره إياه منهم، والتنبيه عليه ألا يفكر فى الاستقرار هناك أبدا، ألا يسعى إلى استرداد جنسية والده، إذ ينصرف عن أبيه يفكر، لابد أنه لاقى مالا يمكن وصفه. ألحقه الشيخ بشركته وكفله بنفسه، كان زملاؤه يحسدونه على تعدد مرات لقائه بالشيخ، صاحب المال، من تحمل اللافتات اسمه، كانوا يتطلعون إليه بعد انقضاء الأوقات الطويلة التى يمضيها بصحبته، اعتاد تلقى بعض المطالب منهم، يحملها إلى الشيخ ليقضى فيها وينهى، والحقيقة أنه لم يقصر، لم يبخل قط فى قضاء الحوائج، كان عالما وعنده دراية باللحظات التى يقدم فيها إليه، كان زملاؤه، بعضهم من مصر، وآخرون من أقطار شتى يداعبونه مبتسمين، يابخت من كان الشيخ كفيله!، يصغى مبتسما، لايبدون ما يشى أنه يحاول الحصول على وضع أفضل لانفراده بتلك الحظوة.

كان هادئا يمضى ليؤدى ما يوكل إليه فى صمت، وفى البيت يسهر مدبجا كتيبات الدعاية، كان الشيخ يقول له: أنت فصيح، تعرف لماذا؟ لأن فى عروقك دماء بدوية، أبوك بدوى أصيل، على الله ألا تكون المدينة الكبيرة قد أفسدته، عندئذ

يسارع بالرد: ياطويل العمر.. إن والدى لم يغير لهجته حتى الآن، يقول الشيخ: مصر كبيرة.. مصر أم الدنيا. ثم يقول إنه نظم الشعر فى مطلع شبابه، كان ممكنا لو تفرغ أن يصير شاعرا مرموقا، لكنه امتهن التجارة بدلا من الأدب، ثم يقول إنه بدوى ابن بدوى، لا يرتاح إلا فى البادية، أسعد لحظاته عندما يمضى إليها، ينام فى الخيمة ويشرب حليب النوق فائرا، ثم يشير إلى المكتب الفسيح، والأثاث الفاخر، والستائر المسدلة، وأجهزة التكييف، يقول ملوحا بأصبعه: والله مجبور ياأخى على هذا، والله مجبور!.

الشيخ ذو هيبة وافرة، وحضور صارم، له حرمة وتنفذ عند الحكام، إنه الخل الوفى لأمير مسن تجاوز المائة، ممن شهدوا المعارك الأولى التى سبقت قيام الدولة، كثيرا مايصحبه إلى البادية، ينقطعان أياما، يتحدث الشيخ كثيراً عما جرى فى الزمن القديم. عما لاقاه من فقر وضنك، يردد أنه عندما جاء من الصحراء كان يرتدى ثوبا مرقعا، بلا حذاء أو مداس، نحيف لقلة الأكل وشح الزاد، وعندما صحب هذا الأمير المسن، قال له: أريدك معى.. لكن لا تكذب، ولا تسرق . أجابه: أما عن الكذب فلن أكذب أبدا عليك أو معك، أما السرقة فان لم تكفنى - وكفايتى فى القليل الميسور - فلا تحاسبنى إن سرقت، صار موثوقا به، وعندما بدأ ظهور النفط والثروة يسر له الأمير سبل قيام هذه الشركة، فجاء بشقيقه، وأقاربه، وأصهاره، شقيقه هو المدير الفعلى والمدير لشئون الإدارة، إنه شريك أيضا، منه

بدأت الواقعة، وعنده لب ماجرى!، أما الأقارب فيتولون الفروع المنتشرة هنا وهناك، شركة ضخمة، يشمل نشاطها أمورا شتى، التجارة فى العربات، وأجهزة الراديو، ومستحضرات التجميل، والمجوهرات، ولعب الأطفال، وقطع غيار ماكينات الرى، والأقمشة بأنواعها، وعسل النحل، والجبن، والأسماك المحفوظة، واستصلاح الأراضى وتعبئة التمور، وعلاج آفات النخل، كما تدير عدة فنادق متوسطة، يشير الشيخ دائما إلى معرض يتباهى به، متخصص فى الخضراوات الطازجة والفاكهة، يمكن لمن يرغب أن يجد فيه حبة أناناس قطفت بالأمس من شجرة أسيوية، وثمرة موز طازجة مستوردة بالطائرة من كولومبيا، وطماطم طازجة لم توضع فى ثلاجة جىء بها من إستراليا، وتفاح فرنسى، وكمثرى سويسرية، يبسط يديه قائلا، كذا خير، والله خير.

كان الشيخ إذا بدأ الحديث لا يتوقف، إنما يمضى من درب إلى آخر، من حاضر إلى ماض، ومن ماض إلى ماض أبعد، كان يجيد الإصغاء إليه. عند جلوسه إلى الشيخ تتوجه كل ملامحه إليه، تتركز نظراته، يبدى الانفعال، التعجب، الحسرة.

يمضى الوقت وتعدد الجلسات، كان يصغى إلى تفاصيل مكرورة، معادة، إلا أنه يحرص على إبداء دهشة بكر، خالصة، أن تبدو ملامحه وردود أفعاله وكأنه يتعرف على كل تفصيلة

لأول مرة، وعندما يتعلق الأمر بفعل أتاه الشيخ، أو موقف له فيه خبرة على من لايمكن الوقوف بوجهه، أو براعة حققها أثناء صفقة، أو نبوءة أبداها، وتحققت، كان يبدى الدهشة ويستفسر مستوثقا، عندئذ يعيد الشيخ ما بدأ روايته، يتمهل، يلوح بيده، يكثر من القسم بالمقدسات، عندئذ يمد يده ملامسا أطراف عباءته، يرجوه ألا يحلف، إنه مصدقه.

إذ يكف عن الحديث، تكتسى ملامحه قسوة مفاجئة، وتحل فى عينيه نظرات غير محددة الهدف، يدرك أن انصرافه وجب، وأن صمت الرجل سيطول، وأنه نسى وجوده على مقربة.

على مهل يخرج، يتراجع، لايولى ظهره للرجل إلا عند الباب، بمجرد خطوه إلى الخارج، يومئ لمدير المكتب، السكرتيرة الإنجليزية، لكل من يلقاه أمامه، بينما يخف عنه عبء ثقيل، غير أنه لايفرغ من دور إلا ليتقمص دورا، إنه يبدى التودد فى التواضع الجم للمسئولين من أقارب الشيخ، يومئ لهذا ، ويحيى ذاك بدون مناسبة، يعى ضرورة محو أى مشاعر معادية كامنة، أو حسد، أو تنافس خفى بسبب انفراده هذا الوقت كله بالشيخ، ومما أعد له العدة، وخشى جانبه.. الرجل الثانى، الشقيق الأصغر من بيده الحل والعقد.

إنه الشقيق الذكر الوحيد للشيخ، يصغره باثنين وعشرين عاما، وما بينهما سبع إناث، لكل منهن مخصصات ثابتة، تصلها فى وقت معلوم، وهدايا، وسفرة فى شهور الصيف إلى بلد بعيد.

الشيخ دائم الاطلاع على أحوالهن، فى نهاية كل أسبوع، ظهر الجمعة يلتقين فى قصره يصحبهن بأزواجهن وصغارهن، كثيرا مايتغيب الشقيق الأصغر عن هذا اللقاء، إنه فى حركة دائمة، واجتماعات، حتى فى أيام عطلته، عابس دائما هو، لا يبتسم إلا نادرا، هو من يلتقى بالعملاء والخبراء، خاصة الأجانب، لايمكن صرف أى مبلغ قليلا كان أو كثيرا إلا بصك أو إن ممهور بتوقيعه، إنه كثير الأسفار، خاصة إلى فرنسا، وهولندة، وإيطاليا، ومصر، وتايلاند، أما فسحته فيمضيها فى النمسا، له فى كل عاصمة مسكن، وأشخاص على أهبة لتلبية ما يرغب، والسعى من أجله، وفى المطار الخاص بطائرات علية القوم تقف طائرة معدة لتنقله حيثما شاء.

كان بينه وبين العاملين كلهم فاصلة، لا يقرب أحد، ولا يدنو منه شخص إلا بعد إذن، يكثر من إبداء الملاحظات القاسية، دائم المفاجأة لاقسام الشركة وإداراتها، لهذا خشيه دائما، وحرص على إبداء الاحترام الزائد فى حضوره، وخلال السنوات الخمس الماضية أسمعه الكلام القاسى، وكثيرا ما رد إليه بعض ما صاغه من مواد دعاية طالبا إعادة كتابتها من جديد، مرة بحجة غلظة الأسلوب، ومرة لضرورة الاختصار، أو مراعاة الجهة الموجه إليها الخطاب، وفى كل الأحوال لم يجادله قط، كان يمتثل، ويجتهد فى تلمس المطلوب منه، بالضبط حتى ينفذه تماما، بل كثيرا ما يجاهر بانتقاد نفسه ويؤكد أن ملاحظات سعادته نبهته إلى ماكان غائبا عنه، وأطلعته على ما

جهل، وأن لمساته أضافت إلى النصوص عمقا وجمالا، لم يكتف بالتصريح على مسمع منه، وإنما أيضا عند حضوره مجلسا يضم بعضا ممن ينقلون إليه ويحصون الكلمات والأنفاس.

خمس سنوات أتقن فيها مداراة مشاعره، وإقصاء ما يتردد داخله عن ملامحه، أو معالم وجهه، وإذ ينتهى يومه، يخرج إلى الطريق، يولج مفتاح عربته، يصغى إلى المحرك، يدركه انحناء كأنه يتقيأ، تعب غامض، كريه يعتريه،وإذ يلمح ولده قادما نحوه يود لو طرح كل ما مر به، ألا يستعيده حتى، يتطلع إلى ابنه، قبل أن يصعد إلى المقعد الخلفى يقبل رأسه، غير مسموح له بالجلوس إلى جواره، يشم شعره. قالت أمه منذ شهور أن رائحة ابنه هى رائحته، وأنها عندما تستند برأسها إلى وسادته الصغيرة فكأنها تستنشق رائحته هو التى تعرفها جيدا، تردد دهشة، ما أعجب الخلقة! لا يشعر بالراحة، إلا عند لمة الغداء، عندما يغلق باب البيت، ويصفو تماما إلى أسرته، إلى عالمه هذا الآمن، دائما إذ يعيد هناك، يعى أن مدته هنا محدودة، ومهما توالت السنون، فحتما وقته المنقضى فى الشركة يدركة إنهاك، نزف ما لا يمكن استعادته مغادرها يوما.

غند نزوله أول مرة ظن أنه لو أثبت أن والده من أهالى تلك الديار فسوف يكتسب حقوقا تنأى به كغريب، تكون له الحرية المتاحة لناس البلد، يمكنه افتتاح مشروع صغير، أو يمارس

تجارة، لكم حز في نفسه أول زمنه هنا أن كفيله كان رجلا أصله من سنغافورة ، لم يحصل على الجنسية إلا منذ سنوات قريبة، غير أن فتح الحديث عن ماضي والده وأصله قد يثير متاعب جمة، أبسط ما سيواجه به، لماذا غاب أبوه هذه المدة؟ لماذا لم يعد؟ وقد يثير هذا أمورا بليت، وطال عمرها، كان مقتنعا أن المدة منقضية حتما، وأنه عند حد معين يتم فيه ادخار ما يؤمن أيامْ البنت والولد سيعود إلى مصر، إلى أيامه التي تبدو له أحيانا واعدة إن تخيلها قادمة، ومعزية إن استعادها، ألم يفض في غياهب الليل إلى امرأته بضيقه أن يكون له كفيل، حنقه ألا يمكنه مغادرة المدينة إلا بأذنه، حرصه ألا يرتكب أقل خطأ، أن يتحمل أي افتراء يتعرض له من الصغير أو الكبير هنا، يقول لها إنه يعذر الحلبي، تحيطه عندئذ تهدهده كأنه وليدها، تقول له: فات الكثير، لم يتبق إلا القليل، عندئذ يرحل إلى هذه اللحظات المرتقبة، عندما يدخل على الشيخ الكبير، سيرتدي حلة جديدة، سيبدو في هيئة مختلفة، سيجلس أمامه، يصغي إليه، سيلحظ الشيخ بفطرته، بفراسته أن ثمة شيئا يخفيه عنه، يسأله، مالك اليوم؟، لن يخبره مباشرة، إنما سيبدأ يشكره، إذ اتاح له الرجل الكريم فرصة العمل، وأسبغ عليه من فيضه، وقربه منه حتى ليشعر تجاهه وكأنه ابن يواجه أباه، لكن... هنا سيتغير صوته، يتبدل ايقاعه... الزمن له ضرورات وأحكام، ابنته الكبرى حصلت على الإعدادية، لابد أن تلتحق بإحدى مدارس مصر الثانوية،

تمهيدا للجامعة، طال عمره، كما أن والده بلغ من العمر عتيا، ولابد أن يكون بجواره، رتب أموره فى مصر، إذ أدخر مبلغا مناسبا، سيفتتح مشروعا صغيرا، مكتبا لنسخ الرسائل والخطابات، وتصوير المستندات بالطبع، هذا المبلغ المدخر نتيجة لفيضه، لكرمه...

سيتوقف عند هذا الحد، لأول مرة سينظر إلى الشيخ من خلال حدقتين مفتوحتين، غير هيابتين، ربما صمت الرجل، ربما حاول إقناعه بالبقاء، ربما طلب منه السعى لإقناع والده بالعودة، عندئذ يحصل على الجنسية، يمكنه العيش مع أولاده، ستكون لهم كافة الحقوق، السفر دون مساطة، الانتقال من مدينة إلى مدينة، يمكنه أن يبدأ أى نشاط تجارى لحسابه، والخروج بما يريده من نقود، ولن يمشى فى الطريق حريصا على ألا يثير مشكلة أو يتحرش به أحد، أو ينأى عن الشرطة.

سيقول للشيخ إنه بذل المحاولة مع أبيه، لكنه أبى العودة، طبعا لن يفصح عن الأسباب الكامنة عند والده، سيقتنع الشيخ، سيقربه منه يصافحه، وربما قبل جبينه، يستدعى مدير مكتبه، يطلب تسليم جواز السفر إليه، ربما يأمر له بمكافأة شخصية، وتسهيل إجراءات سفره.....

كثيرا ما تخيل هذا الموقف النهائى، رتب لحظاته فى مخيلته، وثبت بعض تفاصيله، فى لحظات ما قبل النوم، أو عند جلوسه، وحيدا إلى مكتبه اثر ملاحظة قاسية وجهها إليه

الشقيق الأصغر، أو تصرف بدأ منه فيه إقلال من شأنه، وحط منه، أو إهانة مباشرة أو غير علنية له، يعدل في الحوار أو يغير من طريقة دخوله على الشيخ، أو نبرة صوته إذ يصرح بعزمه، ومرارا تخيل الطائرة إذ تولى مقدمتها تجاه ممر الإقلاع، لحظة مفارقة العجلات تلك اليابسة بالذات، تتوالى المرئيات تباعا، توغل الطائرة، ينظر من النافذة المستديرة إلى الأرض التى تنأى، أقصى ما رغبه أن يحدد بنفسه ساعة المغادرة، أوانها، لا أن يرغم عليها كما جرى!.

طوال العام الأخير كان يردد، أن ما فات أطول مما تبقى، ما سيأتى قريب، وما مضى بعيد، يكفى أن ما انقضى ذهب على خير، بعد شهور سيتسلم شقته التى دفع مقدمها منذ عامين، سيكون لهم بيت، بدلا من نزوله عند أم زوجته، اضطراره إلى مسايرة زوجها الذى لا يطاق، غتت، فضولى، لا يكف عن التلصص والنظر خفية، قالت امرأته إنها كانت تسد ثقب الباب خشية منه، وعندما تخرج من الحمام مبلولة تجده واقفا بمفرده فى الممر، وعيناه تفحان رغبة، كانت تخشاه! دائما صوته مرتفع، يمكن للماشى فى الطريق أن يسمعه، يتحدث عن مهاراته وتصرفاته المعيبة دائما، يخوض أحيانا فى السياسة يتوقف بين جملة وأخرى يستفسر عن ثمن قميص، أو نظارة، إذ يراه متأهبا للخروج، يهز رأسه، مبروك يا عم! يؤكد له أن القميص قديم، عندئذ يضحك غامزا بعينيه، فيه حاجة قديمة هناك؟.

عندما يأوى إلى الغرفة التى تفردها لهم حماته، لا يكف عن الذهاب والمجيء فى الممر، والحديث بصوت أجش، فى الصباح يقترح الذهاب ليلا إلى أحد الفنادق للعشاء، ثم يشير إلى صدره، أنا الداعى!.

لم يتبق زمن طويل على تسلمه الشقة، سيكون بيتهم، بابه مغلق عليهم، أما الأولاد فسينتقلون إلى المدارس المصرية، فى نهاية العام القادم تنهى ابنته المرحلة الإعدادية، فى السنة ذاتها سيتم ابنه الدراسة الابتدائية، هذا مما ييسر الأمر، انتقالهما معا إلى المدارس المصرية، هذا ما خطط له، ما عمل على تحقيقه، مراعيا امرأته، البنت والولد... لكن ما يدبره المرء شىء، وما يخفيه القدر شىء، وما يعمل له الإنسان قد تأتى بعكسه الأيام...

اليوم، فوجئ بالشقيق الأصغر يستدعيه، كثيرا ما استدعاه لمقابلته، وفى كل مرة يتوجس، يتأهل لسماع ملاحظة قاسية، الرجل لا يقربه، يضيق بتلك الدرجة من الخصوصية بينه وبين معالى الشيخ، دائما يبدى الجفوة، فى المصعد فكر، إنها المرة الأولى التى يستدعيه صباحا، اللهم اجعله خيرا !.

عندما دخل المكتب رآه واقفا، على مقربة منه مدير مكتبه الأمريكى، أو مستشاره، صفاته عديدة هنا، أيقن أن شرا يلوح، وأن أمرا كريها يوشك على الوقوع، بادره مستنكرا:

«إيش ما فعلته ؟»

لهجة باترة، متوعدة، لفظ ضامر، لم يتح له فرصة التلقى، للنطق..«ترسل مطبوعاتنا إلى دول كافرة ؟»

اضطراب جلل بدأ...

«أنا؟»

لم ير إلا الأصبع النحيلة متوعدا، منذرا.

«لا تكذب»

تابع...

«أمران حذرك منهما معالى الشيخ عند مجيئك، الكذب والسرقة»..

قال إن ما فعله يعرض الشركة للخطر، والأدهى إذا تكشف وجود جهة أجنبية، أو منظمة تخريبية، على أى حال التحقيق سيتم، كل شئ سيتضح.

يضغط زرا مستديرا، يدخل أثنان من رجال أمن الشركة، يتطلعان ناحيته مباشرة، كل شئ معد، مرتب، يفتح فمه ليتكلم، لكن الشقيق الأصغر يمد يده..

«ما عندك قله للشركة...»

يتطلع الأمريكى صامتا، ملامحه صارمة، دون شيئا ما فى الدفتر الذى يحمله، أحاطه الحارسان، يعرفهما، أحدهما تونسى، الآخر تايلاندى، بادلهما التحية مرارا، لكن أصابعهما

قاسية حول ذراعيه، كأنهما لم يطالعا وجهه من قبل.

عند اقترابه من الباب صاح:

«والله العظيم لم أرسل».

يلكزه أحد الحارسين..

«هيا... هيا».

حجرة ضيقة، بدون منافذ، مليئة بصناديق من الورق المقوى، لم يستطع معرفة محتوياتها، تطبق عليه، لا تتيح إلا فراغا يسيرا يتحرك فيه، غير أن هوة مظلمة داخله تتسع شيئا فشيئا، بوغت، وما من فرصة للحوار، للإيضاح، للتوسل حتى.

فى تلك الغرفة بدأ أصعب زمنه، وأمر وقته، ماذا جرى؟ لم يشغله هذا بقدر ما أوجعه، وهمه أمر قد يبدو غريبا، يتعلق باللحظات القريبة باليوم نفسه.. من سيذهب إلى الولد ليرجع به إلى البيت؟ منذ سنوات لم يختل النظام، لم يتخلف عنه يوما، لم يطل عبر أسوار المدرسة إلا رآه فى انتظاره، من سيصحبه اليوم، من؟ سيقف الولد، سينظر عبر السور، لن يرى أباه، لن يلمحه قادما، سينصرف الأولاد، كل إلى العربة التى جىء بها إليه، إلى عربات المدرسة، لكنه غير مشترك فيها، لا يعرف الطريق إلى البيت مع أنه قريب، سينصرف الأولاد كلهم، سيصبح فناء المدرسة خاويا، لن يتبقى إلا هو!.

إلى من سيلجأ ؟ إلى البواب الهندى؟ مسكين، سيهدئه

البواب، سيريت عليه، ربما راق له، عندئذ.. إن قشعريرة تجتاحه، تزداد الهوة اتساعا، يستعيد سطورا قرأها عن اعتداء عمال أجانب على صبية صغار، القبض عليهم، اعترافاتهم، إذا كان الطفل من أهل البلاد تقطع عنق المغتصب، وإذا كان من أبناء الوافدين، أو الأجانب مثله، فربما لا تقبل الشرطة مجرد الإبلاغ عن الواقعة، يجز على أسنانه، يتخيل الإمساك بالولد عنوة، التغييرات الفزعة، ما سيتركه ذلك من آثار لا تمحى إذا بقي حيا يسعى إذا تركه البواب ولم يخفه إلى الأبد، إن حالة من الرثاء تنتابه، كأن النبأ بلغه فعلا، كأن ما يتخيله تحقق.

وهنا وقع أمر غريب، لم يسمع به، ولم يسبق له، إذ غزر عرقه مع تعاظم خوفه، وتتابع دقات قلبه، ازداد تداخله في بعضه، كأن قوة غامضة تدك مابداخله دكا، مويجات غريبة تسري عبر ظهره على حوافها قشعريرة، وفي البؤرة منها ألم ولذة مرغم عليها، لم يسع إليها، لا إلى استثارتها أو بعثها، قذف كما يقذف عند الجماع، بقي مذهولا منهكا، مرتبكا مدركا أن خللا عنده وقع، وأن شيئا مستعصيا على التلف خسر !

إنه وحيد، منقطع، لسبب ما فكر في صديقي دراسته، من بقي على صحبتهما في مصر، كأنه يستغيث بهما، إذ يستدعيهما بالمخيلة، كأنه يناديهما، الأول ضابط خاض الحروب حتى وصل إلى رتبة العقيد، وآخر ما عرفه عنه أنه تقاعد، سيرته حسنة، أستاذ في فنه، أما الثاني فطبيب لا يرد

اسمه إلا بالخير، والثناء الجميل من أهالى الجمالية، والباطنية وكفر الطماعين والزغارى، ذلك أنه نشأ فى أسرة فقيرة، أتم دراسته بكلية الطب بعد جهد جهيد، باعت أمه ماورثته من مصاغ قليل، ونحاس البيت، وأثاثه، وعملت فى البيوت غاسلة للثياب، وقضت الحوائج، وضنت باللقمة على نفسها، كانت تغسل جلبابها وتنتظره حتى يجف لترتديه، ذاقت المر إلا أنها لم تقصر فى حاجة ابنها حتى أنهى تعليمه وتخرج طبيبا، كان من أوائل زملائه، وعندما التحق بعمله فى مستشفى القصر العينى طلب من أمه أن تبقى فى البيت، ألا تخرج إلى الأسواق، آن الأوان لتستريح، وعندما تسلم أول راتب مضى إلى سوق القماش فاشترى لأمه ما يسترها، هذا نذر قطعه على نفسه خلال ليالى الضنك والكد.

بعد سنة من تخرجه افتتح عيادة فى إحدى الحوارى القديمة، حدد الكشف أجرا زهيدا وكثيرا ماورده عند اتضاح أحوال المريض العسرة، بل يقدم الدواء مجانا مما يصله من عينات مجانية ترسلها إليه شركات الأدوية.

تيسر أمره، وراجت أحواله، واشترى أثاثا جديدا، وغسالة كهربائية وفرنا يعمل بالغاز بدلا من الموقد العتيق، لم يفارق الحى،إنما انتقل مع أمه للسكنى فى بيت فسيح مجاور، عن الحى القديم، واعتذر عن السفر، وكثر الثناء عليه، وطابت سيرته، لم ينقطع عن كتابة الخطابات إليه، وأرسال البطاقات

فى الأعياد، انهما أقرب صحبه فى هذا العالم، لكن ما أقصاهما، ما أبعدهما عنه، لا يقدر حتى على إسماعهما شكواه، على أن يخبرهما بما جرى وكان ! حتى إذا لقى الطبيب صاحبه، إذا تجسد أمامه واقفا، كيف سيفضى إليه بما حيره، كيف سيقول له إنه ساب على نفسه؟ تساءل بصوت مرتفع..

ماذا جرى لى؟

وبرغم غرابة مامر به، ما سمعه، ما عبره، فلم يشغله ذلك عن ولده، عن أسرته التى سيختل نظامها، كيف سيدبرون الأمر وما من مساعد أو معين؟ حتى الحساب فى المصرف باسمه، تابعين له فى جواز السفر، لا يمكنهم الرحيل إلا بصحبته، إلى من ستلجأ امرأته، ربما إلى هذه المرأة، زوجها مسئول فى مقر الإدارة، متزوج من ثلاث، إحداهن مصرية، ثرى، عنده مصنع لتعبئة الألبان، وآخر لأكياس البلاستيك، وثيق الصلة بالأمراء، بالنبلاء، بأصحاب المعالى من شيوخ الناحية، لم يره، لم يلتق به، لكنه سمع عنه من امرأته بعد زيارتها لزوجته المصرية، أخبرته بما عندها من مصاغ، من مجوهرات، من أزياء بلا حصر، تصور.. تشترى فساتين ولا تلبسها تصور!

إنها ذات صلة بامرأتيه الأخريين، هل يمكن لهذا الرجل التدخل، هل يقبل؟ لكن.. مقابل ماذا؟ ما الذى يدفعه إلى خصومة محتملة، هل يكفى ضغط زوجته عليه.

وإذا رضى، وتحدى، وأصبح كفيلا له ولأسرته، ماذا سيجرى بعد ذلك؟ يخشى أن يجرى له ما جرى للحلبى!

قام واقفا، إن خدرا لا يمكنه من فرد قدميه، يضطر إلى الوقوف منحنيا. بقعة البلل لم تجف فى سرواله بعد.

إلى متى سيبقى هنا؟ أى أمر سيحل به؟ فى أى مكان سيقضى ليلته؟ هنا.. أم فى دار التحقيق؟ أم فى السجن؟ السجون هنا تضم من لاحصر لهم، يلقون بهم بدون محاكمة فى انتظار عفو محتمل، ربما يصدر أو لا.

كم مضى حتى فتح الباب؟ لم يدر بالضبط، نظر فى الساعة، دهش، أهذا الوقت كله ساعتان ونصف لا غير؟ باق ساعة على انصراف الولد، لو يتركونه ليمضى إليه، لو برفقة حرس، إنه فى قرار سحيق، متأهب للارتماء أمام الشقيق الأصغر، فقط ليصطحب ابنه من المدرسة إلى البيت، ثم يمضون به إلى أى جهة، إلى أى مكان، حتى لو طلبوا منه أن يلزم بيته، إلى أين المفر؟ مثله لا يمكنه الانتقال من مكان إلى مكان إلا بإذن من كفيله، بتصريح..

اقتاده الحارسان، اتجها به إلى غرفة الشقيق الاصغر مباشرة، رآه يقرأ أوراقا، مرتديا نظارة طبية للقراءة، بدا مستغرقا، أو هكذا حاول أن يبدو، دقائق جهمة، ولسانه معقود فى فمه..

«آه.. جئتم به ؟».

تراجع إلى الوراء قليلا، لمس أطراف أنامله بفتاحة خطابات، أومأ، مدركا، متوعدا، فى هذه اللحظة، فى خضم ضيقه، وخوفه، وارتباكه، فاض قلبه بكره، وحنين معا، رنا من مشارف البكاء عندما تذكر الناحية المؤدية إلى بيتّ صاحبه الطبيب فى تلك الحارة النائية، التى لا يدرى، هل سيراها أم لا؟ لكم بدت بعيدة، عزيزة المنال، فى هذا المكتب الفسيح العبق بعطور خفية، هبت عليه كل الروائح التى يمكن أن يستنشقها عند مروره المؤدى، تذكر العجوز المتقدم فى العمر، المتكئ على عصاه أثناء قعاده أمام دكانه الصغير الذى لا يبيع فيه إلا السجائر والحلوى، تذكر أقراصها الصغيرة وسنواته المولية فكاد ينوح..

ـ «تعرف ما فعلت؟»

ـ «يا...»

ـ «أسكت، جرمك كبير، خطير..»

قال: إن ما أقدم عليه عقابه الوحيد الردع، السجن.. هذا يمس أمن البلاد ومقدساتها، يعرض الرجل الذى أحسن إليه للخطر، لابد أنه مدفوع من أحد الحاقدين، لكن ليفهم جيدا هو ومن يقف وراءه أن المؤسسة أقوى، و أقوى.. هل يذكر ما قاله معالى الشيخ عند مجيئك لترتزق ؟ ألم يقل، لا تسرق ولا تكذب، وأنت بما فعلت ارتكبت ما هو أشنع، الخيانة.

تعال هنا..

خطا إلى الأمام، يحيطه رجلا الامن، لوح بفتاحة الورق، ابتعدا عنه، قال إنه من الممكن إرساله الآن إلى حيث لا يمكن لقوة فى الدنيا أن تعرف مكانه، ولكن..

مع لكن هذه استنفرت حواسه، عند ولوجه الغرفة يتساءل عما ينتظره، وعندما بدأ يتكلم خيل إليه أن هذه التهديدات لن تتوقف، إنه لم يتوقع قط هذه الكلمة «لكن»، إن دقات قلبه تهرع كل منها فى أثر الأخرى، كله مستنفر، باله يقظ، متهيىء لما سيقال، لن ينسى أبدا اللهجة التى قيلت بها «لكن» هذه، إنها حد، فاصلة.. نهاية وبداية.

قال إن معالى الشيخ عندما علم بالأمر غضب، أشد ما يثيره خيانة الأمانة وتبديد الوديعة، فما البال وقد أولاه أكثر من غيره ثقة، ومجالسة كادت أن تكون صحبة، لولا لطف الله.

قال إنه طالما حذر معالى الشيخ من الغرباء، لكن الرجل طيب القلب. هذا القلب الكبير، الطيب، تدخل منذ لحظات، قال: اطردوه فقط.

قال مختتما كلامه:

معالى الشيخ أنقذك من السجن، ربما مما هو أخطر، لكن كفالتك انتهت.

تعال..

وقع كافة ما قدم إليه من أوراق، لم يتح له التأنى للقراءة، لمح بسرعة سطورا تفيد انه تسلم كافة مستحقاته، لم يدر ماذا تحوى الأوراق الأخرى؟

مضى به رجلا الأمن ليتسلما ما فى مكتبه من أوراق، قلبا جيوب سترته، تحسسا جسده، وعندما تركاه بمفرده أمام مدخل المبنى تلفت حوله غير مصدق غير واثق، إلا أنه هرع إلى عربته موزعا، متفرقا، به فرح غريب لم يعهد مثله، لأنه أفلت، لأن ذروة الغمة لم تمتد، لأنه ماض إلى ابنه، لم يتأخر عن موعده اليومى، عنده أيضا مهانة بالغة لم يتعرض لها من قبل، لا يقدر على ردها، خجل لتخيله ابنته الكبري واقفة علي ما مر به، خوف غامض مما ينتظره، حيرة، اضطراب..

كيف سيرتب أمور أولاده؟ والمدارس، يتضاءل فرحه، الوضع المحدق انتهى ليواجه المتاعب الممتدة، يستقر به انكسار بغيض، وشعور بقلة الحيلة، وضعف القدرة.

إذ يستعيد ما جرى له عندما ساب على نفسه، وكأنه فقد عنصرا من صميم تكوينه، انفرط شىء من عقده، عكارة ثقيلة عنده حتى أنه لم يدر كيف وصل إلى المدرسة، عندما رأى البواب اجتاحه كره، كأنه أتى بالفعل الذى تخيله، إنه فى حاجة إلى أعوام لكى يفهم، حتى يستوعب ما جرى له، لا يدرى ماذا يجب أن يقوم به، أى إجراءات ستطبق عليه غدا؟ الغد فقط متاح أمامه، بعده يمكن رميه فى السجن، والسجن هنا رهيب مفزع.

هو بعد هذا اليوم غير قبله..

تقوم امرأته، إنه وحيد، خرجت لتهدىء الأولاد، إن فزعا

يدركهما، يطبق عليه صمت ما قبل المغيب، أصوات باهته قادمة من بعيد، إنه غريب، فى سجن وإن تباعدت جدرانه، بمنأى عن أى مساعدة، مقطوع، مجتث، إنه مظلوم، ربما تدارك معالى الشيخ الأمر، ربما يرق قلبه، يرسل إليه، يفاجأ بمن يجهله، يطرق باب بيته، يطلب منه أن يصحبه، يمضى معه بعد تردد، تقطع العربة طريقا طويلا، تتوقف أمام بيت فى أقصى الضاحية محاط بسور، لأول مرة يدخله، يبقى مدة منتظرا، وعندما يجيئه الإذن يعبر الباب إلى غرفة فسيحة رصت الحشايا بمحاذاة الجدران، فى المواجهة يجلس معالى الشيخ، يبدو أقل حجما بدون عباءة، يشير إليه، يطلب منه أن يقعد، يتردد، إلا أن معاليه يقول مباشرة بدون لف، بصراحة بدوية: يا بنى نحن غلطنا فى حقك. ثم يقول، فى الأمر دسيسة، يصيح مناديا شقيقه الأصغر، يجىء متباطئا.. يأمره بالاعتذار، إذ يلمح تردده ينهره، لكنه يقوم واقفا، يتقدم من الأخ الأصغر، لا يريده أن يصل إلى لحظة الاعتذار، حتى لا يتسرب إليه أى شعور بالمهانة، حتى لا ينقلب عليه عند أول سانحة، يصافحه، بينما تذرف عيناه دموعا ذات معنى، أخيرا، تثبت براءته، ومعالى الشيخ يعتذر له، بل يدعوه ليتناول لقمة معه.

غير أنه يفاجأ بامرأته تقف أمامه، متأهبة، ترتدى ثوبا حريريا اشتراه عندما حصل على إذن ورحل إلى العاصمة منذ ستة شهور، ملامحها صارمة، تتناول العباءة السوداء، فى هذه اللحظة لم يفته رغم إنهاكه وحزنه ملاحظة أمرين وإن تباعدا،

ذلك أنه فوجئ بتألق جمالها، فكأنه يراها بعد غيبة. أما الثانى فبداية أمر لم يبد مضمونه بعد، يعنى أن المبادرة تنتقل بدرجة ما إليها، استوثق ذلك عندما أصغى إلى إيقاع صوتها شبه الآمر..

«قم معى...»

تقترب، تقعد عند حافة السرير محاذرة أن يتكرمش ثوبها، تقول إنها فكرت فيما جرى، مهلة أربع وعشرين ساعة ظلم، يجب ألا يستسلما، ألا يعنى هذا تقصيرهما فى حق البنت والولد.. وإذا وجد من يمكن اللجوء إليه ويتقاعسان عن ذلك فذنبهما هنا أعظم، لاحظ يديها المبسوطتين، تشيران فى هيئة محددة، تعرف ما تقول، قولها فصل،هنا أيقن بما انتابه عند ظهورها المفاجئ، تقدمها لتمسك بالزمام، حام داخله خوف لم يعهده غير أنه تساءل عما يمكن عمله؟

قالت إنها ستذهب إلى امرأة هذا الرجل، إنه موظف كبير فى الهيئة التى تدير شئون المدينة، لكن المقصود ليس هو، إنه وثيق الصلة، بل إنه النديم الحقيقى لأمير الناحية، وينوب عنه فى تدبير عديد من المصارف والشركات، تقول:

لحسن الحظ لم أقطع معها، أودها من حين إلى حين..

ثم تقول:

لا تنس أننا قفلنا على أنفسنا، لم نسع إلى معرفة أحد..

لم يصحبها عندما مضت بمفردها إلى داخل البيت مرتفع السور، قبع خلف مقود العربة، ليل ثقيل، تباعد البيوت وترامى الخلاء الصحراوى الممتد ما وراء المدينة يزيده وحشة، هل لاح فى صوت امرأته احتجاج خفى، أو نقد ما؟ لا يدرى ما تقوله الآن، لكنه قلق عليها، نسيت أنه نصحها بالابتعاد عن زوجة الرجل خشية وحذرا.

منذ عام أسرت إليه أمرا، إحداهن شابة من هنا تعرفت بها، زارتها مرارا فى البيت، فى كل مرة تجيئها بهدية منتقاة، حقيبة جلدية، عطر باريسى، خاتم من ماس، لم تدخل عليها خالية اليدين قط، حتى حارت، كيف ترد على هداياها تلك.

فى أحد الايام فوجئت بها تحمل صندوقا يحوى ملابس داخلية حريرية، راحت تستعرض ما فيه على مهل، تقلب القطع متمهلة، لمحت فى عينيها لعابا من نظرات أرجفها، أما شفتاها فانفرجتا، قالت بصوت تتحفز فيه الرغبة، إنها عندما رأت هذا الطقم فى السوق أدركت أنه صنع من أجلها، تخيلته على جسدها، فأصرت أن تهديه لها، ثم قالت: ممكن أشوفه عليك؟

تطلعت إليها صامتة، لا تدرى أى رد يمكنها النطق به؟ سمعت عن ذلك، عن انتشار مثل هذه العلاقات، لكن لم تتخيل دنو الأمر منها يوما، كررت المرأة:

ممكن أتفرج؟

قامت واقفة، على شفتيها المتباعدتين المتمددتين ابتسامة تشجيع، توسطت الحجرة، اقتربت منها، فجأة شلحت ثوبها إلى أعلى، بان فخذاها، كانا نحيلين، سمراوين، قالت إنها ترتدى مثله، ثم قالت بلهجة مصرية، أتقنتها من فرجتها على الأفلام:

«قومى وريني.. بتتقلى على حبيبتك؟»

خافت، لم يمر بها مثل ذلك، قالت يومها إن ما تدعوه إليه حرام، ثم قامت، خرجت من الغرفة، مضت إلى صوان حاجاتها، ردت إليها هداياها، وقعدت صامتة لا تنظر إليها، لا تلفظ كلمة، حتى بدا ارتباكها.

قبل اجتيازها الباب، قالت كلمة واحدة، أودعتها حنقها ورغبتها المحبطة:

«غبية !»

أهى تلك التى تجلس إليها امرأته الآن؟ مثلها؟ على أية حال هن نساء، تلك امرأة وهذه امرأة، يتوقف لحظة، أليس فيما خطر له لا مبالاة، لا يعرف إلى من تجلس امرأته الآن، بأى لهجة تقص ما جرى، وبأى لهجة سترجو؟

الليل يوغل، والفراغ حوله سحيق، هل سترجع لتخبره بكفيل جديد؟

هل ستأتى وتجلس بجواره صامتة شأنها عندما تنجز أمرا ما، تؤجل الإخبار به دقائق.

هل سيأتى الأسبوع القادم وهم هنا، أم مبعدون، أم هو فى ناحية وأهله فى ناحية.

هل تنجح، ويكفله سيد جديد، رجل لا يعرفه، يحيط به وبأموره، عندئذ، ربما يجرى له ما جرى للحلبى! الحلبى الذى لن ينسى نظرة عينيه أبدا.

وفيما يلى ما جرى للحلبى

.. وأمره ذائع، معروف فى تلك المدينة، جاء من حلب، وكان هادئا، لا يختلط بالخلق، فى حاله، منطو على أمره، عرف بمهارته الفائقة فى صنع صنفين: البقلاوة، والكنافة بالجبن.

عمل عند رجل من أهل البلاد ، موظف فى دائرة الأوقاف، إلا أنه يستثمر ماله فى أمور شتى، فمن ذلك مصنع لتعليب التمر وحشوه باللوز، ومتجر لبيع الأدوات الكهربائية، ودكان لبيع الحقائب بكافة أنواعها، وآخر لبيع الملابس النسائية، ومصنع صغير يتبعه معرض للحلوى، وفى هذا عمل الحلبى، ومنه خرجت الحلوى التى راج أمرها، حتى قيل إن الرجل إذا أراد التقرب من امرأته حمل إليها صينية كنافة أو بقلاوة من صنع الحلبى!

وذات عصر أرسل أمير الناحية فى طلبه، ليعد الصنفين، يومها أظهر الحلبى مكنون براعته، وخلاصة قدرته، حتى تساءل الضيوف عن مصدر الحلويات الشهية، طبيعة الرائحة، وصانعها، وقيل إنهم مسحوا ما تبقى فى الصوانى، ولحسوا أصابعهم حتى لم تعد بحاجة إلى تجفيف أو غسيل، فلما علم صاحب المصنع ذلك قلق واضطرب أمره، إذ خشى أن يرسل الأمير فى طلب الحلبى بمطبخه، أو يقدم أحد المقربين منه على افتتاح مصنع يتولى إدارته فينافسه ويطغى عليه، ويقال إنه كره اقتراب عامل عنده، تابع له، من الأمير.

المهم.. استدعاه، وطلب منه تسليم ما عنده، وإرجاع ما فى أمانته، طلب منه مغادرة البلاد كلها خلال ثلاثة أيام، لا تزيد بساعة واحدة، وإلا تعرض للمطاردة والملاحقة والسجن، أبلغ الشرطة بإنهاء كفالته له.

فوجئ الحلبى، وكان قد رتب أموره، إذ استأجر بيتا من ثلاث حجرات، واشترى بالدين فرشا وأدوات مطبخ، وجهاز تليفزيون ملون بعد قدوم عائلته، كانت امرأته حلبية، بيضاء، جميلة، ساهمة الحضور، عذبة الصوت، فى عينيها ألق ومعنى، أما ابنته فتنبئ ملامحها بسعى أنثى مكتملة على الرغم من عمرها الذى لم يتجاوز عشرة أعوام، العجيب أن شقيقها الذى يصغرها بعامين كان ينافسها فى جمال ملامحها، ونعومة شعرها، كذا غزارته، وأنس القسمات، كان رشيقا، أطول ممن

يماثلونه عمرا، وقاد البديهة، سريع الحفظ، طويل التأمل، مشهود له بالفطانة، والتفوق على أقرانه فى المدرسة، ومعظمهم من أهل هذه البلاد.

كان الحلبى يردد دائما أن روحه فى هذا الولد، كان يحمله بين يديه عندما كان طفلا، يغير لفائفه، ويطعمه، ويصبر عليه حتى يتم رضاعته من زجاجة اللبن.

كان يقول إنه عاش هجاجا، ينتقل من موضع إلى موضع، ومن ديار إلى ديار، وإنه لم يحل بنقسه ألا بعد مجىء ابنه. حتى كف عن السهر فى المقاهى، صار أحلى زمنه عندما يغلق باب بيته ويخلو إلى أهله، حتى آنه كان يحبو على أربع ويحملهم أوقاتا فوق ظهره، يداديهم ويناغيهم.

كان أشد ما يعول همه، ويقض طمأنينته، أن يموت فجأة.. كان يصلى ويردد دائما أنه يرجو خالقه إطالة عمره حتى اليوم الذى يدخل جيب ولده أول قرش من عرقه، عندئذ يمكنه إغماض عينيه مطمئنا، لكن صغر البنت والولد، وطول السنوات المرتقبة، وبعد المسافة، وعسر الأحوال، واعتماده واتكاله على مهارة يديه، وحسن صنعته، مع انعدام الضمان، وانتفاء الأمان، لو أصابه وهن، لو كف يوما واحدا عن العمل لما تقاضى أجرا، هذا كله جعله يفكر فى تكوين حاجة للزمن. مبلغ يقى عائلته شر الحاجة إذا قضى نحبه فجأة، يمكنه من افتتاح محل ولو صغيرا، دكانا يقف فيه ليبيع الكنافة المحشوة

بالجبن، تخصصه الأول، يمكن لأمرته أو ابنه الوقوف فيه بعده، مثل هذا يحتاج قدرا من المال. عمله باليومية لا يمكنه من ادخاره، لهذا بذل الجهد والسعاية حتى جاء هذه الديار.

هنا كف عن بعض عاداته التى لزمها فى بر الشام، من ذلك صحبة ابنه فى أوقات فراغه، عرف عنه ذلك، لم يكن يرى فى شوارع الشام إلا ويده ممسكة بيد ولده.

كف عن ذلك هنا بعد أن سمع ما يتردد إن همسا أو علنا خاصة بعد صلاة الجمعة عندما يبث المذياع أنباء تنفيذ أحكام الإعدام، فى رجال اغتصبوا فتيانا أو سرقوا، كان يتحاشى المرور أمام الحجر المستطيل عند الركن الأيمن خارج المسجد الكبير، هنا كان يتم تنفيذ أحكام الإعدام جهارا، علنا، وبالسيف، كان معظم المتهمين من الغرباء، أسيويين، أو عربا من أقطار أخرى، وقلة نادرة من أهل البلد.

كان إذ يكتشف أن الضرورة قادته إلى هذا الموضع يولى مسرعا، أو يفسح الخطى، مرة لمح الحجر الذى تسقط فوقه رأس الضحية، وخيل له أنه رأى آثار دماء، فهل جال عنده، أو خطر له أنه يوما سيمثل هنا؟.

لا أدرى، ولا يمكننى الجزم، ولكنه تجنب الكافة، ولم يخالط الخلق، وحرص على مصاحبة ابنه حتى باب المدرسة، وخلال مشيهما معا يصره وصرح له بما يمكن أن يلقاه إذ يتعرض له، كان لا يهدأ إلا بعد عودته فى نهاية يوم عمله، وإغلاقه الباب وانفراده بأسرته، كان لا يجد إنسانيته إلا عند اجتماعه بهم، أانسهم به.

وعندما فوجئ بصاحب المصنع يرفع عنه كفالته له، ويطلب منه تسليم أمره، وإنهاء حاله، والرحيل، أصابته مسغبة، أوشك أن يلطم، أن ينوح كالنساء.

جرى هنا، وهرع إلى هناك، سعى إلى دار الإمارة، قابله عجوز ممن يدبرون شئون الأمير، يصحبونه فى روحاته أو غدواته، ويقفون صامتين عندما يتناول طعامه، ويشخصون إليه عندما يبدأ اللقاء بضيوفه، تذكره الرجل برغم تقدمه فى السن، أشار بأصبعه مقطبا عينيه:

«أنت الحلبى «حق» الكنافة؟»

أومأ مجيبا، هو.. نعم، هو بعينه.

أشار العجوز بيده، هذا يعنى الأمر بالكف، مع أنه فى حاجة إلى النطق، إلى الشرح بعد أن لحقه حال صعب، إلا أن العجوز قال ما طمأنه، لم يخاطبه مباشرة، إنما صاح مناديا أحد الحراس:

«اذهب مع هذا، منذ الآن هو فى كفالتى.....»

صحبه من له شأن عند الناس هنا، وعندما وقف صاحب المصنع على الأمر، بدا اضطرابه، مع أنه منيع الرتبة، رفيع الوظيفة، إلا أنه ليس مقربا، ورسول الإمارة لا يمثل نفسه، إنما ينوب عمن يمشى فى ركابه، ويتقدم صفوفه، الأمير نفسه، لهذا بدا صوته آمرا، عندما طلب تسليمه جواز السفر، وأوراق الكفالة، والتوقيع على ما يفيد ويوضح..

منذ هذه اللحظة صار الحلبى إلى كفالة العجوز، كان رجلا نحيلا ذا لحية مدببة، متوسط الطول، يقول إنه تجاوز الثمانين، لكنه قادر على إشباع امرأة شابة مجربة.. والسر فى البصل.. إنه يفطر يوميا على الريق رطلا من البصل المشوى، فقط لا غير.. كان المقربون منه يؤكدون ذلك، مع أن علامات الشيخوخة جلية فى ملامحه، إذ يمسك فنجان القهوة المرة ترتعش يده فى الطريق إلى فمه حتى تكاد القهوة تنسكب، لكنه إذ يمشى يدب ساعيا، وإذا غضب يسمع صوته من بعيد.

غير أنه لم يكن مثل الكفيل الأول، بدا أشد صرامة، شديد الفضول، ثقيل الوطأة، طلب من الحلبى ألا يلبى أى طلب ـ ولو خاصا ـ لصنع الكنافة أو البقلاوة، وأن يخبره مقدما بأى منطقة يتوجه إليها للمكث أطول من ست ساعات حتى لو داخل المدينة، وأن يوضح له الأماكن التى يرتادها، وتلك التى اعتاد المضى إليها، وألا يغادر المكان المخصص له داخل مطبخ القصر، وأن يسلمه هو شخصيا صوانى الكنافة والبقلاوة، ليس إلى أى إنسان غيره، مفهوم؟، لو نمى إليه أنه أهدى مجرد قطعة صغيرة إلى أى شخص ولو كان الأمير نفسه سيلحق به أذى لا يمكن لمخلوق تصوره..

اضطر الحلبى أن يقسم مرات مؤكدا أنه لا يسهر إلا مع أسرته، ولا ينادم إلا ابنه وابنته وامرأته.

أبدى العجوز اهتماما، متى تزوج؟ هنا أو فى حلب؟ من أكبر؟ الابن أو البنت؟ فى أى مدرسة؟، هل أمهما شامية أو من بلد آخر؟ إذن.. لابد أن الأولاد فى جمال القمر! الحق أن الحلبى تحرك فى نفسه كره للرجل، وقلق ليس بالهين، خاصة بعد تكرار الأسئلة عن الأهل، إلى أن حل يوم قال فيه العجوز أنه سيجىء إلى البيت للتأكد بنفسه من كل كلمة قالها، سيمر عليه فى الغد ليشرب عنده قهوة.

وجد الحلبى وجدا شديدا، وصار لا يدرى ما يفعل، فهو لا يقدر على رد طلب الرجل الذى يبسط عليه حمايته، ويمسك بمقدراته، كما أنه لم يسمع بمثل ذلك، فكلمات العجوز بقدر ما تبدو حاسمة، موجزة، آمرة، بقدر ما تخفى معانى لم يستطع الوقوف عليها، وجلاء غموضها.

على أى حال.. كظم ولم يظهر، وبذل الجهد فى الإعداد لاستقبال العجوز، لم يخبر إنسانا بالزيارة، لا من زملائه ولا من الجيران، وعندما حانت اللحظة التى أعد لها العدة، تمنى لو ولت وانتهت بسرعة، دخلت امرأته حيية، خجولة، سافرة، تغطى رأسها طرحة بيضاء لا غير، تطلع إليها العجوز متفحصا، وعندما توارت الابنة الصغيرة وراء أمها، مد يده بجنيه ذهبى، ولما لم تلح بادرة تطلع إلى الأب، فأمر بدوره ابنته:

ـ «خذى... خذى من سيدك»

فأخذت البنت الجنيه وعضته بين شفتيها، وعندما دخل الولد وتقدم مادا يده، مصافحا، مبديا الجرأة، وكأنه يؤكد تقدمه فى العمر، وتجاوزه طور الطفولة، ردد العجوز:

ـ «ما شاء الله.. ما شاء الله.. كم عمره..؟»

فقال الحلبى:

ـ «.. عشر سنوات..»

ردد الرجل:

ـ «ما شاء الله، ما شاء الله..»

أعطاه جنيها آخر من الذهب، وعندما انصرف بعد مقدار ساعة، قعد الحلبى ورأسه بين يديه، لم يكن طوال الزيارة مطمئنا، من طرف خفى كان يرصد نظرات العجوز، كلماته الثقيلة، البغيضة، إلا أن الزيارة لم تكن الأخيرة، إذ قال الرجل أنه آنس راحة عنده، وأنه منذ سنوات لم يرتح كما ارتاح فى هذا البيت، لأن الناس لم تعد أحوالها كما كانت فى الزمن القديم.

صار يتردد بدون أن يخبر الحلبى مقدما، يدخل ويقعد، ويطلب قهوة مرة، ضغط الحلبى أموره، ثم أتى الرجل بهدية إلى امرأته، علبة قطيفة زرقاء على هيئة قلب، تحوى قلادة من الذهب المطعم بالفيروز، والمرجان، وقرطا وخاتما وسوارا، قال العجوز:

- «يا ابنتى أنا مثل والدك.. زوجك رجل طيب..»

وبرغم ضيق الحلبى وكتمانه الغيظ خوف الأذى، إلا أنه ارتاح لكلمات الرجل، وعلل النفس أنه يلقى فى بيته راحة، ربما لروح الأسرة، وحسن سمعتهم، وبعدهم عن المشاكل، ونقاء صفحته، بل إنه تغاضى عن مجىء امرأته وقعادها سافرة بدون غطاء للرأس حتى، مرتدية الروب الحريرى الخفيف، الذى كان يكشف بوضوح قاطع حواف سروالها، واستدارات ردفيها الممتلئين عند القيام، وعند القعود، لم يعد يتعجل انصرافها، خاصة أن العجوز لم يبد منه تجاهها ما يشين، كان يتصدر الحجرة متكئا على الحشية، بعد أن يخلع عباءته، وغترته.

ويبدو أن الحلبى استكان إلى حد ما ، إذا كانت تلك هى الحدود فلا ضير ولا بأس.. وإن كانت مكروهة.

هل لاحظ الحلبى شيئا غير عادى فى تلك الآونة؟.

لا يمكننى الجزم، ولكن تذكر امرأته أن توترا مضاعفا حط عليه عندما صافح العجوز ابنه أول مرة، واحتفاظه بعض الوقت بيد الغلام، بين يديه، النحيلتين، بارزتى العروق، المقدودتين، كذلك عندما أصر العجوز على إلقاء بعض الأسئلة عليه لاختبار ذكاء الولد، وطلبه سماع بعض الآيات القرآنية التى يحفظها عن ظهر قلبه، واستحسانه للنطق والتلاوة، حتى أنه لم يكتف بالطبطبة على كتف الغلام، إنما قبله ودعا له..

صحيح أن الحلبى كان يخشى على امرأته.. ولكن خوفه على الولد بدا أكثر. والحق أننى لا أقدر على جلاء هذه النقطة، فربما شعر من أول لحظة لكنه أضمر.. وكتم، ولم يسفر إلى أن حل هذا اليوم وكان فيه ما كان..

إذ رجع الحلبى من السوق، ليجد العجوز.. سأل:

كم مضى عليه وهو قاعد مع الولد؟

قالت امرأته: ساعة أو أكثر. عندما دخل وجده يسلم على ابنه وابتسامة تقطر رغبة ولزوجة، بينما يطرق الصغير مضطربا، محاولا الابتعاد بجسده عن الملامسة.

قال العجوز للحلبى إنه لم ير تلميذا فى مثل ذكائه، من الخسارة ألا يتلقى قدرا من التعليم الراقى المخصوص، فى داره فرصة، لماذا لا يجيء ويقيم عنده، سيكفل أموره تماما، لن يعول هما له، سيعيش مع أحفاده لا ينقصه شيىء، سيرعاه بنفسه...

لم يكن العجوز يقترح، إنما بدا كمن قرر أمرا، أو يقضى بحسم وضع، مد يده مداعبا الغلام الذى نفر فجأة متواريا وراء أبيه، خرجا معا، بكى، وتحت إلحاح أبيه أفضى إليه بما جرى وكان، أخبر عن يد الرجل التى ملست عليه، واندست بين فخذيه، عن الذعر الذى انتابه عندما طلب منه أن يبرز كل منهما عضوه، حتى يرى أيهما أطول؟ أصغى الحلبى مذعورا، ومن داخله طلع إلى دماغه غلب زمن طويل، حتى أنه اعتم فجأة.

لم يدم الأمر طويلا، من المطبخ جاء بالسكين الحامية، إلى الغرفة دخل، ثم تقلبت الحكاية فى البلاد، برغم أن تفاصيلها لم تنتشر قط، وقيل بين ما قيل إنهم نوعوا العذاب للحلبى، وإن شرطيا أسود اغتصب الغلام على مرأى من أبيه، وأنه سمع بأذنيه ابنه، يصرخ من ألم اللواط به، وهذا أصعب عليه من اقتياده موثقا إلى الميدان الكبير عقب صلاة الجمعة، وتمزيق ياقته، وبسط عنقه قبل أن ينخسه الجلاد بالسيف فى ضلوعه.

فى هذه اللحظة بالذات التقت عيناه بعينى الشاب الذى قصصنا جانبا مما جرى له فى الحكاية السابقة.

عينا الحلبى فى آخر لحظاته ألحتا عليه أثناء انتظاره لامرأته فى السيارة وعيشة المساء تغمره، عينان مزرورتان، شاخصتان، جامدتان أو مرعوبتان.. لا يدرى، ما شغله يومها، وحتى ما تردد أثناء وقفته هذه، كيف رآه الحلبى؟ وبقدر ما خشى هذه النظرة، بقدر محاولته استرجاعها.

على أى حال، الأمر يطول شرحه ، ولكن المؤكد، المقطوع به، أن الحلبى لم يعد قط إلى بلده، قضى غريبا، أما الشاب هذا فلم أقف على أحواله فيما تلا ذلك.

كان ممكنا أن تمضى أحوالهما بخلاف ما جرى لو أن حادثا تقدم عن موعده، لو أن ترتيبا بسيطا أخلف، وقبل ذلك.. لو أن الظروف لم تكن تلك الظروف.

ولكن.. ما وقع.. وقع، وما سيجرى، سيجرى، وما شاء الله كان، وقد كان ممكنا لى أن أمضى فى ذكر ما جرى لكثيرين، عرفتهم.. إما قبل وإما اثناء وإما بعد هذا العقد الغريب، المضطرب، اقصد زمن السبعينيات، لكننى أخاف الإطالة، وأخشى الإملال.

لهذا رأيت الوقوف عند هذا الحد، والاكتفاء بذلك القدر من رسالتى التى أوجهها إلى من أجهل، إلى من لن ألتقى به، إلى من لم يعش زمنى، إلى من لم يلقه حظه الطيب فى وقتى.

ولكن فى البدء ليس لنا خيار، كذا فى الانتهاء.

فما شاء الله كان، منه نستمد العون، فسبحان من لايدركه التبديل، العليم بأحوال العباد، هو حسبنا ونعم الوكيل...

كان الفراغ من التحرير ليلة الثلاثاء أول أيام شوال، عيد الفطر المبارك، عام ألف وأربعمائة وثمانية للهجرة. الموافق ألفا وتسعمائة وثمانية وثمانين للميلاد...

والسلام

تمت

« رِب تمِّمْ بِخَيْرِ »

رسالة فى الصبابة والوجد

أما بعد،

اعلم يا أخى الحميم، أيدك البارئ الكريم بمدد من عنده، أننى ما أقدمت على البوح لك أنت إلا بعد انقضاء مدى، وما شرعت إلا بعد تعاقب أحوال شتى صعب على كتمانها، اقترن فيها قربى ببعدى، واتصالى بانفصالى، وخلف أمرى بتوفيقه، وتبادلت جهاتى المواقع، حتى قوى على الشك أن ما جرى، جرى، خاصة مع تزايد الحضور بغير كينونة ملموسة، وتكرار الظهور بغير معاينة محسوسة، بعد انزواء جل العلاقة فى مجرد عبق خفى مستور بالحجب، فلو أفضيت بما عندى بعد اكتمال الأوبة، واستقرار العودة، لو لمحت إلى ما توالى على، ما صدقنى الأقربون، حتى وقع عندى شتات بين إقبالى على من أصل أسبابى بهم، لأبوح وأسفر، وتوقى إلى النأى والصمت وطى صحفى، هذا ما غلب على، خاصة مع بعد الشقة، وانتفاء المحط، وشحط الرؤية، وانعدام المجاوبة على رسائلى. وزوال معالم الصورة الوحيدة عندى، ووهن دقات

الساعة الخزفية التي أودعتها بين يدى. والأصعب الأدهى، انتفاء الإمكانية، أحيانا تهدئنى الرؤى، غير أنها تتبدد، فلا يتبقى إلا قفر المفازة، وغول الطريق، فأنثنى ململما فؤادى طاويا دخائلى، خشية أن يتبدد ما تبقى، وعندما بقيت مدة مهدهدا، منهكا، مدمدما بالوجد، متخففا من شغاف الوهم، لقيت الحمل ثقيلا وإن لم ير، والطوق محكما وإن لم يلتف، لذا أقدمت على التدوين إليك مع أنك قصى، بعيد عنى؛ لكن يشفع لى عمر انقضى قرب بيننا، جعلك كائنى، حتى لو عسرت المودة، وانفرط العقد، وتباعد الشمل، وندرت اللقيا، بقيت أنت كالجهة التى لا تدرك بالحواس وإنما يتوجه المرء إليها، هكذا وليت بهمى صوبك، لعلى باسترجاع ما تبدد، وروايتى لما يخيل إلى أنه جرى، أقف على توكيد يطمئننى، يرسخ الحجة عندى، فاحتملنى يا أخى وإن أطلت، ولا تذرنى إن أثقلت، ولا تنصرف إن فصلت، وبحق العشرة القديمة، تلمس لى العذر فى شدة تهيامى.

ديباجة الظهور

... اعلم يا أخى أولا سبب مجيئى إلى ديارها، ونزولى بلادها، أقول - أدناك الله من مبتغاك، وحقق لك مطلوبك - إننى ما جئت إلا لفترة محدودة بأيام المؤتمر، إذ دعانى القوم للمشاركة والمداولة والمناظرة فى أفضل السبل للحفاظ على المبانى العتيقة، وترميم ما تصدع منها، وما يتهدده البلى، وهذا لب انشغالى منذ ربع قرن وعدة من سنوات أخر، ولى فى هذا المضمار قول وصولة وتجربة، ألقيت بحثى، أبديت وجادلت نفرا قدموا من بلاد شتى، جئت برفقة واحد ممن علمونى المعمار، وأضاءوا لى أسرار البناء، أحالوه إلى التقاعد فى موطننا، غير أنه لم يركن، ولم ينه الخطة، تراه فكأنه سيبدأ تحصيل المعرفة لأول مرة مبديا حمية وحماسا أوليا ولطف

تدبير، إذن، جئت موطنها ضعيفاً، غريباً، محدود الإقامة، مدتى مبينة، مثبتة على وثائق سفرى، أما توقيت إقلاعى إلى منازل أهلى فمقدر سلفا، أنى منقلب حيثما جئت، هذا إدراك مدبب فى وعيى، وبرغم وقوفى على موقوتية زمنى بالقرب منها، إلا أننى عند ظهورها انسقت غير عابئ، كاشطاً الصدأ عن مغاليق طال إقفالها.

ستسأل، متى بدأت الرؤية؟ متى تحقق نظرى منها تمكن؟ والله يا أخى ما من إجابة دقيقة، ما من تحديد، لو قلت لك إنها قديمة عندى، سارية داخلى منذ قدر لا أعرف تعيينه، فلا تكذبنى، وإن أمرها بدأ معى قبل مجيء موطنها هذا فلا تنح كلماتى، وإن قلت إننى ما قطعت زمنى المنقضى إلا ماضيا تجاهها، وعند لحظة معينة تلاقينا فتفجر الشرر، وانتثرت الشهب، وامتزج المبتدأ بالخبر، فلا تتكئ على. وإن قلت لك إن هذا الكون بمجمله مكان لأراها فيه فلا ترمنى بالشطط !.

المقطوع به فى عالم الممكنات أنها لم تفارق موطنها هذا الذى أجيئه أول مرة، أين هذا الماضى المولى كله؟ لا أدرى، يقينى أيضا أن عينى وقعتا عليها فى الفندق الكبير، حيث نزلنا واجتمعنا، لابد أنها راحت وجاءت . تمهلت أو مرقت ، غير أننى بقيت غافلا، فلم تكتمل كينونتى بعد، ربما لأن الجمع كثير، والذهن مشغول بأمور شتى، لكننى أنثنى وأقول، إن هذا غير دقيق، فكددى لم يكف، ولم يخفت أبدا. اعلم يا أخى أن

الظهور الذى أعنيه، له حين مقدر، جربت هذا وعرفته، حدث منذ عشرين سنة مضت أثناء تدريبى بمركز علمي، أن اعتدت المرور بشابة تقعد إلى مكتبها، أبادلها التحية وأمضى، إلى أن لاحت لى بعد طول استتار، بدت فجأة، توهج لحظها وألق عينيها، وشوارد مفلتة من داخلها المضىء، فانتبهت، وبدأت سعيى، متعجبا، كيف غفلت عنها؟ كيف؟ وفي ظرف آخر، جاءتنى بنية هيفاء، رحبة، ولحظة دخولها الحجرة نفذت مباشرة صوبى، وصار بيني وبينها شأن، ثم انقضى الوقت، فلا تبدأ صلة إلا ونهايتها فى مفتتحها، وهذا أمر له تفصيل، لعلى مورده فيما بعد. اعلم أنه ما من بداية تشبه الأخرى، منها ما يحاكي ظهور الطل، ومنها ما يشبه تدفق السيل المباغت. أما هذه البنية فلاحت لى شيئا فشيئا، قبل ظهورها في هذا الصباح المبكر.

صعب علي التحديد، مع أن يقينا يداخلنى الآن وقد انحلت المدة وغابت الحضرة، أننى لم أكف عن مشاهدتها طوال وقتى، أجوس خلال ذاكرتى متلمسا خيالات واقع أمسكته بين يدى ثم انطوى، ولى، وخلف عندى البين والوجد، بعد انتهاء المؤتمر، سافرنا فى طائرة معا مع بدء الرحلة إلى آسيا الوسطى حيث قصدنا معاينة ما شيده الأقدمون، ضمنا هذا الفندق فى الليلة الأولى وإن تباعدنا جزنا العتبات، ولجنا القاعات، ركبت العربة التى أقلتنا من المطار إلى مأوانا، جلست بجوار صاحبى، ملصقا وجهى بزجاج النافذة، متلمسا معالم المدينة التى لم أتصور أننى بالغها يوما، يمكنني تحديد اليوم، ثلاثاء، يوم من

أيام هذا الكون، عند الفجر صحوت مبكرا، عندى تأهب غامض، وشعاع خفى من وهج، شأن المقدم على رؤية مالم يخطر على قلبه أو باله قط. قمت وبدايات الضوء الأسيوى تنفذ عبر الواجهة الزجاجية، أزحت الستار، تطلعت إلى الملامح التى لم أتبينها عند وصولى ليلا، جلت ببصرى عبر الحديقة، لم يوهن الشتاء من خضرة حشائشها وأشجارها، أما رد فعلى عند رؤية شجر التوليب الباسق، الملتف، الململم، فكان تنفسا عميقا، هذا شجر لم أطالعه إلا فى منمنمات المبدعين الآفلين من أبناء الناحية، عرفت العديد منها، ودرست ما تضمنته، وأطلت النظر إلى توقيع خجل، متواضع، لعظيم ممن تنفسوا هواء تلك البقاع، اسمه «بهزاد»، إذن.. هذا شجر توليب، تبدأ الحديقة بعد انتهاء الساحة المبلطة برخام وردى، منبسطة تحت الفراغ الشفقى، ومن هذا الحد بدت، فى الصباح الأسيوى تجول، تسعى، لم يكن إلا هى، تمضى إلى حد الحديقة الأيسر، تنثنى حتى الحد الأيمن، أنثى، فارهة، باسقة، لها طلع، تفسح خطاها ما بين شجرتى توليب بعينهما، لم أدر، هل قامتا منذ أزل قديم، أم نبتتا مع مجيئها؟ ترتدى معطفاً رمادياً طويلاً، سافرة الشعر، لا تحجبه بغطاء الفرو الثقيل، مناخ تلك النواحى مختلف عن العاصمة التى قدمنا منها، اعلم يا أخى أننى بدأت معراجى ببصرى صوبها، وبمجرد بدء الرؤية أدركت أن قدرى يكمن فى هذا الحضور الإنسانى، لم أدقق ملامحها، فالبصر كليل، والمسافة غير مساعدة، تردد عندى وجودها، وصلنى

تأثيرها فى هذا العالم، انبثاق حركتها ما بين الشجرتين الفارهتين، لماذا نزلت مبكرة، أتلك رياضتها اليومية؟ أهذه حركتها المعتادة في مثل هذا التوقيت؟ هل رصدت قلقا فى إيقاع خطوها؟ ربما، ساحت داخلي بهجة لم أعهدها منذ زمن، وتفجر عندي بشير كالزمن الأول، ولعلك تذكر رسالتي التى ضمنتها أسباب ضيقي واكتئابي. وبدء اندحارى بعد أن قمت من مرضى، ارجع إلى مادونته إليك، وأعد قراءة ما سطرته لك، لتدرك لب مقالى، وأي حد كانت عليه أحوالى؟

خطر لي أن أفارق غرفتي، أن أهرع فألقاها، أن أقف أمامها، وإن لم أنطق أواجهها بالصمت والسكينة، لعلها تدرك عنى. لكن.. ما أسرع الشروع وأبطأ التنفيذ، حاد بصرى لحظة، وعندما عاودت النظر رأيت الإطار وغاب عني المضمون، فتحت النافذة، هواء بارد قاس، إذن فالشتاء هنا شديد. مددت البصر، لم أرها، عدت إلي وحدتي، مغمورا بالرؤية، بالنفاذ، الآن يا أخي وأنا أتم تدويني هذا أكاد أثق من رؤيتى لها قبل ظهورها، قبل انبثاقها بين شجرتي التوليب، لكن أين؟ هذا مالا أقدر علي تحديده، متي؟ ذلك ما ليس عندى منه يقين. فى مدخل الفندق لم أرها، أما المطعم فكان خاليا منها، كيف أيقنت أنها تنتمي إلي جماعتنا مع أني لم أرها إلا عن بعد؟ لا أدرى.. طوال إفطاري تعلق نظري بالباب، لم أرها فى ثباتى، لكننا عندما اتجهنا إلي الحركة لمحتها، تتأهب لصعود العربة التى ستقلنا إلي الجولة، من مقعدي سددت البصر، قعدت بجوار

معماري من الهند، عندما استقرت حلت عندي سكينة. أمكنني الرحيل بنظري هنا وهناك. مطمئنا إلى وجودها قربي، أمر بشعرها الطويل نافر الخصل، أتابع تدفق الطرقات، ما أراه أطالعه أول مرة. والأرجح أن عيني لن تقعا عليه أبدا، أدقق اتجهات المباني المشيدة كلها في أوقات متقاربة بعد وقوع الزلزلة المهولة منذ حوالي عشرين عاما، خطوط صاعدة، أقواس تؤطر الطوابق العليا والمداخل، الأصول النائية عربية، تتقاطع الشوارع الفسيحة الرمادية وتستدير الميادين ممتدة صوب الفراغ، غير أن ثمة مسافة بقيت تفصلني عن طشقند هذه، كنت أبحث عن شيء لم أجده، وأترقب أمرا لا ألقاه، أما ما شغلني فأرنو إليها خلسة، والشروع في الاقتراب كيف؟

ترجلنا في الساحة الرئيسية، هواء صارم، قادم من أقاصٍ بعيدة، خطوت تجاهها، تمكنت من جانب وجهها الأيمن، أيقنت أن أمرا قديما بدأ ينفذ، في المعرض أبطأت الخطى، وأفسحتها، اقتربت، نأيت. هي في حركة وأنا في حركة، كان دنوي منها يتم خلال ديمومة، اعلم يا أخي أنار الله برهانك، أن الأقدمين قالوا إنه لا تنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما، وهذا يعرفه أهل الموسيقى خاصة، وندركه نحن أرباب المعمار، هم يتقنون تأليف النغم، والنغم لا يكون إلا بالأصوات، وتلك تحدث بالتعاقب، بالتوالي، بالحركات التي لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها. بين زمان كل نقرتين زمان سكون، هكذا قالوا، وأقول أنا، ذلك شأن المعمار،

فالبناء لا يتم إلا فى فراغ، والقيام فى الفراغ حركة، يبدأ من ثبات الأرض البادى ثم تتخلله الفواصل وما تلك إلا وقفات، عند طوافي حولها كنت مرفرفا، حائما، لكن لى أويقات سكوني، أولى فيها البصر بعيدا، ثم أنثني مستوعبا ملامحها على مهل. ما وقفت عليه أغزر وأغنى مما أقدر على شموله أو استيعابه مرة واحدة، شأن من يحسو شرابا رائقا، مسكرا، فيرشفه متمهلا. متمنيا الا ينفد، لإطالة المتعة، والتمكن من القدرة، ربما نعم لهذا كله، وربما لا، غير أن ما أعرفه، أننى عند خروجي من بوابة المعرض، رأيتها، بمفردها، يداها فى جيبى معطفها، تماما كما كانت تدسهما أثناء رواحها ومجيئها بين شجرتي التوليب، لم أتقدم، إنما دفعت من داخلي، لم أتجرأ، إنما بدأ فعلى قبل قرارى، وحركتي قبل عزمي، ابتسمت مشيرا إلى آله التصوير.. تسمحين لى بصورة؟

لاح نبأ ابتسامة من شفتيها المزهرتين، مدت رأسها هنة إلى الأمام، قالت برقة....

- ليس الآن من فضلك

يكن بوسعى إلا الانحناء، والانسحاب بعيدا، كلا يا أخى لم أرتد خائبا، فما لقيته ليس بصد، وما سمعته لم يكن توضيحا للحد، لم تنهرني، لم تقطع، بل تضمنت كلماتها وعدا، أما عن تراجعي فهذا أفضل، ربما لأنني طفت ما بين عينيها، ونزلت بعيني لحظات عند قسماتها، ملامحها وثيقة الاتصال. إذا

ابتسمت مرحبة أشرق في عينيها طيف حنيني، وإذا تطلعت متسائلة وقع التلامس بين شفتيها، والتقوس من حاجبيها، وإذا تدفقت منفعله فكك قوس قزح ألوانه وأظهرها متعاقبة وليست متجاورة. وعند مس الخجل تتراجع الشفة السفلى منطوية للعليا وتعمق الغمازتان اللتان تبدوان فجأة في الوجنتين الثريتين، الحادتين كالخبر المفاجئ.

حتى العصر عاودت دنوى منها ثلاثا، وفي كل مرة أقول مبتسما.. لا تنسى الصورة..

فيجيء التطمين، والوعد، لكن ملامحها لم تأذن بعد. اعلم يا أخي أنني اعتبارا من هذا العصر، من توجهي الأخير إليها لم أعد أتحرك في المطلق، كل خطوة عندي تجاهها، وأية إشارة من يدي هي المعنية بها. وعند أي نطق، توقع أنها تصغي إلي. ولو بدرت التفاتة مني فيقيني أنها ترقبني، ولو تحركت على مرأى منها، أو تحدثت بقربها، أو جلست صامتا، فإنني أضمن حركتي وصوتي وسكوني رسالة إليها لعلها تتلقاها، لم يعد الوجود مطلقا، ولم تعد الكينونة مفرغة أو بلا غاية. بل صرت دوارا في فلكها. من توابعها، كان مرورها يكتمل عندي، جازت، فاتت حواجز شتى، وموانع قديمة، وسنين مثقلة. وهموما متزاكمة، وأرصادا من الحزن قائمة، فكت أرصادا، وحلت طلاسم، وفسرت رموزا استعصى على إدراك كنهها عمرا، أقول لك قولي هذا، وما من حوار بيننا اتصل. وما من

تقارب مادى بدأ. لم أعرف بعد أن اسمها فاليريا، وهذا حال ياصاحبى جديد، سأبسطه لك وأشرحه، على أفسر الأمر لنفسى قبل أن يكون لك، هذا حق يا أخى والله، فبقدر ما هى محدثة، بقدر ما هى قديمة، موغلة، كنت مجروفا صوبها، وما من صاحب أو معين..

قرب الغروب، قبل رحيلنا بساعتين، قاصدين بخارى، أقيم حفل صغير، خطب البعض، وتكلم مهندس من بيرو عن الصداقة بين الشعوب، وتحدث البناء الهندى بلغة الأوردو، وقام صاحبى فتكلم عن الحضارات القديمة وعن المتجهين صوب المستقبل، التقط آخرون صورا، لكننى كنت نائيا، ما تم ترتيبه وما قيل ليس إلا الإطار الأتم لوجودها قربى، اكتمل انفلاتى من الزمن بعد أن صار لى توقيتى الخاص القادم منها، شيئا فشيئا تصبح محور تقويمى، ولب شدى وجذبى. حتى إذا انتهت الكلمات. دخل شابان من أهل الناحية، عيونهما أسيوية، وصمتهما باد، يحنو أولهما على طنبور. ويجلس الثانى إلى سنطور، اثنان يا أخى اثنان لا غير، لكننى لم أتصور قط أنهما سيفجران حزنا معتقا، ويستنزلان أنينا كونيا بمجرد أن يجرى الأول قوسه ويداُعب الثانى أوتاره، أصغيت إلى خلاصة الشجى المتوارث، إلى لب العويل النائى، إلى قدح الشرر الناتج عن عدو خيول التتار الغزاة، إلى الأسى على بنيان قام ثم تهدم، وفراق قسرى جرى، وتباعد آلاف عاشوا معا. هذه مناطق عبور، أقدام شتى دهستها. اعلم يا أخى أن ما انقضى

عند الآخرين باق داخلى وإن استتر. مالم يره غيرى أوليته عنايتى، ولأن هبوب الصبابة بدأ، لأن النذر لاحت لأنها على مقربة، لأننى على مرأى منها، اجتاحتنى نسمات البدايات، ملت تجاه العازف، مورجت يدى اليمنى وأشرت باليسرى، حتى إذا جلا عازف السنطور أوتاراً، وفض أسرارا، وأطلق نغيمات طال احتجابها. تحرك على الشجن المكلوم فى أغوارى فتأهبت للإقلاع، فلم يعد ما يحيطنى بقادر أو كاف أن يحتوينى، كدت أو شكت، لكن ما جعلنى أحجم إلى حين، انسياب بنية قدت من أطياف ورؤى، منمنمة، دقيقة التكوين، عصفور تخلف عن سربه، أو خلى حرد بعيداً عن أهله، واحدة من بنات الأوزبك، متدثرة بغلالات من زمن سحيق، لم تفد علينا من مكان، إنما جاءت من حقبة تتلوها أخرى حتى حطت فى وقتنا تبتسم للكافة فى وقت واحد ، فهى هنا وهى هناك، هى عندى وعندها وامامهم، مست يمين القاعة ويسارها فى وقت واحد، بسطت حضورها وللمته، لم يكن رقصها أداءً حركيا تلميحا وتصريحا. شرحا ومعنى، على شفتيها ابتسامة فرحة بنجاة من أهوال تاريخ سحيق، كان يمكن ألا تفيض حيويتها تلك لو أن أحد أجدادها الأقدمين أبيد فى غزوة. أو فنى فى وباء، هذا حالى أيضا. فلو لم يتعاقب أسلافى لما وصلت إلى لحظة ألقى فيها تلك البنية. طق عندى شرر الفرح، البهجة الغريبة لأسباب شتى. لإدراكى أننى على وشك الخروج من جب سحيق ألقيت فية منذ مرضى وما أورثنيه من إعياء وتدقيق فى الحساب.

ولعلك تذكر ملامحى عندما عدتنى مرات يا أخى، حماك الله من السوء وأقصى عنك النوائب والمحن. ما أصفه لك لحظات لم أعد لها العدة. ولم يخطر ببالى المرور بها عند بدئى الرحلة، إلا أننى عزمت على دفع نفسى فى خضم اللجة مع جهلى المطبق بالعوم، طافت البنية الأوزبكية ملامسة اليابسة بأطراف أناملها، حتى دنت وتمهلت وكنت أول من أشار إليه ليشاركها، قمت غير خجل، بسطت حضورى وأشهرت على الملأ وجودى، تبعتها فكنت الظل الوارف لأضل بديع. درت حولى، حتى إذا وقعت عينى على من أحوم حولها، وأتقرب من مشارفها، سكنت، أو قل أخذت عنى، هى متطلعة إلى، مبتسمة، متجهة إلى بملامحها المتسقة الصريحة، تجاور الرجل الهندى، ومهندساً سويدياً، تتوسط قارتين، حزمت أمرى، لملمت حالى، قطعت المسافة الفاصلة، خطاى غير معهودة أو مسبوقة لا منى ولا من غيرى، حتى إذا واجهت ملامحى قسماتها، ولم يعد الفراغ الذى يفصلنى عنها كافيا إلا لمد يدى إذا شرعت فى المصافحة، فردت قامتى تأهبا، وتمنيت لو أن جذعى ساعدنى، لو أن لياقتى واتتنى حتى تبلغ انحناءتى حدا لم يبلغه إنسان قبلى، وعندما اعتدلت حدقت مباشرة إلى عينيها، فى وجهها الذى اكتسى خجلا، رصدت طيف سرور فاستبشرت، هكذا بدأت مراسيمى، وأنبأت باكتمال أوراق اعتمادى، ملامحها الرحبة لم تحو استنكارا أو نفورا، غير أن دهشة خفيفة بدت، إلا أن ما أعاقنى عن التتمة تصفيق القوم، يحيون إقدامى، لم

آت أمرا فريا، إنما أسارع إلى المجاهرة، فالزمن غير مساعد، وعلى قدر المدة تكون العدة، ولو أن أيامى ممتدة فى تلك الديار لتمهلت الخطى، لكننى الآن مرغم، فما يمكن الإفصاح عنه خلال أيام وأسابيع علىّ إنجازه فى دقائق. وتلك الروابى التى فى حاجة إلى أوقات طوال لعبورها يجب اجتيازها فى لمح البصر، عدت ألزم مكانى، مال على صاحبى، أو قل أحد أساتذتى. قال إننى كنت صادقا فى تعبيرى، تطلعت إليه، ومنى إليه تدفقت المودة وزهت أسباب الصلة. تأهبنا للانصراف، لاحظت توجهها إلى أقصى الغرفة، قعدت إلى بيانو عتيق، اختبرت أوتاره، بعثت أناملها أنغاما متسقة، إلى جوارها وقفت اثنتان من زميلاتها، والله يا أخى لم أرهما لحظة العزف، لم أتنبه إليهما إلا فيما بعد، بعد إيابى من رحلتى، وتأملى الصورة، اكتشفتهما، عجبت، أين كانتا؟.. ولكننى أدركت أننى لم أر إلا هى، ولم يستوعب بصرى إلا طلاتها وطلعتها، ذلك أننى أشرعت آلة تصويرى، لم تبد ممانعة. إنما مال وجهها ناحيتى، فأسفرت عن زاوية لم أعهدها منها أثناء تطلعاتى، أظن أنها قالت: تعلمت العزف فى الثامنة. ردًا على استحسانى، وأظن أنها قالت: الموسيقى لازمة للمعمار..

اعلم يا أخى أننى آثرت الظن إذ يصعب على التحديد، إذ لقيت نفسى فيما بعد أهفو وأحن، أستعيد أموراً لا قدرة لى على تبيان كيفية وصولها عندى، فبعض مما عرفته عنها أو منها أدركته بالمحاورة، أو بالنظر، بالنطق أو الصمت، بالإيماء

أو التصريح، حتى الوقائع تغمض على، ومن ذلك معرفتى لها عند ظهورها بين شجرتى التوليب، إذا أستعيدها الآن، أوقن أننى كنت أعرفها من قبل، وأننى لم أنجذب إلى مجهولة منى، لكن متى وكيف؟ هذا ما لا ألقى جوابا عليه، صدقنى..

مما خبرته يا أخى أن العلاقة تفيض بما لا يدخل فى نطاق الوعى أحيانا، خاصة إذا بدأ التواصل، وشرع فى التوالج، عرفت ذلك، جرى فى أيام بعيدة أن جمعتنى الظروف ببنية هيفاء، دقيقة المحيا، أجهل لغتها كما لا تعرف لسانى، عدا كلمات معدودات من الفرنسية، دامت الصلة أياما سبعة، فى نهايتها كنت ملما بتفاصيل دقاق عنها، وكانت تعرف عنى، هذا ما أحتاج إلى فيض لتفسيره، وإنى مورد أمرا لطيفا أقصه عليك... إذ حدث أن وقفت يوما فى صحن مسجد الناصر قلاوون مشغولا بالمعاينة، عندما دخل رجل أجنبى يتحدث الألمانية، ولما كنت أجهلها لم أقدر على المجاوبة، إلا أن عاملا أميا من أهل الناحية، توقف بدافع من فضوله، أو رغبة فى المساعدة، فوجئت به يحرك يديه، ويشير بأصابعه، ويهمهم، ثم ينقل إلى وعنى، أخبرنى عن هوية الرجل، واستفساراته عن المبنى، وهذا مما حيرنى، حتى جربت فلقيت الوسائل شتى والسبل عديدة. أرجع إلى ما أنا فيه، إلى من صارت محورى ولب قصدى، فأقول إنها جاوبتنى بما قلته بعد استحسان عزفها. خرجت من المبنى، لحقت بصاحبى. استنشقت هواء باردا، حوائجنا فى السيارة، اكتمل تأهبنا للإقلاع صوب

بخـارى، إلـى الزمن المطوى، لطالما قـرأت عن مـدارسـهـا ، عن قيامـها وأفـولـها، ثم انبعـاثـها، طالعت صـور قـبـابـها، وأسواقـها، وعقود مبانيها، وتصميم قلعتها، أمضى إلى المدينة العتيقة وقد بلغت مـدى بعينه، ألم تجاوبنى، ألـم تواجـهنـى باسـمـة لاح منها مـالا يمكننى إغـفـاله، أليس بداية الضـوء وهن؟ رسـول الغـيث قطرة، أول السـعى خطوة، إذن، لا يبـقـى إلا العـزم، ودعـاء بإقصاء بغتات المقادير..

مساق المسلسل

... يا أخى، أجج الله توقا من يحبك إليك. وقربك ممن تهوى، وقوى يقينك، وأعانك على سعيك، اعلم أن رحيقاً عذبا سلسبيلا بدأ يسرى عندى، وإنك لعالم بحالى القديم، وعندى الرغبة أن أحدثك عنه، لكننى مرجئ ذلك، فلأن الظهور اكتمل، على المتابعة، اعلم يا صاحبى أن اليوم الذى شهد تمام تجليها فى تلك المدينة الأسيوية، اقترن بحدث، إن بدأ منفصلا إلا أنه متصل. عند بدء رحلتنا، وقبل ديارنا، جاءت ابنة صاحبى مودعة، انتحت بى ركنا وأسرت أمرا، أخبرتنى أن عيد ميلاد والدها سيحل أثناء سفره، سيكون هو فى ناحية وهى فى ناحية، رجتنى أن أنوب عنها فى تقديم زهور إليه. إن هذا سيسعده جدا، قلت لها ألا تقلق، إنه ليس فى موقع الأستاذ

مني.. إنما الصاحب، وهذا لم يتم إلا بعد سنوات طوال. تقلبت فيها الأمور، وشهدته يخوض حربا ضد لصوص المقاولة، ومن يفسدون الذوق السليم، لا محرك لهم إلا جشع الربح، غير عابئين بأحوال العباد. وللصحبة عندي يا أخى منزلة أكيدة، كما أننى أضمر له محبة، فهو ممن مدوا لى العون وقت الشدة، وبخلاف ذلك هو ممن ثبتوا فى الطريق، ليس ممن مالوا مع الهوى أو حادوا، ولهذا تفصيل يطول، أقصر عنه خوف الإملال. عند بداية نهارنا فى طشقند سألت مرافقتنا الروسية عن مكان لبيع الزهور، أفصحت عن غرضي، وعدت أنْ تدلنى، نصحتنى بتقديم عدد فردي، خمس زهرات أو سبع، قالت إنهم يتفاءلون بذلك فى هذه البلاد. أما إذا وعر الظرف وحل الحزن فتكون الأعداد زوجية، وهذا غريب على، أثناء تجوالنا قادتنا إلى ناصية تصطف عندها مناضد فوقها سلال الورد، وأصص من الخزف، مددت الخطى، ابتسمت المرأة العجوز، تغطى رأسها بمنديل نقوشه شرقية. تناولت سبعاً، فى نفس اللحظة تقدمت مرافقتنا، وعندما لمحنى معماري من الجزائر العربية خطا صوب الزهر، لم أعد بمفردي، أبدي الرجل تأثرا، تساءل عمن أطلعنا، ثم تدارك قائلا: لابد إنها ابنتى. احتضنته مقبلا، تبعتنى الروسية وهى مهندسة ممن يقمن على صيانة وحفظ المسرح الكبير، وأعقبنا الجزائرى، أما بقية القوم فوقفوا يرقبوننا باسمين، حتى فرغنا، فتقدم نحو صاحبى.. الكولومبى، والهندى، ورسام سنغالى، أما هى فقد أقبلت

مبتسمة، حيث وهنأت، كان ذلك أول النهار في طشقند، ومع اكتمال المساء حللنا بخارى، تبدل الوقت، بحساب الساعات ينقص واحدة عن طشقند، وثلاثا عن موسكو، وأربعا عن قاهرتى، أما بمنطق الدهر فلا حد، بخارى يا أخى لها رجع عندى قديم، من المدن التى ظننتها بمنأى، خارج المتناول لشدة البعد، وانقطاع الطرف المساعد، كما ارتبطت عندى بجمع من القوم النابغين، ونوع محبب إلى من الأبسطة النادرة، ألوانه أصلها واحد، الأحمر ودرجاته، العقيقى والياقوتى والشفقى، أما زخارفه فهندسية. مستطيلة، متقاربة، متباعدة، شأنى مع ذاتى، مع من أحببت، بها شبه من نوافذ تعد ولا تفصح، أما الإطار فمحكم كالظروف المقيدة، نزلت بخارى، فجلت بنظرى عبر فراغاتها، كان حضورها مدججا بالماضى، جئناها ليلا فلم تكن المعالم بادية، لا تفصح المدن عن مكنونها للغريب فى العتمة. تجدها مضمومة، غير منبسطة، حتى إذا انفردت بنفسى فى غرفتى، وتطلعت عبر الشرفة كدت أوقن أننى جئت الديار يوما، وأننى تنسمت هذا العبير الصحراوى زمنا لم أعشه، كدت أستسلم لما أوشك على الإصغاء إليه، غير أن حضورها القصى دعانى، ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى. كنت نادما على أية دقيقة تضيع دون أن يقع عليها بصرى، أسرعت إلى المطعم، لمحت صاحبى قاعدا وبجواره مرافقة الجمع. والمعمارى الجزائرى، وأستاذ فى هندسة الجسور من سيام، جلت بنظرى لأحدد مكانها، لم ألمحها، غير أنها لم تتأخر،

ولجت القاعة مبسقة فارهة، لا ترتدى المعطف الرمادى الذى يخفى معالم وجودها الحسى، ترتدى قميصا من الصوف، تتعاقب ألوانه كموج البحر فى مثلثات متداخلة، أحمر صريح، وأبيض ناصع، وأسود قاتم، القميص فضفاض ينسدل على كتفيها، أما بنطلونها الأخضر القطيفى المضلع فيخفف من انفلات جسدها الأنوثى، بلغنى حضورها الحسى القوى على البعد، وإن لم أقف على شواهده، ولم أمس تخومه، قعدت بالقرب، يجاورها الهندى، ومعمارى من بيشاور، راحت تتابع رقصا عذبا، وغناء شجيا يمت إلى ماضى الناحية، كنت أحوم وأحط عندها، إما بنظرى أو حواسى الأخرى حتى جرى مالم أتوقعه، توقف العازفون ومالت المغنية الشابة هامسة لأحدهم، وعندما استدارت لتواجهنا، فوجئت بلحن يمت إلى ربوعنا، أغنية شائعة تنادى عاشقا باسمه، إلا أنهم غيروا، فكان اسم صاحبى بدلا من اسم المحبوب، غمرتنا بهجة إنسانية، وقفت محييا مرافقتنا التى دبرت ذلك. بانت السعادة على وجهه وكان ذلك من ألطف ما مررت به، فى غمرة الود بسطت يدى داعيا، ردت بابتسامة، ابتسامة لم أعهد مثيلا لها، إن جاز الوصف فهى رحبة، دالة، مدلة، عند طلوعها من أفق ثغرها تضىء وجنتيها، ثم تترقرق فى عينيها، وكافة ملامحها وتنتقل إلى ما حولها، يشع عبيرها، فيه قبس من سر تدفق هذه الحياة الدنيا، قمت، تقدمت منها، أشرعت ودى فلبت، نظرت إلى رفيقيها، قاما يتبعانها، خطت فصافحت، اتسعت الجلسة فشملت،

واجهتني فأتيح لي طول التملي، أدركت يا أخي أنني على وشك الاقتراب من مشارف لم يسبق تعيينها، لكنني متأهب لحط رحلي. لإقامة مضاربي، للخروج على الناس بادئا عرضي، كنت موقنا أن لون الدماء يتغير في عروقي، وأن روافد نهر قلبي تتخذ مسارا جديدا، كذا نبضي، وحواسي كافة، هنا لا أجد مفرا من الوقفة، حتى أطلعك على بعض مما وددت ورغبت تفصيله لك، فكثير من أموري لم تحط بها علما، بعد أن باعدت بيننا الظروف زمناً، واغترب كل منا، أنت في سعيك، وأنا في مقامي..

تفصيل

.. اعلم يا أخى، جنبك الله المحن، وأقصى عنك الشدائد، وخفف هجيرك. أن ماء فيضى كان قد بدأ غيضه منذ زمن، وأن شحاً أدرك دفقى، وأن أوصالاً تقطعت عندى، وكثيرا ما قرأت شكواك من الغربة، ولكنك لم تدر وأنت تبثنى همك أننى مغترب مثلك،، وأوعر النفى ما كان فى محل الإقامة، وأوحش الوحدة ما كانت فى الجمع. أقول يا أخى إن الأسباب تجل عن الحصر، منها ما تعرفه، وما تجهله، منها ما سأذكره لك، ومنها مالا أقدر على تقييده، تكفينى الإشارة، تعلم يا صاحبى أن الظروف لم تكن قط سهلة منذ البدء، وقد ربينا معا، ودرجنا، وأحببنا وخططنا لتحقيق الحلم. لكن الظروف لم تكن مساعدة، لست بحاجة لأن أحدثك عن أيام دراستنا الجامعية، وهذا التدفق، وتلك الحيوية، كان الحذر نائيا، والبوح من خصالنا والمجاهرة، والشعور أننا نتحمل مسئولية إصلاح هذا العالم، وأن مصائر شتى أقدارها حول أعناقنا، وأن أهلا لنا غير قادرين على إسماع أصواتهم لمن بيدهم النهى والأمر، والحل والعقد، آثرنا أن ننوب عنهم، لن أستعيد أيام المعتقل، فلطالما أفضت فى سرد أحداثها. وما جرى لنا فيها وما قاسيناه من وحشة وعزلة، وإرغام قسرى لنفض أختامنا، هل تصدقنى إن قلت لك يا أخى إن أيام السجن تلك تهون عند تذكرها إذا ما قورنت بأيام تلت كنت فيها حرا، طليقا، لا أسعى

على هواى داخل موطنى فحسب، وإنما أسافر إلى بلدان شتى، أيام إدراكى بأن ما يجرى مهول، وأن التدهور يتم بأسرع مما نتصور، وأن التغير إلى الأردأ والأسوأ يلقى المساندة من قوى تفوقنا بكثير، هذا مع وقوع الخلف والمعاكسة بين من قدرهم التصدى والمحاربة، وأصعب ما يواجهه إنسان، إن يلقى نفسه وحيدا فى مواجهة عتو طاغ، ولا مبالاة جارفة، وفساد شامل، فيدرك ولا يفعل، يعى ولا يتحرك إلا بقدر إن استطاع إلى ذلك سبيلا، والله يا أخى لم أتقاعس قط، إذ شاء حظى واختيارى أن ألزم الصفوف الأمامية، عند الأقاصى، وعندما بدأت كان الواقع كله ميدانا لى، حتى حلت سنوات العقد السابع فتدنت الأحوال، وتقهقرت الأمانى، وتقلصت الساحة حتى ضاقت فأصبحت ذاتى، صار همى أن أقيم المراصد والقلاع على عجل، حتى يبقى الجوهر سليماً، والنواة بمنأى، كلفنى هذا الكثير يا أخى، حتى جرى لى ما سمعت أنه جرى لآخرين وظننت أنه لن يطالنى قط، وإنى لقاص عليك واقعة لم أخبرك بها، ولم أفصلها لك. ربما لأن الفرصة لم تسنح لقلة لقاءاتنا. وتباعد المزار بنا، تعرف أننى خبرت عللا كثيرة، وأمراضا، غير أن ذهابنا إلى الطبيب لم يكن إلا إذا دنا المرض من حد الخطر، بل كنت إذا سمعت بصاحب أو غريب مضى إلى طبيب يداوى النفوس أسخر فورا. هل تدرى أن الأيام مرت بى حتى سعيت ذات غروب إلى واحد منهم. كان ذلك قبل سنوات تسع من اكتمال ظهورها فى مدينة طشقند النائية بين شجرتى التوليب، فى هذا العام، ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، ضاقت على الأرض بما رحبت. وبدا الوضع الجاثم أصعب وأثقل من أن نبدله فى لمح البصر كما نرغب،

فى تلك الليلة كانت الأحوال كثيرة على، والظروف متكأكئة، كنت بين النوم واليقظة عندما قمت فجأة قاعدا فى سريرى، اضطراب غريب فى أمعائى لم أعهده وأوعر الآلام ما كان غير مسبوق. بدأ هبوط لين. دقيق. لكنه مخيف، مدجج بالنذر، بدأ ارتجاف أوردتى، ونفور نبض قلبى، الأدهى والأمر وعيى المكتمل أن النهاية ستتم بعد دقائق، بل قل لحظات، وهنا لى وقفة، فربما حان أجلى بعد خمس ثوان من تسطيرى هذا، لكننى مادمت لا أدرى فما من جزع أو خشية، أما لو علمت الآن أننى سأقضى بعد خمسين عاماً كاملة فى يوم بعينه وساعة محددة، أؤكد أن حالى سيصير نكداً، سأحصى كل لحظة ما تبقى، أقول قولى هذا وأنا واثق بأن ما تبقى أقل مما انقضى، وأن ما صار ورائى أطول مما سألقاه أمامى، وإنى لمحدثك يوما عن القضاء والقبض فى رسالة أفردها خصيصا، إذ شغلت بالأمر جدا منذ هذه الليلة، أقول يا أخى إن الإنسان يظل مطمئناً، راضيا، حتى لو أن أجله سيحين بعد دقائق. لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت؟ وهذا من أجل النعم فانتبه!

دهمنى فزع، صار حضورى كرياً، غزانى فزع أكبر، تزايد وعيى بأن ما تبقى لى مجرد ومضات، أننى سأقبض هنا، أن زمانى انتهى، وهنا بزغ عندى الهرب، أن أولى فى الأرض لعلنى مفلت من اللحظة، مع تمام علمى ويقينى أنه يدركنا ولو كنا فى بروج مشيدة، فكان حالى مثل الرجل الذى هرب من الموت إلى الهند، وتلك حكاية طالعتها فى كتب الأقدمين، وإنى لقاصها عليك..

حكاية دالة

يحكى أنه فى ضحى يوم، كان سيدنا سليمان يجلس على عرشه يحيط به الإنس والجن، عندما دخل عليه رجل من رعيته مفزوعا مضطربا، قال لسيدنا سليمان الحكيم:

- «الحقنى.انقذنى يا مولاى.».

تعجب سليمان متسائلا:

- «ماذا بك ؟»

قال الرجل إنه كان فى الطريق عندما رأى عزرائيل ملك الموت، نظر إليه شزرا وبدا حانقا، غاضبا، منذرا بالشر، تملكه رعب، أدرك أن أوانه دنا واقترب، لذا يرجو سليمان الحكيم أن يأمر الريح بحمله إلى الهند، إلى أقصى أرض هناك، حتى ينجو من الموت.. رق سليمان له. أمر الريح فحملته فى إغماضة عين إلى الهند.. بعد قليل ظهر ملاك الموت فعاتبه سليمان قائلا:

«تسببت فى غربة أحد رعيتى ونأيه عن وطنه، لماذا نظرت إليه غاضبا عندما قابلته، لماذا أرجفته؟ »

قال عزرائيل..

«لم أنظر إليه غاضباً، إنما نظرت إليه متعجباً، لأن الله أمرنى أن أقبض روح هذا الرجل فى الهند، فلما رأيته تعجبت.. كيف سيصل إلى الهند وأنا مأمور بقبض روحه بعد لحظات؟..»

رجعى إلى ما انقطع

ـ فزعت!

هرعت إلى أقرب باب إلى يؤدى إلى الشرفة، اتجهت إليه، وعندما شرعت فى اعتلاء السور أدركتنى والدتى، أيقظها حسها الأمومى وما أحدثه فتح مصراع الشرفة من ضجيج، كنت أبغى الوصول إلى الطريق بأقصر وأسرع وسيلة، حاشتنى، صرخت فدب فى وعيى الروح الحافظة، انثنيت إلى الداخل مبتلا بعرقى مرددا..

مازلت أحيا.. مازلت أعيش..

فى عصر اليوم التالى قال لى الطبيب المداوى إن القلب سليم، وإن علاج العلة يختص به أطباء النفوس، هكذا سعيت

بقدمى إلى أحدهم، أصغى، دون ملاحظات شتى، ثم أطلعنى على ما خفى على، ما مر بى أعراض اكتئاب شديد جاثم على. وصف لى أدوية ونصحنى بخطة، أن أغير مسارى، أن أبدل الإيقاع، هذا ما قاله لى، غير أن ما أدركته تلك الليلة، مالم ينفذ إليه هو، مالم أفض به حتى لأمى، مالم أبح به من قبل، وعيى أن احتضارى بدأ هذه الليلة، علمتنى التجربة والاطلاع على أحوال الآخرين، أن البعض يبدأ احتضارهم فى الثلاثين أو دون ذلك، وقد يمتد بهم العمر إلى الستين، إلى السبعين، وفيما تلا ذلك عرفت أعراضا شتى، نمت أحيانا وعندى يقين أن النهار لن يطلع على، قمت فزعا من نومى، خشية الموت ودمعى نازف، عبرت طرقا أراها بعينى من سيبقى بعدى فى هذا العالم، أشدت عمائر لم أثق بأننى سأتمها عند وضع أساساتها، وعندما اكتمل يتمى بفقد أمى، انهار حاجز كنت أعده حاميا، يحول بينى وبين إدراك العدم، وعندما طق الألم وسد وريد ساقى، قال لى الطبيب، إنك محظوظ، كان ممكنا للجلطة أن تتوقف فى موضع أشد دقة، قال إن هذا بمثابة إنذار، طلب منى ما يستعصى على، ألا أنفعل، أصغيت ولم أعلق، وخلال اضطجاعى أربعين يوما أيقنت أننى قطعت شوطا، نال منى النصب، هدفى تعب، نأيت عن الأصحاب، وندرت أوقات الرفقة، وشحبت المحبة، وهذا كله من علامات عصر انقلبت فيه الأحوال وصعب عيشى، وظننت كساد سوقى، وفساد متاعى، واعتراض ركبى، وانقضاء الأكثر وبقاء الأقل، صعب حالى، ووعر ظرفى وبقى الأمر فى شدة حتى هذا الفجر، حتى مطلع النهار فى تلك الأقاصى الأسيوية، وبتراثى الموجع هذا واجهت إشراقها، وحضورها الفتى، البهى، لعل وعسى!!

إفصاح

اعلم يا أعز صاحب - رقق الله خواطره - أنها واجهتنى. شغلت فراغا أمامى بضيائها، شددت رحال بصرى صوب ملامحها، وعمق حضورها، محاولا التمكن من نضارتها، وغرابة عينيها الرحبتين، الطاقتين، النورانيتين، حيث يتطهر فيهما الضوء ويشف ويرق ويرتد إلى عناصره الأولى، حتى هذه اللحظة لم تكن تعرف عنى شيئا، كانت تجهلنى، لا من حيث صفتى واسمى، لكن جوهرى أعنى، وإن خمنت إدراكها لما يتطاير صوبها من شررى، من وهج وألق، كنا ما زلنا فى غمرة احتفالنا بصاحبنا، جاء رفاق الرحلة. تضاموا، صرنا جمعا، أنشدوا فأنشدوا، لوحوا فلوحنا، شاركت من بعيد وإن كنت على مقربة، كان انشغالى يتزايد، كنت مشرعا حواسى

لإدراكها، لاستيعاب جلوسها، تراجعها برأسها المائل قليلا، ابتسامتها التى تطل فجأة ساعية صوب العالم بأسره، فما البال لو خصت شخصا بعينه، سلكت طرقا شتى صوب ابتسامتها تلك، تارة خلسة، ومرات مباشرة، علانية، كنت فى عجلة، فالوقت محدود، وعندى حشد لابد من دفقه وإيصاله فى فترة وجيزة. أما الآن فهمى الأول إعلان ولائى، وتبليغ فيضى..

اعلم يا أخى، أننى عند إطلالة أفراحى تتحرك أشجانى. تساءلت إلام سيستمر هذا؟ إلى متى وزمن الرحيل محدد، لم يتبق إلا أيام معدودات، بل أمعنت فتساءلت، كيف سأستعيد هذه اللحظات فيما بعد؟ وهل سأتقلب عليهاحسرات؟ كيف سيعصف بى شوقى، وكيف سيكون وجدى؟ هذا حالى أرى النهاية فى البداية، والأفول فى البزوغ، والغروب عند بدء الشروق، لا لحظات حميمة تأخذنى عنى، ولا اندماج كلى فى عمل يشغلنى عن جواى، فوجئت بصاحبى المحتفى به يقوم واقفا، يدعوها إلى رقص فتلبى، تمضى أمامه، متأودة، لها رسوخ، يتدفق منها كيان بأتمه، لم تكن تسعى، إنما تفيض، لم تكن تخطو، إنما تهمس لليابسة بموطئ وجودها الحسى، تابعت خطوهما حتى ولوجهما الحلبة، ملامسة صاحبى لكتفها، ابتسامته ساطعة، عنده بشارة دائمة وحماسة متأججة، يسعى الطلبة إلى محاضراته لجاذبية إلقائه، وحرارة خطابه، وجزل عباراته، يتجاوزنى عمرا بما يقرب من خمس قرن، غير أنه فى حركة عنى، متدفق الانفعال باديه، صريحه، ينفذ إلى

الآخرين عبر كلماته، على نقيضي، إنما يكون ذلك عندى بصمتى، بانفجارى المفاجئ، أتابع خطوهما، تلاقيهما، تباعدهما، تحاور جسديهما، يميل المعمارى الهندسى فجأة، هامسا.. «معجب أنت بها؟».

فى صوته النحيل ود، رغبة فى القربى، لم أراوغ، أومأت، قال باختصار دال، شأن من يبصرنى، من يطلعنى على خبايا لأقرر، لأحسم خيارى، قال إنها فى الرابعة والعشرين، متزوجة حديثا، تحب زوجها، إنها متخصصة فى ترميم المبانى القديمة، صمت لحظات ثم قال، إن المرافقات كلهن ينمن فى حجرات متقاربة، كل منهن بصحبة زميلة لها. أفضى ثم تطلع إلى، إلا أننى لم أعبأ، فما أتأهب له، ما أشرع فيه لن يدركه من يعرفنى، فكيف بمن يجهلنى، عندما عاد صاحبى المحتفى به. مال على هامسا:

- «ادعها للرقص..».

تطلعت إليه مضطربا، كأنى خشيت أن تكون سمعت اقتراحه مع أنه أفضى إلى بلغة لا تعرف منها حرفا، إننى لا أتقن الرقص فكيف أجرؤ. فكأنى مقبل على ارتداء لباس غيرى، عاود صاحبى الهمس..

- «هذا لا يليق..».

أعى أننى من جهة، وهى من أخرى، أننى قادم من زمن غير زمنها. ميراثى مختلف، بوهجها تبدو فى بداية، أما مفتتحى

فقد أغلق منذ حول ناءٍ، هى فى إقبال، وأنا فى إدبار، هى فى قلب الراحلة، وأنا متعثر الخطى، يمكن أن أتخلف فى أية لحظة، فأية كهولة مبكرة نالت منى، وأية شيخوخة أدركتنى قبل الأوان، فى هذه اللحظة انتبهت إلى تطلعها صوبى، بدأ حضورها مختلفا، مغايرا لما كانت عليه منذ دقائق، إنها مترقبة، متوقعة، كأنها مشرفة من عل، انفراجة شفتيها لا تلحظ، أما أفقها فرحب مضىء ..

- «أنت مخطئ إنها تنتظر..»

بما أننى اعتبرت وجودها محطى، وشرف غايتى، فلماذا لا أسلك الدروب كلها، ما أعرفها، وما أجهلها، فلأتغاض، أتخفف من أثقالى، فلأعد ترتيب مكنونى. فلأبسط ما تيسر من أمرى، قمت واقفا..

- «أتدعونى؟».

جاوبتها بنظر رق فشف فدل فأفضى..

- «إذا سمحت..».

بسطت يدى، تقدمتنى، عندما دنوت، لم ألمس صوف قميصها إنما بدأت أتنسم مشارف وجودها الحسى، منه تسريت تجاهى إشارات وإيماءات، أثق بأنها لا تعى من أمرها شيئا، كما أن تفصيل القصد منها مبهم وإن أدركت محصلته النهائية، بدأ القرب، فلما ضاقت المسافة بينى وبينها .. وصلنى

من أنفاسها بريد مفوض. غير ذى طوى. ينبئ القاصى حتى بعبيرها، فما بال الدانى المتلهف؟، منها بدأ سنها لم أعرفه عند جلوسها فى مواجهتى، وحضور مغاير لما طالعته منها عند سعيها اليوم فى بخارى، اعلم يا صاحبى، أننى إذ أخط لك هذا الآن، إذ أستعيد الشوارع العتيقة، فلا أراها إلا مقترنة بها، هى فى البؤرة، ولب المركز، أذكر امتداد الصيارفة القديم المبانى على جانبيه، وتوالى القباب، فلا يتكشف لى منه إلا بمقدار تتابع خطاها، وإذا توقفت تراجعت برأسها، وهفهفت شعرها الجميل، فإن رؤيا ذاكرتى تتوقف معها، تجول صوب ما كانت تنظر إليه، حتى إذا خطت فى السوق المغطى تبعتها خواطرى، وشرعت فى ملاحظة البنيان، إذ أستعيد مدرسة مير عرب التى تقت زمنا طويلا لرؤيتها، والوقوف على معمارها، أراها بداية عند مدخلها، تلج إليها بقامتها السامقة، تتمهل عند الجدران المنمنمة فأتمهل، ومن مركزها أرحل هنا وهناك، أما الزاوية التى اختارتها لتنظر منها إلى مئذنة كش الصاعدة إلى ذروة الفراغ، صوب لب الأعالى. فنفس الزاوية التى أستعيد منها مرأى المئذنة الآن، المئذنة وهى متواجهان، وما بين عينيها والبنيان الملتف حوار وخطوط اتصال، أما الساحة التى يخيم عليها هجير قديم، وفراغ خفى. فتوشك أن تردد أصداء الأقدمين الذين عبروا، وتوقفوا هنيهات أو حقبا، الذين قدموا آمنين، أو الذين هرعوا، أو الذين جاءوا عنوة غازين، ومنهم، سيد المجتاحين، جنكيز الذى لا أدرى من أية زاوية تطلع إلى

مئذنة كش راكبا فرسه، قبل أن يستبيح المدينة ويطلق فيها جنده فيخربوها، فكأن هذا كله يا أخى لم يصل إلى زماننا إلا لتقف عليه هى، ولتقع عليه عيناها، أما مدرسة مير عرب، فبرغم بهائها وسموقها فكانت تنقص عنصرا، لم يكتمل إلا بوقوفها فى باحتها، وتأملها المتمهل للنقوش، والآيات، والعبارات، وانتظام الأبيات، فكأن الذين صاغوا التصميمات فى الحقب البعيدة، الذين أشرفوا على تشييد تلك العمائر، استطلعوا النجوم وأهل الخبر فأنبئوا فى حينه بمجىء تلك البنية ذات يوم، فراعوا ذلك، وانتبهوا إلى العنصر الناقص، حتى إذا وفدت إلى عالمنا، ونمت، وشبت، ورحلت، اكتمل البنيان، وتضافرت العناصر، لو أنك بصحبتى وأشهدت تجولها فى القصر الصيفى، انثناءها عند المنحنيات، وسماحة ملامحها عند نظرها النقوش لأيقنت أن المكان لم يشيد إلا لسعيها هذا. ولما خطر لك ما أظنه سيجول بذهنك لحظة قراءتك هذا، أنى مبالغ، أبداً يا أعز صاحب أبدا، اعلم يا أخى أننى فى حلبة الرقص طاف بى ما جربته. ذلك الترقب الذى يلزمنى عند جوازى عبر مداخل العمائر القديمة، والممرات المؤدية، حيث الصحن الفسيح بعد الممر المدهلز فكأنه الفرج بعد الضيق، أو اليسر بعد العسر، كنت أدع نفسى فى مساجد بخارى لأرصد توالى المشاعر على خاصة عند دخولى، كنت أشرع حواسى لالتقاط روائح المكان، فلكل معمار رائحته الملازمة، التى تمنحه خاصيته، وخلال هذا كانت هى متداخلة

بشتى العناصر، انبهارى بالواجهات السامقة لم يأخذنى عنها، ونفاذ العتاقة إلى صميمى لم يغيبها عنى. كذا مقارنتى لحظات الدخول، بدخولى إلى قبة قلاوون وضريحه، أو إلى مدرسة السلطان حسن، أو خانقاه برقوق المشيدة من توالى الأيام. المدثرة بصحراء تختفى رويدا أمام نمو المدينة، هذه الخانقاه التى أعشق، ملاذى من هجير عصرى وزمنى، عند اقترابى الأول منها لا أدرى، ولا أجد تفسيرا لإلحاح حضور هذه الخانقاه بالذات علىّ، ولحظات قعودى عند الظهر متطلعا إلى إحدى القبتين اللتين تتسلقان الفراغ العلوى العظيم. ربما ليقينى الخفى، أننى سأخلو إلى ذاتى هناك وأستعيد هذه اللحظات عندما تصبح زمنا مندثرا، لا أقدر على استعادته، وعندما يتزايد ضجيجى المكتوم، ويشتد كلمى!.

اعلم يا أخى، أننى بعد إيابى، وبدء وجدى، حاولت جاهدا استعادة ملامحها فعجزت، حتى الصورة الوحيدة ملك يمينى لم تسعفنى، بوثوق أقول لك إنه ما من صورة أو لحظة مستعادة يمكن أن تدل عليها، أو تظهر بعضها من جوهرها، فى كل لحظة تبدى مظهرا، وعند كل التفاتة تظهر جانبا، ولحظة انتقالها من وقت إلى وقت تسفر عن حضور مختلف، فبأيهم أستدعيها عندى؟ وبأى رسم أقربها منى؟ وما جهدى كله بعد نأيى، إلا الاقتراب من هذا الحضور المتغير، المتوالى، المفاجئ بما لم يدر به توقع، المحاولة وعرة يا أخى، أيمكن تلوين عبير الزهرة؟ أنقدر على رسم مسار تغريد الطير؟

أبوسعنا اقتفاء أثر لحظة ولت؟ تتوالى ملامحها ولا تظهر، في كل لحظة تولد من جديد، بعض من مكنون نظرتها مصون في صندوق غرارة قلبي، لكنني عاجز عن تمثله بعيني عقلي أوقن أنني لن أستعيدها حتى وإن التقينا مرة أخرى، فما كان منها كان، وما سيجيء، النظرة الحيرى أطلت وتلملمت، والطلة الوجلى قفلت وانتهت، والابتسامة الرائقة كانت ولن تكون حتى وإن دار الوقت دورته، وتذللت العقبات، وأذنت الظروف، هذا من عوامل مرارتي، غير أن لهذا الهم موضعه، فلماذا أتعجل؟ لماذا أثقل عليك؟ جنبك الله يا أخي كدوراتي.أما الآن فإنني منثن إلى ما كنت فيه، مطلعك على تدفق رقصها، على اضطرابي، على ميلها ونصحها، أن أدع جثماني على سجيته، ألا أكون عصبيا لكن هل تفك كلماتها ما عقدته سنون طوال، ولما أبدت ملاحظة أنني كنت أبدو رائعا في العصر، عندما واجهت البنية الأوزبكية تمهلت. كنت دانيا منها. محيطا خصرها بيدي، ولأنها النواة وأنا الجزيء، كان لابد أن أدور حولها. استعدت رجلا صعيديا شهدته ذات شتاء يرقص في ساحة معبد الأقصر أثناء مولد سيدي أبو الحجاج رضي الله عنه وأرضاه. كان رقصا عجيبا، متدفقا، رجوليا شامخا، قلت لها إنني لا أتقن الرقص. إنما دعوتها لأنني رغبت في القرب منها. قلت إنني لم تتح لي فرصة حوار أو حديث إليها وكنت مشوقا إلى التلميح ببعض مغاليقي، عند هذا الحد توقفت فجأة فأوشك الآخرون على الاصطدام بي. لم أعبأ، تعرف يا أخي

أننى عندما أنوى أمرا لا أتقاعس، لا أرتد خطوة، لا أحسب الربح أو الخسارة، فما البال وقد بدأ خوض اللجة؟ نطقت بما يدل على ما بدأ عندى، هل بدت عليها دهشة؟ ربما. هل بوغتت؟ ربما، ما أدريه أنها أجابتنى بهدوء راسخ:

- «وكيف أصدقك؟».

أوشك كل جواب على مغادرتى، خفت نفاد زادى من الأحرف، صرت نبضا. وتبسبست خفقا، بذلت الأقاصى حتى نطقت، قلت إن دليلى هو حالى، وليس لى إلا السعى، ولها الرفض أو القبول فلتمن أو لتغدق بغير حساب!.

قلت إن الزمن غير مساعد، والوقت ضاغط، والبراح ضيق فجل اعتمادى واتكالى على سلامة أحاسيسها وصفاء قدرتها على التلقى، ذاك حسبى! نظراتى اشتبكت بنظراتها، أنا ساع وهى مترقبة، هنا رصدت أمرا يستعصى على الإدراك، كنت فى لب فلكى، وعين توقيتى، ومن حيث لا أدرى أبحر مبتعدا عن مركزى القديم، أدنو صوبها هى القادمة من قلب المجرات سحيقة البعد، التى لم تكتشف بعد. ألا تهيم النيازك والشهب حتى إذا دنت من مجال للجاذبية يحس ولا يرى، يبدو أثره ولا يمكن الإمساك به، تهوى إليه؟ فمنها ما يدور إلى أبد أبيد، ومنها ما يحترق قبل ملامسة سطح الفلك، ومنها ما يستحيل بعضه ضوءا، ويسقط ما تبقى منه، وقد كنت أنا هذا كله، فأنا حائم، ماض، داور، مأسور، محترق بذاتى، منتقل من كينونة

إلى كينونة، لا راد لى ولا كابح، حتى إذا أفضيت، لمحت فى أفق عينيها بادرة مجاوبة ربما كان طيفا أدق من أن يرى، ربما ميلاد رائحة ندى، لم يغب عنى، مع أنه انتهى لحظة بدئه، إلا أنه وصلنى فبدأ عندى وكفى وصلصلت زلزلة! خبطت اليابسة بقدمى، فتفجر منى عهد قديم، وبدأ تدفق! درت حولى، ملت على، أقلعت تجاهى، تدفق قلبى المرهق يعدو وأثرى محاولا اللحاق بى، أما الموسيقى المتفجرة فولت، صارت ورائى، لم تعد مطاوعة فتلاشت الكينونة، ولاحت الحضرة، أما هى فراسخة، ثابتة فى جوهرها الدرى، تقف مائلة قليلا إلى الوراء، حضورها فى عل، دائما يا أخى مطلة حتى وإن أقعت، جاء صاحبى، قبلنى، قال إننى كنت رائعا، عدت إلى مقعدى أجرجر خطاى، قعدت، تتلاحق أنفاسى، ثبت منظرى فكأنى لم أتأجج، وعندما عاودت وجهتى إليها رفرف ما تبقى من قلبى، تلك ابتسامتها!.

فيما بعد تساءل صاحبى، لماذا كنت أبدو حزينا؟ لم أجبه فلم أكن أدرى، بل إننى لم أدر كيف انقضت اللحظات التالية، حتى انصرف القوم، وخبت أضواء المطعم، خرجنا إلى صالة الفندق أربعة، صاحبى، وشاب من أهل البلاد يتقن لغة لاوس الأسيوية وأنا. ومن قبل ومن بعد هى، مشت أمامنا، لها صدى وترجيع، أمام المصعد التفتت فجأة متسائلة:

- «ستنامون؟».

كنت مكدودا، كنت أتشظى بحزن غامض، غتيت، كنت أرغب فى الخروج إلى بخارى، بخارى الزمن القديم، غير أن مفازتى موحشة، لذا ملت إلى الانفراد بشجنى، يائسا من الظرف والوقت، أجاب صاحبى..

«لماذا لا نتم السهر؟»

كأنه يؤكد اقتراحها، تضمن تساؤلها اقتراحا بمد السهرة، واستنكارا خفيا لشروعنا فى النوم، حمت ببصرى حولها، مطرقة، طالعت منها جانبا لم أقف عليه، بدت ساهمة، راغبة فى تجنب أمر ما. أو الابتعاد عن ضجر يخصها. إذن، فى الأمر غصة، فى سماء الكون غيمة، فى صفاء النبع كدر، أبدى الشاب متقن اللغة اللاوسية حماسا، ولما طال صمتى توجهت إلىّ مباشرة بالخطاب.

«أطلب إليك أن تجيبنى...».

ولم يكن بوسعى إلا أن أمتثل وألبى!.

قـربى

أدام الله يا أخى جميل لطفك، وأتم الله خطو سعيك كما تشاء وتبغى، أقصى عنك الوحشة، وأدام لك قربى من تهوى، اعلم يا أخى أن فى الجماعة رحمة، وفى التئام الشمل أنس، وفى الاتصال دواء وبقاء، فى الانقطاع عدم، لا أذاقك خالقنا مر الوحدة وقسوة الانفراد، تبعتها والليل موغل هنا، مازال فى بدايته بمدينتى، هنا زمنى المؤقت، وهناك أيضا، أما داخلى فتوقيت خاص، لايدرى كنهه أحد، صعدنا إلى الطابق الثامن، من النافذة العريضة التى تتصدر الردهة أقلعت صوب المدينة، المعالم مبهمة، والحدود منطمسة، المدن لا تفصح عن مكنونها ليلا، غير أن ما تأملته خلال جولتنا النهارية سهل لى مرفأ

أبحر منه، حتى كدت أصغى إلى حداة القوافل الساعية إلى الصين عبر طريق الحرير، أوشكت على التقاط ركض خيول الغزاة، سماع انهيار الانقاض، وبقايا المعمار تتلملم من جديد، فكأن دمارا لم يقع، وغزوا لم يحدث، رحت أستعيد هدوء المقهى القديم، والأغصان المدلاة التى لا يمكن رؤية الواجهات السامقة إلا من خلالها، قعاد نفر من القوم فوق المصاطب الخشبية وأمامهم أطباق الزلابية، وددت لو شاركتهم، لو قضيت فى الجلسة مدة، لكن لم يدم تطلعى و لمس صاحبى كتفى، قال إن الدقائق العشر انقضت، كانت قد طلبت منا الانتظار هذا القدر حتى تتهيأ صاحبتها التى تشاركها غرفتها، مضينا عبر المر المؤدى. طرقت الباب. بدت، تسطع فى المدخل الضيق، ترتدى قميصا قطنيا شديد الالتصاق بجسدها، بنهديها النافرين القاسيين. لم تكن تحيطهما بمشد غير أننى لمحت دائرتى حلمتيها ضاجتين من خلال النسيج الرهيف، مشرعين، منهما تنبعث إيماءات لا تحصى، تخلت عن القميص الصوفى الفضفاض، كان يحجب ما يبدو منها الآن، ما أطالعه من استدارة ملساء لكتفيها، أما خصرها فبلغ من دقته أنه أوشك أن يكون رمزا، لماذا تخفى جمال تضاريسها؟ أتتعمد وهى مكلفة بمصاحبة غرباء وما من سابق علاقة بهم أن تموه دفائن كنوزها؟ إذن.. ماذا يستر هذا البنطلون القطنى، أخضر اللون، رجولى التصميم؟ لا إجابة عندى، فلم أكن قادرا على إدراكها جملة، على انتظار الأوان المواتى، وهذا قد يأتى أو لا

يأتى! على انتظار الزمن المناسب لجريان الماء صوب جذور النبات، الماء يا أخى يهب النماء والحياة للزرع، ولكن هذا الماء عينه لو غمره فى توقيت مخالف سيقتله، يذويه، كل شىء بقدر فلنتذكر! أدركتنى راحة عند ولوجى الغرفة، مساحة ضيقة، فى المواجهة باب يؤدى إلى الشرفة بجوار المدخل سرير ضيق لا يتسع إلا لشخص واحد متمددا، فوقه قعدت ناتاشا زميلتها تلك الليلة، دقيقة التكوين، هادئة، ابتسامتها كقرنفلة، تومئ ولا تتكلم، قد تلفظ كلمة أو كلمتين، لكنها طرف أصيل فى الصحبة، بجوارها قعد الشاب النحيل، من يتقن لغة لاوس، قال إنه تطلع يوما إلى الخريطة، لفت نظره موقع تلك الديار فى أسيا. بلد ناء عنه، بعيد، شغله، كيف تبدو أرضه وجباله وزنهاره وقبل هذا ناسه؟ حتى إذا التحق بالجامعة، بمعهد اللغات الأجنبية فرح وسر إذ لقى إمكانية دراسة لغة لاوس وثقافتها، أمضى أعواما أربعة، بعدها صار يصحب الضيوف القادمين من البلد البعيد، ومما سره وأرضاه سماعه ثناءهم عليه لإتقانه لغتهم، هذا المعمارى العجوز قال له صباح اليوم، أنت تتقن لغتنا أفضل منا! مازال ينتظر الفرصة لشد الرحال إلى لاوس.

فى الحجرة مقعدان، أحدهما قريب من الباب المؤدى إلى الشرفة وهذا ما ركنت إليه، كنت قادرا من خلال الزجاج أن أرى الليل البخارى العتيد. أما صاحبى فجلس فوق المقعد المجاور للسرير الثانى، الممتد بحذاء الجدار، فوقه تربعت، فى

الركن منضدة صغيرة ودفاتر وأوراق ونشرات سياحية، فوق الجدار صورة لأحد أبواب مدرسة مير عرب، طلاء الجدران وسط بين الأصفر والبنى، يمكن القول إنه فى لون ثمر النارنج!

إننى أطوف بك. وأصف لك، ويمكننى المضى، فأذكر لك أدق الموجودات فى تلك الحجرة التى ضمتنى وإياها. كنا خمسة، لكنه أول مجلس يجمعنا، صحيح هذا جمع، لكن إذا نما الأمر واكتمل السعى سنصير اثنين، ثم واحدا، لا يدرى أحدنا ذاته من كينونة صاحبه، كنا خمسة مظللين بالليل البخارى ثقيل الحضور، كثيفه، قبل أيام معْدودات كان كل منا فى ناحية، وسعينا شتى، رحت أحوم فى الغرفة مؤجلا الدنو منها بنظرى، لو سددت البصر لرسوت، ولو بدأت الحديث عنها والوصف، صعب على ما عداها هى المركز وسواها توابع، غير أن ملامحى لم تعكس ما يدور داخلى تعرف يا أخى أنه لقسوة ما مر بى، صار عندى مسافة بين الظاهر والباطن، غير أننى مهما أجلت أو تباطأت فمصيرى حتما إليها.

اعلم يا أخى الأعز، أنها عندما تربعت، لما صارت فى هذه الوضعية آلت إليها الصدارة، دار حولها المكان والوقت، صعب على يا أخى أن أفصل لك الحديث، لكننى سأحاول تجسيد لب ما جرى وكان، أنت يا أخى سيد العارفين باللحظات الحميمية، وليالى سهرنا فى المقاهى،

ووصلنا المغيب بالفجر والليل بالنهار، لم تزل ماثلة فى بالى تعرف أننا إذ نستعيد ما قيل بعد الانقضاء نذكره فى جملته

وليس في تفـصـيلة. نراه بعـد انقـضـاء الوقت بمعناه وليس بنصه، وبعد توالى المدة فى أثر المعنى يتضاءل المشـهد، تذوى التفـاصيل، لا يتبقى إلا الرحيق، الشـذا، سنا هَيِّن، واهن، من لحظات مرت بنا كان الواحد منا إذا شـهق خلالها شهقة لفرط انفـعـالة، يوشك أن يتـلاشى هلكا، وإنى لمذكـرك ببـعض مما ألمحت به، فالآتى لما يغيب عنى والتـغير يحـوم حولى فى ذروة الثبات، اللحظة فى آنيتـها عـدم مـحض، لذا عند مـرورى بهـا أطالعـهـا من بعـد قـصى، فـإمـا اسـتـعـادة لما انقـضى وإمـا اسـتـحـضـار لما لم يأت بعد، هكذا أرقب الانفـصـال فى وهج الإندمـاج، وأرصد العـدم فى ذروة الوجود، وهـذا مـا يقـضنى، الثبات المستحيل، والتغير القاهر، هكذا أطلت النظر إليها، ليس بعـينى فـقط، إنمـا بقلبى، بخـواطرى، بشـواردى، بوارداتى، أجتهد فى النفاذ إلى ملامحها، حتى أستعيدها عند نأيى عنها، الرحيل حـتمى، لـم أكن أحاول اسـتـيعـاب مـلامـحـهـا الحية، الجمـيلة، المتـدفـقـة بالطلاوة، ولكن حـضـورها أعنى، هى فى اللحظة ماثلة أمامى، ولكن اللحظة إلى انقضاء. بعد انصـراف إلى غرفتى، كيف ستبدو؟ كيف سأستعيدها؟ سأراها فى اليوم التالى، غَدا، قال قائل يوما..

لا مرحبا بغد ولا أهلا به   إن كان تفريق الأحبة فى غد

ولكن شـاء القـائل أو لم يشـأ، أنا، أنت، هذا أو ذاك، فـالغـد آت لا ريبْ، ومنقض، هكذا بعـد الغد حـتى بعـد البـعد، إذن.. كيف سأستعيدها بعد إيابى إلى موطنى؟ بعد أن تباعد القارات

ما بيني وبينها. كيف سأتذكر هذه اللحظات عندما يضعف حضورها في ذهني، وتصير ملامحها تلك مختلطة بخطوط ولحظات شتى، هذا صائر لا محالة، أليس مصير كل تلاق إلى فراق؟ والفراق بداية العدم، وقد بهت عندي ما ظننته لن يبيد أبدا، أتذكر أيام طفولتي وصباي يا أخي فأنثني خشية أن أتصدع، أيام لمتنا تلك استثناء فقد كنت غيا لا أعي دبيب الأيام، أو سريان الوقت، لم أرقب الآتي، ولم أنتبه، حتى إذا شببنا وتذرينا، توزعنا على الجهات الشتى، فصار كل إلى سبيله، وغاب عن العالم أب ظننته مخلدا. وأم وددت يوما لو مت قبلها، أما شقيقي فغائب هناك وراء المحيط، له حياته التي لا أعرف عنها شيئا. أبناؤه الذين لم أرهم إلا في الصور، فياأخي إصغ إلى محب لك، لا تدع لحظة تولي دون النظر إلى ولديك. وأطل الجلوس إليهما، لا تدع الدنيا تأخذك عنهما، فغد قريب سيبدأ فيه اغترابهما عنك، سيصير لكل منهما حياته، وبدء كل منهما يعني انزواء بعض منك فانتبه، لا أرم تكديرك ياأخي، فأنت تعلم مقدار محبتي لابنيك، وقضائي الوقت معهما مما يهدهدني، ودخولي دارك له الفة فكأنها داري. وعلى أية حال لا يكون الثمر إلا بعد تفرق الأغصان وابتعادها عن الجذع، الثبات والتغير يا أخي لب القضية ولغزها، فهل سيرى سعينا؟، اعلم يا أخي أن تعلقي بفن المعمار وإتقاني له، وطوافي بمشارق الأرض ومغاربها للوقوف على شواهده وروائعه، إنما بدافع مما يلح على فإذا كان الدهر لاراد له ولا

مانع، إذا كان يجرف كل شىء، فلنحاول إبطاء تأثيره بالمعمار، بالحجر، لذا قال القائل قديما، لو أن الفتى حجر، ولكننى أعى أيضا أن الحجر مصيره إلى بلى، فماذا أنا فاعل؟.

فوجئت بها تقول..

ـ «لماذا تبقى بعيدا؟»

فرحت كطفل لأنها خصتنى، أولتنى اهتماما، لمحت شرودى، تطلعت إليها شاخصا، ممتثلا، وإذا بها تفارق قعدتها، تنبثق فى وسط الغرفة، تتقدم منى، أقوم واقفا، تمسك حافتى مقعدى تدفعه، تعتدل، تفرد طولها البديع و تشير كملكة تصدر أمرا..

ـ «أنت هنا!».

تلتفت إلى صاحبى، لم ينتظر دعوتها، تقدم بمقعده، مبتسما موقنا، أنها راغبة فى اللقاء، فى التقارب، فى تدانى المصائر، طوقت سوقها بنظرى، وددت لو ثبتت هذه اللحظة فى وعيى. بينما ألح على تساؤل، أين كانت هى فى مثل هذه اللحظة، العام الماضى وأين كنت أنا؟، بل أين كنت لحظة مولدها عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين؟. كانت نفرا فى القافلة الوافدة من العدم إلى الوجود. ويوما مالا أدرى كنهه الآن. إذ لا تدرى نفس بأى أرض تموت، عندما أقلع من الوجود إلى العدم. أين ستكون هى؟ بأى أرض، بأى محلة؟ أستكون ساعية؟ أسيطوف أثرى بخلدها؟، كنت فى مواجهتها دوارا فى فلكها، وفى الوقت عينه بى حس من شد خفى المصدر، لا يبين

لا يكاد ينتزعنى منها، كنت موزعا بين ما أنا عليه وما سأكونه، مفقودا حاضرا، مفقودا بين لحظتين، حاضرا فيهما معا!. اعلم يا أخى أن إخوانا لنا من زمن بعيد قالوا فى رسائل لهم، إن الزمن ينقسم إلى سنوات، سنة مضت. وسنة لم تأت بعد، السنة تنقسم إلى شهور، شهر معنى وشهر لم يأت بعد، وأن الشهر ينقسم إلى أيام، يوم مضى، ويوم لم يأت بعد، وأن الأيام تنقسم إلى ساعات، ساعة مضت وساعة لم تات بعد والدقائق منها ما مضى ومالم يأت بعد، والدقيقة تنقسم إلى ثوان، ثانية انقضت، وثانية لم تأت بعد، إذن أين الزمان؟ وهكذا مضى منى مقدار، ومقدار لم يأت بعد، فأين موقعها هى منى؟ تعود إلى مرقبها، إلى موقعها، إلى الحيز المكانى الذى يشغله وجودها الحسى، بدأ فيضها، لا تستقر على وضع واحد أكثر من دقائق معدودات. تتكلم فتبذل الجهد الأتم لتبدو وكأنها تخاطب كلا منا، تخصه، تتزاحم الجمل والكلمات عندها، يصبح النطق غير مساعد، فتتحدث عيناها، وملامحها كافة، تبدو راغبة فى بوح فى اقتراب، فى تلاق، آملة أن يدرك كل منا ما لم تقله، الظلال التى يعسر لفظها، قالت إنها المرة الأولى التى تنزل بخارى ومن قبلها طشقند، المرة الأولى التى ستمضى فيها إلى سمرقند، البلاد شاسعة، ولكم ترغب فى رؤيتها، ها هى فى آسيا الوسطى، ومشروعها القادم إما سيبيريا أو جبال الأورال، ستفضل القطار. الطائرة تلغى الإحساس بالنقلة، تود الإقامة، فمعرفة المعمار الحقة لن تكتمل

إلا بإدراك البشر. عملها كمرافقة استثنائى، اختاروها لا تقانها الإنجليزية، بدأت تتعلمها منذ الرابعة، وهى فى الحضانة أنها تدرس الطرز القديمة، التفتت إلى، إلى صاحبى، تعرف الكثير عن العمارة الفرعونية..

«لماذا تسكت؟..».

توقفت فجأة. حادت صوبى، باغتتنى بينما كانت تجتاحنى على مهل، وبقدر انبعاث بهجتى لتوجيهها اللفظ إلى بقدر وجلى، نعم.. كنت صامتا برغم موارد داخلى، كنت أمنح منها مددا يشد أزرى بعد بدء ابتعادى، سؤالها المفاجئ ذكرنى بى، كنت مثلها فى تدفقها هذا، أيام لم أكن أعبأ بساعة هجوع معينة، لا أشكو خللاً لا أقاسى وحدة، أيام اجتماع الصحب، واكتمال اللمة، انقضاء الليل ونحن سهارى، يتكشف الخيط الأبيض من الأسود وحواراتنا لم تنفد والأمر فيه بقية، وقد أبدى اقتراحا لم أعد له العدة، أن نمضى إلى شارع المعز. نجوس فى ظلال المبانى العتيقة. أقف بين الصحب، أشير إلى الواجهات السامقة، أوضح الفرق بين مئذنة قلاوون، ومئذنة برقوق، أبدو منفعلا، حتى قال صاحب لنا سورى يوما: أنت تضفى حياة على الجدران الرمادية، حتى لتوشك الحجارة على النطق!، لماذا تسكت؟ لم أجبها مباشرة فمطت شفتيها تعجبا وحيرة، واستمرت، والدها أستاذ جامعى، متخصص فى الاقتصاد، أما والدتها فطبيبة، باحثة فى علاج الأورام.

كنت يا أخى أواجهها بتراث مثقل، وحمول جمة، وحزن غتيت ملازمني طوال السنين الأخيرة، أورث هذا عيني ظلالا، وكسى نظراتي غمامات رمادية، كان فيضها ينبهني بقوة إلى أي حد أوغلت مبتعدا. عرفت فيها مثل تدفقها هذا، وددت لو أعرف كيف ترابي من خلال موروثها وتكوينها، كيف أبدو عندها؟ متمنيا أن تدرك بعضا مما يعتمل داخلي، وددت لو انفردت بها دقائق، لو فجرت بعضي بين يديها، لكنني لم أرها إلا في جمع، هذا صاحبي يبدو ودودا، مبتسما، يتقدمني بأكثر من عشرين عاما، عرفته متفائلا دائما والظرف العاتي غالب، فياضا، قادرا في الحال العاتي. وإني لمحدثك عنه يوما إذ خاض انتخابات نقابتنا، غير عابئ بما يتهدده من أخطار. متصديا لذلك المهندس المقاول المدعوم وقتئذ من كل سلطة، وأحد رءوس الفساد، خطب محرضا، وخط الكتيبات كاشفا ما يجرى في الخفاء، وذكر الأرقام، وأتى بالأدلة، حتى قلت يوما مادام في قومي من هو مثله فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، وعندما زج به في السجن لم يهن صوته، ربما لأنه مازال في جماعة وصحبة، ألم أقل لك يا أخى إن في اللمة رحمة؟ أما قناعاته فلم تدركها الشبهة، لم يصبها عطن، ولم ينل منها وهن، كنت أرقب قدرته على المجاراة والتفاعل، محاولا قدر طاقتي تتبع ما يجرى بينهما من حوار. لا أدرى مسار الحديث الذى أفضى بها إلى القول بأنها تزوجت في الثامنة عشرة، إذن.. ليس كما أخبرني الهندي. عندما همس لي محذرا أنها

زوجة جديدة، بما يعنى اشتعال الجذوة، إذن.. كانت تصرح بما يدفع عنها الشروع أو المحاولة، قالت إنها لم تر الآثار الفرعونية إلا فى الصور..

- «هل رأيت الكرنك؟».

أومأت مبتسما، فرحا أنها تنطق أمرا يخص قومى، لكم تود دخول الأهرام. والوقوف بين يدى (أبو الهول)، وزيارة معبد إدفو قالت إنها قرأت عن ظروف بناء هذا المعبد فأحبته، بدأ تشييده والحضارة تذوى، والعقيدة مطاردة، أتمه القوم ليلا.

- «هل زرته؟».

ينبهنى صاحبى..

- «فاليريا تسألك..».

أهز رأسى نفيا. تبدى تعجبا ودهشة، يقول متقن لغة لاوس الهادىء الصموت:

- «فاليريا اسم له أصل عربى..»

نتطلع مستفسرين، تشهر أصبعها..

- «يعنى ليلى..»

أرضى إذ أجد وشيجة قربى بينها وبين ناسى، طال إقلاع بصرى تجاهها، بدأ ضوء خفى مختلف يشع عبر وجنتيها، أيقنت أن أجدادها الأقدمين لم يتناسلوا إلا لتصل هى إلى وقتى، وتقرع مغاليقى بفيضها، فكأنى ما جئت إلى بلاد ما وراء النهر، مادنوت من نهرى سيحون وجيحون إلا بحثا عنها، لأكتشف عين الحياة التى خلقت منها، أبدا.. لم تكن هذه نطفة

فـعلقـة، لم تكن يومـا بين صلب وترائب. إنما خلقت من مـاء الحياة، منها تتدفق الحيوية، غير أننى لم أحتس منها بعد، مع مضى الليل كنت أتطلع إليـها، مأخوذا عن كل وجـود سـواها، فلو تمثل العبد الذى أوتى من اللدن علما، وقتل أحد الموجودين لسبب يعلمه هو لما استفسرت، لو هدم الجدار القائم لما سألته، لو أشـعل النار فى الأفق لما انتـابنى فـضـول هى فـقط فى مواجـهتى، أتلمس طرقا إلى رائحتـها، أقلع منها إليـها، فـهل يدرك الكوكب انجذاب توابعه إلى فلكه، كنت أترقرق، وعناصـر منى تتـبـدل إلى مـالا أعـهـده، حـتى إذا بلغت حداً من التـوارى والانطواء داخلى، وأيقنت أنه لا عـالم بعد اليوم، شبت طفرة من طفـراتى، واندلعت إحدى ومـضـاتى، فـارقت مـقـعدى فـجـأة، وحطت بجـوارها، أهدتنى نظرة جـانبـيـة راضـيـة فـأمنت، احتفظت بمسافة تمكننى من النظرة الشمولية، أما هـى فغيرت على الفور من وضعها، ثنت ساقيها تحت وركيها، فانقلبت فى حركة مبـاغتة لتجثـو على أربع، بدأ ظهرها رحب النغم، أما حضـورها الحـسى فـازداد توقـدا، ومـا زاد الأمـر صـعـوبة انحسار القميص إلى أعلى، وتراجع بنطلونها قليلا، مما كشف عن وادى ظهرها المؤدى إلى مفرق ردفيها، ولمجرد أننى تطلعت فكأننى لمست، دنوت وتنديت وقلقل هذا حسى ومعناى، لاحظت أن صـاحـبى أدرك مـا أدركت. فـسـدد نظرًا نهـمًا، لم يخـفـه، ضـايقنى منه هذا، وددت لو أنه لم يفعل، تمنيت لو غطت مـا بدا مع أن ولايتى منعـدمـة، إلا أنهـا لم تركع إلا لثـوان، فـردت

جسـدهـا، فكأنها بعثت من داخله جسدا آخر، حركت ذراعيها، بدت على حـافـة الرقص، غير أنـهـا ثنت سـاقـهـا تحت الأخرى، اتخذت وضـعـاً بوذيا، وتحدث الحـاضـرين أن يأتوا بمثله. بادر صـاحـبى، بدأ المحـاولة لكنه لم يتـمـهـا فـارتحت! تقدم مـتـقن اللاوسية، إلى حد ما نجح إلا أنه لم يحتفظ به، بينما كانت هى كمـا هـى، أنا لم أشـرع، أمـا ناتاشـا الصـامـتة فـصـفـقت، عندئذ أنهت وضـعـهـا، بدأت تغنى، كَـان صـوتها فـتـيا، يتـضـمن رقة، وشـجنا خـفـيا، تابعنـاها متمـايلين مع النـغم، وهنا بدا منهاتجدد آخر، لم يدركها الوهن أبدًا، أما عيناها فازدادتا تألقا، أقول لك يا أخى إن العتمة لو أرخت سدولها لضوت هى، مع قربى منها دام تطلعى ومـحـاولة تتـبعـهـا، فـاصـبـر على يا أخى لو فـصلت وأطلت..

فـتـارة أراها صـاعـدة، مـتـجـهة إلى منبع ريح الصـبـا، وتارة إلى حر الجنوب..

مـرتفـعة إلى أوج. هـاوية كشـهـاب دنا أجله، وحـان احتراقـه، حتى إذا أوشكت، شـهقت فيعجز الفراغ عن استيعابها..

تدنو من البروج كلها، فـتارة للبروج النـارية، ومرة للترابية، وأخـرى للـهـوائيـة، ثـم تنعطـف إلى المائيـة، إلى المتـقلبـة، إلى الثابتة..

ألمح عندها دوران الفصـول، هـى ربيع، هـى صـيف، هـى مطر، هـى صـحـو، أراها مـتـفـرقـة، أراها مـتـجـمـعـة، أحـيانـا ناظرة، وأخرى مولية، منصـرفـة، مقبلة، مـجتمعة، واقفة، مـجتمعة، واقفة، منبع ومصب!

قريبة حتى أوشك على تنسم ما تجود به مسامها.

بعيدة، قصية، مستحيل إدراكها، فكأنها مصدر كل اغتراب، هى بجوارى، طفلة تلهو، وأنثى ضاجة، فوارة، مثيرة للكوامن. تطرح ألغازا وألعابا، ثم توغل فى نقاش عويص عن وجهة المصائر وغايات الأمور الخفية..

رأيت فيها مراحل فى لحظة، وأعمارا شتى فى كينونة، أما جسدها فمعمار متكامل، مبسق، علو كقبة بانتيون روما، ورشاقة تستعصى على اللمس كمنحنى مدخل مدرسة السلطان حسن، مهيب كإيوان كسرى.

- «لماذا تنظر فى الساعة؟».

اعلّم يا أخى أننى لم أنتبه إلا بعد أن فاجأنى احتجاجها، انها الخصال القديمة، فى تمام القرب أستدعى اكتمال البعد، وفى ذروة النشوة أفتح عينى لأرصد ردود الفعل على وجه من اقترن بها، وألج جسدى فى جسدها، فى هذه اللحظات أدركت اقتراب الفجر، ولهذا ودون أن أعى تطلعت إلى الساعة، والهواجس عندى تبدأ مع اقتراب الفجر، حيث اضطراب أنفاسى، وإصغائى إلى أصوات تصدعى واقتران ذلك بتوقع الموت، يضطرب قلبى، وتتداخل أحوالى، ولا أدرى لماذا أوقن أن رحيلى سيكون فجرا، الآن ميلادى كان فجرا، أم لأن إقلاع والدى تم فجرا أيضا؟ فى الفجر أتوجس خيفة، وأصغى إلى دبيب اليوم القادم. متسائلا، هل أنا بالغه؟.

تطلعت إلى صاحبى، فهم عنى، أومأ، صاحت محتجة..

«ستنصرفان؟».

لزمت صمتى، أجاب صاحبى..

«لابد أن تنام ناتاشا، لابد أن ننام لو ساعة..»

ثم قال..

«أمامنا غدا سفر وجولة..».

تلفتت إلى ناتاشا:

«تريدين النوم؟».

تجيب البنية بابتسامة، وبدأ متقن اللاوسية على أهبة الكلام لكنها صاحت..

«اسكت أنت..».

رق صوتها فجأة، لمحت فيه رجاء.. قالت..

«لماذا لا نخرج ونقابل النهار معا.. ثم ننام!..».

بحدة التفت إليها، رأيتها بين شجرتى التوليب، أكانت تقابل النهار منفردة وقتئذ؟، غير أن ماهزنى أمر آخر، هذا مقترحى فى الزمن القديم.

منذ أمد كنت فى عشق عظيم، هاتفت صاحبتى بعد منتصف الليل. مقترحا أن نلتقى بعد الفجر. أن نرى أول ضوء معا. أبدت ترددا وخوفا، وإن أعجبها عرضى، وفى مرة ثانية التقينا ذات صباح، وخطر لى أن نسافر إلى الإسكندرية، نرى البحر ونرجع فى اليوم نفسه، قطعنا المسافة متقاربين مبتهجين، وعندما طالعنا الموج، والزرقة، طربنا، وتفاهمنا، وعند المغيب عدنا إلى مدينتنا، هذا مقترحى، وإذا بالدائرة تكتمل

ويتلى على مسمعى ما قلته يوما، وممن؟ من هذه المجرة الأنثوية، وما أنا إلا تابع لأحد أجرامها، فإما درت حولها، وإما انجذبت تجاهها، وإما أفلت من إسارها فاهوى إلى هدم، تبدى هى الرغبة، بل بنفس الإيقاع الذى صدر عنى يوما، فاتردد، بل واعتذرت وأسفت لى، رثيت على، أين اتصال الليالى ببعضها؟ أين سهرنا صحبة فى المقهى القديم؟ حتى إذا أذن الفجر ولجنا المسجد القديم، القريب، نتنسم فراغاته، وصفاءه، نخرج منه والنهار مكتمل، نشيطين، أما سعينا فشتى. ما من تعب، ما من وهن، أين زمن الحرب عندما كنت مجنداً فى الصفوف الأمامية، تتوالى أيام ثلاثة دون إغفاءة. ويكفى إغماضة العينين لحظات معدودات فتجدد الجذوة، أين هذه الأيام أين؟ أهو السن؟ لكننى لم أوغل بعد. أهى العلة المفاجئة. لكنها نتيجة وليست سببا، بعدها صارت أفعالى فى الحدود بعد أن كانت فى المطلق، لكن صاحبى هذا به أعطاب شتى ويتأجج حيوية، أعى أن لحظاتى فى الليل البخارى هذا ستكون زادا عندما أتقلب فى وحدتى، وأوغل فى غربتى،كنت أعى يا أخى أن حضورها بقربى سيتوالى على، زاد نفيس، عزيز، فلماذا لا أبقى؟ لماذا لا أستجيب! خاصة أنها هى التى تطلب، هى من يرغب، الوعيى أننى مهما بقيت فمصيرى إلى انصراف؟ الرغبتى فى الانفراد؟.

- «لماذا تريد الانصراف؟».

- «لابد من النوم..»

تقول بضيق.

ـ «سيجئ زمن ننام فيه طويلا..»

ـ «إنى مرهق..»

قالت:

ـ «كل شخص فينا مرهق..»

انتبهت إلى اتصال الحوار بينى وبينها، أنا وهى لا غير، كنت يا أخى حائرا، إلا أن وقوف صاحبى، ومتقن اللاوسية. وإنهاك ناتاشا البادئ حسم الوضع، وعندما آويت إلى مضجعى أيقنت منإتمام اجتياحها كينونتى، وأن ما تراءى لى نائيا صار قريبا، وما أصغيت إليه دبيبا صار ركضا، غير أنها يا أخى لا تزال قصية، فكيف أتم الرسالة؟.

إرتقاء الكثيب

..جياش أنا يا أخى، وما تاريخى إلا عطاء بدون انتظار. وفيض بغير حساب. وعما أنا فيه فلم أبغ إلا الإحاطة. أليس ظلما لو أن جواى لم يلق ظلا، وهواى لم يحدث صدى؟ قوى عزمى. وانجذابى، وإنى لسارد عليك حوارية دونها عارف قديم، جاء إلى بلاد ما وراء النهر، وربما وقعت عيناه على بعض مما رأيته أو توقفت عنده، قال الجليل واسمه جلال الدين..

قال: من بالباب؟

قلت: عبدك المحب.

قال: فأى شىء لك؟

قلت: أقرئك السلام أيها العظيم.

قال: فإلى متى تلاحقنى؟

قلت حتى تدعونى

إلى متى تجيش؟

قلت: حتى القيامة.

هذا لب قصدى، أن يصلها نبأ بما عندى، أعلم يل أخى أن من الأشياء مالا يمكن إدراكها أو تصورها لخفائها أو دقتها، مثل الجزء الذى لا يتجزأ، والمعنى الأول، وسبب ورود هذا الخاطر دون ذاك، وسير الميل إلى هذا الشخص دون غيره، وجوهر الثمر فى الأكمام واندلاع توقى. وإدراكى أن ما أمر به مآله إلى انقضاء، ومع ذلك لا أنثنى، فالوعى عندى أثم، إن نهاية الشئ فى بدايته ولحظة تهدم البنيان تتحدد عند تشييده، أما موت الإنسان فيبدأ عند ولادته، وكما قيل فى المعنى.

ميتا خلقت، ولم أكن من قبله

شيئا يموت، فمت حيث حييت

أعلم يا أخى أننى وقفت بمفردى مستقبلا نهارى السمرقندى الأول، اعتدت تبدل المواقيت، واختلاف الأزمنة. استيقظت وعندى جذوة متقدة، هى على مقربة، تشغل حيزا معلوما بقدر، تتنفس هواء بعضه يعرف طريقه إلى صدرى، أما

وجهها رحب الملامح، فسيطالعنى بعد قليل، كنت مستوفزا، متأهبا، تقدمت من باب الشرفة الزجاجى، ذرات الماء الدقيقة مغيمة، مسحتها فانجلت الرؤية، فى البلاد التى أنزلها أول مرة اعتدت إغلاق الزجاج وإسدال الستائر الخفيفة لا غير، أما الثقيلة فأنحيها، أوثر مقابلة كل عنصر فى الأرض التى أطؤها أول مرة. فما بالك وسمرقند لها عندى فرادة، وقديم صلة، وأحلام مبهمة، وتوقعات غامضة، واحتمالات ربما تبدو لك مستحيلة، أن ألقى بعض من سبقونى بقرون، خبرت هذا غير مرة، عندما شاركت فى جمع جاء إلى فاس ليتدارس وسائل الإبقاء عليها، والقيروان بتونس الخضراء عندما مضيت لأعاين مسجد عقبة السرمدى، وعندما استندت بيدى إلى جسر خشبى فوق نهر العشار لأتأمل شناشيل مدينة البصرة، ومن قبل ومن بعد قاهرتى المعزية التى فرقت لحظاتى عند نواصيها، ومداخل مبانيها، يخيل إلى أحيانا يا أخى أن ما مر بهذه المدن لم ينقض، لم يندثر، دائما أتوقع من يجيئنى ليأخذ بيدى ويصحبنى إلى غير ذى جهة لألقى الأسواق القديمة، وحلقات الدرس فى مدارسها القديمة، وساحاتها يعبرها المحاربون الخارجون لملاقاة الغزاة، وإذ أجول عبر الدروب الضيقة أجهد النفس للوصول إلى ملمح مما انقضى. لكننى لا ألقى إلا الآنية!

أشجار ضخمة تتخللها شجيرات التوليب، تنمنم الرؤيا، تؤطر الوجود، قبة زرقاء سامقة تولد من خلال غبش الضباب،

تحدد الفراغ، حدت ببصرى، ليست بمفردها. قبة أخرى تواجهها، فيما بعد أدركت أن القباب هنا تجاوب بعضها، فلا تدرى الأصل من الظل، وأينما وليت وجهك فلا يقع بصرك إلا على نمنمة النقوش تجاوب النقوش، والرقة تؤاخى المهابة. أما تدفق الخلق فلابد أن يؤدى إما إلى بوابة عتيقة. أو مدرسة، أو مسجد، أو ساحة انطلاق. أو ضريح يرقد فيه جليل، تلك مدينة سيد الفاتحين، من طمح إلى امتلاك العالم. تيمور. ولى تعليق أود لو أفضيت به إليك، ولكن فى وقت آخر. وليس الآن. فإنى متعجل رؤياها، أليست باعثة جذوتى تلك، والتى طال ترقبى لهازمناً؟.. بسرعة أديت طقوسى الصباحية، من حلق لحية، وغسيل أسنان. وحمام دافئ. وترتيب حاجاتى التى سأصحبها فى حقيبتى الصغيرة، عند دخولى المطعم كان المكان خلوا منها. لمحت صاحبى، أمامه طبق فيه بيض مقلى، وكوب ملىء بالشاى، ورغيف أوزبكى. بدا صامتاً، إلا أنه محتفظ بظل بشاشة، وطيف ابتسامة، وعندما بدت بنية رقيقة. دقيقة التكوين، تلملم شعرها فى ضفيرة طويلة، سخية، أقدمت تجاهه مستأنسة، متحمسة، أضمرت حسدا وإعجابا لإبدائه الود تجاههن، وإظهاره جميل اللياقة وإقبالهن عليه، وبينما تتعاقب التعبيرات الآمنة على وجهه، أعتصم بصمتى، محتفظا بسمتى، فما يبدو مغاير للباطن. أظهرن النفور منى، لم يومئن حتى عند مرورهن بى. وهذا جعل خشيتى تتعاظم، ألا يصل من أدور فى مجالها قبس من عندى. لم أكن أرى ماعداها، ولا أعبأ بغيرها،

وعندها جاءت، سرت، ولما أوشكت أن تتجاوزنا ناديتها، توقفت، والتفتت. وأومأت، ثم لبث، وعندما استقرت بجوارى هدهدنى قربها، اقتربت من حافة عبيرها الخاص، الرائحة القادمة من توالى حضورها، من أنفاسها، من مسامها،،من زمنها، لم أتمكن منها بعد. غير أنى رحت أحوم أحاول الطواف والقبض على مالا يرى، هذه أنفاسها، وهذا أريج شعرها. أما الصبا فقادمة من أغوار روحها، أثار قربها منى حنينا غامضا إلى وديان لا تقوم فيها بناية، ولون أخضر زاٍ نضر يوحى بالبلل. تبدو مهمومة، ساهمة، فكأنها قاست أرقا، متطلعة إلى جهة لا ترى، أما إمساك يدها بزجاجة الملح الصغيرة وإدارتها فتعنى انشغالها بأمر يستعصى على إدراكه، وكدت فى هذه اللحظة أوقن أن ما بدا منها فى ليل بخارى لن يتكرر، كانت تتجاوزنى بالنظر، وكنت أدركها وأدرك المدينة معا. إلى داخل الفندق الأوروبى التصميم ينفذ حضور المدينة. تبدو بخارى وكأنها اقلعت من الدهر، أما سمرقند فمتباهية، مختالة، لا تزال فى لبه؛ بخارى لا تتكشف للغريب مرة واحدة، شيئا فشيئا، أما سمرقند فتبدو بشمولها، بعمقها منذ اللحظات الأولى، يسألها صاحبى عن المعمارى الهندى وصحبه. قالت إنهم تناولوا إفطارهم مبكرين، وهم يجوسون الطرقات قرب الفندق، جاء النادل، وقف منتظرا، اقترحت عليها الزلابية، قلت إننى عندما أنزل بلدا أول مرة. أحرص على أمرين، أن أطعم مما يختص به أهله، وأن أصغى إلى موسيقاه. قلت إن موسيقى

هذه النواحى حزينة، شجية، فيها أنين مؤلم عمره قرون. فيه صلصلة الأزمنة المندثرة، والقيام والانهيار، والقطع، والائتناف، والإحساس بالمجد، قلت إن ما ألفت نظرى تلك الإيقاعات الأندلسية، والآهات المصرية، والأنات العراقية، والوشى الصينى، قال صاحبى إن تاريخ المنطقة وعر.

هنا قالت إن للمكان خصوصيته المؤثرة.

ثم مالت تجاهى

ما الزلابية؟

قلت إننى تناولتها فى بخارى أمس، فطائر محشوة باللحم المفروم..

ثم قلت..

نفس الاسم عندنا. لكننا نطلقه على فطائر حلوة..

حادت بدهشة، قوست حاجبيها فبدا جمال كامن، وأصغيت عبر ملامحها إلى لحن بعيد. تائه منى، غائب عنى، لحن مبهم، يؤجج حنينا ويضاعف تطلعات إلى الرحيل، ويستدعى لحظات بهجة، إما أنها ولت. أو لم أعشها، أو لم يعد لها موضع فى الذاكرة المثقلة.

مضيت أشرح التقارب بين الأطعمة هنا وهناك. ولم يكن تدفقى إلا حجة للنظر، ووسيلة للقرب، تعلم يا أخى أنى أحيانا

أبدأ فلا أكف عن الحديث، خاصة إذا كنت فى جمع بينه من أحب. أتجاوز كمونى، فكأنى ألوذ بالصحبة، حتى إذا انفردت ارتددت فإما وجلت، وإما انفجرت. كانت تصغى ساهمة، متبعة، فكأننا تبادلنا المواقع، فى ليل بخارى فاضت هى. ولزمت الصمت، وفى الصباح السمرقندى هذا أطلت وأصغت هى، جاء النادل آسيوى العينين والوجنتين، وضع الطبق أمامها، أقدمت حتى اغيب عن طقوس الخدمة، ملأت كوب الماء. وقربت طبقا غير ممتلئ، وعندما قضمت قطعة من الفطيرة ازداد شرودها، مع المضغ بدت شفتاها مضمومتين، ريانتين، هما حضورالياقوت، ودقة شقائق النعمان قمعت رغبتى فى الميل والقطف حتى لا يلوح على مايشى بأمر صبابتى وحدة توقى، لا أدرى يا أخى كيف مضى الحديث، لكننى انتبهت وصاحبى يقول:

هل سمعت؟

كيف لم أصغ؟ لكن عذرى أننى كنت مولياً وجهى شطر إحدى جهاتها، أحد رواقمها، أبديت الاستفسار. عرفت منه قبسا مما صرحت به وأنا فى قلب الغيبة عنها لشدة حضورى قربها.

اعلم يا أخى كشف لك الله ما خفي عنك، وما دق فهمه عليك، أنها عندما كانت فى الثامنة عشرة، أى منذ ست سنوات، تعرفت إلى من هو زوجها الآن، هل كان مقيما على

مقربة؟ ربما، هل كان على علاقة بوالديها؟ ربما. المؤكد أنه هام بها. فى كل صباح عند اجتيازها عتبة الباب تلقى الأرض مفروشة بالزهور. وعند المدخل الرئيس تلقاه، يحيطه الثلج، ملتحفا بمعطفه. بغطاء الرأس الثقيل والانتظار والرغبة، أسابيع طويلة لم ينقطع يوما، لم يغب صباحا، وعندما اقترب يوم الخامس والعشرين من مايو، اليوم الذى جاءت فيه إلى الوجود، وقبيل انتصاف الليل بدقائق خمس، فوجئوا بطرق هين، كان يقف بالباب، حاملا باقة زهور، قدم بطاقة خط عليها ما ينبئ بدخائله. ورجاها أن تقبل ساعة دقيقة، ذهبية الإطار، كان يحتفل بعيد ميلادها على طريقته كما قال، أحبت حبه لها. كانت صغيرة، لكنها بعد اقترانها به، رأت فيه شابا جدا. هكذا أفضت متأسية، متحسرة، لم تخف أمرها، صمتت، كأنها ودت لو أنه أكثر نضجا، ولاح منها ما بدا معبرا عن نفار. لم أعلق يا أخى، خفت أن أبدو غير موفق، وإن احترمت حبه لها. ومشروعه فى التعبير، وحاولت أن أتخيله فلم أقدر، وددت لو استفسر عن حبه الآن، كيف يعبر عنه، كيف يراها عند استيقاظها؟ عند تحركها فى البيت؟ كيف تمضى أدق لحظاتهما الخصوصية؟ لماذا تبدو حزينة؟ ألهذا الحزن علاقة، أم أنه لأمر مختلف؟ بعد أن فرغت سألتها عن يومها، قالت إنه موزع ما بين المعهد وما بين البيت. ما بين دراسة المعمار وما بين شئونهما، إنها تقوم بكل شىء، أحيانا تمضى للسباحة، للرياضة أو للمشى مسافات طويلة. سألتها عن أصحابها الأقربين، فقالت إنها لا تثق بأحد!

أخى الأعز..

هذا حوار جرى بيننا، بينى وبينها لا غير، فى المسافة الواقعة بين باب المطعم، والمدخل الرئيسى للفندق. حوار له منزلة عندى ومودة. حتى وددت لو دونت ما احاط به، تاريخ هذه البقعة من الأرض التى مشينا فوقها، من لامس موقع خطانا منذ أن جاء إليها بشر وسعى إنس، وددت لو وصفت ما أحاطنا، وذكرت كل من تواجد على مقربة، وحال الطقس، وموقع اللحظات من دوران الفلك. أليس حوارنا الأول على انفراد؟.. أليس الحوار الذى أنس فيه ثقة بى، وخصوصية؟.. فما صرحت به لنا لم تقله للهندى وزملائه مع أنها مكلفة بمرافقتهم، وشرح ما يرونه، وتيسير السبل لهم، لكنها شامت لعلاقتها بهم الا تتجاوز الإطار، كما أنها موهت، فلم تفضح شيئاً عن حياتها، أما النبرة التى صرخت بها أنها لا تثق بأحد، فبقدر ما تضمنته من شكوى، بقدر ما احتوت من أسى وبوح إلى أنا، كنت متاهبا لالتقاط أية إشارة. تلون صوت، أو ارتعاشة واهنة فى مخارج الحروف، أو تسهيم نظرة، غير أن سنيى علمتنى الحذر. الا أبالغ، فلكم أسىء فهمى، ولكن أبديت وصورت، وأفصحت وأحبطت. وأنت عالم ببعض مامر بى.

عندما اجتزت المدخل، بدت برودة الجو محتملة. إلا أننى احتفظت بغطاء رأسى، الأشجار حول الفندق. وأينماوليت البصر تقع عيناك على مبانى العصور القديمة. الخزف الأزرق

غالب، فكأن مواد البناء والزخارف، والخط النستعليق والثلث وتلك الحروف، المتداخلة المتصلة وثيقة القربى بأسباب خفية. تمتح من زرقة السماء وتنهل، وإذا كانت بخارى كالمخطوط العتيق الذي تطوى أوراقه معانى أكثر مما تظهر، تكظم وتدثر، فالحضور السمرقندى مبسوط الكافة، للقاصى، للدانى، كنا، أنا وهى نقف فى الباحة منتظرين رفاق الرحلة، هى على مقربة بجوارى، لبشرتها مذاق القشدة التى تغطى اللبن فى وعاء فخارى، تدس يديها فى جيبى معطفها، أدا الصباح فوقته من هذه الأوقات التى تمد فى الأجل. وتقصى الهواجم المكدرة للأفئدة، وتعد بالوصول والبشر، كنا فى انتظار العربة التى ستقلنا إلى مدرسة بيبى غانم. زوجة تيمور، إلى مجموعة شاه زند، الأمير الحى، بين كتبى مجلد يسجلها من كافة زواياها. كان عندى انفعالى الخاص، لقرب رؤيتى ووقفتى على ما طالعته صورا وسطورا، تحين لحظة أقف فيها لأقرأ فاتحة الكتاب على شاه زند. قثم ابن العباس. ابن عم الرسول الكريم، تقول مخطوطات التاريخ إنه استشهد هنا فى العام السابع والخمسين لهجرة حبيبنا وشفيعنا، لكنهم يوقنون هنا أنه بعد سقوطه شهيدا. حمل رأسه بين يديه، وأوى إلى بئر عميقة، وفى قاع البئر تبدأ طرق شتى إلى حدائق لا يحيط بها بصر، ولا يدركها رحيل وإن طال. وأنه مازال حيا يرزق فى إحداها!

كان قصدنا مدرسة أولوج بك. ومزارات شتى، كنا نتأهب للتوجه إليها مع أنها تلوح من هنا. يجىء العصر العتيق إليك،

يلحقك أينما كنت في سمرقند، ولا يدعك تمضي إليه. يؤازرك، يتبعك، يتقدمك، ويسلك الطريق إلى شعاب الذاكرة والتلافيف التي لا تبين، أما حضورها الكثيف فأضفى معنى فريدا على هذا كله، كان ما أراه من معمار وتكوين في الفائت، أما هي فإنها الآتي عينه، في الضوء السمرقندي رأيت لوناً جديدا لخصلات شعرها، فإن قلت إنه أسود صدقت، وإن وصفته بالنحاسي أصبت، وإن لمحت فيه شقرة فما كذبت، يذهل من الصفات، وألوان الطيف. وسر الشفق، قلت فتوددت..

شعرك جميل

واجهتني. بجانب وجهها الأيمن

كان أطول

ثم قالت في نبرة أنثوية:

هل يعجبك هكذا؟

تسألني أنا؟ هي توجه إلي يا أخي استفسارا عن رأيي؟ لا... مهلا، ليس بهذه العجلة. أوشك بهت أن يطويني، لكنني أفلت منه بقولي:

إنه رائع.

بدا مني تمنن، في العربة نأت عني، حرصت على الجلوس في الصفوف الخلفية حتى أنهل منها. حتى لا تغرب عني،

عرفت من صاحبى أننا قبل بدء الجولة سنتجه إلى اجتماع، حيث تلقى كلمات ترحيب ومودة، اخترقنا شارع مكسيم جوركى، على جانبيه يتداخل القديم بالحديث، تتماس الأزمنة. وتتوالج أحيانا. بعض الأزياء الأربزبكية منحدرة من عصور تعرف يا أخى مدى حنينى إليها وتذكرى بها، توقفنا أمام مبنى شيد فى الأربعينيات، سارعت بمفارقة مقعدى حتى اقترب منها، جاورتها، التفتت إلى، كأنها تحدث نفسها قالت:

لا أحب هذه الاجتماعات..

حرت. هل يجوز لى الرد؟ هل أرجوها البقاء، أو أعرض صحبتى، وددت لو طلبت إليها. ألا تغيب عنى، لكن ألجم لسانى تطلعت إلى، كررت.. أضيق بالخطب.

ثم قالت:

لن أذهب.

أطرقت مفكرا فى مردود اختفائى من الاجتماع، وصحة هذا من عدمه، وعندما تطلعت صوبها لم ألقها، لا أدرى كيف اختفت، عند دخولى القاعة لمحت الهندى وصحبه، لم تكن معهم. أصغيت شاردا إلى التصفيق، إلى الترجمة الفورية، إلى ملامح الحضور، إلى الدقائق المتعاقبة، يهتصرنى سؤال، أين هى الآن؟ لماذا نفرت هكذا؟ لماذا أسفرت عن هذا الجموح؟ هل بدر منى شيء؟ لماذا أحمل نفسى الوزر؟ لكنه دأبى يا أخى.

عندما تركت العربة مبتعدة سرى عندى خواء. أين هى؟ هل تمضى عبر آثار المدينة منفردة؟ أم أنها بصحبة من أجهله، وما نفورها إلا حجة لانصرافها ليتني تخليت عن الخطة، ليتنى تبعتها، ليتني لم أتوقف لأحتسب الأفعال وردودها. ليتنى مشيت فى أثرها، لا أقترب إلا بالقدر الذى تشاءه لو أنها راغبة في الانفراد، لا أتكلم إلا إذا سألت: ولا اجاورها إلا إذا أشارت، أما أن تختفي هكذا، أن يمضى وقت لا أراها فيه. أن تنأى عن دائرة بصري، المجال ضيق. اغتممت، عزيت نفسي أنها تتحرك فى سمرقند. ترى القباب ذاتها. وتقف أمام واجهات المدارس عينها. لكم رغبت أن أراها بصحبتها. أن أفسر لها كيفية التلقى عندي، أن أحدثها عن فرادة الخط العربى المحيط بالأفارين، النقوش الحافة، والحروف المتداخلة، جمال حرف الألف الذى بلغ طوله مترين كاملين عند قاعدة قبة بيبى غانم أقرأ لها الآيات القرآنية. وأفسر قدر اجتهادى ما غمض من معانيها.. فجأة تباغتني هواجس مرة.

أحقا هى بمفردها الآن؟

إذا كانت فى صحبة، فمن؟

أهو أحد هؤلاء الأجانب؟ إنهم أقرب إليها، والطرق التى تبدأ من عندهم تجاهها أقصر وأوجز، فالميراث دان. والمزاج متشابه. أما أنا فقادم من جهات قصية، وما هى إلا طرح مغاير لما عرفته، فلماذا أطرق دربا وعرا، ولماذا ألقى بنفسى في هجير صعب؟.

لكن.. قبل هذا كله، لماذا أنحى بالعتب. باللوم، وكأن المواثيق قائمة. والعهود أخذت بيننا؟ وكأن الود متبادل. وهنا تذكرت واحدا ممن أجلهم، وأقتدى بهم، وأحفظ لهم المكانة، أحب فى أول شبابه بنية أوحت إليه بما أوحت. هام بها حتى كاد يهلك. أفنى من ذاته ما أفنى، وأبدى من فيضه ما أبدى، غير أنها لم تعبأ، ومضت مقترنة بآخر، وانقطع بها العهد. أصغيت إلى محدثى، كان يستعيد أمرا مضى عليه أربعون عاما وازدادوا سبعا، ولكن فى صوته أسينة لاتخفى. لمت البنية، واتكأت على سيرتها بالكلام الشديد، إلا أنه ضحك ضحكة صافية لها جلجلة.. قال:

وما ذنبها هى؟ أنا أحببتها، ولم تحبنى.. ما ذنبها؟

استعددت هذا وكدت أضحك ساخرا فى نفسى. لكنى لم أقدر فالأمر جد. لكننى تساءلت، لماذا أسىء الظن بها، ربما رغبت حقا فى الانفراد، ألم تكن صباح اليوم ساهمة، كدت أستفسر من الهندى إلا أننى أحجمت، مضينا عبر طرق تستقيم وتنحنى، صعدنا تلالا ممهدة، ورأيت سمرقند منبسطة، قبابا تحاور قباب، ومآذن تشير إلى جوهر السماء، منها المكتمل، والمقطوش، أما المداخل الشاهقة فتحاكى ديوان كسرى، لو أنها بصحبتى لقلت لها ذلك، لاحظت قلة نشاطى وهبوطى، حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من وجومى، فما أسرع الومضة!.. وما أقل عمر الشهب!..، لذت من ضيقى

بسمرقند، أوغلت فى المنمنمات، فى نقوش الجدران، فى حركة البشر الذين لم تتبدل أزياؤهم منذ قدم سحيق، فى السوق الكبيرة، ورأيت فى قطع الجبن فرادة. وفى الخبز الذى فضلته عما عداه خارج ديارى، وعندما وصلنا إلى المرتفع، حيث مرصد أولوج بك. انقلبت السماء رمادية، وهبت رياح باردة، وتوارى إدراكى للبهجة الذى عرفته عند صحوى، بدأ النفق المؤدى إلى مكان المنظار غريب التكوين، كأنه يفضى إلى فراغ داخل جوف الأرض، طفت بالقبة، والمعرض الحديث المقام بها، وتأملت صور أبى بكر الخوارزمى، والشيخ الرئيس ابن سينا، والبيرونى، ما نسبة الخيال إلى الحقيقة؟ إلى أى أصول استند الرسام المجهول لى؟ رأيت رسوم عالم الفلك، والطبيب، والمنجم، ولم أر توقيعا حتى لمن شادوا هذه العمائر التى تجاوزت هشاشة البقاء، حتى مدرسة السلطان حسن، ظل اسم من صممها ونفذها مجهولا حتى سنوات قريبة، عندما وجدوا ذكره متواريا فى الأعالى القصوى، لماذا يتوارى المعماريون، لماذا تبقى أسماء البنائين مجهولة؟ يحمل الهرم اسم خوفو، تحمل المدرسة الشاهقة اسم زوجة تيمور؟ لكن أنى لنا معرفة من انهار عليهم الردم فجأة، أو من تعلقوا على ارتفاعات شاهقة لتثبيت لون، أو خط حرف؟ هيروغليفيا كان يا أخى أو عربيا، لكم وددت يا صاحبى أن أسمعها انطباعاتى، أن ألفظ قربها ما يجول بخاطرى، أن أقف إلى جوارها لحظة تجول نظرى عبر الأرض الممتدة، المتموجة، متسائلا عن البقعة

المجهولة التى يرقد فيها الشيخ الرئيس؟ أين مثواه: كيف تاهت عنه الذاكرة التى احتفظت بهذه العمائر، ما بقى منها وما اندثر، أين عاش هنا؟ أين أبدى المجاهدة. أين حصل العلم؟ لو ألم بحالى وما صرت إليه فى دياره بعدما عرفته من جذوة العشق لنظم رسالة مطولة فى نأى الحبيب عن مجال البصر. أو لخصص فصلا عن التلاقى والتفرق فى «الشفاء» والمنطق! أين سعى؟ أين ولى وجهه، فى أى موضع كانت داره التى كابد فيها السهر؟، أما البيرونى فكدت مع استغراقى أستدل على الجهة التى سلكها عندما قصد الهند. تمنيت لو أنها بصحبتى يا أخى لأطلعها على معرفتى بهؤلاء لو أنها قربى وأنا أحدق إلى ملامح الساعين حولى، ربما انحدر هذا من أحدهم، لا هو يدرى، ولا غيره، أيتعقب الإنسان جذوره البعيدة؟ إذن أين كان جدى منذ ألف حول، وأين كان جدها فى ذات الحقبة؟ حاولت أن أوغل فى النقوش، أن ألوذ بالتصاميم بالخطوط المتداخلة، كنت أبتعث لحظات نائية، وأقابل كلا منها بظل مما أرى، أو مئذنة، أو مدخل مؤد ما أجوز، حاولت رؤية ما لا يمكن رؤيته تخفيفا لما أحدثه عندى ابتعادها المفاجئ. وفى إحدى الزوايا الظليلة انتحيت ركنا قصيا، وبصوت مهموس، مسموع عاتبتها.

فاليريا.. أين أنت؟

وعندما اقترب منظم الجولة منى، من صاحبى، واقترح علينا تدبير عربة تمضى بنا الى ضاحية خرتنك، حيث ضريح

الإمام البخارى. أبدى صاحبى حرارة وحسن استقبال للاقتراح، وطلب مجىء المعمارى الجزائرى معنا، أمر يسره، صرنا أربعة. جاء معنا دليل أوزبكى، ترجلنا، جزنا السور الخارجى، والممر المرصع بالفسيفساء الملونة وأشجار الحديقة. والباب المؤدى مباشرة. حتى إذا وقفت أمام الشاهد الرخامى، وبسطت الراحتين. قرأت الفاتحة، ثم قرأت مادون من تاريخ ميلاد، وأخبار رحيل صوب الآفاق النائية لتحصيل العلم، تمتمت أحمل للراقد الجليل تحية كل حبيب وقريب لم يمكنه المجىء إلى تلك الأصقاع، ومنهم بالطبع أنت يا أخى الأعز، فارقت الضريح والمسجد المجاور متهدهداً، فهذا موضع لن أجىء إليه مرة أخرى، وهذا كريم جليل لن أقف بقربة ثانية. أما رطوبة المسجد، وظلاله، ورائحة السجاد، القديم والجير الذى طليت به الجدران، فقد بلل هذا جفاف روحى، وأثار عندى شجنا غامضا.

تعرف يا أخى حديثى عن لحظات دقاق لا تروح من الحضرة القلبية أو الذهنية، لا يغيب عبيرها، لن أنسى من هذه الطلة، تلك الوقفة، الزيارة، أمورا عديدة، فمن ذلك لونان، وعبارة، وحركة: أما اللونان، فاعلم أنهما الأبيض والأخضر، بياض رخام الضريح والفراغ المصفى، ونضرة الحديقة المحيطة، ولون الخشب المظلل لوحدة القبر، أما العبارة فمنقوشة على نشاهد، أذكر لك نصها:

«..وجاب البلاد، ونزل الأمصار، حتى بلغ شيوخه ألفا وزيادة..».

وقد لاقت عند زميلنا المعماري الجزائري نفس القبول وجميل التلقي، حتى طلبت منه ترديدها بصوت عال، كما شاء أن أقرأها له، والجزائري هذا صاحب غربة ورفيق سفر، إلا أن ما قربني منه هواه الزائد بالمعمار القديم. وعشقه لفاس، وتلمسان، وقسنطينة، ورغبته في زيارة القاهرة العتيقة، قلت له إنه إذا جاء يوما فسأكون دليله. وقال لي إذا جئت الجزائر فسيكون عيني الفاحصتين. وكان ما بدا منه، وما ظهر مني لب المودة.

أما الحركة التي لن تروح من عندي أبدا. فمجيء شيخ أوزبكي، جبته خضراء وحزام خصره حريري عريض. منقوش، وعمامته بيضاء، أما لحيته فكثة، جثا على مقربة. ولا مس ركبتيه بيديه، ثم بدأ تلاوة آيات بينات من سورة يس، وتلك سورة مباركة اعتدت ترديدها عند مثوى أمي وأبي، رحمهما الله رحمة واسعة! فارقت ضريح الإمام، وكان الطريق الخارجي مزدحما، وقوم قادمين، ساعين للزيارة، ونهر زارافشان متدفقا بمياهه. ومزارع قطن شاسعة، أما داخلي فزاخر بفيض، وتوق، وشدة فقد، لو أنها بالصحبة!.

عللت النفس يا أخي برؤيتها في المزرعة الجماعية، إذ تجددت المصدر، وسلام مبين، أما السماء فلاحت أبدية،

منبسطة، فيها أصداء القباب السمرقندية الزرقاء، كذا شهوق المداخل المؤدية، ونمنمات الضوء المنبعثة من عينيها. وراء بشرتها. وشموخ نظرتها الجانبية، كنت متحسرا على كل لحظة تمضى وهى بعيدة عن النظر، على وشك أن أضع يدى على سريان عبيرها خلال زهر الليمون، وظلال الأشجار، وترقرق أجنحة الفراشات المحمومة، جلنا عبر المزروعات المغطاة، وقفت عند قنوات المياه، ولأمر خفى، حننت إلى الإسكندرية، ورسوخ قلعة قايتباى، ومداميكها الحجرية المواجهة لصخب الموج وعنف هبوب الرياح وفوق الأبراج حراس أشداء، وأصداء صيحات متجاوبة، ورجال منقطعون عن الأهل والولد، مرابطون تحسبا لهجمة مفاجئة تجىء عبر الفضاء البحرى الذى يفغر فاه، فكرت فى مدينة سلا، هناك أقصى الغرب، وشاطئ المحيط، قديم انقطع فيه مجاهدون أوائل، وشرفة حجرية كل ما تبقى من حصن زال معظمه عند شاطئ تونس، وردت على أعمدة مرمرية غارقة تحت سطح بحر ناء، ومنحنى فى سمرقند وقعدة لرجلين يرقبان مغيب الشمس إيذانا بتناول إفطارهما الرمضانى. فى فؤادى تتشعب طرق، ومن غياهب ذاكرتى تفد قوافل الصور. كذا حننت إلى نغم متمهل، يسرى باعثا أحزانى جلت مع الصحب. وتذوقنا شرائح الليمون المرشوشة بذرات السكر وقطوف العنب، متجعد الحبات بعد تمام النضج، والتفاتتى فيها طموح لتجاوز الأطر المكانية، وعندما لاح رفاق الرحلة من بعيد ركض بعضى فى أثر بعض، غير أننى حدت

ببصرى، إما لأننى رغبت فى تأجيل رؤيتها شأن من يؤجل المتعة، وإما خشية ألا تكون بصحبتهم فأوثر البقاء فى مجال التوقع زمنا، مرجئا القطع. وبتر اليقين، غير أن خواء سرى عندى، لو أنها بينهم لتوالت داخلى إشارات حتى وإن لم ألمحها، وعندما دنوا وصافحوا، كتمت استفسارى، تصدع وقتى، وحجبت عنى موجودات شتى من مجال الرؤية، آثرت الانفراد، حتى إذا انتهت الزيارة وليت وجهى شطر الطريق وغبت فى الظنون. عند المنحنى المؤدى إلى مدرسة بيبى غانم، فوجئت بصاحبى يقف، يدق زجاج النافذة..

«فاليريا.. فاليريا..».

يلتفت إلى، وكأنه يعى قضيتى. يشير إلى الطريق..

«هاهى..».

أتابع إشارته، يتدفق القوم أمام الواجهة الشاهقة، على مرأى من النصب الفسيفسائى للزمن، أين هى؟ أين؟ تمضى السيارة، لم أرها، مطامح شتى، وأودية عتيقة، معاطف، أغطية رأس؛ طفل يحمل زهوراً، فتارين صغيرة. الطريق منحدر، آثار المدينة تحدد مسارات الطرق، الأشجار باسقة، لكن ما من توليب، لا يبدو إلا معها، ولا يلوح إلا بقربها، يلتفت صاحبى إلى. قال مؤكداً..

«كانت تمشى هنا..»

تساءلت..

«بمفردها؟»

مط شفتيه.

«لا أدرى.. لمحتها هى..»

هل رآها بصحبة أحدهم ويخفى عنى؟ من أين قدمت، وإلى أين؟ وكيف أمضت الساعات الماضية؟ توقفت العربة أمام مدخل السوق، باعة الجبن الحلوم. والسجق، والخبز الأوزبكى، منتفخ الحواف، أخمص الوسط، ناصع الباطن، قيل لنا إن الوقت المتاح نصف ساعة، أبطأت الخطى، مضى صاحبى مع الجزائرى، آثرت البقاء والمشى بمفردى، سأقطع الشارع حتى نهايته، ثم أعبر لأعود من الرصيف المقابل، لو أنى أراها فجأة، سأتوقف، أمامها. أبثها شكوى فقدى لها، وأرجوها ألا تغيب مرة أخرى، فالمتاح من الزمن غير مساعد. توزع بصرى ما بين الواجهات والمارة، مررت على ثياب مزركشة، واشتريت عطرا محليا ذا فرادة، وقلبت أغطية راس ملونة مرصعة، منمنمة، وحافظات جلدية عليها صور محاربين قدامى، وحيوانات، وطيور كواسر، رأيت امرأة جميلة. متصلة الحاجبين، تماست نظراتها بنظراتى، ومضت ومضيت، استنفدت الوقت المحدد، أسرعت الخطى، محرك العربة دائر، حتى فى المطعم لم أرها،

ولما سألت ناتاشا الهادئة قالت إنها لم ترها، وإنها لم تصحبهم إلى الجامعة صباح اليوم. قالت إنها تفضل الانزواء والوحدة، وإنها مضت تجول بمفردها في المدينة، قلت: لكننا سنرحل بعد ساعة إلى طشقند.

قالت: لابد أنها تحسب وقتها.

قلت: أتعرف هي ميعاد الرحيل؟

قالت: طبعا..

ابتسمت ناتاشا. لاح في عينيها معنى، قالت:

«كانت فاليريا روح السهرة أول أمس..».

طالعتها بعينين أسيانتين، تابعت هي..

«إنها تفيض حيوية».

أومأت مؤكدا ما قالته، غير غافل عن إشارات أبدتها بملامحها. اعلم يا أخي أن العصر والبرد القارس وأصداء المدينة الغامضة عليّ، ناءت ولفتني بوحدة، أما افتقادها يوما بأكمله فضاعف الخواء والوحشة، صرت أتعجل الرحيل، الوصول إلى المطار، هناك سأراها بالقطع، غير أن الأمر لم يأت بما توقعته يا أخي الكريم. فعندما دنا الوقت، وتحركت السيارة صوب المطار، كانت غيبتها مستمرة، أيعني ذلك تخلفها هنا؟ أضلت طريقها أو أصابها مكروه، أو التقت بنفر

من قرمها. شغلوها ورتبوا لها ترتيبا مغايرا. وهذه أناديها على البعد: لم يصلك ما عندي ولم تلمسي ما يمر بي لم تدركي، ولو أنت أطلعت على قبس لما ضيعت يوما كاملا لم أرك، لم ألمحك فيه. أوليت ظهري لسمرقند، عاصمة تيمور، لأرض استعرض فوقها جيوشه قبل خروجه إلى العالم غازيا، مرة إلى الشام، ومرة إلى الهند، وآخر الخرجات إلى الصين. أوليت ظهري لطوابير الغنائم، للسبايا الجميلات. لأولوج بك الفلكي. للخوارزمي، لمثوى ابن سينا المجهول، لليال متوالية تطلعت فيها عيون متفحصة للسموات العلا، لمقرية مندثرة في وادٍ بعيد هنا آوى إليها يوما بناء أجهله، أو رسام لا أعرفه، أو قاصد سبيل متغرب عن موطنه، كان الغروب يدنو، والمطار ممتدا، فيه شيء من لا نهائية الصحراء، وأبدية الوقت، ومما تعجبت له عند مطالعتي تصميم المدينة، أن هذا المطار أقيم في نفس موضع الباب الشمالي الذي كان يخرج منه القاصدون بخارى، فهذا موضع مفارقة، ومكان رحيل دائم، اعلم يا صاحبي أن سمرقند البالية كان لها أربعة أبواب، كل منها يقابل جهة أصلية، فالشرقي يؤدي إلى الصين البعيدة، والغربي سمي بباب النوبهار ولم أعرف معنى ذلك، أما باب كش، أو الباب الكبير، فكان يؤدي إلى موطن تيمور الأصلي إلى مسقط رأسه، وهذا مكان الرابع حيث وقفت قلقا. أسفا. أرقب طلتها أو قدومها، سألت صاحبي عما يظنه سببا لغيابها. أبدى دهشة، قال إنها محيرة، صمت لحظات ثم قال، إنها تحب

الاهتمام بها، أن تكون محورا، ومركزا، وقبلة للأنظار، ولابد أنها ستظهر فى اللحظة الأخيرة بعد أن يكون الجميع شغلوا بها.

هذا التفسير يا أخى لم يرضنى، لم يعجبنى، إنها محور دون أن تقصد، وبؤرة بغير تعمد، لمحت الهندى وصحبه، سارعت، استفسرت منه ضاحكا - كأنى لا أبالى، كان سؤالى عرضى - عن مرافقتهم الجميلة، فقال إنه لم يرها منذ صباح اليوم. ابتعدت رحت وجئت، عدت أقول لصاحبى إن ما أقدمت عليه يعد استهتارا، هل لديها تكاليف العودة إلى موسكو البعيدة؟ كرر صاحبى، إنها محيرة؛ انصرفت عنه، قلت لناتاشا، يبدو أن سمرقند أعجبت فاليريا. مطت شفتيها، سألتها، ألم تكن بصحبتها فى الحجرة؟ ألم ترها عندما حزمت حقيبتها؟ قالت إنها لم تكن فى الغرفة. أما حاجاتها فكانت مبعثرة، جاء صاحبى، أفضى إلى بنبأ. أرسلوا عربة للبحث عنها..

قلت:

«لا أدرى كيف ستقضى الأيام هنا بمفردها؟».

ردد..

«إنها غريبة».

ثم ابتسم، ثم قال..

«تبدو مهموما لغيابها».

جاوبته باختصار.

«إن الأمر جدا!».

مع اكتمال المغيب. أذاب الغسق ورمادية الشتاء والرياح الباردة حدود المطار المادية، فبدأ متصلا بالغيب، بالمجهول، وفى الأعالى تتغير السماء السمرقندية بسرعة فى مواجهة الليل المقبل، اعلم يا أخى أننى عندما أفارق أرضا رأيتها أول مرة أتساءل. هل سأراها مرة أخرى؟ تذكر يا أخى رحيلنا عن فاس، عندما ضمتنا صحبة معا، أتذكر كيف كنت أفارق الطرقات والزنقات والساحات الصغيرة وقنوات المياه الجارية، كذا واجهات البيوت، كنت أتراجع بظهرى، حتى كدت أصطدم غير مرة بالعابرين. لم أكن أريد مفارقة الزوايا، والعطوف، والنواصى التى أحببت، هذا حالى أيضا فى لحظاتى السمرقندية الأخيرة، وإن مازج أمرى هنا انشغالى بتلك البنية، أضاف ذلك وجدا على وجدى، كانت الثوانى تنسل، والقوم وقوف، لا يبدو عليهم اهتمام بغيابها، أنه انتظارهم، عادى، لا ترقب فيه ولا قلق، عدا رجل رافقنا من طشقند. كان مسئولا عن الرحلة، بدا مشغولا لغيابهاولكن من وجهة غير وجهتى، ومن منظور يخالف منظورى، فجأة سرت حركة بين الجمع، امسك كل منهم بحقيبة اليد. أو ما سيصحبه إلى الطائرة، لم أدر من أشار ببدء الحركة، غير أن جنديا أسرع الخطى، وفتح

البوابة الحديدية الصغيرة التى تتخلل السور، بسط ذراعه فوقها، كأنه يشير إلينا: تقدموا. كان علينا أن نعبر واحدا بعد الآخر، بدأ اتجاهنا عبر المطار يتخذ هيئة طابور غير منتظم، أبطأت الخطى، بل توقفت لحظات حتى إن صاحبى تطلع إلى مستفسرا، مازحا قال.

«هل قررت البقاء هنا؟».

لو أنك مكانه يا أخى، لو بصحبتى، لسألتنى بنفس اللهجة، فالمكث بمفردى يبدو مستحيلا، فى رحلة جرى ترتيب مراحلها وفقا لنظام محكم، أما المسافة بين سمرقند وعاصمة البلاد فشاسعة غير أنك يا أخى تعرفنى أكثر، إذ بدأ الخاطر عندى، وتصاعد. أن أبقى حتى ألقاها، ألا أرحل بدونها، ولم يبق إلا انسحابى خفية، أو إعلانهم بقرارى، كيف أمضى وهى ليست فى مجال البصر، أرقبها، وأتملاها، وأتمناها، سأرجع إلى المدينة، إلى الفندق، وعندما ألتقى بها، ستبدو الدهشة فى ذرات ضوئها، عندئذ لا أدرى، هل سأبقى صامتا لثوان، أم أشرح لها ما فعلت؟ هل سيصلها جواى واتقادى لحظتها؟ عندئذ أقول لها إن تخلفى سيثير اهتمامهم، فأنا غريب، محدود المدة، وسيبدون لى من تسهيلات العودة مالن تلقاه هى، لذا آثرت التخلف والبحث عنها خشية أن تصعب عودتها..

لكن!

تعرف يا أخى أنه عند ورود كلمة لكن على الخاطر تبطئ مسارات الأمور، تتمهل النوايا،ويلوح مفترق. ماذا سيقولون،

وكيف يفسرون بقائى من أجلها: أنا من لم أجهر بعد بالقول أمامها ولم أصرح. كيف أخاطر بالبقاء فى مدينة أجهل لغة أهلها، الأمر أصعب وأعقد، هكذا رحت وجئت، درت على وترددت داخلى، أقلعت صوب جهاتى، فما يكاد شطر منى يولى القصد تجاهى، حتى يرتد شطر ثان مبتعدا عنى، وما إن أوشك على الرسو عند ساحل ذاتى حتى يهتز قاربى. يختل. فأنأى وأقترب. أميل وأعتدل، لم أحسم، وهكذا مضيت مساقا صوب الطائرة. آخر القاصدين، وأتعس الراحلين، متثاقلا، كارها مسارى، إذن سنقضى ليلتنا المقبلة فى طشقند بدونها، لن تصحبنا إلى العاصمة فكأن السعى فى مفازة شجواء إلى نهاية الاستيحاش، قبل أن ألج جوف الطائرة تلفت، هناك عند البوابة يقف جنديان، عند مدخل البوابة يتطلعان صوب نقطة ما. تواريت فى المقعد الضيق غير عابئ بتطلع إحداهن إلى مبتسمة وكأنها تدرك ما بى ساخرة، لم أقعد بجوار أحد. وضعت حقيبتى الصغيرة بجوارى، من يدرى، ربما جاءت فى اللحظة الأخيرة، عند دخولها ترى المقعد الشاغر فأجاورها مدة ساعتين. تطلعت عبر النافذة الرمادية، غبش رمادى متزايد. أصداء المدينة التى لا تلوح لناظرى، القريبة، البعيدة الآن.

لكن .. ماذا؟

هل تخف لهفة المشتاق؟ هل ينزاح الثقل؟ لقيت نفسى يا أخى يردد بصوت هامس، عاتب، متدفق النظر إليها حيث لاحت، وبانت..

لماذا فاليريا؟ لماذا لماذا؟

أعاتبها، أهدهدها، ضاما إلى ما يشع منها لهفة وخوفا إثر العثور عليها فى اللحظات الأولى، رعوم. حان، متهدج، غير مصدق، فأحدق أطول، ثم أقربها، مستعيضا عن النظر بالتقريب، بالضم، بينما عتابى المنطوق لم ينقطع. تعرف يا صاحبى أن الإنسان إذا انفرد بنفسه يرتفع صوته أحياناً. أما مغنياً أو محدثاً، ربما بدافع خفى، قديم من الأزمنة المندثرة. إذ يلقى نفسه وحيدا فى غابة، أو قفر، محدقة به أخطار شتى، وأفظعها المجهول منها، عندئذ يصرخ ليؤنس فردانيته، ولحظة انبثاق رؤيتها كنت الأشد وحدة، ظهر تكوينها فآنست منه أمنا، أبرزت ورقة للجنديين. صاح شخص كان يقف تحت الطائرة. تجتاز المسافة، لا تعدو إنما تتدفق، مويجات، رخات مطر، رشقات مصوبة تجاهى، أما دخولها فاندفاعة وتفجر نبع، خطوتها الواحدة نقلتها إلى الأمام، تجاوزتنى لم تر المقعد الشاغر بجوارى، صاح الجمع كلهم وناداها بعضهم باسمها، واستفسر آخرون عن غيابها، وأبدى البعض اهتماما مفاجئا. عداى! لزمت السكينة، وقفت تخلع معطفها، تروض نفار شعرها، ولم تكن إلا مبتسمة، ولم تكن إلا مشعة، ممهورة بالضوء، بالألوان، جلست فغابت عن مجال عينى، وليت وجهى شطر السور، البوابة التى لم تعد موضع ترقبى الآن، السيارة التى مضينا بها فى الصباح إلى ضريح الإمام البخارى، ترى إلى أى مقعد جلست، ليتها مست المكان الذى شغلته، فنلتقى

حيث لم نلتق، قربت وجهى من زجاج النافذة، أرقب جريان الأرض. لحظة انفصالنا عنها، هذه سمرقند من عل، لم أدر هذه البيوت، وإلى أى مسجد تنتمى هذه القبة القائمة فوق التل البعيد؟ بدأ سحاب، تزايدت كثافته، لم أعد ألمح شيئا. غربت سمرقند فى الليل والغيوم، كنت راضيا، مرضيا كأنى ارتحت من لهاث أعقب ركضا. لم أتطلع تجاهها، لم أحد بنظرى، فما أعجب وما أغرب!. إلا أننى عند وصولنا الفندق، بعد اتجاهنا إلى الغرف، بعد نزولى إلى المطعم، بعد دخولها، قمت إليها، دعوتها فلبت، قلت لها إننا غدا سنكون فى موسكو، ينفض الإطار، وبعد أيام ثلاثة سأفارق إلى موطنى. ومن يدرى. قد لا أعود إلى هذه الديار مرة أخرى، ما أريده دقائق كى أحدثها، بمعزل، بمنأى، إننى أدعوها إلى غرفتى.

توقفت متهدجا، إنها ساهمة، مدت أصبعا..

نتحدث!

بدا لى صوتها يحمل قليلا من الموافقة، وكثيرا من النذر..

قلت:

بالطبع..

قالت:

ولماذا لا نتحدث فى غرفتى؟

قلت:

في أى مكان تشائين..

ثم قلت:

قصدى الانفراد.

قالت:

إذن.. سأنتظرك بعد صعودى..

هنا صارت دقات قلبى دوارج، حتى أنهكت بما يجرى داخلى مع أنى وثاب، فاغفر لى يا أخى الأعز إسرافى فى أمرى..

تـــــوق

.. اعلم يا أخى الحبيب، الصاحب، القريب، إن أصعب اللحظات ما يتم فيها التأهب، حين يلملم المرء شتاته. يحاول أن يجيء من هنا وهناك بما يمكن أن يعنيه ويقويه. الأشق انتظار الفعل، وليس الفعل ذاته، اعلم أن أوعر ما مر بى فى مرات سجنى توقع الضرب والأذى، وليس التعذيب عينه، أثقل ما عرفته أثناء القتال ما يسبق بدء الهجوم وليس الاشتباك. أصعب مراحل المرض الجهل به، ما من مرة قاربت فيها من أحب إلا وانتابتنى رهبة. وأكثر ما يكون المحبوب وجلا عند مضيه إلى لقاء، إذ ربما يتم الفناء مع اللقاء، فيذهل عما حوله، هذا ما جربته، فما البال إذا كان من خصالى أيضا عيش

اللحظة إما قبل حلولها. وإما بعد انقضائها إما فى السابق وإما فى اللاحق، لك إذن تخيل حالى. وما صرت إليه قبل المضى، أحقا سأنفرد بها؟ هل ألقى نفسى فى القربى بهذه السرعة؟

كيف سأبدأ؟ بأى جمل أفتتح حديثى؟ ماذا أقول؟ بل الأدهى، ماذا أريد؟ كوكبها أسرنى، هذا حق.

أدور فى فلكها؟

هذا حق.

ها هى الفرصة تتاح الآن لأفسر، وربما أعقب ذلك أمر، هل أرمى إلى إعلان حقيقة ولهى وجنبى؟ نعم. لكنْ أيكفى هذا؟

كلا ثم كلا!

إذن.. هل أبغى الفناء؟ الاتحاد؟ لا أدرى، هل أعى ضيق المدة، ألن أفارق هذه الديار كلها بعد ساعات معدودات؟ فإلام أرمى؟ أى وصل أبغى؟ وصل عابر؟ هذه لا يطابق كنه حالى إذن.. مالى أتعلق بالصعب؟ مالى أحاول فتح باب لن أقدر على رده؟ مالى أوغل فى درب قد لا أستدل على عودتى منه؟ رحت أقلب أمرى، حتى مرت بى لحظات ندمت فيها على سعيى، مع تمام وعيى أن الأمر ليس بيدى منه شىء، فإلى أية غاية؟ تعرف يا صاحبى أننى عندما أكون فى جمع أحتمى بهم منى، وأتحصن منهم دفعا لى. وقديما قالت لى محبوبة همت بها

قدرا، أنت تتكلم حتى لا تتكلم. لحظتها فوجئت، أدركت أنها كشفت بعض سرى، وما أسطره لك يا أخى لم يطلع عليه أحد، ولا أقرب الخلق منى، فهل أنا بحاجة لتنبيهك إلى الكتمان والصون؟ آمل أنك ملبٍ!. لملمت شظاياى. تناولت لوحة صغيرة، فيروزية اللون، عليها نقش عتيق، حملتها من أزقة قاهرتى العتيقة، أبدعها عجوز تجاوز التسعين. آخر جيل المهرة فى النقش والترميم، نوافذ الجص، والأفاريز، والعتبات المؤدية، حملتها معى خلال أسفار عدة، أقسمت ألا أقدمها إلا لمن أرى أنه يستحق، لوحة بسيطة، خلومن أى صدف أو حجر ثمين، لكن لنقشها رقة وترجيع وإيحاء، أن لها الانتقال عنى، تناولت حذرا من حقيبة يدى التى لا تفارقنى، جلت بنظرى فى الحجرة، الحقيبة، الكتب، السرير الذى لم أرقد فوقة بعد، رفعت سماعة الهاتف، عندما جاءنى صوتها بدأ نائيا محاطا بغلالة من ظلال، استعدت مرأى شجرتى التوليب، والغبشة الصباحية. رواحها ومجيئها، منذ لحظة سريانى صوبها..

تعال .. أنا فى انتظارك..

اكتمل تأهبى، بدأ شروعى، كل ما أريده عند المثول أمامها، عند الانفراد، أن أوصل إليها بعضا مما عندى، أما أن أرحل بهذا التفجر كله فإلى جانب أنه حمل ثقيل، فلا شك أنك توافقنى على ما فى الأمر من ظلم. أن أشعر تجاهها بهذا الدفق كله، ثم امضى دون أن تدرك فأمر فيه عبث بالناموس،

مـررت أمـام الأبواب، تتـوالى الأرقـام، وعندمـا وقفت أخيـرا لم أطرق مـباشـرة، إنما تطلعت، قـديما قيل إن مشاهـدة المحبوب هى أعز مطلوب. وعندها يجب التزام آداب بعينها. منها الثبات وعدم الالتفات والخشوع والاقتناع والخضوع، وتنسم رائحة المحبوب، لكن من هو مثلى، هل يثبت؟ من قـام بثيابه الحريق كيف يسكن؟ النـار التهـاب وملكة، فـلابد من الحـركـة. من هدأ باللقـاء قلقـه فمـا هو بعاشق، كيف يصح والعشق كله ظهور، مـددت يدى مـرتين ولكننى انثنيت. ثم حـزمت أمـرى، وعندمـا فتحت بدت كنصب أبدى للجمـال، للحقيقة الناصعة، لم تكن مـرتدية إلا قـمـيصـا أزرق يتيح لعنقـهـا الانسـيابى الظهـور، ولصـدرهـا البـروز والمنـاداة. فى اللحظات الأولى أدركتـهـا فى جـملتـهـا، ولم يهـدأ قلبى، قـعـدت بعد أن أشـارت إلى، لا أدرى والله يا أخى مـا قلت، ترتج ذاكـرتى وتغـيم على، تعـرف تبدد الكلمـات الأولى، حتى مـا تفوه به إلى أقرب الخلق منا تصـببه الذاكرة وتطمسـه، أعى الآن اللحظة التى بسطت فـيـهـا يدى. تطلعت إليها بكل ما امتد ورائى من أزمنة قدر لى أن أعيشـها. وأمكنه ارتدتها أو أقمت بها، وأشواق طافت، وأمورى المبهجة، عندمـا لمست أصـابعى أصـابعـهـاو عندمـا تلامس مـشـارف وجودنا الحسى، قبضت يديها، وعبرهمـا تدفق منى إليها حنو ورفق وطلب ومودة ورغبة فى القربى، رفعت إليها ابتهال عينى، لم أستتر، لم أتوار، لم أبذل الكد لأظهر مـا ابطن، كنت أتأهب للتـأهب للاندلاع، كنت أرتد بشـرا سويا، أسـتـعيد زمن زهوى

ونضارتي، والله يا أخي، يا صاحب الأيام الصعبة، لم أكن راغباً إلا في الحومان عند أطرافها. والتحليق بأقصى أفقها، أتطلع إلى مواردها لا غير مع علمي ويقيني أن فيها ريي، غير أنني رصدت تبدلا في ملامحها، كأنها ستنبهني إلى أمر، بينما لاح عندها ما خيل إلى أنه ندم، أو رغبة في تدارك أمر فات أوانه، ماذا في الأمر؟ ألم تقل إن زميلتها ستسهر حتى الفجر، وربما قضت الليلة بغرفة أخرى، ألم تؤكد أنها بمفردها، لكن.. أتدري ما أفضت به إلى، أتدري؟ قالت إن صاحبي سيجيء بعد دقائق، إنها دعته.. لا. سأورد لك ما قالته بالضبط أثناء تراجع قامتها قليلا..

لكن صاحبك قادم!

بدت لهجتها محيرة، كأني المسئول عن دعوته، هل أدركت أخيرا، في هذه اللحظات. دقة وصفاء وعنفوان ما عندي؟ كنت يا أخي أعول على ذكائها البادي، على أمور خفية قربتها مني، متمهلا سحبت أصابعي، أطرقت حزينا، خائبا، راغبا في النأي. في التواري، في التوحد، في الإيغال مبتعداً، على مهل تصاعد غضب، أن تأبى هذا حقها، أن ترفض الانفراد بي هذا مشروع. لكن أن تسخر. فهذا صعب علي. وعر تحمله، ليتني لم أجاورها، ليتني بقيت في مداري، لا أحاول الاقتراب، لذت بي، بصمتي، تعرف يا أخي أنني لطول ما عانيت. لشدة ما قاسيت، صرت أتقن إخفاء ما عندي، لا أدع ملمحاً يتسرب إلى

قسماتى، لكم تمنيت بسط نفسى أمامها كل البسط، أن أفض مغاليق شتى، كان الأمر ثقيلا. ويبدو أنها لمحت بوجهى ما نم عن طويتى، ما جعلها تنظر إلى هذا النظر الطويل. وتعاقبت على الأحوال، فمن خيبة أمل، إلى خجل غامض، إلى رغبة فى الرثاء، فى البكاء، حدت بنظرى، وليت عنها، هذا مرفأ غير صالح لرسوى، هذا محط غير آمن فلأتجنبه، هذا سراب فلأنتبه. هذا ظل كاذب فلأحذر، فلأمض فى هجيرى المقدر، شرعت فى التهيؤ للانصراف، هنا طرق صاحبى الباب، بدا غير مفاجأ بوجودى، ما أصعب الوقت على وأنا أحاول إسدال الحجب حتى لا يتسرب من أمرى خبر، ترى.. هل أخبرته بحوارى معها، برغبتى فى الانفراد؟ ترى.. هل يضمر سخرية منى؟ لم يغلب على خجلى، بل ربما قصصت عليه ما جرى غدا أو بعد غد، أما ونكسى مازال فى بدايته، وأنا مازلت بعد أعبر تلك اللحظات الفاصلة بين وقوع الجرح وبدء دبيب الألم، فلم أكن قادرا على الجلوس، أو المنادمة، تحركت هى، فتحت حقيبة زرقاء، أخرجت حلوى سمرقندية. قالت إنها لم ترها إلا فى المدينة لم يكن هناك أطباق، إلا تناولت طبقين صغيرين، يتوسط كل منهما كوب زجاجى، وضعتهما فوق المنضدة. لم يفتنى أنها قربتها منى، وأن حركتها فى مجملها متجهة نحوى، فى غمار غمى لاحظت ذلك. كنت قد تراجعت عن الانصراف، لا أخفيك يا أخى أننى لم أشأ تركهما معا، بمفردهما، ستقول إنها الغيرة، أقول يا أخى لو أنك أنت ثالثنا لما تركتكما معا، ستقول

هذا عن شدة تعلق، أقول وهل أعلنت صور تعلقى أو هواى؟.
المهم يا أخى أننى اقترحت دعوة صاحبنا الجزائرى، وأخرى كانت تظهر وداً لصاحبى، بعد قليل جاء، صرنا خمسة، أصبحنا جمعا، وهكذا احتميت بهم منهم، أمكننى التوارى إلى حين، أثناء الحديث التفتت إلى مرات، مرة سألتنى عن صمتى، ومرة قطبت عينيها متسائلة، ومرة ابتسمت بود وترحاب، تحاشيت تسديد النظر إليها. أو الدخول معها مباشرة فى محاورة. حتى إذا ما انقضى وقت قدرت أنه مناسب وقفت معلنا تعبى، ورغبتى فى المضى، خاصة وأن سفر الغد طويل. غير أنها وقفت مقطبة الحاجبين، مشدودة الجبين، طلبت منى أن أبقى، أبديت ابتسامة لا يحب رؤيتها من يعرفنى. سدت طريقى، أشارت بيدها صوبى، اكتست ملامحها جدية، قالت بلهجة تحاكى فيها الخطاب الرسمى..

«آمرك أن تبقى..»

أتبعت ذلك بابتسامة. ولم يغب عنى المعنى البعيد فى إيقاع صوتها، بحق مالى عليك آمرك أن تبقى، كما انتبهت إلى دلالها. تطلعت إلى الصحب، لبيت، عدت إلى مكانى، لم أدر كيف مضى الوقت، ولكننى عاودت إبداء رغبتى فى الانصراف، لم تثن عزمى فى هذه المرة نظراتها الملومة، ولم يلح على أحد، بل إن الجزائرى قام واقفا، قال إنه يود الذهاب أيضا، عندئذ تأهب الجمع كله. كنت أول الخارجين، وعند اجتيازى الباب

أدرت بصرى، لمحتها واقفة، متطلعة نحوى، وحيدة تماما، عند المصعد مال على صاحبى..

«أقترح عليك العودة».

بوغت. تطلعت إليه متسائلا..

«عند وصولك غرفتك. اطلبها فى الهاتف، و ..

قلت باختصار

«لا أرغب»

«يا أخى، ألم تخلط فى عينيها اهتمامك بك، نظراتها إليك..»
نظرت إليه وكأنى بعيد..

«إننى متعب..»

بدا متعجبا، مضيت إلى غرفتى، مرتد النوايا، خاسئ الخطى، راغبا فى الانزواء. قعدت عند حافة الفراش منحنيا. ممسكا اللوحة الجصية، لم تتح لى فرصة حتى أقدمها، لا أرغب شهر هداياى فى حضور الآخرين، أزحت ثيابى. اطفأت المصباح الحاد نافذ الضوء، رددت: آخر ليلة فى آسيا الوسطى. ثم فكرت: فى أى اتجاه أسير صوب مدينتى؟ إلى دروبى التى أعرفها. فى اتجاه هذا الجدار أم ذاك؟ لو مددت خطا مستقيما من نقطة رقادى هذه، بدايته هنا ومنتهاه فى القاهرة، كم يبلغ طوله؟ هذه الأرض المقام فوقها الفندق، من

وطنها؟ هل داستها خيول جنكيز خان؟ جيوش تيمور، أم كانت محطا لقوافل تجار الحرير. لماذا تبدو السماء هنا أرحب، محسوس انبساطها حتى وإن لم تقع عليها العينان، أما فى بخارى فمحيطة بالمدينة. تلفها من كل جهة، ولا تنبسط فوقها، أما فى سمرقند فتتخللها الأعمدة والمداخل والقباب والنقوش والآيات البينات. استعدت انحدار طريق سمرقندى، وشرفة مقهى بخارى ساعة الصباح، وقبة توشك على الاتحاد بالفراغ الصاعد لزرقة ألوانها، تقلبت مرة ذات اليمين، ومرة إلى الشمال، ثم قمت قاعداً فى فراشى..

أنا فى الطابق السادس. هى فى العاشر. غرفتى أول الممر، غرفتها آخر الممر من الجهة الأخرى، عبثا حاولت طرحها، اقصاءها عنى، عبثا لجوئى إلى ما تصورت أنه تداعيات ما قبل النوم، بدت خواطرى وبوادهى كلحظات سكون الماء قبل غليانه، اهانتنى، سخرت منى، كيف قبلت البقاء بعد ذلك؟ تطلعت إلى الهاتف، أيمكن أن أصغى إلى صوتها فى هذه اللحظات، ألا تزال بمفردها أم عاد إليها أحدهم؟ إنى مرهق، متعب، مكدود، راحل غدا، ولأنى منكسر، معكوس الخاطر يا صاحبى فقد انتابنى رثاء لذاتى، ورغبة فى نعى أحوالى. وفى مثل هذه اللحظات يتذكر الإنسان سعيه فى أوقات ضعفه. لم أكن تعبا بإرهاق يوم أو يومين، ليس بتأثير خيبة. لكن بما أحمله، بتراثى كله، أستعيد رقادى إثر مرضى منذ عامين، تذكر عندما عدتنى مرارا، أوقات الظهيرة بحرها القاسى،

ووحدتها الجافة التى مرت على. وأصوات الطريق الذى لم أكن قادراً على الخروج إليه. كدت أدمع عندما استعدت وهنى الذى كان، جئت إلى أرقى بلحظة ليلية نائية بعد عودتى من سهرة قضيناها معا توقفى فجأة أثناء سيرى، إدراكى أن حديثنا عما كان يفوق حوارنا عما هو آت، أيام نائيات ظننا يوما أنها الغاية. أنها لن تبيد أبدا، انقضت، ولت، إذا بالزمن يسرع فلا نجلس إلا لنستعيدها. أورثنى هذا شجى، ذلك مالم تعرفه تلك البنية عنى، مالم تعقله أن وجودها تجاهى كان يستثير عزما ظننت أنه ذوى، وقدرة على البوح طال خمودها، لكن أنى لها ذلك ولم أخاطبها إلا فى جمع، أنى لها الاطلاع على موروثى وهى لم تتجاوز العشرين إلا بسنوات أربع. و تلك نقطة يتطلع فيها المرء إلى الغد، لا يخشى الطوارق، الدواهم، يسألنى بعض من لا يعرفنى، لماذا تبدو مسناً وأنت لم تتجاوز الأربعين إلا بسنوات قلائل؟. معهم الحق ياأخى إذ إنهم لا يعلمون، لا يعلمون أننا مررنا بمراحل تبدو متقاربة لكنها متباعدة. ولم يكن الحمل يخصنا، ولكننا لم نلقه، ولم نتخلص منه، إذ إنه متصل بقومنا، وجمعنا. بعض مما عرفناه كان ممكنا أن يهدد جمعا، لو أفضت فى هذا، لن أكف ولكننى أضرب لك مثلا بعصر انقلاب الأحوال. وانعكاس القيم. الذى عشناه وعصف بنا فى سبعينيات زماننا، وأننى لمحدثك يوما عن رسالة ضمنتها بعضا مما جرى لمن عرفتهم وشيعتها إلى صاحب لى آثر الغربة. وسميتها رسالة البصائر فى المصائر، لذا أقصر

الآن، ولا أفصل! إنما طال تلميحى لأنبهك إلى ما عنته البنية بانبثاقها المباغت، بحضورها الوهاج، بحيويتها، فكأنى قصدتها لأنهل منها ترياقا يجدد ما بلى. وينهى عبوسى الذى طال. لو أنها صدتنى لا نثنيت، لكنها.. سخرت. أليس ما أتته عين السخرية؟ بلى، شيئا فشيئا اتقد دماغى. لمت ذاتى، كيف أقذف بنفسى تجاه من أجهله. هل بهرنى جمالها؟ كيف سأطيق الرحلة غدا وهى على مقربة، فى نفس الطائرة، لن أتطلع إليها. لن أتجه إلى أى موضع تقف فيه، وإذا أقبلت نحوى وخاطبتنى، فسأبدى لها الجفوة، سأسمعها ما يقوله محب بعد انقلاب العشق إلى بغض. مع أن المحبة لم تمتد بيننا، وما جرى هبوب من عندى تجاهها.

أغمض عينى، العتمة تهن فى الخارج، والنوم قصى. أما قلبى فيعدو جاهدا فى أثرى، أحمله مالا يطيق، أخشى ما أخشاه أن يتعثر، أن يكبو، أمامى سفر طويل، إنى بحاجة إلى الراحة، فلماذا لااهجع، لماذا لا أغفو، هل نامت هى مباشرة بعد انصرافنا، أم أنها تتقلب بين ذراعى رجل من قومها، استدعته بعد ذهابنا، ميراثه ميراثها، وما احتاج مراحل متوالية لأشرحه، لأوصله لها، يدركه هو فى لمحة، قمت من رقادى، متطلعا إلى رمادية الضوء، إلى طلائع النهار الآسيوى البكر، ما أنأى المسافة بين مضجعى وبينى!.. وما أقربها!.. تطلعت إلى الصوان المقابل، إلى دورق المياه، إلى الراديو الصغير. وحقيبتى التى لم أخرج محتوياتها، أما اللوحة

الجصية فعلى مقربة منى. كان من المفروض أنْ تكون بين حاجاتها الآن، أطرقت، تساءلت، لماذا أقسو عليها؟ ما ذنبها؟ إنها لا تعرفنى، وما أنا إلا فرد فى جمع، ذات جمال مثلها لابد أن القصاد طرقوا السبل إليها، وأسمعوها من الكلمات أرقها. ألم تقل لى عندما أظهرت البادرة الأولى..

«.. وكيف أصدقك ؟؟..».

غير أننى اتكلت على احساسها الأنثوى، فما عندى تجاهها إلا صدق النوايا. بدا لى أن مكنونى سيصل إليها، لكننى كنت أعول على بى. أو أطلب العون منى، فما أضيق الساحة وأصعب الأمر، هكذا اكتمل نهار جديد من عمر الدنيا وأنا موزع. مفرق، متحامل عليها، مبرر لها، قاس ومشفق معا، أتطلع إلى الفراغ. إلى النهار الجديد، لو أغفو نصف ساعة، غير أن جسمى كلما اقترب ولامس المضجع. نأت الخواطر وفرت، هكذا فارقت الفراش وقفت متطلعا عبر زجاج الشرفة. مشتعلا بنصبى، محاطا بوحدة صماء، انحنى ببصرى متمهلا على الحديقة الأمامية، أقصد شجرتى التوليب، أوشك على ذرف وجدى، من هنا كان البدء، بينهما سعت، فى مجالهما اكتشفت مدارها، كنت يا أخى أصغى إلى الصمت السارى عندما وقع ما استهدف دفق قلبى، إذ رن جرس الهاتف فجأة، رنينا حادا، متصلا، ماذا.. هى؟ أتدعونى؟ إذن.. هل مرت بما مررت به؟ ألفها الأرق كما لفنى؟،أتدعونى لنقابل النهار معا

كما كنت أشرع فى الزمن القديم؟ قطعت خطوتين إلى الهاتف، وعلى ملامحى مشروع عتاب، لا أدرى كيف سيكون جوابى، أمسكت على أنفاسى، غير أننى فوجئت برجل يتكلم لغة لا أعرفها، مجهولة عندى تماما، لم أفهم، قلت بالعربية متجهما..

لا أعرف، لا أعرف..

من هذا؟ من أية جهة؟ ماذا يريد؟ كيف فى هذه الساعة؟ خطأ أم قصد؟ محاولة للتأكد من وجودى فى الغرفة؟ لا أدرى نفضت هذا عنى، تطلعت إلى ساعتى، الثانية والربع فى القاهرة الآن، أضفت أربع ساعات، اجتزت الحد الفاصل بين ذروة إرهاق وبين بدء تعب جديد، يحوى القديم، وليت وجهى تجاه النهار القادم، فت إمكانية القدرة على النوم بمدى سحيق، واجهت الضوء المتزايد، نضاحاً بضرى، بأساى، منطويا على ما استقر عندى من نوى، كنت متستسلما لتوالى مجىء النهار الجديد. فأنا يا أخى حسير!.

مواقع الشـــهب

تحاشيتها !

فى الصـالة المتوهجة بضوء آسيوى انتحيت ركنا قصيا، مغمضا عينى المجهدتين بين لحظة وأخرى منصتا إلى وتائر تعبى، داخلى ظلال من شـجـر توليب، وقـباب، وفـضـاءات لا نهائية، ومسارب بعيدة لمياه منحدرة، عما قليل سأجوز الفراغ، تلك أرض ربما لن أطأها مـرة أخـرى. وهذه ديار لن أجـوس خلالها، مقامى بعيد، دنا صاحبى حاورنى، تجنبت الخوض أو التلميح، وعرف هو فالتزم، قال إن إجهادى واضح، قلت إننى أرقت بعض الوقت، لم أبح له يا أخى بسهادى، لم أقل له إننى

ما غفوت منذ صباح أمس، وإن ما أخشاه ألا يتم قلبي رحيله معي، لكم أثقلت عليه، لكم حملته مالا يطيق. ساعات طوال من الرحيل. وها هو إقلاع وشيك، أتأهب لإقلاع مغاير، من شرق إلى غرب، من أرض إلى أرض، من مواقيت إلى أخرى، طاويا خيبة أمل، ونكوص بعد إقدام، سرى في الجمع تأهب، فوق أرض المطار اصطف عدد من الصغيرات، ملامحهن الآسيوية جميلة بادية، يحملن باقات زهور حمراء، ملت مقبلا الطفلة، حدقت إلى عينيها الواسعتين، المقبلتين، هاتان لن أقابلهما مرة أخرى. لن أطالع نظراتهما، تلك لحظة لقاء عابرة، يعقبها تفرق، كتماس الشهب، تعرف عني يا أخي طول تأملي لهذه اللحظات العابرة، ولعلك محتفظ بعد برسالتي إليك عن الاغتراب واللقيا، لعلك تذكر وصفي لتلك المدينة الحدودية الهادئة. المدثرة بالأشجار والنبات، وخطوي فوق الأرض المبلطة بالحجر، عندما ظهرت شابة، واثقة، متزنة الخطى، قاصدة!. اجتازتني ومضت مبتعدة مخلفة حضورها القوي في الفراغ، خلف ظهورها العابر عندي هياما غامضاواستفسارات شتى، عرفت مثل هذه اللحظات كثيرا فلن أثقل عليك. إلا أنني أقول عن حنوي بالنظر تجاه تلك البنية الصغيرة التي ستسعى بأرض وأسعى بأخرى، وربما لن نلتقي أبدا، كما لم نلتق قط، صافحت القوم، وعند اتجاهي صوب الطائرة الضخمة، الجاثمة، لمحتها، تمضي بين القوم، فارهة، علامة دالة مدلة، تتناول باقات الزهور من زميلاتها، تجمعها. تضحك تبدو لاهية. فهل لي أن ألوم؟ هل لي

أن أعتب؟ هاهى تمد الخطى غير عابئة بالالتفات حتى، تتخطى البعض، ترتقى السلم وثبا، أحرص على تباطؤ. ما أوده أن ألوذ بمقعد منفرد، أن أجاور من أجهله، أغفو ولو ساعة، أخفف من كددى، المقاعد الأمامية مشغولة ،ألمحها عند نهاية المقصورة إلى اليمين، تقف ولم تقعد بعد، حدت إلى الممر الأيسر، تقدمت غاضا بصرى، متحاشيا النظر إلى الفراغ الذى تشغله. وددت سرعة التوارى، التدثر بوحدتى، غير أن ما جرى يا أخى عجب. فوجئت بيدها تمتد لتمسك معصمى، تقدمت صوبى أثناء إشاحتى إلى الجهة الأخرى، لم تنادنى، لم تلفظ اسمى، إنما قصدتنى، أشارت، ولم يكن بوسعى إلا التلبية متوثب الروح، خافق القلب، صامت، لا نطق ولا قول، إنما كلى بهت وغيبة عن حضورى، رأيت معطفها مطويا. مسندا إلى المقعد الشاغر حتى لا يقربه غيرى، أما ما رقرق وقتى وذرى تعبى فمرأى الزهور، الباقات التى جمعتها من زميلاتها، ثبتتها فى ظهرى المقعدين الأماميين، وزعتها بالتساوى، فى تنسيق بديع، مرة أخرى بسطت يدها مشيرة إلى الزهور كأنها تقول بالصمت: هذا من أجلك.

توقفت، جازت إلى المقعد المجاور للنافذة، وعندما استوت، ولت وجهها متطلعة إلى مالا أدريه، أسلمتنى يدها، فتخللت أصابعها حتى امتزج إحساسى بإحساسها، فلم أعد أدرى أصابعى من أصابعها حتى لو شئت تحريك أصبع لعجزت إرادتى عن تحديدها، كنت أستوى على مهل فى حضور جديد.

اعلم يا أخى أن الأمر لم يكن بيدى منه قدر ولو يسير، لبيت والرضا متمكن منى، فكأن غضبى وحزنى لم يكونا إلا عتابا دقيقا لم ألفظه، أو تمهيدا لما صرت إليه. ما إن جاورتها صامتا، ساكنا، متشاغلا بالنظر إلى الزهور، متأملا فى مغزى صفها لها ودلالة الأمر حتى ولى ما عانيته، فكأن أرقا لم يقضنى وسهادا لم يطرقنى، بل إننى لمت نفسى لسوء ظنى، وتحاملى عليها. لا أظنك تعد هذا ضعفا منى، حتى وإن بدا لك هذا فلا ضير على ولا خجل أبديه، تلك لحظات انتفت فيها الحسابات، حرام فيها القول بما يجب الإقدام عليه، وما ينبغى تجنبه، فى حضرتها لا أتقنع ولا استعير. ولا استعين بما ليس عندى. هذا حالى أبسطه كما هو. نقيا صافيا كقطرات الغيث قبل ملامسة اليابسة، ربما تود الإحاطة بما جرى وكان، إنى مذكرك، منبهك إلى أن مثل هذا صعب تدوينه مفصلا بعد انقضائه، فما يقال يفنى عندما يتلقاه الآخر، وعند استعادته أما النظرة فتكتسى المعنى وتنفذ مندمجة بذات المتلقى، العجيب أن تعبى تذرى، وإرهاق قلبى ولى، منهما سرى دفق إلى أوصالى، وشيئا فشيئا لم يعد إلانا، فكأن القوم لا يحيطون بنا، علقت بابتسامتها الثرية، وخضعت لألق عينيها، أما جبينها فبدا رحبا، لا نهائيا، وقامت بينى وبين غمازتيها صلة، انثنيت إلى توالى ابتساماتها، تلك المضمومة منها، أو التى تحاول لملمتها قبل انفلاته ربما لا تدرك عقباها، أو الهادئة المصاحبة لإيماءاتها، أما هذه التى تضىء ملامحها كلها بضى خفى المصدر، فلها شأن يغنينى.

الأمر شاسع يا أخى، يا أعز صاحب، وربما أفردت يوما رسالة أنبئك فيها بالابتسامات وتعاقبها، والالتفاتات وتنوعها، وانفعالاتها الشتى، والاندفاعات المفاجئة، والبوح، والزمن وما حفل، والوقت الذى جرفنى وطوانى وأحال ما كان منى إلى دوارس، غوابر، فأدرك يا أخى ما مر بى، وفق الله أيامك. ماذا جرى منها ومنى خلال هذه الساعات الخمس،ونحن ما بين الثرى والثريا؟ أقول بعضا من كل، فى البدء تناولت سلة فيها لفائف، أرتنى ما اشترته فهذا عطر من أعشاب، أتت به من بخارى، وهذا كتاب عن مساجد سمرقند، عجبت، كيف فاتنى شراؤه؟ ضحكت، أخرجت رغيفا أوزبكيا، قالت إن اسمه «نون» فاستعدت مذاق الخبز الذى ظننت أننى غير ملاقيه أبدا، ضحكت مرة أخرى، قدمت زيتونا وعنبا. قالت إنها لا تتناول فى العادة عشاءها، لكنها أحيانا تجوع فى الليل. فتؤثر الاحتفاظ بطعام يسير، كدت أهفهف فرحا، إنها تطلعنى على شيء من خصائصها، قلت إننى مثلها لا أتناول إلا عشاء خفيفا، كنت أسعى متلمسا ولو شبها بسيطا بينى وبينها، هذا حال لابد أنك مدركه يا أخى، لكم سررت عندما عرفت أنها مولودة فى نفس شهرى، وما بين يومى ويومها ستة عشر يوما فقط، غير أننى تداركت ضاحكا، فرق الأيام قليل، ولكن السنوات شاسعة، عشرين كاملة، صبحها قريب، وأصيلى سار، وداخلى إلى غروب، رددت تاريخى، قالت إنها لن تنسى أبدا، ولما بدأ غيم من وجومى، شردت لحظة، تساءلت عما

أفكر؟. قلت إننى أفكر فى المكان الذى سيكون فيه كل منا بعد سنوات عشر، قالت، لماذا تشغل نفسك بما لا نثق من وصولنا إليه؟ ثم قالت، هذه الطائرة معلقة بين السماء والأرض، وخطأ أبسط مما تتصور يمكن أن يضع حدا للنهاية، فلماذا لا نقترن باللحظة؟.

لم أقل لها يا أخى إن اللحظة التى نعيشها سرعان ما تنقضى، لن نمسك بها أبدا، دائما تولى، تفلت، فنحن فى فوت دائم، أما جلستنا هذه وقربنا ذاك، فسيستحيل هذا كله إلى صور نائية، استرجاعها بالمخيلة، لم أقل لها إننى أرى لحظة افتراقى واللقاء متصل، وهذا جل اغترابى، وصميم قلقلتى، لم أقل لها ذلك، لكنها أدركت. فكت رموز سماتى، نفذت إلى لب صمتى.. قالت مرة أخرى.

«تبدو مهموما»

ثم قالت:

«تبدو متقدما عن سنوات عمرك.»

ثم تساءلت:

«لماذا لا تعرف آنيتك؟»

قالت إنها منذ ثلاث سنوات، أجرت عملية جراحية، رفضت المخدر. أصرت على إجرائها وهى مكتملة الوعى، الألم له حد لا حد بعده، الألم يقتل الألم. لكنها أدركت فيما بعد أنها لم

تطق الغياب لحظة واحدة عن وقائع الحياة، قالت إنها فى رحلة كهذه تضن على نفسها بالنوم حتى تسمع وترى.. قلت لها إننى عندما كنت فى المعتقل منذ عشرين عاما، تأملت رفاقى الستة والعشرين. العنبر ضيق. معتم، والموقع قصى عن المدينة، بعضهم يروح ويجىء. عندما جاهرت بخاطرتى..

«ترى أين سنكون بعد عشر سنين؟»

تطلعوا تجاهى صامتين، مفاجئين، ثم حاول كل منهم النطق والتخمين، كانت السنوات العشر تبدو نائية، ممتدة، مسافة شاسعة، خطا الزمن، وانقضت عشر فى أثرها مثلها، وتفرق كل منا إلى جهة. وبعضهم رحل عن دنيانا، ومنهم من نسيته تماما مع أننا قضينا أشهرا ستة متوالية معا، مهددين معا، نأكل من ماعون واحد، ولو أنى شئت تفصيل ما جرى لكل منهم لفاض الأمر، لكللت، تقلبت المصائر بهم، وتفرقت السبل، كانت تصغى إلى باهتمام يا أخى لم يقابلنى أحد بمثله. ثم تساءلت عن السبب الذى أدى بى إلى دخولى المعتقل، ثم سجنى، أفضيت إليها وصرحت بما لم أقله تحت وطأة الإيلام البدنى، والنفسى، غير أن ما أفلت منى واستوقفها قولى:

«كنا نحلم بتغيير العالم!»

تساءلت بجدية:

«ولماذا .. ألا يمكن تغييره حقا؟»

تطلعت إليها صامتا، كنت عند نقاط معينة أحيد. تذكرت صاحبى، أستاذ الهندسة القديم، الذى يجلس على مقربة، تفاؤله الأبدى، وابتسامته فى أصعب الظروف، وددت القول إن الأحلام فى البداية كانت شاملة، ومع السنوات تواضعت حتى أصبح التعليق بالبديهات حلما. الأمور المفروغ منها. المتفق عليها بين الكافة، التى ظننا فى بواكيرنا أنها لن تكون موضوعا للمناقشة، رغبت فى الإفضاء إليها بهذا كله، غير وانتى لملمت، طويت وأحجمت، فالأمر يحتاج إلى تفسير، وإننى آتيها به، غير أننى مرجئ ذلك، فما أحوجنى أن أعرف عنها.

قالت إنها الابنة الوحيدة، تدرس المعمار منذ سنوات، لكنها تعمل أيضا بتدريس اللغة الإنجليزية، تعيش مع زوجها فى بيت من حجرتين، ترتب أموره، تدبر شئونه، تعد الطعام، أحيانا يشاركها أيام الأجازات، إنه رقيق، لكنه شاب، شاب جدا، صغير.

لا تفوتنى نبرة صوتها، مرة أخرى ألتزم الصمت عند سماع ذلك فالأمر حرج، تلفتت ، والتفاتاتها يا أخى حادة، مباغتة، غير أنها لطيفة الوقع، تلقى عندى دعة، كما يطيب لبصرى عندئذ المكث عند أفق وجهها الجانبى. له جمال بذاته، يختلف عن حضور ملامحها إذا تطلعت إليها بالمواجهة، باغتتنى، اتجهت صوب يدى، بسطتها، حدقت إلى خطوط راحتى، لم تقل شيئا، عندما بسطت كفها للمقارنة، تدفقت

تجاهها، أحطت بيدها حتى سرى إلى نبض أوردتها الخافت وحرارة جسدها، رفعتها متأنيا، قبلتها، بل قل إننى مسستها بشفتى، غير أننى أقمت، بقيت منحنيا، بدت شاخصة، متطلعة. عندما مست شعر أسى، طارت دقات قلبى بعضها، كبحت زمامى، هذا أقصى ما يمكن صدوره عنى، وجمع على مقربة، بعضهم يسمع ويرى، بقى عناق أصابعنا، وارتدت ملامحها إلى طفولة، إلى مراحلها الأولى، فأطلعتنى. على مالم أره. لا أدرى متى قالت إنها تسبح مرتين أسبوعيا حتى فى الشتاء، تمضى للسير فى الغابات الممتدة، المحيطة بالمدينة، عند لحظة معينة، صعب تحديدها اتصلت الحميمية، وتوحدت الأسباب، فصار كلانا يتلقى عن الآخر فى اللحظة عينها، وفجأة، انتبهت إلى تسرب اللحظات منى، فبدأ وعيى بالمغادرة، ووجدى الذى سيعقب الانقضاء. طفت من داخلى ألحان عتيقة، وبقايا أشعار، طلبت منها أن تصغى. فهى لن تخاطب حقا إلا بالغناء، هل تعرف آلة القانون؟إستفسرت فشرحت موضحا، رفعت إصبعها.. «السانطور..»

قلت إنه يشبهه، غير أن استخراج أنغامه بالأصابع، وليس بالطرق. إننى أتقن العزف. لو بصحبتى القانون لهيأت مجلسا لى فى هذا الحيز الضيق، ولا أكلمها إلا عزفا، استعدت بخيالى مواقع الأوتار. صفرت النغم بفمى، هكذا صرت العازف والمصدر معا، حتى أتممت على مسامعها بشرف سماعى راست أتقنته منذ زمن، صار سلوتى إذا كوانى وجدى، أو طحا بى شوق فى الضلوع عاصف، أصغت دانية منى، هزت رأسها مرتين، ومن أعطافها سرى إلى هبوب، بدأت

أتلمس دربى إلى رائحتها الخاصة، تضاعف وجدى، فنوعت واسترسلت، فلما فرغت، قالت بإشفاق..

«هذا جميل، شجى، لكنه حزين..»

اعتدلت، واجهتها بكلى، فى كل لحظ يقلع من عندى وفد إليها ليبلغ وينبئ، قلت إن من كان مثلها لا يخاطب إلا شعراً، بل لابد من إيجاد لغة تخصها، لا تخاطب بها إلا هى، ليس مثلها مثل. ملت فلاقت جهات وجهها جهاتى، استدعيت من دقائق ذاكرتى شعرا، أنشدتها بعضا مما احتوى حالى، ما تنبأ به شعراء عاشوا قبلى بقرون طويلة، ما عرفوا أنى ملاقيه، اجتهدت لنقل المعانى إلى الإنجليزية، وعندما قالت إنها تذكر بيتا للمتنبى هفهفت فرحا، وافانى إشعاع من عينيها بمدد فبدد تعبى، وسقتنى من منابعها فتقلبت بين حركة وسكون، أبصرت دقائق غابت عنى، أمسكت بما يفصل الظل عن أصله، وأدركت ما بين الصلب والترائب، فاطلعت على التكوين فى أوله، كنت غير غائب عن هيئتها الكلية، والجزئية، عن هيئة جلستها، إطلالتها، هيئة تحولها من جانب إلى آخر، هيئة إصغائها، إبدائها العجب أو الدهشة، أو بث إشارة خفية لا أخطئها أبدا. كنت يا أخى كمن ينفض عنه كمونا طال، أو يقصى البلى فيصير إلى عالم يتوقعه، ومالم يخطر على قلبه، أو عقله، ولا جاس بخباياه، ومن أغوارى نما النداء منى والحض، أن أقوم، أن أجثو وأقترب. لكن مازال الأوان بعيداً. فإنهم يا أخى ما حجبته وما لم أقيده لصعوبة تدوينه أو تحويله إلى لفظ لعلك ـ يوما ـ شافعى.

اندلاع اللحظة

أخي..

من القائل:

بلينا، وما تبلى النجوم الطوالع

وتبقى الجبال، بعدنا والمصانع

من ؟؟

هلا أجبتني ؟.. هلا ساعدتني؟ دلني وردد القول، أما أنا فإذا سنحت الفرصة فسأنقشه، سأخطه على واجهة معمار نابع تصميمه من صميمي، لما استوى حضورها عندي. وتأهبت روحي لتقلع من كدوراتها أيقنت أو قل بلورت ما ظل

سنين جاثما. أقصد تعلقى بالبناء، ودراسته، وترميم القديم منه، وهذا ما أتقنته، وذاع عنى، إنه الرغبة الدفينة يا أخى فى عدم الزوال، فى البقاء. فى تثبيت اللحظة التى يستحيل إيقاف مروقها. انفلاتها، فكأنى أعوقها بالحجز. وإن كنت عاجزا عن تأخير حينى، أو استعادة ما أفلت منى. فى غمار نشوتى يا أخى، يا أعز الأقربين، على شفا استيعاب عبيرها، والطائرة تميل صوب الأرض، ويدانا متشابكتان، وكتفانا متماستان، اندلع أمامى الخاطر النكد، فتجاورنا يوشك على انفصام والمتاح لى ساعات، ثمان وأربعون ثم يقذف بى عبر الفراغات العلا، أصير إلى جهة. وتبقى هى فى جهة، فماذا أنا فاعل؟ مـــاذا ســـأجنى؟ هكذا أرى لحظة زوالى، ونأيى، أرى عين افتراقى معى فنح وردد مع القائل:

إذا هى مرت لم تعد، ووراءها

نظائر، والأوقات ماض وقادم

فما آب منها بعد ما غاب غائب

ولا يعدم الحين المحدد عادم

قل معه يا أخى:

أمسى الذى مر على قربه

يعجز أهل الأرض عن رده

هكذا بذلت جهدى لأدارى أساى، ناديت نفسى، أن أتجلد، هذا ليس إلا الفراق الأصغر، وبعد ساعات يبدأ الفراق الأكبر. قامت بعد توقف الطائرة. أخرجت من حقيبتها غطاء رأس من الفرو ثقيلا، نافر الشعيرات، له فرادة. فلم أر مثله. كنت أتأهب لتلقى أول بوادره للوجد بعد الصبابة، لا أقدر على معانقة اللحظة كما أشارت. فكل لحظة إلى بلى صائرة، ولما ارتديت معطفى، وتأهبت لملاقاة البرد الصقيعى ودعتنى بابتسامة، لابد أن تمضى إلى الهندى وصحبه، غابت عنهم طويلا هى المكلفة بمرافقتهم، أومأت صاغرا، أشارت إلى غد، حددت السادسة، أى سأقضى ليلة ونهارا فى مدينة تسعى فيها، تظلنى الغيوم ونفس السماء، وأتدثر كما تتدثر هى من شتاتها الكوفى، لكنها فى مكان، وأنا فى آخر أنوء تحت تعبى الذى بدأ بمجرد ابتعادها عنى، غصت فى مقعدى، محملقا إلى الأشجار المتتابعة، المكللة بالجليد، أخضر، وأبيض ناصع، نقى لا يشوبه كدر، إلى كنيسة زاهية ألوانها. الأحمر صريح. الأصفر قوى. الأخضر خصب. أما القباب فسرمدية، إلى ضباب كثيف يخفى نهايات المبانى الضخمة وقممها، كأنها تنهض من دعائم الأرض الصلبة إلى عنصر الغيب، بدأ ضوء النهار واهنا. والقوم يسيرون فى أرديتهم الثقيلة، يمضون فوق الأرصفة إلى غايات شتى، أما غايتى فموشكة على التبدد، ساعات وأغادر، ما تبقى من زمن غير مساعد، كيف يمكن لصلة أن تنمو. ولوصل أن يجرى، إذن.. ما يعنينى أن أبلغ ما عندى، ما

أراحنى أننى كشفت لها قبسا. لو جئت مرة أخرى وهذا صعب، وعر، فهل سألقاها هى، هى، وهل تبقى اللحظات المتوالية إنسانا على حاله؟ عند باب الفندق، فوجئت بها تنزل من العربة، يميل رأسها قليلا، تضم شفتيها، أما الابتسامة فبوجهها كله..

إلى غد.

قالت مؤكدة: السادسة، وددت لو لذت بسموقها، لو احتميت بوارفها، لكن.. لم يكن من الوداع المؤقت بد، ولا من الانفراد مفر، فإلى من أخلو بعدها؟ رغبت التوحد بذاتى، واستدعاء ما انقرض من وقت، هكذا هرعت إلى حجرتى، محتميا بهدوئها، متوضئا بصمتها، بفراغها، مستلقيا مستسلما للرؤى، بدءا من القباب السمرقندية، والمداخل الشاهقة، والحضور البخارى، وحديقة القصر الصيفى، إلى مشيها، إلى ظهورها بين شجرتى التوليب، إلى تقلبها من طور إلى طور فى ليلة سهرنا الحميمية، إلى أثر لا تلحظه عين يتركه قوامها الباسق فى الفراغ الذى تجوز عبره، كنت أصغى إلى تدفق الحياة فى أوصال المدينة المدثرة بالثلوج، والشجر الذى لم يبل اخضراره فى الصقيع، وعندما أغمضت عينى، كانت تغمرنى ولم يكن لى عاصم بعد اليوم.

اعلم يا أخى أن ما ينتهى أحيانا يبدأ وإن كان غير موجود، وثمة ما نراه بالنظر، ونلمسه وندركه بالحواس إلا أننا نفتقده،

وآخر إذا ولى وغاب عنا صار متمكنا منا، وصرنا منه فى أمر سديد.

هذا عين حالى الآن، وجوهره ذلك العصر يوم أويتى من آسيا الوسطى، أغلقت بابى، أقمت أرصادى، لم أرفع سماعة الهاتف رغم توالى الرنين، لم أعبأ، هى على مسافة يمكننى أن أقطعها مشيا. بعد ليلتين أصير إلى قارة. أعود إلى نظام، وتبقى هى هى فى نظام آخر، هذا حالى معها. هذا ما قدر على.

فى هذا العصر الذى أغلقت فيه بابى. لاح خسرى، أدركت أننى أدرب نفسى على فراق يقينى، وأننى أستدعى إلى اللحظات الآتية مكابدة مقبلة، فعبثا قولها. «عش اللحظة»، ودعك من آت قد لا تبلغه، إنما أنا ما كنته، ما جبلت عليه، وعندما ثقل الليل تساءلت، أين هى الآن؟ فى أى مكان تخطو أو تجلس أو تتأمل فى عين هذه اللحظة؟ تماما كما سيكون حالى لآماد طويلة مقبلة، برغم إعيائى فى فورة حجبت عنى الإغفاءة والهجعة، أى من أصابنى؟ أنا الحزين، المبتعد، كنت أدرب النفس على أن ما مررت به اكتمل وتم، مهما جاءت به الساعات الآتية. القادم لا أتوقعه وإن تمنيته، الحق يا أخى، أن شكا راودنى فى وعدها بالمجىء لترانى، وأننا سنلتقى مرة أخرى، على امتداد النهار التالى خرجت، انتقلت، عبرت الشوارع العريضة، خطوت فوق الثلوج المزاحة فوق الأرصفة، لبيت دعوة

من صاحب لنا، كنت فى كل لحظة، عند كل إيماءة أو التفاتة موقناً أنها ترقبنى من مكان خفى، أنها توشك على مناداتى، وكنت مهيأ لأن البى، حتى إذا ولجت باب النزل الفسيح طالعتنى هى، هى بوجودها، بحضورها، بسناها، كانت بصحبة زميلتين ومن تطلعها، من نظراتها صوبى أيقنت أنها لم تقف إلا لانتظارى، ولم تأت إلا لترانى، فشب عندى توق متجدد. ما إن لمحتنى حتى أنهت حوارها، أقبلت نحوى، كانت شاهقة كنصب حى للأنوثة، ترتدى قميصا من حرير، يشى بمشد صدرها. وحزاما جلديا عريضا أبرز دقة خصرها الذى أوشك أن يكون رمزا، عجبت، إذ كيف يمكن أن يحتوى؟ كأن فراغا يفصل نصفها العلوى وقدها السفلى، وعندما تقدمتنى كانت تسرى ولا تمشى، أما خطاها فصهرت ما عداها، الأبواب المطلة على الممر، والجدران القائمة. والبسط المفروشة، والمصابيح الواهنة، وأرقام الغرف، لم أعد أبصر إلا هى،ولا أرى سواها، وعندما دخلت الغرفة، وعبرت إلى المقعد الوثير، توقفت رانيا، مدمدماً فى قرارى، كطائرة تدرج ثم تتوقف لحظات قبل الإقلاع. كانت أشواق طال همودها تستنفر، تبزغ، وأحاجٍ لم تحل، وأسرار تراكمت عبر المسيرة ، كنت موشكاً على الإفضاء بها، كانت تضوى، أما وجودها الحسى فيلغى ما عداه، انتشت داخلى طاقات عتيقة، وتجددت منابع جفت، تهيأت لنثر درى ومرجانى اتقليب صحفى الأولى، وتجديد أحوالى البالية، لما رأيتها متطلعة إلى، مستفسرة، متأهبة، منتظرة، لمحت البشارة آتية من

ضيا عينيها، لم أنثن، لم أضيع لحظة، إنما على الفور بدأت الدعوة.

جثوت!

شيعت لثمى، وتقبيلى إلى كافة ما طلته من عالمها الحسى، بدأت بيديها، وطفت، ثم عدت، أنفاسى زفير بلا شهيق، حتى إذا لمست جدائلها وتنسمت عبيرها انقلبت شهيقا ولا زفير، أثناء قدومنا من آسيا الوسطى تعرفت على حدود أطيافها، رائحتها الخاصة، غير أنى لم أتوغل، لكنى عندما استنشقت نسائمها، هبوبها، تفتحت فى صدرى طرائق ودروب ومسارب ما ظننت يوما أنها عندى. عانقت رائحتها، تعلقت بها، اقتفيتها فى شعرها، فى جبينها، ارتميت تحت فتحتى أنفها حتى أتلقى من صدرها خبرا، فى وجنتيها اللتين شعتا ضوءا خفيفا حلوا ليس من مكونات هذا العالم. استنشقتها من طيات ثيابها، من أطراف ردائها، كنت أبغى تثبيتها داخلى، ادخار جوهرها، الإمساك بلبها حتى لتخرج من مسامى وأنفاسى، فإذا نأت بى الديار، وتقادم العهد بهذه الانتفاضة، أمكننى استعادة بعض من ديمومتها، تعلقت بيديها، تهجدت نظراتى صوبها، انحنيت ملامسا أصابعها بجبهتى، كنت أخلق طقوسى، لا سابقة لها، ولن يكون، رددت اسمى، اسمى لا غير، انتشيت لما أصغيت إلى حروفه المكونة مصاغة بنطقها الغريب، تطلب منى أن أكف، أن أتوقف، لفنى صوتها السارى إلى، تراجعت برأسى قليلا، رأيتها فى خلق جديد، فى كل مرة يا أخى تبدى لى يا أخى

ملامح أدركها لأول مرة، عدت أهوى إليها. تجاهها ارتطمت، حططت، طوقت عبيرها مرة أخرى. رائحة يا أخى ليس لها مثل، اعلم يا أخى أنها أمم من روائح شتى، كلها طيبة، مسكرة، فمنها طيب منبعث من ثنايا شعرها، وبقايا عطرها، وإشعاعات وجودها، وثناياها النائية، هذا يدق عن الإحاطة، يستعصى على الوصف، لو أنى قدرت على الاستعارة، ولو قبسا، لاستمر بعثى ونشورى، لو أعاننى الدهر على الوقوف عندها مرة أخرى لبلغت ما انطوت عليه الفكرة، لجاوزت مسافة القدرة، لتجدد عطائى بغير حساب.

فاليريا..

ناديتها همسا، فجاوبتنى بالنظر الحلوم، رجوتها أن تقف، لبت يا أخى لبت، سألتها أن تخطو، فلما جاوبتنى، حاولت معانقة الفضاء الذى اجتازته، الذى عبرته، فلما أعيانى الأمر. قبلت مواقع الخطى، عندئذ انحنت، قابلتنى بعينيها، لاقتنى بنظراتها، أشرفت، حنت على حنوا، أطلت، وكنت أعى أن قدرى يكمن فى إحدى هذه الطلات. درجت نحوها، ساعيا إلى روح وريحان، حاولت النفاذ عبر عينيها، فأقلعت عبر رياض، ومفازات، ولمست قمم أشجار نادرة، وجزت وديانا وبيدا، وطفت بمدن لم أطأها، وفاتتنى أرض لن أبلغها إلا بشق الأنفس، رافلا فى نعيم القوم. متدثرا بحزن البلاد كلها وصحاريها، غير أن وفاضى ارتد خاويا. لم يحط بشىء، لكن تفجيرى دام، لم يبلغنى كدد، حتى تعجبت فيما بعد، أكان هذا

كله منى؟ حمت راجيا حول وجنتيها، لثمتهما بشفتى، عاودت النظر، فلما أيقنت من وصول طائرها، وفضضت بريدها، بركت على شفتيها. وانزلت متاعى وحملى. دفعت لسانى إلى دفء فمها الوردى، فكأن شقا منى ارتد جنينا، كأن الوجود عاد سيرته الأولى. وعندما تطلعت إلى عينيها، أيقنت توفيقى فى إبلاغ الرسالة. وأن المجاوبة آتية والتلبية على وشك، لم تكف عن ندائى باسمى، مطالبتى أن أهدأ، لاح فى صوتها إشفاق وحنو. رأيت عينيها تسكبان رحيقا نحوى، ورحيقهما يا أخى لو تدرى عجيب.

أعرف يا أخى ما يجول بخاطرك لحظة اطلاعك، عند إدراكك سطورى هذه، ولكن صبرا يا أقرب صاحب، وإن كنت فى بعد، صبرا، فإنى أبوح بما أخفى وما أبطن، وإنى لمفسر لك. ولكن قبل ذلك يجب أن تصغى إلى ما أرغب تفصيله حول نظراتها تلك..

نظـــــــــر

افـهمنى ولا تتـعجل يا أخى، نظرها إلى المصـحوب بترديد اسمى، إنما يعنى أموراً شتى، كانت كلها على مقـربة، وكنت دانيا، جاثيا، أرقـها، وترقبنى، نظرها يتردد بينى وبينـها، منها إلى. نظر أضـفى أطيافا على مـلامـحـها، علـى رونقـها، أكد لى قـبولى عندها، وللقـبول يا أخى إذا تم شـأن عظيم، لكنه قبـول مشـوب بحيرة مشروعة. فلم يمض على تكوكبنا بمقـادير دنيانا إلا قدر يسير، ربما حيرة وليس ترددا، فى نظراتها أيضـا حث لى وحض، أن أقدم، أن أشرع حتى يصل الأمر إلى مـداه، إلى مـحطه الأخـيـر، أن يتـوالج كـونانا. لم تـردنى، إنما أباحت لى

كوكبها الدرى، حتى إننى جست بيدى خلال الأكم والروابى، فلا ينقص الأمر إلا دفعة يسيرة متوقفة على. ولم أقدم، لم أفعل، مع أنى الطالب وهى المطلوب! ستقول، وفيم الإحجام؟ فيم التقاعس. هنا أقول لك، افهمنى، وأدرك ما عندى، لم أسع إلى المنهى، قد يبدو غريبا هذا، ستسألنى، ألم ترغبها؟ أقولُ لك إن ماشب عندى حريق، ومن أمسكت النار بثيابه، كيف يهدأ؟ لكنى بقدر ما رغبت، بقدر ما أحجمت، فانصهار كينونتنا لن يقدر له الدوام، ولم أكن أسعى إلى اتحاد عابر، فى ظرفى ذاك. لو نلتها ونالتنى، ربما انتهى حومى، وربما وضع الحد لاستمرار اقترابها منى. لم أقصد الوصول إلى المحط الأخير. إلى لحظة همود حتى وإن جاءت بعد ارتواء، لم تكن بالنسبة لى نقطة عبور، ولا جسرا مؤديا، وعندما تعانقنا مال كل منا على الآخر يعتصم به من لحظات آتية ستجرف ما نحن فيه، لا يمكن ردها، وكنت أحتمى منها لحظة مرورها بالعناق، بالإحاطة بها، مدركا أن هذا لن يستمر لأن الظرف معاكس، وهذا رغما عنى، وعنها، أما إذا مددت الخيط إلى منتهاه. فلن يتبقى شىء، سبب ثان يا أخى كنت حريصا حتى لا يتملكها الظن أن هذا ما سعيت إليه لا غير، ولكن ما أردت توصيله وعورة هيامى، وشموليته، وشدة توقى، هل فهمت عنى يا أخى؟ لا تفوتنا الإشارة إلى حدة وعيى بقصر المدة، ولم أكن قادرا على التنبؤ بما سيصير إليه حالى لو صار الأمر إلى غايته، ربما ألقيت بكافة المحظورات جانبا. ربما اختل دستورى، وآثرت الهيام

على وجهي إلى أبدى قربها، أهجر دياري، وأخترق حاجز العقل، لك أن تتصور يا أخي ما صرت إليه كنت أدور حولها، أنا الجزيء وهي النواة، وما من اتحاد، كأني من طال بحثه عن نبع الحياة، حتى إذا بلغه، لم يدر أنه بغيته فتجاوزه دون أن يحسو منه، وبعد الفوت أدرك خسرانه المبين. كأني طائر الرخ الذي علق له السندباد قطعة اللحم في طرف العصا مدها أمامه، موجها إياها إلى الجهة التي يرغب، والرخ يطير لعله مدركها، لعله مطعمها. ولكن عبثا التناول.

لعلي وفقت في إبلاغك كنه الأمر.

اعلم يا أخي أن النظر تهادى بيننا. وعند لحظة بعينها ذوت حيرتها، أيقنت باطلاعها على مكنوني، هكذا احتوت رأسي بين يديها، ملت حتى آويت إلى صدرها. آنست منه مأوى، راحت تتخلل شعري بأصابعها، رددت.. «رمادي.. رمادي..»

أوشكت على رؤية ملامحي في نغم صوتها، ما في رأسي من شيب. كنت أبسط تاريخي كافة أمامها. ترفع رأسي. تحدق إلي..

«حزين.. لماذا هذا الحزن كله؟

ثم قالت:

«لم تبق إلا ساعات وترحل..».

«ثم قالت:

«سأراك غدا. سأبقى معك حتى الرحيل..»

ثم قالت.

«فى الساعة الثانية عشرة، سأكون فى مبنى الاتحاد..»

قالت ونسيمها يسرى فى ثناياى، مثيرا شوقا جامحاغير ذى عوج..

«نلتقى هناك..»

تراجعت قليلا. رأيتها حانية،مطلة، مشرفة على، محيطة بى، لم تلفظ إلا همسا. لا يمكننى تفصيل ما قلته، أو ما قالته لى، كانت تميل على، تزقتنى الألفاظ، تطعمنى مسك الحرف كما يهدى طائر الحمام الحب إلى فرخه الصغير، على مهل كنت أتحول إلى عناصرى الأولى، بينما وجدى يبدأ قبل بدء البعاد. فهل أتاك ما كان منه عندى منذ أبد أبيد؟

الوجـــــد

.. اعلم يا أخى - صبرك الله وخفف عنك ما يسبب لك بأسا أو ضــرأ - أن الفـراق حـق، والبين حق، وأن التنـائى حـق. كل مجتمع مصيره إلى افتراق، وإلا لما كان اجتماع أصلا. فلم أرها بين شـجرتى التـوليب إلا لأنى فـارقت ديارى وارتحلت، لكن، فرق بين إدراك ذلك بالعقل، وأن تعيشه، فرق بين وعيى به. واكتوائى، اعلم يا صاحبى أن الأصل فى الأشياء التفرقة.. هكذا بدأ وجدى واشـتد، وأوعره مـا جـاء بعـد تباعـد ديار، وانعدام يقين من أوبة أخرى، هذا موجع. الوجـد يا أخى شدة الشـوق، ولا يكون الشـوق إلا إلى غـائب، وطول الوحـشـة

يضاعف الحسرات، هذا ما صرت إليه بعد حين، عندما عدت إلى دياري أغمضت عيني في ليلتي الأولى، أشبه بالطافي، المحموم في فضاءات رحبة وما من شيء يشده، كان فرحي بإدراكها. والوصول إليها. وفهمها عني، مازال ممتدا. غضبا، فكأني سأصحو فألقاها بجواري، أخرج س بيتي فكأني ذاهب إلى لقائها، أينما وليت وجهي أراها مشرفة علي، مرة تلوح هيئتها كما شهدتها في آخر لحظة، وهي تقف أمام الفندق. وفي ملامحها شجي، ترتدي معطفها الأسود، تدس يديها في جيبيه، حاسرة الشعر، غير عابئة بالصقيع، بعد استقراري في العربة، خطر لي أن أغادرها، أن أخطو ثلاث أو أربع خطوات. أمد يدي فألمسها، أو أصافحها مرة أخرى، استوثق من كينونتها المادية، غير أن الرحيل بدأ، فلا مفر، كنت كالظامئ المقيد المرغم يبسط نظره إلى الماء وما هو ببالغه، وقفتها هذه تعتقت في خلاياي، فلكم استعدتها، وفي كل آونة أرى مالم أطلع عليه من قبل، وعندما وصلت العربة إلى المنحنى، حيث قام أول حاجز مادي حال بين بصري وبينها، وخطر لي أنإاستأذن مرافقي، أن أنثني لحظات، غير أن ميناء الإقلاع بعيد، والوقت يمضي بي إلى اتجاه آخر، لا يؤدي إليها أبدا، أراها الآن يا أخي لحظة تدويني هذا، فأكتشف في وقفتها تلك حزنا أعمق، وميل قوامها إلى الأمام، وتهدل كتفيها، لمحت في صالة الفندق ذوارف مطلة من عينيها فتحاشيت التطلع إليها. هل تفهم عني إذا صارحتك، بودي انقضاء هذه اللحظات

الختامية؟ كان لابد من توقيع أوراق، وتسديد رسوم، وتوديع معارف، التأكد من وجود أوراق السفر. بينما تتحرك هى بمقربة. تكف إذا توقفت، وتمشى إذا مشيت، لا نتبادل الحوار إلا عرضا، كنت أؤدى هذا كله وكأن شخصا غيرى انبعث من داخلى لينوب عنى، ليبتسم لهذا. ويؤكد ضرورة تبادل الرسائل لذاك، كان وجودى قريبها على مرأى منها فى هذه اللحظات الختامية كعدمه، كذا وجودها بالنسبة لى، كلانا فى مواجهة الآخر. لكن الانقطاع مقرر، وعندما يصبح التنائى مفروغا منه، لا راد له، ينتفى الوجود وتنعدم الكينونة وإن قامت، جربت هذا يا أخى عندما وقفت يوما أمام جثمان أمى، كانت متمددة، مغمضة العينين، أوت إلى أبد، ألمسها، لكنها لم تعد من هذا العالم، أميل لألثمها. لكنها بعد ساعة لن يكون بوسعى أن أناديها فتجيبنى، وجودها غير موجود. وهذا شبيه بحالى مع تلك البنية فى لحظاتنا الأخيرة، علما أن فراق الحى أصعب من فراق الميت، لأن الأمل يندثر بعد حين أما الحى فيظل التعلق به قائما، إنها تحضرنى يا أخى تتمثل فى. أرى تلك اللحظة الوداعية. هذا الصرح من الحيوية أدركه ميل، آيل بسببى، وجهها الجميل يضاعف الأسينة، خاصة والليل مكتمل، وياقة الفراء تؤطر عنقها الجميل، لم أدر أنها ستلازمنى مددا أضعاف ما قضيته معها من زمن حسى، فلم يكن ما قضيته معا إلا لحظات معدودات. ولم يكن تلاقينا إلا كتماس الشهب المارقة فى اتجاهات متضادة، غير أن كلا منها أودع الآخر

لهبا، وجمرا، هكذا يا أخى نمت عندى حالة الفرح الغريب هذه فى الأيام الأولى لعودتى، كنت أصحو مبتهجا متطلعا ببهجة إلى الآتى، غير ذى صدود كأمرى قبل لقائى بها، أعى نأيها عنى، لكن لا يفزع قلبى. ولا تهرع روحى. إنما أقدم نشيطا، راغبا فى رؤية صحبى، والمضى إلى الأمكنة التى أفضل البقاء فيها منفردا، أقلب حاجاتى التى صحبتنى فى سفرى مبتهجا، قبل مفارقتنا الغرفة رجوتها أن تمسك بحقيبة سفرى، وحقيبة يدى. وحلتى التى أرتديها. والأخرى التى قالت إنها تفضلها، وكتبى. ودفتر ملاحظاتى. وغطاء رأسى، وجواز سفرى، حتى ينتسب كل شىء يخصنى إليها. وحتى الامس مواضع مرت عليها أناملها، وأنفاسها لعلى مدرك أثرا. لعلى أرى ما لا يمكن رؤيته بالنظر، دام انطلاقى هذا أياما معدودات، صعب على إحصاؤها بدقة، لكننى بقيت خلالها غير منتبه إلى المسافات القصية، لا أدرى ما سيصير إليه نبئى بعد حين.

إذا لاقيت صاحبا أود لو حدثته عنها، أو أدير الحديث إلى وجهة تمكننى من إيراد تفاصيل متعلقة بها، غير أنى دائما أقف على شفا البوح، فمما لزمته بعد هذا العمر أن أكتم وأحجب، كانت تملأ على جهاتى. أتوقعها مقبلة نحوى. تفتح بابا مكتبى، تلج فراغه دافقة الحيوية إلى روحى فأشب بعد إشعالها الجذوة، بل أتمهل أحيانا كأنها نادتنى وفى الزحام يصير وجودها قويا. حتى أوشك على تلمس جسدها الضاج قربى. كأنها تسعى حولى.كأنها توشك أن تدنو منى، كأنها

مقبلة، مبتسمة، مادة اليد، مصافحة إياى، كأن لقائى بها مفروغ منه.

صرت أتوقعها كما بدت ظهيرة ذلك اليوم فى حديقة الاتحاد: أخبرتك يا أخى أنها أفضت إلى ببقائها يوم رحيلى، حددت مقر اتحاد الفنانين مكانا، أما الوقت فدار حوله همى، طوال الليل المتبقى بعد انصرافها، رحت أستعيد ما تبقى منها. ما أودعته فراغ سكنى المؤقت، غرفة الفندق، فى مطلع النهار الجديد طوقنى شوق، مسنى إليها أول حنين، هرعت إلى المكان الذى لزمته معظم الوقت، قبلته، إلى موضع جثونا فلثمته، كنت أتعجل مرور الزمن واستبطئه، فما خلا منها أرغب انقضاءه. وما اكتمل بها وددت ديمومته، ولكن يا أخى هل يدوم شىء أبدا؟

خرجت إلى فضاءات المدينة الفسيحة، المجللة بالجليد، طفت متاجر البضائع الأجنبية با حثا عن عطر تفضله. وعندما لمحت علامته تناولته، ضممته. قام بينى وبين القارورة الصغيرة أمر خاص: مررت الموعد المحدد بمدخل المبنى. طفت الشوارع المحيطة صقيع وعر، وبرد لم أعتده، لكن ما خفف عنى أن كل خطوة تقربنى إليها، كنت أمشى محاذرا الجليد فوق الرصيف، متدثرا بمعطفى، مسدلا غطاء رأسى. جزت البنايات الهائلة، والمداخل، والنواصى المؤدية، حتى اجتزت الباب الخارجى الفسيح إلى الممر الدائرى الذى يتخلل الحديقة، بالضبط الثانية عشرة، المقاعد مثقلة بأكوام من ثلج هش، تحسبه بالنظر صلدا

حتى إذا لمسته أو أمسكت بحفنة منه تذرى، تماما كغياب وعيك بعض اللحظات، أثارت نصاعته عندى بهجة غامضة. تذكرت صاحبة لى تقيم فى مدينة نائية، قالت لى يوما إنها تتفاءل بنزول الثلج، وقفت متطلعا إليه، منصتا، الشتاء يضفى بعدا غامضا على الموجودات، لعلى التقط إيقاع مرور الوقت، الزمن، أو ذلك الخفى المبين الذى يجمع ويفرق، غير أن ضجيج المدينة المندغم. المدوم، حجب وأبهم.

سمعت خطاها. صوتها ينادينى دهشا، مبتهجا، التفت فرحا، فوجئت، لا ترتدى إلا قميصا من صوف خفيف، اجتازت الحديقة نحوى حاسرة دون غطاء رأس. دون معطف. كيف تخرج هكذا. أشارت إلى ساعتها..

«الثانية عشرة تماما..»

أشرقت، أجبت..

«طبعا»

مبتسمة، متهللة، ضاجة بالفورة الحيوية، تصور يا أخى لو امتد الأمر عدة من أيام أخر، تصور توالى ظهورها، تنوع إبداعها وطلاتها وجميل لفظها المقتصد. فى كل مرة تجدد، وتهلل مغاير، وتعاقب تعبيرات على الملامح التى أخذتنى حتى عن نفسى، غير أن لهذا اللقاء الأخير معزة ومنزلة، عند تواجهنا اختلف الوضع عن المرات المنقضية، فبعد أن دنا كل من الآخر الليلة الماضية، بعد تماس كونها بعالمى، صار عندها منى، وعندى منها، امتد وقت، ومودة، وصلة، أما قربها منى

فله خصوصية أخص، ضاج، فواح، مشع تجاهى، فكأنى بالنظر ألمس جسدها، أتوسده، هذه الوقفة، تلك الطلة. قربها. ترحيب عينيها، علق بى هذا كله، صار مددى فى قفرى، وزادى فى بيدائى، وخلال أيامى التى تمكن فيها الفرح المريب منى طال توقعى لظهورها، كما بدت فجأة فى هذه الحديقة، لم يكن وعيى بفقدها قد بدأ بعد وهذا حال خبرته، لكن فى ظروف مغايرة مختلفة، وإنى لقاص عليك نبأ منها لعلك مدركى. اعلم أنه بعد رحيل أمى. ورحيل أبى، انقضت أيام ثقال لا يمكننى إحصاؤها الآن، كنت أهيم خلالها فى الطرقات غير واع بالفقد، غير مصدق، متوقعا ظهورهما عند أى منعطف، أو طرق أبى بابى كما كان يفعل. أو دخولى صالة البيت فأجدها فى انتظارى، شيئا فشيئا بدأت أنتبه للفقد المحتم، وإن ما كان لن يكون. لن أصغى إلى الصوت الذى ألفته، ولن ألامس اليد التى عرفت، انتبه يا أخى إلى ما قلته لك، انقطاع الرجاء من لقاء الحى أصعب، فمن رحل إلى أبد يبلغ المدى بأهله وصحبه حدا يئوسًا، فما من إمكانية قط، وهكذا يفضى اليأس إلى النسيان، لذا يقولون إن كل شىء يولد صغيرًا، عدا الحزن على الميت فإنه يبدأ كبيرا ثم يضمر، أما فراق الحى فهذا هو البين عينه. والبأساء والضر، خاصة إذا تباعدت الديار، وشط المزار، وأدرك الوهن أملا فى لقاء، اعلم يا أخى أن الأيام الأولى التى حدثتك عنها شبيهة بالخروج من دفء الغرفة إلى الصقيع، جربت هذا. بعد الخروج تنقضى لحظات لا يصلك فيها شدة

البرد. ثم شيئا فشيئا يسرى، حتى يلفك فترتجف، إنها أشبه باللحظات الفاصلة بين وقوع الصدمة والشعور بالألم الجسمانى، فى هدأة انفرادى ذلك العصر. ألقيت بذاتى فى عينيها الواسعتين، الفسيحتين، فجأة غزانى خوف غريب، متى سأراها، وما الحال الذى سألقاها عليه، قلت:

«أخشى الموت، وإلا أراك..»

بادرتنى على الفور، رنتها عاتبة، شاكية قولى..

«لكنك يجب أن ترجع إلى..»

اعلم يا أخى أن الوجد يبدأ مع اكتمال الرحيل، وتباعد الديار وانعدام اليقين من الأوبة، هذا عين الخطب الموجع، شيئا فشيئا بدأ فرحى يذوى ويبدأ وعيى ببعدها، بالمفازات. بما يفصلنى عنها من مواضع وبرارى وقفار وفلوات وخراب. بحار، وتلال، ارتفاع وانخفاض. ومراع ومدن. وهذه مواضع ستتبدل يوما. فالبحار ستصير جبالا والبحار ستصبح رمالا، فلا شىء يبقى، إذن.. فما أبعد التلاقى، وطول المسافات، واختلاف النظم، وريبة العسس فما أتعس وما أظلم، تطلع شمسنى قبل شروق شمسها، ويسدل ليلى قبل ليلها، فلا الزمان يوحدنا، ولا المكان يجمعنا. فماذا بوسعى أن أفعل؟ حتى إذا انقضت شهور، وعادت الفرصة، وساعد الوقت، فهل سألقاها؟ ربما تكون على سفر، أو فى شغل عنى، أو عرض لها عارض أحالنى إلى مصادفة جد عارضة فى حياتها المتدفقة. وإذا دنوت وقمت واقفا أمامها، هل سألقى من عرفتها؟.

كنت ألمح لك دائمـا أن الإنسـان فى الثـلاثين غـيـره فى الأربعين، وأننى فى الخمسين مغـاير لما كنته فى العشرين. تذوى أمور وتستجد أشياء لم نتوقعها من قبل، لم تدر بخلدنا يومـا، تنزوى أصول لم نتوقع قط تلاشيـهـا. أذكر قـولك إن الجوهر لا يتغير. صحيح يا أخى، لكن هل تظن أن اللب قصى؟ مستعص على التغيير؟.. أقول إن الأمر غير يقينى، الآن أطيل النظر إلى ما فات، ما انقضى أطول مما تبقى، أما هى فتسعى بعيدا عنى، ويبدو ما ينتظرها بعيد المدى..

لما اكـتـمل وعـيى يا أخى بالبـعـاد صرت إلى شـجى، إلى أسى، هكذا ناء الوجد، صرت أسعى إلى كافة ما يمت إليها، قرب أو بعد، حتى الإذاعة التى تتخذ من مدينتها مقرا، اعتدت الإصغاء إليها، أحاول جاهدا تمثل المذيع، رسم ملامحه من صوته، ربما يسكن على مقربة منها، بإمكانه لو أنه يعرفها لسعى إليها، أن يبلغها بعد دقائق، صرت أتفحص الخرائط، أضع العلامات، بخارى، سمرقند، طشقند.. موسكو، تحركنا من هنا إلى هنا، اكـتـمل ظهورها فى مـدينة. وتعـارفنا فى بخارى، وشرعنا فى سمرقند، وفى العاصمة الكبيرة جرى التلاقى والتفرق. أما الحنين والتذكر فله قاهرتى الحانية علىّ، هكذا.. كان اللقاء فى قارة، والفراق فى أخرى، والوجد فى ثالثة، صرت أقعد فى جمع يا صاحبى فأكاد أسمع سعيها البعيد. توشك أن تقترب منى حتى أتأهب لتنسم عبيرها المفقود، المتفرد، أدرك بغتة الاستحالة، فأفارق الصحبة. أبتعد

عمن أعرف. أستقبل وحشة الطرقات. أمضى بلا هدف، بلا مقصد، حولى حشد، لكنى فرد، متوحد، أحيانا أمضى إلى صاحبى، من رافقنى رحلتى، من رآها، من حادثها، واطلع على بعض مما عندى، حتى إنه صار إذ نلتقى يسألنى ضاحكا..

«.. أنت هنا أو هناك..»

فأجيبه مبتسما..

«فى الأمر وحشة..»

بعد نزوعى إلى شيوع أمرى، إلى الإفضاء بما عندى لكل أحد ارتددت إلى، أما حضورها عندى فصار مختلفا عما جرى فى الأيام التالية لعودتى، أحيانا تبدو فجأة، ليس أمامى فقط، وإنما حولى، أصغى إلى تحفظها على تبادلنا الخطابات، استعيد ملامح حذرها البادى، فأنا عند قومها أجنبى، وما أكثر الريب،!! غير أنى إثر انقضاء أيام الفرح. وبدء طرقات الوجد، لم أبال، رحت أشيع الرسائل. مرة فى الصباح، والثانية عند الظهر، والثالثة ليلا، أكثر من شهر كامل، أحيانا لا أخط إلا التحية، وكأنى استعيض عن نطقى بكلماتى المكتوبة..

ولم اتلق ردا، لم تصلنى إشارة..

مع بدء الشهر الثانى ولأسابيع عديدة لم أتخلف يوما عن تشييع رسالة عند مطلع كل يوم..

ولم تصلنى مجاوبة، لم ترتد رسائل إلى..

كنت كراكب سفينة، تبحر مبتعدة عن المرفأ، والميناء

كنت كراكب سفينة، تبحر مبتعدة عن المرفأ، والميناء يتضاءل، تغيب ملامحه، تختلط مبانيه، تصبح تضاريسه مجرد خطوط لا تنم عما تحتويه من حيوات ومصائر. حتى إذا بلغت المسافة حداً تداخل البحر فى البر. وطغت السيولة والديمومة، فيبدو ما كان وهما.. والبحر يطغى، ليشمل حتى الأفق..

دام حالى مدى، ولا إشارة، ولا إيماءة خط حتى، مع توالى المسافات انتهى بى الحال إلى المناسبات، فمن ذلك رأس السنة، وقدوم الربيع، ويوم مجيئها إلى العالم، ويوم اكتمال ظهورها بين شجرتى التوليب، أحدق إلى العنوان، هذا خطها هى، الشارع، الرقم، كتبته عندما كنا نجوز الفضاء عائدين من آسيا، إذن.. العنوان حقيقى، واليد التى خطته حقيقية، والوجه الذى دنا وابتسم عند تقديم الورق له كينونته، ألم أقترب؟ ألم أحدق وألامس؟ عندئذ يتوهج داخلى يا أخى فأوشك على استعادتها عندما احتويتها، عندما طويتها بين ذراعى، عندما أقلعت صوب عينيها. صوب شفتيها، عندما تموج جسدها وتحرك متبعا تناغمه الداخلى لينبئ أنه طوعى، وأنه ملبٍ إن إردت. إن دفعت الأمر قليلا، إن خطوت خطوة يسيرة، غير أن الوقت المحدود، والفرصة غير المساعدة، والرحيل الوشيك، وما سيطر على فكرى ويقينى، أن بقاء هذا الوله فى عدم اكتماله، هل أخطأت؟ لا أدرى.. ولكن الشك يعاودنى مع ضياع المدة، أمضى إلى ما قدمته إلى قبل أن يتخذ كل منا طريقه، الساعة العتيقة ذات الجرس الخزفى، أستعيد قولها إذا قرعت الجرس

يوما، فسيصلنى صداه أينما كنت. أمسك الساعة أخرج إلى صحراء الصمت الليلى. أهزها، أصغى إلى الرنين المعدنى إذ يتلاشى، أطيل إصغائى.. ما من نبأ!

عرفت الانصراف المفاجئ وأنا فى جمع، إذ يتدبب وعيى فجأة. أنها نائية، قصية، وإن اللقاء صعب، عندئذ أدخل فى هجاج لما يتملكنى من يأس اللقيا، ومن انعدام إمكانية مشاهدتها مقبلة على، أو حانية بنظراتها، أو مجاوبة بحركاتها النغمية. حيث يتخذ جسدها المطواع، الفاره، أوضاعا عجبا، أو سكون ملامحها عندما طلبت أن نقضى الدقائق الأخيرة صامتين، يتطلع كل منا إلى الآخر، يتزود كل صاحب من صاحبه، ثم أهدتنى ثلاث زهرات، هكذا.. أستعيد تحديقها إلى، وأحيانا أوشك على الإصغاء إلى سعى عبيرها نحوى، هذا أصعب الوجد يا صاحبى، فلكم أمضيت الوقت مستنشقا نسائمها. من ثيابها، من راحة يدها، من خصلات رأسها أتأهب لوفودها على. أقف صامتا، متطلعا إلى الجهة التى أتوقع منها القدوم والورود. وإذ يكتمل وعيى بأننى ما كنت أسعى للاندماج إلا بالصورة، أفز من مقعدى راغبا فى اختراق اللاممكن، وإذ أنوء أرتد خائبا، مستعيدا نظراتها. حنوها. مستفسرا. متسائلا، هل ما جرى كان حقيقة أو وهما، وهذا ما أمر به الآن، هذا دافعى لمخاطبتك أنت دون غيرك، فلم يعد لى من الأقربين إلا أنت وإن بعدت المسافة، وطال زمن غربتنا عن بعضنا، فما وصفته، وما سردته، وما رويته، لم يكن إلا محاولة

أيضـا للملمـة مـا تبعـثـر، لاسـتـرجـاع مـا غلب عليـه الوهـم واللايقينية. وإن مـا كان حقـا. وليس برقًا لمع، أو شـهـابا مرق، وإلا فـأى وجـد هذا يبحر داخلى؟ ويبقينى نائيا عن الخلجان والمرافئ الآمنة، أحـيـانا أنتظر مـرات هبـوبهـا علـى وأتمنى أن تحل بى، فينزل على قلبى بردا وسلاما، أشبع بغير امتلاء، كما حدث ذلك الشـيخ الجليل، عن حـاله، قبل عدة قـرون زمنية، إذ قال ما نصه يا أخى:

«وقد بلغ بى قوة الخيال أن كان حبى يجسد لى محبوبى من خـارج لعينى، فلا أقدر أنظر إليه. ويخاطبنى وأصغى إليه وأفهم عنه، ولقد تركنى أياما لا أسيغ طعاما، كلمـا قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر إلى، ويقول لى بلسان اسمعه بأذنى.

«تأكل وأنت تشاهدنى..»

فأمتنع عن الطعام. ولا أجد جوعا، وأمتلىء منه حتى سمنت وعبلت من نظرى إليه، فقام لى مقـام الغذاء، وكان أصـحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء لأنى كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقا، ولا أجد جوعا ولا عطشا.» هذا ما دونه الشـيخ الجليل، وليتنى مـثله، قنعت بما كـان عليـه، لذلك أولى وجهى صوب اللاجهة، متوقعا اكتمالها أمامى، كما كانت عليه فى اللحظات الدانية من افتراقنا، وراسى بين راحتيها، عندما قلت لها..

«أخشى الموت، ولا أراك..
فألقت فى سمعى قولا جميلا، حزينا.
«لكنك يجب أن ترجع إلى..»
ولهذا أسعى يا أخى، بلغك الله ما تتمنى..»

جمال الغيطانى
مارس ـ يوليو ١٩٨٧

من دفتر العشق والغربة

- هاتف
- هلاتها
- أماكنها
- من رحم إلى رحم

إلى

أمد على أبد.. فقدت

فيه وما زلت!

هـاتف

أحـــبــــة قلبى وان جـــرتم(*)
عـلـى فـكـل المـنـى أنـتـم
رحـلـتـم وفـى الـقـلـب خـلـفـتـم
لـهـيـبـا فـهـلا ترفـقـتـم
واودعـتـم يـوم ودعـتـم
باحـشـائى نـارا واضـرمـتـم

نوبة العشاق

ميزان درج العشاق

(*) جميع المقطوعات الشعرية فى الدفتر من أشعار الموسيقى المغربية الاندلسية. خاصة نوبة العشاق.

فزعت فجمحت فجرا فكدت أهوى هوياً.

تسارع خفقى، وتسابق نبضى، حتى وجفت، وخفت، ولكى أتقى أمسكت على أنفاسى، ليل موغل، وصمت جاث، ونأى سحيق، ومسافات قصية. أما ماسمعته فمازال صداه يتردد فى سمعى، ويتوالى عندى، لم يول بعد بزوغ الصوت المادى، الذى اجتاز كينونتى، ونفذ إلى لبى، صوتها، نبرها، إيقاعها، جرسها، لايمكن أن أضل عنه أو يتوه منى، حضوره، خصوصيته، تفرده، امتزاج الإيقاع الطفولى، المبتسم، المرح، الصافى، بتلوناته الأنوثية، أتلفت حولى، أوشك على تلمس حضورها القوى، الجاب ماعداه، دهمنى عندما دنا نومى، وتميعت يقظتى، فاختلطت الحدود وامتزجت المشارف، يحدد صداها، وجودها الحسى يضج حولى، فكأنه أفلت من أسر الكينونة، ومحدودية الإحاطة، عبر المسافات القصية، وفض المغاليق، والأبواب، والحواجز، والسدود، والمخافر، وانتهى إلى

مرقدى، أو انفلت عبر الفضاءات العلى، ودنت منى فى مروقها، فى سريانها. وعند محاذاتها حضورى الجثمانى أودعتنى صيحتها ثم أفلتت مولية. مغرية، شاردة إلى كل صوت عداى.

على مهل تستقيم دقات قلبى. تجتاز حبات عرقى مسامى مفلتة. يشرق وعيى مستوعبا مايحدنى. هذا مرقدى، وتلك جدرانى، وذاك فراغى المحدود. رائحة جسدى، طيات فراشى، كتبى التى أطالعها قبل وسنى، تلك وحدتى، نفاذ غربتى إلى ضميمى، وازدياد نأيى، وشدة بعدى عنها، ومر افتقادى لها.

أدرك بعدى القصى، أعيد رأسى إلى ذراعى، تتوالى الثوانى فى صيرورتها، لكن.. لايخف بهتى. ولا تنقضى دهشتى، ولا يهدأ روعى. ماسمعته حقيقة، ليس إلا صوتها الذى أعرف، أستعيده مرات فى يومى، فى سعيى. فى سكونى، وعند كدرى لأهجع. نادتنى، لفظت اسمى، وشيئا آخر من كلمتين، استفسار؟. عتاب؟ نداء؟ ربما، كلمتين جامعتين، دالتين، تحويان الخلاصة، لكننى لم أتبينهما، لم أستدل عليهما، لم أقدر حتى على تلمس ملامحهما، معرفة دلالات حروفهما.

لكنها صاحت على.

من أين.. إلى أين؟

كيف؟

مامن إجابة تهدئنى.

أحقا هي؟ أو أنه الهاتف الذى يباغت الخلق فى نومهم عند هذه الساعة الفجرية، الندية، التى يكون عندها الوصول والإقلاع، الميلاد والموت. الغرق والطفو، قديما قال من أتى بى إلى الدنيا إن الهاتف يمرق فى الفراغات العلا ليلا، يدرك البعض بلفظ أو جملة مختصرة دالة، ينبه غافلا، يوقظ نائما، لايترك أثرا، لكنه يدع خشية وحذرا، وخوفا من مجهول لايمكن سبر كنهه.

لكننى واثق، أنه صوتها، لم تحل الأيام والمسافات بينى وبينه. ربما استعاد الهاتف ملامحه، ألصق ركبتى بصدرى، أستعيد وضعى داخل الرحم مع وعيى وإدراكى للبعد، تثقل على تلك اللحظات العسرة. لاأقدر خلالها على المشى، أو القعود، أو القيام، أو الالتفات، أو البكاء، أو النظر حتى. لحظات يكتمل فيها إدراكى ببعدها عنى، أنها ليست فى متناول حواسى، أنها مستحيلة الآن، أنها فى ديار وأنا فى ديار، ودوننا مسافات شسع. أننى لا أقدر على استدعائها إلا بعينى مخيلتى، واسترجاع لحظاتنا إلا بالذاكرة الكليلة، المحدودة. استعادة بعضها وليس كلا مما كان وجرى.

أرفع رأسى، كأنى أحدق إلى مرئى حاضر، صوتها الذى نادانى منذ لحظات يشبه ما أصغيت إليه عبر أول وآخر اتصال، بالضبط منذ أسبوعين.

عندما ودعتنى، رافقتنى حتى الحاجز الذى يجب الافتراق عنده، عندما حاذى خطوى خطوها، انعكس حضورى فى عينيها، تماست أطرافنا، منحتنى جانبا جميلا، أمنا، ولمسات منداة من أصابعها الحانية، العطوفة على، مالت جهتى، برقت مويجات عينيها.

مارأيك.. لو اتصلت بى الليلة بعد وصولك؟

تطلعت إليها. أومأت مرتين، ثنت شفتها السفلى، مطوية بالعليا. أحببت منها ذلك عند إبداء مرحها البكر، قالت:

ـ سأنتظرك..

نزلت بلادى فجرا، بعد تمام إجراءات الوصول، وتحديق العيون، والتطلع إلى السمات، سعيت إلى أحد الواقفين. استفسرت عن مكان أجهزة الهاتف. أشار ودل. تطلعت إلى الوقت، إنه متقدم ساعتين هناك الآن، يدنو فجر مضاربها الآن، أما ليلى فمازال فى صميمه، هكذا انتقلت من زمن إلى زمن، من حال إلى حال، استعدت طلبها المفاجئ، انحناءة رأسها، ابتسامتها، قالت إنها لن تودعنى دامعة أبدا، فأيام الانفراد القادمة كثيرة، بدأ إدراكى باكتمال النأى، وقوع الاغتراب. وأن ماكان مدركا منها بالحس، لم يعد ممكنا استعادته إلا بالمخيلة، انفطر شطر منى، وحتى أسترجعه لا أدرى كيف ستتوالى الأمور؟، قال الضابط الشاب إن أجهزة الهاتف الصفراء تلك للاتصالات المحلية، أما الدولية فهناك فى صالة العابرين.

تجاوزتها، والعودة صعبة، يبدو أنه لمح حيرتى، وتعبى، قال إنه من الممكن إجراء الاتصال من الفندق القريب من المطار، هناك مركز لخدمة رجال الأعمال، لكن.. لابد من قطع مسافة إلى الفندق، الوقت متأخر. والحقائب ثقيلة، أما رغبتى فى الوصول إلى بيتى فطاغية، أود الانفراد بذاتى واستعادة ما كان، ومحاولة التنبؤ بما سيكون.

مع بدء اليوم الجديد، امتزج يومها بزمنى، بوقتى، حددت فرق التوقيت. الآن تجتاز مدخل بيتها، تعبر الطريق المحفوف بشجر كثيف. عند نهايته بوابة حجرية عتيقة، تخرج إلى الشارع العريض، حيث موقف عربات الأجرة صفراء اللون كنت أتابع انتقالها، توقفها هنا أو هناك، وصولها المكتب، احتساءها القهوة، على امتداد النهار أتعلق، أتشبث بالعلامات الفارقة، تناولها الغذاء السريع فى الثانية، انصرافها فى الخامسة، يحار.. هل مضت إلى والدتها؟، إلى صاحبتها؟ إلى بيتها؟ أم تنفرد بذاتها فى مقهى مجهول لى؟، ربما تخطو فى عالمها الصغير، شقتها المحدودة التى أحالتها إلى مكان فسيح بما وزعته هنا وهناك من أشياء جميلة، صغيرة.

إذ يأفل الضوء، ويكتمل الليل، لاأقدر على تحمل الصور وانتفاض اللحظات، أسعى خارجا، مزدحما، تواقا إلى عبيرها. عندى يقين أنها ترقبنى من مكان لا أدرك كنهه، يتحدد إيقاع خطوى، وانتظام سيرى. وحر زفراتى، مضيت إلى مكتب

الهاتف الدولى، طلب منى الموظف أن أدخل إلى المقصورة الضيقة، أغلقت الباب، أحكمته. لا أتقن الحديث همسا، كنت مضطربا، غير قادر على التحكم فى نبضى، لحظات وأصغى إلى صوتها. أتعلق به، أتركز فى الإصغاء، نستحيل إلى ألفاظ، وثوان معدودات، بعد أن كانت دانية، قريبة، مدركة لى، متوغلة عندى، تستحيل إلى صوت، يتبدد فى الفراغ، لايلمس ولا يمسك، لايمكن تقبيله أو تنسم روائحه، أو الاتكاء عليه سعيا للدعة. لكنه يصدر فى اللحظة عينها عبر وجودها. وهذا مايخفف التياعى. وتلك النار الموقدة، بطيئة الخمود عندى.

عندما التقينا إثر فراق قسرى دام زمنا مقداره عامان وثلاثة شهور وستة أيام، عندما هلت على، وطالعتنى هيئتها، عندما مددت يدى واحتويت حضورها واستكانت إلى صدرى. واستكنت إليها، بزغ عندى الخاطر المشئوم.. إذن بدأ العد التنازلى لفراقنا، زمنى معها محدود، والعقبات لاتحصى، وما أمر به الآن يتحول إلى ماض، فلأدخر قبسا من هذه اللحظات، لأتخيل كيف يمكننى استعادتها، فلأتزود منها لأيامى العجاف، لقهر غربتى فى موطنى، كأنها أدراكت عنى فى أول لحظات اجتماعنا، قالت، دعنا نعيش مانمر به، لاندرى ماسوف يكون!

غير أن وحشتى إليها فى اقترابى منها أناخت على، وإدراكى أننى مفتقدها أفسد على آنيتنا، لكننى حاولت، واجتهدت، وسعيت، غير أن دنوى لم يزدنى إلا بعدا، وتوغلى

عبرها، وامتزاجها بى لم يدفع زمن الفراق لحظة، فمقامى ليس على مقربة منها، وحضورى موقوت. مشروط، عيشها بعيد عنى، أسعى هنا، وهى هناك، إذا جئتها فأنا عابر، غير مقيم، وإذا وفدت على فهى مغتربة، الظرف صعب. والحال وعر، ولم الشمل دونه محاذير. هكذا.. وقفت داخل المقصورة. عرقى ينز لارتفاع درجة الحرارة، وتصاعد ذرات التراب، تؤطرنى محدودية الموضع، رفعت السماعة منتظرا، مستوفزا متأهبا للتلقى.

أصغيت، تكتكات سريعة. متعاقبة، صمت، وشيش كونى غامض، ماذا يجرى فى الفراغات الفاصلة وعبر المسافات الممتدة والمويجات غير المرئية، والصمامات المعدنية، والأسلاك الغليظة، والنحيلة، الممتدة، الملتفة، ماشكل صوتى إذ ينقلب إلى ذبذبات، وأى طريق يسلكه صوتها، عبر الحجب، والمسافات، وهل تتماس مويجاته بموجاتى، أم تتقاطع، تلتقى أو تضل عن بعضها. تفنى أم تبقى؟ ياحسرة وعرة، بعد اتحادنا ننقلب إلى ما لا يمكن رؤيته.

أصغيت إلى تموجات، كأن أبوابا سحرية غامضة تفتح أو تغلق، ماذا يجرى عبر الأسلاك والفضاءات والأجهزة المنصوبة؟

جاءنى صوت موظف المكتب:

ـ تفضل.. تكلم.

شببت على أطرافى، صرت مستوفزا، متأهبا بكينونتى الآنية، والمنقضية، والتى ستنقلب إلى عدم، تهيأت لأتلقى منها، وتتلقى عنى. ألصقت السماعة بأذنى، صارت جزءا منى..

تلك هى.. صوتها، مذاقه، طلته، ظله، تقلبات ألوانه، بكل مايحوى، بما يرسله، وما يستودعه، ومايستثيره..

ـ نعم.. من؟

نطقت بحروف اسمى. غير عابئ، غير مبال بارتفاع صوتى، انتفت الموجودات كلها، لم يعد إلا هى، كل شىء غائب عداها، ومحاولتى الإمساك بما لا يمكن إدراكه أو نيله أو الوقوف عليه.

ـ من.. من يتكلم ؟

تتساءل، تستفسر، تنطق من موضع أعرفه، بين جدران ضمتنى وإياها، ومن فوق فراش احتوانا سويا، وفوقه بسطت حدائقها، وأباحت لى مروجها، منحتها نضجى واشتمالى. ترقد، تقف، تنحنى؟مرتدية ؟ متجردة، تجلس إلى مكتبها الصغير، تتأهب لعبور ليل يعقبه صباح بدونى؟، من جوار الهاتف أصغيت إلى صوت المطر عندما بدأ نزوله آخر الليل، فأصغيت. وتجدد انتشائى، وتصاعد إحساسى بالقرب، مع التوحد الأثم فاقبلت أسعى من جديد حتى ابتسمت متعبة بالنشوة، ناطقة بشكوى المتعة، أنهكتنى. ولم يزرنى خدرها، وغزارة المطر إلا إمعانا فى اللجة، حتى صار وقتا يحتذى

الوصول إلى مثله، والسعى معا لإيجاد قرينه.

ـ من.. من يتكلم..

عصبية فى صوتها، أكرر زاعقا اسمى، يبزغ خطأ ما، لا أدرى مصدره، أو كنهه، أصيح فلا تسمع، وتصرخ فأصغى، سمع من طرف واحد، أو أنها تبدى، تتجاهل، يدب الشك عندى، أهى بمفردها، فى لحظة صعب إدراكها أو توصيفها يفلت، ينقلب مبتعدا، يتحول إلى استدارات معدنية، وخفقات مجهولة، وإشارات ملغزة، وترددات خفية. يجيئنى صوت الموظف..

«انقطع الخط..»

رجوته تكرار المحاولة، مرة أخرى، ثالثة، عبثا، لامجاوبة، عند حد معين أدركنى خجل فأنهيت الجهد، خرجت إلى الطريق خائبا، أدرج وأنا حسير، تتكأكأ على الهواجس، وهواجم الأفكار، هل سمعت صوتى، هل منعها عائق؟، أمضيت الليل أرقا، ساهدا. فى الصباح وقفت أمام موظف آخر، ضغط الأزرار، وأعمل المفاتيح، ثم تطلع إلى آسفا.

الرقم عاطل..

جملة تكررت فى مسمعى مرارا خلال الأسابيع التالية، كنت أمضى إلى نقاط شتى من المدينة، مكاتب اتصال، فنادق كبرى، فى كل مرة تجيئنى الإجابة، الخط مصمت، أخرس، عاطل، ما من مجيب.

شيعت الخطاب إثر الآخر، لم أتلق حتى الآن ردا، سعيت عبر أيامي مهموما، مطرق الهامة، مثقلا بالانقطاع، مامن مهدئ إلا لحظات وصلنا، نوبات لقائنا، امتزاجنا، تفاهمنا، في كل يوم يمر يتوارى موقف، يبهت، وقد يبرز آخر، أنام وهى آخر مايتراءى لى، وأصحو فألقاها داخلى، أوشك على تنسم رائحتها التى أعرف، حتى حلت بى هذه الظهيرة، أو حللت بها، كنت على وشك الدنو من المقهى الذى اعتدت أن أخلو فيه إلى ذاتى، أقصده في مواعيد أعرف أن صحبى يغيبون فيها..

نادتنى!

صوتها، سمعته بحواسى كافة، سمعى، وشمى، وإبصارى، وقدرتى على اللمس، لايمكن أن أخطئه أبدا، لا أضل عنه قط، نفذ إلى عبر ضجيج العربات، والطريق، وتدفق الحركة، وقفت مبهوتا لا أنطق، خشيت الالتفات فألقاها، عندئذ تقع المفاجأة التى لا أدرى مداها وأثرها عندى، خفت ألا أجدها فتبدأ الخيبة، ويتجدد الفقد، آثرت تأجيل اللحظة وجمودها، توقفت مكانى، غير أن يدها لم تلمسنى، وأنفاسها لم تتردد على مقربة منى، على مهل استدرت، لم أر إلا امرأة عجوز تسعى، ورجلا يتلفت حوله، كان الحضور قفرا منها، خلوا من أطيافها، أما صوتها الأنثوى السوسنى، المغموس فى الرضا والود فما من صدى حتى! مضيت خائبا إلى المقهى. لاأدرى كيف مرت بى تلك الظهيرة، ولأيام تالية انعكس ماعندى على ملامحى، فبدأ الاستفسار من الصحب.

ـ مالك تبدو مهموما ..

ولا أقدر على البوح، أو إبداء الشرح أو التفسير، كيف أفصح عن فقدى، وصعوبة هجيرى، مضت الأيام بى، ومضيت بها، لا أنا انثنيت، ولا بادرة لاحت، لا الهاتف نطق، ولا الجهد أثمر، حتى استبهم الأمر، وتعثر وقتى، وكلت مساعى، غير أن تردد صوتها من مصدره الخفى عنى استمر يفاجئنى، فى هجوعى، فى تطلعى إلى الأفق الممتد، فى ثباتى، فى رحيلى، فى قيامى، فى قعودى. فى أوقات لم أتأهب لها. لم أعد لها العدة.

مرة تنادينى باسمى، فتوقد داخلى الجذوة، ومرة يسبح همسها داخلى منطلقا من مصادر خفية، معيدا إلى بعض لوازمها التى أحببت وسعيت إلى تكرارها، عندما كنت أتطلع إليها صامتا، مرغما على السكون بتأثير دفقها، ولانعدام قدرتى على ترجمة هديرى إلى ألفاظ منطوقة، عندئذ تميل تجاهى، تسأل:

ـ ماذا؟؟

سؤال ممتد، مغلف بغيم، واعد بانهمار سيل إذا صادف الجواب المرضى، أقول باختصار، إننى عندما لا أقدر على البوح، يكون المعنى عندى عظيما جللا.

عندما كانت تستحسن أمرا، تومئ برأسها مرات سريعة، وتقول:

هذا طيب..

عندما وقفت فى فراغ حجرتها. شاهقة، حاضرة، مرمرية، كونية الفيض، تسألنى عما يروق فى عينى قبل رسوها إلى جوارى. هذا الثوب أم ذاك ؟ تبدل، تغير حتى يلوح منى ماينم عن رضاى.

عندما تدفق ضحكتها، ألمح فى تتابعها شجناً فيه صدى بكاء عسر، عندما تنطق بعربية متعثرة:

«إن شاء الله..»

كل ماجرى، ماكان، تلخص فى هذه الأصوات المبهمة، دائما أنتظرها، عند ذروة توقعى لاتأتينى، وعندما أتلهى، أو أفرغ إلى أمور غير ذى علاقة تدهمنى، فأحاول جاهدا التعلق بما لايرى، اتقاء لعدم أخشى أن يدركنى فيذرينى..

فبراير ١٩٩٠

هلاتها..

رايت الهلال ووجه الحبيب
فكانا هلالين عند النظر
فلم ادر ايهما قاتلى
هلال الدجى أم هلال البشر
فلولا التورد فى الوجنتين
وما راعنى من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب
وكنت أظن الحبيب القمر
فذاك يغيب وذا لا يغيب
وما من يغيب كما من حضر

نوبة الحجاز الكبير
· صنعة متقارب

مستهل..

.. إنما متعلق الأمر بترتيب خارج عن طوعى، ونظام لم أسهم فيه بنصيب، زمن يمضى، وقت يسرى، عصى على الرصد أو النيل، مع أنه مدركى وبالغى عند الشهيق والزفير وما بينهما.

هكذا.. لا ألقاها إلا فى رحيلى، وإن كانت من عناصر إقامتى، وتحريك ديمومتى. أنا فى جهة، هى فى أخرى، ما بيننا شسوع مدى، عوامل شتى من نظم جغرافية وتاريخية باقية، وسياسية موقوتة، ترتيب ومصادفة، أثمرا لقاءنا وابتعادنا، فترات وجيزة، مارقة، مرجع القياس أوقات تباعدنا لغلبتها.

فى إحدى رسائلها خطت مانصه:

«إن الحياة تمر بسرعة، ومرات اللقاء نادرة والوقت بخيل..»

عبرت عما جال عندى وصال على، لو تكررت مرات اللقيا فى الآتى، قدر الماضى، لو تجاورت الأوقات المتباعدة واتصلت، فما هو إلا نزر يسير لا يشفى الغليل!

سألتنى صاحبة لى،. مطلعة على أحوالى. ملمة بعنصر اشتياقى:

«كيف يدوم العشق مع غياب المعشوق؟»

واجهتها صامتا، حائرا، مامن إجابة مقنعة. شافية. شرعت فى القول إن حضورها مع البعد يكون أحيانا أقوى من تجسدها الحسى عند دنوى وتنسمى شذاها، وارتشافى. وإن اشتياقى مع القرب يتأجج، وقد يقع منى الشرود والفتور. غير أنى لزمت السكون، كيف ستتلقى هذا عنى؟

أما واليأس من الاجتماع واقع الآن، فإننى أجتهد لأستعيدها جملة وتفصيلا. يقوى حضورها عندى فتعشى ذاكرتى لشدة السطوع، وتألقه حتى لأطرق مغمضا عينى. غاضا: آملا تخفيف هميانه على.

أحيانا أخرى، وهذا غالب، طاغ، أجتهد محاولا الإلمام بقبس من حضورها الذى ولى، من سريانها الذى كان، من دفقها، من تفردها، من حنوها على، من إلمامها بداخلى، من إدراكها سكناتى، بلوغها مراحلى، وفهمها عنى بالنظر مالم يدركه الآخرون بالشرح والتأويل والتفسير.

كثيرا ما يطيش تصويبى، ويضل قصدى، ولما كانت أيامى تميل إلى أصيل غروبى، مامضى أكثر من المتوقع الآتى، مع ثقل الحمل، وتبدل الزمان، وشح الأنس، لذلك عزمت، وتوجهت، غير خاضع لترتيب، إلا ماتمليه قوة الخاطر على، وتوهج الشوق، وانبعاث الحنين، بعد أن صار منفاى فى دار إقامتى.

أما الغرض من هذا كله، فاستحضار المحبوب ولو بالمخيلة، وتثبيت ما قد يرد على اليوم، وأعجز عن استعادتى غدا، دأبى المشاهدة وغايتى القرب، غير أننى لما لقيت الشوارد متناثرة، وشظايا الوقت متنافرة، آثرت للمة ماتباعد، لعلى آتى منها بقبس، هكذا تحدد الأمر بثلاثة روافد، أماكنها وأزيائها غير اننى أبدأ بذكر هلاتها.

* * *

.. عصر.

ضوء واهن، مر وضن بستائر شفافة مسدلة، بقايا غير منظورة لآخرين عبروا الزوايا والأركان، مابين الفرجات التى تفصل بلاطات الخزف، داخل الصوان الأربعينى أو الثلاثينى العتيق. فراش ضيق، وثير، ناصع، ترى.. كم توسده قبلى؟ أى جهات قصدوا وأى أزمنة أقلعت بهم؟

سقف مرتفع، رائحة ظل مقيم، جدران فاصلة، وإدراك عندى للرسو، للوصول، أما الطريق العريض. الهابط من المطار

إلى المدينة عبر الغابات الكثيفة، جعدة الخضرة. فيبدأ عندى وينتهى إلى، هذه العمارات، تلك النواصى، المداخل العريضة، لافتات المخازن، محطات الحافلات، مقاعد الحدائق العامة، النصب التذكارية فى الميادين، ينتسب هذا كله إليها ويمت، هل تطلعت إلى هذه الناحية، هل ألم بصرها بتلك الشجرة، هل خطت فوق ذلك الممر؟، ربما تعلق نظرها بهذا المنحنى.

ربما يعنى لها هذا الممر المؤدى معنى، ربما يستثير عندها رؤيا كامنة، هذه الواجهات، كم توقفت أمامها، كم مرة عبرت هنا، أى شئ توقعته هناك؟.

ربما أطلت من إحدى هذه النوافذ العديدة، المتشابهة، المتجاورة، المتراصة، الصارمة، أين سعت شابة؟ وأين حبت طفلة، أى حدائق آثارت بهجتها، وأى نهارات أينعت الأمل أو أثارت الذكرى.

كل مايقع عليه بصرى ينتسب إليها. إدراكى هذا يضفى على حضور المدينة الممتدة الضخمة ظلالا ودرجات من الضوء والمشاعر، هى المقصد، والنبع، ومرجع البديهيات. من الطابق السادس أطل، أدرك الرصيف المقابل، حافلات تندفع، تتوقف، مارة يسعون، نساء طاعنات، أخريات شابات، صبية، فى كل منهم شئ منها.

نهار باق رغم رحيله، فى موطنى اكتمل الغروب منذ ساعة، يستمر مكث الضوء هنا فى شهور الصيف تلك، حتى بعد

غياب مصدره الكونى، فضوء ولا شمس، ونهار ولا نهار، هذا شأن بلدها الشمالى، فما أغرب!

هى هنا!

فى هذه المدينة. هذا التكوين، ملامحها، قسماتها منبثة فى حضور المبانى، وتقاطع الطرقات، وغربة النواصى، وسعى المقيمين، ومرور العابرين.

جئت مرتين، الأولى مع بدايات الخريف وتعرى الغصون من أوراقها وبدء شحوب الكون، والثانية مع السبات الشتوى، واكتمال الكمون، وانغلاق الذوات على مضامينها.

إقامتى الآن صيفية، انفراجة أفق، وإسفار وبوح وتصريح، يبقى المعنى ناقصا طالما لم أستدل عليها بعد، كافة ماسبق نقاط تمهيد، إقلاعى، وصولى، عبورى بوابات المراقبة. نظرات فاحصة، كتابة الإقرارات، تلهفى، خفقى، توقعى رؤيتها بغتة، ألم أنبئها قبل شهر؟، ربما لم يصلها خطابى. ربما لم تعبأ..

أقصيت الخاطر، لم يهن توقعى، حتى بعد اجتيازى آخر البوابات، تقدم سيدة فى منتصف العمر، زجاج منظارها الطبى غامق سميك، قالت إنها مكلفة باستقبالى، باصطحابى. وددت الاستفسار منها، مع أنها لاتعرفها. لم تلتق بها، لكننى رغبت ذكرها بلسانى، غير أننى كتمت.

لم أخبر بمطالعتى ملامحها عبر السحب والغمامات، والمدن القصية، وتحرك لحن قديم عندى، فإلى الشجن نزوعى، خاصة

إذا استدعيت بالمخيلة من أهوى، لم أنبئ بدافعى الحقيقى للمجىء، تلهفى للرؤية، توقى إلى أوبة مرتقبة تجمع متفرق الشمل.

دائما كنت فى مداها، تتطلع نحوى من موقع خفى لا يبين، فإذا مشيت، كيف ترانى؟ وإذا نطقت: كيف تسمعنى؟ وإذا شردت أنتبه حتى لا أتوه عنها. إذا خلوت ونأيت عن الخلق، وتحدد عالمى، يقوى على حضورها، فأوشك على لمس أثدائها، وتنسم عبيرها الكلى وتقلباته، عند النظر، عند التدانى.

يهن الوقت، كيف تمضى أول ليلة بدون سماع نبرها على الأقل؟، مرة أخرى أقوم إلى الهاتف.

صوت أبيها، على مشارف الهرم، به ظلال من فترة بعيدة. يعرفنى، فى صوته مودة، كافة رسائلى وجهتها إلى عنوانه، أبدى ترحيبا متمنيا إقامة سعيدة، إنجليزيته ضعيفة مع أنه يتقن ثلاث عشرة لغة. معظمها غير شائع، أو منقرض. فى المرة الأولى أخبرته اسم الفندق. هذه المرة نسيت أيضا ذكر رقم الغرفة، لم تتصل به بعد، مازال فى انتظارها.

أخشى مفارقة الغرفة، لعل وعسى!

يستمر همود الهاتف، أتطلع معاتبا، ولتبديد الوحشة، وللتخفيف نطقت: كف عن صمتك!

لو يتردد الرنين، حتى وإن أخطأنى الطالب. لكن.. من؟ من سيسعى إلى الآن؟. معارفى - وهم قلة - لم يستدلوا على

مكانى بعد، عزمت وقررت ألا أرى إنسانا قبلها، فمن أجلها مجيئى، وصوبها سعيى، ماعداها غطاء وحجة.

انقضاء عام أو أكثر بعيدا عن ديارها فى جانب، وفوات دقيقة واحدة بدونها وأنا على مقربة فى جانب آخر، فى الحال الأول الأمر قسرى، أما الآن.. فأى حجة، أى تبرير، انعدام اللقاء على القرب أشق من غيبة أعوام متتالية.

تبديل ملابسى أول علامات قنوطى، كذا لجوئى إلى الفراش متلمسا بدء هجوعى، يحط على تعبى، صدودى عن الطعام قائم، لم أفارق الغرفة خشية أن تطلبنى أثناء غيبتى.

كمدت.

بدأت مرحلة انتقالى من اليقظة إلى النوم، مستسلما إلى كافة هواجسى وظنونى، هل أبلغها والدها حقا؟ الرجل وعدنى مرتين، بدا متفهما، مطمئنا لى، إذن.. لماذا الصمت؟ أيعوقها أمر؟

ماهو؟

ربما لم تعبأ، لم تبد اهتماما بتأثير من فتور الهمة، كيف يدوم العشق مع البعد؟، ربما خرجت إلى نزهة، إلى سهرة مع زوجها، ربما مع صاحب أجهله، لم ألم بتفاصيل كافية عن أيامها، عن علاقاتها. عن سريانها هنا وهناك. لم أطلع إلا على عموميات. منها جفوة الصلة مع من ارتبطت به فى سن مبكرة،

حتى أنها تأبى الإنجاب حتى الآن بعد مرور ست سنوات ودنوها من الثلاثين، قالت لى إنه سن مخيف بالنسبة للمرأة، أستعيد شرود نظرتها، لحظة نطقها المعنى والعبارة أرى فناء فسيحا مسورا لكننى لا أذكر المبنى، تمرق رائحة بعيدة تمت إلى فندق قديم، عربة تتوقف، وسحب تتجمع منذرة بمطر، لحظات شروق مبهمة، ركاب مرهقون داخل قطارات تسعى فى عمق الليالى المندثرة، أرصفة محطات خالية، فتاة متفجرة بالأنوثة تمشى أمامى، أكاد أقتنص شذاها، طريق ضيق مظلل، واجهة شاهقة، زخارف، زجاج ملون يتخلل جصا، مقهى، صبى حائر، أين، أين؟ رنين، رنين، رنين.

أنتبه منتفضا متسارع الخفق، ظامئا، أتطلع إلى جهاز الهاتف. أول رنين يتردد فى فراغ الغرفة العتيقة، فى فراغها العبق برائحة غامضة، خفية المصدر، للحظات خشيت رفع السماعة، لكن خشيتى أن يكف تدفعنى..

أنطق مبادرا..

مامن صوت، مامن مجيب، صفارة متقطعة تتردد، إشارات، أصداء لا أدرى مصادرها، أخشى ركض نبضى، أبطئ أنفاسى، تذرى نعاسى، من.. ترى من؟، هل يريد أحدهم التأكد من وجودى فى الغرفة؟ جزء من مراقبة الأجانب، أو اتصال ضل طريقه إلى؟ خواطر متتالية، احتمالات شتى، لو أصغى إلى الرنين مرة أخرى، حتى وإن تكرر الصمت، لكن.. تتوالى الثوانى، الدقائق مخلفة عندى الحيرة والبلبال.

طار النوم عن عينى، كثيرا مارددت أمى تلك العبارة بنصها فى الزمن القديم، نطقتها بصوت مرتفع، إيقاع مماثل لما سمعته منها، حتى بدا وكأن صوتها ينبعث منى. مططت شفتى.. كأننى أشرع فى مخاطبة آخر لا يبين يمثل أمامى.

كم انقضى بالضبط؟

كم.. مقدار الوقت الفاصل بين الرنين الأول والثانى. هذه المرة لم أنتظر. على الطرف الآخر، من مكان أجهله، من خلال وضع ما، تسلمت بريد صوتها، هى.. أعرف تضاريس نبرها مهما خفت أو نأى. تلك تموجاته، ظلاله، مذاقه، فكأن شهورا عديدة لم تنقض، ومسافات لم تفصل، وبيد دونها بيد لم تعبر، قالت إنها بذلت جهدا حتى عرفت رقم غرفتى.

بعد نطق الجملة الأولى صمتت لحظات، قلت إننى غير مصدق. فوجئت بسؤالها:

ـ ترغب رؤيتى؟

صحت:

ـ لهذا جئت..

قالت:

ـ إذن.. الآن.

نطقها مختصر، دال، حازم، أجبت منساقا.

ـ أين.. كيف؟

قالت إن الليل موغل، الثانية صباحا الآن، حضورها إلى الفندق صعب، لكن هناك مخزن مشهور للبضائع، مجمع ضخم، مجمع ضخم يعرفه سائقو عربات الأجرة، قريب جداً من بيتها..

ـ لحظة..

ورقة، قلم، كتبت ماتمليه على، قالت:

ـ بعد ثلاثين دقيقة سأكون أمام المخزن..

كررت:

ـ بعد ثلاثين دقيقة..

تدفقت، وقفت عاريا لثوان تحت المياه الباردة، تطلعت إلى سترتى التى سألقاها بها، أحكم ثيابى بأصابع مرتعشة، جواز السفر، هل أترك النقود فى الغرفة؟

لا.. من الأفضل أن أصحب ما أخشى عليه، أخرج مجتازا الممرات الطويلة، الأبواب مغلقة على أسرار شتى، أصوات صادرة من إحدى الغرف، فى الصالة الرئيسية تتمدد مشرفة الطابق فوق أريكة مستطيلة. أبتسم معتذرا، تتطلع إلى دهشة، مستديرة الوجه، شرقية الطلع، متصلة الحاجبين، سلمتها المفتاح. تناولت البطاقة الصغيرة التى لايمكن لى اجتياز البوابة الخارجية بدونها.

برودة منعشة. ساحة ممتدة شبه خالية، ثلاث عربات أجرة فى الانتظار، اتجهت صوب سائق قدرت تجاوزه الخمسين، رحت أنطق العنوان، اسم الشارع، المحل. كتبتها بحروف عربية كما سمعت منها حتى يسهل على ذكرهما، هز رأسه مرتين، جلست إلى جواره، بعد استدارته استقبل ليل المدينة خافت الضوء، كثيفة الأشجار، تتوه طرقاتها فى العتمة، مبان ضخمة لكن مصمتة.. أجهل الدروب والمنافذ، أيضا الوجهة، لا أعرف أى سبل مؤدية. أطأ هذه النواحى أول مرة، لم يسبق لى المرور ليلا أو نهارا، أجهل لغة السائق. لا أستفسر إذا توقف، أو اذا أبطأ، إذا سلك هذا الشارع ولم يعبر ذاك، لا أعرف أين الموقع على وجه التحديد، ولا المسافة التى تفصله عن الفندق، لم أعرف إذا كنت أمضى يمينا أو شمالا، تداخلت على الجهات. أوغل ليلا صوبها، لا يعنينى مايمكن التعثر فيه. مايمكن أن يعيقنى. المخاطر المحدقة، أتحول إلى كينونة متطلعة، متلهفة، أتساءل، كيف ستبدو؟ كيف سيقع بصرها على، هل أتحمل انبثاقها عندى، قوة وروده على، أى كلمات ألفظ، أى نبر أتكلم، أى حوار يجرى؟

تقل السرعة، فى حركة السيارة وعد بالوصول، بشرى بالقرب، يتطلع السائق إلى المبانى، يتوقف قرب مظلة، محطة حافلات عمومية. يشير إلى بناء ضخم، مستطيل، عريض الواجهة والنوافذ، تعلوه لافتة تضئ بلونين أزرق وأحمر، إذن.. أصل إلى الموضع المحدد.

عربة شرطة تمضى متمهلة، يضوى المصباح الأزرق فوقها فى حركة دائرية، تتوقف على مقربة، ينزل منها جنديان يتفحصان شيئا ما. وجودهما على مقربة وتحسسى جواز سفرى فى جيبى يبعث عندى ثقة هجير ليلى وموضع لم أتوقعه، رغم تأخر الساعة إلا أن الحركة غير معدومة، شابان وامرأة يمضون فى الاتجاه المقابل.

لم أفارق العربة. تطلعت إلى السائق، أشرت إلى الساعة. إلى الخارج، صوب الجهة التى جاءت منها وكأننى كنت أعرف، ما أثار عجبى أننى لم ألتفت إلى الجهة الأخرى قط.

حافلة تتوقف أمام المحطة، لا ينزل، لا يصعد أحد، لو انتظرت تحت المظلة فلن يلفت ذلك النظر، الحركة تستمر حتى هذه الساعة المتأخرة، ألم بالمكان كله مع أن الليل وظلاله الثقيلة وكثافة الأشجار تخفى عنى الكثير، موضع لم يدر بخلدى أننى بالغه، فوق نقطة منه سنلتقى، كم عبره قبلنا وكم بعدنا؟. لو مررت به بدون ترتيبها لما عنى شيئا بالنسبة لى، لكنه منذ انتظارى هذا سيمثل بذهنى ويعلق. كيف سأستعيده، فى أى لحظات من صحوى أو نومى سيرد على. هذه المبانى، تلك الأشجار، الحشائش الخضراء التى ينعكس عليها ضوء النيون، البلاطات المربعة المتساوية، الواجهات المتشابهة، أعمدة الإضاءة القديمة، المصائر وراء الجدران، الناس الذين أجهلهم، السائق الصامت، لا يعرف التراث الكامن عندى، موقع هذه

اللحظات مني، غريب أمرى! يحل بى هدوء، تنزل على سكينة، كأننى أرقب الوقت من خلال شخص آخر أعرفه ولا أعرفه، عند دنوى من اللحظات الفاصلة يبدو ما سأشهده، ما سأمر به وكأنه يخص غيرى، حتى إذا فارقت ونأيت وصار وصولى اليها صعبا. وإدراكى المكان مستحيلا، عندئذ.. أستعيد أدق التفاصيل، أعيشه مرات، تثقلنى المرئيات المستعادة حتى لا أقدر على تحملها فأفارق مرقدى أو مجلسى، أنأى عن صحبتى، كأن انتقالى من مكان إلى آخر يخفف ويسرى.

مالى، موزع، مذرى، ضائع بين استعادة ماكان. والتطلع إلى ماسيكون، حتى إذا تحقق الأمر أنظر إلى مايكون من موقع زمنى منبت، بعيد، أحض نفسى على الاستغراق، التطلع صوب الآتى.

أوشك على النظر إلى أعمدة المصابيح، أصغى متلمسا دبيب اللحظات التى تعبر المكان أو يعبرها.. لا أدرى؟، ماموقعها من الزمان؟ أى مواضع تتخذها النجوم القصية الآن؟ أى مدار ينتظم فيه الفلك، فى أى حيز تحوم أرواح الراحلين؟. تلوح لحظة حنين إلى شذا قديم، خفى المصدر، أوشك على.. على.. هى..

انبثاق، انبلاج، يتفتق ظلام الليل عنها، تحديد البداية وعر، غير أنى ألمت بانبثاق خطوها من سور العتمة، رأيت إقبالها، اقترابها، خطوها، تدفقها نحوى، لمدى طويل أمضيت الوقت متوقعا ذاك الأوان حتى كدت أكل.

ها هى..

ماثلة، شاخصة، تسرى، تسعى. تبلغنى كنبأ جميل، سترتها قدت من صوف أزرق، أحمر، أبيض، أسود. أصول الألوان وجذورها، طلعها يلغى سائر المكونات، أتطلع، أوشك على الجموح لكننى لا أحدد ولا أحيد.

أنتبه إلى ثباتى وإقبالها!

وقوفى ليس من علامات الأدب مع المحبوب حتى وإن جمدنى البهت، أواجهها بكافتى. بكلى. اكتمالها يمحو ماعداها خاصة عندما رست عندى ورسيت عندها، جثوت، مستسلما، راضيا، متأهبا، محاولا استيعاب فاتحة هلاتها فى دورتها تلك..

ـ ٢ ـ

«مكان محدد، مطروق، موضح على خرائط المدينة، ساحة منبسطة، مبلطة بالحجر، تمتد أمام الحصن القديم، مقصد الزائرين، ملتقى أجناس شتى، علامة رئيسية بالمدينة، حددنا الباب الرئيسى القريب من النهر، أما الوقت فتمام الواحدة، مجرد نقطة لقاء، بعدها نمضى إلى مقهى قريب، هناك تقدمنى إلى زوجها، لم أقتنع باللقاء المقترح، هذا مخالف لكافة ماجبلت عليه، لم أدر كيف ستتم المواجهة. كيف سأتصرف، وددت استبعاد هذا الترتيب، لكنها أصرت. قالت إن حياتها تمضى

فى خط مواز له، وأن الفتور واقع منذ مدى، ومايجرى عندها لاتعتبره سرا، ولا تريد إخفاءه. لماذا تكذب؟. ليس عندها إلا المصارحة، حتى يكون مايكون، قالت إنه كان يمضى أجازة فى الريف عند صحب له، كتبت إليه تنبئه بوصولها، بعد عودته جرت محاورات عديدة، كنت أنا موضوعها ومرتكزها، عسر على الفهم، وعندما أبديت تحفظى قالت:

ـ من الأفضل أن يتم كل شىء فى الضوء.

أتطلع حولى، لنصوع حضورها أعشى عما عداها، لا أتوقف عند ملامح أخرى مهما بدت مبهرة. ليس مثلها مثل متفردة. بعد خمس دقائق تلوح، أحرص على وصولى مبكرا، هى يجب أن تنتظر لا أن تنتظر. أدور حول المبنى، أقف عند الركن، خلف العامود الرخامى، أود مشاهدتها قادمة، مطالعة ظهورها على غير علم منها، رصد انتظارها، قلقها، تصرفاتها، تجىء دائما فى مواعيدها. دهشت.. كيف تضبط حركتها مع استخدامها المواصلات العامة، ومجيئها من مسافة بعيدة، ترى من جاورها فى المركبة، من وقف على مقربة، من دنا ومن نظر؟

ـ تختبئ ؟

تلمس كتفى، أستدير، تتلألأ عيناها، تضوى بحبور إنسانى نادر، بريق هادئ، تألق لايمكن لهذه اللحيظات أن تحتويه. وتلك المعانى، أومئ برأسى غير ملم بما أريد التعبير عنه، انبهارى، وقع المفاجأة؟ مجيئها من حيث لا أحتسب؟ أو أساى لإدراك

زوال اللحظة ومروق المعنى، أو لعجز النطق عن إسعافى. أم لأن ألقها وفيضها غمراني، مع وهن القدرة على التصريح، كدت أتبسبس خفقا مع دوام تطلعها.

ترفع حاجبيها مع انفراجة يسيرة من شفتيها، وهذا تكوين يدنو بها من سر الزنبق، وسريان اللون فى المتلون، سبحان من جعل الإنسان قادرا على تغيير العتمة وتبديد الظلام، أما الضياء فلا يمكن تحويله. أو تغييره، أو تبديله. تطلعت صوبى.

تتساءل بصوت منبعث عبر درجة أو طبقة يستحيل إدراجها أو تعيينها:

ـ ماذا؟

بصدور نطقها عنها اكتمل سطور نظامها الخاص، لم أجب، إنما استمرت حركة رأسى، متأنية، نادمة.

ـ ماذا؟

تنبعث عنى حيرة، كنت متبددا فى مواجهة هلتها المفاجئة تلك..

ـ ٣ ـ

.. سطوع بدون نهار، العاشرة ليلا والمساء خفى، اعتدت ذلك. مرة أخرى أطأ الموضع حيث أهلت على أول مرة، اقترحت تسميته المكان التاريخى، صفقت بيديها مرحة، مسرورة. يبدو

وجهها الطفولى سافرا بخباياه، عذوبتها البكر لم تندثر بعد، مابين لحظة وأخرى تتبدل. تتغير. مرة طفلة وتارة أنثى مكتملة. تضحك ولكن فى أصدائها نحيب لايرى.

جئت مبكرا، آثرت المشى، إلى الاتجاه الذى قدمت منه، أمضى حتى تقاطع الطرق، هنا افترقنا بعد لقائنا الليلى، قرب مشرق الشمس، وطلوع الصبح، عدت إلى الفندق مكتمل الطاقة، قادرا على الشروع مع أنى أمضيت ستا وثلاثين ساعة بدون نوم، تماما كزمن فتوتى، عندما كنت أصل جهدا بجهد، لا يدركنى ملل، ولا أهاب وقوع التعب وإدراك النصب، أينعت عندى منابع ظننت جفافها منذ أمد، كلما استعدت فاتحة هلاتها فى دورتنا تلك، يخف وجودى الحسى حتى لأوشك على التحليق والطفو، استأنست بصوتى فكنت الشادى والمستمع معا.

بعد مفارقتها بدأت استرجاعى لظهورها، لطلتها، لتوقعها، لإشراقها الليلى، فرأيت مالم أقف عليه عند وقوعه، وفهمت ما استعصى على لحظة نطقه، ونفذت إلى جوهر عبارات لن يبقى منها بعد توالى الفترات إلا مضمون عام غير مفصل، لفظ محدد، أو جملة أفلتت من النسيان، لهذا سأشرع فى تدوين ماعلق أثر فراغى من تثبيت هلاتها خشية الاندثار.

ليتنى أدرك قانون الذاكرة!

ليتنى أقدر فأبقى ما أرغب. وأستبعد مايقض ويوجع، قلت

فلأهنأ بفيضها الذى مازال يغمرنى، عبير حضورها المزهر فى دمى، الحق أنها لم تفارقنى، لم أضل عنها، بل إنها على البعد أقوى منها على القرب لكن.. إلى متى؟

أسترجع نوبات عشقى، وأزمنة تتيمى، فأدهش وأحار، كيف يذوى ماظننته لن يبيد أبدا، ويحل موضعه آخر، يمحوه حتى يستخف المرء بما أوشك أن يقضى بسببه يوما، لهذا إقدامى على التدوين محاولا الإمساك بشوارد الوقت، أما زمان الوحدة والتآسى فقادم، أليس كل آت قريب؟

أمر الهوينا بالموضوع مرة أخرى، كأنى ألم بالمعالم أول مرة، لكن. كيف لم ألحظ هذه الواجهة الزجاجية، كذا ألوان المبنى، اللافتة. الأعلام الملونة فوق الممر المؤدى إلى المدخل، فى الضوء تولد الموجودات من جديد، تتغير الهيئات وتتبدل.

تهدئ الحافلات من سرعتها، تتوقف، تمضى، حركة تستمر، وتتصل، لن تتوقف أبدا، كذلك سعى المارة، واللقاءات المرتبة، ونتاج الصدفة، والعبارات التى تلفظ، وتوهجات العيون، واخضرار الأشجار، وطرحها، ثم ذبولها، سيتصل هذا كله بعد غيبتى، ستتم الدورة، ولكن وجودى مختلف، مغاير، ناء، أما هى فعيناها ستقعان على هذه المرئيات مرات عدة فى نهارات وليال متعاقبة، لاأدرى كيف ستستعيد أمرى، ولا كيف ستبدو صورتى فى ذهنها، وأى أوضاع مثلت فيها أمامها ستحتفظ بها فى أفق وعيها. كنت جاهلا، سأتشكل عليه فى مناماتها، كيف سأبدو؟ ومن أى جهة سأفد؟ وأى أصداء ستبقى عندها،

أى ألفاظ نطقتها على مسمع منها ستتردد عندها وبأى وقع وأى نبر عندما أصير فى جهة وهى فى أخرى؟

أتجه إلى مظلة المحطة، أتوقف قليلا متطلعا إلى الجهة التى تأتى منها الحافلات، تهب النسيمات، عند تطلعى إلى شابة تمسك بيدها سلة ملونة.. يتردد اسمى.

هى..

قادمة، لكن.. من الناحية الأخرى، عكس الجهة التى أهلت منها المرة السابقة، مسرعة تأتى، تميل قليلا إلى الأمام، الهيئة التى أستعيدها بها، إما على حافة، أو فى سموق علوى. بيرق أنثوى ينشق ظله، مهفهف، مرفرف، أصبعها مشرعة إلى الأمام.

تتجاوزنى متطلعة، أتابعها دهشا، حائرا، إلى أى شىء تشير بأصبعها؟ لكنها بعد تجاوزى بثلاث أو أربع خطوات تنثنى راجعة صوبى، أثبت، لا أميل، لا أتلفت.

تنثنى مقبلة، رحبة. مشعة. تتساءل:

ـ ألم تر أبى؟

ـ لا.. لم أره..

ثم استدركت:

ـ حتى إذا قابلته فلن أعرفه.. لم ألتق به.

يستمر تلفتها، تقول إنه أحضر بطاقات دعوة إلى حفل موسيقى.

قلت إننى لمحت رجلا متقدما فى العمر كان واقفا منذ عشر دقائق لكنه ركب عربة أجرة. تتجاوزنى بنظراتها. لم تستفسر عن ملامحه. تتلفت، تدعونى إلى عبور الطريق، عندما حاذيتها تطلعت إليها، تبتسم، فيما بعد تساءلت، لماذا تساءلت ولماذا مضت فى سيرها، هل قصدت التمويه على شخص ما؟

تقول:

ـ البيت قريب.

ينضج صوتها بالوعد اذ يتردد همسها:

ـ الليلة.. أنا بمفردى.

ـ ٤ ـ

لم أغف حتى!

لم أنم، أصغيت إلى تنفسها الهادئ، المطمئن، الآمن إلى جوارى، حاذرت التقلب أو إبداء القلق الجثمانى حتى لا أزعجها، ولجت نومها بيسر، أما أنا فاستعصى على الوسن، ربما لاغترابى أو لهيبتى حضورها، واقتران عالمى بعالمها، مع أن تكوكبنا أمر وقع عندى بالخيال، فلكم طالعته، وتمنيته، وحرك عندى ماحرك، وعندما اكتمل فى عالم الحس وجلت وتهيبت فكأن الأمر يخص غيرى.

منذ الفجر، لم يتوقف المطر إلا فى الصباح، قطرات ثقيلة، متتابعة، تشتد حينا حتى أظنه الغرق، أغمض مآقى، مزدحما بهلاتها والتى لم تتوقف منذ لقاءاتنا حتى تردد أنفاس النوم المنتظمة.

عند انفرادنا فى المصعد الضيق، تطلعت نحوى، أقدمت.. قبلتها ممسكا بذراعيها، ورفعت حاجبيها محذرة، مشهرة لحظها ودلالها، انبعثت من داخلها طفلة. مرحة. مقبلة.

قبل خروجنا تطلعت إلى مشجب المعاطف، ينقسم كونها الصغير إلى جزأين. إلى يسار الداخل مطبخ، تتصدره منضدة صغيرة حولها أربعة مقاعد. أوعية مختلفة. مرتبة، منسقة، القسم الثانى إلى اليمين، فسيح الحضور، ضيق المساحة. فراش وثير، تضفى احساسات باتساع المكان، إلى جوارها لافتة قرأتها بصوت مرتفع..

«الأمس مر إلى غير رجعة، غدا ربما لن يأتى، اللحظة هى الآن..»

أشار أصبعى.

«هذا أنا..»

قلت إننى أردد عبارة مشابهة، أكتبها أثناء شرودى وتسهيمى، لا أذكر أين قرأتها على وجه التحديد. أى كتاب؟ أى مصدر؟ لكنها لشيخ ساح فى البرية، سكن الكهوف، والأماكن الموحشة، قال ما نصه:

«الإنسان بين لحظتين، واحدة مضت لن ترجع أبدا، وأخرى آتية ربما لن يصل اليها..»

كثيرا ما أنقشها بعناية، أجمل حروفها، أكتبها بخيالى على الفراغات التى أحدق اليها أو عبرها، عظم يقينى أن انجذابى اليها لم يكن صدفة، وانتظامى فى فلكها لم يكن عبثا.

جلت، طوفت بنظرى، بمشارف ذاكرتى، راغبا، أملا فى حفظ الدقائق، موضع رقادها، مقعدها أمام المكتب، مراجع دراستها المصفوفة، صوان حاجاتها، أسطواناتها، أريكة مستطيلة تحت النافذة، هذا فراغ يحتويها، السقف غير المرتفع، مرسى نظراتها عندما تستلقى، تطلق العنان لشطحاتها، لتأملاتها، كل يوم تقع عيناها على تلك الجزئيات.

أنتبه إلى وقوفها.

تتجاوز فراغ الباب بسموقها، بتأججها الداخلى الذى يتخطى محدوديتها البشرية، يفيض حتى أكل عن احتماله، أو الإلمام به أو وصفه.

أستفسر، كيف تتحرك فى هذا الحين، أين مكانها المفضل؟ كيف ترقد؟ على أى وضع تستريح؟ حتى تتطلع إلى قمم الأشجار المرتفعة؟

تصغى. نورانية الطلع، صامتة الحضور، أما غمازتيها فتم بهما المعنى الذى لم أقدر على تفسيره، بملامحها تأثر غامض،

قالت فيما بعد إن أى إنسان غيرى لم يهتم بالتعرف على هذا كله.

طفت المكان الذى ربما لن أشهده إلا فى الذاكرة، العجيب أننى لم أكن مستنفرا بسبب الانفراد. مع أن مجرد استدعائى لحضورها بالخيال المحض كان يؤجج حواسى. فكأنى ذلك الرجل الذى سافر مسافة قصية إلى شيخ مهيب، عرف بصلاحه وتقواه. طلب منه أن يقيم فى خدمته سنة كاملة، لا ينقطع خلالها عن الصلاة والعبادة. قبل الرجل طمعا فى وصوله إلى سر تحويل التراب إلى تبر أصفر، بعد انقضاء عام استدعاه الشيخ، سأله: هل أنت على استعداد؟ سأخبرك بالسر.

عندئذ.. بسط الرجل يديه قائلا:

ـ كفى.. لم أعد فى حاجة إلى ذلك!

كنت محايدا، وكأننى خارج الخطة، كنت مولها، مشدودا، متأثرا، ولأننى تخيلت مطولا ما أمر به، وقع عندى عدم تصديق لاستحالة ذلك زمنا طويلا.

تبتسم.

تشير إلى المطبخ:

ـ لابد أنك جائع..

المكان رحب رغم محدوديته، استند بظهرى إلى المقعد، من الثلاجة تتناول قالبا من لحم مطحون، محفوظ، وسكينا، تبسط

الشرائح فوق رقائق الخبز، تسفر فى ابتساماتها، لفتاتها، طلاتها الجانبية، هذا الفيض يهل على، مجهول المصدر، تارة من صوتها، مرة أخرى من نظراتها، من نبرها، من فرد قامتها فجأة، مع تراجعها فجأة، كنت مستكينا، هادئا، مراقبا لسريان الوقت بيننا، لماذا الهلع، لماذا الوهج، لماذا القلق إذا كانت ماثلة أمامى، على مقربة، فى المدى.

أكاد ألمس ضيق المدى مابين أمنياتى وتحققها، راحت، جاءت، عند تنسمى عبيرها الكلى لحظة مرورها قربى أمسكت يدها.

تطلعت راضية. باسمة. حطت فى نطاقى، وقفت فجأة، قالت إنها تود أن ترينى صورها، عادت إلى مرساها، قالت إنها تتمنى اطلاعى عليها. راحت تقلبها، كنت مابين تأملها وتجرع عبيرها. موزعا، حائرا، هاهى طوعى وأنا طوعها، غير أن هاجسا هنا مغبشا لحظات الوداد. كيف سأستعيد ما أمر به بعد تجدد الفقد.. وابتعادى، أدرك استحالة الاستحواذ، عقم إدراك الإدراك، رحت أتأمل صورها، طفلة، شابة، والديها. صاحباتها، لحظات أجازاتها، مناسباتها. وإذ أتأمل كل منها أسأل ذاتى، أين كنت لحظة التقاط هذه أو تلك؟

فجأة قامت، لم تبد تفسيرا، لم تفه حرفا، فتبعتها، قعدت على حافة الفراش. تخففت من سترتى الصوفية، من حذائى، عندما حاذتنى متجهة إلى المطبخ أحطت معصمها بيدى، أجلستها بجوارى، حدقت، تعلقت، تهدجت، كنت على شفا

عينيها، طاقتان من ماس مصهور يشع ألقا، كنت أرى شرايين وأوردة وشعيرات دفق الحياة التي تتخلل وجهها، شفتيها، جبينها الأشم، كذا غمازتيها في سكونهما، في حركتهما، مآقيها تفيض بالوداعة، مقلتاها تنطقان بالسكينة. بالطمأنينة.

تقول بنطق همسي، قادم من هناك:

ـ «ترغب الآن؟»

حركت رأسي نفيا.

ـ «لا.. ليس الآن..»

توقفت لحظتين، تابعت.

«أرغب من زمن بعيد، قبل أن نلتقي، أثناء قربي وبعدي، وفي الآتي الذي لن أدركه..»

تهل على بهيئات لم أعهدها، لم أعرفها منها، هالات ذات خصوصية، شمولية، علوية، تتجاوزني إلى ماوراء حضوري الآتي إلى زمن حضوري، وأفولي، أو تمردي وثورتي، وسعيي إلى المدى.

كان نبضها يتماس بنبضي، فلا أدرك كلا منهما على حدة، تنفرج شفتاها الريانتان، تطل ملامح من أسنانها، لآلئها، يزداد اقترابي. ينفصل مكان حضورنا عما يتصل به. نمعن فيتجدد خلقي..

ـ ٥ ـ

.. بقايا مطر، خضرة مرتوية، للهواء شفافية ناصعة حتى ليرى، يوم أحد، المدينة هاجعة، حركة محدودة وسريان خفيف. درت عند المنحنى، طريق ممهد. رصيف عريض يتوسطه، نبتت الحشائش من الفراغات الفاصلة بين بلاطاته، مضيت متمهلا، واثقا أننى سوف أسترجع هذا الوقت مرارا، سألوذ به وأستدعيه تهدئة لى، وتصبيرا لقلبى إذ ينوء بالوحدة وثقل الفرقة، وغرابة الظرف.

قبل خروجنا طلبت منى أن أتقدمها، لاترغب انصرافنا معا اتقاء ودفعا لفضول الجيران، خاصة النساء منهن، أمام الباب رأيت امرأتين، الأولى عجوز، والثانية شابة، لم يلتفتا، لم يبديا اهتماما، لم تتوقفا عن الحوار عند محاذاتى لهما، كنت راغبا فى التحقق من ملامحهما، ألا يقيمان على مقربة منها؟ ألا تراهما فى أوقات متقاربة؟ ألا تعيشان فى البناية التى تضمها؟

مضيت متمهل الخطا، هل سأعود إلى المكان مرة أخرى؟ درت عند المنحنى، التفت، لم تبد بعد. كنت مرهقا، متعبا، لم أغمض عينى منذ الأمس، غير أن تردد اللون الأخضر بدرجاته وبرودة الهواء الخفيفة، وخلو الطريق وتوقعى ظهورها، أثار هذا كله عندى دفقا وحيوية.

هاهى.. متوحدة، منفردة، مامن أحد إلاها، بينها وبين الشجيرات وشائج وصلة، لخطاها وقع، أصغى، هذا صادر عنها، كأنها تتقدم صوب خلاء ممتد، لم أذكرها ولم أرها بعينى

مخيلتى إلا دانية من حافة فاصلة، ابتسامتها تهل على، لتلك الابتسامة تقلبات ومظاهر شتى، صعب حصرها، عسر وصفها، لكن ابتسامتها تلك بدت لى مختلفة عما سبقها.

أدرك صلتها، اتجهت صوبها لألاقيها فى منتصف المسافة، الأولى فى الصباح التالى لليلة اقترابى، وطوافى، وامتزاجى الكلى، كل ماسيبدو منها له وقع مغاير منذ الآن، غير أننى لمحت شيئا ما يؤطر هلتها الديمومية، استعصى على تفسيره، ثمة اتصال وثيق خفى مابين شفتيها وعينيها، وحضورها غير المدرك بالحس، أسرعت الخطا، حاذيتها، تجاوزتها فى الاتجاه المعاكس، لم ألفظ حرفا، كأنى عابر، غريب يجهلها، انثنيت لأتبعها، تقدمت، صرت إلى جوارها، بدأت نطقى من موقع الاغتراب، كأننى لم ألتق ولم أصافح ولم أصغ..

ـ أيمكننى الحديث ياسيدتى؟

هلت على بتطلع جانبى، تستمر ولا تتوقف، قلت إننى عابر غير مقيم هنا. جئت من بلد بعيد، من قارة أخرى، مسافات قصية تفصلنا، ونظم مختلفة، وإجراءات. وترتيبات، لكننى إذ رأيتها الآن فوق هذا الجزء من طريقى أدركت أن مصيرا بأكمله تحدد. ذكرت اسمى، وموطنى.

توقفت، تطلعت صوبى، غمرتنى هلتها على القرب فكدت أشب، وأدركتنى على البعد فكانت الباعث على خفق قلبى، تلك

هلة لزمتنى. فكانت أول ما أفيق عليه عند صحوى، وآخر ماأتعلق به قبل إغماض عينى، قلت هادئا:

ـ أدعوك إلى حياتى.. هل تقبلين؟

فيما بعد.. أحطت علما أن ذلك الألم الخفى أسفر مطلا فى ذلك اليوم، أخفت ذلك عنى، لم يتبق إلا يومان وأغرب عنها، بذلت جهدا غير يسير لقمع تلك الطرقات التى لم تعرفها من قبل، وأشد مايخيف مالم نعهده، أرادت أن تبدو هادئة، متألقة، دائما كما أحبت أن أراها، بعد أن عاتبتها عبر الهاتف، عبر رسائلى، عبر المسافات، جاوبتنى:

ـ لم أشأ إزعاجك بينما سفرك قريب..

بعد لحظات قالت:

ـ لكن يبدو أن قلبك حدثك بشىء ما، إذ خاطبنى فى الطريق كغريبة!

ـ كنت أمزح..

تسلمت بريد ضحكتها الواهنة، المتعبة، الآيلة.

ـ هل تذكر؟

أومأت كأنها ترانى، كأنها على مقربة، مع أنها تهل على عبر الرؤى والأطياف..

.. السابعة إلا دقيقة.

وقت ذروة، جمع يتوافد أفراده لحضور حفل، أقف أمام مدخل الفندق، أرقب الوجوه، الملامح دائما معبرة، العيون تبحث عن المنتظرين، اعتدت تأملها عند بوابات الفنادق التى أمضى فيها أوقاتا عابرة، كذا مخارج المطارات. محطات القطارات، الموانئ، صالات الاستقبال فى المستشفيات، دائما.. الملامح متأهبة، متوقعة لنبأ، لفعل ما.

ضوء النهار ساطع مع أن الليل بدأ، نهار بدون شمس، عربات تتوقف، البنايات المقابلة مغلقة النوافذ، مامن شرفات.

عيناها فى مواجهتى..

احتجاج صامت، تتكسر الأشعة فى حدقتيها فيبدو جوهرها العصى، لايمكن تحديد انتماءات الألوان، متداخلة، متغيرة، سنية الأوج، قالت إنها جاءت منذ عشر دقائق.

لم أجب. طال تحديقى، هلة مفاجأة، مباغتة كأنها انفجار ضوئى صامت يشملنى شيئا فشيئا، كنت فى حاجة إلى استيعابها على مهل، بما تحويه من ترقب، وتحفز، واستعداد مسبق لملاقاتى.

قالت إنها لاتحب الانتظار بمفردها.. خاصة أمام الفنادق.

تطلعت محاولا تثبيت الجزئيات، نفور شعيراتها، انفراجة

شفتيها، تحفز غصنها، عدت أتطلع إلى اللحظات المنفلتة من موقع متخيل أكون فيه نائيا، قصيا، غير قادر على تنسم وجودها وإدراك أصولها، تدارى احتجاجها البادى، تسفر عن ودها. تتساءل عن صمتى، تتوارد على الصور، التى بمفردها تنتظر قرب النيل. حرجها باد، عندما بدا صاحبها بسط يديه على امتدادهما، لمحت العتاب فى انتصاب قوامها، أدركنى سرور غامض، رؤية عاشقين يلتقيان تشع بهجة وتبوح بوعد ما. لكم حرصت على استيعاب خطوها المتدفق صوبى، فلسعيها ألق، ولقدومها القدرة على فك إسار، تضوى فى مواجهتى مع أن ملامحها جادة، بها مس من عتاب وربما غضب، المفروض أن نمضى إلى ملاقاة صاحبة لنا لنسلمها أوراقا خاصة ببحث تعده، لكننى أدركت من بزوغها، من هيئتها، أنها جاءت من أجلى، وأنها اجتهدت ليتم بهاؤها، وأنها لم ترتد هذا الثوب إلا لأننى أبديت إعجابى بدرجة لونه، وأنها قدمت لتمضى وقتا أشمل..

ـ ٧ ـ

لكنها فى هذا العصر تأخرت، موعدها الثانية، عقارب الساعة أشارت إلى النصف بعدها، لا تتقن والدتها إلا كلمات محدودة من الإنجليزية، أشارت إلى فمها..

ـ الطعام..

أنفى بهز رأسى، أشير إلى الباب، أذكر اسمها: عندما

تجىء. تقوم متجهة إلى نافذة الغرفة الجانبية المطلة على الطريق المؤدى إلى مدخل المبنى، كدت أغفو بتأثير إرهاق كامن، أو قعدتى، أو هدوء المكان، فى الثالثة والربع أطلت مبتهجة..

ـ إنها قادمة..

إذن.. مجرد لحيظات وتهل.

انتظارها المصعد، ولوجها، ضغطها زر الطابق الرابع عشر، اجتيازها الباب، مثولها أمامى، غدا، فى مثل هذه اللحظات يبدأ شروعى العودة إلى موطنى الأصلى، أمضى إلى مكان، وتبقى هى فى آخر..

أصغى إلى تكة القفل.

لم تدخل، إنما انبثقت فتفتحت فى الحين، قوامها الفاره يميل وكأنها على وشك أن تبدأ العدو، أو تقدم على وثبة كبرى، فى مواجهة تفجرها بدا هدوء تقبلى له، كنت مثقلا، لا أبدى من الانفعالات مايوازى اضطرامها، وهذا حال يغلب على فى اللحظات الصعبة فيظن من يجهلنى جمودى، وانعدام مجاوبتى، مع أنى أترقرق، أدنو من الشروع فى البكاء، لكننى كظمت.

البيت هادئ، صامت، لكنه سيكون مختلفا عما كان قبلها، يفيض الفراغ. تتحرك هنا وهناك، تعد المائدة من جديد، ترتب

المقاعد. تشير بأصبعها متداركة أمرا، تبسط محتويات الحقيبة، أشياء صغيرة جميلة، تماثيل دقيقة من الجبس أو الرخام، مفارش منمنمة، لوحات من خشب محفور، قالت إنها تأخرت لهذا، بسبب ذهابها إلى متجر التحف والعاديات.

ـ لكن اليوم أحد..

قالت إن المتاجر تفتح يوم الأحد الأخير من كل شهر. قالت إنها طلبت كتابة جملة على كوب من الخزف عبارة «إن شاء الله» بحروف لاتينية ونطق عربى، سألها مدير المتجر، هل هذا اسم شخص، تطلعت إليه صامتة، قالت إنها ترجونى مصاحبة هذا الكوب، أن يمثل أمامى، فى مكان أستطيع رؤيته كل يوم.

أرقبها، هلتها مستمرة، كأنها وصلت لتو، أو تبدو من جديد فى كل لحظة، سددت إليها غموضى وحيرتى..

ـ لماذا تبدو حزينا؟

أموه ابتسامة، قالت وكأنها مدركة لجملة بواعثى:

ـ لكنا سنلتقى.. ألن تجىء فى أكتوبر؟

دنت منى، جرعت نسيمها حتى شبع صدرى، أشارت إلى قميصها ذى الحواف المزركشة..

ـ أول مرة.. من أجلك..

سمقت فجأة، دارت دورتين!

ـ ما رأيك؟

ـ رائع..

من ملامحها أدركت أنها تكابد مالا أعرفه وتؤثر انعدام البوح.. مالت تجاهي بغتة، قبلتني، تراجعت قليلا، تلألأ الضوء متكسرا في عينيها، حاضا لي على السعي..

ـ ٨ ـ

.. لم ينفد أملي رغم اجتيازي أول حاجز، دخولي المنطقة التي لا يتواجد بها إلا المسافرون، جنسيات شتى، حضور خاص لأماكن العبور المؤقت، الضوء، حركةالعابرين، جدية الوجوه، التأهب، حقائب تنتظر الميزان، عقارب ساعات تشير إلى توقيتات أماكن مختلفة من العالم، اللوحة العريضة السوداء توضح حركة الطائرات الراحلة، تلفت مرة أخرى، لم أرها، المودعون كثر، لكن لا أثر، يبدو أن ثمة أمرا أعاقها، وعندما قدمت بطاقتي وجواز سفري ودفعت بحقيبتي، بعد انتهاء إجراءاتي وتأهبت لعبور الممر الضيق، القصير، عندما دنوت من النقطة التي سأعبر عندها بوابات التفتيش إلى قاعة الانتظار الأخيرة، المعزولة، أدركت هلتها بدون وقوع نظري عليها!

بين الواقفين، ملامحها. قسماتها، خصوصية حضورها، حلت بكل الحضور، وفاضت بقسماتها على كافة الملامح فلم

أر عداها، ولم ألح إلاها. كانت تهل على من كل صوب، تأتينى من كل فج، مع استحالة الوصل، فالإقلاع وشيك..

- ٩ -

خطوها، بسوقها، إقبالها، ولوجها القاعات، ظهورها فى الفراغات، مثولها، نفيها سائر الموجودات عداها، ازدهار خضرة الحدائق بها، وانتماء صفو اللحظات الجميلة إليها، تمهلها فى المعرض، إطالتها النظر إلى أثر تبقى منذ آلاف السنين، إصغاؤها إلى الشرح، انبهارها، ظهورها، هلتها الأولى المفاجئة رغم شخوصها أمامى.

متى:

متى جرى ذلك؟

صعب القطع، وعر التحديد، لا أدرى متى وقعت عيناى عليها أول مرة، متى هلت؟ متى انعكس حضورها المادى فى حدقتى، لا أقدر على التعيين أو تحديد البزوغ، بدء سريانها فى عمرى المحدود، مامن علامة فارقة يمكنها أن تحيد أو تؤثر، مؤكد.. يقينى، شروقها على قبل هذه اللحظات، عند دخولنا صالة المتحف الرئيسية، لكننى أثق من معرفتى لها قبل ذلك.

متى لاحت أول مرة إذن؟

أعجز عن التحديد، عن القطع، هى قديمة بلا شك.

كانت تخطو فارهة، مطلة على مايحيطنا. لايرقى إلى حضورها حضور. ولا يدانيها وجوه، يداها فى جيبى معطفها الرمادى مرتفع الياقة، تميل أمام تمثال، أو تتوقف عند لوحة، تتوحد، تشرد عن الجمع، حتى عند اندماجها بالآخرين يستمر بسوقها وتفردها.

هذا المساء باق عندى، لاتبهت تفاصيله، مع أن آلاف الأمسيات التى عبرتها بحضورى الكينونى اندثرت، لم يبق منها تفصيل، كأنها لم تكن، تطلعت حولى قلقا، كنت أعى مايطرأ على ملامحى، من انفراج، وضيق.

فى تلك الليلة نظرت إلى الموائد وماتحمل، إلى الأطباق والأكواب والزجاجات وما تحوى، إلى الخطين الأحمر والأزرق، إلى زملاء السفر، بدأ بعضهم فى سكب النبيذ، أو التهام السلطة. نظرت إلى المقعد المجاور الذى حرصت على ألا يقر به أحد، أسندت اليه حقيبتى الصغيرة، لم يدن منه آخر.

دقائق ثقيلة تمضى، ومر على تحملها، أضيق بها إذ أستعيدها رغم المسافة المكانية والزمنية، تبدأ الهواجس والظنون، لم تبدأ خطوط الوصل بعد، لم تحل لحظات التماس، إنما مجرد محاولة مبذولة من جانبى، قد تتصل أو تنقطع فى أى لحظة، تساءلت: فى أى مكان هى؟ فى الطريق؟ أى ناصية إذن؟ أى شارع؟ بمفردها؟ أو تلزم صحبة، إذن.. من ؟ صاحبة أو صاحب؟

أحنيت رأسى، فى هذه اللحظة بالذات سرى هبوبها إلى ، مسنى قبل أن أراها، اجتازت الباب والمساحات الفاصلة مباشرة إلى المقعد المجاور تماما، قمت فأفسحت فمرت، لم تلتفت ناحيتى، مجرد إيماءة سريعة، لا خصوصية لها، ولا تفرد، غير أن سكونا لطيفا محببا شملنى.

عندما توقف المصعد، أضاء الرقم السابع، انفرج شطرى الباب، أهلت، منبلجة الملامح، رحبة العينين، قلت:

ـ لم أرك منذ الأمس..

لاحت وكأنها تشكو، بصوتها مس من دلال..

ـ أمور كثيرة.. كان يجب إنجازها..

ـ هل ستذهبين إلى المقر غدا..

تومئ، تلك الإيماءة السريعة، الدالة، المختصرة، لكم استعدتها فيما بعد، لكم أسرعت أو أبطأت نبضى.

ـ أراك هناك..

ـ الثانية عشرة..

قلت مرددا:

ـ الثانية عشرة..

أضاء الرقم السابع عشر، التفتت محيية، أنتبه إلى وقوف

رجل عجوز، أشيب الشعر. لم أدر جنسيته بالضبط. إلا أنه كان يبتسم برقة، قال:

ـ لطيفة جدا..

دهشت، كيف لم أنتبه إلى وجوده بجوارى رغم ضيق الحيز؟ أو أن هلتها المفاجئة. نتاج المصادفة. أقصت ماعداها عن دائرة وعيي من قبل ومن بعد؟

تلك النهارات، الليالى، الأويقات المجمعة، هذه النواصى، المداخل، الممرات المؤدية، الفاصلة، الغصون العارية، خطوها فوق الحشائش المبتلة، فوق البلاطات الحجرية، الحجرات التى اتسعت وفاضت، هلاتها المباغتة التى لم أعد لها العدة، هلاتها البطيئة القادمة، زمن سعيي. زمن اقترانى، اقترابى، اجتيازها، الإحاطة بى، نثار مكنوناتى.

هلاتها فى الإصباح، العصارى، تحدد أزمنة وتقصى أوقاتا، لا أقدر على إحصائها، خاصة زمن انقطاع رجائى، توحدى، انفرادى، تلوح فجأة، من جهة لم أتوقعها، وأحيانا من جهتين فى وقت واحد، ومعظم الأوقات من سائر الجهات، يطول إصغائى رنوى إلى المتوهم، إلى ظلال حضورها فيقوى على حتى أوشك على ملامستها، أحيانا أنفر واقفا، ساعيا صوب اللامكان، مابين يقظتي واكتمال سباتى أسمع حفيفها ، حضورها قربى، أهمى ظنا منى أنى قادر على تناولها، لمسها، إدراكى الحسى لها، أفيق على هباء فيقوى تهدجى.

أسـعى إلى صـورها، إلى اللحظات المنتـزعـة من العـدم، أسترجع اللحظات المنقضية لأستوثق فلا أقبض إلا الهباء، أما هذا العصر فباق، هفا حضورها على، أيقنت إنها نادتنى، أنها صاحت باسمى من موضع سحيق، أهلت فى أفق وعيى خلال سكونى وحركتى، انتـقالى من عملى إلى بيتى، إلى ركنى فى المقـهى، عند عبورى مدخـلا، عند وصولى، عند لقائى بأقران الفترة، عند تقليبى صفحات، عند مروق الموجودات عبر نوافذ المركـبـات، خـلال طى المراحل، عند بدء خطوى فـوق الطريق المترب، المرتفع، المغمور برائحة التين والنخيل، والمياه الجارية، المؤدى إلى بيوت قريتى، عند رسوى فى المسجد العتيق الذى أوى إليه قبسا من وقتى، ملتمسا التأمل والانفراد، عند سعيى لزيارة مراقد أحباب رحلوا، عند جنوحى إلى حافة الضيق، بلوغى ذروة النصب والعناء، أهفو، أتطلع، أرقب هلة ربما تبزغ فجأة، مع يقينى التام بانقطاع المصدر..

مايو ١٩٩٠

أماكنها

لــيـل الــهـــــــــــــوى يـقــظــان

والحـب تـرب الـســـــــــهـــــــــر

والـصـــــــبـــــــر لـى خـــــوان

والــنـــوم عـن عــــــــيـنـى بـادى

يـــــــــازهـــــــرة الأنــــــــــس

روض المــنــى مـنــك جــــــــــذيـب

لـــــــــــولاك لـــــم امــــــــس

فــى الـدهــر والأهــل غـــــــــريـب

نوبة العشاق

صنعة توشيح

مستهل..

.. يشق على ذلك الآن.

توهنني المحاولة، تنال مني، وعر على استعادة اللحظات كلها في تتابعها، في تواليها، إنما أرى كلا منها بمعزل، البعض واضح جلي، أما الأغلب الأعم فغائم، كأنه لم يكن، لم أعبره، لم يعبرني، كأنه تلك الثقوب السوداء في جدار الكون حيث ينتفي الزمان والمكان، وإذ توشك الصفحة أن تمحى، وما كان مني يتبدد ويتذرى، أقدم على التدوين، محاولا استعادة مايوجد الآن، ولكنني لست بالغه، مايمكن لمسه والتحقق منه بالعين، حتى إذا تمكنت من أماكنها أسترجع بعضا من ملامح الوقت، فلا يمكن استعادة موضع إلا من خلال لحظة احتوته

واحتواها..

هكذا أقدم، لعل وعسى!

١

وقوع التماس..

عندى تتداخل الواجهات، تتراص النوافذ المستطيلة التى تؤطر زوايا شتى لحظات التطلع منها، ولابد أن بعض من أجهل رآنى أثناء سعيى إلى هذا الموعد.

نواص مؤدية، لافتات معلقة، معرض للزهور، ياقوتى المدخل، مداخل منطوية على أسرار شتى، أفاريز خشبية، زهور من حديد، سقف قائم، بوابة فسيحة، فناء مبلط بالحجر القديم، تطل عليه ثلاثة مبان، قديمة، تمت إلى القرن التاسع عشر، وربما الثامن عشر، فالعناية مبذولة متصلة حتى لتبدو بعض البيوت المشيدة منذ ثلاثة قرون كأنها قامت منذ خمسين سنة أو أقل.

سلالم خشبية، حلزونية التكوين.

كم طابقا ارتقيت؟

لا أدرى.

كم درجة صعدت؟

لايمكن التحديد.

ما أعيه أن مسكن صاحبى فى النهاية، متصل بالسطح، توقفت مرتين خلال طلوعى، الغرفة فسيحة، غالب عليها الظل، حشايا موزعة بدلا من المقاعد.

كم عدد الأصدقاء الذين كانوا فى انتظارى؟

لا أعرف.

حتى ملامح صاحبى تضطرب، تختلط، متوسط القامة، ربعة، جاد دائما، عرفته خريجا للأزهر، مشغولا بأمور البلاغة، جاء إلى تلك الديار فى بعثة لعدة سنوات، يرجع بعدها إلى بلده. معروف بتعصبه للماركسية، واستشهاده المستمر بنصوص من مصادرها، وقت تدوينى هذا لا أعرف مستقره، أين هو؟، منذ سنوات نمى إلى أنه يعمل بالتدريس، وأنه فصل من الحزب الذى انتمى إليه، بعد خلافات عقائدية دبت، يكتب مقالا هنا أو هناك، لم تدم صلتى به، إذ يطيح بى الحنين أستدعيه ليمثل أمامى، فى أفق وعيى، ألم يكن السبب المؤدى إليها، لو أنه لم يدعنى لما لقيتها، لو أننى تخلفت لسبب ما.. لما عرفتها، لظل وجودها مجهولا عندى، وذلك عين الجهل بذاتى، لأن جوانب شتى عندى لم أقف عليها إلا من خلال تطلعها إلى، وإصغائها إلى كلمى، وحنوها على، وسعيها مخلصة إلى الاتحاد بى.

أحيانا.. رغم انقضاء المدة وتمام الأمر، أخشى تخلفى عن الموعد الذى تم وانقضى منذ سنوات عشر، يخفق قلبى

اضطرابا كأن الخشية من المستقبل الاتى، وليست على الماضى الآفل، إنما تفصيل ذلك يطول، فلأقصر حتى لا أحيد عن القصد.

انتظرنى صاحبى فى مكان لا أعيه الآن. رصيف المحطة؟ ناصية؟ أمام مقهى صغير كان مقصدا لعدد من المشاهير. لست متيقنا، اختلطت على الموجودات مع أنها مؤدية إليها. ظهورها بدد ماعداه، بزوغها الهادئ، المفاجئ فى فراغ الغرفة الفسيح، لا أظن طرقا تردد، أو جرسا نبه، إنما حطت بغتة. لاحت، شع حضورها الألق، العنبرى النسيم فلم يصلنى إلا أطيافها. ابتسامتهاالهادئة، الحاضة على الود، جبينها الأزهر، توقفها عند حافة البساط البربرى الزخرفى، المتسوج فى ريف الغرب ليوضع هنا وتطوه يوما. انحناؤها قليلا حتى تخلع حذاءها، ظهور مقدمة جوربها الأبيض مؤطرا ومحددا أصابع قدميها، تلك التى لثمتها تباعا فيما بعد ومرغت عندهما هامتى إذ أوشك على بلوغ ذروتى، ويتضور أجيجى.

تبدل المكان بظهورها فولج أفقى. استندت بمقدمة ذقنها إلى ركبتها، بينما ثنت الأخرى كأنها اتخذت مرقبا خفيا تتطلع إلينا منه، قميصها من صوف ناعم، درجة من اللون ياقوتية، لا أتردد فى قبولها، والاستكانة إليها، سروالها من قطيفة سوداء، أنثوية القوام، مابين امتلاء ونحافة، استقامة أنف. وثراء شفتين مع انبساطهما ورقتهما وحيويتهما إن فى تضامهما، أو

انفراجهما الآسر عند الإصغاء، وجهها المستدير، شبه المستطيل. عيناها السوداوان، استدارتهما الهندية، وانحرافهما الصينى، أما العلاقات الخفية بين ملامحها فتسفر عن جمال خفى يستمر متجها إلى كمال مرتقب مع مضى الوقت، لا أحيد عنها بعينى إلا وأرى تبدلا طرأ.

أعرف أن الأمور تتحدد عند البدايات. لهذا قوى يقينى بسعيى إليها، ومجيئها صوبى، فى فراغ هذا المكان العلوى الذى لا أعرف من يشغله الآن، تماست نظراتنا لثوان. لمديدة قصيرة يستعصى رصدها بقياس الميقات المعروف. مع اتصال الحوار بين الجمع، تكررت مرات التلاقى بين نظراتنا. بين قسماتنا، بين تراثينا، بين رحلتى التى انتهت عندها، وظهورها المكتمل. حتى إذا تبادلنا الاستفسار والجواب ونحن فى إطار هذا الجمع أيقنت تحقق الخصوصية.

فى هذه الغرفة أشار صاحبى إليها بعد أن قدمنى ناطقا اسمها..

ـ سندس..

لحظة نطقه لاح تطابقه مع حضورها، فلم يكن ممكنا أن تسمى بغيره. فى تلك الغرفة طقت الشرارة. وأز أوارى. أما ما يستعصى على الرصد فأشمل وأعم وأبقى من كل مدرك بالحواس..

.. درجة عتيقة من سلم حجرى مؤد إلى النهر، عند الطرف الشمالى للجزيرة التى تتوسطه، تتجاور المبانى القديمة التى حوفظ على عتاقتها، هنا يقيم أثرى الأغنياء، ومشاهير الكتاب والرسامين وعازفى الموسيقى، عكس الأمر فى مدينتى، حيث هجر ميسورو الأحوال دروب القاهرة القديمة، ونأوا عنها!

هنا الطرقات ضيقة، والنواصى تؤدى إلى أزمنة متجاورة بقدر ماتوصل إلى موضع، شارع كان أو ساحة. أبواب من خشب غامق. صلد، بدون اغلاق، فى اللون والتركيب جهامة. لا تفتح إلا لمن يعرف الرموز والأرقام، أما النوافذ فمغلقة، ستائر رهيفة تحجب الأكدار والأفراح والظل والضجر والتوق.

مطاعم صغيرة فى الأزقة الضيقة، خافتة الإضاءة، أنيقة، معروف أنها أغلى مطاعم المدينة، لا يطرقها إلا العارفون، الذواقة، ليست مقصدا للسياح الأجانب، خاصة أثرياء النفط الذين أعدوا لهم شارعا عريضا، فسيحا فى وسط المدينة، فيه متاجر كبيرة، واجهاتها ملونة، وبضائعها غالية. وأماكن أخرى فيها مباذل كثيرة..

هذا ما أفضت به إلى فيما بعد، وهى تنهى مغاليق المدينة وترشدنى إلى مواطن جمالها، وتقودنى إلى نفائس كنوزها،

الكامن منها والمستتر الذى يصعب الوصول إليه أو معرفته خلال فترات زياراتى القصيرة.

أزقة الجزيرة. شوارعها الضيقة، نواصيها. انحناءات شوارعها، تلاقى مبانيها، فراغات مابين الجدران، حوارات الواجهات الصامتة، لون الضوء من خلالها، الأيام الرمادية، والنهارات الساطعة. النهايات المفاجئة غير المتوقعة للطرق الموصلة كلها إلى النهر من مختلف الجهات، الجزيرة صغيرة، مساحتها ضيقة لذلك تتلاصق البيوت، إنه الجزء الأثير. المفضل عندها فى المدينة. تقصدها إذا ألم بها ضيق. إذا رغبت فى الانفراد، إذا هامت فرحا، تجلس بالمقاهى الصغيرة. لكنها فى معظم الأحيان تمضى منفردة إلى ضفة النهر. خاصة عند تفكيرها أو انشغالها بأمر صعب. أو..

ـ اذا أردت مقابلة عزيز على..

هكذا صرحت بصوت خافت، متأمل، كأنها تخاطب شخصا لا يرى، ولم يكن سواى ماثلا أمامها، هنا.. طق سرورى، وزج بى انفعالى!

هذا السلم الحجرى المؤدى إلى النهر مباشرة يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر، هذان العمودان المرمريان كانا قائمين فى قصر قديم تهدم فى السنوات التالية على الثورة العظمى التى اجتاحت البلاد منذ قرنين، أحد رؤساء البلدية نقلهما إلى مدخل الدرج فى نهاية القرن التاسع عشر.

السلم لم يجدد، لم يرمم، تآكلت حوافه، يقولون فى المدينة إنه مشهور بالتنهدات، ومن فقد عزيزا عليه أن يجيء إلى هنا. يذكره ويتنهد، عندئذ لابد أن يراه فى المنام.

- هذا مكتوب فى الدليل السياحى الصادر بعدة لغات..

- ومع ذلك لم أر أى إنسان عدانا..

قالت إن بعض السكان القدامى أخبروها أنه منذ انتهاء ثورة الشباب نهاية الستينات كف القوم عن التردد.

- إلاى..

- لابد أن من ترغبين رؤيتهم فى المنام كثيرون..

مدت بصرها إلى بعيد، توشحت بغمام رهيف أومأت..

- نعم..

إذ تمتد جلستنا ويطول صمتها، تصبح مدججة بالعزلة. تتطلع إلى مياه النهر الهادئ، المروض. أتابع همس المويجات الهادئ لعلى ألمح ماتقرأه. صار الموضع مفضلا بعد اتصال أسبابنا، إذ تطوف هنا وهناك ننتهىَ إليه أو نبدأ منه، أول انفرادنا كان هناك.

عصر..

وهن النهار وبدأ خفوت الضوء، التقينا عند بداية القنطرة الحجرية، لم يكن وصولى إلى المكان الذى اختارته صعبا على، المتحف الشهير على مقربة.

بكرت. خوفا وتوقا، الخوف فمن احتمال فقدان الطريق، أما التوق فإليها، هذا الخفق الذى يسبق الخطا، وذلك الهروع الداخلى إليها، لكم أسرعت، وغالبت الشوق، وكابدت الوقت، كان ذلك قبل دبيب التثاقل، وتقاعس الهمة.

رحت وجئت فوق الجسر، انحنيت متأملا مياه النهر، الطحالب الخضراء الزلقة الملتصقة بالقوائم، حاولت تخيل اللحظات الأولى، استعدت صوتها عبر الهاتف، لم تبد أعذارا، لم تتردد، حددت الموعد، وبدأت تشرح لى كيفية وصولى إلى المحطة المؤدية، لم تنس أننى غريب، جاهل بلغة أهل البلاد.

لم أكن أدر الجهة التى ستجىء منها، لكننى خمنت أنها ستصل بالقطار، تطلعت إلى الطريق، إلى الإفرين، إلى الرصيف، إلى واجهات المبانى، إلى اللحظات التى أمضيناها عند صاحبى، ثم خروجنا معا والليل غميق، وإبدائى خشية ابتسمت لها، إذ اعتادت العودة متأخرة، إلى المتاجر العتيقة المتراصة، المتجاورة على الجانب الآخر. لكن.. صوتها جاءنى مباغتا من الناحية الأخرى، كانت فى الجزيرة، لماذا؟ كيف؟

فى البداية كنت أسأل حذرا، راغبا فى الإحاطة بكل ما يمت إليها بصلة، ولم أدر اننى أجد أقوى جسورى صوبها.

حتى بدء تلاقى مسارى بمسارها، خبرت وعرفت لحظات لقاء أولى شتى، أذكر من اللواتى أضان حقبا من عمرى هلاتهن، يرتبط الظهور بالحضور والتكوين وقوة الرغبة

والسعى، هذا يطول شرحه، لكننى أقول موجزا إننى عرفت ظهورا كالانبثاق، كسطوع نجم جبار فى المجرة، ظهور يعشى فيجب ماعداه، ربما لا يتبقى من علاقة إلا تلك اللحيظات، جرى ذلك عندى، إذ غلبت هلات محبوبة لى ماعداها. وألحت على فأقدمت على تدوينها.

عرفت ظهورا كميلاد قطرات الندى، ترى بعد اكتمالها، صعب رصدها أثناء التكوين، وربما توحى قطيرة واحدة، وحيدة، بكون أتم، ثمة آخر يبدأ هادئا ثم يتعالى صخبه، يتدفق، يغمر، إلى هذا ينتمى طلعها ويتشج، بل يستمر بعد انصرافها، فكأن حضورها دائم مستمر حتى بعد انقضائه، بعد انقطاعها تضوى وتتجسد أناتها فى ذروة إحساسى بابتعادها.

هكذا.. تعتقت فى دمى مع مضى السنوات، ومكث منها عندى مالم أعاينه لحظات احتوائها لى واحتوائى لها، تمشى مثل الأخريات، تسعى خافتة فى الأسواق. لا تستوقف نظرا، ولا تلفت راصدا. لكن.. بعد وصولها، رسوها، يبدأ وفودها الخفى على مهل، شيئا فشيئا، يتم بزوغها، أما تورد وجنتيها فيتفتح على مهل، ولا حد للاكتمال، لم أكتشف حماس خطوها عندما تقدمتنى عبر الشوارع الضيقة إلا عندما استعدت اللحظات الفانية. كانت أسرع مما اعتدته منها فيما بعد، تقابل الأرض بكعبى حذائها فيطلق الصوت المنتظم.

تجاوزت الرصيف المبلط بالحجارة إلى بداية الدرج، أوراق شجر متساقطة، أغصان رفيعة، ذرات غامضة مجهولة المصدر، عندما استقرت جالسة لم تنفض موضعها، إنما مالت قليلا إلى الأمام، بدا صمتها عميقا، مستمرا إلى هذا الوضع ينتمي حنيني، أما العناصر كلها فإليها تنتسب، انحناءة النهر، مويجاته، الضفة الأخرى القريبة، الجزيرة التي أدرنا ظهرينا لبيوتها، لنوافذها، لمداخلها المثقلة بالأسرار، الطوابق العلوية، ملامحها تتوزع هنا وهناك، تتعشق بالنواصي، بهبات النسائم عند المفارق، أسترجعها رغم انقضاء المدة فيهن فؤادي. ويشف وجودي، أصير أدق من طيف عابر، تنفر دقات قلبي فأهلع، إذ أصغي إلى نغمة تلمس مني دفائني، تفد على اللحظة بقوة، حتى لأتوهم استعادتها، لكنها تفلت، تذوي، لا أقدر على تأملها حتى، لكن مع مروقها الشهابي تخلف زلزلة عندي وصلصلة!

في ذلك الفراغ، الحين، عند نقطة منه تماست يدانا، تكوكبت أصابعنا، حتى لم أعد قادرا على تحريك أحدها لو أردت، لتمازجها. أين سبابتي من بنصرها، وأين إبهامها من أوسطي؟ تغامست نظراتنا، وعندما ملت إليها لاقتني ولم تنفر، هل يصد الكوكب جرما أو نيزكا؟ تائها، ضالا، شاردا في الفراغات العلى، انجذب اليه. ليحترق قبل ارتطامه به؟

عند نقطة أخرى من الفراغ تلاقت شفاهنا، عندما تسارعت أنفاسنا، ونأى الوقت عنا، وكدت أمعن، تراجعت، بدت

متوهجة، متقدة، أعدت الكرة لكنها صدتني بلطف حازم. نطقت:

ـ من أنت؟

ثم تساءلت:

ـ لماذا تسعى إلى؟

ثم رددت:

ـ ولماذا أسعى اليك؟؟

ثم أتبعت قولها بهزة من رأسها:

ـ لماذا؟ مع انى لا أعرفك..

مضيت ببصرى إلى مياه النهر، إلى الضوء الهادئ الساجى، أطرقت موغلا البصر فى الدرج الحجرى الذى تمنيت الإيواء إليه مرارا فيما تلى ذلك عندما جئت إلى المدينة، لكننى لم أجرؤ على الخطو إليه أو فوقه منفردا، نعم.. أستعيده مرارا، أستكين لهبوبه على فى أقاص شتى، ولكن إذ يتحقق قربى منه أنأى، فلا أقدر على مواجهة ما انقضى وكان لأنه حى، صاخب عندى وليس فى المتناول.

رفعت بصرى، واجهتها، تطلعت إليها متفرسا، محدقا، مجتهدا، قالت حائرة:

ـ ماذا؟

حاولت الإلمام بها، بملامحها، بمصادر سناها وألقها، بمنابع حنانها البادي، وهشاشتها، وهمس حضورها.

ماذا؟

عندئذ أشرعت أصبعي. صويته تجاهها فى تحديد وتعيين لا لبس فيه، هنا تبددت حيرتها، ولاح مزيج من دهشة وتساؤل، سمعت رنة صوتها الخاصة المقترنة بلهجة موطنها الشامى:

ـ أنا؟

الطريق المؤدى..

.. كنت مقيما فى الجانب الشرقى من المدينة، وهى فى الغربى، بعد منتصف الليل، وعبر أسلاك ودوائر معدنية وأجهزة لا قبل لى بفك طلاسمها أصغيت إلى صوتها يصف الطريق. كتبت اسم المحطة بحروف عربية، استعدتها مرارا لجزالة نطقها وفرادته، وبعد تدوينى كافة العلامات، بعد إصغائى إلى جملتها:

ـ أنا فى انتظارك..

أقلعت مرتين، الأولى من مكانى، والثانية من وقتى، مستوثقا أن لحيظات تأهبى وتوجهى ستضفى على مسيرة عمرى أمرا لا عهد لى به، وهكذا صارت تلك الليلة من ملاجئى الخفية،

أقصدها إذ تفيض بى الكدورات، واستبطئ استعادتها عندما تتكاثر الهواجم فيهدأ قلبى، ويخف همى.

تطلعى إلى القضبان الممتدة تحت الأرض، الألوان المختلفة، الدوائر الصغيرة المرسومة فوق اللوحة الإرشادية، هذه الخريطة عرفتها بأحجام شتى، منها الكبير المتصل بمفاتيح ملونة عند مداخل المحطات، تضغط اسم المحطة فيضئ الدّرب المؤدى، ومنها المستطيل الملصق إلى الجدران الداخلية للعربات، ومنها الصغير كصفحة كتاب، يوضع فى الحافظة، ومن هذا احتفظت بواحدة. لكم تطلعت إليها فى لحظات شتى، أنظر خط المترو الذى كان يصلنى بها، لونه على الورق بنى غامق، أمرق بالبداية، مستعيدا المدخل القديم، السلم الذى يرجع إلى بداية القرن، الأشجار المطلة على المدخل والتى تغيب شيئا فشيئا.

ثم أنتقل ببصرى على الورق، من محطة إلى أخرى، ناطقا اسم كل منها على مهل، متمنيا أن أقطع وقتا مماثلا لما كنت أستغرقه فى الواقع، حتى أنتهى إلى الموضع الذى حددته لى أول ليلة، ثم صار مقصدى فى المرات التالية، عرفته حتى أننى اعتدت ركوب آخر عربات القطار لمواجهتها المخرج مما يوفر على قطع بضعة أمتار مشيا، أنحنى متفرسا، مدققا، مستبصرا الخريطة، متخيلا الداخل والخارج، المراحل التى يخرج فيها القطار من النفق، عبوره الجسم المعلق فوق النهر،

المعالم الشهيرة، البرج، الضريح، المتحف. المقاهى القديمة، عازفى الآلات الموسيقية، باعة الزهور، تطالعنى منبثة فى كل صوب فكأن هذا لم يوجد إلا للتمهيد إليها. والسعى باتجاهها، فلا يمكن بلوغها بغتة أو مصادفة، لابد من قطع مسافة وارتحال، وقد طال سفرى إليها، سنوات عمرى لم تكن إلا مراحل نحوها، شتى أسفارى، قطعى المسافات القصية، بلوغى المراسى، إقلاعى من الموانئ، ركوبى طائرات تجتاز الفراغات العلا، سفن صيد تخرج إلى غيبة تطول أمدا غير قصير، فى غرف مغلقة، فى زوايا، فى تكايا هجرها الدراويش منذ زمن، أضرحة، مزارات، أقطار أجهل لغات سكانها، كان سعيى اليها شاقا عسرا لكنها.. اليسر كله!

نزلت فوق الرصيف طاويا قصدى، متكتما أمرى، الجدران شبه مقوسة، النصف الأسفل مغطى ببلاطات خزفية زرقاء، العلوى مكسو ببلاطات بيضاء، خريطة توضح المنطقة المحيطة التى سأخرج إليها، لم أتوقف أمامها، لم أستعن بها، إنما كنت أتبع صوتها، دونت ما أملته على، صعدت الدرج القصير، خرجت إلى الفراغ الليلى. المبنى المواجه من طابقين، تحته مخبز، يليه مقهى أغلق أبوابه، متجر لملابس الأطفال، مكتبة قديمة متخصصة فى الأديان المختلفة، يقصدها باحثون من شتى أنحاء العالم، المقهى المطل على ناصية الشارع المخصص للمشاة فقط، الميدان الصغير تتوسطه ساعة ذات أربع واجهات مستديرة، إلى يمين القادم من المحطة يبدأ الطريق، ما من

ملامح محددة، منازل متجاورة، سور مرتفع فى الجانب الآخر، رقم تسعة، تسعة، التاسع مكرر، مدخل أول يؤدى إلى فناء صغير، يتوسطه حوض دائرى من رخام يضم زهورا، فى المواجهة باب خشبى ذو مصراعين، مصمت، قرب منتصف الجدار لوحة مضيئة، مفاتيح مستديرة، بحذر أضغط الأرقام والحروف، أقرأها من الورقة، أسرع بعد سماع الأزيز الخافت إلى دفع الباب، أجتاز العتبة، رائحة الأماكن الظليلة، مصعد لا يتسع إلا لشخصين، أضغط الزر الثالث، إلى اليمين، بابها، آخر مدخل أجتازه صوبها، رنة الجرس يمكننى سماعها، وكأنها تنتظر، قبل أن أمد يدى مرة ثانية انشق مصرعا الباب، كانت تقف خلفه، وجهها يتطلع إلى مرحبا، هادئا مبتسما..

المأوى..

.. البدايات لا تنسى. كذا النهايات، الحقائق لاتتبدل إلا عند استعادتها، أكابد تجسيد اللحظة بالمخيلة، أحدق فيما لا يمكن لمسه، أدقق فيما يستعصى على غيرى رؤيته، أرى التكوين أحيانا فى مجمله، ومرات أخرى فى تفصيله. وقد أطلع على مالم ألحظه فى آنيته، وربما يغيب عنى ماظننت أنه لن يبيد أبدا.

هذا الحيز ضمنا، بمجرد إغلاق المزلاج صرنا بمفردنا، بمنأى عن كل بصر، وبعيدا عن كل سعى، عدنا بالخليقة إلى بدايتها.

الموجودات كافة فى ضمير الغيب، المؤكد، الأمر الوحيد اليقينى.. تدانينا، تأهبنا، تماهينا، حركتنا فى هذا الحيز.

مدخل مفض إلى صالة صغيرة، ثم غرفة داخلية، يليها

حمام مستطيل، أتمهل، لا.. بل أعود إلى انتظارى القصير فى الخارج، عندما سمعت تكة القفل، ومفارقة السلسلة المعدنية لمربطها، وتقلب مفتاح ثالث، أدركت إلى أى حد تحتاط، تجسدت عندى وحدتها، قاسية، وعرة، عندما فتحت الشطر المتحرك من الباب كان جسدها يختفى خلفه، بينما أطلت برأسها، كان حضورها متضمنا الترحيب والتدثر والحذر والتواطؤ والتفاهم، وتوق إلى ماسيكون! عندما عبرت العتبة الفاصلة هب على حضور خاص، مازلت أعيه لكننى لا أقدر على تحديده أو تعيينه أو نسبته إلى أى من الممكنات، ثمة مايستعصى على الذاكرة الاحتفاظ به، مثل الأصوات، الروائح، تلون اللحيظات العابرة بالأحوال، وبرغم صعوبة استدعائها أو تمثلها فإن قبسا منها إذ يهفو فى أويقات لا أتأهب خلالها للتلقى أو هبوب الحنين، عندئذ ينبعث المكان والزمان، ولكنه سرعان مايفنى.

يشق على استعادة خصوصية المسكن، أعى منه وطأة الظلال، ومثول الانفراد، الوحدة، هذا ما انطبع عندى فى اللحيظات الأولى. وهذا ما ظل مرجعا لى أستند اليه وأتكئ عندما أستعيد الوقت.

جلستها عند حافة الفراش، تسند ذقنها إلى راحتى يديها، تميل إلى أمام، نظرها مسدد فى اتجاه خفى لايبين، تطلعها عبر النافذة المستطيلة، تصل مابين السقف والأرض، يحد

انفتاحها على الفراغ سور من حديد مفرغ، قصير، ستارة خفيفة لكنها تحجب، مع أنها أكدت لى، هنا لا يتلصص إنسان بالنظر على آخر، تلك اللحظات الأولى. استقرارى فوق الحشية الوثيرة التى فرشت فوق الأرض مباشرة، هكذا اتجهت صوبها، لم أقعد فوق الأريكة الصغيرة، أنثوية المظهر.

مذياع بنى اللون، قديم الطراز فوق منضدة مستديرة، يذكرنى بالحرب العالمية الأولى، أو الثانية، حرب فيها ألمان وإنجليز وهنود واستراليون، لم أعشها لم تكن وفادتى إلى العالم قد تمت ربما الآن، طرازه يمت إلى حقبة مابين الحربين، ربما لأنه يشبه مذياعا امتلكه سكان الطابق الأرضى، كنا ننزل عندهم لنختمى من الغارات الجوية، من الشظايا الحائمة، الشاردة، كنا نلتف حوله، الضوء الواهن المنبعث من لوحة الموجات والمفاتيح يضئ الملامح المترقبة، المتحفزة لسماع مايجرى فى فلسطين، مذياع خشبى الصندوق، بنى اللون، مستطيل القاعدة، محدب أعلاه، أسماء المحطات وأرقام الموجات مكتوبة بالانجليزية والعربية، قالت إنها صحبته معها من الشام، خص والدها زمنا، وإنها لتراه جالسا إلى جواره مصغيا إلى الأخبار أو موسيقى منبعثة من مكان ما، قالت إنه عزيز عليها جدا، فى الركن منضدة، لوح عريض من الخشب بلونه الطبيعى، يستند إلى أربع ركائز، بدون أدراج، فوقه كتب، وعلب داخلها بطاقات، كوب خزفى تبرز منه أقلام عديدة، مختلف الوانها، وأوراق شتى وحامل خطابات قرب الحافة.

كنت متأثرا بدرجة ما، أخشى أن أبدو مبتذلا، أن يسفر مني مايعني سوء الأدب، وهذا من قبيح الفعال في مواجهة المحبوب. لذا كان بصري موزعا مابين الرغبة في النظر إليها، والإغضاء خجلا منها، أما اتقادي وتأججي عند النهر فلا أثر له هنا، بل صوت هادئ، ألست على مقربة، ألم أدن؟ أليست القطوف قريبة.. فلم العجلة التي ربما أدت إلى الخطأ؟

غلب علي حنين ما ربما أثاره دفء المكان، وما يعنيه اجتماعنا على انفراد، وانشغالي بكيفية استعادتي للحظات عندما تفوتني وتصبح مستحيلة التناول، عندي أيضا تهيب ما، يلازمني إذ أدنو من مشارف امرأة سيتوحد عالمها بعالمي، ماذا يجب أن أقوم به؟ كيف أجتاز المسافة الفاصلة؟ رغم قصرها لكنها أصعب المراحل.

سألت عن موقع المنطقة من المدينة؟ عن المدة المنقضية على سكنها هنا؟ عن المسافة التي تقطعها يوميا إلى الجامعة، إلى عملها بعد الظهيرة. عن إيجار الشقة. نسبته إلى دخلها. أين تنام؟، بأي غطاء تتدثر؟ متى تفطر؟ على أي ضوء تقرأ؟ متى تعمل في أطروحتها، كيف توزع الوقت بين تصحيح كراسات التلاميذ ومذاكرتها؟ كم ساعة تنام إذن؟

أجابتني بدقة، بسرور بين، فيما بعد قالت إنها تأثرت جدا لاهتمامي بها، منذ سنوات طوال، منذ مجيئها إلى هذه الغربة لم يستفسر آخر عن شئونها، ولم يبد مخلوق اهتماما كما

فعلت. عندما قامت شاهرة قامتها المتوسطية، ومشت مسفرة عن خطوط جسدها التى لاتبرز عبر قميصها وبنطلونها، تساءلت خفية عما إذا سبقنى شخص آخر إلى هنا؟ أحقا لم يهتم بها أحد؟ وهل أمضت المدة السابقة وحيدة؟

مرة أخرى بدت خارجة من الغرفة الداخلية، رواؤها المنزلى مضموم إلى جسدها بحزام عليه نقوش صينية، فيما بعد قالت بدون أن أسألها إنها لو لم تصدق إحساسها، لو لم تصغ إلى بعض من سيرتى - أفضى بها صاحبى - لما أقدمت ودعتنى.

عرفت من قبلى آخرين؟، نعم.. لكنهم لم يدخلوا هذا المكان. قعدت متخذة وضعها الذى صار علامة عندى، ودلالة على وقت، وإشارة إلى نعيم!

إحاطتها ركبتيها بيديها. ميلها قليلا، بروز استدارتها، خصرها الهامس، ردفاها الثريان، المحكمان، لاتدركهما زيادة ولا ينالهما فتور، نهداها المتطلعان، ثمارها لم يتطرق إليها شك مع أنها تدنو من الأربعين، تماثلنى، ولدنا العام نفسه، تسبقنى بشهر، جاءت فى أبريل وتبعتها فى مايو.

نزل على صمت عندما واجهت كينونتها المترقبة، بدء سفور جمالها بلا حد، تتألق عيناها، تدفق منهما حيوية، نظرت دهشا، راغبا، ساعيا. متعجبا..

ـ ماذا؟

لكم أستعيد تلك اللحيظات التى تجتاز فيها الصلات فواصل حاسمة، فيتقرر مصير أو تبدأ رحلة، تقدمت صوبها، كان كل مايمت إلى مؤديا إليها، وكل ماينبعث منها وافدا إلى..

المقهى..

بالتحديد..

هذا المقهى وليس غيره، طلاء المدخل الياقوتى، والنقوش الفضية على زجاج الأبواب، ومقاعده البسيطة ذات الحضور الذى يوحى بالإنسان إلى درجة ما!

جئته معها والصباح باكر، كنت مجهدا إثر ليلة لم أنم خلالها، كل ماعرفته جديد على، صعب هجوعى فى مكان لم آلفه، وإن تأثرت باستكانتها بين ذراعى، حتى أننى أحطتها متنسما مشارفها، مع أننى أسعى إلى الوحدة عند المضى إلى الوسن.

تآوينا كل فى الآخر، رغم تعبى كنت مقبلا على النهار الجديد، مستبشرا، متأهبا للصفح الجميل، واثقا أننى لفترة طويلة سوف أسترجع واجهات البيوت المطلة، وتساؤلى بدهشة، كيف يبدو الميدان أفسح مما رأيته عند عبورى ليلا؟، كيف لم أنتبه إلى هذا المقهى عند مرورى به؟ كيف لم يخطر ببالى أنه سوف يستمر معى كعلامة، كإشارة، كباعث ذكرى وحاض

علـى دفق الدم أســرع، ولهــاث النبض بمـجـرد اســتـعــادته، بالتحديد فى تلك اللحظات النهارية الأولى.

يقع على ناصـية، الجـانب الذى اعـتدنا الجلوس فـيـه مطل على شـارع جانبى عتيق، غيـر مسمـوح للعربات المرور فـيه، يتـوسط بدايتـه عمـود حـجـرى قديم، علـى جانبيه تطل مطاعم مـغربية، وصينية، وأرمنيـة، وأذربيـجـانية، وشـاميـة، وإيرانيـة، وأفـغانيـة مـفروشـة بالبـسط، وبقـالات تبـيع الفلفل والبـهـارات واللبـان الجـاوى والجبن الأبيض الإسـتـامـبـولى، والزيتـون والليمون والفلفل المعتق، مكتبات صـغيرة متخـصصة، واحدة لاتعرض إلا كتبا فى النخيل، وأخرى لا تبيع إلا مؤلفات عن الإبل، وثالثـة يمكن العثـور فـيـها على أى كتـاب حـول الديانات القديمة، ومكتبة يسعى إليها كل من يدرس الأحلام وتفسيراتها وتأويلاتها.

قـالت إن هذه المكتبات بدأت مع الجـامـعة، القـرن السـادس عشر، كان الحى كله لإقامة الطلبة لكن ثمة تغيرات طرأت.

اجتزنا المدخل وكأننا اعتدنا المجىء معا منذ سنوات طويلة، كانت هـادئة جدا، وثيرة الملامح، ناعمة، وعندما دنت منا سيدة المقـهى ابتسـمنا، حسناء راسـخة، عبـرت أربعين على الأقل، ابتـسـامتـهـا دائمـة حتى مع تماس شـفـتيهـا، بينهمـا مـودة، حـوارهمـا يتـخلله إغمـاض عينين أسـفـا، وزم شـفـتين، وأداء حسرة أو تأس.

تشير إلى، تنطق اسمى مجردا، تمد السيدة يدها مرة أخرى، تقول بعد انصرافها إنها تعرفها منذ سبع سنوات، منذ مجيئها إلى هنا، قالت إنه ركنها الأثير. من هنا يمكنها تأمل الساعين على أقدامهم، والميدان، تجىء مبكرة، تشرب قهوتها، تأكل شطيرة أو كعكة، لا يعقبها زاد آخر إلا قرب الغروب فى البيت، مابين المدرسة والبيت حوالى ساعة، عملها على فترتين، أما الجامعة فلا تذهب إليها بانتظام، إنما لمقابلة الأستاذ المشرف على الرسالة، يتناقشان بعض الوقت، لايحدث هذا إلا مرتان أو ثلاث كل شهر.

قالت إنها استغرقت وقتا أطول من المقرر لإعداد الرسالة، كان ممكنا أن تنتهى منها خلال العامين الماضيين، لكن هذا يعنى إلغاء مبرر وجودها، إقامتها هنا، إنها تحصل على التصريح كل سنة لأنها تدرس، لكن بعد الدكتوراة عليها أن ترحل، لا ترغب فى العودة لأن هذا يعنى المخاطرة..

قالت إن شقيقها فى المعتقل منذ ثمان سنوات، إنه مازال حيا لكن لا تدرى ماذا سيصير إليه الوضع، مايمكن أن يحدث لها فظيع.. فظيع، إنها تشارك فى نشاطات المعارضة هنا، نعم.. فى عودتها مخاطرة.

قالت إنها تخطط للاستقرار هنا.

لم تفسر. لم أشأ السؤال عن كل شىء مرة واحدة..

قالت إن أمتع لحظاتها هنا عند سقوط المطر أو الثلج، ورؤيتها له من وراء الزجاج.

قالت إنها لاتتذكر القائل: إن العاصفة تكون جميلة إذا كان البيت قويا..أدارت فنجان القهوة بين أصابعها، صامتة، لكن وجهها ضاج بالحيوية، هيئة لم أرها إلا فى نلك المقهى، لكم اجتهدت محاولا استعادتها حتى أدركنى الكلل، أحيانا تمرق أمامى بدون توقع أو تهيؤ، الصباح الأول، لكم جئنا إلى الموضع ذاته، عصرا، ظهرا، ليلا، فى أيام الأحد حيث تقفر الشوارع والميادين، لا أستعيد المقهى إلا عبر هذا الصباح حتى وان تذكرت حوارا جرى فيه ليلا، فى أقصى البعد أستشعر سخونة رشفة القهوة التى سرت وأنا أتطلع إليها.

نزلت المدينة فيما بعد سبع مرات مابين زيارة دامت شهرا، وأخرى لم تتعد ثلاثة أيام، دائما أسعى إليه، مزارى الخاص، آمل رؤيتها صدفة، غير أن ذلك لم يحدث قط، مع أننى رأيتها بدون ترتيب فى أوجنا، بل فى أيامنا الأولى.. بالضبط، فى مواجهة هذا المقهى.

ذلك أن صاحبا لى أظهر ودا، عناية، صحبنى إلى ما أجهله من شوارع الحى القديم، دلنى على واجهات جميلة تنتمى إلى القرن الثامن عشر، ومداخل بيوت منمنمة، دعانى إلى غداء بمطعم تونسى عليه إقبال، نويت دعوتها إلى المكان عينه، حتى أستعيده مقترنا بها، رغم طول تجوالى فى المدينة فلم يعلق

عندى إلا ما ارتبط بها. أينما وليت وجهى فى أنحائها يحوم فكرى حولها، فإما أستعيد لحظات أمضيناها. أو حوارا جرى، أو أتخيلها فى الأماكن التى لم أصحبها إليها، مثل مدرستها، أو جامعتها، أو متعجلا لحظات ستجمعنا، أو متخيلا العبارات التى سنتبادلها عند اللقاء، أينعت علاقتنابسرعة ونما اتصالنا، كأن وجودى المؤقت يخلق قوانينه الخاصة، فاليوم من مدتى يوازى شهرا إذا قيس بالحالة الطبيعية، كنا نتعرف معا إلى الموجودات من جديد، وكأننا ندركها لأول مرة، كنا نعتاد الضوء معا، جسد كل منا يألف الآخر بسرعة، حتى أن حوارا بالصمت سرعان مايتصل بين مسامنا وأطرافناوجوهرنا حتى اذا أينعنا وتجاوزنا أول حد الذروة، لم أعد أدرى، أهذا وجودى المادى أو وجودها؟ أهذا جسدها أو جسدى؟ تتداخل حواسنا، وتنصهر ماديتنا، فينتفى التمييز والفرق وتنعدم المسافات الضئيلة الفاصلة مابين الأصل والظل، مابين الغصن والجذع، لكم استعدت فى غربتى عنها لحظة مولية تنتمى إلى ذروة الصحبة، فيدركنى ابتهاج، وأوشك أن أبادلها النظر والحوار والمودة، بل إن وهجا يسرى من روحى إلى جسدى فأشرع!

فى مشيى الوئيد، فى سعيى الحثيث، عند عبور النواصى والميادين، عند تأهبى اجتياز المداخل، عند وصولى أو إقلاعى، تصحبنى حالة تنبعث دائما فى أوج عشقى،إذ أثق من رؤية المحبوب لى أينما وليت وجها، فى شتى حالاتى، يتطلع إلى من

نقطة خفية يستعصى رصدها، علوية. سفلية، لا تستند إلى يابسة، ولا بناء، ولا نهر ولا بحر. يضفى على هذا سلوكا خاصا، وانضباطا، فكل مايصدر عنى يرقبه الحبيب.

هكذا مضيت مع صاحبى إلى الشارع القديم، قال إننا سنرى بعض المكتبات القديمة. أخفيت ابتسامة ودهشة وشوقا وحذرا. أما الابتسامة فمبعثها حس ساخر، لجهله مجيئى اليومى إلى تلك الناحية، وإقامتى فى بيت أرى فيه ذاتى لأول مرة سافرة، كما اننى توقفت مرارا أمام واجهات المكتبات. إذ أننى أجىء نهارا قبل موعدى بريع، بنصف الساعة، أرغب فى اتخاذ الحيطة وفى الوصول قبلها حتى يكون من حظى التلقى.

أما الدهشة فلصلتى بالمكان. هل كان خفق قلبى سيتردد بهذه القوة لو أنها لم تكن تقيم على مقربة؟ لو أننى لم أسع إليها هنا، لو أننا لم نتطلع عبر زجاج المقهى؟ هل كنت سأتطلع برفق وحنو إلى المقاعد والمناضد والموضع الذى اعتدناه، حتى لأتمنى تقبيل كل شبر، والانحناء أمام كل زاوية؟ هل كان خطوى سيتخذ هذا الإيقاع الذى لم أعتده منى؟

أما الشوق فإليها، والرغبة فى سلوك الطريق صوبها مباشرة، عبور المكان كله إلى موضعها، إلى أى حيز تتحرك فيه.

أما الحذر فلخشيتى أن يسفر عنى ماينم على، كنت أرغب الحديث عنها، وصفها، قص ماجرى على الناس، لكننى كتمت

لأنهـا لم تبـد إشـارة الإفـضـاء والجـهـر، ومـا التـزامـى إلامن عناصـر أدبى مع المحـبـوب. كنت أعـرف أن مـوعـد صـاحـبى يقترب. وأنه سيفارقنى بعد قليل. لابد أن يصحب زوجته طبيبة التحـاليل بعد انتـهاء عملها فى المستشفى الدولى. بقى على لقائنا ساعة وربع. قررت أن أمضيها منفردا فى المقهى.

خطونا تجاه الساحة، توقفنا عند الرصيف، بالضبط أمام الجانب الآخر من المقهى، فجأة.. تبدل الفراغ وتغيرت الكينونة، يتخذ الطريق حضورا مغايرا فيصعب إدراك الأشياء، فى البدء لم أستوعب، لكن بعد اكتمال ورودها على بصرى فهمت.

تقف على الناحية الأخرى من الطريق تضع يديها فى جيبى سترتهـا، تتطلع إلى، مبتسمة، ابتسامة سوف أراها مستقلة، بمفردها، فى أوقات شتى، وبقاع قصية، لكننى لن أدركها، ولأننى رأيت سناها عرفت أنها شاهدتنى قبل أن ألمحها. لم أنتظر إضاءة اللون الأخضر. عبرت الطريق مسرعا مع خطورة ذلك، وشدة عاقبته. أبدت جزعا ولكننى لم أعبأ..

ـ لست بمفردك..

استدرت تجاه صاحبى الواقف هناك.

ـ صاحبى عبد الله.. لم أذكر لك شيئا عنه..

قالت مبتسمة:

ـ أمور كثيرة لم تفض بها إلى..

قلت:

ـ الكتاب لا يقرأ مرة واحدة..

عبر صاحبى، بدا مدركا للأمر، انحنى محييا، التفت إلى..

ـ إلى الغد..

قال مداعبا:

ـ لا تعبر واللون الأحمر مضاء مرة أخرى..

لوحت، استدرت تجاهها.

معقول هذا؟

نلتقى صدفة؟

فى هذا الموضع بالذات؟

لو أننا لم نلتق، لو أن كل منا يجهل الآخر، كيف كنت سأتطلع إليها؟ كيف كنت سأرى ملامحها؟ هل كانت ستعبر للمحة. قد تبقى ملامحها فى وعيى لحظات، تعاودنى أياما ثم تغرب، ماذا كان يمكن أن يكون لو أن ماكان لم يكن؟

حدثتنى وهى دانية منى، إذ تلامس بمؤخرتها ركبتى وتحيط عنقى بذراعيها..

ـ مدخلك.. هو صراعك مع الوقت..

فوجئت بسداد فهمها، ذلك ما استعصى على كثيرين،

كأنها تسفر عنى، قبلتها..

ـ أخشى انقضاء وقتك..

لا مست بمقدمة أصبعها صدرى..

ـ لا.. إنما تخاف لانقضاء زمنك أنت..

صحيح!

لم أجادل، عندما نطقت كان يشغلنى حقا إفلات اللحظات التى تطوينى، تلف كل شئ ، انشغالى بلحظة سأقلع فيها نائيا عنها، عندما تنتهى غربتى الموقوتة بعودتى إلى وطنى لتبدأ غربتى الدائمة.

ما ظننت قط أن المكان واحد والمصائر شتى، حتى قصدت ذلك المقهى ذات صباح، فى الموعد عينه. التوقيت الذى جئته أول مرة ولكن فى زمن مغاير بعد انفصام العرى..

سيدة المقهى بدا عليها وهن، جاءت متباطئة. أعادت ترتيب الأكواب والمفرش فوق المنضدة، لم أكف عن التطلع إليها لعلها تلمح، لعلها تعى.

لكم تبادلت معها الحوار المرح الضحك. كنت أناديها: «كونتيسة» لهيبة مظهرها. وأناقة حضورها. كنت أنطقها بلهجتى، تصحح صاحبتى، تعيد لفظها كما ينبغى، لكم سألتنى عن الأهرمات، عن الأقصر، عن بورسعيد، كان أحد

أعمامها يعمل فى شركة القناة قبل التأميم، فى كل مرة تذكر صاحبتها التى زارت مصر وأمضت شهرا. تفيض نشاطا إذ ترانا، تتدفق حيوية إذ تلمح تساررنا وتلاقينا!

فى تلك المرة تطلعت إلى منتظرة ما أرغب شربه أو أكله، أيقنت محوى عندها، كأنى غريب يطرق المقهى أول وآخر مرة، عابر ليس ضروريا الاهتمام به.

هل تعرف بانقضاء ماكان بيننا؟

لكنها تروح وتجىء محايدة تماما، بعد لحظات أسأل نفسى: لماذا جئت إلى هنا؟، ماذا أنتظر؟

تتقلقل جلستى، أبدا.. ليس هذا المقهى الذى ألفته يوما، وعرفته. ويا لأسفى.. ليس المقهى بمفرده.

ضيق الأزقة..

.. وتلك ناصية مؤدية إلى شارع ظليل اجتزناه على مهل، أوله مكتبة متخصصة فى رسائل المشاهير، تعرض صورا منها مغطاة برقائق الزجاج، ثم تتوالى الواجهات الضيقة، والأبواب الحرجة، على الأرفف مجلدات قديمة، وعلب خشبية روسية، وحلى من فضة يمنية، وخزف صينى، وتماثيل خشبية أفريقية، وأقنعة ازتكية، وجلود مغربية، وخشب مطعم من مصر، علقت أول مرة ضاحكة:

ـ انما أجيء للفرجة..

أشرت إلى علبة سوداء صغيرة، فى حجم راحة اليد، مغطاة برسوم ألوانها زاهية..

ـ أسعار مرتفعة جدا..

أومأت.

ـ وهل تجد من يشتريها؟

قالت:

ـ ولماذا عرضتا إذن.. كثير مما أراه يختفى على الفور..

هذا طريق تسلكه متمهلة، معرض حى. ترتاده عند العصارى، فى الأيام التى تخلو من المطر، وتخف أعباء عملها، أتأبط ذراعها، أو تتعلق بى، إذ تتوقف مطولا أمام واجهة تتطلع إلى. تبسط أناملها تفد إلى شعرى، تلثم وجنتى، أو تميل حتى يلامس رأسها صدرى. لخشونة أيامى لم أعتد ابداء هذه الرقة، أرتبك إزاء حنوها المغدق، قد أنطق كلمتين عبر غمغمة، أو كلمات لا رابط بينها، أو أولى النظر إلى غير جهة المحبوبة حتى لا يلوح وهنى ويفتضح أمرى.

لكم استدعيت فى زمن كربى لفتاتها نحوى. فكان مجرد حضورهابالمخيلة يهدئ أمرى وييسر حالى، فكأنى تزودت من لحظاتها لأيامى الصعاب. كأنهاحضنتنى، حوطتنى بالأسرار المانعة للأذى وقحط المخيلة، أغدقت على غيثا يروى جدبى حتى

فى غيابها، ما البال إذن لحظة صدوره؟ عند اقترابها وإقبالها. أما إحاطتها لى عند بدء هجوعى فأمر أنوى لو اتسع المدى افراد كتاب خاص أشرح فيه الحال، فلو فتحت الكلام فيه لضاقت العبارة، ولما استوعب الحيز. إنما نويت الآن ذكر كل ما ارتبط بها من أماكن مررنا فيها أو أقمنا بها معا، دافعى إلى ذلك بدء وهنى، واتساع الشقة بيننا، بعد ترددى مرارا على المواضع عينها، فكل أمرى. حتى المخيلة التى اعتصمت بها ملتمسا العون خذلتنى.

أزقة ضيقة، عتيقة، مبللة بندى خفى، مطاعم راسخة. تقدم المأكولات التقليدية، أطباق من الجنوب، أو الشمال. معظمها ينقرض الآن، تنتشر مطاعم الأكل السريع. هذه الشركات الأمريكية!

إنها تحب الطعام الجيد، الغريب، تستمتع به إذا وجد.

وإذا ضعفت الإمكانية؟

قالت:

- أرضى بالمتاح اليسير واستمتع!

قالت أمام واجهة تعرض السجاد التركمانى الغالب عليه لون الياقوت النارى، إنها حريصة على ألا تربط نفسها بعادة ما حتى لاتجد نفسها عاجزة إذا ماتغير الحال، تعلمت الشبع من القليل، وارتداء مالديها وليس ماتريد، أن تتمدد أحيانا فوق

الحشية التى تلامس الأرض مباشرة أو فوق السرير، فى أى ظروف يمكنها النوم، منذ مجيئها إلى هنا تقلبت فى ظروف شتى، عملت جليسة أطفال عند أسرة ألبانيه، وعاملة تليفون فى سفارة دولة عربية، لكنها هجت عندما حاول معظمهم مضاجعتها، وموزعة إعلانات، تطوف المدينة على قدميها لتضع فى صناديق البريد الإعلانات المجانية، وموظفة فى متجر يبيع الأقمشة ،وأخيرا.. مدرسة لأطفال المهاجرين، فى بلادها كان والدها ميسورا، مهيب الجانب لماضيه الوطنى، وأشعاره التى قرر بعضها على المدارس، لكن.. بعد اعتقال شقيقها اختلت أمورهم، وتفرق الإخوة فى البلاد، الصغرى فى أمريكا، متزوجة من طبيب، ولكنها ليست سعيدة، واستمرار حياة كهذه خطأ، قالت إن العلاقات تبدأ لتنتهى، وعندما تستنفد مضامينها يجب أن تتوقف، أما استمرارها بعد ذلك فأمر معذب..

قلت إننى أخشى هذه اللهجة.

ـ أليست الحياة كذلك؟

قلت إن هذا حق، وما تنطقه صدق، ولكن حبنا أبدى.

ضحكت، ابتسامتها الغامضة، المحيرة، القادمة من عمق صدرها.

ـ إذن.. أبدى أبدى..

أمام بيت نحيل الواجهة، بارز النوافذ توقفنا.

ـ تمنيت سكناه..

قلت إن عمارته، وهيئته، وخطوطه توحى بالشجن، لمست صدرى بأصبعها الذى انبعث فجأة.

ـ ولهذا السبب أحببته..

ثم قالت:

ـ عجيب.. كيف أدركت؟

أسفرت عن فرحة أولى، غضة، تلقائية لاتفاقنا فى الرؤية والاختيار بدون ترتيب، أحببت ردود فعلها فى تقلبات أحوالها المختلفة، كانت تخف وتشف فى أماكن بعينها، بيتها، الحديقة الملكية، المقهى. تسفر عن أنثويتها الضاجة إذ تتأبط ذراعى وتمشى فى هذا الطريق، عرفت منها درجة نادرة من الدلال السيال الرقراق، لم يلح إلا عند تسكعنا أمام تلك الواجهات، سرعان ما يختفى ويتبدل بجدية وشجن إذا ولجنا قاعة عرض لوحات، كانت فى الطابق الأول من بيت ذى شرفات حجرية لا مثيل لها فى بنايات المدينة، كان على الناصية المؤدية إلى تلافيف من الطرق الضيقة. فى أحدها يقع المنزل الذى يسكنه صاحبنا هذا، ولكننى مرجئ هذا إلى مابعد الحدائق، فالأماكن داخلى لها ترتيب يطابق مايمت إلى، بغض النظر عن محالها فى الواقع..

حدائق الرغبة..

مهما تبدلت المعالم، لا يمكن أن أضل طريقى إلى هذا المقعد بالذات، بالضبط.. فى مواجهة النافورة الوسطى. على هيئة زهرة لوتس، يتدفق منها الماء بقوة ناثرا رذاذه، متحولا إلى أطياف ضوئية، بعد خلو عالمى منها، جئت بمفردى، فعدت فوق مكانها المفضل، رأيت ماكانت تحدق إليه وتصغى، نصاعة الما، وألق الضوء. اصطدام القطرات المتساقطة ببعضها قبل ملامستها رخام القاعدة. أودعت فى الفراغ أثرا غير مرئى، إلى هنا جاءت لتطوى الوقت وتستدعى المراحل. أيام الأحد والعطلات، تمضى ساعة أو ساعتين، عندها يبعث تدفق النافورة راحة، لكننى لم أعرف مثلها عندما سعيت إلى الموضع ذاته فى محاولاتى العاثرة اقتفاء زمنها المندثر، وسعيى بمفردى لاسترداد أماكن جمعتنا وصاغتنا صياغة أخرى.

فوق هذا المقعد، تطلعت إلى الأمام ساهمة وتبعت نظراتها المهاجرة، ملت عليها قبلتها، تنسمت عبيرها، كانت رائحتها ذكية، خاصة، لا تشبه أى أنثى أخرى، لها مصادرها الخفية المستعصية على الرصد. قالت يوما وهى متجردة، سابحة فى جلال عريها أنها تفضل الروائح الطبيعية، ولا تضع المساحيق، تعتبرها زيفا يجب ألا تلجأ إليه، أما مايثير غثيانها وسخريتها فرجل يصبغ شعره.

هنا رحت أحدد من بعيد سعيا إلى معرفة كنه علاقاتها الماضية، والآنية، أبدأ بالسؤال عن صاحباتها فى موطنها الأصلى، صديقاتها هنا، بحذر أقترب من علاقتها بالرجال، خاصة هذا الشاب، استفسرت عن مشروعه الدراسى، عن أويقات تلاقيهما، تطلعت إلى هادئة، لم يفتها اهتمامى، ولم يغب عنها مصدره..

ـ تهتم به كثيرا..

ـ أريد أن أعرف كل شئ عنك..

ـ عنه أو عنى..

ـ عنك أنت..

تقطع الحوار آبية إلى صمتها الغامض، كنت أخفى اضطراما. ساعيا إلى سبر أغوار قد تخفى مايكرينى، ما أخشاه، راغبا فى الوقوف على معرفة حدود علاقاتها بالآخرين.

عصر أحد قمنا بتجول فى الحديقة، وعندما تكاثف الشجر، وغزر العشب، تمددنا، كنت منتشيا برائحتها التى امتزجت برائحة الحشائش والأرض غير الممهدة، ارتكزت إلى مرفقى، فوجئت بعمق عينيها وخصوبة وجنتيها، جمالها المتصاعد فى هدوء كزحف الظل، لا يلحظ إلا بعد اكتماله، وقع امتزاج بين عناصرى ومكوناتها يستعصى الإفصاح عنه، يجب أى معنى.

بسطت ساعدى تحت خصرها فدغدغنى التناقض بين رقته ومشارف الردفين الممتلئين، فككت أزرار قميصها مستقبلا نفور نهدها الأيسر بشفتى..

ـ انتظر.. هنا صعب.. صعب..

لم أقدر على الكف، غير عابئ بما يمكن أن يبزغ فجأة، لم يحدث ذلك منى، لكن عبارة مارقة ترددت عندى قالها صاحب لى أمضى سنوات هنا. قال إن لممارسة الحب فى الغابات والحدائق شأن آخر.

استدعيت ما رأيته فى شريط سينمائى عندما تجردت البطلة تماما وراحت ترقص على حافة النهر ملوحة للبحارة العابرين.

لم أتوقف، أكملت سعيى، وعند لحظة معينة تحولت مقاومتها إلى مجاوبة، لم أنه عادتى عن التحديق متطلعا فى أوجى، وجهها حديقة من الرغبة، وتاريخ كامل من ثراء أنثوى غزير، دفست أنفى مابين عنقها والكتف. فاتصلت بالأرض، جذور النبات، التراب المندى. الهواء النقى المرتد، الزرع الغامض، الشجر الغامض، ملح جسدها. كنت أحتوى هذا الموضع كرمز للكوكب كله. وعبثا حاولت الوصول إليه فيما تلى ذلك، فكأنه تذرى بددا..

غرفة الضوء..

.. لم أعرف ولم أنزل فنادق المدينة، دائما كنت ضيفا على صاحب لى جاء البلاد منذ سنوات وأقام. استقر فى مبنى قديم، فى كل طابق مسكنان. ولكل غرفة صغيرة فوق السطح، يقولون إنها غرفة الغسيل، أو لإقامة الخدم، ولكن مع ازدياد حدة السكنى بدأ تأجيرها، خاصة للأجانب، غير أن صاحبى الحميم لم يقدم، وضع فيها فراشا بسيطا، ومنضدة صغيرة ومقعدا، وثبت أرففا إلى الجدار رص فوقها الكتب، وأطلق عليها الصومعة، قال إن المرء يحتاج إلى الوحدة والانفراد بالذات، مرة أو مرتين كل أسبوع يفارق امرأته وابنه طالب الجامعة ويجيء ليمضى ساعتين أو ثلاث، وربما يقضى الليل، عند وصولى يلح على أن أقيم معهم، ولكنه يستجيب لرغبتى. الإقامة فى هذه الغرفة الضيقة، القريبة من السماء، المطلة على المدينة، معظم المعالم الشهيرة تلوح من هنا.

هنا.. تعددت مرات لقائنا، قلت إننى أرغب فى ارتباط المكان بها، بوجودها، بحضورها، ثم اعتدناها معا، كانت تجئ إلى محطة القطار القريبة، أنا المنتظر دائما، كنت أعجب من قدرتها على الوصول فى موعدها بالضبط.

ذات ظهيرة رائقة، بعد تناولن االغداء فى مطعم صغير قرب الأوبرا، احتسيت نظراتها، وكنت على استعداد لإشهار السلام

مع الدانى والنائى، ونسيان كافة كدوراتى، ومشاحناتى وخلافاتى، كنت على استعداد للرحيل صوب اللاجهة، حال غريب لم أعهده، مماثل لهواجمها المباغتة، تقول فجأة وهى قربى:

- إننى خائفة..

- من أى شئ ؟

- لا أدرى.. لا أعرف..

تنكمش، تزداد اقترابا، لكنها تتقوقع أكثر، قالت إن الخوف المباغت من الوحدة يفاجئها رغم مضى الأوقات الطوال عليها منفردة. أحيانا .. إذ تغمض عينيها أثناء غسيل وجهها أو استحمامها يخيل إليها أن أحدهم يقف خلفها، وانه على وشك الانقضاض فجأة، كانت تخشى إغماضة عينين لا يعقبهما صحو، تخشى موتا طارئا. مفاجئا، بقاء جسدها مسجى فى البيت الصغير حتى يكشف أمرها مصادفة..، إذ أصغى إلى ألفاظها القليلة. المضطربة، أضمها بحنو شفاف فتستكين تماما. عندئذ أرصد هجرتها صوبى. فأود لو صرت منها فى موضع مح البيضة من صفارها، أو حدقة العين من سوادها، إذ تخفى ملامحها فى صدرى تنقلب فى لحظة إلى طفلة وجلة تخشى عالما مجهولا.

ظهيرة هذا اليوم خرجنا من المطعم، نوسع الخطا فى

الشوارع الخالية، تسبقني رغبتي. تكاد هيئتي تشي بي، عبرنا النواصي. صعدنا السلالم الثابتة والمتحركة. وعندما زوينا إلى المكان المحدد بدا من أمرنا عجبا. نال التعب منا فلم نفق إلا والليل مكتمل، كانت الحجرة تضاء بأصداء ألعاب نارية تطلق لمناسبة ما، أصغيت إلى أنفاسها الهادئة. المنتظمة. تحملت خدر ساعدى إذ لم أشأ إزعاجها. فوجئت بهمسها في الصمت:

ـ صاحى؟

ـ نعم.

قالت بهدوء إنها تريد أن توضح أمرا، لا يوجد بينها وبين أى شخص علاقة خاصة، قالت إنها لاحظت كدرى بعد زيارتنا إلى ابن بلدتها هذا.. بعد صمت يسير. قالت:

ـ يجب أن تفهم ذلك..

عجبت لهذا التوضيح المفاجئ، المتأخر. استوقفتنى اللهجة الصارمة تقريبا، أو هكذا بدت، لزمت صمتى. ولم أستطع إقصاء صورة هذا الشاب عنى.. جاءنى صوتها فى العتمة أكثر تحديدا..

ـ يجب أن تثق بى..

كلماتها كالبرقيات. مركزة. خاطفة، قالت إنها تفهم كل تلميحاتى. والغرض من استفساراتى، ثم أشارت إلى الفراغ..

ـ لم يحدث هذا بسرعة إلا معك..

ثم قالت:

ـ ومادمت معك فمستحيل وجود آخر..

كنت مفاجأ. حائرا. وكان وجود هذا الشاب يدنو منى..

غرفة الصدع..

. عبثا استعادة الطريق الذى سلكناه.

مستحيل تذكره. كأننى راغب فى محوه، لكم مررت بالمداخل المؤدية والميادين المفضية فلا أستدعيه بفكرى، وربما مررت أمام المبنى الذى يحوى تلك الغرفة فلم أره.

يوما تقدمتنى مبتهجة. مقبلة. ضاحكة، عندما فتح الباب الخشبى القائم لم تصافح الشاب الذى بدا فى ملابسه المنزلية، إنما وضعت يدها فوق كتفه وقبلته مرتين، بادلها اللثم. مرة على الوجنة اليسرى. وأخرى على اليمنى.

استهجنت ذلك وكتمت، مع علمى إنها عادة مألوفة فى تلك البلاد، هى منذ سنوات سبع هنا، رصدت بدقة تدفق مرحها وسفور بهجتها. توهجها، مد يده متحفظا. قالت:

ـ حدثتك عنه..

التفتت إلى، أمسكت يده، ثم يدى، غطت الاثنتين براحتها.

شبت إلا أننى لم أبد ودا، أو استجابة لجياشها. استندت إلى الجدار، حشية فوق الأرض للنوم، مكتب صغير فوقه ملفات وأوراق وكتابان فقط، وكوب صغير من خزف تطل منه أقلام، ثمة شبه مابين ترتيب الغرفة هنا، وحجرتها هناك، أعرفها الآن من الظاهر والباطن، مايرى ومالا يرى منه،ا الصمت الذى يعبق به الفراغ. الضوء النهارى، وهنه وخفوته بعد اسدال الستائر الشفافة.

حجرته صارمة الأضلاع، أضفى فراغها بعدا مضاعفا، فى مواجهة الباب صوان نحيل يصل مابين الأرض والسقف، فتح جزءا مربعا منه، برز موقد كهربائى، من جزء آخر تناول طبقا به حمص مطحون، وطبقا به قطع من الطماطم الملحة وشرائح باذنجان وفلفل اخضر، وضع مقلاة من الصاج، خفق البيضات الست، سعت إلى قالب الزبد. وقطعة الجبن، بيدها اليسرى ،مسكت السكين، كانت تكتب بها، وتشير، وتؤكد، تعرف مواضع الأطباق، والملاعق. تتصرف بتلقائية، تقدمت.. أشارت..

غاظتنى صيغة الجمع. حنقت من اعتبارها إياى ضيفهما، بدأ ركود داخلى، لم يرق لى تبسيطهما معا. حوارهما باللهجة الشامية، مأواها ومسقط رأسها هناك. ابن مدينتها، لابد أن تاريخا طويلا يربطهما، لكن.. إلى أى حد؟

فى هذه الغرفة بدأ وسواسى!

كيف تتحدث إليه عندما تجيء بمفردها؟

الحشية المستطيلة، المفرودة فوق الأرض، هل تمددت فوقها؟

هل تجردت هنا؟

فى ليلتنا الأولى معا راحت وجاءت ببساطة، غير خجلى، واجهتنى مقبلة ومدبرة، مع أننى جلست متكوما وحاولت بسط ملاءة بيضاء لأخفى مابدا.

هذا الشاب، هل رأى إغماضة عينيها وعض شفتها السفلى عند ملامسة مشارف عالمها الحسى. هل تطلع إلى انفراج فمها المتمهل، ما أثار عندى رعشة المتعة، هل أحكمت ضم ذراعيها حول خصره، هل أصغى إلى توتر جسدها وانفراجاته المتوالية عند بلوغها الأوج؟، هل أصغى إلى دعتها وسكونها عقب إيوائها إلى الرضى. هل ترددت آهاتها هنا؟

ـ تبدو شاردا..

أستعير ابتسامة من بعيد..

ـ لماذا لا تأكل؟

قال صاحبها:

ـ لا تؤاخذن .. إنه أكل الطلبة..

بالعكس!.

حاولت إبداء استحسانى، واستمتاعى به، سألنى عن المدة

التى سأقضيها هنا، نصحنى بزيارة متحف الفن الحديث. ثم قال إنه يوجد متحف لكل ما يمكن تخيله هنا، لا أدرى كيف تداعى الحوار حتى وصلنا إلى الانتحار. بدا منفعلا وهو يتحدث عن الموت الإرادى، أفاض. رأيت فى نبراته تكلفا ما، انتبهت إلى تطلعها. إصغائها، هل تشاركه أفكاره؟، قلت لنفسى إنها هموم مجردة لمن يعيشون بعيدا عن أوطانهم.

عند انصرافنا أبدى أسفه لأن صاحبته اليونانية لم تأت. ارتبت، هل له صديقه فعلا؟ أو أنه يقصد التمويه؟

عندما فارقت الغرفة تنفست بعمق، كأننى أخرج من قبر. عند الناصية سألتنى عن صمتى. هل بدا منه مايضايقنى، هل أخطأت بتقديمه إلى؟ لم أقل إجابة واضحة، إنما تطلعت إلى الخلف. وعندما اختفت البناية لم أستدل عليها، لم أهتد اليها حتى الآن، حتى ملامحها زالت. عبثا حاولت استعادتها عندما دنا موعد ذهابها، قالت مبتسمة:

ـ مالك ؟

ـ تعرفين أن أيامى هنا محدودة، وأن مدتى قصيرة ما أرجوه أن أراك منفردة..

ـ تضايقت؟

ـ لا..

ـ إنما أردت أن أعرفك بالأقربين حتى ترى عالمى

ضغطت يديها.

ـ أنت عالم بأكمله.. ماحاجتى إلى الآخرين حتى أعرفك؟

شتات الأماكن..

.. نفرت فجأة واقفة، مرت بشعرها متراجعة إلى الوراء قليلا.

رأيت كبرياء نهديها واكتمال شموخها..

ـ تأخرت.

ظننتها ستمضى الليلة إلى جوارى، فى هذه الغرفة المطلة على أفق المدينة أعرف إصرارها الحاد إذا حان وقت انصرافها، لا يمكن إيقافها أو تعطيلها. جلست عند حافة الفراش متطلعا عبر النافذة المفتوحة، مصغيا إلى أصداء المدينة الليلية. فكرت فى اقفرار الشوارع، وخلو محطات المترو. مخاطر محدقة، قمت متأهبا لارتداء ملابسى.

ـ لا.. لاترهق نفسك..

قالت إنها اعتادت الحركة بمفردها ليلا، هذا عادى هنا، صحيح.. ثمة مخاطر، لكنها قاصرة على بعض المناطق، طريقها آمن إلى حد ما، تساءلت، كيف سأعرف بوصولها سالمة، الحجرة هنا خلو من هاتف. داعبت شعرى ضاحكة:

ـ تقلق على..

أحطت قبتي ردفيها. أسندت رأسي إلى انبساط بطنها، كنت جالسا وهي واقفة، أتضور قلقا وشكا وضيقا، بينما تتعجل انصرافها، مبالغة في إبداء الرقة نحوى.

إنها تقيم بمفردها. ما الفرق بين قضاء الليل هناك أو هنا؟ هل تخفى أمرا، إن صمتها الطويل يحيرنى. تميل على، تقبلنى، مدركة لبعض ما يدور داخلي، قالت إنها تتمنى ليلة سعيدة، أصغيت إلى خطواتها المبتعدة في الممر الخارجي بعد إغلاق الباب، أوعر وقتى ما يعقب انصرافها. أما انتظارى قدومها فكان مبعثا لطلاوة وخشية ممتزجة بتوقع جميل، أتطلع إلى الساعة، الخامسة. قبلها بثوان أو بعدها، مجرد ثوان فارقة. أصغى إلى وقع خطاها. قصيرة، سريعة، مهموسة، تقابل الأرض بمقدمة حذائها. لذا كانت تمشى بميل قليل إلى الأمام، قبل أن تمد يدها لتطرق الباب كنت أبادر متهللا. مفسحا. مستمتعا بدخولها، قبل اقترابى وبدء تماس مدارينا.

ما من لحظات أبهج من سماع خطواتها المقبلة.وأنا داخل تلك الغرفة، وما من لحظات مرتبطة بهذا المكان أستعيدها فينقبض قلبى ويتمرر وقتى مثل خروجها وإصغائى إلى ابتعادها، بعد تلك الليلة لم تعد قط إلى الحجرة، إصرارها حيرني، لا أدرى كم لبثت جالسا بينما أوار ممض يزداد اتقادا عندى.

كم انقضى على؟

لم أدر. لكننى لم أعبا بتوغل الليل. وجهلى بدروب المنطقة، فلم أتجــول ليــلا إلا نادرا، أعى دائمــا ضــعف الغــريب، واستهدافه، فارقت الحجرة، على ورقة صغيرة كتبت الحروف والأرقام التى يجب أن أضغطها حتى يفتح الباب الخارجى عند عودتى، أما الخروج فكان ميسورا.

خارج محطة المترو القريبة يوجد هاتف عام.

أدرت القرص سبع مرات. هذا الرقم الذى رددته مرارا، وحفظته ذاكرتى حتى زمن قريب، عندما بدأت بعض أرقامه فى تبادل مواقعها أو المحو.

لا أحد يجيب!

أعدت الكرة أربع مرات. حتى أننى فى المرة الثانية نطقت الأرقام بصوت مرتفع، كلا.. لا يمكن أن أضل عنها.

رنين، رنين، رنين..

أين ذهبت إذن، أين اتجهت ؟ لا يمكن أن تهمل الرد، هكذا اخبرتنى عندما أطلعتنى على دقائقها، ولكننا بعد انفرادنا فى الليلة الأولى. أبطلت الجان، قالت انها لن تستجيب لأى نداء قادم من الخارج، لاتريد إزعاجا من أى مصدر أثناء ممارستنا العشق!، هكذا قالت بوضوح وصراحة، لم يكن عندها ما تخفيه، أو هذا ما توهمته، وما من لفظ تتحرج منه إذا نطقت، غير أن لفظها نادر، شحيح، تطلعت إلى الهاتف بعد محاولتى

الرابعة بائسا، حانقا، لا أعرف ماذا يجرى فى مكانها هذا؟ هل يرن الجرس فى فراغ يخلو منها؟ أو أخرسته عامدة؟ إذن.. من بصحبتها الآن؟ هذه اللحظة بالذات؟

مجرد رؤيتى لها بالخيال راقدة بجوار آخر تدفعنى إلى هذيان مطلق واضطراب جلى، لا أقدر على تخيل حاسة أخرى سوف تتنسم عبيرها، أو أنامل تمر على مسام جسدها، أو تحيط خصرها الهش. عينان يتطلعان إليها من تلك المسافة القريبة؟

عناصر القلقلة تلك. تطيح بى. تدفعنى إلى كل صوب. وتقذفنى إلى كل جهة.

هل أتجه إلى بيتها؟ إلى الشارع الذى أستعيد كل شبر منه، تقطعه مرتين أو أكثر كل يوم. تظهر فى فراغه عند مطلع الصبح وعند مغرب الشمس، تحتل من فراغه حيزا.

أعرف رمز الباب. إذا مافتحت الباب والنعاس يثقلها أبدى اعتذارا، لكم قلقت عند اتصالى بها وانعدام الإجابة. أنطق هذا وعندى شك فى وجود صاحبها بالداخل، ربما أتطلع عبرها، ربما أسألها مباشرة مستعيدا فى تلك اللحظة صراحتها الناصعة. أو أستسلم لاتقاد نيرانى. ألج فراغ الشقة، أستمر حتى الحجرة الداخلية. لا أعرف ردود أفعالى لو أننى رأيت هذا الشاب أو غيره، هل أنهار باكيا أو أتطلع إليها بقسوة، لم أختر بالدقة رد فعلى المتخيل.

كيف انقضت تلك الليلة؟

هذا ما يثقل على استعادته. وإن كنت أثق أنها نقطة من معالم تحويلات مسارى. عند الفجر عدت إلى الغرفة. لكم بدت ضيقة. لم تكن تخصنى، أو تخصها. ولكنها تنتسب إليها فى كل مرة أستعيد فراغها المحدود، وحضورها قربى. واقبالها على، وحدبها. وإصغاءها. وإيماءاتها. وتلك الدموع التى سحتها فجأة. ذات عصر على غير توقع، لماذا بكت؟ لماذا لم تجب عن تساؤلاتى. لماذا تألق حزنها بقية اليوم كماسة سوداء؟ بعد انتفاء إمكانية لقائها، استحالة الاجتماع. سعيت إلى كل موضع وطئناه معا عدا مسكنها، مررت بأطوار عديدة. فى البداية خشيت مجرد الطواف أو الدنو من مقهى جلسنا فيه معا أو قاعة أصغينا فيها إلى عزف، أو حديقة تنسمنا فيها العبير. كنت أوهى من تحمل التداعيات، حتى غرفة صاحبى نأيت عنها، واعتذرت له بأمور شتى. وبعد مرور الوقت، ومع تكرار مجيئى خفت موانعى فسعيت. حمت حول بيتها وأنا لا أعرف إذا كانت مقيمة فيه أو فارقته، أمضيت أوقاتا طويلة فى المقهى، وعندما جهلتنى صاحبته انكسر عندى أمر أجهله.فلم أعد أعبأ بالتردد عليه، لم يعد المقهى هو عينه، ولا الطرق التى قطعناها معا. ولا الواجهات التى تأملنا محتوياتها. ولا الزوايا التى اخترنا الجلوس فيها داخل المطاعم التى ارتدناها. وعيادة طبيب الأسنان فى المبنى العتيق.

وصحبتى لها عند ذهابها إليه. والمصعد الضيق الذى ضمنا، رغم اعتيادى وألفتى كانت أماكنها تبدو مغايرة، قصية،

من رحم .. إلى رحم ..

ملكتم فـــؤادى فـــصـــار الهـــوى
على رقـــيـب ، رقـــيـب ، رقـــيـب ،
فـــلا تقـــتلونى كـــذا عـــامـــدا
لأنى كـــئـــيب كـــئـــيب كـــئـــيب
وإن كـــــان لابد من قـــــتـلـه..
فـــقـــولوا غـــريب غـــريب غـــريب
مـــتى يجـــمع الله شـــملى بكم
فـــقـــولوا قـــريب قـــريب قـــريب

من موسيقى الآلة المغربية

نوبة العشاق - صنعة متقارب

(خروج)

وصول..

«شتاء لم نعرفه منذ أربعين سنة أو أكثر..»

لم يتوقف عن تدوين السطور المعتادة، متجاهلا الفضول البادى عند موظف الاستقبال ذى الشارب الكث. الاسم الثلاثى، تاريخ ومحل الميلاد، الجنسية، تاريخ الوصول إلى الأردن، عنوانه فى مصر..

«تاريخ المغادرة؟»

يتردد لحيظات قبل أن يكتب: أسبوع!

لا يعرف المدة التى سيقضيانها، لكنه فى كل الأحوال لن يتجاوز الأيام العشرة، ليلة واحدة فقط سيمضيها بمفرده، غدا قبل انتصاف النهار ستقف هنا لتدون تلك المعلومات ولكن بلغة أخرى، حقيبتها على مقربة، سينظر أصابعها النحيلة،

المتناسقة. المتلامسة، المنفرجة أحياناً. المتضامة حول القلم، يتخيل سرحاتها عند العناق فوق سطح ظهره، يسرى خدر، توقع بالمباهج التى استدعاها شهورا طويلة على البعد القصى، وربما تنظر إليه بغتة، سرعان ما تنقلب نظرتها إلى تأمل متمهل، واعد، بها يبدأ السعى، وإليها القصد، يعيد الالتفات إلى الصخور المتراكمة الموغلة فى العتاقة البادية عبر الواجهة الزجاجية، قطعا ستتجه إليها مباشرة، انفعالاتها متأججة، حادة، متدفقة حتى لينطوى أمامها أحيانا غير قادر على احتوائها، أو التجاوب معها، كأنها ترحل أول مرة، مع أنها جابت الكوكب تقريبا.

بدءا من الغد سيكون معها بمعزل، بمنأى، بعيدان عن كل نظام، يكتشفان معا ما بداخلهما. المكان الموغل فى الصخور الأزلية، ما لن يبصره ستراه، وما لن تلحظه سيلفت نظرها إليه، منذ اقتراب موعد سفره الذى حدداه معا عبر الهاتف وحضورها يقوى قربه، مرة تتطلع إليه من الصحراء التى شطرها الطريق الفسيح، ومرة من خلال الوديان والمرتفعات المغطاة بالثلوج، أو عبر الغمام الذى سبحت الطائرة خلاله. بدا اقتران اللون الأبيض بصفرة الرمال والسفوح الجرداء استثنائيا غريبا عنده، يبدو الجليد منطقيا فى موطنها الشمالى، لكن هنا؟!

الصفور..

ياه..

لو أنها بجواره الآن، لو تم وصولهما معا. أى دهشة تبديها لحظة ازاحة الستارة عن النافذة الممتدة بعرض الغرفة؟

أى عبارات تصيح بها؟

من هنا يمكنه رؤية مساحة أكبر من تلك التى طالعها عبر الطابق الأول، لم تفقد براءة الاكتشاف قط، حتى أنها تواجه صباح كل يوم فى مدينتها وكأنه أول نهار يطلع عليها فى الدنيا.

لن ينسى أبدا توقفها المشدوه، المأخوذ، أمام سبيل عبد الرحمن كتخذا، توقفت فجأة ثم خطت متمهلة. استقرت عند مدخل درب قرمز المواجه.

قعدت فوق حجر ناء عبر الزمن القديم، لامست ذقنها بأصابعها، رحلت إلى الواجهة بصمتها، بتحديقها، إلى المقرنصات، الزخارف، الزوايا، الأغصان المجردة، أشارت إلى الآيات القرآنية المحفورة، المعلقة، المتعانقة فوق الواجهة..

«هذه ليست كتابة»

قالت بيقين:

ـ «إنها عبادة»

لم يعلق إنما أخذ عنها رؤيتها إلى الأشياء، وتعلم أن يرى الجمال المتفرد حيث لا يتوقعه إنسان، يثق أنها لو كانت بمفردها لتحدثت إلى الجماد معبرة عن انطباعها. إذا كتمت ولم تصرح فانها تدون.

هذا الدفتر الصغير الذى تمسك به أحيانا لتثبت ما تخشى فقدانه من ذاكرتها، ما يفلت، ما يصعب عليها حفظه، تكتب بيدها اليسرى، عندئذ ينشأ تكوين مغاير لكل ما يعرف. لكم استعاده متمهلا، متمعنا، مرفرفا بالغوامض المستعصية على التفسير والتى لم تدركها عنه إلا هى. من تلك السطور، المفردات، الرموز، الإشارات، تصيغ ما تكتبه، ما تنشره عن أسفارها فى تلك المجلة التى لا يمكنه قراءة مضمونها لجهله بلغتها واستغلاقها عليه.

قبل ساعات من مغادرتها القاهرة جثا أمامها، كانت منحنية إلى الأمام، تحدق منطلقة إلى داخله مباشرة. كان يبذل الجهد والمحاولة لتثبيت كافة ماسيفقده.

ـ «السفر موت أصغر..»

قالت هامسة:

ـ «لولا الإقلاع لما كان الوصول»

هز رأسه متأسيا شاكيا، مرددا:

ـ «الرحيل موت بالحياة».

ضغطت يديه.

ـ «لولا السفر لما التقيتك..»

طالعها بملامح أسيانة مثقلة بمثولها عنده وملامحها التى تهمى عليه، محاولته التثبت بلحظات آنية مولية، يود لو أنشب نفسه فيها، أن ينقشها على ذاكرته، أن تتحول اللحظات إلى صخر يبقى ولا يفنى، يستعصى على الاندثار، على الفقد. لكم خشى لحظات آتية قد يبدأ عندها النسيان!.

حاول أن يثبت عبيرها الخاص المنبعث من شعرها، من مسامها، من ثناياها، كينونتها، استسلمت لطقوسه الخاصة، حتى ملابسها احتضنها وقبلها.

«وما يمر بى يستعصى على لفظى.. لغتى لا تساعدنى».

يدكها الشجى.

«لا معنى لأى لغة الآن».

تطوقه.

«تكلم بالعربية..»

يتداخل اللفظ باللفظ، يرتج عليه الأمر، فى ذروة اندماجهما، إيغال كل منهما عبر الآخر، لا تغيب عنه اللحظات التى سيقع فيها الافتراق. عندما تتحول النشوة المادية إلى صور للذاكرة، تردد:

ـ «عش لحظتنا».

يقول:

ـ «لكنها فانية.. مولية»

يطيل النظر إلى الصخور المتراكمة منذ الأزل، تكوينات غاربة، يتصل الصخر الجهم وينفصل، يتضام ويتفرق، قباب مضغوطة، ملامح آدمية ناقصة ومكتملة تحد الأفق، داخلها ترقد المدينة القديمة.

لا يمكن رؤية ملامحها من هنا، لابد من عبور السيق، عندما سمع الاسم أول مرة، قال مصححا:

ـ «الشق»

هز الموظف كث الشارب رأسه.

ـ «ماذا يعنى ذلك؟»

ـ «لا أدرى.. ولدنا لنجدهم يسمون الممر الصعب هكذا..»

سيمضى بصحبتها عبره. سيكتشف الأطلال القديمة معها. فى القاهرة كان دليلها. وفى مدينتها تقدمته عبر دروب يجهلها وقادته للوقوف أمام معالم لم يعرفها إلا فى الكتب والأفلام السينمائية، هنا.. سيكتشفان معا البتراء، سيرى ما تراه لأول مرة. منذ سبعة شهور وأربعة أيام لم يتضاما، لم يرها، لم يلتقيا، يخفق قلبه، ينتشى إذ يستعيد الإيقاع القديم،

ظن أنه ولى، لن يسترجعه مع تقدم العمر، زمن فتوته الأول، عندما كانت ظروفه أشق، أصعب، لكن إذ يمضى إلى لقاء محبوبة تعلق بها يشف ويخف حتى ليكاد يمشى على الماء.

أمامه وقت اليوم، لكنه لن يمضى إلى المدينة القديمة، لن يعبر السيق بمفرده، منذ افتراقهما أضيف الى عمره مقدار، إلى عمرها، زمن اكتمل بمنأى عنه.

إلى كل بلد رحلت إليه خلت بنفسها وخطت سطورا إليه. من خلال كلماتها يرى ذاته من جديد، عندما أخبرته بمشروع قدومها إلى البتراء أبدى استعداده، أخبرها بإمكانية تدبير أمره، منذ ثلاثة شهور يتطلع إلى لحظة ظهورها المرتقب، إلى لقائهما هنا، إلى أيام يقضيها بصحبتها تطيل أجله المقدر، تضيف إليه حتى مع نقصه، بحيوتها، بدهشتها البكر، بفيضها الأنثوى المرتقب. بمرحها المباغت، بجوهر طفولتها الذى لم ينل منه الوقت!

هنا سيحقق معها ما رغبته، ما صرحت به، ما قابله وقتئذ بدهشة وخوف، الآن أصبح متهيئا للقبول.

فى مدينتها، فى ذلك المقهى الصباحى المطل على النهر المروض بدت صامتة. يعرف ملامحها عندما تنوى الإفضاء بأمر صعب، أو شئ تخجل منه. بقدر رغبته فى إطالة لحظات حيائها الانثوى بقدر تعجله سماعها والإصغاء التام، لامست يده بأصابعها. قالت:

ـ «تعرف أننى لم أنجب من زوجى..»

أصغى.

ـ «وتعرف أننى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام سأبلغ مرحلة يصعب فيها ذلك..»

استعاد صحبته لأمه منذ حوالى ربع قرن، جلس فى مواجهتها عند الطبيب الذى بدأ يستفسر عن أعراض المرض، ثم سألها عن العادة الشهرية، فردت فى صوت خافت جدا: إنها منقطعة منذ عامين، يومها انتابته دهشة، إذ يقف على أمر خاص جدا يتعلق بأمه مصادفة: دخولها سن اليأس!

تسارعت دقات قلبه، ضغطت يده.

ـ «أريد طفلا منك..»

يقترب من النافذة، مبتعدا عن وسط الغرفة يميل مستندا الى الحد المعدنى الداخلى، ملصقا وجهه بالزجاج المحكم، تماما كما فعلت عندما تطلعت إلى حديقة البيت المملوكى عبر المشربية. سور الفندق من حجر وردى، يبدو حمام السباحة ضيقا طارئا على المكان، يتجاوزه إلى الصخور الوعرة، ستحتويها بالبصر غدا، سيصبح لتلك التكوينات الهائلة بعدا مغايرا.

هذه التراكمات الصماء، تضج بحركة يصعب إدراكها، منتمية إلى أزل سحيق، أكثر مواضع الكوكب شيخوخة وحيوية.

أين قرأ أن المكان زمن تجمد أما الوقت فمكان يسيل باستمرار؟ يتغير، ما هذه الصخور إلا قرون بلا حصر، طبقات عديدة من أزمنة يستحيل إدراكها، يتابع طيورا دقيقة الحجم فجأة فى الفراغ المتاح له رؤيته، ترتفع إلى علو شاهق، تغيب عنه يقين خفى أنها تبصره من مكان ما، خفى. أن ملامحها موزعة هنا وهناك، تتجاوز الأفق، حضورها الخفى الملازم، المستمر، المصاحب له منذ مفارقته ماديتها المحسوسة، ملامحها الماثلة.

عندما تجىء غدا يتصل وقتها القديم بلحظات قدومها، بأيامهما هنا، أما ما يفصل، ما لم يقضياه معا فلا محل له ولا شأن، هكذا قدر!

ينثنى متأملا الغرفة، هذا الفراغ سيحتويهما، ما موقعه بالنسبة للشمس؟ للمجرة؟ للكون؟ إلام سيستحيل بعد فناء المنظومة وتذرى الكواكب فى الفضاء السحيق؟

لكل وجود حد، حتى الزمن له انقضاء. فأين سترسو ذراتهما المتبقية؟ وهل تتعرف واحدة إلى الأخرى؟ أين مصير الصبوات والحنين؟ إذا كان العدم سيطوى ما يلمس ويدرك بالحواس، فهل سيبقى ما يستحيل رصده أو التحلق به؟

غدا.. بمجرد توحدهما، يسعى كل منهما إلى الآخر، يلتئم شطراهما لحظة تواجههما، يخبرها بما استقر عليه، اقتناعه بما أبدته، لا يمكنه تخيل رد فعلها.

أخبرها ببعض مما عنده:

ـ «إنى هرم».

ابتسمت:

ـ «تفيض حيوية، لكنك تتعجل الكهولة».

لا يصرح بشعوره الأقتم، يقينه أن ما مضى أكثر مما يبقى. إن الحد النهائى ربما يكمن فى اللحظة التالية، إن سعيه سوف يبطل وما من أمل موجود بعده، أما نفاده مع الواقع فمتزايد، سيقول إن رسوه عندها منج، يستمد من فوراتها جذوة وتوقدا.

على البعد يستحضرها فيحن، يهدأ إلى حين، إنما هى عنصر مصالحة، حتى فى بعدها واستحالة الظرف المواتى. يفتح حقيبته، يرتب حاجاته. الملابس فى الصوان، كتبه وأوراقه فوق المنضدة المجاورة السرير.

كوب ماء يحرص دائما على وضعه قريبا. قالت إن حرصى على الماء يعنى حاجتى إلى الأمان، عندما زارت بلدا أفريقيا على حافة الصحراء الكبرى قدموا إليها الماء، علامة أمن وطمأنينة، ونزولها من قلوبهم موقعا مكينا، ولطرد الأرواح الشريرة أثناء نومها.

قال إنه لا يعرف هذا كله، لكنه يستيقظ ليلا وجفاف حلقه ممض.

تضم شفتيها، تغمض عينيها، يكتسب وجهها تفردا وملاحة خاصة، قالت: أنت تؤكد ما أقول.

كيف يستقبلها غدا؟، لا يعرف موعد وصولها على وجه التحديد، هل يجلس إلى إحدى الأرائك الوثيرة المواجهة للمدخل؟ إذ يلمحها، يخرج غير عابئ بأى نظر، لن يقبلها، مجرد مصافحة، أما العناق فمؤجل إلى الانفراد.

لا.. بل قبلة سريعة ثم تخلل أصابعه لأصابعها، يصحبها إلى مكتب الاستقبال، غرفة مجاورة بقدر الإمكان، الفندق شبه خال، للتوقع لذة. وللاستعادة حسرة، أما اللقاء فمنقض حتى فى آنيته، هذا ما تدركه عنه، لحظة دخولها مجالا بصريا يكسوه جمود ناطق، يرجئ متعة الانفراد، قال يوما:

ـ «لا أتكلم كثيرا، لكن .. عندى فيض غزير».

مسدت شعره، قالت:

ـ «أحسك فلا تأس..»

يصغى إلى أزيز جهاز التكييف، يبث دفئا، تنبئ حدة الفراغ ومثول الصخور عن حدة البرد، تلك متعته القديمة، أن يرى المطر من خلف زجاج مقهى أو نافذة بيت.

رغم البرودة المتوقعة أغلق الجهاز، ضجيجه الخفى يفسد عتاقة المكان، أنفاسه ستدفئ الفراغ المحدود، غدا.. يستمد حرارته منها، يواجهان هذا الطلل الأبدى متعانقين، عاريين كما جاء إلى الحياة الدنيا.

فى المرة الأولى لم يفارقه خجله، فى العرى ضعف ما، وهن إنسانى لا يطيقه، أما هى فتحركت بطلاقة مفصحة، خرجت إلى صالة بيتها الصغيرة، متناثر فيها أوان معدنية وأخرى خزفية، تماثيل وأقنعة من جهات شتى حطت فيها أثناء ترحالها، قرب المدخل علقت إلى الجدار صفا طويلا من أوعية إعداد القهوة متدرجة الأحجام، مختلفة الأشكال. آنية موريتانية، أخرى من سيناء، ثالثة من حضرموت، رابعة من مسينا الصقلية، خامسة روسية، تفضل القهوة على الطريقة التركية، تهيم بالبن المخلوط بالحبهان وأعشاب غامضة، زيوت محفوظة فى قوارير من زجاج منمق. خلطة يتقنها رجل عجوز فى متجر لا يتسع إلا لجسده الضامر عند مدخل شارع المغربلين، رائحة البن القوية الفريدة تدل عليه من أماكن بعيدة. عند وصوله مدينتها استنشقت العبير من الحقيبة. صفقت. تهللت. لكنه عندما رآها تبتلع ملء ملعقة بنا مطحونا. تسفه سفا. أبدى جزعا. قال إن هذا مضر جدا بالكلى.

«لآخر مرة!»

إشارة أصبعها الطفولية، كانت عارية إلا من أيامها ولحظاتها، سيضج جسدها الفاره هنا غدا، سيترك كل منهما أثرا لا يمكن رصده، ربما جاء يوما من يسعى فى أثر الذين كانوا، عندئذ يكتشف أمرهما الذى كان!

قالت:

«إن جسدك جميل».

ثم قالت:

«ومتناسق..»

ثم تساءلت:

«لماذا تخجل؟»

قالت:

«حقا.. إن جسدك متناسق، قوى»

دهش. سمع مثل ذلك يوما ولكن فى لغته من محبوبة انقطع عهده بها، يرد طيفها عليه فى أوقات متباعدة، كأن ما اتصل بينهما وظنه لن يبيد أبدا يخص كائنا غيره، كأنه لم يكن بينهما أمر، هل سيتذكر لحظاته تلك من نفس الموقع.. لكن قبل اكتمال تساؤله هذا، يجمح إلى خاطر يقضه: هل ينتظره مقدار يوازى ما انقضى على الزمن القديم؟ أكثر من ستة وعشرين سنة مرت منذ أن تقطعت الأواصر، وخمدت الجذوة، هل سيقطع عين المسافة فى رحم الحياة؟، لو اكتمل ذلك، كيف سيرى لحظاته الآن.

هل يسخر عندئذ لإقدامه على السفر إلى بلد ينزله أول مرة، ثم يتجه مباشرة إلى الجنوب، إلى جبال الشوبك، إلى وادى موسى ليجاور البتراء؟

«أى خواطر تلك ؟»

يردد قولها المتكرر:

«عش اللحظة».

يتمدد، يمكنه رؤية الصخور راقدا، كلما ولى البصر كأنه يراها أول مرة، لا يفارقه اليقين أنها تكمن فى موضع ما، عند تلك الانفراجات، هذه الشقوق. الممرات البادية والخفية، لا يعرف أسبابا مباشرة لخجله من اكتمال عريه، ربما لتحذيرات والدته المستمرة عندما كان صغيرا، أن يحذر خلع ملابسه أمام الآخرين. أن يغلق الباب جيدا إذا دخل دورة المياه فى المدرسة. أن يحذر الأكبر منه سنا. كانت تصرخ ولا تلمح، مع تقدم الزمن عرف أن هاجسها وقتئذ حماية مؤخرته، أو كما سمع والده يحدثها عن ابن أحد الجيران الذى استدرجه حارس الفرن الأفرنجى القريب وضحك عليه!

«فى العرى المكتمل إثم ما؟»

«ربما».

حدثها عن أيام المعتقل، خاصة فترات التحقيقات المتوالية، إذ تفتح الزنزانة فجأة، يقف الضابط أخضر العينين ممسكا عصا غليظة، يصدر أمرا بالتجرد تماما، فإذا صدر الامتناع جرى التنفيذ قسرا، لحظة خلع القطعة الأخيرة يقترب، يمعن النظر، ثم يشهر عصاه هاويا فوق الكينونة العزلاء كيفما اتفق، عندئذ يتم عصب العينين، لم يكن همه متجها صوب الضربة

المباغتة أو الحاجز الذى يمكن الاصطدام به أثناء الجرى صوب اللاجهة بينما يستمر اصطكام العصى بالجسد المكشوف، إنما كان همه أن يستر ما بين فخديه بيديه، يقول:

«لا يتم اختيار ضباط التعذيب عبثا».

يقول:

«كلما استعدت ذلك يتجدد غضبى»

يضم قبضة يده.

«كنت عفيا، قادرا على المقاومة».

تميل مقتربة منه، تبدى الإصغاء العميق حتى تتردد أنفاسها فوق مسام صدره.. يقول:

«كان اليقين مكتملا بقدرتنا على تغيير العالم».

ثم يضحك ساخرا:

«لكن العالم غيرنا».

يلتفت إلى السرير المجاور، كأنه يتوقع رؤيتها، تضم ركبتيها، تسند ذقنها إليهما، وضع إصغائها الأمثل، ومصدر طق شروره، انحدر صوبها بغتة. تهمس داعية غير ناهية..

«كن رقيقا».

يستنفره الهمس، يتبدل للتو.

«إنى طوعك».

على مهل يعبر اللاجهة، الحد الفاصل بين اليقظة والنوم، سفر طويل، خروجه فجرا، إجراءات المغادرة، نظرات رجال الأمن المستريبة، انتقاله مباشرة من عمان إلى وادى موسى، حرصه على إجابة تساؤلات السائق، يوضح القصد من وصوله لمن يفضى إليهم بما يسمعه، حذر قديم متأصل واسترابة دائمة، هذا الرجل متوسط العمر، البدين قليلا، رأسه، قال:

«معك حق.. يجيء الأجانب من آخر الدنيا ونحن لا نعرف البتراء كما ينبغى!»

شاب يعرفه فى المطعم شبه الخالى، لكنه لا يذكر ملامحه. ينتقل بين المناضد، ينظف أطباقا، يبدل الدوارق الفارغة بأخرى ممتلئة، يخدم زبائن لم يصلوا بعد.

حارس صعيدى، طويل القامة، يوصى بنزول السلم الحلزونى الحديدى الضيق بحذر، تتقدمه صوب المقبرة الواقعة على عمق مائة متر، عند المنعطفات الحادة تغيب عنه، يناديها، تتردد أصداء نطقها، تفرد طبقاتها، يتلاشى الضوء، يطول ترقبه.

يناديها.

ما من إجابة أو صدى!

يصحو متلاحق الأنفاس، كم انقضى؟

العتمة مطبقة، الصخر اندمج بظلمة الليل، كم غسق توالى عليه منذ اكتماله؟ منذ استواء الهيئة؟، تدهمه وحدة، يتوق إلى التواجد فى جمع.. قوى، أين هى الآن؟

ترتب حاجاتها؟

تجلس بمفردها فى الزاوية التى اعتادا ارتيادها بالمقهى؟

هل يتصل بالمطار؟

. لكنه يخشى سماع إجابة محبطة. عبر المذياع قال رجل وقور الصوت. إن منخفضا جويا يتمركز الآن شرق قبرص، يتحرك باتجاه المنطقة، أما العواصف المتوقعة فمن المنتظر ألا تكون فى عنف السابقة، طالب المواطنين بالحذر، أكد استنفار الأجهزة المعنية لتوفير احتياجات المواطنين، بدأ يذكر الطرق السالكة، والمغلقة، والتى يصعب مرور المركبات الصغيرة بها، عندما قال إن حركة الطيران تعمل بشكل طبيعى، قام واقفا.

هذا ما انتظره، ما يعنيه الآن، ارتدى ملابسه بسرعة وكأنه تخلف عن موعد هام، فارق الغرفة، لا يدرى إلى أين؟

الليل ..

.. يواجه الفراغ الليلى البارد، الأضواء المتناثرة المتدرجة على سفح الجبل المرتفع، المطل، المشرف.

خطاه فسيحة مسرعة، كأنه يحرص اللحاق بشيء ما، يريد بلوغ المنحنى بسرعة، يعرف أن عينى الحارس الواقف خلف الباب الزجاجى تتبعانه، يمعن مستكشفا، ليس بحاجة إلى تثبيت علامات فى ذاكرته، المبانى قليلة، والفندق من علامات المنطقة.

أصوات فتيان ..

يلعبون الكرة، فى نهاية لهوهم، قال موظف الاستقبال الذى بدا ودودا إن الناحية آمنة، بعض الأجانب يفضلون دخول السيق ليلا، يقضون ليلتهم فى أعالى التلال الصخرية، داخل المغارات الأزلية، المسكونة. نعم.. عائلات تقيم بها. سكان المنطقة، اسمهم «البدول».

«من أين جاءوا؟»

لم يجب بشكل قاطع، لكنه من غير المؤكد أنهم أحفاد الأنباط، لم يشأ إبداء دهشة السائح الغريب الذى يفتح فمه أو تجحظ عيناه إزاء كل مالا يعرفه لكنه أبدى تعجبا عندما سمع أنه الوحيد فى الفندق الآن..

«الجميع سافروا قبل المغرب، يخافون إغلاق الطريق..»

سارع الموظف:

«لكن غدا سيصل فوج صغير».

«أعرف..»

تابع مجيبا استفسار الموظف الصامت:

«لى بينهم أصدقاء..»

ابتسم ،كأنه أدرك عنه، وقال: إنه من المنتظر وصولهم حوالى الواحدة. سيجيئون من المطار مباشرة.

حتى الآن يمضى كل شىء على ما يرام إذا تعطلوا سيكون ذلك بسبب الثلوج، لكن تأثير المنخفض الجوى لن يبدأ إلا بعد الظهر، منذ بداية الشتاء ثبت دقة التنبؤات، أشار إلى أعلى..

«كل شىء مرصود بالأقمار الصناعية».

قال إنه يوجد أجانب فى المنطقة، يأوى بعضهم إلى فنادق صغيرة، أو يقيم بعضهم هناك، تحت، فى «المغر».

قال زميله الذى اقترب ليتابع الحوار إن بعض الأجنبيات جئن إلى البتراء ولم يفارقنها، تزوجن وأنجبن، يرتدين الآن الملابس البدوية، ويتحدثن العربية بلهجة البدول.

أول من تزوج أوربية دخيل الله، أمره شائع معروف، هامت به بنية سويسرية، جاءت إلى هنا فى العشرين من عمرها، دخلت السيق ولم تخرج منه إلا متزوجة به. كتبت إلى أسرتها تخبرهم بما لاقته، ما استقرت عليه، خلعت الجينز ولبست الجلباب البدوى، عاشت معه فى المغارة التى ورث الإقامة فيها

أبا عن جد. كانت تقف الى جواره فى المقهى الصغير ترتدى الخمار. تعد الشاى للزبائن الأغراب، تبيع زجاجات مليئة برمال ملونة يمكن كتابة اسم الراغب داخلها بطريقة يتقنها البدول، أنجبت طفلة جميلة واسعة العينين، كانت تجرى فى الوادى حتى سن السادسة. تحمل أوعية الماء. أو الطعام عند سعيها جوار أمها، هى الطفلة الوحيدة التى لا تهاب عند ظهوره..

«من ضبعان؟»

«حكاية تطول، لكن الكل ينتظر عودته منذ غيابه فى مجاهل البتراء».

قال موظف الاستقبال:

مؤكد أنه فى غرفة فرعون..»

تساءل الموظف الآخر:

«هل رآه أحد بعينيه؟»

«لا.. ولكن يسمع أحيانا صوته»

«حكايات.. مجرد حكايات»

كان ضبعان يجىء من وادى موسى إلى البتراء، إذ يرى الطفلة يدس يده فى جيبه، يقدم إليها قطعة حلوى أو عقدا من خرز، بعد ذهابها حزن عليها ولام والدها.

راحت الطفلة مع أمها، من كان يتصور أن الحنين سيقوى ويشتد بعد مضى سنوات؟ لكن هذا ما جرى للسويسرية، يبدو أنها تلقت ما يدعوها إلى السفر، إذ مرض والدها، هكذا قالت، المهم أنها صحبت معها دخيل الله. هناك أبدت عناية به وبذلت الهمة. عاشوا فى بيت من طابقين، تحيطه حديقة كبيرة بها جراج لسيارتين وأشجار تفاح وكمثرى وتوت وكريز وكل ماتشتهيه الأنفس. والدها عنده مصنع لعلب الساعات السويسرية النادرة. لم تقصر مع زوجها، أى رغبة أبداها سعت لتحقيقها، عرضت عليه وظيفة فى مصنع أبيها ليمضى وقته. كانت تثق من نجاحه، إنه ذكى.

يتقن خمس لغات. نعم .. أى رجل من البدول يتكلم بثلاث أو أربع لغات، المفاجأة أن دخيل الله أبى، أظهر الكدر، ونال منه الغم، طلب منها العودة لكنها رفضت، أبدى المسايرة حتى فوجئ القوم برجوعه وحيدا.

أمضى عامين متصلين قبل سفره ليرى ابنته، لكنه لم يمكث أكثر من أسبوعين..

قال موظف الاستقبال بلهجة قاهرية:

«غبى.. مش.وش نعمة»

أجابه مبتسما:

«يا عالم بالنفوس..»

يتوقف مجهدا مع صعود الطريق، تنأى أصوات الفتيان كأنها آتية من وديان سحيقة البعد، يتفرقون هنا تتنوع المستويات. السماء حادة الصفاء، مركز المدينة مازال بعيدا، لابد أن يصعد حتى يصل إليه. الطريق خال تماما. يتوقف. ما من مقهى، عزلة تلف سائر الموجودات.

الجهة الأخرى يبدأ السيق. المدخل الطبيعى المؤدى. لن يدخله إلا بصحبتها، برفقتها، لو أنها بجواره الآن، ربما تقترح عليه المضى، لا تهاب الليل ولا الانهيارات المفاجئة أو الأخطار المتوهمة القادمة من عصور لايعرفها، إنما يخمن ما دار فيها.

فى القاهرة أصرت على رؤية الأهرام فى منتصف الليل، وعند الفجر، لحظة الشروق، وعند الغروب، أمضت أوقاتا فى مواجهته تتطلع بلا نطق.

كيف سيرى انفعالها بالمكان هنا؟

لا يدرى.

من مكان قريب ينبح كلب نباحا متصلا، توقف كأنه لم يكن، تفد عليه الآن من سائر الجهات، تقتحمه كالغواية. يتوقف. يكف عن الخطو، يرقب الفندق.غدا سيضمهما هذا المكان، فكأن الأنباط لم يستقروا هنا، ولم يشيدوا عاصمتهم الفريدة إلا ليتبقى منها ما يغرى بالمجىء والفرجة عليه وتفقده، لينزلاها معا، يمضيا مقدارا من زمنهما معا. على مهل يخطو

عبر الممرات الممهدة، تمثل أمامه إشراقتها الأولى، تتكرر اللقاءات، يقع الاتحاد، لكن اللحظات الأولى لا تفنى ولا تستحدث، فى زمن فتوته كان ينطلق بين صحبه.

يقص عليهم أدق التفاصيل، فى وحدته يستعيدها مرارا، كأنه يحاول انشاء المتعة مرة أخرى، لكنه مع مرور الوقت أتقن الكتمان، حتى صار ما عنده أكثر مما يلقاه خارجه!.غير أن البدايات تظل ماثلة، يود لو يقيم لها نصبا من اللحظات.

عبير الطلع..

.. بناء احتوى النهار كله، اختزل جوهر الصحراء التى امتدت يوما، والخلاء الأبدى، هذا صحن مسجد ومدرسة وخانقاه فرج بن برقوق، لم ير رسما له، لم تثبت فى ذهنه أوصاف المؤرخين الثقاة، لكنه يتخيله متوسط القامة، عريض الصدر، بشوش الوجه، مقبلا على الدنيا.

يقصد المكان عند الرغبة فى الإفلات من ضيق نزل به، أو سعيا إلى حنين غامض، يوما صحبه أبوه إلى مقبرة قريبة محفوفة بالريحان. كأنه يستنشقه للتو.

يعبر طريق صلاح سالم، يحاول تخيل المكان فى الزمن القديم عندما توحدت العمارة ولم يجاورها بناء ضخم آخر، مع صعوبة الانتقال واستيحاش الطريق وطوله بالنسبة لأهالى

القاهرة. كانت تلك المنشآت الصوارى ترى من بعيد.

تحت شمس شتوية اليفة جلس مسندا ظهره الى قائم حجرى.. هل أغفى؟

ربما.

هل أغمض عينيه؟

مؤكد.

لكنه عندما اتجه بنظره لسبب خفى، كانت تقف فى مواجهة الإيوان الغربى.. كيف تمت وفادتها؟

متى ظهرت بوجودها المتمنطق بالحنين؟ لكن مجرد رؤيتها أثار عنده تحفزا، أحيانا يحرك ظهور أنثى مجهولة توقعا، أو حماسا، أو شجنا، ربما يضفى معنى تاما على حضور مدينة أو طريق.

وقفتها، استغراقها، ملامسة يديها لخصرها، لكم رأى أجانب هنا، مروا به ولم يتركوا أثرا، لماذا قصدها اهتمامه وتركيزه؟ لأنها بمفردها؟

لا يمكنه القطع.

لحظة رؤيتها تلك. هل كان ضبعان يسعى أم بدا اختفاؤه؟ أين البتراء بالنسبة له؟ مجرد اسم قديم علق بذهنه يوما. أين الطريق إلى وادى موسى؟ والملامح التى طالعها. والصخور؟

أين مكونات العاصفة الثلجية؟ مكونات ذراتها، عناصر هبوبها؟، ماذا عن تلك الأماكن المجهولة قبل ذلك عنده، يتعلق سمعه بها ويصره بالخرائط الموضحة لحالة الطقس.

انتقلت من تواجدها العابر فى صحن الخانقاه إلى مركز وجوده، عرفها وهى فى سفر، ارتبط الرحيل بسعيه صوبها، أحيانا تتصل به، تخبره أنها ستقلع عند منتصف الليل إلى المكسيك، إلى تايلاند، إلى بلد لم ولن يبلغه، يحزن، كأنه يودعها بالحضور مع أنه بعيد قصى، يتخيلها فى الطريق إلى المطار، مرورها البوابات، يعيش كافة التفاصيل التى يصر على الاستفسار عنها، اسم شركة الطيران، ، موعد الإقلاع، زمن الرحلة، يقلب الخرائط المتاحة، يرسم دائرة خضراء على مدينة ستحل بها لساعات، يعانى من ابتعادها عن بعدها! فى كل الأحوال هى نائية، لكن انتقالها يضاعف وحشته.

بدا هذا كله عند تلك اللحظة. لو أنه أطال الإغفاء، لو أنه حاد ببصره، تناله خشية. عدم تمكنه رؤيتها فى الزمن المولى، المنقضى، ألا تتصل أسبابه بها.

لم يتجه صوبها، إنما قصد الاتجاه القبلى مبتعدا، حتى لا يظن من يرقبه أنه يسعى إلى تحرش ما، أول خطوه نحوها مقترن بالحذر!

لم يلمح كائنا آخر، حتى الحراس الذين لا يكفون عن الذهاب والمجىء، غاب المترددون والمصلون، حتى من يلتمس

إغفاءة قصيرة، لم يفارقه هذا اليقين أن حركاته مرصودة، مراقبة من آخرين يجهلهم.

وقف أمام خلاوى الصوفية. ترى.. من أقام بها؟

أى تمتمات أو أدعية؟

أى شطح جرى؟

دائما يجهد الذهن والمخيلة لاستعادة ما اندثر، ما لحق بالعدم، بقدر ما جرى يضفى ذلك خصوصيته على الطابع، ألا تأخذ الجدران من ملامح ساكنيها؟

أقبلت ناحيته كالغواية، كالصبر، تعلق بعينيها الفسيحتين، أجابها:

ـ «مدفن السلطان هناك فى القبة البحرية..»

منذ تلك اللحظة لزمها. قصدا الإيوان الشرقى. القبة القبلية، البحرية، توقفا عند النقوش المطلة. والحشوات المشرفة والمقرنصات الصاعدة. تطلعا من شرفة المئذنة الشمالية إلى الأخرى الجنوبية. اجتازا عتبة الصوان الفرعونية..

ـ «هذا شعار رمسيس الثانى».

أبدت تعجبا. بمفردها لم تكن ستلحظ ذلك.

قال مزهوا إنه يعرف البناء حجرا. حجرا. خرجا معا. إلى القباب، الأضرحة، الواجهات الشاهقة، الحوارى الضيقة،

المقاهى الصغيرة. أشار إلى التراب. ذكر معنى بيت المعرى، خفف الوطء فإن هذه الأرض من أديم تلك الأجساد. حاول تقريب المعنى إلى اللغة الإنجليزية التى تتقنها تماما. بعد تناول الغداء أخرجت حافظة نقودها. خاطب الرجل طيب الملامح:

- «يجوز أن تدفع السيدة حسابها يا عم أحمد؟»

مال رأسه مستنكرا، نافرا:

- «لا يليق..»

اجتهد ليقدم إليها أقصى ما يُمكن ابلاغه عنه ومنه، حضورها المشع ينفذ عبره، تتداخل أوقاتهما.

كان راغبا فى رؤيتها من كافة جهاتها فى نفس اللحظة، الإحاطة بها والذوبان فيها. عند مدخل قبة قلاوون طلب منها التمهل. احتواهما الفراغ المؤطر بالنقوش، المنمنمات، الكلمات المقدسة.

قالت بصوتها الهمسى:

- «تبدو وكأنك جزء من البناء..»

طلب من الحارس إطفاء المصابيح الكهربائية، الشاحبة، الفقيرة، حتى تسبح فى الضوء الطبيعى العابر للزجاج الملون، النوافذ الخضراء، الصفراء، الياقوتية، الأشعة المروضة، المرمرية، كأن الشمس تبدأ دورة الفلك من سمت المكان.

وحدت الظلال حضورهما، قربت ما بينهما. بدأ عنده استنفار حسى حاول كبحه، حافظ على مسافة فاصلة حتى عند اقترابه منها وهبوب عبير شعرها وبدء تعرفه إليه، خاف الزلل. ربما ظنت أن هدفه الأول والأخير لقاء عابر. كل ما يمت إليها استوفزه. لكنه كتم. هكذا.. تحفظ عند اقترابه، أو عبورهما الطريق واضطراره إلى ملامسة يدها أو كتفها لتحذيرها مع أنها لم تبد نفورا، تعمد تأخير خطوه ليرى عنقها، وكتفيها المنحدرين فى دعوة سافرة، خطوها إذ تلمس الأرض بأطراف، أصابعها، راقصة أبدا. دهشة دائمة كأنها ترى الموجودات لأول مرة مع أنها اطلعت على كثير وطافت الدنيا..

جرى اتصالهما الحسى الأول عبر الطريق الفاصل بين مسجد الرفاعى ومدرسة السلطان حسن، وعلى مرأى من مآذن مسجد محمد على المشرف المطل من عل. عندما اتجها صوب الشارع المنحدر بعد ساعات طوال أمضياها فى الشواهد الشواهق المشرفة على الميدان العتيق، كان مرهقا لكنه قادر على أن يتبعها إلى حيث شاءت، نظرت إليه. كان إقدامها قويا، مقتحما حتى ليتوقع مثولها فى كل لحظة كما بدت. تخللت أصابعها يديه ليبدأ عنده مس لم يكف حتى الآن. يتجدد إذ يستعيده بالمخيلة. اتحدت أصابعهما حتى لم يعد قادرا على التمييز الحسى. لو شاء تحريك إبهامه أو خنصره لضلت الإشارة إليهما، تنقطع صلته بأطرافه وتتصل بها فى الوقت عينه.

توقف.

شملها بالنظر، فهمت عنه وأدركت، كاد خفقه أن يحدث فى المعمار القديم أصداء. طاف بها المدينة، قصد أماكن اعتادها، أحبها لترتبط عنده بها، فإذا أتاها وحيدا، منفردا، استحضرها، يرى مالا يمكن لغيره مشاهدته، آثار مرورها يوما، فكأنها ماثلة أبدا.

قالت إنها ترحل باستمرار، لا تمكث فى مدينتها إلا فترات قصيرة، فكأن منزلها للعبور، وليس للإقامة.

ولدت فى الجنوب. قرية صغيرة قرب البحر. والدها فلاح قديم، أمها بولونية الأصل. تعرف إليها أثناء الحرب. لم ترهما منذ الصيف الماضى. كانت متزوجة. تعيش بمفردها الآن. مسكن صغير قرب النهر. حجرة وصالة فسيحة، مستطيلة، الجدران كلها مغطاة بأرفف الكتب. فى المساء تكون دائما وحيدة. عندها أريكة مستطيلة. تجلس فى مواجهة التليفزيون. تشرب جرعات صغيرة من النبيذ. ربما يدركها النوم واذ تصحو تثقل عليها الوحدة.

تلتقى بزوجها السابق أحيانا. إنه حكواتى مشهور، يقص على المستمعين فى صالات المسارح القديمة، يظهر فى التليفزيون مرتين فى الشهر يحفظ ألف ليلة.

لا.. لم تنجب منه.

كأنه يصغى إلى صوتها الآن. يستعيد دائما ندمها وحزنها

فى إجابتها، لم يمكنها عملها من أن تصبح أما، لكنها أعادت النظر منذ أن التقيا وتوحدا، العمر ينقضى أسرع مع اقتراب الأربعين..

قال إنه لم يتزوج لظروف شتى، مع دنوه من الخمسين يشعر أن ما تبقى أقل بكثير مما مضى، يوقن أنه لن يتجاوز الستين.تساءلت:

ـ «ألديك هاجس الموت؟»

أومأ. أجاب مفتتحا أول قوله وإفضائه:

ـ «الى حد يعييني»

أبدت تعجبا:

«اذن .. أمامك أحد عشر عاما..»

تابعت:

ـ «هذه مدة كافية جدا..»

تساءل باقتضاب:

ـ «لأى شيء؟»

ـ «لتنجز ما تبغي..»

يظن أنه ضاق بما قالته. كأنه صرح بهاجسه وانتظر منها الطمأنينة، لا أن تقر وتعتبر هذه السنوات كافية، اكتشف أن

حزنه ليس على قصر ما تبقى، إنما لاستحالة عيشه أبدا، رغبة ألا يفنى، ألا يتذرى بددا، ألا يهن، أن يفعل غدا ما قدر عليه أمس، كيف تريد منه الاقتناع بتلك السنوات الإحدى عشرة؟. لكن هل يسعى إلى يقين عندها لا يستقر داخله؟

قال إنه فى موقع الأخ الأكبر، انتظر حتى انتهاء أشقائه الأربعة من مراحل تعليمهم، كان مسئولا عنهم بعد رحيل أبيه المبكر، المباغت، كل منهم تزوج إلا هو.

تطلعت صوبه مباشرة:

ـ «أهى الظروف أو رغبتك فى الانفراد؟»

عيناها الفسيحتان، الجميلتان، ذاتا الأغوار، إذ تتطلعان إليه لا يقدر على التورية. أو التخفى، تنفذ إليه بلا مانع يردها..

عودة

ثمة شيء لا يعرفه فى تلك الصخور يسمع ويرى.

قعد على حافة الفراش. مشدود البصر إلى التكوينات الغامضة، سماء دانية، قصية خالية من الغيوم، تحوم حوله بهجة مستعصية، ستصل اليوم. يلتفت إلى الفراش الآخر.

«صباح الخير.. كلودين»

لا.. لا تلفظ اسمها هكذا، كرره مرات، محاولا محاكاة لفظها، فيها تعبير عن مفاجأة، ودهشة، وتساؤل، وإفضاء

بسر. تنطق فكأنها تهمس، تتعجب به وله، أهي المقصودة ؟، يميل جسدها إلى الأمام. مع مخارج حروفها تسفر عن دعوة محدثها، تغويه بالقرب وتنفي أى خاطر بوقوع الاستحالة.تبتسم إذ تصغي إلى محاولاته سماع نطقها. تشف ملامحها عن وجود غير منظور.

ما بين وقوع عينيه عليها أول مرة، وسفرها من القاهرة سبعة أيام. وما بين سفرها ورحيله إلى مدينته تسعة شهور، وما بين وصوله وانفراده بها واتحادهما خمس ساعات. لم يتحقق ذلك الايام السبعة الأولى.

أقامت عند صاحبة تعمل مهندسة فى مشروع مترو الأنفاق. حدثته عنها. لم يلتق بها، أحيانا يتلقى رسائلها عليها طوابع بريد مصرية وأختام قاهرية، يستنتج أنها بعثت بها إلى صاحبتها مع مسافر أو مسافرة.

مساء كل يوم يكتب لها. يجلس ليخاطبها على الورق. يقص عليها ماجرى له. ما مر به. أطلعته على صندوق مغربى لونه بندقى غامق، خشبه معتق. كافة ما كتبه إليها. صورهما معا. تأمل الأوراق.المظاريف. أختام البريد، كأنه يتعرف إلى كلماته من جديد، يكتشف ما لم يطرأ عليه لحظات الكتابة، كأنه يتعرف الى كلماته من جديد.

بعد وصوله كان متعبا، متهيبا. إنها المرة الأولى التى ينزل فيها ضيفا على أنثى. وفي بلد غريب. تمنى ألا يسبب إزعاجا

ما. تحرك بحذر. أبدى تكلفا. وأسفرت عن بساطة، لم يعتد الرفقة.

قدمت إليه حاجاتها. مكتبها الصغير، القلم المغموس فى الدواة، المرايا المؤطرة بزخارف مغربية، هذا العدد الكبير من أوعية القهوة، اللوحات الصغيرة، منها البرتغالية المرسومة على الفللين، المكسيكية على لحاء الشجر، مشاهد مرشحة لطبيعة صينية على حديد، ألواح مستطيلة أو مستديرة من نحاس، زربية من جبال الأطلس الكبير تغطى الصالة، مجلدات بلغات شتى متجاورة، تتقدمها فوق الأرفف تماثيل دقيقة.

أمسك نرجيلة صغيرة من فضة. هديته الأولى لها. لوح بها. بادلته الابتسام. كل منهما يكتشف الذى لا يعرفه من الآخر بعد بدء الانفراد.

النافذة بامتداد الجدار، عريضة كتلك المطلة على الصخور. شقتها فى الطابق الثانى والعشرين. فى الأفق البرج الشهير، وعند قمة المرتفع قباب الكنيسة الشهيرة التى يقصدها السياح. قال:

«أفضل الأفق المفتوح..»

أومأت موافقة، أشارت باسطة يدها..

«هذا أول ما أرى صباح كل يوم..»

لم يكف عن الاستفسار، أى مقهى تفضل ؟ أى الأماكن

تذهب فى المساء؟ أى أصحاب يزورونها هنا؟ أشار إلى الكتاب المفتوح فوق المنضدة المجاورة للسرير.

«على الأقل ساعة قبل النوم، أما الصحف فبعد الغداء..»

قالت إنها تمضى أياما عدة بمفردها. فى أيام الأجازات تفضل الفرجة على التليفزيون بدلا من الخروج إلى الشوارع الرمادية الموحشة، الفارغة إلا من دوامات الرياح وأوراق الشجر المتساقط والضياع.

تدفق منه حنو تجاهها، حاول مساعدتها أثناء إعدادها طعام العشاء لكنها طلبت منه أن يقعد. منذ صباح الغد يمكنه أن يفعل ما يشاء. أطلعته على محتويات الثلاجة. علب الشاى والقهوة ومكان السكر. والنعناع المحفوظ فى أكياس صغيرة. أحضرته من أجله لأنه قال مرة إنه يحبه ويفضله.

عند العاشرة ليلا توقف أمام النافذة. تطلع إلى أضواء المدينة، مستدعيا القاهرة النائية والتى تفيض حيوية، خاصة فى أماكن نشأته ودراسته وعمله.

الأحياء القديمة، فى أى ساعة من الليل يمكنه أن ينزل إلى الطريق فيجد من يتحدث إليه، ويعود بما يرغب شراءه، هذه المسافة من سوق السروجيين حتى باب زويلة، صعودا إلى باب الوزير. شريان يدفق دما وضوءا وإنسانية!

لم يبدأ ليلته الأولى بعد، وبدأ حنينه الممض، بل إن الفقد يتحرك الوعى به دائماً فى البداية. قبل الانغماس فيما ينتظره،

حاول إخفاء كمد عابر كاد يمسك به. استشعر حركتها بدون رؤيتها، ضجيج حضورها وفورانه.

التفت..

متهيئة.. سافرة.

ما من أجمل وأرق وأكثر سحراً وغموضا من امرأة راغبة. ساعية، قميص شفاف، قصير، يفصح عن تخومها المذهلة. أما صدرها النافر فأحدث زحزحة داخله، نهدان طليقان، مقيدان، مشهران، ملمحان إلى أكرية الكون والوقت. أما كتفاها فازداد انحناؤهما، كانا ملساوين، مكتملين، غائبين وموجودين.

يستدعى لحظات مماثلة، محبوبة عرفها يوما على سفر أيضا، أورثه فقدها حسرات، فى كل خلوة تصر على ارتداء ما يروق له، تبدل قمصانها. أردية النوم، حتى تلمح لمعة عينيه، تستقر وترضى.

لم تتعمد بداية عرض. إنما كانت فى تغير مستمر، كل لحظة تبدى جديدا لم يعهده منها. راحت وجاءت. لم تظهر تكلفا أو خجلا. أفسحت لثيابه موضعا فى الصوان، حاول منع عينيه من تعقب ردفيها، خاصة عند انحنائها. كان الزجاج شفافا، وأصداء المدينة تصلهما. لم يشد الستائر، سيشهد الكون ليلتهما!

لحظة خروجها من غرفة النوم ممسكة علبة دواء صغيرة. اندلعت كوامنه فجأة. كأنه انتبه إلى خلوتهما. إلى تالقها

الحسى، لأول مرة. فارقته الرهبة التى اعتادها قبل الاتصال الأول. تبدد خوفه من الفشل، لكن دقات قلبه هرعت تقتفى بعضها، عندما حاذته، لامس معصمها، أحاطه، التفتت، هل بوسعه نسيان ابتسامتها تلك؟، مستحيل، ربما يغمض عينيه إلى الأبد وآخر ما يصحبه معه قوس قزحها.

أقدمت صوبه. أحاطت عنقه. شبت على أطراف أصابعها بميل نحوه فحل صدرها ضيفا عليه. لامس نداوتها عند نقطة مصير الخصر الى بداية تقبب الردفين. سرى جسدها عبر مسامه إلى ركنه المقيم. بعبيره. بإقباله وإدباره. بتأججه. بمفارقه ونواصيه، تبدد كل اتزان عنده بعد تسليمها مفاتيح مدينة روحها إليه، أما زفراتها الحرى فأججت قواه التى ظن تلاشيها، سرحات يديها تبعث القشعريرة بتذكرها فما البال عند حضورها؟ أما دفسها وجهها فى صدره فجعل مبررا جديدا لاستمراره حيا يسعى.

صار فى خلق جديد.

أضيف إلى زمنه مقدار لم يعد له العدة. كانت منفلتة. نائية عن أى اعتبار، ساعية إلى ارضائه والحنو عليه، بادلها دفقا بدفق فاسترد حريته الأولى.

لا يستعيد البداية إلا بتأجج حضوره. يصعب عليه الهجوع، قام واقفا. أشعة الشمس تتخلل الصخور التى بدا طلعها مختلفا. كما احتضنها فى مواجهة مدينتها سيضمها هنا متحديا كافة القوى والأزمنة التى عبرت هذه الأكم.

كان جسده مشهرا رغبته فى مواجهة المدينة المتوارية وكأنه يعلن قصده: افتضاضها.

نادى بصوت خافت، أينما حلت الآن تصغى إليه، سيقص عليها نبأ تلك الليلة، أمضاها بمفرده فى الفندق، ما من نزيل غيره.

عندما وقف أول صباح يحلق ذقنه أمام مرآتها التى تغطى الجدار، وقفت لحيظات عند الباب الموارب. تقدمت. أسندت وجنتها إلى ظهره، أحاطته، طلبت منه أن يستمر. فارقه أى حرج، يتحرك فى البيت وكأنه مقيم منذ وقت طويل، صار مرحا، خفيف الخطو، أجرأ بعد أن توالجا، بعد اتحادها به، طلب أن تقف كما جاءت إلى الدنيا.

بدت نصبا حيا، دافقا للأنوثة.

كان راغبا فى تثبيت كافة ما يمت إليها عنده. بدأ بتقبيل شعرها وتمريغ أنفه فى خصله. طرق كوامنها. وعندما انحنى متأملا تناسق قدميها. لم تطق. انحنت، تتخلل شعره، تردد اسمه بتأثر، بحنو، بأزلية أمومية، حريصة على احتوائه واختزال مداريهما، فكأنها تريد إعادته إلى رحمها المكنون عند اتحادهما.

المغارات..

هى الآن فى نفس البلد.

وصل الفوج. لم يغلق المطار رغم اشتداد العواصف. هل يعوقها انقطاع الطرق؟. لم تفته نشرة أخبار واحدة. يعرف مصطلحات المرور الآن. هذه سالكة وتلك مغلقة وأخرى يلزم الحذر لاجتيازها.

قبل مغادرته الحجرة للمرة الثالثة خلال ساعتين التفت إلى المقعد المواجه للمرآة.

«لماذا اخترت هذه التوقيت».

تبسط راحتيها. تمط شفتيها. تتخذ ملامحها أوضاعا مغايرة تستمدها من طفولة كامنة، غاربة..

«ترتيب يتعلق بعملى.. لا يد لى فيه».

ينبعث صوتها منه. تتردد لوازمها داخله. تراوغه على البعد إذ يرغب فى الإصغاء إلى نطقها اسمها. عند جلوسه منفردا. يخطه بعناية. مرة بالعربية، يعيد رسمه، بالنسخ، بالثلث، بالخط الديوانى أو النستعليق، ثم يكتبه باللاتينية. كل حرف يورق زهورا، وأغصانا.

لكن.. هل يثق من وصولها؟

ربما جرى ما أعاقها. لا يمكن الاستدلال على اسم معين بين أفراد الفوج، يقتضى ذلك اتصالات عديدة، المؤكد أنهم نزلوا أحد فنادق عمان. ينتظرون تحسن الطقس. الطرق فى العاصمة ذاتها صعبة. بعضها مغلق.

حرص على أن يبدو هادئا. وإن أدرك كل من فى الفندق أنه ينتظر عزيزا عليه، وأنها أنثى. حقا.. وأى أنثى؟ أى حنو يسعى؟ وأى تتويج للحقيقة؟

تكرر خروجه إلى الشوارع المحيطة، لكنه لم يقرب السيق. لن يسعى إلى المدينة القديمة إلا بصحبتها. اعتاد تناول الشاى فى مطعم الاستراحة الحكومية. إطالة النظر إلى المرتفعات المحيطة، الحديث إلى القوم، بدا مدير الاستراحة حزينا، غائبا عن المثول بدرجة ما، قال إن عددا من المصريين يعملون فى المدينة. أحدهم نجا من التجمد بأعجوبة. كان قادما من مكة. نزل فى منطقة «أذرح» تبعد حوالى عشرين كيلو مترا، بدأ المشى قاصدا وادى موسى والرياح باردة تقص الوجود قصا. خاض العاصفة، استمر، تقدم، تعثر، لم ير الثلج فى حياته ومع ذلك عرف كيف يقاومه. لم يكن يرتدى إلا معطفا وجلبابا وسراويل طويلة. بيده حقيبة لم يفارقها. قال إنه من الصعيد، ويعمل مزارعا بحديقة فاكهة.

قال المدير سريع اللهجة، مقتضب العبارة إنه عاش فى النمسا اثنتين وعشرين سنة، فى بلدة قرب الحدود الألمانية..

«عندى هناك طفلان..»

لماذا عاد؟

لماذا فارق زوجته وطفليه؟.

لم يفصح عن فضوله. اكتفى بمتابعة المدير الذى يتكلم. يتكلم بسرعة ثم يكف فجأة، سارحا بعينيه إلى ما يصعب إدراكه. يجىء البعض ويمكثون مددا متفاوتة، ثم ينصرفون بعد إحكام الغطاء أحمر اللون حول الرءوس والأعناق. عندما رآه فى الصور ظنه مجرد زينة.

موظف بمحطة الكهرباء يسكن أعالى البلدة. طباخ كثيف الشارب، سائق من الخليل اضطر إلى الإقامة لانقطاع الطريق. استفسر منه عن الثلوج وتراكمها، عن الأفواج، عن المناخ المتقلب، العنيف هذا العام، هل له علاقة بحرب الخليج وحرائق الكويت؟

«بالتأكيد حدث تغير..»

تابع المناقشة صامتا. من أخطأ؟ العراق أو الكويت؟. قال أحدهم إن الحسابات لم تكن دقيقة.

قال آخر إن ملايين تشردوا، قال ثالث إن الصواريخ التى أطلقت عمل لا يمكن تجاهله. النفطيون كفوا عن المجىء لقضاء الأجازات، شربهم الويسكى، الخمور، أحدهم دهس طفلا عند الطريق المؤدى إلى قلعة الشوبك، عندما جاء والده أخرج مبلغا

كبيرا من المال. لكن الأب وقف صامتا. ذاهلا. ثم أخرج غدارته، أفرغها فى رأس القاتل!

العاطلون. اللاجئون. الفارون. الخيول المنتظرة قدوم السياح فى الفراغ أدخلوها الحظائر، حرام ترك الحيوانات فى الخلاء. ليس من المنتظر قدوم إنسان هذه الليلة أو صباح الغد، فى نشرة السادسة يعلنون ما سيكون عليه الحال غدا. لكن هناك أجانب فى البتراء. يمضون الليل هناك.

«هل هذا طبيعى؟»

قال أحمد المتخصص فى آثار المنطقة إن ذلك يحدث كثيرا. وإن بعضهم يفضل الاقامة فى المغر على الفنادق.

«أى مغر؟»

المغارات.. فى الخارج لا يكف الثلج، بدا الأثرى متعبا، يلف رأسه بغطاء مماثل، ملامحه قوية، بارز الأسنان، قدر أنه تجاوز الثلاثين، وأنهما من الممكن أن يصبحا أصدقاء، قال السائق من المحتمل مجىء بعض الجواسيس.

قال المدير إن هذا ممكن.

قال الأثرى الشاب ان البدول يعودون الآن إلى مغاراتهم، لكل أسرة كهف فى الجبل، بعضه فسيح مريح، اعتادوا العيش هناك، الحكومة أرادت أن تخلى المواقع منهم لحماية الآثار، شيدت لهم بيوتا مريحة، فيها الكهرباء والماء على مقربة، لكنهم

أثاروا مشاكل عديدة، والآن بدأوا يعودون، معظمهم ولد فى الكهوف، اعتادوها، ومنهم من يريد البقاء قرب المكان الذى اختفى فيه ضبعان.

قال إن مثل ذلك جرى فى الأقصر منذ حوالى نصف قرن عندما بنى المهندس فتحى قرية القرنة، صارت مزارا، لكن الأهالى رفضوا الإقامة فى بيوتها، عادوا إلى منازلهم القديمة.

قال إنه قرأ عن تجربة حسن فتحى، وأن ثمة تشابها قويا. كان الحوار حول البتراء والقرنة بداية تعارف كل منهما بالآخر، وفى المساء أطلعه على انتظاره وقلقه، بل سبب مجيئه، أبدى دهشة لأنه لم ير المدينة القديمة.

«كم تبقى لك هنا؟»

«أربعة أيام»

«لاتخسر يوما واحدا، أمض الى المدينة، وعندما تجىء صاحبتك ستطلعها على ماتعرفه.. أنت دليلها.

«المهم أن تصل..»

تطلع الى السماء. قال إن الثلوج ستنزل بكثافة يعرف تلك الغيوم جيدا. ما من شىء مؤكد ما دامت العاصفة مستمرة.

فى السوق..

لابد أن حارس الباب، وموظف الأمن، ومن يرقبه خفية من حيث لا يدرى اعتادوا خروجة اليومى، خطاه السريعة كأنه سيلحق بموعد هام تأخر عنه.

يعرفونه الآن. بل أخبره الأثرى أن بعضهم أشار إلى الفندق أمس من المرتفع:

لا يوجد به إلا المصرى..

ما من مفر. يوم واحد ويشرع فى الرحيل، مجرد فتح الطريق، أى يوم يتجاوز مدته المقررة يعرضه للحرج، اقتنع صباح اليوم بما قاله صاحبه، أن يلقى نظرة، المدينة تستحق، وإذا كان اللقاء لم يتم، فليقص عليها ما جرى، ليصف لها وقته المعزول.

«يمكنك أن تبدأ بعد الإفطار وسألحق بك عند الظهيرة..»

طلب منه أن ينتظره عند المسرح الرومانى، سيصحبه إلى أعلى الدير، ولكن يجب ألا يضيع وقتا، ظروف نادرة يرى فيها البتراء.

يميل الطريق منحدرا. حصى صغير مختلط بالرمال. شظايا أحجار. مداخل الكهوف الممهدة. الصخور المستقيمة الجوانب، خزائن الجن. قبر السلات. الواجهات مطموسة

المعالم. بقايا قنوات المياه القديمة. تابعه الحارس دهشا من داخل الحجرة ذات الجدران من الصفيح المضلع.

يلتفت إلى الوراء. نصحه صاحبه أن يمضى مع السيق. ألا يحيد، ألا يتسلق صخرا مهما بدا درج أو طريق ممهد.

يلتفت إلى الوراء.

لا أحد.

لماذا يشعر أن هناك من يرقبه. يتابعه. صمت جليدى. حتى الرياح كفت تماما. كأنه فى بداية الخليقة. لضيقه خلال أيام انتظارها عجز عن استدعائها. خلال اليومين اللذين أعقبا وصوله لم يكف عن تخيل انفعالاتها، اقتراحاتها المفاجئة الممكنة.

لكن مع انقطاع الطرق، وغموض موقف وصولها إلى عمان، ورنين الهاتف فى بيتها بدون إجابة، دفعه هذا إلى كمد لم يخفف منه إلا صحبته أحمد الاثرى وإن لم ينقطع رجاؤه من مثولها أمامه فجأة، لكم تطلع إلى الهاتف الهامد. ود لو أن رنينا أشعل توقعه. حتى وإن خاب، لكن من سيتصل هنا به؟

ليس بحاجة إلى مراجعة الكتيب الصغير. أمده صاحبه بالكثير. كذلك موظفو الفندق الذين أبدوا اهتماما به. أليس النزيل الوحيد؟

أكد المدير أن التعليمات تقضى باستمرار العمل، اضاءة

كاملة، وموسيقى مستمرة. ومطاعم متأهبة، نظافة فى مواعيدها، حتى وإن لم يكن هناك نزيل واحد.

لابد أن وجوده يمنح الجميع سببا لبقائهم ومداومتهم أعمالهم، بمجرد ظهوره يتسابقون إليه. يسألونه عما إذا كان فى حاجة إلى شىء ما؟

فى اليوم الرابع كانوا مطلعين على مكنونه، كلمة من هنا وكلمة من هناك ألموا بدوافع قدومه، خاصة موظف الاستقبال الشاب الذى استقبله فى اليوم الأول. أبدى تعاطفا، وحكى بعضا مما عنده..

. يتوقف لحظات فوق جسر حديث، أقيم فوق موضع آخر قديم، يحمى السيق من تدفق السيول، بعد أن جرفت المياه ثلاثة عشر.فرنسيا..

«لا.. كان ذلك قبل الجسر. الآن يمكنك دخول السيق فى أمان.. لكن مع التزام الحذر!»

مع كل خطوة يعمق الصمت، سكون أزلى قادم من عصور سحيقة، عند المدخل الطبيعى، بداية السيق، إلى اليمين مقاعد متناثرة ومنضدتان، لافتة تعلن عن شاى وقهوة ومثلجات. لكن.. لا أحد.

لو أنها إلى جواره الآن!

هذا مقهى يقصده العائدون وليس الذاهبون إلى البتراء.

يدعوها إلى الجلوس لحظات.

«طبعا.. لا يمكن المرور أمام مقهى إلا وتجلس إليه حتى لو كان مجرد لافتة».

صباحهما الأول. أول شمس تشرق على توحدهما أزاح الباب المتحرك، أصبحت غرفة النوم والصالة المكنونة مساحة واحدة تنتهى بالنافذة التى تحتل عرض الجدار. أزاح الستائر تماما. أطل على المدينة، ضباب كثيف يغطى قمم البيوت.

«لم يكتمل النهار بعد.. كأنه الفجر»

قالت:

«هل تعلم أن أعتم لحظات الليل تلك التى تسبق الفجر؟»

ليته يستعيد حوارهما معا، أو كلماتها أثناء حركتها فى الحين، ضمها إليه. قال إن مثل هذه اللحظات يسميها العروسان فى مصر «الصباحية»

تردد:

«الـ .. السباهية..»

محاولتها نطق الصاد والحاء تثير مرحه، يقبل شفتيها، تتألق عيناها بحيوية. داخله يدفق نشاطا لم يعهده. أكثر من أربع وعشرين ساعة بدون نوم، عندما اندلع تأججها خشى الحينة. لكن ما بدا منها أثار زهوه. ريها البادى ورضاؤها حتى أنه سعى مرة أخرى يستعيد تعلقها به وتكوكبه بمدارها،

وقبض جسدها لجسده، إحاطتها به وتدرجها كأصابع عازف ماهر أثناء انتقالها على درجات الناى الخشبى!

لم يكن يحتضنها إنما يتعلق بها. لم يكن يدفع بنفسه إنما يتلمس أسباب الحياة، وعندما أغفى بجوارها لم تدهمه تلك الهواجم إذ يبدأ انتقاله من اليقظة إلى النعاس.

ما أشد الشسوع بين استعادته لما كان بينهما عند وصوله، طوال اليوم الأول وحتى الثانى، وبين انبعاث هذه اللحظات الآن وقد دنا وقته من الانقضاء، وصار وصولها أملا عسر التحقق. فى البداية كان يتقد متحفزا متوقعا لما سيكون، أما الآن فكأنه يرثى ما كان.

يستدير ملتفتا. لقد أوغل. منحنى لم يشعر به حجب عنه مقاعد المقهى الخاوى. الأرض تزداد خشونة. فى الصخور نوافذ محفورة لا تطل على شىء. لاتؤدى إلا صوب نفسها. من صخر إلى صخر أصم يتبدل النظر. ما يشبه وجوها آدمية. مجرد خطوط، أفواها مزمومة، رموزا، إشارات إلى ملوك عبروا. لم يتبق منهم إلا تلك الإشارات المستعصية..

تقول وهى تدنو منه:

«عش زمنك»

يجيبها مجادلا:

«ما من حاضر»

تشير إليه بأصبع اكتسبت حدة تميز إشاراته .

«أنت تعيش فى الماضى»

يبتسم هادئا .

«وحتى هذا لا يمكن إدراكه..»

يكاد يصغى إلى لفظها فى هذا الصمت المقبوو، ترتفع الصخور على الجانبين عبر تكوينات متتابعة. تبدو السماء بعيدة. يوغل الآن وحيدا. لا يعرف مكانها الآن؟. هل تقع المفاجأة فيجدها عند عودته إلى الفندق؟

هل تظهر أمامه فجأة عند أحد المنحنيات، أو يلتفت فيراها ساعية إليه؟ وصلت بعد فتح الطريق، بمجرد علمها ذهابه إلى السيق سارعت اللحاق به.

حدثه أحمد الأثرى، فقال إنه عرف العديدات من زائرات البتراء، كل منهن تنتمى إلى جنسية، لكنه لن ينسى أبدا بنية ماليزية، تعمل مضيفة فى شركة أسيوية، جاءت مع زملائها أول مرة، كانوا تسعة.. ثلاثة ذكور وست إناث. صحبهم سبع ساعات، المدة المتاحة لهم، لكنه أيقن أن كلا منهما للآخر.

قال أحمد عن جده الغائب ضبعان إن مسار العلاقة بين الرجل والمرأة يتقرر منذ اللحظة الأولى. وإنه عند تطلعه إلى الوجوه يتأمل وعند ملامح بعينها يرسو ويبدأ.

منذ خمسين سنة جاءت امرأة انجليزية ترتدى قبعة عريضة وقفازا أبيض، أما زوجها فيمسك عصا قصيرة. كان طويلا.

فارها، يتحرك على مهل. جاءا فى زمن لم يكن قادرا على الوصول الى البتراء إلا الأثرياء. أصحاب المراكب العابرة للمسافات، والذين اعتادوا إنفاق جنيهات جورج الخامس الذهبية. كما تنفق الفلوس المعدنية الآن. منذ تلاقى نظراتهما فهم ضبعان.

لم تمكث مع زوجها إلا ليلة واحدة. أمضياها فى خيمة أحضراها معا. لمدة عشر سنوات كان يتلقى منها بطاقات من شتى أنحاء العالم. حتى أيقظوه يوما فى الخامسة صباحا، وعندما قالوا له إن امرأة أجنبية، قصيرة، ترتدى قبعة عريضة، تريده فى الخارج، قام متمهلا، غسل وجهه، وغير ريقه بكوب ملىء بزيت الزيتون المذاب فيه صفار عشر بيضات نيئة، ثم خرج راسخا، كان يثق أنها أتت. لهذا لم تبد عليه أى دهشة، التفت إليها. أو ما مرحبا. لم يضع يده فى يدها. مشى متمهلا وهى تحاول جاهدة اللحاق به، عيناها لم تفارقاه، كانت مشتاقة، وما من شىء فى الدنيا يفوق ملامح امرأة راغبة. نزلا من وادى موسى إلى السيق إلى خزنة فرعون. اتجه إلى اليمين، قبل أن يرتقى الدرج العتيق الصاعد توقف. لم يلتفت. لحقت به. حملها كطفل، اختفيا لمدة أسبوعين لم يسمع إنسان عنهما أى خبر.

ضبعان كان عالما بدروب الجبل، صخوره، مرتفعاته الصخرية، كافة المسارب الخفية، أما حجرة فرعون المعلقة فلا يمكن لمخلوق الوصول إليها عداه هو، مرات ثلاث شاهده

القوم، مطلا منها، يثق الجميع أنه يعرف مواضع كنوز البتراء من فضة وذهب وحلى لا مثيل لها، وأوان فخارية نادرة، لا تقدر بثمن لندرتها وقيمتها، يؤكدون أن ما يظهر من المدينة القديمة مجرد شيء ضئيل جدا. وأن ما يختفي من معابد وشوارع وساحات كثيرة.

قال أحمد إن جده أفضى إليه ببعض من مسارب البتراء وطرقاتها الخفية عبر الجبل. الدروب التي يسلكها الآن عرفها منه، أما ما درسه لسنوات عديدة في كلية الآثار وفي أمريكا خلال بعثته هناك. فقطرة من بحر. وبعض من فيض ضبعان.

لا يعرف إنسان أين غاب مع الإنجليزية، كيف أمضيا مدتهما؟ كيف وفرا طعامهما وزادهما. خاصة أنه اشتهر بنهمه وقدرته حتى سمي بضبعان وغطى لقبه على اسمه الحقيقي. كان يفطر بثلاثين بيضة مضروبة في السمن الذي تفوح رائحته من بعيد. وخمسة لترات من اللبن. ثلاثة طازجة واثنان حامض، وسبعة أرغفة. وحمل برقوق أو كمثرى أو برتقال. فاكهة مقطوفة للتو. لو مضى عليها ثلاث ساعات لا يقربها. زيت الزيتون يعبه عبا بدلا من الماء. في الظهيرة يأتي على خروف كامل. لا يترك حتى الغضاريف، كانت حركة يديه فريدة في تفكيك اللحم من العظم، خاصة الرأس، ويعقبه بطشت من الأرز المطهو بالدهن، في العشاء يكتفي بسخل صغير ومرق كثير وفطائر وصينية كنافة بالجبن.

لم يستطع أحد منافسته فى قدرته على الأكل، أو فحولته التى ذاع أمرها، وعلمه بالجبل وما يخفى، لكن بعد تجاوزه المائة وقع أمر غريب، إذ تردد أن صبيا هولنديا اعتادت أمه أن تصحبه عند مجيئها إلى البتراء فى مهام علمية تفوق عليه، دعاهما ضبعان، كان له معرفة قديمة بالأم، عندما بدأ الغداء فوجىء القوم بالولد يأكل أسرع من ضبعان، استمرا معا حتى توقف والولد لم يكف، التهم لية خروف مسلوقة فى السمن. لم يبد انزعاجا انما ربت كتف الصبى بحنو زائد، وأعطاه أعشابا تنبت فى الشقوق ليتناولها إذا شعر بوهن، أو ألم به ضيق.

ظهر بصبحة الإنجليزية فى السيق. قابلهما واحد من الأدلة القدامى، بدت المرأة متألقة تضوى، تتوثب فرحة وبهجة. كأنها ارتدت صبية لم تمس، والأغرب أنها كانت تتكلم العربية. تفهم ما تسمعه وتجيب. هى التى لم تعرف حرفا واحدا قبل دخولها السيق بصحبته!

قيل إنها عرضت عليه قصرا من ثلاثة طوابق تحيطه حديقة يرمح فيه الخيل، وسفينة، لكنه أبى أن يصحبها، لم يقدم كما فعل البعض عندما تزوجوا بأجنبيات، وما جرى لزوج السويسرية معروف، بقى صامتا، كسيرا بعد عودته، انفرد بحاله عن أهله حتى عافه الناس.

قال أحمد أن الماليزية أمرها مختلف، عادت بعد شهور ستة، أعد كل شىء عند اتصالها به من عمان. صحبها إلى

مغارة قرب الدير، عند ذروة الجبل، مطلة على وادى عربة. عند الشروق وقبل الغروب يمكن رؤية البحر بوله من الافق. مكثا خمسة أيام، لم يفارقا موضعهما إلا للاستحمام فى العين الجارية، فى كل لحظة كان يتذكر جده، بل يتوقع ظهوره فجأة أمامه لينصحه أو ليقص عليه بعضا من تجاربه.

لماذا يشعر الآن بنظرات ضبعان؟، يكاد يوقن أنه ليس بمفرده فى السيق، أربعة عيون موزعة، عينا ضبعان وعينا كلودين، يحاول نفى الخاطر عن ذهنه، كأنه يخشى اجتماعهما فى تداعيات أفكاره؟ أو يلتقيا عبر مخيلته. مع أن ضبعان اختفى تماما ولم يعد يسعى. وهى لم تصل بعد.

يغار عليها؟

نعم..

لكم استفسر خفية وعلانية. إلى أى حد تصل علاقتها بهذا أو ذاك؟. ما مضى لا شأن له به، لكن ماذا عن الحاضر؟ عن الآتى؟

لم تفتها هواجسه. قالت فجأة أثناء تحديقهما إلى النهر:

«لم أرتبط بإنسان أثناء سفرى كما جرى معك»

يتطلع إلى تراكمات الصخور الشاهقة، تتقارب فى الأعالى حتى لا يبدو إلا شق نحيل من السماء، يطبق عليه المكان، لو جاءه مباشرة لظنها الإحاطة الكاملة، لا مخرج، على السفح

الأيمن خط طويل أقتم يبدأ من القمة غير المنظورة. خيوط من الماء. تتساقط القطرات فوق صخرة مستوية، تتشربها الأرض الرملية. ومن الصخر الوعر، تنبت شقائق النعمان والبنفسج وزهور صغيرة لم ير مثلها من قبل، عند نقطة معينة يبدأ جذر نخيل. يطل ثم يمضى صوب مركز الجاذبية ليبدأ ساق شجيرة تنمو بالمقلوب. قال أحمد إن جده كان يتعهدها، يرعاها، سماها «دلدل».

قال ضاحكا إن القوم يعتقدون أنه ما من إنسان يمر بها أو يمكث قربها إلا وتسرى الحرارة عنده، يتقد بالرغبة، من الشقوق النحيلة تنبثق أعشاب شتى. كان ضبعان يقطفها بعناية ويعالج بها المرضى ممن استعصى على الأطباء شفاؤهم.

ضبعان لم يذهب إلى طبيب قط. لم يتناول حبة أسبرين ولم تنغرس فى جسده إبرة حقنة، لم يغسل ثيابه إلا بصابون طبيعى مخلوط بزيت الزيتون. لم يتمدد إلا فوق حرام من صوف الغنم فوق الأرض مباشرة. كان يغزل صوف عباءته بنفسه ويشرف على نسجه فى معمل قريب أغلق منذ عشرين سنة ثم أعيد فتح المكان ليتحول إلى معرض لمشغولات المنطقة التى يطلبها السياح.

لم يرقد ضبعان فوق سرير قط، كان ينام هنا، فى أى مكان بالسيق داخل الجبل، لم يخش الزواحف، كان قادرا على

الإمساك بأشد أنواع الزواحف فتكا، كان العقرب الأسود والعنكبوت الأحمر ذو الوبر الأحمر يجرى فوق ذراعه ويقرصه مرسلا السم الزعاف إلى شرايينه فلا يعبأ، أما الطريشة والحنش الأسود والرقطاء وحية الإسفنج وثعبان الرمل فلا يقتربون منه. تتوقف سائر الهوام على بعد خطوتين بشريتين.

حدث أثناء صعوده المرتفع الصخرى المشرف على خزنة فرعون أن قفزت تجاهه أفعى رقطاء كانت تلبد بين أغصان شجرة شيح. لدغت رقبته، تراجع مرافقوه فزعين، لكن سرعان ما تعاظمت دهشتهم وهم يرونه واقفا، راسخا، متطلعا إلى الأفعى التى راحت تتلوى بين قدميه وكأن مسا أصابها. بقدميه العاريتين سحقها.

لم يمش فوق هذه الأرض الصعبة مرتديا حذاء قط. قدماه ضرب بهما المثل فى ضخامتهما. مع مشيه فوق الصخر، فى الحر والبرد، تقدد جلده، أصبح طبقة قاتمة. لو داس جمرا مشتعلا لما بدا على ملامحه جزع.

قيل فى استعصائه على السموم إن أمه التى توفت بعد بلوغها التسعين أرضعته مقادير معينة من سموم الأفاعى مع حليبها، وأنها حرقت عقربا. وضعت رماده على ثديها قبل أن تلقمه حلمتها.

قيل إنه يضع حجابا مثلثا تحت إبطه يقيه كافة أنواع الحشرات الضارة. وحجاب تحت الأيمن يمنع الرصاص

والشظايا من اختـراق جسـده. عندمـا شـارك فى الحـرب ضـد الأتراك أثار رعـبا. كـان يتقـدم واقـفـا والرصـاص يرتد عنه. والشظايا تحيد عنه.

قال أحمد إن جده كان يتسلق ذرى الجبال، جبل الدير، جبل المذبح. جبل هارون، كان يبدو للناظرين فوق أعلى نقطة من جبل خبثة، لم يبلغها أحد بعده. فى ذروة العاصفة الثلجية يتجرد تماما من ثيابه، يدلك جسده بالثلج قبل بلوغ ندفه سطح اليابسة، عادة أتقنها من امرأة روسية أقامت بالناحية منذ سبعين عاما، كانت هاربة من الثورة، لم تمكث طويلا، لكنه يذكرها دائما وكأنه عرفها بالأمس.

أما عن قدرته وفحولته فتروى حكايات عديدة وأقاويل بلا حصر عن تمكنه وصبره على النساء وفهمه كلا منهن، أما عضوه فلا مثيل له. حتى أنه إذا نام على ظهره وانفط يظن الناظر من بعيد أنه عامود متين أو نصب غامض ظهر فى الفراغ فجأة، لم تتحدث امرأته عن حياتها معه. حتى لأقرب صديقاتها اللواتى اعتدت أن يفضفضن ويتناولن أدق شئونهن. لكن بعضهن يؤكدن أنه كان يترفق بها، ويتكىء على راحتيه رافعا نفسه عن الأرض حتى لا يفقأ رحمها. أما هؤلاء النسوة الأجنبيات فلا يعرف أحد كيف احتملنه، لكن ما من أنثى عرفته الا وتعلقت به، حاولت العودة إليه ولو كانت فى آخر العالم. كثيرات أنجبن منه أطفالا. يتوزعون الآن فى أقطار الدنيا. هذا

الولد الهولندى الذى تفوق عليه فى الأكل لابد أنه من صلبه.

بعد اختفائه جاء رجل فى الستين، عيناه ضيقتان، وجنتاه عريضتان، خليط من ملامح عربية وأخرى يابانية أو صينية. سأل عن أبيه ضبعان.

فى عام آخر شاب من فارس. وقف عند مدخل السيق وقرأ قصيدة بالفارسية ينادى فيها أباه أن يظهر، ثم بكى ومضى. وثالث لسانه عربى مبين من المغرب. ورابع من جزيرة بورتريكو. وخامس من جزيرة تقع عند آخر حد العمار قبل بلوغ القطب الجنوبى، وسادس من تشاد، وسابع. وتاسع.. لا يمر شهر إلا ويفد رجل أو امرأة، شيخ أو شاب، يسألون عنه. وفى عيونهم شوق، وحيرة، وسؤال.

كانوا يتوقفون أمام السيق، تماما كما توقف ضبعان بعض الوقت. قبل أن يلجه متمهلا، هكذا يعبرونه، من نقطة معينة داخلة لا يعرفها أحد بدأ تسلقه الصخر، انتهى إلى حجرة فرعون كما يؤكد البدول سكان الكهوف.

كانوا يتوقفون فى مواجهة المقبرة، المعبد، يتطلعون إلى الحجرة المحفورة فى بروز من الصخر الوعر، يتطلعون صامتين، أو يذرفون دمعا، بعضهم ينادى، تعارف عدد منهم، تردد فى الوادى أنهم سيفدون فى يوم معين يوافق غيابه، كل منهم أخبر عن هاتف قوى أتاه فى المنام، ناداه بلغة من منشأ وأقام بينهم ودعاه للمجىء إلى البتراء. هؤلاء من استطاعوا

القدوم، أما الذين لم يتمكنوا فلا يدرى أحد عددهم بالضبط، أو جهاتهم.

يكاد يسمع نبر صوتها الهادئ عندما سألته بعد أيام ثلاثة من تصريحها برغبتها:

«لماذا كتمت انزعاجك عندما أخبرتك برغبتى فى إنجاب طفل منك؟»

يفاجأ، إذن.. من طباعها اثارة الموضوعات الحرجة فى أوقات غير متوقعة. وبهدوء لا يوحى بخطورة ما تتناوله. فى مواجهتها لم يكن قادرا على تمويه مشاعره. قال إنه يفكر منذ تصريحها، وإنه مضطرب، أومأت:

«أعرف . إننى أشعر بك..»

قال إن ذلك بالنسبة له غريب، لم يتزوج لظروف شتى، لم تمض حياته فى مسارها الطبيعى. تعايش مع الأمر. خاصة مع تقدمه وطيه السنين طيا. أو احتواء الوقت له، لا يدرى أيهما يفنى الآخر؟

تبدو له فكرة إنجابه طفلا بدون زواج غريبة، كيف يسعى بعيدا عنه؟

قالت إن مجيئه ليس مشكلة بالنسبة لها، فى بلادها ما يعنيهم مجىء الطفل، وليس مهما كيف جاء؟

لمس معصمها، قال:

«ولكنها مشكلة بالنسبة لي.. مشكلة هنا»

قالت إنها تدعوه، ما عليه إلا أن يشد رحاله ويستقر معها، نظر إليها صامتا، حرجا، يتحاشى وقوع المبارزات الكلامية.

تعرض عليه الإقامة، الانتقال وهى التى تسافر دائما. لماذا لا تجيء هى عنده، إلى موطنه؟.

لا يمكنه أن يخلع نفسه هكذا بسهولة. أن يحيد بأيامه وقد مضى معظمها. هى لا تقدر وهو لا يمكنه. مع أن ظروف كل منهما متشابهة فى دائرة الموطن والإقامة. يوم جرى حوار مع صاحب له.

قال صديقه إن الإنسان بعد رحيله يتحول إلى تراب، وإنه لا يطيق أقداما أجنبية تطؤه عندما يصبح جزءا من الأرض. إذا كان الأمر حتمى فقومه أفضل. لهذا رفض الهجرة.

لم يصرح لها بذلك، ما يشده أمور تتعلق بأيامه وما سيتلوها من عدم، عندما تشاغل بالنظر إلى طيور بيضاء ذات مناقير خضراء تحط فوق النهر، قالت:

«نوع نادر لا يجيء إلا فى هذا الوقت..»

ثم قالت:

«لا تقلق .. لن أنجبه إلا إذا اقتنعت..»

ضحكت.

ض إلا شتاء.

كان يوم مفارقته بيته فى وادى موسى إلى مغارته مشهودا، بعده يبدأ نزوح القوم من قبيلة النوافلة، لكل كهفه، يتوارثه أبا عن جد، يدخلون إلى بطن الجبل، هذا عرف قديم.

حدث أحمد فقال إن امرأة إسترالية، تتقن العربية وتتردد على البتراء لدراسة نقوشها وفك رموزها تسلقت الدروب العتيقة، لكنها حادت فى سعيها. وصلت الى صخرة معلقة يصعب الوصول إليها، صرخت. . تطلع إليها القوم من الوادى.

كيف وصلت الى هذا الموضع الذى لم يظهر عنده إنس ولا حيوان؟

جاء ضبعان. ضرب كفا بكف عندما رآها.

«متى بدأ صعودها؟»

قالوا إنها اختفت منذ الأمس. ولا يدرى أحد كيف وصلت هناك؟، قال إن هذه الصخرة التى يراها الجميع قريبة أبعد مما يتصور أى إنسان، إنه فى حاجة إلى أربع عشرة ساعة ليصل إليها. ربما لن تقدر على المكث. لو أغمضت عينيها ستسقط، موضع لا يتسع إلا لشخص، لكنه سيبدأ قاصدا الصخرة الأعلى، يصلها بعد ساعتين. من هناك يدلى بحبل متين إليها، تتعلق به فيرفعها.

طلب ضبعان منهم أن يصرخوا، أن ينادوها باستمرار حتى

لا تغفو، لو نال منها الإعياء وغفت فهلاكها مبين. لمدة ساعتين لم يكف الرجال والنساء.. حتى الأطفال، قرعوا الطبول، والأوانى النحاسية، لا يمكن نسيان ذلك. بعد ساعتين بالضبط، تماما كما أخبر، ظهر فى ضوء القمر، عند النقطة التى حددها، كان باستطاعة الجميع رؤيته رغم شحوب النور وكثافة الظلال. بدا أطول وأعرض، زعق عليها، ناداها بلسانها. ألقى حبلا مجدولا، متينا. تعلقت به، بيد واحدة راح يرفعها بدون أن ينحنى، كان تجاوز المائة وقتئذ.

لماذا يلح عليه ضبعان؟

لماذا يخيل إليه أنه متطلع صوبه؟

هل يعرف أبناءه الموزعين فى شتى أنحاء الدنيا؟. هل حن إلى رؤية أحدهم؟. هل ينزل من مخبئه المجهول ليظهر أمامه فجأة، يقولون إنه ظل محتفظا ببهائه القديم، لم يعرف الشيب طريقه إلى شعرة واحدة من رأسه، لم تره أنثى إلا رغبته، كان القوم يخشون على بناتهم ونسائهم منه، رغم علمهم أنه لا يمكن أن يرفع النظر إلى واحدة منهن، لكن النفس راغبة، طامعة، بعد غيابه شددوا عليهن خشية أن يتبعه بعضهن، يؤكد معظمهم أنه مقيم فى حجرة فرعون. وأن الأهالى يصغون إلى تردد أنفاسه وتقلبه فى الوقت.

للهواء صفير غريب عند هذا المنحنى الضيق. يكاد شطرا الجبل أن يتماسا عند قمتهما. حذره صاحبه من انهيارات

مفاجئة. وحوش يمكن أن تظهر فجأة. حدث أحمد فقال إن صيادا عاش منذ خمسة وسبعين سنة. كان مشهورا بقنص الغزال والكباش البرية. فى أحد الأيام انحنى يذبح أحدها، فجأة.. ظهر حيوان أمامه. يشبه النمر لكنه ليس نمرا. تمالك أعصابه.

اقتطع جزءا من الشاة رماه إليه. ما تبقى وضعه فى جوال حمله مبتعدا بخطى ثابتة غير هياب، فيما بعد. فى كل مرة يصعد إلى الجبل. أو ينزل إلى الوادى، لحظة ذبحه الفريسة يفاجأ بالحيوان أمامه، ينتظر نصيبه، لم يخلف مرة قط، استمر ذلك سنوات، حتى طلع نهار لم يستيقظ فيه. لحظة دفنه فوجئ القوم. صراخ يتردد فى الجبال. فزعوا، رأوا الحيوان فوق أعلى نقطة من السيق. كان مشرفا على حفرة القبر من عل، وفى عوائه مس آدمى غريب، نصحهم ضبعان ألا يتصدوا له، لمدة أربعين يوما لم ينقطع نواحه، وقرب الفجر ينزل ليجثو عند القبر، يتحول صراخه إلى عويل غامض، يخشع لسماعه الكافة!

قال أحمد:

«لا تحد عن السيق، لا تعرج هنا أو هناك مهما لاح لك من إغراء..»

لو ظهر ضبعان الآن، لو وقع ما يتمناه ولا ينتظره ورآها مقبلة من الناحية الأخرى. أو من خلفه سيتقدم صوبها، ستنتظر

إلى عينيه، يثق أنها ستفهم. ما رغبته يمكنه تحقيقه الآن، فى هذه الثنايا متسع للخلوة، لم يفت الوقت بعد. سيقيمان هنا حتى يقع التأكد من زرع البذرة وبث النواة.

تتنوع ألوان الصخور، اللون الوردى غالب، عبثا حاول أن يعرف معنى كلمة السيق. قال أحمد، وقال الآخرون إنه شق بين جبلين. رحم كونى، طبيعى، رحم الأرض التى لا يمكن الإحاطة بأطرافها، تتردد فيه أصداء الطقوس القديمة، وآلام القرابين، والأغانى التى تمايل القوم لسماعها يوما، وقدوم الرسل. وخروج السفارات إلى ممالك الدنيا.

ترق الصخور، يختلط اللون الوردى بأطياف زرقاء. يصبح لمرآها ملمس الحرير.

يتوقف بغتة..

بقدر ما روعته المفاجأة. بقدر ماأدركه ذلك الوهن الغامض، الغريب، واليقين أن ثمة من يرقبه، وأنه يتأهب للمسه، لكن لا يمكنه النظر إلى الوراء. لم يكن باستطاعته النظر إلا صوب الأمام.

انفراجة الصخور الضيقة. الشق يبلغ منتهاه. مهبل أرضى. يسده الفعل البشرى. واجهة وردية من حجر قديم. مستوية.

يصله صخب ضوئها القوى، الهادئ، انبثاقها عجيب، محسوب.

من الظلمة إلى النور أم من العتمة إلى الضوء؟، لم ينتقل من موضع إلى آخر، إنما من وقت إلى وقت، من حال إلى حال، لا يمت ما يراه إلى أى صورة اطلع عليها أو قرأ عنها، يحجب الحضور الوردى المتصل بالسيق كافة ما عداه، يتوقف، بينما يبدأ عنده ما يشبه الطفو إلى أعلى، إلى فراغ غامض يحده السيق الممتد..

مارس ١٩٩٢

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب